الألف كتاب الثاني
١٨١

ألفين توفلر

تحول السلطة

الجزء الأول

ترجمة: لبنى الريدي

الهيئة المصرية العامة للكتاب

تحوّل السلطة

الألف كتاب الثاني

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

لمعي المطيعي

مدير التحرير

أحمد صليحة

الإشراف الفني

محمد قطب

الإخراج الفني

محسنة عطية

تحوّل السّلطة

المعرفة والثروة والعنف على أعتاب القرن الحادى والعشرين

تأليف

ألفين توفلر

ترجمة

لبنى الريدى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٥

هذه هى الترجمة العربية الكاملة لكتـــاب :

POWER SHIFT

للـكاتب الأمريـكى الفين تـوفلر

الفهـــــرس

الموضوع	الصفحة

مقدمة

كتاب « تحول السلطة » هو تتويج لجهد استهدف ، خلال خمسة وعشرين عاما ، اكتشاف معنى للتغيرات ذات الاتساع المدهش التى يعلن بها القرن الواحد والعشرون عن وصوله • وهذا الكتاب هو الجزء الثالث والأخير من ثلاثية بدأت بكتاب « صدمة المستقبل » تلاه كتاب « الموجة الثالثة » ثم هذا الكتاب •

ويمكن قراءة كل كتاب من الثلاثية منفردا وان كانت تكون كلا متماسكا فكريا ، موضوعه المركزى هو التغيير ، بمعنى ما يحدث للبشر عندما يتحول مجتمعهم فجأة الى حقيقة جديدة وغير متوقعة • وكتاب « تحول السلطة » يدفع التحليلات الى مدى أبعد • والمنظور الأساسى فى هذا الكتاب هو اقامة نظام جديد للسلطة ، وهذا النظام فى طريقه ليحل محل نظام الماضى الصناعى •

عندما تذكر وسائل الاعلام التحولات والتبدلات المتسارعة للحقبة التى نعيش فيها ، فانها تنقل لنا أجزاء صغيرة من المعلومات دون أى رابط بينها ، فى حين يرهقنا الخبراء بدراسات وافية شديدة التخصص ويخرج علينا أصحاب النبوءات الشعبيون باتجاهات متباينة ، دون تقديم نموذج عام يحقق لها الترابط أو رؤية ما هى القوى الأخرى التى قد تجسد اتجاه التطور المفترض • وبالتالى ينتهى التغيير ذاته بأن يظهر وكأنه عملية فوضوية ، بل وعبثية تماما •

أما هذه الثلاثية فهى على النقيض تعتمد على فرضية أن التغيرات السريعة ، التى يشهدها العالم حاليا ، ليست فوضوية أو مشوشة ولا تحدث بالصدفة كما يحاول البعض اقناعنا بذلك • فوراء الأحداث التى ترد فى العناوين الرئيسية لوسائل الاعلام توجد هياكل قابلة للتمييز وقوى يمكن تحديد هويتها وهى التى تحدد شكل هذه الهياكل • وبمجرد أن نفهم

لعبة هذه الهياكل والقوى يصبح من الممكن أن نتبنى فى مواجهتها استراتيجية شاملة ، بدلا من ردود الفعل العشوائية والفردية التى لا رابط بينها ٠

ولكن اذا كنا نريد اعطاء معنى للتحولات الكبرى الحالية وتصورها من منظور استراتيجى ، فعلينا ألا نكتفى بأشتات من المعلومات أو قوائم أحداث غير منظمة ، بل يجب أن نفهم كيف تترابط التغيرات المختلفة ٠ وهذا الكتاب ، مثله فى ذلك مثل الكتابين السابقين ، يحاول اقتراح تركيبة واضحة وشاملة ــ صورة كلية للحضارة الجديدة التى تمد وجودها على الكرة الأرضية كلها ٠

إذن فهو يركز التحليل على الجوانب البارزة فى عالم الغد ، وعلى النزاعات التى نواجهها اليوم حيث تهاجم القوى الجديدة القلاع القديمة ، يريد كتاب « تحول السلطة » أن يبين أن تذبذب السيطرة على الاقتصاد ونتيجة التنافس على الاستحواذ على المؤسسات الإنتاجية وعمليات اعادة الهيكلة ، لا تمثل سوى أولى طلقات النار فى معارك الأعمال التى ستتسع وتتخذ أشكالا جديدة ٠ والأهم من ذلك أن الكتاب يؤكد على أن التحولات الأخيرة فى أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتى ليست سوى مناوشات بسيطة ، بالمقارنة بالصراعات المطلقة من أجل السلطة التى تنتظرنا ٠ وبالمثل ، فان المنافسة التى تخلق مواجهة بين الولايات المتحدة وأوروبا واليابان لم تبلغ بعد أوج شدتها ٠

باختصار ، فان موضوع كتاب « تحول السلطة » هو الصراع المحموم على امتلاك السلطة ، فى الوقت الذى تفقد فيه الحضارة الصناعية تفوقها العالمي وتطمح قوى جديدة حاليا الى السيطرة على الكرة الأرضية ٠

بالنسبة لى يمثل كتاب « تحول السلطة » قمة تم الوصول اليها بعد رحلة مثيرة ٠ ولكن قبل أن أسترسل يجب أن أؤدى واجبا شخصيا ٠ هذه الرحلة لم أقم بها وحدى ٠ منذ بدايتها وحتى ختامها كان لهذه الثلاثية مؤلف مشارك أساسى وان آثر أن يبقى فى الظل ٠ بالرغم من أننى اضطلعت بالتحرير وتلقيت التأييد وتحملت النقد باسمى وحدى ، فان هذا العمل ثمرة جهد مشترك لعقلين وتفكيرين وليس لعقلى وتفكيرى فحسب ٠

ان مؤلفى المشارك ، كما يعلم الكثيرون ، هى صديقتى المفضلة ، زوجتى وشريكتى وحبي منذ أربعين عاما : هيدى توفلر ، التى لولا ذكاؤها

النقدي وبصيرتها الفكرية وحسها المرهف للمتطلبات التحريرية وسداد أحكامها ، سواء بالنسبة للأفكار أو الأشخاص ، كما سلم هذا العمل من كثير من المثالب ، انها لم تشارك فقط في الصقل النهائى للعمل ولكن أيضا فى صياغة النماذج التحتية التى يعتمد عليها العمل ككل ٠

حتى وان كانت مشاركتها تختلف فى شدتها وحجمها طبقا للأوقات المختلفة نظرا لالتزاماتهـــا الأخرى ، يبقى أن هذه الكتب الثلاثة تطلبت أبحاثا ورحلات ومئات اللقاءات فى العالم أجمع ، وتنظيما متناهى الدقة وعملا تحريريا تتم مراجعته بشكل مستمر ، ليواكب الأحداث والتغيرات المتلاحقة ، ولقد ساهمت هيدى بشكل كبير في جميع هذه المراحل ٠

غير أنه لأسباب شخصية وأخرى اجتماعية واقتصــادية ــ تبــدلت وتغيرت خلال العقدين الأخيرين ــ اتخذنا القرار بأن تنشر كل الأعمــال تحت اسم الكاتب النهائى ٠

وترفض هيدى ، الآن أيضا ، أن يظهر اسمها على غلاف أى من هذه الكتب ، وهى تفعل ذلك بدافع من النزاهة والتواضــع والحب ، وهى أسباب تبدو لها ــ وليس لى ــ كافية ٠ ولا أســتطيع علاج هذه الثغرة الا بأن أسجل هذه الكلمات فى هذه المقدمة الشخصية ، ولكن من وجهة نظرى هذه الثلاثية تخصها مثلما تخصني ٠

واذا أخذنا الكتب الثلاثة فى اجمالها فانها تستكشف فترة توازى عمر انسان ، فترة بدأت لنقل في منتصف الخمسينات وانتهت بعد ذلك بحوالى ٧٥ عاما أى فى عام ٢٠٢٥ ، مدى زمنى يمكن تعريفه على أنه من أكبر المنعطفات التاريخية ، وعلى أنه الفترة التى فى ختامهــا ستحل حضارة أخرى محل الحضارة الصناعية التى سيطرت على كوكب الأرض قرونا طويلة ، حضارة جديدة ومختلفة اختلافا جذريا وذلك بعد سلسلة من الصراعات على السلطة ستزعزع العالم الذى نعرفه ٠

ولئن كانت الكتب الثلاثة تتناول السنوات نفسها ، فانها تحاول أن تذهب الى أبعد من سطح الأشياء مستخدمة فى كل كتاب منظورا خاصا ٠ وقد يكون مفيدا للقــارىء أن يتمكن من وضعها فى اطــار هذه الآفاق المتنوعة ٠

ويهتم كتاب « صدمة المستقبل » مثــلا بعملية التغيير وبالطريقة التى يؤثر بهــا على البشر والمنظمــات ، أما كتاب « الموجــة الثالثة » فهو

يهتم بـ « الاتجاهات » التى تجرنا اليها التغيرات الحالية ، فى حين يعالج كتاب « تحول السلطة » « السيطرة » على التغيرات القادمة ـ حيث القضية هى معرفة من الذى سيستخدم هذه التغيرات وكيف ٠

وفي كتاب « صدمة المستقبل » ، عرفنا « الصدمة » بأنها الاضطراب والتوتر اللذان يعانى منهما كل الذين يحاولون مواجهة تغيرات جد عديدة في زمن جد قصير ، الأمر الذى يؤكد أن تسارع مجرى التاريخ له عواقبه الجوهرية ، وذلك بمعزل عن الاتجاه الذى تتخذه التغيرات ، سواء أكانت هذه التغيرات حسنة أم سيئة ، فالسرعة المتزايدة للأحداث وتسارع ردود الفعل عليها لهما تأثيرات خاصة ٠

وفى الوقت نفسه يؤكد الكتاب أن الأشخاص والمنظمات ، وحتى الأمم ، يمكن أن تنحنى تحت ثقل تغيير مفرط الضخامة يحدث قبل أوانه حتى يفقدوا التوجه الصحيح ويصبحوا غير قادرين على الرد بقرارات ذكية ٠ باختصار يعانون من « صدمة المستقبل » ٠

وعلى نقيض الرأى السائد فى تلك الفترة ، تنبأ كتاب « صدمة المستقبل » بأن سرعان ما « ستتفتت » الأسرة النواة ، كما أعلن ثورة علم الوراثة وظهور مجتمع المنتجات التى تستخدم مرة واحدة وترمى فى القمامة بعد ذلك ، والتحول الكبير فى مجال التعليم والذى بدأ أخيرا تحت أعيننا ٠

نشر الكتاب فى عام ١٩٧٠ فى الولايات المتحدة وبعد ذلك فى باقى أنحاء العالم ، ولمس الكتاب أوتارا حساسة وأصبح بشكل غير متوقع من أكثر الكتب مبيعا على المستوى الدولى وأثار وابلا من التعليقات ٠ وطبقا لمعهد المعلومات العلمية أضحى هذا الكتاب أحد أكثر الأعمال التي يستشهد بها فى مجال العلوم الاجتماعية ٠ ودخل تعبير « صدمة المستقبل » فى لغة الحياة اليومية ، وغدا واردا فى عدد من القواميس وكثيرا ما يظهر فى عناوين وسائل الاعلام ٠

كان لكتاب «الموجة الثالثة» الذى تلاه فى عام ١٩٨٠ هدف مختلف ، فقد كان يصف أحدث الثورات التكنولوجية والاجتماعية ويعيد وضعها فى منظور تاريخى ويستشرف المستقبل الذى يمكن أن تتمخض عنه ٠

وقد وصف الثورة الزراعية التى حدثت منذ عشرات الآلاف من السنين بأنها « الموجة الأولى » للتحول الأساسى فى تاريخ البشرية ،

وأطلق على الثورة الصناعية اصطلاح « الموجة الثانية » ، ثم وصف الكتاب الاضطرابات الاقتصادية والاجتماعية الكبرى التى ظهرت ابتداء من منتصف الخمسينيات بأنها « الموجة الثالثة » الكبرى للتطور البشرى ــ ميلاد الحضارة بعد الصناعية الجديدة ٠

وأشار هذا الكتاب الثانى ، ضمن أشياء أخرى ، الى أنشطة آتية ستعتمد أساسا على الحاسب الآلى والالكترونيات بشكل عام وتقنيات المعلومات والبيوتكنولوجى وأشياء أخرى تم تعريفها على أنها « المواقع الجديدة المسيطرة » للاقتصاد ، وتنبأ كتاب « الموجة الثالثة » مثلا بالانتاج المرن وأسواق الطوائف وانتشار العمل لنصف الوقت وتحول وسائل الاعلام من التوجه العام للجماهير الى استهداف جماهير خاصة ٠ كما درس الكتاب التفاعل الجديد تماما بين المنتج والمستهلك وابتكر كلمات جديدة مشتقة من الاستهلاك والانتاج معا واسم فاعل مشتق من المستهلك والمنتج ، وطرح مسألة العودة جزئيا الى العمل من المنزل بالاضافة الى تعديلات أخرى للمواقف السياسية وممارسات الدول القومية ٠

لقد منع الكتاب من دخول بعض البلدان ، وأصبح من أكثر الكتب مبيعا فى بلدان أخرى ، وكان يعد لفترة من الزمن « انجيلا » لمفكرى الاصلاح فى الصين ٠ وفى أول الأمر اتهم الكتاب بأنه ينشر « التلوث الفكرى » الغربى ، ولكنهم بعد خطاب دينج زياو بنج مباشرة سمحوا بنشره وطبع بأعداد ضخمة وأصبح أكثر الأعمال المقروءة فى البلد الذى يضم أكبر كثافة سكانية فى العالم ٠ ونظم زاو زيانج ، رئيس وزراء الصين فى ذلك الوقت ، اجتماعات بصدده ونصح أصحاب القرار فى النظام الصينى بقراءته بعناية ٠

وفى بولندا ، ولأسباب يمكن فهمها ، نشر فى طبعة مختصرة ، غير ان الطلاب المتعاطفين مع منظمة «تضامن» المعارضة ، فى ذلك الوقت ، ساءهم هذا الابتسار فطبعوا نسخة « سرية » ، وفى الوقت نفسه كان آخرون يوزعون الفصول الناقصة فى شكل كتيبات ٠ وأثار كتاب «الموجة الثالثة»، مثله فى ذلك مثل كتاب «صدمة المستقبل» من جانب القراء ، كل أنواع ردود الفعل التى ذهبت الى حد خلق منتجات جديدة وشركات وسيمفونيات وحتى أعمال نحت ٠

والآن بعد عشرين عاما من صدور « صدمة المستقبل » وعشر سنوات من صدور « الموجة الثالثة » ٠ انتهى أخيرا كتاب « تحول

السلطة » ، ويستأنف هذا الكتاب المشكلات حيث تركهـا الكتابان السابقان ، فهو يستهدف بشكل خاص التغيرات الحاسمة التي ترتسم في العلاقة بين المعرفة والسلطة ، ويقترح نظرية جديدة للسلطة الاجتماعية ويأخذ على عاتقه استكشاف التحولات والتغيرات الجارية في عالم الأعمال والاقتصاد بشكل عام والسياسة والعلاقات الدولية ٠

ولا داعي لأن نقول بأن المستقبل ليس « قابلا للمعرفة » عن طريق التنبؤ السليم ، فالحياة تضـج بالمفاجآت التي تتخطى الواقـع ، ويتضح في كثير من الأحيان أن النماذج والمعطيات التي ترجع ظاهريا الى العلوم الأكثر « صلابة » ، تعتمد على مسلمات « لينة » ، خاصة عندما يتعلق الأمر « بالعلوم الانسانية » ٠ والأسوأ من ذلك ، أن موضوع الكتب الثلاثة هو تسارع التغيير ، ومن ثم فسرعان ما يتجاوز الزمن تفاصيل الأحداث ٠ كما يتضح أيضا أن الاحصائيات عرضة للتعديلات ، والتقنيات الجديدة تحل محل القديمة ، والقـادة السياسيون يسقطون ويظهـر آخرون ٠ غير أنه فى كل الأحوال يظل هذا الاستكشاف لأرض المستقبل القريب المجهولة مفيدا لرسم خريطة له ، وهى وان كانت غير واضحة وغير مكتملة وعرضة دائما لمراجعات ، لكنها أفضل من لا شيء ٠

وبينما الأعمال الثلاثة بنيت طبقا لمخططات مختلفـة ، وان كانت متواصلة فيما بينها ، فان لها سمة مشتركة ألا وهى الاعتماد على توثيق وعلى أبحاث وتحقيقات فى مجالات متباينة ومن عدد كبير من البلدان ؛ ولاعداد هذا الكتاب قمنا بدراسة ممارسة السلطة فى قمة المجتمع وفى قاعه أيضا ٠

وبالتالى أتيحت لنا فرصة اللقاء على مدى عدة ساعات بميخائيل جورباتشوف ورونالد ريجان وجورج بوش والعديد من رؤساء الحكومات اليابانية وعدد آخر من الشخصيات التي يعتبر أغلبهـا من بين اقوى الشخصيات العالمية ٠

وفى الطرف الآخر من السلم الاجتماعى ، ذهبنا ، هيدى أو أنا ، أو معا لرؤية أزقة « احـدى المدن الفقيرة » فى أمريكا الجنوبية وسـيدات محكوم عليهن بالسجن مدى الحياة ـ أى مجمـوعتين مصنفتين بالنسـبة لجميع سكان الأرض على أنهما من بين الأكثر تجردا من السلطة ٠

وتحدثنا أيضا عن مشكلة السلطة مع رجال المصارف ومع مناضلين نقابيين وكبار رجال الأعمال وخبراء فى المعلوماتيـة وجنرالات وعلمـاء

حاصلين على جائزة نوبل وأقطاب بترول وصحافيين وقادة عدد كبير من أكبر الشركات العالمية ٠

كما التقينا مع مساعدى أكبر المسئولين فى البيت الأبيض بواشنطن وقصر الاليزيه بباريس وفى مكاتب رئيس الوزراء فى طوكيو ، وحتى فى موسكو فى مكاتب اللجنة المركزية للحزب الشيوعى ٠

وفى هذا اللقاء الأخير كان المتحدث معنا هو أناتولى لوكيانوف الذى سرعان ما أصبح « الرجل الثانى » بعد جورباتشوف ، ولكن اللقاء لم يستكمل نظرا لاستدعاء طارىء لاجتماع للمكتب السياسى ٠

فى أحد تلك الأيام ، وفى مدينة صغيرة من مدن ولاية كاليفورنيا وجدتنى فى غرفة مكدسة بالكتب ، تضيئها أشعة الشمس ٠ ولو كان قد تم اقتيادى معصوب العينين الى تلك الغرفة لما أمكننى بكل تأكيد أن أخمن أن السيدة الشابة الذكية ، التى استقبلتنى من الناحية الأخرى من منضدة المكتبة المصنوعة من خشب الزان الجيد ، والتى كانت ترتدى الجينز وتى شرت ، قاتلة ، ولا أنها أدينت لتواطئها فى جريمة جنسية شديدة البشاعة ، ولا أننا فى سجن ، وهو المكان الذى تبدو فيه أوضح ما يكون حقائق السلطة بكل تجردها ٠ هذه السيدة هى التى أفهمتنى انه حتى المسجونون ليسوا بلا سلطة ، اذ يستطيع بعضهم استخدام المعلومات من أجل امتلاك السلطة بمهارة لاتقل عن المهارة التى كان يمكن أن يبديها ريشيليو بين حاشية الملك لويس الثالث عشر ـ تماثل يغذى علاقة مباشرة مع الموضوع الأساسى لهذا الكتاب ٠ دفعتنا هذه التجربة ، أنا وزوجتى ، الى ادارة ندوات كان أغلب المشاركين فيها قتلة ـ وقد تعلمنا من هؤلاء القتلة الكثير ٠

هذه العلاقات الشخصية ، بالاضافة الى القراءات والتحليلات الشاملة لوثائق ومستندات مكتوبة واردة من جميع أنحاء العالم ، جعلت من اعداد كتاب « تحول السلطة » فترة لاتنسى من حياتنا ٠

ونأمل أن يجد قراؤنا فى « تحول السلطة » معارف نافعة وممتعة ومصادر تفكير وتأمل مثل الذى وجدوه ـ على حد علمنا ـ فى كل من « صدمة المستقبل » و « الموجة الثالثة » ٠ ان عملية التركيب والتوليف الشاملة التى بدأت منذ حوالى ربع قرن قد اكتملت الآن ٠

آلفين توفلر

الباب الأول:

المعنى الجديد للسلطة

« السلطة فى فوهة البندقية »

ماوتسى تونج

« النقود تتكلم »

مجهـــول

« المعرفة هى فى ذاتها سلطة »

فرنسيس بيكون

الفصل الأول

عصر السـلطات الجـديدة

موضوع هذا الكتاب هو السـلطة عند مشارف القرن الحادى والعشرين · فهو يتناول العنف والثروة والمعرفة ، والدور الذى يلعبه ثلاثتهم فى حياتنا ، والدروب الجديدة للسلطة التى يفتحها عالم فى حالة ثورة ·

بالرغم من الرائحة الكريهـة التى تنبعث من اسـم السلطة نظـرا لاستخداماتها ، فان السلطة فى حد ذاتها ليست جيدة ولا سيئة ، هى جانب لا مفر منه لكل علاقة انسانية ، فهى تمارس تأثيرا مهما على علاقاتنا الجنسية كما تؤثر على مواقعنا المهنية وعلى السيارات التى نقودها وعلى برامج التليفزيون التى نشاهدها وعلى الآمال التى نحاول تحقيقها · نحن نواتج السلطة بشكل أعمق بكثير مما يتصور أغلبنا ·

بيد أن السلطة تبقى واحدا من أقل جوانب حياتنا حظا من الفهم وان كان أكثرها أهمية ، لاسـيما بالنسبة لجيلنا ، لأننا على فجر عصر السلطات الجديدة · ففى هذه اللحظـة يتفكك أمـام أعيننـا كل هيكل السلطة الذى كان يحافظ على درجة من الوحدة العالميـة ويتشكل الآن هيكل للسلطة مختلف تماما على كل مستويات المجتمع الانسانى ·

فى المكتب كما فى السوبرماركت ، فى البنك وفى أجنحة الفنادق وفى الكنائس والمستشفيات والمدارس والمنازل تتجزأ نمـاذج السلطة القديمة وتنقسم طبقا لخطوط غريبـة وغير متوقعة · فالاضطرابات فى الجـامعات التى انتشرت من بركيلي الى روما وتايبيه تظـل غير بعيدة عن نقطة الانفجار كما تتعدد النزاعات العرقية والعنصرية ·

وفى عالم الأعمال ، نرى شركات عملاقة يتم تقطيعها ثم اعادة بنائها مرة أخرى ويتم استبعاد كوادرها العليا عند الحاجة مع آلاف من العاملين بها . أما الذى يشغل منصبا من مناصب الادارة العليا فيمكن تخفيف سقوطه من القمة بواسطة « مظلة هبوط ذهبية » أى هدية وداع تتضمن نقودا سائلة وايرادات مقبلة . غير أن ذلك لايقلل من كونه فقد ملحقات سلطته ألا وهى : تذاكر الطيران والسيارة الليموزين الخاصة بالوظيفة والمناقشات فى ملاعب الجولف بالاضافة الى المتعة الخفية التى يجدها الكثيرون فى مجرد ممارسة السلطة .

الانتقال لايتم فقط عند قمم النشاط المهنى . فكل من المدير فى مكتبه ومهندس الانتاج يكتشفان أن العمال لايطيعون طاعة عمياء ، مثلما كانت تفعل الأغلبية من قبل فهم يطرحون الأسئلة ويطالبون باجابات . وفى الجيش يستشعر الضباط سلوكا مماثلا من جانب الجنود وفى الشرطة يشعر الرؤساء بذلك من جانب المخبرين وفى التعليم يتزايد الاحساس بهذا السلوك لدى المدرسين من جانب التلاميذ .

ويتسارع أفول السلطة من النوع التقليدى فى الحياة الاقتصادية واليومية فى الوقت الذى تتفكك فيه هياكل السلطة العالمية هى أيضا .

منذ نهاية الحرب العالمية لم تكف القوتان العظيمان عن أن تثقلا على الأرض بوزنهما العملاق ولكل منهما حلفاؤهما ودولهما التابعة التى تدور فى فلكيهما وجماعات التأييد الصاخبة . كانت هاتان القوتان تتوازنان ، صاروخ مقابل صاروخ ودبابة مقابل دبابة وجاسوس مقابل جاسوس . الآن ، لم يعد لهذا التكافؤ وجود بالطبع .

وبالتالى ، ينفتح فى النظام العالمى « ثقوب سوداء » ـ فراغات شاسعة ، كما فى أوروبا الشرقية مثلا ، مفتوحة لسلطة جديدة ، يمكن أن تؤدى بالشعوب والأمم الى تحالفات أو صراعات جديدة قد تعيد أو تكرر صراعات قديمة . فى الشرق الأوسط أيضا ، ترك الانكماش المفاجىء للقوة السوفيتية أحد هذه الفراغات ، الذى سارع عميلها السابق العراقى الى محاولة ملئه بغزوه للكويت ، محدثا بذلك أول أزمة ذات اتساع عالمى منذ نهاية الحرب الباردة .

انتقال السلطة يتم بايقاع متسارع جعل الأحداث هى التى تدفع زعماء العالم بدلا من أن يتحكموا هم فيها ، وهناك ما يدعو الى الاعتقاد أنه خلال السنوات القادمة ستكتسب القوى التى تزعزع البشرية حاليا مزيدا من العنف ومن الأهمية .

ومثل الضغط المتبادل بطبقات القشرة الأرضـــية المكونة للقارات عشية هزة أرضية ، فان اعادة الهيكلة المكثفة للعلاقات ستؤدى الى نتائج نادرا جـــدا ما تحدث فى التاريخ ، ألا وهى انقلاب فى الطبيعة العميقة للسلطـة ·

ان وصول سلطة جديدة ليس فقط نقلا للسلطة وانما أيضا تحولها وتغيرها كلية وتماما ·

نهاية الامبراطوريات :

فى عـــام ١٩٨٩ ، أصيب العـــالم كله بذهول للتفكك المفاجىء للامبراطورية ، التى يبلغ عمرها نصف قرن ، والتى نتجت عن السيطرة السوفيتية على أوروبا الشرقية ، بينما الاتحاد السوفيتى ذاته انطلق فى مرحلة تحول شبه فوضوية ، فهو يحتـــاج لانعاش اقتصـــاده الصنـــاعى العتيق بالتحول الى استخدام التكنولوجيا الغربية · وبشكل أبطأ وأقـل اثارة عرفت القوة العظمى العالمية الأخرى تدهورا نسبيا ، مثل الولايات المتحدة التى قيل الكثير عن تدهور نفوذها العالمى بحيث يصبح غير ذى جدوى تكرار نفس الموضوع هنا · وان كان الأمر الأكثر تأثيرا هو أن عمليـات انتقال السلطة تمت على حساب مؤسساتها الوطنية الكبرى التى كانت من قبل مسيطرة ·

فقبل عشرين عاما ، كانت جنرال موتورز تعد الشركة الصناعية الأولى فى العالم ، وكانت تعتبر نموذجا مبهرا بالنسبة لرؤساء الشركات فى كل بلدان العالم ، وفى واشنطن كانت مصدرا قويا للنفوذ السياسى · أما اليوم فانها « تلهث من أجل البقاء » على حد قول أحد كبار المسئولين فيها · وقد نرى فى السنوات القادمة الانهيار النهائى لجنرال موتورز · كذلك لم تكن شركة آى · بى · ام · تواجه منذ عشرين عاما منافســـة تذكر ، وكانت الولايات المتحدة تملك بمفردها من الحاسبات الآلية عددا يتجاوز كل مالدى باقى العالم · أما الآن ، فلقد انتشرت القوة المعلوماتية انتشارا واسعا وسريعا ، وانكمش النصيب الأمريكى من هذه الســـوق وأخذت آى · بى · ام تواجه منافسة ضارية من قبل الشركات اليابانية من أمثـال ان · اى · سى وهيتاشى وفوجى تسو ، و « بل » فى فرنســا وآى · سى · ال فى بريطانيا وآخرين · ويناقش المحللون المتخصصون حاليا عصر ما بعد آى · بى · ام ·

لكن الأمر لايتوقف فقط على المنافســـة الأجنبية ، فقبـل عشرين عاما كانت ثلاث شبكات تليفزيونية هى ايه · بى · سى · وسى · بى · اس وان · بى · سى تسـيطر على الارشـال التليفزيونى الأمريكى ، حيث

لم تتعرض لأية منافسة أجنبية • غير أن جمهور هذه الشبكات انكمش لدرجة أن بقاءها أصبح أمرا مشكوكا فيه •

ولنأخذ مثالا في مجال مختلف تماما ، قبل عشرين عاما كان الأطباء الأمريكيون آلهة في قمصان بيضاء • وكقاعدة عامة ، كان المرضى يتلقون حكمهم كما لو كان الأمر يتعلق بلوح الوصايا العشر • وكانوا يسيطرون عمليا على مجمل النظام الصحي وكان تأثيرهم السياسي ضخما •

أما اليوم ، أصبح هؤلاء الأطباء في وضع المحاصرين اذ تجرأ المرضى على مناقشتهم وباتوا يقاضونهم اذا ما ارتكبوا أخطاء مهنية • كما تطالب الممرضات بالاحترام والاعتراف بمسئولياتهن وأصبحت شركات الأدوية تظهر قدرا أقل من الاحترام ، وغدت السيطرة على النظام الصحي بين أيدي شركات التأمين و « تجمعات الرعاية » والدولة •

اجمالا ، شهدت بعض أقوى المؤسسات أو المهن في أكثر الأمم قوة انحسارا لسيطرتها وهيمنتها ، وبالتوازي وخلال نفس السنوات العشرين كانت القوة العالمية للولايات المتحدة تتناقص بالنسبة للأمم الأخرى •

واذا كانت هناك محاولة لارجاع هذه الهزات العميقة واعادة توزيع السلطة الى تدهور الحالة الصحية للقوى العظمى التي بدأت الشيخوخة تزحف عليها ، يكفي النظر الى موضع آخر لادراك أن هذا التفسير ليس صحيحا •

فبينما كان الاقتصاد الأمريكي يفقد بعض بريقه كان الاقتصاد الياباني يرتفع بسرعة ، غير أن النجاح يمكن أن يحدد هو أيضا عمليات انتقال مهمة للسلطة • وكما هو الحال في الولايات المتحدة ، فان الصناعات اليابانية الضخمة المنتمية الى الموجة الثانية والتي في طريقها لأن تصبح عتيقة الطراز تتآكل نسبيا أمام انطلاق صناعات الموجة الثالثة • ولكن بالرغم من تزايد وزن البلاد الاقتصادي ، فان المؤسسات الثلاث ، التي ساهمت أكثر من غيرها في ازدهار الاقتصاد الياباني ، شهدت تقلصا سريعا في سلطاتها • المؤسسة الأولى هي الحزب الليبرالي الديمقراطي الذي تولى السلطة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، والمؤسسة الثانية هي وزارة التجارة الدولية والصناعية « الميتي » والتي يمكن اعتبارها العقل المحرك « للمعجزة الاقتصادية » اليابانية ، أما المؤسسة الثالثة فهي « الكيدانرين » أي اتحاد أرباب العمل وهو الأكثر تأثيرا في النظام السياسي •

حاليا ، الحزب الليبرالي الديمقراطي في حالة تراجع بعد أن شاخ قادته وتورطوا في عدة فضائح مالية أو جنسية • ولأول مرة يتعين عليه

مواجهة ناخبات ساخطات وفي حالة نشاط متزايد بالاضافة الى غضب المستهلكين ودافعي الضرائب والمزارعين الذين كانـــوا من قبل يدعمون الحزب • واذا كان هذا الحزب يريد الحفاظ على السلطـــة التي يتولاها منذ عام ١٩٥٥ ، فانه يتعين عليه من الآن فصاعدا تغيير قاعدته الانتخابية بايجـاد مساندة حضرية واسـعة لتعويض انهيـار شعبيته فى الريف ، ومخاطبة فئات أكثر تنوعا عن ذى قبل ، لأن المجتمع اليابانى ، مثله فى ذلكمثل مجتمعات كل الدول ذات التكنولوجيا المتقدمة ، فى طريقه الى ان يصبح مجتمعا لا جماعيا ، فالكثير من العوامل الجديدة تظهر على الساحة السياسية • ومن غير المؤكد أن يعرف هذا الحزب كيف يجرى مثل هذا التعديل على المدى الطويل ، لكن الأمر الذى لا شك فيه هو أن جزءا كبيرا من سلطته قد أفلت منه بالفعل •

أما بالنسبة للميتى ، وزارة الصناعة والتجارة الدولية باليابان ، فالعديد من الأكاديميين والساسة الأمريكيين يواصلون الضغط على الولايات المتحدة لكى تحتذى نظامه فى التخطيط ، بينما أصبح الميتى الآن فى اليابان ذاتها فى وضع حرج • لقد كانت كبرى الشركات اليابانية تنصاع الى موظفى هذه الوزارة وتتبع تعليماتها فى العادة طوعا أو كرها • ولكن هذه الشركات ذاتها تشعر حاليا بقوتها وتســخر من الميتى الذى أخذت سلطته بالتالى فى الاضمحلال السريع • بالطبع تظل اليابان قوية اقتصاديا فى الاطار العالمى ، غير أن قوة قواعدها الداخلية ضعفت ، وأصبح وزنها الضخم يعتمد على قاعدة سياسة مزعزعة تماما •

وأكثر وضـوحا أيضـا تدهور سلطة الكيدانرين ، الذى يتحكم فيه دائما كبار بارونات الصناعات القديمـة وهى صناعات فى حالة تقهقر والتدهور بشكل متزايد •

أما بنك اليابان ووزارة المالية اللذان كانا من قبل الآمـر الناهى المطلق السلطة فى الأمور الضرائبية ، واللذان استطاعا أن يقودا البلاد خلال مرحلة النمو المتسارع والصدمتين البترولتين وانهيار البورصة وارتفاع قيمة الين ، فيجدان الآن نفسيهما عاجزين أمام قوى السوق العاتية التى تهدد استقرار الاقتصاد •

وفى أوروبا الغربية تغير الموقف تغيرا واضـحا نتيجـة للتحول فى مجريات السلطة ، فكلما تفوق الاقتصاد الألمانى على اقتصـادات الدول الأخرى ، ابتعدت السلطة عن لندن وباريس وروما ، والآن مع اتحـاد شطرى ألمانيا عاودت باقى أوروبا المخاوف من الهيمنة الألمانية •

ولحماية نفسها من ذلك ، تسعى فرنسا ودول أوروبية أخرى ـ عدا بريطانيا حتى الآن ـ الى الاسراع بتحقيق الوحدة السياسية والاقتصادية للجماعة الأوروبية ، غير أنهم كلما نجحوا فى ذلك انتقلت سلطاتهم الوطنية الى المنظمات الأوروبية في بروكسل وهي المنظمات التى جردتهم تدريجيا من أجزاء متزايدة الأهمية من سيادتهم • وبذلك تجد هذه الدول نفسها بين فكى الرحى ، بون وبرلين من ناحية ، وبروكسل من الأخرى ، فى هذه الحالة أيضا تنتقل السلطة بسرعة من مراكزها التقليدية نحو أماكن جديدة •

يمكن تكرار الأمثلة الى مالا نهاية تقريبا سواء داخل الأمم أو على الصعيد الدولى • ومن المسلم به ، أنه فى كل الحقب يحدث بشكل طبيعى جدا بعض عمليات انتقال للسلطة ، غير أنه من النادر تماما رؤية « نظام » سلطة على امتداد العالم يتفكك بهذا الشكل ، ومن الأندر أيضا تلك اللحظات من التاريخ التى شهدت كل قواعد لعبة السلطة تنقلب رأسا على عقب فجاة وحيث تغيرت بالتالى طبيعة السلطة ذاتها جذريا •

الا أن ذلك هو بالضبط ما يحدث أمام أعيننا •

ان السلطة التى تحددنا وتميزنا بشكل كبير كأفراد وكأمم ، هى ذاتها فى طريقها الى شكل جديد •

الاله ذو القميص الأبيض :

ان فحصا أكثر دقة لمختلف التغيرات التى ذكرت آنفا والتى لايبدو للوهلة الأولى أن هناك أى ارتباط بينها ، قد يلقى ببعض الضوء • لأن هذا الفحص الذى يتجاوز ظواهر الأشياء يساعد على اكتشاف أن حدوث هذه التغيرات فى وقت واحد ليس صدفة • فثمة رابط يجمع بين الصعود الصاروخى لليابان ، والصعوبات الخطيرة التى تواجه جنرال موتورز وضياع حظوة الأطباء الأمريكيين •

ولنأخذ على سبيل المثال ، ضياع سلطة الأطباء •

ففى عصر سيطرتهم الذهبى ، كان الأطباء يحافظون بغيرة على أسرارهم • كانت وصفاتهم الطبية مكتوبة باللغة اللاتينية ، أى بنوع من الشفرة التى يصعب حلها على المرضى • وكانت قراءة المجلات الطبية والنصوص المتخصصة الأخرى قاصرة على محترفى الطب ، ولم تكن تتاح

للأشخاص العاديين ، أى من خارج المهنة ، فرصـــة حضور الاجتماعات المهنية ، وكانت مناهج الدراسات الطبية وشروط الالتحاق متروكة لتقدير الأطبــاء .

الآن تغير كل شيء فقد أصبح بامكان المرضى الحصول على المعلومات بسهولة تكاد تكون مذهلة شريطة امتلاك جهـــاز ميكروكمبيوتر ووحدة ربط ، اذ يستطيع أى شخص دون أن يترك مقعـده أن يحصـل على أية معلومة وعلى نصوص متخصصــة عن كل الموضوعات ، ابتـداء من مرض أديسون الى « داء الفطر الملتحم » . بل ويمكنه تجميع كم من المعلومات عن عدوى أو مرض أو علاج معين أكثر من التى يسمح وقت الطبيب العادى له بقراءتها .

من ناحية أخرى يستطيع أى شخص ودون صعوبة الحصـــول على مرجـــع طبى مهـــم مثـــل « دليـــل الطبيب » (*) الذى يقـع فى ٢٣٥٤ صفحة ، كمـا تقـدم شبكة التليفزيون الكابلية « لايف تايم » برنامجا أسبوعيا مدته ١٢ ساعة متصلة ، ذا مستوى فني وتقني عال موجها بشكل خاص الى الأطباء . وكثيرا ما يتم خلال هذا البرنامج التنبيه الى « أن جزءا من الموضوعات التى يتم تناولها قد لا يتناسب مع جمهور غير متخصص » ، غير أن هذا الجمهور ذاته هو الذى يقرر .

ومن ناحية أخرى ، لاتخلو نشرة أخبـــار من قضية أو موضـــوع ذى طابع طبى . ومســاء كل خميس تعرض ثلاثمـائة محطة تليفزيونية مقتطفات من مجلة نقابة الأطباء الأمريكية فى صورة برامج سمعية مرئية . وتروى الصحافة عن دعاوى يرفعها المرضى أو أهلهم لخطأ مهنى . وتتولى كتب زهيدة الثمن تعريف الجمهور العريض بالآثار الجانبيــة للأدوية وبالعقاقير التي لاتتفق مع بعضها البعض وتقدم له النظام الغذائى الذى يؤدى الى خفض نسبة الكولسترول . وزد على ذلك ، أن نتائج الانجازات الطبية الكبرى وان كانت تنشر أولا فى المجـــلات والدوريات المهنيــة المتخصصة فانها تذاع فى برامج التليفزيون المسائية قبل أن تصل نسخة المجلة الى بعض الأطباء المشتركين فى مثل هذه الدوريات .

باختصار ، فقدت المهنة بالكامل احتكارها للمعرفة ، ولم يعد الطبيب الها كما كان ، ان زوال النفوذ ، ليس سوى مثال بسيط وضعيف لعملية تعديل جذرى أوسع نطـــاقا لعلاقة المعـــرفة بالسلطة فى الدول ذات التكنولوجيا المتقدمة .

(*) Physician desk reference.

وفي العديد من المجالات الأخرى أيضا ، أخذت المعارف والمعلومات التى كان يحتفظ بها المتخصصون بعناية قصوى تفلت من تحت سيطرتهم وتصبح فى متناول المواطنين العاديين · وبالمثل يحصل الموظفون فى قلب الشركات الكبيرة على حق الوصول الى المعلومات التي كانت فى السابق حكرا على الادارة · ان اعادة توزيع المعرفة تؤدى الى اعادة توزيع السلطة التى تنبنى عليها ·

الاصطدام بالمستقبل :

غير أن التغيرات فى المعرفة والتحولات الضخمة فى نظام السلطة التى تنجم عنها ، أو على الأقل تساهم فيهـا ، تمتد الى مجالات أكثر اتساعا بكثير · ويمكن اعتبار أهم ابتكار فى عصرنا هو ميلاد نظام جديد لخلق الثروة لايعتمد على العضلات وانما على الذكاء · لم يعد العمل فى الاقتصاد المتقدم يرتكز على احداث تأثير على الأشياء كما يقول المؤرخ مارك بوستر من جامعة كاليفورنيا « وانما يرتكز على تأثير رجال ونساء على رجال ونساء آخرين [···] أو تأثير الناس على المعلومات وتأثير المعلومات عليهم » ·

ان استبدال الجهد العضلى بالمعلومات أو بالمعرفة هو السبب الحقيقى لكل من انطلاق اليابان والصعوبات التى تواجه جنرال موتورز : ذلك لأنه فيما كانت جنرال موتورز تعتقد دائما أن الأرض مسطحة كانت اليابان تستطلع هوامشها البعيدة وتكتشف أن الأرض مختلفة تماما ·

فمنذ عام ١٩٧٠ كان قادة الاقتصاد الأمريكى يصرون على أن استقرار عالمهم ، عالم المصانع القديمة ، مضمون فى حين كان نظراؤهم اليابانيون والجمهور العريض قد وضعوا اليابان فى منظور القرن الواحد والعشرين ، بفضل سيل منهمر من الكتب والمقالات والبرامج التليفزيونية التى بشرت ببزوغ « عصر المعلومات » · وبينما كانت فكرة انتهاء اعتماد الاقتصاد على الصناعة لاتثير فى الولايات المتحدة سوى احساس باللامبالاة وعدم الاكتراث ، استقبل اليابانيون من أصحاب القرار فى عالم الأعمال وكذلك فى الأوساط السياسية ووسائل الاعلام هذه الفكرة بحماس والتحموا بها · وانتهوا الى أن المعرفة هى مفتاح النمو الاقتصادى فى القرن الواحد والعشرين ·

ومن ثم فلا عجب أن تصبح اليابان أول من عرف كيف يحل تكنولوجيات « الموجة الثالثة » المبنية على المعرفة محل تكنولوجيات « الموجة

الثانية » والنظام البالى للقوة بالرغم من أن اليابان أدخلت الحاسب الآلى بعد الولايات المتحدة ٠

وانتشر فى اليابان استعمال أجهزة الروبوت وبدأت طرق التصنيع المتطورة المعتمدة ، بشكل كبير ، على الحاسبات الآلية ونظم المعلومات تنتج مصنوعات ذات نوعية يصعب مضاهاتها فى الأسواق العالمية ٠ وبالاضافة الى ذلك فان اليابان ، وبادراك مسبق أن تكنولوجيتها القديمة المعتمدة على المصانع محكوم عليها بالفناء ، اتخذت التدابير لتسهيل عملية الانتقال والتخفيف من الصدمات التى كانت ستحدثها بالضرورة الاستراتيجية الجديدة التى تبنتها ٠ ان التباين مع اختيارات جنرال موتورز ـ وبشكل أعم مع الموقف الأمريكى ـ لا يمكن أن يكون أكثر وضوحا ٠

واذا فحصنا من قرب عددا من حالات انتقال السلطة التى سبق أن ذكرناها ، يتضح أن الدور الجديد للمعرفة ـ أى ظهور النظام الجديد لخلق الثروة ـ أدى فى هذه الحالات أيضا الى تغيرات فى توزيع السلطات أو على الأقل ساهم فيها ٠

وفى الحقيقة ، أن ظهور اقتصاد المعرفة كان اشارة بدء سباق محموم بين النظم الاقتصادية المتقدمة ، وكشف عن تداعى أنظمة الدول الاشتراكية وأجبر العديد من « الدول النامية » على طرح استراتيجيتها الاقتصادية التقليدية جانبا ، وهو الآن يقلب رأسا على عقب علاقات القوى فى الدوائر الخاصة والعامة على حد سواء ٠

لقد تنبأ ونستون تشرشل بهذا التحول عندما قال : « ان امبراطوريات المستقبل هى امبراطوريات ذهنية » ، وتحققت هذه النبوءة الآن ٠ وان كان لم يتم قياس الى أى مدى سيؤدى الدور الجديد « للعقل » الى تبديل الحقائق الأولية الصرفة للسلطة من الآن ولعدة عقود قادمة ـ وذلك على صعيد الحياة الخاصة كما على صعيد الدول الكبرى ٠

تآكل ثروات الأسر العريقة :

لا يمكن لنظام ثورى لخلق الثروة أن يفرض نفسه دون أن يسبب صراعات ومنازعات شخصية وسياسية ودولية ، فكل تغيير فى طرق انتاج الثروة يصطدم مباشرة بمجموع المصالح القائمة التى تدين بسلطتها الى نظام الاثراء القديم ٠ ويناضل كل معسكر من أجل السيطرة على المستقبل مما يؤدى الى نشوب عداوات عنيفة ٠

وتمتد المعركة لتشمل العالم أجمع وهى تساهم فى تفسير اعادة توزيع السلطة الحالية · ولكى نتوقع ما يخبئه لنا المستقبل ، فان عودة قصيرة الى آخر نزاع شامل من نفس النوع قد تكون مفيدة ·

قبل ثلاثة قرون أحدثت الثورة الصناعية هى أيضـا نظاما جديدا لخلق الثروة · ففى الحقول المزروعة فى ذلك الوقت هددت المداخن العالية السماء : فقد تكاثرت المصانع وجلبت « مصانع ابليس السوداء » تلك معها طريقة حياة جديدة تمـاما ــ وجاء فى الوقت نفســه بنظام جديد للسلطة ·

لقد تحول آلاف الفلاحين الى عمال يعيشون فى المدن يعملون فى خدمة أصحاب عمل خاص أو عام ، وذلك بعد أن تحرروا من شبه العبودية فى الحقول والمزارع ·· وقد أدى هذا التحول الى تحول آخر فى علاقات السلطة على صعيد المنزل·فمن قبل كان عدة أجيال يعيشون تحت سقف واحد تحت سلطة رب عائلة مبجل ذى لحية طويلة ، ولكن سرعان ما وجد الشيوخ أنفسهم مطرودين أو على الأقل فقدوا هيبتهم أو تأثيرهم فى الأسر الجديدة ذات الحجم الصغير ، وشهدت المؤسسة الأسرية سلطتها الاجتماعية تنكمش كلما انتقل عدد من وظائفها الى مؤسسات أخرى مثل اسناد وظيفة التعليم الى المدرسة ·

وفى كل مكان تضاعفت فيه مداخن المصانع كان يتبع ذلك عاجلا أم آجلا تحولات سياسية · فقد انهارت النظم الملكية أو تحولت الى نوع من أقطاب الجذب السياحية · وتأكدت وتعززت أشكال سياسية جديدة ·

ومن بين ملاك الأراضى الذين كانوا يسيطرون حتى ذلك الوقت على الحياة الاقليمية كان هناك من اتسموا بالذكاء الكافى والنظرة المستقبلية ، فذهبوا ليستقروا فى المدن حيث استفادوا من المد الصاعد للتصنيع ، وحيث أصبح أبناؤهم اما سماسرة أوراق مالية أو قادة صناعيين · غير أن أغلبية الأرستقراطية الريفية التى تمســكت بطريقة حيــاتها فى الريف سرعان ما فقدت مكانتها وأصــبحت طبقة صغيرة من النبلاء المفلسين ، وحولت أحيــانا قصــورها الى متــاحف ومرابطها وروضاتها الى حدائق حيــوان مربحة ·

وفى مواجهة سلطة هذه الطبقة المنحسرة ارتفعت صفوة جديدة : أقطاب الشركات الكبرى ، البيروقراطيون فى الادارة العليا ، وأقطاب وسائل الاعلام · ولقد صاحب انتشار الانتاج بالجملة والتعليم العــام ووسائل

الاتصـال الجماهيرية انتشـار ديمقراطية الجماهير فى البلدان التى لم تسيطر عليها نظم ديكتاتورية تدعى انها ديمقراطية ٠

واقترنت هذه الانقلابات الداخلية بتحولات ضخمة للسلطة العالمية ، لأن البلدان الصناعية استعمرت وغزت وسيطرت بطرق أخرى على جزء كبير من باقى العالم وخلقت بذلك تسلسلا هرميا للسلطة لا يزال قائمـا فى بعض الأماكن ٠

باختصار ، زعزع ظهور نظام جديد لانتاج الثروة كل أعمدة نظام السلطة القديم ، وأدى فى نهـاية المطاف الى تبدل كامل للحياة الأسرية وعالم الأعمال والسياسة والدولة ـ الأمة وهيكل السلطة ذاته برمته ٠

والذين تصارعوا حينئذ ، من أجل السيطرة على المستقبل ، استخدموا العنف والمال والمعرفة ٠ اننا نشاهد الآن بدايات انقلاب مماثل وان كان أشد تسارعا بكثير ، فالتغيرات التى لاحظناها مؤخرا فى عالم الأعمال والحياة السياسية والنظام العالمى ليست سوى مقدمة لمعـارك من أجل السلطة ذات اتساع أكبر بكثير ، لأننا على أعتاب تحول للسلطة لم يسبق له مثيل فى التاريخ ٠

الفصـــل الثـانى

القوة المادية والمال والذكاء

سماء زرقاء صافية لازوردية · وفى الافق جبال ، وو قع حوافر لجواد يقترب وعلى صهوته فارس وحيد يلمع مهمازه فى ضوء الشمس ·

كل من انبهر ، وهو طفل ، فى القاعات المظلمة بأفلام رعاة البقر يعلم أن السلطة تنبثق من فوهة المسدس ذى الطلقات الست · لقد قدمت لنا هوليوود من خلال عدد لا حصر له من أفلام رعاة البقر البطل ، راعى البقر ، الوحيد القادم من المجهول والذى يبدأ مبارزة بالأسلحة النارية مع الشرير ، يعيد بعدها سلاحه الى غمده ، وينطلق على حصانه نحو البعيد الذى يغلفه الغموض · وهكذا تعلمنا منذ الطفولة أن العنف يعطى السلطة ·

كما كان فى العديد من هذه الأفلام شخصية ثانوية ، يبدو صاحبها سمينا حسن الهندام ، يجلس وراء مكتب خشبى ضخم · وتقدمه الأفلام عادة فى صـورة رجل مسن ومنهك وجشع · هذا الرجل يمارس هو أيضا سـلطة · فهو يمول السكك الحـديدية أو هو من مربى الماشية الذين يستولون على الأراضى أو قوى الشر الأخرى · واذا كان البطل على الحصان يمثل سلطة العنف فان هذا الرجل ـ الذى غالبا ما يظهر فى شخصية صاحب المصرف ـ يرمز الى سلطة المال ·

وكانت أفلام الغرب تضـم أيضـا دورا ثالثا مهما هو دور صحفى يتسم بروح الفروسية ، أو مدرس أو راعى كنيسـة أو سـيدة متعلمة « قادمة من الشرق » · وفى عالم شرس حيث يطلق البعض النار قبل طرح الأسئلة ، كانت هذه الشخصيات لا تجسد فقط الخير فى مواجهة الشر ولكن أيضا سلطة الثقافة والمعرفة العقلانية بالعالم الخارجى · واذا كانت هذه

الشخصيات كثيرا ما تنتصر في النهاية ، فان ذلك كان يحدث عادة بفضل تحالف مع البطل ذى المسدس أو بفضل ضربة حظ مفاجئة تجعلها تكتشف الذهب فى النهر أو تستفيد من ميراث غير متوقع ·

ان المعرفة سلطة ، كما علمنا فرنسيس بيكون ، ولكن لكي تنتصر فى فيلم من أفلام الغرب كان يتعين على المعرفة ان تتحالف عادة مع القوة أو المال ·

في الحياة اليومية لا يمثل المال والثقافة والعنف المصادر الوحيدة للسلطة ، كما أن السلطة في حد ذاتها ليست طيبة ولا سيئة · انها بعد موجود عمليا في كل العلاقات الانسانية ، وهو في الحقيقة المكمل المقابل للرغبة ، وطالما أن الرغبات الانسانية ذات تنوع لا نهائى فانه من المفترض أن كل ما يمكن أن يشبع رغبة الغير هو مصدر سلطة : موزع المخدرات يستطيع أن يرفض اعطاء المدمن الجرعة ، وهو بذلك يكتسب سلطة على المدمن · واذا احتاج رجل سياسى الى أصوات انتخابية فان من لديهم هذه الأصوات يملكون سلطة عليه ·

ومن بين الامكانات اللانهائية يتضح أن مصادر السلطة الثلاثة ـ العنف والمال والمعرفة ـ التى ترمز اليها شخصيات أفلام الغرب هى أهمها بالرغم من كل شيء · غير أنها قد تتخذ فى لعبة السلطة أشكالا مختلفة · العنف على سبيل المثال لا يتعين بالضرورة أن يتحقق : يكفى التهديد به فى كثير من الأحيان للحصول على الطاعة ، ويمكن لتهديد ما أن يتخفى أيضا وراء القانون ذاته (فى هذه الصفحات نستخدم تعبير « عنف » بالمعنى المجازي أكثر منه بالمعنى الحرفي ، بمعنى يتضمن القوة في ذاتها وكذلك استخدامها لأهداف القمع المادي) ·

فى الواقع ليست أفلام رعاة البقر الحديثة وحدها هى التى تقدم العنف والثروة والمعرفة على أنها القوى الأساسية للسلطة الاجتماعية ، فان الأساطير القديمة قامت بذلك من زمن بعيد · وهكذا تذكر الأسطورة اليابانية الـ «سانشو نو جينجي» أى الأشياء الثلاثة المقدسة المقدمة الى ربة الشمس الكبرى « اماتراسوا ـ اومى ـ كامى » وهى السيف والجوهرة والمرآة ، ولا تزال هذه الأشياء تمثل حتى الآن رموز السلطة الامبراطورية ·

ان مدلولات السلطة التى يوحى بها السيف والجوهرة واضحة بما يكفى · أما بالنسبة للمرآة فان علاقتها بالسلطة أقل وضوحا ، ولكن عندما ترى فيها الربة وجهها ـ بمعنى آخر تتعرف على نفسها بشكل أفضل ـ فان المرآة تكون هى أيضا صورة من صور السلطة ورمزا

لربانيتها ، ومع ذلك يمكن اعتبار المرآة معبرة عن الخيال وادراك الذات وأخيرا المعرفة ٠

واذا ذهبنا الى أبعد من ذلك فان السيف أو القوة المادية والجوهرة أو المال ، والمرآة أو المعرفة تتحد فى نظام وحيد متفاعل ، أى أن كلا منهم يؤثر فى الآخر ٠ ويمكن فى ظل هذا النظام أن يتحول كل واحد من عناصره تحت ظروف معينة الى العنصر الآخر ٠ يمكن بواسطة مسدس الحصول على المال أو اجبار الضحية على افشاء الأسرار ٠ ومن ناحية أخرى يمكن شراء المعلومات بالمال ــ أو شراء مسدس ٠ كما يمكن استخدام المعلومات للحصول على مزيد من المال أو لمضاعفة القوة التى تتمتع بها ٠

بالاضافة الى ما سبق ، فان الوسائل الثلاث يمكن استخدامها على جميع مستويات الوجود الاجتماعى تقريبا ، من الدائرة الأسرية الحميمة الى الحلبة السياسية ٠

وفى النظام الخاص ، يستطيع كل من الأب أو الأم صفع الطفل (أى استخدام القوة) أو حرمانه من المصروف ، أو بالعكس ، شراءه مقابل بضعة قروش (استخدام الثروة فى اتجاه أو آخر) ، كما يمكنهما أيضا تكوين حسه بالقيم لدرجة أن « يكون راغبا » فى الطاعة وهى بالطبع طريقة أكثر فاعلية ٠

أما فى النظام السياسى ، فتستطيع حكومة ما أن تعتقل منشقا عليها وتعذبه اذا اقتضى الأمر ، أو معاقبة معارضيها ماديا أو مكافأة أنصارها ومعالجة حقائق الأحداث بشكل كفيل باثارة القبول والرضى ٠

وكما تستطيع الآلات المنتجة للمعدات أن تنتج آلات أخرى ، فان القوة والثروة والمعرفة اذا أحسن استخدامها يمكن أن تحقق السيطرة على العديد من مصادر السلطة الاضافية والمتنوعة ٠ وبالتالى فأيا كانت الوسائل الأخرى التى تستخدمها الصفوة الحاكمة أو الأشخاص فى علاقاتهم الخاصة ، تظل القوة والثروة والمعرفة هى الركائز المثلى ، انها تشكل أعمدة السلطة الثلاثة ٠

بالطبع لا يرجع انتقال وتبدل السلطة فى جميع الحالات الى استعمال هذه الأدوات ٠ قد تنتقل السلطة من يد الى أخرى نتيجة للعديد من العوامل الطبيعية ٠ الطاعون الأسود الذى اجتاح أوروبا فى القرن الرابع عشر مثلا أرسل الى المقبرة كثيرا من الحاكمين والمحكومين على حد

سواء ، وترك فى جماعات الصفوة التى ظلت على قيد الحياة فراغات كبيرة مطلوبا ملئها ٠

وتؤثر الصدفة أيضا فى التوزيع الاجتماعى للسلطة ولكن بمجرد أن نفكر بشكل أكثر خصوصية فى الأفعال الارادية ، ونتساءل ما الذى يحمل الرجال ومجتمعات كاملة على الخضوع لارادة « أصحاب السلطة » ، عندئذ يتأكد مرة أخرى ثالوث القوة المادية والمال والذكاء ٠

ولكى نلتزم قدر الامكان بلغة بسيطة سوف نستخدم فى الصفحات التالية تعبير « سلطة » بمعنى السلطة التى يتم ممارستها اراديا على أشخاص آخرين ٠ وبالتالى يستبعد هذا التعريف سلطان الانسان على الأشياء أو الطبيعة ، غير أن هذا التعريف واسع بما فيه الكفاية لكى يتضمن سلطة الأم على الطفل التى تمنعه من أن يلقى بنفسه تحت عجلات سيارة ــ أو السلطة التى تستخدمها شركة آى ٠ بى ٠ ام لزيادة أرباحها ، أو يستخدمها ديكتاتور مثل ماركوس أو نورييجا لاثراء عائلته وشركائه القدامى ، أو تستخدمها الكنيسة الكاثوليكية لحشد أعداء منع الحمل لخوض معركة سياسية ، أو يستخدمها العسكريون الصينيون لسحق التمرد الطلابى ٠

وتشمل السلطة ، فى أكثر أشكالها سفورا ، استخدام العنف والثروة والمعرفة (بمعناها الواسع) لكى تحمل البشر الآخرين على التصرف بشكل معين ٠

ان تبنى هذا التعريف للسلطة ، والتركيز على ثلاثية العنف والمال والمعرفة سيسمح لنا بتناول تحليل السلطة من منظور جديد تماما ، وقد يسمح لنا أيضا بأن نبين ، وبشكل أوضح مما تم حتى الآن ، كيف تعمل السلطة لتكييف سلوكنا من المهد الى اللحد ٠ وبعد أن نفهم العملية فهما جيدا ، عندئذ فقط سيصبح من الممكن التعرف على هياكل السلطة التى أصبحت من الآن فصاعدا باطلة وتعوق مستقبلنا وبالتالى العمل على تغييرها ٠

نوعية السلطة :

تنطوى التأكيدات المعتادة عن السلطة بالنسبة للأغلبية ــ على الأقل فى الثقافة الغربية ــ على مفهوم أنها قضية كم ٠ بيد أنه اذا كان واضحا أن

بعضنا يتمتع بسلطة أقل من البعض الآخر ، فان هذا التناول يتجاهل تماما ما يمكن اعتباره أهم عامل على الاطلاق ألا وهو « نوعية » السلطة ٠

ومثل الوقود ، فان السلطة تتفاوت من حيث الفاعلية التى ترتكز على النوعية ٠ وفى الصراعات المحمومة التي ستحتدم قريبا فى مدارسنا ومستشفياتنا وشركاتنا ونقاباتنا وحكوماتنا ستكون الغلبة للنوعية الجيدة ٠

وليس من شك أن العنف ـ سواء أكان فى شكل سلاح أبيض أم صاروخ نووى ـ يمكن أن يحقق نتائج لا يستهان بها ٠ ان ظل العنف أو القوة الغاشمة حاضرا فى خلفية كل فعل للدولة وفى روح القوانين التى تصدرها ، ففى النهاية تعتمد كل دولة على الجيش والشرطة لارغام مواطنيها على الطاعة ٠ وان التهديد بالعنف الرسمى ، الذى لا غنى عنه والموجود فى كل مكان فى المجتمع ، يساهم فى تأمين عمل النظام ، هذا التهديد هو الذى يضمن احترام التعاقدات الجارية ويقلل من النشاط الاجرامى ويقدم آلية سليمة لتسوية النزاعات سلميا ٠ بل ان هذا التهديد المستتر بالعنف يساعد بشكل ما على جعل الحياة اليومية أقل عنفا ٠

اجمالا ، ينطوى العنف على أضرار حقيقية وخطيرة ٠ انه أولا ، يحثنا على حمل ما ندفع به شره عنا ، ويؤدى على صعيد آخر ، الى اطلاق ودفع السباق من أجل التسلح الذى يضاعف الأخطار بالنسبة لكل فرد وللجميع ٠ وحتى عندما « ينجح » العنف فانه يولد مقاومة ٠ فالضحايا يترقبون أول فرصة لكى يردوا الضربات ٠

غير أن نقطة الضعف الرئيسية للقوة الغاشمة أو العنف هى انعدام مرونته المطلق ٠ فهو لا يستخدم الا للعقاب ٠ ولذلك يمكن اعتباره فى النهاية سلطة من نوعية متدنية ٠

أما الثروة فهى أداة أفضل من العنف حيث تتمتع بمرونة أكبر ، فهى لا تقتصر على التهديد بالعقاب أو على ايقاعه فعلا ، انما يمكنها أيضا تقديم مكافآت متدرجة ومتنوعة بمهارة وذكاء ٠ ويمكن استغلال الثروة فى اتجاه ايجابى أو فى اتجاه سلبى ، فاستخدامها أكثر مرونة بكثير من العنف ولذلك فهى تمثل سلطة من نوعية متوسطة ٠

أما أعلى نوعيات السلطة فهى المعرفة ٠ ففى أحد الأفلام الذى تدور أحداثه فى كوبا فى زمن الديكتاتور باتيستا ، يلعب الممثل شين كونرى دور مرتزق بريطانى ٠ وفى أحد المشاهد المهمة يسأله رئيس أركان حرب الطاغية : « أيها القائد٠٠قل لى ماهو سلاحك المفضل وأنا أزودك به ؟ » ، وكانت الاجابة : « العقل المفكر » ٠

ان السلطة ذات النوعية العليا ليست فقط قادرة على توجيه ضربات وتأمين النجاح بارغام الآخرين على فعل المطلوب منهم • انما تملك قدرات تعلو عن ذلك بكثير : اذ تكمن فاعليتها فى الحصول على النتيجة المرجوة باستخدام الحد الأدنى من السلطة • تستطيع المعرفة فى كثير من الأحيان أن تقود الطرف الآخر الى أن « يحب » أهدافك وأفعالك ، بل انها تستطيع أن تقنعه بأنه هو الذى اقترح هذه الأهداف والأفعـال • ويقول قادة البنتاجون ، ان المعرفة هى أهم مصـدر من مصـادر السلطة الاجتمـاعية الأساسية الثلاثة التى تعطى الدولار قوته،وذلك بفضل مرونة استخدامها• فهى تستخدم للعقاب وللمكافأة وأيضا للاقناع وحتى للتحويل من النقيض للنقيض،كما بامكانها أن تجعل من العدو حليفا ، لا سيما ان المعرفة الملائمة تسمح بالتعرف من البداية على المواقف السيئة وبالتالى تفاديها وبذلك يتم تجنب اهدار القوة أو الثروة •

وتقـوم المعرفة كذلك بدور المضـاعف للثروة وللقوة ، اذ يمـكن استخدامها لزيادة الموارد أو لخفض الانفاق بلوغا لهدف معين • وفي الحالتين تزداد الفاعلية ، وأيا كانت نهاية اللعبة أو المباراة فانه يتم المجازفة بعدد أقل من « أوراق » السلطة •

بالطبع ، يمتلك الحد الأقصى من السلطة أولئك الذين هم فى وضع يسمح لهم باستخدام السلطة فى أشكالها الثلاثة من خلال مزجها بمهارة ، فيستخدمون أدوات السلطة الثلاث بالتناوب،حيث يشهرون سيف التهديد بالعقـاب ويلوحون بوعـود المكافأة وفي الوقت نفسـه يستعملون الاقناع والمعلومات العليا • واللاعبون المهرة فى مضمار السلطة هم من يعرفون بالحدس أو بالتدريب كيف ينشرون وينسقون على أفضل وجه استخدام السلطات التى يملكونها •

والذى يريد تقدير احتمالات نجاح الأطراف المشتركة فى نزاع على السلطة ـ سواء أكان الأمر يتعلق بحرب أم بمفاوضات ـ عليه أن يهتم بمعرفة ما بحوزة كل طرف من الأطراف من أدوات السلطة الأسـاسية الثلاث •

ان المعرفة والقدرة على ممارسة العنف والثروة بالاضافة الى تفاعلاتها هى التى تحدد السلطة الاجتماعية • لقد طابق فرنسيس بيكون بين المعرفة والسلطة ، غير أنه لم يتناولها فى شكلهـا النوعى ولا طبقا لارتباطاتهـا الحاسمة مع المصادر الكبرى الأخرى للسلطة الجماعية ، ولم يكن أحد يستطيع حتى الآن توقع الثورة الحالية للعلاقات بين العنـاصر الثلاثة للسلطة •

وفرة المعلومات :

ان العالم كما تصوره بيكون يشهد حاليا انقلابا كاملا لم يكن فى استطاعة كل عبقريات الماضى - أمثال صن - تسو وميكيافيللى وبيكون - أن يتصوروه ، حيث أصبحت القوة والثروة خاضعتين لدرجة مذهلة لسيطرة المعرفة ·

حتى وقت قريب لم تكن القوة العسكرية بالأساس الا تضخيما للقوة الفظة للقبضة · أما فى الوقت الراهن فان القوة العسكرية تعتمد بالكامل تقريبا على المعرفة المدمجة فى الأسلحة وتكنولوجيا وسائل جمع المعلومات· فالتسليح الحديث يتكون من معدات الكترونية محملة بكتلة معلومات وذلك ابتداء من أقمار التجسس الى الغواصات ، مرورا بالطائرة المقاتلة التى أصبحت عبارة عن حاسب آلى طائر ، فضلا عن الأسلحة « الصامتة » التى تم انتاجها بفضل حاسبات آلية وعناصر الكترونية شديدة التطور ·

ولنضرب مثالا واحدا فى هذا المجال : يستخدم الخبراء العسكريون « المعلوماتية » فى شكل « الأنظمة الخبيرة » من أجل الدفاع المضاد للصواريخ ·

فالصواريخ التى تتحرك بسرعة أقل من سرعة الصوت تتقدم بمعدل ٣٠٠ متر فى الثانية تقريبا ، ومن ثم يتعين على أية وسيلة دفاع فعالة ألا يستغرق رد فعلها أكثر من واحد على عشرة آلاف من الثانية ، فى حين تستطيع « الأنظمة الخبيرة » ان تستوعب حتى عشرة آلاف ، بل ومائة ألف من التعليمات المعدة بواسطة عقول بشرية ، ويتولى الحاسب الآلى مراجعتها وتقييمها وربطها فيما بينها لاتخاذ القرار برد الفعل المناسب للتهديد · وطبقا لما ذكرته مجلة « ديفنس ساينس » (علم الدفاع) حدد البنتاجون لوكالة مشروعات الأبحاث المتقدمة الخاصة بالدفاع هدفا طويل المدى ألا وهو تصميم نظام أسلحة قادر على اجراء « مليون استنتاج منطقى فى الثانية » · المنطق والاستنتاج والمعارف العلمية - أى باختصار أصبح العمل الذهنى للانسان أو الآلة - يمثل حاليا الشروط الأولية للقوة والقدرة العسكرية ·

وبالمثل أصبح القول بأن الثروة تعتمد بشكل متزايد على الذكاء مسلمة حقيقية فى عالم الأعمال · ان اقتصاد الدول المتقدمة لا يستطيع العمل لمدة ثلاثين ثانية بدون حاسبات آلية · وان التعقيدات الجديدة

للانتاج وادماج تكنولوجيات متعددة ومتنوعة ودائبة التغيير ، وتجزئة « أسواق الجملة » القديمة ، كل ذلك يعمل على زيادة ، وبقفزات كبيرة ومتتالية ، كم ونوعية المعلومات التى بدونها لا يستطيع النظام انتاج الثروة ٠ زد على ذلك اننا لسنا سوى فى بداية عملية « ربط نظم المعلومات بالنظم الالكترونية » ، حيث لازالت أفضل أجهزة الكمبيوتر أو أنظمة الذكاء الاصطناعى أو أنظمة التصميم بواسطة الكمبيوتر فى مرحلة جد بدائية ٠

يتضح اذن ، أن المعرفة ليست فقط مصدر سلطة من نوعية ممتازة ولكنها أيضا أهم مقومات القوة والثروة بمعنى آخر ، لم تعد المعرفة مجرد مساعد لسلطة المال أو للسلطة المادية البسيطة بل أصبحت جوهرها ٠ انها حاليا المضاعف النهائى لها جميعا ٠

وهنا تكمن جذور « تحول السلطة » الذى أصبح حدوثه قريبا للغاية ٠

أحداث وأكاذيب وحقيقة :

ليست المعرفة ولا أنظمة الاتصال معقمة أو محايدة تجاه السلطة ٠ ان كل « حدث أو حقيقة » مستخدمة فى الاقتصاد والحياة السياسية والعلاقات الانسانية اليومية انما ينتج عمليا عن « أحداث وحقائق » أخرى أو افتراضات أعدت ، بشكل ارادى « أو لا ارادى » ، بواسطة هيكل السلطة القائم من قبل ٠ وبالتالى فكل « حدث أو حقيقة » تتضمن فى آن واحد ماضيا يحمل علامة السلطة وأيضا ما يمكن تسميته بمستقبل سلطة ـ بمعنى نوع من التأثير الحاسم على توزيع السلطة فى المستقبل ٠

والأحداث الخيالية أو محل الجدال هى أيضا نتاج تنازع سلطات فى المجتمع ويمكن أن تستخدم بدورها كأسلحة فى هذا الصراع ٠ على غرار الأحداث « الصحيحة » و « القوانين » العلمية و « الحقائق » الدينية المقبولة فان الأحداث المزيفة والأكاذيب تمثل هى أيضا أوراقا فى لعبة السلطة الدائمة ، بل انها تمثل شكلا من أشكال المعرفة بالمعنى الذى سوف نستخدمه لكلمة معرفة ٠

يوجد بالطبع عدد من التعريفات لكلمة المعرفة لا يقل عن عدد الذين يعتقدون أنهم يملكون المعرفة ، ويصبح الموقف أسوأ بمجرد اسناد مدلولات ذات سمة فنية أو تقنية واضحة لكلمات مثل « اشارات » أو « رموز »

أو « صور » • ويزداد التشوش عندما نكتشف أن التعريف الشهير الذى وضعه كل من كلود شانون و وارن ويفر للمعلومات ــ وهما اللذان ساهما فى انشاء علم المعلومات ــ هو بالطبع تعريف نافع فى النظام التكنولوجى ولكنه لا يقدم شيئا فيما يتعلق بقيمة علم الدلالة أو « بمضمون » الاتصال •

وفى الصفحات التالية سيتم التعامل مع كلمة « بيانات » على أنها تعنى بدرجة ما « الحقائق » غير المترابطة ، وكلمة « معلومات » ستنطبق على بيانات تم ادراجها فى فئات أو فى تخطيط لتصنيف ما أو فى أى اطارات أخرى ، فى حين تشير كلمة « معرفة » للمعلومة التى تم اعدادها اعدادا عاليا فى صورة تأكيدات ذات مدى أكثر شمولا • غير أنه ، من أجل تفادى عمليات التكرار المملة ، سيحدث لنا أحيانا أن نستخدم على السواء كلمة معلومة أو كلمة معرفة •

وبهدف تبسيط العرض والهروب من الرمال المتحركة لمشكلات التعريف ، حتى وان كان ذلك على حساب الدقة المطلقة ، سيتلقى تعبير « المعرفة » فى هذه الصفحات ذاتها مدلولا واسعا بشكل يشمل المعلومة ، والبيانات والصور والتصور فى آن واحد ، كما يشمل المواقف والقيم والنواتج الرمزية الأخرى للمجتمع ، سواء أكانت «حقيقية» أم «تقريبية» أو حتى « مزيفة » •

كل هذه العناصر ، كانت دائما ولا تزال موضع تلاعب من جانب الأفراد الشرهين للسلطة وينطبق الشىء نفسه على وسائل الاعلام التى تنقل المعرفة ــ أى وسائل الاتصال التى بدورها تقوم بتشكيل ما يتدفق خلالها من الرسائل • ومن ثم سيتم استخدام تعبير « المعرفة » بشكل يتضمنهم ويشملهم فى اجمالهم •

الفارق الديمقراطى :

تملك المعرفة الى جانب مرونتها الكبيرة مميزات أخرى مهمة تميزها فى عالم الغد بشكل جذرى عن مصادر السلطة الأدنى •

وللقوة حد لا يجب تجاوزه والا فان استخدامها سيدمر ما نريد الفوز به أو الدفاع عنه • وينطبق الشىء نفسه على الثروة ، اذ لا يستطيع المال شراء كل شىء وستأتى اللحظة التى ستفرغ فيها أكثر الخزائن امتلاء •

أما المعرفة فانها لا تنضب أبدا : اذ بامكاننا دائما أن نخلق مزيدا من المعرفة ·

كان الفيلسوف اليوناني زينون الايلي يؤكد أنه اذا قطع مسافر كل يوم نصف الطريق الذى يفصله عن غايته النهائية،فانه لن يستطيع بلوغها قط طالما سيظل دائما لديه نصف المسافة لكى يقطعها · وبالمثل قد لا نبلغ قط المعرفة القصوى بالنسبة لأى موضوع ، وان كنا نستطيع دائما قطع خطوة اضافية تقربنا من الفهم الكامل · ان المعرفة قابلة ، من حيث المبدأ على الأقل ، للتوسع الى ما لا نهاية ·

هناك اختلاف آخر جوهرى وذاتى يفرق المعرفة عن القوة المادية والمال : كقاعدة عامة ، اذا ما استخدمت أنا مسدسا فلن يكون بامكانك أن تستخدم نفس المسدس فى الوقت نفسه ، واذا ما استخدمت أنت دولارا لا أستطيع أنا أن أستخدم الدولار نفسه فى الوقت نفسه · فى حين يمكن لكلينا أن يستخدم نفس المعرفة سـواء لكى نتعاون أو لكى نتقاتل · وفى أثناء ذلك ستتاح لنا أيضا فرصة انتاج فائض معرفة · هذا الأمر وحده يكفى لتوضيح أن قواعد لعبة السلطة التى تدار على أساس المعرفة مختلفة اختلافا عميقا عن الأسس التى يعتمد عليها أولئك الذين يدعون الوصول الى غايتهم بالقوة أو المال ·

ولكن فى الوقت الذى ندخـل فيه باندفاع فيما يسـمى بعصر المعلومات ، تملك المعرفة خاصية أخيرة أكثر حسما أيضا بالمقارنة بالقوة والثـروة · القوة والثـروة هما من حيث التعريف وقف على الأكثر قوة والأكثر ثراء ، بينما المعرفة لها هذه الخاصية الثورية تماما وهى أن الأكثر ضعفا والأكثر فقرا يستطيعون الحصول عليها أيضا ·

هى اذن الأكثر ديمقراطية من بين مصادر السلطة ·

وهو ما يجعل من المعرفة تهديدا دائما بالنسبة للأقوياء ، حتى وان كانوا هم أنفسهم يستخدمونها لتعزيز سلطتهم · وهو ما يفسر أيضا لماذا نجد كل من بيده السلطة ــ ابتداء من رب العائلة مرورا برئيس الشركة أو المدير العام أو رئيس الوزراء ــ يريد السيطرة كل فى مجاله على كمية ونوعية المعرفة وتوزيعها ·

وبالتالى ينتهى مفهوم ثلاثية السلطة بأن يتخذ معنى ساخرا تماما · فخلال القرون الثلاثة الأخيرة على الأقل ، كانت أرضـية المعركة

السياسية المثلى فى الدول الصناعية هى توزيع الثروة فى شكل « من يحصل على ماذا ؟ » • وانطلاقا من هذا السؤال الأساسى تحددت تعبيرات مثل « يمين » أو « يسار » أو « رأسمالية » أو « اشتراكية » •

غير أنه بالرغم من سوء التوزيع العام للثروة فى عالم منقسم بشكل أليم الى أغنياء وفقراء ، يتضح أنه بالمقارنة بمصدرى السلطة الدنيوية الآخرين ، كانت الثروة ، وستظل ، أقلهم من حيث سوء التوزيع • لأنه مهما كان اتساع الهوة التى تفصل الأغنياء عن الفقراء فان الهوة التى تفصل المسلحين عن العزل من السلاح والجهلاء عن الذين يملكون المعرفة ، أكثر عمقـــا •

وفى عصرنا ، فى الدول التى تتمتع بالرخاء والتى تخضـــع لنمو سريع ، سيصبح الصراع على السلطة ، بشكل متزايد ، صراعا من أجل توزيع المعرفة وامكانية الوصول اليها •

ولذلك اذا لم نفهم كيف تنتشر المعرفة ومن هم الذين يتلقونها فلن نستطيع أن نحمى أنفسنا ضـــد استغلال السلطة ، ولا أن نقيم المجتمع الأفضل والأكثر ديمقراطية الذى تسمح وتعد به تكنولوجيات الغد •

ان السيطرة على المعرفة ستصبح هى العنصر الحاسم فى الصراع على السلطة على الصعيد العالمى وفى داخل كل المؤسسات البشرية •

وعلى امتداد الفصول التالية ، سنرى كيف أن التغيرات التى تؤثر فى طبيعة السلطة فى طريقها لقلب العلاقات داخل العالم الاقتصادى • ومن خلال تحول رأس المال والتعارض الذى يزداد وضوحا بين الأنشطة « الذكية » وتلك الأقل ذكاء ، ومن خـــلال الســـوبر ماركت الالكترونى والشركات العائلية وظهور أنماط تنظيم جديدة ومدهشة ، سنحاول رسم المسار الجديد للسلطة • هذه التحولات العميقة ذات الطابع الاقتصادى سيتم وضعها بشكل متواز مع التغيرات ذات الدلالة التى تحدث فى الحياة السياسية وفى وسائل الاعلام وفى مجموع صناعة التجسس • وأخيرا سنحاول أن نرى ما هى الآثار التى يمكن أن تكون لهذه السلطات الجديدة والرهيبة التى تفرض نفسها حاليا بشكل مؤثر على كل من الدول الفقيرة وما تبقى من الدول الاشتراكية وعلى مستقبل الولايات المتحدة وأوروبا واليابان ، لأن ما يحدث حاليا من تحول للسلطة سوف يغيرهم جميعا •

الباب الثانى:

الحياة فى الاقتصاد فوق الرمزى

الفصل الثالث

ما بعــد عصر البريق الخادع

مما لا شك فيه ان نشاط الشركات يولد المنتجات والارباح ، غير ان انطباعا بدأ يتكون بأن هذا النشاط فى طريقه لان يصبح فنا مسرحيا ذا شعبية واسعة ، له ابطاله واشراره ومؤامراته ـ كما ان له وبشكل متزايد نجومه ايضا .

لقد غدت أسماء ملوك الأعمال تتردد فى وسائل الاعلام مثلها مثل نجوم هوليوود ، فهم يحيطون أنفسهم بخبراء فى الدعاية مدربين على جميع أشكال الترويج الذاتى . وأصبح أشخاص مثل دونالد ترامب ولى أياكوكا الرموز الحية لسلطة الشركات الكبرى : ترسم لهم الصور الكاريكاتورية فى المجلات والجرائد وينشرون كتبا تعتبر من أحسن الكتب مبيعا ، يقوم بتحريرها كتاب محترفون . كما ذكر كلاهما كمرشح محتمل لرئاسـة الولايات المتحدة (الا اذا كانا رتبا لذلك) . لقد وصلت الأعمال الى عصر البريق الخداع .

فى هذا المجال ، لا يعتبر النجوم بالطبع شيئا جديدا ، غير أن السياق الحالى مختلف تماما . والآن لم تعد الشهرة الصارخة لأبطال المال الجـدد سوى مظهر سطحى للاقتصاد الجـديد ، حيث تحتل المعلومات (التى يمتد مضمونها الى كل شىء ، من البحث العلمى الى التسمم الدعائى) مكانة تتزايد باستمرار . ان ما نشاهده ليس سوى اقامة « نظام جديد تماما لخلق الثروة » ، ويأتى هذا النظام معه بتغيرات مثيرة وخطرة فى توزيع السلطة .

ان النظام المعنى يعتمد فى اجماله على الاتصـال والنشر اللحظى للبيـانات والأفكار والرموز وبشـكل عام لكل ما هو رمزى · فكمـا سنكتشف ، فالأمر يتعلق باقتصاد فوق رمزى بكل ما يحمل هذا التعبير من معنى ·

وعلى عكس ما يصر البعض على الادعاء به ، فان قدوم هذا النظام يعلن عن تحول واسـع ، وأولى مظاهره ليست على الاطـلاق عـلامة على « زوال التصنيع » ولا على « افراغ النظام » القائم أو التدهور الاقتصادى ولكنها علامة على انطلاق سيقودنا الى ثورة فى طرق الانتاج · وتتكشف طبيعة هذه الثورة منذ الآن من خلال التحول الذى يتطور ويتسع وينقلنا من الانتاج بالجملة الى مزيد من الانتاج حسب متطلبات كل عميل ، ومن التسويق والتوزيع بالجملة الى منافذ التوزيع المتخصصة والى التسويق الفردى ، ومن الشركة الكبيرة المساهمة الى أشكال تنظيمية جديدة ، ومن الدولة ـ الأمة الى صيغ تنظيمية محلية وعالمية فى آن واحد ، ومن طبقة البروليتاريا ـ أى طبقة العمال الصناعيين ـ الى « الكوجنيتاريا » ـ أى طبقة أولئك الذين يتعاملون بالمعرفة ·

ان التصادم بين القوى التى تقاتل من أجل النظام الجديد لخلق الثروة من جهة ، والمدافعين عن الاقتصاد القديم المعتمد على المصنع من جهة أخرى ، يمثل الصراع الاقتصادى السائد فى عصرنا ، وهو يتجاوز بكثير ، من حيث الأهمية التاريخية ، الصراع بين الرأسمالية والشيوعية أو الصراع الدائر بين الولايات المتحدة وأوروبا واليابان ·

ان المرور من اقتصاد المصانع القديمة الى اقتصاد الحاسب الالكترونى يتطلب انتقالا واسعا للسلطة ، وهو ما يفسر بشكل كبير موجة اعادة الهيكلة المالية والصناعية التى تجتاح عالم الشركات الكبرى ، والجهود اليائسة التى تقوم بها هذه الشركات من أجل التكيف مع متطلبات متجددة تؤدى فى الوقت نفسه الى صعود قادة جدد ·

ان عمليات عروض الشراء العلنية ، وعمليات البيع المدبرة للأسهم بهدف احداث هبوط فى أسعارها واعادة شراء الشركة لرؤوس أموالها الخاصة احتلت عناوين الصفحات المالية فى الجرائد على امتداد الثمانينات · ولم تقتصر هذه الممارسات على الشركات الأمريكية فقط ، بل شملت العديد من الشركات الأجنبية أيضا ، وذلك بالرغم من النصوص القانونية أو غيرها التى تحد من عروض « الشراء العلنية » غير الودية فى بلاد مثل ألمانيا وايطاليا وهولندا ·

غير أنه من المبالغة اعتبار كل هذه الغزوات الصاخبة التى تمت فى وول ستريت وما تلا ذلك من ضربات للشركات الكبرى فى العالم كله ، نتائج مباشرة للانتقال الى نوع جديد من الاقتصـــاد • ان الانعكاسات الضرائبية والتكامل الأوروبى وتحرير الممارسات المالية والجشع التقليدى والعديد من العوامل الأخرى لعبت أيضا دورها فيما حدث • فى الحقيقة ، اذا كان شخص مثل أياكوكا أو ترامب يمثلان شيئا فانما يمثلان بقايا الماضى وليس طلائع العالم الجديد •

فالمجد الكبير الذى اكتسبه أياكوكا يرجع الى الحيل التى قام بها فى واشنطن من أجل تعويم مصانع سيارات فى حالة افلاس ، أما ترامب فيرجع مجده الى أنه جعل اسمه يتوهج على ناطحات سحاب وكازينوهات قمار جذابة وملفتة للنظر ، ومن ثم يصعب اعتبار أى منهما رائدا أو طليعيا فى المجال الاقتصادى •

قد يكون صحيحا أن كل مرحلة ثورية تولد طغمة من أنواع متعددة من البشر : وصوليين وغريبى الأطوار ومغرورين ومتعطشين الى الدعاية وقديسين ومحتالين ـ كما تولد فى الوقت نفسه أصحاب رؤية مستقبلية ومجددين حقيقين •

غير أنه يرتسم تحت فوضى واختلاط عمليات اعادة التمويل والتنظيم هيكل جديد ، لأن ما نشاهده ليس مجرد تبدل فى الهياكل الاقتصادية الحالية ، وانما المرحلة الأولى من انتقال السلطة من « المال الصناعى » الى ما يمكن أن نسميه « المال فوق الرمزى » ـ وهى عملية سنعود اليها بشكل أكثر تفصيلا •

وتحت ضغط المنافسة أصبحت عملية اعادة الهيكلة الواسعة تلك أمرا لا مفر منه ، فى الوقت الذى ينتقل فيه نظام خلق الثروة بكامله الى مرحلة أكثر تقدما • ان الاكتفاء بتفسير سعار عروض الشراء العلنية فى نهاية الثمانينات على أنه مجرد التعبير التقليدى عن « أنا أولا » يجعلنا نترك الأبعاد الأكثر أهمية تفلت منا •

غير أن ذلك لا يقلل من أن الاقتصاد الجديد قد أجزل المكافأة لأولئك الذين توقعوا قبل غيرهم قدومه • ففى « عصر المصنع » كان يتصدر قائمة الأشخاص الأكثر ثراء فى العالم رجال صناعة السيارات والصلب وأقطاب السكك الحديدية أو البترول وأقطاب رجال المال ، أى أولئك الذين نتجت ثروتهم العـــامة بشكل نهائى من الاستخدام المنظم والمشترك لأيد عاملة رخيصة ومواد أولية يسهل الوصول اليها لانتاج ثروات مادية •

أما الآن فنجد أن قائمة مجلة فوربس الأخيرة لأغنى عشرة مليارديرات أمريكيين تضم سبعة أشخاص كونوا ثروتهم فى وسائل الاعلام وشبكات الاتصالات أو المعلوماتية ، أى فى مجال الخدمات والبرامج المعلوماتية بدلا من المعدات والانتاج الصناعى • وتجسيد هذه القائمة بشكل جيد ما يطلق عليه اليابانيون تعبير الاقتصاد « اللين » الجديد •

غير أن الموجة العنيفة لعمليـــات اندماج الشركات وعروض البيع العلنية وعمليات الاستيلاء على زمام الأمور واعادة توزيع الأوراق فى اللعبة المالية ليست سوى مظهر للانتقال الذى يقودنا نحو الاقتصاد الجديد • وفى اللحظة ذاتهـا التى تجتهد فيهـا الشركات لدفع هجمات المغيرين المحتملين أو لتوسيع منطقة نفوذها يتعين عليها أيضا أن تواجه بصلابة مشكلات ثورة تقنية المعلومات ، والتغيرات التى لا تتوقف ، التى تشهدها الأسواق وزخما من العوامل الأخرى الدائمة التغير • وهو ما يوازى أخطر هزة عرفها عالم الأعمال منذ الثورة الصناعية •

الفدائيون فى مجال الأعمال :

ان تغييرا بمثل هذا الاتساع لا يمكن أن يتم بدون توتر ومعارك • ومثلما حدث فى المرحلة الأولى من الثورة الصناعية ، يرى ملايين البشر أن دخولهم مهددة ، وأن طرق عملهم قد تجاوزها الزمن ، وأن مستقبلهم أصبح غامضا ، بينما تقلصت سلطاتهم •

ويجد المستثمرون والقادة والعاملون أنفسهم مشتبكين معا فى صراع غامض وغير واضح • وتعقد تحالفات غريبة وتبتكر أشكال جديدة من فنون القتال • ففى الماضى ، كانت النقابات تمـارس سلطتها عن طريق الاضراب أو التهديد به • أما اليوم ، وعلى أمل أن تكون جزءا لا يتجزأ من عملية اعادة الهيكلة الكبيرة الجارية بدلا من ان تصبح احدى ضحاياها ، فانهـا تضيف الى ترسانتهـا خدمات مدفوعة لرجال البنوك والمحامين ومستشارى الضرائب — وكل هؤلاء موردون للمعرفة المتخصصة • كما يعتمد قادة الشركات المهتمون بالدفاع عن أنفسهم ضد عروض الشراء العلنية أو بشراء شركتهم الخاصة ، اعتمادا متزايدا على معلومات فورية ودقيقة وكذلك يفعل المستثمرون الذين يبحثون عن الاستفادة من الفرص المتاحة • وفى المعارك من أجل السلطة التى أطلقها ظهور الاقتصاد فوق الرمزى ، تصبح المعرفة هى السلاح المطلق •

وينطبق نفس الشىء على مهارة البعض فى استخدام وسائل الاعلام ، أى فى تعديل ما يعرفه الجمهور ، أو بالأحرى ما يعتقد أنه يعرفه • فى هذه البيئة المتحركة بشكل مستمر ، تملك الشخصيات اللامعة والمدربة

على التلاعب بالرموز تميزا نوعيا قويا • ففى فرنسا ، نجد أن الصورة المثلى لرجل الأعمال الكبير هى صورة برنارد تابيه الذى يدعى أنه أنشأ مجموعة أعمال برأسمال خاص ، تحقق عائدا سنويا يقدر بمليار دولار • وهو يتمتع عمليا بنوع من الاختيار التفضيلى بالنسبة لعدد مرات ومواعيد ظهوره على شاشة التليفزيون • وفى بريطانيا ، حطم ريتشارد برانسون مؤسس مجموعة فرجين كل الأرقام القياسية ، وطبقا لمجلة « فورتشن » فانه يتمتع « بمستوى الشهرة التى كانت من قبل مقصـورة على نجوم الروك أو الأسر الملكية » •

وكلما يتفكك النظام القديم ، فان كبـار المديرين البيروقراطيين المجهولين ، الذين يحافظون بدرجة أو بأخرى على بقاء هذا النظام فى حالة حركة ، يجدون أنفسهم مدفوعين الى التخلى عن مواقعهم لجيش من الفدائيين قوامه مستثمرون لايهابون المخاطرة ، ومتعهدون ومحترفو التنظيم والادارة، وأغلب هؤلاء يناهضون البيروقراطية انطلاقا من قناعة شخصيـة ، وقد درجوا جميعا على الحصـول على المعرفة (بوسـائل غير مشروعة عند الضرورة) وعلى السيطرة على انتشارها وتوزيعها •

ان بزوغ نظام جديد فوق رمزى لخلق الثروة ، لا يقتصر على نقل السلطة ، بل انه يعدل من أسلوب ممارستها • ويكفى فى هذا الصدد أن نقارن مثلا ، بين جون دى بوتس البطىء الذى قاد شركة التليفون والتلغراف الأمريكية فى السبعينات حتى تفككت ، وبين وليم مكجوفان الذى أنهى احتكار شركة التليفون والتلغراف الأمريكية ذاتها وأنشأ « شركة الاتصال » ام • سى • آى • لمنافستها • انه ابن احدى القيادات النقابية لعمال السكك الحديدية ، وهو نافد الصبر بقدر ما هو وقح ، وقد بدأ حيـاته العملية بائعا متجولا يبيع حافظات ورق مصنوعة من جلد التمساح ، ثم جمع ثروته عن طـريق تمويل نسـخة « أوكلاهوما » السينمائية وهو العمـل الذى قام به مخرجا هوليوود ميك تود وجورج سكورا • وواصل نجاحه المهنى فأسس شركة صغيرة للعتاد العسكرى حصلت على عقود من البنتاجون ، وذلك قبل أن ينقض على شركة التليفون والتلغراف الأمريكية •

ويمكن اجراء مقارنة أخرى بين « محنكى عالم الأعمال » الحريصين الذين قادوا « جنرال الكتريك » خلال عقد أو عقدين من الزمان ، وجاك ولسن الذى فاز بلقب « نيوترون جاك » الذى أعاد تشكيل هذه الشركة العملاقة على أساس لامركزى •

ان التحول فى الأسلوب يجسـد احتياجات جديدة • فاعادة بنـاء الشركات الكبرى ، بل وصناعات كاملة ، مهمة لا تناسب البيروقراطيين

الذين اعتادوا المغالاة فى التدقيق والعمل على انقاذ ماء الوجه • ان هذا الدور يناسب بشكل أفضل من يتميزون أساسا بنزعة استقلالية وبروح قتالية حقيقيـــة حتى ان كانوا غـريبى الأطوار ـ بمعنى آخـر ، رجال انتحاريون مستعدون للرسو على أى ساحل من أجل الاستيلاء عنوة على السلطة •

ويقال ان رجال الأعمـال وأصحاب الشركات المؤمنين بالمجـــازفة والمضاربين الماليين الحاليين يشبهون الى حد كبير « البارونات اللصوص » الذين خلقوا الاقتصاد المصنعى فى القرن التاسع عشر • لكن الشيء الأكيد أن « عصر البريق الزائف » الحالى يذكرنا بالفترة المســماة « الفترة الذهبية » التى أعقبت حرب الانفصال فى الولايات المتحدة • وقتها كان الأمر يتعلق أيضا بعملية اعادة هيكلة اقتصــادية نتجت من انتصــار الشــمال الذى كان فى طريقه للتصنيع على المزارعين المؤمنين بالرق فى الجنوب • لقد شهدت تلك الفترة الاستهلاك التفاخري والفساد السياسى والانفاق الجامح والاخلال بأمانة الوظيفة والمضاربة المطلقة ـ حيث أفرز ذلك العهد رجالا وأسماء أكبر من حجمهم الطبيعى أمثال « الكومودور » فندر بيلت وجيم برادى الملقب بـ « جيم الماسى » وجيتس « المقامر » • وتميز ذلك العهد بحركة عداء للنقابات ومعاناة الفقراء ، غير أنها كانت فترة نمو اقتصادى بركانى انطلق بأمريكا الى عصر الصناعة الحديثة •

واذا كان الجيل الحالى أميــل الى القرصـــنة والمغـــامرة منه الى البيروقراطية ، فان لقب «قراصنة الالكترونيات» هو الأنسب ، لأن السلطة التى يمسك بهـــا ممثلو هذا الجيل لم تعد تحصى بأكياس المال ولكن بالبيانات المتطورة والمعلومات والمهارة والدراية الفنية •

ويقدم الخبير المالى روبرت واينجرتن من كاليفورنيا الوصفة التالية للاعداد لعرض شراء علنى : « أول شيء يتعين عمله هو تســجيل معايير ومواصفات أسهمك على ذاكرة الكمبيوتر ، ثم ابحث عن شركة تتطابق مع هذه المعايير من خلال مقارنتها بمعطيات مختلفة ومتنوعة الى أن تأتي اللحظة المناسبة التى تحدد فيها الهدف •

ما الذى يتبقى بعد ذلك لتفعله ؟

أن تدعو الى مؤتمر صحفى • اذن تبدأ بالكمبيوتر وتنتهي بوسائل الاعـــلام » •

ويضيف أنه « فيما بين ذلك ستلحق بخدمتك جيشا من المتخصصين فى مجال المعرفة ذوى كفاءة عالية ـ مستشارون فى مجال الضرائب وخبراء

فى التعامل مع مجالس المساهمين ومبتكرو نماذج رياضية ومستشارون فى الاستثمار وخبراء فى العلاقات العامة ــ وأغلب هؤلاء سيستخدمون بشكل واسع أجهزة كمبيوتر وناسخات لاسلكية ووسائل أخرى للاتصـــالات اللاسلكية فضلا عن وسائل الاعلام » ٠

« ففى الوقت الحالى ، غالبا ما تتوقف امكانية عقد صفقة على المعرفة التى لديك ، أكثر مما تتوقف على الدولارات التى تضعها على المنضدة ٠ وعند مستوى معين ، يكون من الأسهل العثور على المال من الحصول على الدراية الفنية ٠ فالمعرفة هى الركيزة الحقيقية للسلطة » ٠

ان عروض الشراء العلنية وعمليات اعادة الهيكلة تشـكل تحـــديا للسلطة ولذا فانها تنتج عرضا دراميا له أبطاله وأشراره ٠ وتغدو أسماء مثل كارل اكاهن وتى ٠ بوون بيكنز أسماء مألوفة للكرة الأرضية كلها ٠ وتندلع حروب شخصية ٠ لقد اضطر ستيف جوبز مثلا ــ الذى كان يعد لفترة الشاب المعجزة للصناعة الأمريكية ــ الى الاستقالة من شركة آبل بالرغم من أنه كان أحد مؤسسيها ويملك نصيبا كبيرا من رأسمالهـا ، وذلك عقب انقلاب دبره داخل الشركة جون سكوللى ٠ ويواصـل أياكوكا تآمره الذى لا ينتهى ضد هنرى فورد الثانى ٠ ويقدم فيلم « روجرز وأنا » صـــورة كاريكاتورية لروجرز سميث رئيس مجلس ادارة شركة جنرال موتورز الذى يهاجمه روس بيرو ، مليونير المعلوماتية ، بوحشية لأنه ابتلع الشركة منه ٠ وتزداد القائمة طولا مع الأيام ٠

ان اعتبار عروض الشراء العلنية مجرد خاصية أمريكية ناجمة عن نظم ولوائح غير ملائمة تحكم وول ستريت هو عدم ادراك للمعنى العميق لهذه العمليات ٠ ففى بريطانيـــا يخوض رولان راولاند حربا عنيفة من أجل السيطرة على محلات هارودز الكبرى ٠ ويجمع سير جيمس جولد سميث ، رجل المال العنيف والمندفع ، ٢١ مليار دولار من أجل القيام بعملية بيع مدبرة لأسهم بات اندسترى بى ٠ س ٠ ال تؤدى الى خفض أسعارها ٠ وفى ايطاليا يخوض كارلو دى بينديتى ، رئيس مجلس ادارة اوليفتى ، حربا ضد جيانى أنجيللى ، صاحب امبراطورية فيات ، وفى الوقت نفسه ضد الدائرة المغلقة للمؤسسة الصناعية فى ايطاليا ، وذلك بعرضـــه المفاجىء لشراء مجموعة « السوسيتية جنرال دى بلجيك » وهى المجمـوعة التى تسيطر على ثلث الاقتصاد البلجيكى كله ٠

وفى فرنسا تنظر شركة بل الفرنسية المتخصصة فى النظم المعلوماتية برغبة وطمع الى أنشطة الشركة الأمريكية « زينيث » التى تعمل فى المجال نفســه ٠ ومن ناحية أخرى اشترت مجمــــوعة فيـكتوار مـــرة أخـرى

ال « كولونيا ايه · جى » التى تعد ثانى شركة تأمين فى ألمانيا ، بينما وضع درسدنر بنك يده على البنـك الدولى الفرنسى لتوظيف الأموال (بانك انترناشيونال دى بلاسما) ·

وفى أسبانيا حيث تتحول الدراما الى مليودراما فى أغلب الأحيان شاهد الجمهور معركة وصفتها الفاينتشيال تايمز بالاثارة والفجاجة فى الوقت ذاته ، وكان الخصـمان فيها أصحاب الثروات التقليـدية ورجال الأعمال الجدد ·

والرهان الرئيسى لهذا الصراع هو السيطرة على أكبر ثلاثة بنـوك فى اسبانيا وامبراطوريتها الصناعية ، وكانت المعركة بين ألبرتو كورتينا وابن عمه ألبرتو الكوسير من جهة وماريو كوندى من جهة أخرى ، وهو رجل قانون لامع تربى على أيدى رهبان الجزويت ، وكان بعد أن استولى على بنك الائتمان الأسبانى شرع فى ادماجه مع البنك المركزى الذى يحتل المركز الأول بين البنوك فى اسبانيا · وقد نشرت الصحافة الصفراء هذه القضية ، عندما وقع أحد ابنى العم ألبرتو فى غرام مركيزة فى الثامنة والعشرين من عمرها تم تصويرها فى أحد علب الليل وهى ترتدى زيا فاضحا ·

وانهـار أخيرا الاندماج الكبير ـ الذى تبـاهى به رئيس الوزراء الاسبانى باعتباره « حدث القرن الاقتصادى » ، مثل قصر من ورق تاركا كوندى يكافح من أجل بقائه فى بنكه ذاته ·

صحيح ان الآلة الاعلامية تستفيد من كل هذه القضايا ، غير أن الطابع الدولى للظاهرة يوضح تماما أن الأمر لا يتعلق فقط ببريق كاذب أو بجشع أو بثغرات فى اللوائح والقوانين المحلية · وكما سنرى ، فان ما يجرى أكثر جدية من ذلك بكثير ، فالسلطة فى طريقها للتحول على مئات الجبهات فى وقت واحد ، كما ان طبيعتها ذاتها ـ هذا المزيج من القوة والثروة والمعرفة ـ تتبدل كلما انتقلنا الى الاقتصاد فوق الرمزى ·

ديل كارنيجى ، وآتيلا وقبائل الهون :

فى ظل هذه الظروف ، فلا عجب أن يجد مديرو الشركات اللامعون أنفسهم فى ضيق وارتباك · فيقبل بعضهم على قراءة كتيبات تحمل عناوين بلهاء مثل « أسرار أتيلا وقبائل الهون » ، ويدرس آخرون نصوصا صوفية أو يتابعون محاضرات فى معهد ديل كارنيجى عن طرق التأثير على الآخرين

أو يشاركون أيضا فى ندوات عن استراتيجية التفاوض ـ وكأن السلطة ليست سوى مسألة علم نفس أو مناورة تكتيكية ٠

ويأسى آخرون للمشكلات التى تكتنف السلطة فى شركاتهم ويرون فيها تهديدا لميزانياتها وحساباتها الختامية وتبديدا لقوى كان من الأفضل تكريسها لتحقيق الربح ٠ وينظر هؤلاء الى النزاعات الشخصية من أجل السلطة على أنها مجرد تبديد للطاقة وأن بناة الامبراطوريات الشرهين للسلطة يلحقون بخدمتهم موظفين وعاملين لا فائدة منهم ٠ ويتضاعف التشويش عندما يصرح بهدوء بعض الذين يعدون من أكثر أصحاب السلطة الحقيقية بأنهم لا يملكون أى نفوذ أو سلطة ٠

فى ضوء ذلك يصبح مفهوما أن يصاب الكثيرون بالحيرة ٠ ان دعاة السوق الحرة من أنصار مدرسة ميلتون فريدمان يميلون الى وصف الاقتصاد على أنه آلة لا هوية لها يحركها العرض والطلب ، كما يميلون الى تجاهل دور السلطة فى خلق الثروة والربح ، أو يؤكدون بلطف أن كل هذه الصراعات على السلطة تلغى بعضها البعض بالتبادل ولا تؤثر فى النهاية بشىء على الاقتصاد ٠

ان الاتجاه الى تقليل أهمية السلطة فى تحقيق الربح ليس وقفا على المنظرين المحافظين وحدهم ٠ ومثال ذلك كتاب « اقتصاديات » ، لبول ٠ ايه ٠ سامويلسون و وليام ٠ دى ٠ نوردهاوس ، الذى يعتبر من أكثر المراجع المقروءة والتى تحظى بالاحترام فى الجامعات الأمريكية ، فالطبعة الأخيرة منه تضم فهرسا من ٢٨ صفحة مطبوعة بحروف صغيرة ، ولكن كلمة « سلطة » لم ترد فيه ولا مرة واحدة ٠

(الا أنه يوجد بين أشهر علماء الاقتصاد الأمريكيين استثناء مهم من هذا العمى أو على الأقل من هذا القصر فى النظر ألا وهو موقف جى ٠ كى ٠ جالبريث ٠ سواء وافقنا أم لا على أفكاره الأخرى فقد حاول على أية حال ادخال عامل السلطة فى المعادلة الاقتصادية وبطريقة مترابطة) ٠

أما الراديكاليون ، فانهم يتكلمون كثيرا عن السلطة التى تستأثر بها ، بدون حق ، الشركات الكبرى من أجل التأثير على أذواق المستهلكين ، أو الامتيازات التجارية ونزوع الأقلية الاحتكارية فى السوق الى تحديد الأسعار ٠ كما يهاجمون جماعات الضغط وطرق تمويل الحملات الجماعية والوسائل الفجة التى يستخدمها أحيانا الرأسماليون لمعارضة ومناهضة القوانين واللوائح التى تتعلق بأمن وصحة العاملين ، والبيئة والضرائب التصاعدية ومسائل أخرى من نفس النوعية ٠

ولكن ، وعلى مستوى أكثر عمقا ، فان هؤلاء المناضلين الحريصين على الحد من سلطة الشركات الكبرى يخطئون بالنسبة للمكانة التى تحتلها السلطة فى الحياة الاقتصادية (انهم لا يقدرونها حق قدرها) ، بما فى ذلك جانبها الايجابى والخصب • وفى الوقت نفسه ، لا يبدو أنهم يلاحظون التحول المدهش فى السلطة الذى يجرى حاليا •

وتتوارى وراء الكثير من انتقاداتهم فكرة لا يتم التعبير عنها وهى أن السلطة غريبة بطريقة ما ، على الانتاج والأرباح ، أو أن عمليات استغلال السلطة التى تقترفها الشركات الاقتصادية هى ظواهر رأسمالية بشكل خاص • غير أنه ، يكفى أن نلاحظ من قرب عملية تشكيل السلطات الجديدة،لكى نستنتج أن السلطة صفة أصيلة وذاتية لكل أنواع الاقتصاد•

ان جميع الأرباح وليس فقط الأرباح المفرطة أو غير المشروعة تنتج جزئيا (وغالبا ما يكون هذا الجزء كبيرا) من ممارسة السلطة وليس من الكفاءة ، اذ يمكن لشركة ذات نشاط متواضع أن تحقق رغم ذلك أرباحا اذا أمكنها فرض شروطها الخاصة على العاملين بها وعلى مورديها وموزعيها وعملائها • ويتضح ، فى كل خطوة تقريبا ، أن السلطة لا غنى عنها لعملية الانتاج — وهى حقيقة تنطبق على جميع الأنظمة سواء أكانت رأسمالية أم اشتراكية أو كل ما يمكن تخيله •

حتى فى الفترات العادية ، فان العملية الانتاجية تتطلب بشكل متكرر اقامة علاقات سلطة • ولكننا لسنا فى فترة « عادية » • ان المنافسة المحتدمة والتغيرات المتسارعة تتطلب ابتكارات مستمرة ، وتثير كل محاولة للتجديد مقاومة وصراعات جديدة على السلطة • ففى البيئة الثورية الحالية حيث تدخل أنظمة مختلفة لخلق الثروة فى تصادم عنيف ، وغالبا ما تبدو التعديلات الطفيفة غير كافية ، وتزداد حدة الصراعات • يضاف الى ذلك أن الشركات مترابطة فيما بينها وفى حالة اعتماد متبادل بشكل متزايد ، بحيث يؤثر أى تغيير يطرأ على السلطة فى احداها على الشركات الأخرى •

وكلما تورطنا فى اقتصاد تنافسى على الصعيد العالمى ، وهو اقتصاد يعتمد بدرجة كبيرة على المعرفة ، ازدادت العداوات والمجابهات حدة وضراوة • وينجم عن ذلك أن يكتسب عامل السلطة أهمية متنامية ، ليس فقط على صعيد المصالح الفردية وانما أيضا بالنسبة لكل مجموعة فى جملتها ، لأن التحولات المرتبطة بالسلطة تؤثر غالبا على مستوى الأرباح بشكل أقوى مما يفعله مستوى الأجور المنخفض أو الابتكار التقنى أو التقديرات الاقتصادية المنطقية •

المهمة الخفية للمستشارة :

مارا سلفيانى بلازولى أخصائية نفسية تدير مجموعة ايطالية متخصصة فى دراسة المجموعات الاقتصادية الكبرى ، وقد روت هذه القصة عن رجلين من رجال الأعمال كانا يمتلكان مجموعة من المؤسسات الصناعية ؛ وأراد رئيس المجموعة أن يحسن من سير العمل ، أو يعطى انطباعا أوليا بذلك على الأقل ، فقال لمستشاريه ان الروح المعنوية للعاملين فى المجموعة منخفضة ، ودعاهم الى اجراء بحوث على العاملين لاكتشاف السبب الذى يجعلهم عرضة للاحساس بالغضب والتحاسد فيما يبدو الى الحد الذى يهددهم بالاصابة بقرحة المعدة ٠

غير أن نائب الرئيس والشريك الذى يملك ٣٠٪ من الأنصبة (مقابل ٧٠٪ للرئيس) أبدى تشككه فى مهمة هؤلاء المستشارين ٠ لكن الرئيس أجاب وهو يهز كتفيه : ان استخدام مكتب استشارى ليس سوى طريقة « لمجاراة الموضة » ٠

الا أن التحليل الذى أجرته مجموعة « مارا بالازولى » أظهر وجود مؤامرة خفية لها عواقبها المؤسفة فقد كانت المهمة الرسمية للمستشارين هى رفع الكفاءة ، ولكن المهمة المتوقعة لم تكن فى الواقع على هذا النحو تماما ٠ فقد كشفت المجموعة أن الرئيس ونائبه على خلاف حاد وخصام وأن الأول يحاول أن يجد فيهم حلفاء جددا ٠

وتوصلت مجموعة بالازولى عقب ذلك الى أن « المشروع السرى للرئيس يهدف الى استغلال الاخصائية النفسية لتأمين السيطرة على الشركة كلها ، بما فى ذلك الانتاج والمبيعات (التى كان يتحكم فيها بدرجة كبيرة نائب الرئيس والشريك) ٠ أما نائب الرئيس فكان مشروعه السرى هو أن يثبت تفوقه على شريكه وأن يبرهن أن سلطته ترجع الى كفاءة فنية أعلى ، كما ترجع فى الوقت نفسه الى امكانات شخصية أفضل للادارة » ٠

وذلك ليس سوى مثال بين العديد من الأمثلة الأخرى ٠ ففى الحقيقة تعمل جميع الشركات ، الصغيرة مثلها فى ذلك مثل الكبيرة فى « مجال سلطة » حيث تستخدم وتتآلف الأدوات الثلاث الرئيسية ــ القوة والثروة والمعرفة ــ بشكل مستمر وبطريقة كفيلة باعادة تعديل الاتفاقات أو يقلبها رأسا على عقب ٠

ويبقى أن الأمثلة المذكورة ، وان كانت موضوع الصحف والأنباء ، لا تعدو أن تكون صراعا « عاديا » حول السلطة ٠ وخلال العقود القادمة ،

ومع المجابهات العنيفة التى يمكن أن نتوقعها بين نظامين لخلق الثروة ، وامتداد التغيير على مستوى العالم والتصاعد المتلازم للرهانات ، فان هذه النزاعات التى تسمى حاليا « عادية » لن تشغل سوى مكانة محدودة فى لعبة الصراعات من أجل السلطة التى ستكون أكثر اتساعا وأكثر تهديدا للاستقرار من كل الصراعات التى يمكننا تذكرها .

لا يعنى كل هذا أن السلطة أصبحت هى الهدف الوحيد ، ولا أنها صـــارت تمثل كعكة محدودة سيحاول الأفراد ، ومثلهم فى ذلك مثل الشركات الكبيرة ، اقتطاع أفضل نصيب منها ، ولا يعنى ذلك أيضا أنه لا يمكن أن توجد علاقات شخصية مبنية على الأمانة المتبادلة ولا أنه لا يمكن ابرام اتفاقات « رابح رابح » ، حيث يجد كل طرف من المتعاقدين منفعته ، ولا أن كل علاقة تتحول بالضرورة الى « رابطة سلطة » بدلا من « رابطة المال » الشهيرة التى قال بها ماركس .

الا أن الأحداث تدفع الى التفكير بأنه الى جانب عمليات انتقال السلطة الضخمة التى تنتظرنا ستبدو عروض الشراء العلنية والتحولات الأخرى شيئا لا يذكر من منظور استرجاعى .

ان تدخل السلطات الجديدة سيؤثر على الاقتصاد فى جميع أشكاله ابتداء من العلاقات مع العاملين ووضع كل وحدة عاملة – تســويق – دراسات فنية – تمويل وخدمات أخرى – وانتهاء بشبكة علاقات القوى المنسوجة بين الصناعيين وتجار التجزئة وبين المستثمرين والاداريين .

ولئن كان صـــحيحا أن رجالا ونساء هم الذين ســيقومون بهذه التحولات ، وكل ما يمكن أن ينجم عنها ، فان الأدوات الرئيسيه ستظل هى القوة والثروة والمعرفة ؛ لأنه فى عالم الاقتصاد كما فى العالم بشكل عام تمثل هذه الأدوات دائما ما كان يمثله سابقا السيف والجوهرة ومرآة ربة الشمس ، أما تراسو – أومى – كامى . وكل من سوف يعجز عن فهم وادراك التعديلات التى تطرأ على هذه الأدوات سيكون حصل على جواز مرور الى عالم النسيان .

هذا فى حد ذاته قد يكون كافيا لتعريض المسئولين الاقتصاديين ، فى أشخاصهم ومنظماتهم ، لفترة ضغوط يصعب تحملها . غير أن ذلك ، ليس كل شىء ، لأنه مـــع تحول السلطـــة بالمعنى الكامل لهذا التعبير ، لن يقتصر الأمر فقط على نقل السلطة وانما يشمل تغيرا عنيفا وفجائيا لطبيعة السلطة ذاتها – لتركيب هذا المزيج من المعرفة والثروة والقوة .

ولكى نستشرف هذه التحولات الأساسية وشبكة الحدوث ، يتعين علينا دراسة دور هذه المكونات الثلاثة .. وقبل بحث امكانيـــة تقييم ما الذى سيطرأ على السلطة المرتبطة بالثروة والمعرفة يجب أن نعد أنفسنا للمشهد المزعج الذى يمثله استخدام العنف فى عالم الأعمال .

الفصل الرابع

القوة : العنصر ياكوزا

هو رجل مشهور فى عالم الأعمال توازى شهرته شهرة نجم سينمائى تتصدر زيجاته اخبار المجتمع فى الصحف والمجلات ، ويثير اسمه الخوف والانبهار فى مجتمع المال · لم يتجاوز الاربعين من عمره تملؤه الثقة ، احيانا يكون جذابا وتارة عصبيا حاد المزاج مغرم بالقراءة ·

فقد يمضى عصر يوم عطلة الأحد يجوب الجزء الجنوبى الشرقى من مانهاتن بحثا عن تاجر كتب قديمة مثير للاهتمام ، لقد جابه بعض أقوى وأعتى شخصيات عالم الأعمال ، كما كان موضوع عناوين الصفحات المالية وجمع ثروة شخصية تقدر بحوالى نصف المليار دولار ·

وهو أيضا خارج على القانون ·

وأسوأ ما فى الأمر أن القانون الذى انتهكه ليس أحد تلك النصوص، الغامضة والمعقدة ، التى تستهدف المتلاعبين فى البورصة أو جرائم الادارة العليا · القانون الذى انتهكه هو أكثر كل القوانين اثارة للاحباط ـ القانون الذى يحظر استخدام العنف ·

وها هى القصة التى يرويها ، موجزة فى خطوطها العريضة :

« لقد شب حريق فى أحد المراكز الاعلاماتية التابعة لشركتى والذى يقع فى مدينة مجاورة · وانتهى محققونا الى أن موظف ساخط قام باشعال النار ، وكانت المشكلة أنه لم يكن لدينا أدلة يمكن تقديمها للمحكمة ، فضلا عن أن الشرطة المحلية رفضت الاهتمام بالقضية ـ وعلى أية حال ،

اذا كانوا قد اهتموا ، فاننا نعلم جيدا أنه كان يتعين علينا الانتظار أبد الدهر للوصول الى أى شيء .

ومن ثم أخفينا مسجل صوت فى ملابس موظف آخر وأرسلناه الى احدى الحانات ، حيث دبر أمره للاقتراب من الشخص المشتبه فيه.واعترف هذا الشخص ، بل وتباهى بما فعل . عندئذ كان لايمكن أن أدع الفرصة تفلت . فأجرى مسئولو الأمن فى الشركة حوارا قصيرا معه وهددوه بكسر ساقيه (أو أكثر) اذا لم يستقل من شركتى ويغادر المدينة - وعلى وجه السرعة !!

هل هذا عمل غير مشروع ؟ بالطبع.وهل سأكرره ؟ يمكنكم المراهنة على ذلك ! فالحريق التالى الذى كان من المحتمل أن يشعله كان من الممكن أن يحرق العديد من العاملين في شركتى . هل كان يتعين على أن أنتظر بهدوء أن يحدث ذلك لكى تتحرك الشرطة والقضاء ؟ .

هذه القصة تذكرنا أنه يوجد فى كل شركة ما يمكن أن نسميه « نظام قمعى ثانوى » ، يعمل على هامش النظام القمعى الواضح والرسمى الذى يستهدف فرض احترام القانون ، غير أن هذه القصة تقول لنا أيضا انه يجرى تحت السطح الأملس لعالم للأعمال العادية أشياء لا يرغب أحد فى التحدث عنها .

من النادر أن نفكر ان للقوة الفظة دورا فى مجال الأعمال . لأن ملايين اللايين من المعاملات المالية التى تجرى يوميا لا توحى بأى عنف من قريب أو بعيد . فهى عمليات سلمية تماما ظاهريا بحيث لانتصور قط أن نرفع الغطاء لنري ما يمكن أن يغلى تحته .

غير أن مصادر السلطة الثلاثة التي نراها تباشر عملها في الحياة الأسرية وفى عمل الدولة أو فى كل مؤسسة اجتماعية أخرى ، هى موجودة أيضا فى الحياة الاقتصادية وكانت موجودة دائما حتى وان كان يرضينا أن نفكر أن الأمور على خلاف ذلك .

الثروة الملطخة بالدماء والثروة النظيفة :

منذ اليوم الذى قتل فيه أول صياد في العصر الحجرى حيوانا صغيرا بضربة حجر استخدم العنف من أجل انتاج الثروة .

لقد جاء فعل أخذ قبل فعل أنتج .

فهل هى مجرد صدفة أن يكرس قاموس « روجيه » الموسوعي مالايقل عن ١٥٧ سطرا لمختلف معاني كلمة أخذ - ومنها « أسر »

و « استعمر » و « غزا » و « اختطف » ، هذا فضلا عن « اغتصب » و « اختلس » ، في حين يعطى مرادفات فعل « اقترض » في ٢٦ سطرا ومرادفات فعل « « أقرض » في ٢٩ سطرا ·

لقد نقلت الثورة الزراعية ، التى ترجع بداياتها الى حوالى عشرة آلاف سنة ، الانسانية من مرحلة الغزو ـ عن طريق جنى الثمار من البرية وصيد الحيوانات والأسماك ـ الى خلق الثروات · غير أن الزراعة ذاتها كانت مشبعة بالعنف ·

كانت المقرعة أو السكين والهراوة والسوط هى أدوات الاقتصاد الزراعى مثلها فى ذلك مثل المنجل والحاصدة أو المعزقة ·

وقبل الثورة الصناعية ، حين كان أجداد أجدادنا يكدون فى فلاحة الأرض ، كان العالم كله لايقل تخلفا من الناحية الاقتصادية عن الدول الأكثر فقرا حاليا والأكثر تجردا من رؤوس الأموال · وبالتالى لم يكن هناك اقتصاديات « متقدمة » لكى يطلب منها بضعة مليارات من الدولارات فى شكل قروض أو أشكال أخرى من المساعدة الخارجية · اذن من أين أمكن أن تتولد الثروات التى مولت الثورة الصناعية فى بداياتها ؟ ·

نتج الكثير من هذه الثروات ، بشكل مباشر أو غير مباشر ، عن طريق السلب والنهب وقطع الطريق والقرصنة والسطو المسلط على العبيد والاستيلاء على أراضى الغير والأعمال الاجرامية المنظمة ، ومن مختلف عمليات الاغتصاب والابتزاز ، ومن الرعب الذى يمارسه السيد على الفلاح، ومن الهنود المستعبدين فى مناجم الذهب والفضة ، ومن الممتلكات الشاسعة التى منحها الملك أو السلطان لمقاتليه وقادة جيوشه امتنانا لهم عما قدموه فى الحروب أو من ممارسات من النوع نفسه :

تلك الثروة المكتسبة والملطخة فى البداية ببقع الدم انتقلت من الأب الى الابن ثم الى الحفيد ، وبهت لون الدم تدريجيا وأصبح ورديا ، ومع توالى الأجيال أصبحت الثروة ناصعة البياض ، وتحت هذا اللون الأبيض قامت فى أواخر القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر بتمويل أولى المنشآت الخاصة بصناعة الحديد ومصانع النسيج وشركات الملاحة ومصانع الساعات ·

فى هذه النماذج الأولى للمصانع احتفظ العنف بمكانته فى الانتاج ، فالأطفال كانوا يقومون مقام الآلات والا تعرضوا للضرب وفى المناجم كانت تعامل السيدات بشراسة وتتعرض للاغتصاب وكان الرجال فى كل مكان تقريبا يخضعون تحت تهديد الضربات ·

السجناء وحراسهم :

ان استخدام القوة لاستخلاص الثـــروة لم يتوقف مع استخدام الآلة البخارية • ففي القرن العشرين لاتزال هذه الممارســة وهذا السلوك قائمين على نطاق واسع جدا •

ففي المعسكرات السوفيتية الكريهة في فوركوتا وأماكن أخــرى ، قدم ملايين المعتقلين والسجناء الآخرين أيدى عاملة بسعر بخس للمناجم ولاستغلال الغابات حيث يقول عالم الاقتصاد السوفيتي فاسيلي سليونين : كان الهدف من المعسكرات في البداية هو ابعاد المعارضين لثورة ١٩١٧ ، وبعد ذلك ، أصبحت هــذه المعسكرات « وسيلة لانجاز مهام اقتصــادية بحتــة » • وخــلال الحرب العالمية الثــانية ، استخدمت المصــانع الهتلرية عبيدا انتزعوا من جميع أنحاء أوربا • وكانت هذه المصانع تنتج الذخـيرة والمنتجات الكيمائية ــ والجثث ! •

وفي جنوب أفريقيا ظلت المعاملة الوحشية المفروضة على الأغلبيــة السوداء تمثل شــكلا من أشــكال السيطرة على الأيدى العاملة عن طريق الكلاب البوليسية والهراوات والغازات المسيلة للدموع •

وفي الولايات المتحــدة ، كمــا في العــديد من الدول الأخرى ، دمغ تاريخ الحركة العمالية بفصول من القمع العنيف ، بلغ في بعض الأحيان درجة الارهاب • منــذ زمن « مولي ماكوايرز » وأنصــارها الذين حاولوا تنظيم عمال مناجم الفحم في بنسلفانيا في السبعينات من القرن التاسع عشر حتى أيام « فرسان العمل » في الفترة التالية ، ومنذ مذبحة هيماركت في عام ١٨٨٦ الى بدايات الحملة من أجل أن يكون يوم العمل ثماني ساعات، الى الاضراب الكبير لمصانع النسيج في جاستونيا (كارولينا الشمالية) في عام ١٩٢٩ ، الى المذبحة الجديدة في عام ١٩٣٧ حيث سقط الضحايا من العمال أمام مصانع ريبابليك ستيل للصلب في شــيكاغو ، اجتهد أرباب العمل والشرطة معا من أجل منع تكوين وتنظيم النقابات العمالية •

وحتى نهاية الثلاثينات من هذا القــرن ظلت الشركات الكبيرة في الولايات المتحدة تستخدم فتوات لتحطيم الاضرابات أو ارهاب المناضلين النقابيين وأتباعهــم • وكان من عادة شركة فورد موتورز أن تستدعي هاري بينيت وعصابته ذات السمعة المخيفة كلما طالب العاملون بزيادة في الأجور أو أبدوا رغبة في تكوين نقابة لهم •

ولم يكن قط أمرا استثنائيا أن يلجأ أرباب العمــل الى عصابات المافيا « للاعتناء » بالمناضلين من العمال • ففي كوريا الجنوبيــة وتحت

شعار « سلامة الشركة » قامت عدة شركات بتدريب وحدات خاصة مهمتها تحطيم الاضرابات ، ومنع قيام حركة نقابية . ولقد بلغ العنف فى مصنع موتورولا فى سيول درجة دفعت اثنين من العاملين الى الانتحار حرقا احتجاجا على رفض ادارة الشركة الاعتراف بالعمل النقابى .

وفى السنوات التى تلت الحرب العالمية الثانية مباشرة ، استخدم أرباب العمل اليابانيون ال « ياكوزا » ـ وهو تنظيم يشبه المافيا بدرجة كبيرة ـ بهدف تهديد المناضلين النقابيين وتخويفهم ، والآن ، وبالرغم من الدرجة العالية للتقدم الاقتصادى لليابان ، لم يمح تماما استخدام ال « ياكوزا » .

وليس من النادر رؤية ال « سوكايا » ـ وهم أشقياء يرتدون أحذية مدببة ويرتبطون بالياكوزا ، أو رجال عصابات غربيون يعملون فى خدمتها ـ يتدخلون فى اجتماعات جمعيات أصحاب الأسهم ، لاحراج الادارة أحيانا أو لحمايتها فى أحيان أخرى . ففى عام ١٩٨٧ قاطع عضو من ال « سوكايا » ، ذو أناقة صارخة ، اجتماع أول جمعية أعقبت تحويل شركة نيبون تلجراف آند تليفون الى القطاع الخاص ، واتهم أحد المديرين بأنه داعب سكرتيرته وبعد ذلك نهض عشرات آخرون لاثارة المناقشة من جديد . وسأل أحدهم لماذا اضطر الى الانتظار فى طابور أمام مراحيض المبنى . وبعد أن قدم أحد المديرين الاعتذارات ، نهض نفس الشخص وطالب بتفسيرات عن فعل بذىء اقترفه أحد العاملين فى ان . تى . تى . وأمام احتجاجات الحاضرين انتقل الى أسئلة عن وعود بالدفع لم تلتزم بها الشركة قيمتها بضعة آلاف من الدولارات ثم عن قضية تجسس هاتفى . واستمر ال « سوكايا » فى هذا الازعاج الذى كان يستهدف بالطبع احراج الشركة وليس اصلاح أدائها ، الى أن اصطفت مجموعة من الشباب الأقوياء حول القاعة وكأن الأرض انشقت عنهم ، وعندئذ غادر ال « سوكايا » القاعة بهدوء .

ان استخدام العنف فى مجال الأعمال ليس له دائما مثل هذه النهاية السلمية وهو ما أدركته اليابان يوم أن عثر على كازو كنجاكو ـ الذى كان مديرا مشهورا لأحد صناديق الاستثمارات وله علاقات بالياكوزا ـ فى مدينة أوزاكا فى كفن من الأسمنت . كما أن الياكوزا متورطة بشكل كبير فى المضاربة العقارية : فهى تتولى تهديد وتخويف ساكنى المنازل أو صغار التجار بواسطة رجال مأجورين تابعين لها ، لأنهم برفضهم الاذعان للطرد يقفون عقبة فى طريق المشروعات المربحة التى أعدها المتعهدون . وقد اكتسبت هذه الممارسات شهرة واسعة لدرجة أنها أوحت لجوزو اتامى ـ المخرج اليابانى ـ بفيلمه « مكافأة من أجل مضايقة » (١٩٨٩) .

وكانت مصالح عقارية ضخمة محل خلاف أيضا فى احدى القضايا التى حدثت مؤخـرا ، حيث أدى فشـل مشروع مالى الى اقامة دعوى تدليس ، وبهذه المناسبة تلقي المحامي الأمريكى شارلز ستيفنز ، ممثل شركة كودرت برازرز في طوكيـو عددا من التهديدات مما اضطره الى الاحتفاظ بمضرب بيسبول بشكل دائم أسفل مكتبة ، وعند الحدود الغامضة والمريبة لعالم الأعمال ، وبشكل خاص تلك المتعلقة بصناعات العروض الفنية المختلفة ، اتخذ العنف في بعض الأحيان أشكالا غريبة ٠ ففى كوريا الجنوبية حـاول موزعو الأفلام دفع الجمهور الى الهرب من دور السينما التى تعـرض أفلاما أمريكية باطلاق ثعابين فى قاعات هذه الدور ٠ وفى فرنسـا ، عقب انشـاء حديقة ملاهى ميرابوليس على أيدى مستثمرين سعوديين وبدعم من الحكومة الفرنسية وبتكلفة بلغت مائة مليون دولار ، قام أعضاء الفرق المتجولة بنثر رمال فى آليات الألعاب التى تضمها الملاهي وذلك خوفا من المنافسة ٠ وان كان فشل المشروع يعود الى أسباب مختلفة تمـاما ٠

ومن جانبهم يستخدم المرابون اليابانيون ـ « السراكين » ـ مثـل سائر المرابين « الاقناع » البدنى لارغام المقترضين على سداد ديون مبالغ فيها ، ويشق المال الذى تم ربحه بفضل هذا النوع من الأنشطة طريقه بهدوء الى قلب البنوك الكبرى والمؤسسات المالية المحترمة ؛

وفى الولايات المتحدة ، كما يحدث كثيرا في أماكن أخرى ، تحاول الشركات استخدام القوة فى بعض الأحيان لاغلاق أفواه العاملين الذين « يفشون الأسرار » ، أى العاملين الذين يلفتون الانتبـاه الى الأسـاليب غير القانونية نسبيا التى يستخدمها أرباب العمل ٠

وهو ما أرادت أن تقوم به كارين سيلكوود ولكنها ماتت فى حادث سيارة ، بعد أن كانت قد احتجت على الطريقة التي يستخدمها صـاحب الشركة التى تعمل بها فى معالجة المواد النووية ٠ وبعد الحادث بسنوات لا يزال البعض يتساءل عما اذا كان الحادث قضاء وقدرا ، ولا يستطيعون قط منع أنفسهم من الاعتقاد بأن الشركة التى كانت تعمل بها هى التى اغتالتهـا ٠

اذا كان هذا النوع من الأعمال يتخذ أبعادا خيالية ، فذلك لأن مثل هذه الممارسات قد أصبحت استثناء فى الاقتصادات المتقدمة ٠ فالتجربة اليومية للموظف الأمريكي المنكب على أوراق قوائمه ، والموظف اليابانى المتشبث بجهاز الهاتف ، والمندوب الذى يعرض عيناته على طاولة التاجر بعيدة كل البعد عن أن توحى بأقل شبهة عنف ، لدرجة أن مجرد الاشارة

الى وجوده كفيل باثارة نظرات التشكك • ولكن كون أن أغلبية المعاملات الجارية لا تنطوى على أية ممارسة مباشرة للعنف لا يعنى اطلاقا أن العنف اختفى •

لقد تم ، فى الواقع ، السيطرة على العنف ثم تحويله بحيث تم أخيرا اخفـــاؤه •

احتكار القوة :

أحد الأسباب التى جعلت ظهور العنف المباشر نادرا جدا فى اللعبة الاقتصادية يرجع الى أنه بمرور الزمن أصبح العنف يعالج بشكل متزايد « من الباطن » • فبدلا من انتاج العنف واستخدامه صراحـة ، اشترى ســادة الأعمال خـدمات الدولة : ففى كل الدول الصناعية حل العنف الرسمى محل العنف الخاص •

ان الهم الأول لسلطة كل دولة ، منذ لحظــة انشائها ، هو تأمين احتكارها للعنف : بحيث لايمارسه الا جنودها ورجال الشرطة فيها فقط •

وفى بعض الحالات ، يسيطر رأس المال الضخم سياسيا على الدولة ، بشكل يصعب معه التمييز بين سلطات خاصة وسلطات عامة ، فالفرق بينهما أدق من الشعرة • غير أن النظرية الماركسية القديمة ، القائلة بأن الدولة ليست سوى « المنفذ » للسلطة الرأسمالية المسيطرة ، تتجاهل ما نعرفه جميعا ـ وهو أن الساسة يتصرفون عامة لحسابهم الخاص أكثر منه لحساب غيرهم •

بالاضافة الى أن الماركسيين كانوا واثقين من أن الجماعات والحكومات الرأسمالية وحدها هى التى ستستخدم دائما العنف ضد العمال العزل ، ولكن كان ذلك قبل أن تحاول الشرطة الشيوعية ، المزودة بالغـــازات المسيلة للدموع وبمدافع المياه وبأدوات أكثر تهديدا أن تسحق الحركة النقابية البولندية « تضامن » فى بداية الثمانينـــات ، وقبل أن تأمر الحكومة الصينية بقتل الطلبة والعمال فى ميدان « تيان ان مين » مستخدمة قوات الشرطة والجيش ، تماما كما فعل بينوشيه فى شيلى وكما يفعل العديد من قادة النظم الأخرى المناهضة بعنف للشيوعية •

وهكذا ، فان الدولة ، وهى تمسك فى يدها وحدها بوسائل العنف مجتهدة فى استبعاده أو فى السيطرة عليه فى جميع أشكاله ، تقلل من نصيب الانتاج المستقل للعنف من قبل الشركات الرأسمالية الكبرى أو المؤسسات الأخرى •

البندقية المستترة :

اذا كان الاعتداء البدني المباشر يبدو وقد اختفى تقريبا من الحياة الاقتصادية فان ذلك يرجع الى أن العنف قد تسامى تحت شكل القانون ٠

ان أى اقتصاد حديث سواء أكان رأسماليا أم اشتراكيا يعتمد على القانون ٠ فكل عقد أو تعهد موقع عليه ، وكل سند أو صك بورصة ، وكل رهن عقارى أو اتفاق بين شركاء أو بوليصة تأمين أو دين أو اعتماد ، كل هذه الأشياء فى نهاية الأمر ، مبنية على القانون ٠

وخلف كل قانون ، جيد أو سيىء ، هناك دائما فوهة بندقية ٠ وطبقا للصيغة الموجزة للجنرال ديجول « يجب ان تكون القوة فى جانب القانون » ٠ فالقانون هو « اعلاء » للعنف (الاعلاء هو تحويل طاقة الميول المكبوتة واستنفادها فى ميادين أخرى) ٠

عندما ترفع شركة دعوة قضائية ضد شركة أخرى ، فانها بذلك تطلب من الدولة أن تستخدم قوة القانون ، وأن تشهر السلطات العامة أسلحتها نحو صدر الشركة الأخرى (أسلحة متخفية تحت تمويه كثيف من الرطانات البيروقراطية والقانونية) ، وذلك بهدف اجبارها على هذا العمل أو ذاك ٠

وليس من باب الصدفة أن يوصف محاميو رجال الأعمال فى الولايات المتحدة بأنهم « زناد للايجار » ٠

ان كثرة اللجوء للاجراءات القضائية (على نقيض الطرق الأخرى لحل نزاعات الأعمال) تعطى فى حد ذاتها صورة طيبة للدور الذى تلعبه القوة فى الحياة الاقتصادية ٠ وطبقا لهذه السمة ، فان أهميتها ضخمة فى الولايات المتحدة حيث يوجد حاليا ٦٥٥ ألف محام يعملون لصالح ٥ ملايين و ٧٠٠ ألف شركة ، أى بنسبة واحد الى تسعة تقريبا ٠ وفى كل يوم تفحص المحاكم ، المثقلة بالدعاوى والمرافعات ، أكثر من الف قضية مدنية ٠

ان رجال الأعمال الأمريكيين يندددون بشدة بالتواطؤ بين الحكومة اليابانية والصناعة فى اليابان وهو ما يعتبرونه عملا لايتسم بالأمانة ٠ ولكن ، بمجرد أن يتعلق الأمر بتسوية نزاع ، فان الأمريكيين وليس اليابانيون هم الذين يندفعون ، وبشكل مثير للفضول ، للجوء للقضاء ، أى من أجل مطالبة سلطات الدولة بالتدخل بدلا منهم ٠

فابتداء من أبسط نزاع تجارى وحتى الدعوى القضائية بين بنز أويل وتكساكو بخصوص عرض شراء علنى ، وهى الدعوى التى تتضمن مليارات

من الدولارات ، دائما ما تتوارى القوة خلف القانون ـ تلك القوة التى تستتبع كتحليل أخير اللجوء الافتراضى للعنف .

كما يمكن أن نعتبر مساهمات الشركات فى الحملات الانتخابية وسيلة مقنعة لاستدراج الحكومة ، كى تشهر مسدسها لصالح هذه الشركة أو تلك أو لصالح صناعة أو أخرى .

ففي اليابان باع هيرومازا ازوى رئيس شركة ريكروت كميـات ضخمة من الأسهم ، بأسعار أقل بكثير من سعرها الفعلى ، لأقوى رجال الحزب الليبرالى الديمقراطى الحاكم .

وكانت محاولة الاغراء صارخة لدرجة أن احتجاج وغضب الصحافة والجمهور اضطر رئيس الوزراء نوبورو تاكشيتا الى الاستقالة . وفى ألمانيا الغربية كانت هناك فضيحة مماثلة وقعت قبل ذلك بقليل ، وهى الخاصة بامبراطورية فليك التى كان مديروها يوجهون الأموال بشكل غير مشروع نحو خزائن مختلف الأحزاب السياسية .

كذلك ينفق اليابانيون أكثر من ٦٠ مليار دولار سنويا ـ هو مبلغ يفوق ما يدفع لمشتريات السيارات ـ على ١٤٥٠٠ صالون من « صالونات الباتشينكو » حيث يتبارى اللاعبون بأن يرموا على سطح مائل كرة من الصلب ، ويجب أن تقع الكرة فى الحفرة المطلوبة ، بعد أن تكون قد تفادت العديد من العراقيل . ويحصل الفائزون على جوائز يمكن تحويل بعضها الى نقود سائلة .

ويستهدف نشاط الباتشينكو التهرب الضريبى وغسيل الأموال القذرة لأنه نشاط يعمل بالنقود السائلة ، مثله فى ذلك مثـل قاعات القمار الأمريكية . وفى الوقت نفسه تفرض العصابات على هذه الصالونات حماية مدفوعة الأجر ، وقد تتصارع من أجل السيطرة على أكثر هذه الصالونات ربحية . ولاستبعاد خطر أى تشريعات قد تسمح بفتح دفاترهم المحاسبية للشرطة ، ساهم مديرو هذه الصالونات بسخاء فى تمويل الحزبين السياسيين الرئيسيين .

وفى كل مرة تذهب فيها الأموال الواردة من الشركات ومن رجال الأعمال الى الأحزاب أو المرشحين ، يكون من الممكن افتراض أنهم يفعلون ذلك انتظارا لتبادل الخدمات . ففى الولايات المتحدة ، وبالرغـم من الاصلاحات المتتالية والتعديلات للوائح المنظمة لعمليـة تمويل الحملات الانتخابية فان كل الفروع الصناعية المهمة لا زالت تواصل تقديم الأموال الى أحد الحزبين الكبيرين ، أو لكليهما ، بغية شراء على الأقل ضـمان الاستماع الى وجهة نظرها الخاصة . ولايكفون عن اختراع طرق جهنمية

من أجل التملص من المحظورات القانونية أو تجنبها ، منها على سبيل المثال رصد مكافآت مبالغ فى قيمتها لمحاضر معين أو شراء كتب كاسندة أو تقديم القروض العقارية أو تسهيلات اقراض بفائدة ضعيفة ٠

ان مجرد وجود الدولة يولد فى الاقتصاد مجموعة غير متعمدة من الاعانات والاعانات المضادة ومن العقوبات والعقوبات المضادة ، ويتم ذلك فى الغالب بطريقة غير مباشرة وغير ظاهرة ٠

وبما أن عمل الدولة يعتمد فى نهاية المطاف على القوة - بمعنى آخر على البنادق والشرطة والجيش - فان تصور اقتصاد لاتتدخل فيه السلطة ولا القوة انما يجسد رؤية صبيانية ٠

غير أن السبب الأخير والأكثر أهمية الذى من أجله تلجأ الشركات الكبرى - وحتى الحكومات - الى العنف المباشر بدرجة أقل مما كان يحدث فى العصر ما قبل الصناعى أنهم اكتشفوا أداة سيطرة أفضل ٠

هذه الأداة ليست سوى النقود ٠

مسار السلطة :

لا ينبغى أن يدهشنا بقاء السلطة - بل وحتى العنف - عنصرا مكونا لعالم الأعمال ٠ ولكن مايدعو بالفعل للدهشة هو التغير الذى طرأ على طريقة استخدام القوة ٠

لو عاد من جديد ، أحد ملاك العبيد أو سيد اقطاعى من الأزمنة القديمة الى العالم الحالى ، فانه سيجد صعوبة فى تصديق أننا نضرب العاملين بدرجة أقل وبالرغم من ذلك فانهم ينتجون أكثر ، بل انه سيجد ذلك شيئا مذهلا ٠

وبالمثل ، وطبقا للعرف والتقاليد ، سيشعر أى قبطان سفينة بالحيرة عندما يعلم أن تجنيد البحارة لايتم الآن بشحنهم بالقوة على ظهر السفينة ، وأن السياط لم تعد وسيلة قيادتهم ٠

بل ان أى نجار أو دباغ من القرن الثامن عشر كان سيقف مشدوها حين يسمع أنه لم يعد من حقه (قانونا) أن يصفع أو يلكم صبيه الوقح ٠ لننظر مثلا الى لوحة (العمل والكسل) التى رسمها « هوجارث » فى انجلترا فى عام ١٧٤٧ : نشاهد فى الرسم اثنين من الصبية ، أحدهما منهمك فى العمل على نوله بادى السعادة بينما الآخر ينام وهو جالس ٠ ومن جهة اليمين يقترب رب العمل فى غضب رافعا عصاه التى ستعاقب البطالة ٠

لقد أسهم القانون والعادة فى العالم الحديث فى حصر الاستخدام الصريح للقوة • ولكن تحول العنف الى مجرد آثار فى الحياة الاقتصادية لم يكن ثمرة للاحسان المسيحى ولا لنزعة الايثار المحببة •

وفى الحقيقة ، ان الصفوة الاجتماعية التى كانت تعتمد من قبل على استخدام سلطة دنيا ممثلة فى العنف قد انتقلت خلال العصر الصناعى الى سلطة ذات نوعية متوسطة ممثلة فى المال •

ومما لاشك فيه أن المال لايحدث دائما نفس النتائج المباشرة التى قد تحدثها لكمة فى الوجه أو فوهة مسدس فى الضلوع • ولكن لأن المال يمكن استخدامه للمكافأة وللعقاب فى آن واحد ، فانه يمثل أداة سلطة أكثر مرونة وتكيفا ـ خاصة عندما يظل اللجوء النهائى للعنف قائمـــا وممكنـــا •

واذا كان المال لم يصبح قبل ذلك الوســـيلة الرئيسية للسيطرة الاجتماعية ، فان السبب ببساطة هو أن الجزء الأكبر من المجتمعات البشرية كان لايزال خارج الاقتصاد النقدى • فقبل العصر الصناعى ، كان الفلاحون ينتجون بأنفسهم غذاءهم الأســـاسى ، وكانوا يبنون مساكنهـم بأيديهم ويصنعون ملابسهم • ولكن منذ أن حلت المصانع محل المزارع ، توقف الناس عن اطعام أنفسهم بأيديهم وباتوا يعتمدون على المال من أجل البقاء • ان الاعتماد الكامل على النظام النقدى ، فى مواجهة نظام الاعاشة الذاتية القديم ، بدل كل علاقات السلطة •

وكما رأينا فى السطور السابقة فان العنف لم يختف ، ولكن كلما أصبح المال ، خلال القرون الصناعية الثلاثة الماضية ، هو الحافز الرئيسى لقوة العمل والأداة الأساسية للسيطرة الاجتماعية ، تغيرت وتبدلت وظيفة العنف وشكله •

لذلك نجد أن كل المجتمعات الصـــناعية ، اشتراكيـــة كانت أم رأســمالية ، بدت أكثـــر جشعا وشراهة للربح ، وأصبحت فكرة المال هاجسها بدرجة لا نجدها فى الحضـارات ما قبل الصـناعية التى كانت دونها فى الثروة ، وليس معنى هذا أن النهم الى المال حديث ، فهو قديم قدم التاريخ ، ولكن التصنيع هو الذى جعل من المال الأداة الجوهرية للسلطة •

باختصار ، لقد أدى ظهور الدولة الأمة/الصناعية الى احتكار العنف فى يد قطاعات معينة والى تسامى العنف فى شكل القانون ، والى اعتماد

متزايد للجماهير على المال • هذه التغيرات الثلاثة أعطت لصفوة الشركات الصناعية الحاكمة امكانية استخدام الثروة بشكل مضطرد ، بدلا من القوة المباشرة ، من أجل فرض ارادتها على التطور التاريخى •

وهنا يكمن المعنى الحقيقى لتحول السلطـــة الذى لايؤدى فقط الى انتقال السلطة من شـخص أو مجموعة ، الى شـخص آخـر أو مجموعة أخرى ، ولكن الى تغيير أساسى فى نسب مزيج العنف والثروة والمعـرفة التى يستخدمها الأسياد لكى يظلوا سادة •

وكما حولت الثورة الصناعية العنف الى قانون وحق ، فاننـــا فى طريقنا الى تحويل المال ـ وفى الواقع الثروة بمعناها العـــام ـ الى شىء جديد • لقد أعطى عصر المصنع المال دورا جوهريا فى امتـــلاك السلطة أو الاحتفاظ بها • وعشية القرن الواحد والعشرين علينا أن نواجه هذا المنعطف التاريخى الجديد والكبير الذى يمثله بزوغ مصـــــادر جديدة للسلطة •

الفصل الخامس

الثروة : مورجان وميلكن وماذا بعد ؟

فى عام ١٩١٢ كان جون بيربونت مورجان يمثل خلاصة وزبدة الراسمالية المالية فى العصر الصناعى والرمز الأمثل لسلطة المال فى بداية هذا القرن •

فقد كان يهيمن على ثلاثة أو أربعة مصارف عملاقة وثلاث شركات كبرى منظمة فى شكل « ترست » وعدد مماثل من شركات التأمين على الحياة وعشر شبكات سكك حديدية ، فضلا عن سيطرته على شركات يونيتد ستيتز ستيل وجنرال الكتريك وأمريكن تليفون آند تليجراف ووسترن يونيون وانترناشيونال هارفستر •

كان فى آن واحد زير نساء وداعية للأخلاق الحميدة ومواظبا على الشعائر الدينية وحضور القداس فى الكنيسة • وكان يعيش فى جو من الرفاهية والثراء والزهو والمباهاة •

وكان مورجان ينظر باستعلاء الى اليهود والأقليات الأخرى وكان يكره النقابات ويسخر من الأغنياء الجدد وحارب دون هوادة « البارونات اللصوص » الآخرين فى زمانه •

ولد مورجان فى أسرة مترفة فى فترة ندرت فيها رؤوس الأموال ، كان متصلفا وعنيفا وعصبيا ، يسحق منافسيه بوحشية ويلجأ أحيانا الى وسائل لو طبقت الآن لدخل من جرائها السجن •

كان مورجان يستخدم رؤوس الأموال الضخمة التى قام بتجميعها فى حقن الفروع الصناعية الكبرى للعصر الصناعى ـ أفران بسمر أو حافلات بولمان أو مولدات أديسون وكذلك الموارد المعدنية مثل البترول والنيترات والنحاس أو الفحم •

غير أنه لم يقتصر على انتهاز الفرص السانحة ، وانما ساهم عن طريق توقعاته الاستراتيجية ، فى اقامة الاقتصاد الأمريكى الصناعى كما عجل بنقل مركز الثقل فى السلطات السياسية والاقتصادية من القطاع الزراعى الى القطاع الصناعى ، ومن الانتاج الى التمويل ٠

وأخيرا ، كان يقال انه قد « مرجن » الصناعة الأمريكية حيث خلق نظـــاما متسلسلا هرميا يسيطر عليه المـال ، أى أنه قام ـ حسب قول معارضيه ـ بخلق « اتحـــاد مالى احتكارى » يتحـكم فى تدفقات رؤوس الأموال الأساسية ٠

وكان دأب مورجان أن ينكر تمتعه بأية سلطة واستغل هذا رسامو الكاريكاتير ، فقد صوره أحدهم جالسا على جبل من النقود كتبت عليـــه عبارة « السيطرة على ٢٥ مليار دولار » ، ورسمه آخر فى شكل امبراطور عبوس والتاج على رأســه بينما يمسك بأسلحة قتالية فى يد وفى اليد الأخرى بكيس نقود ٠

واذا كان البابا بيوس العاشر اعتبر مورجان « رجلا صالحا » فقد اعتبرته صحيفة بوسطن كومرشيال بولتان أحد أباطرة المال المهووسين بالثروة والسلطة ، « يزعق » بأوامره للبورصات والأسواق المالية ومديرى الشركات والمحاكم والحكومات والأمم » ٠

كان مورجان يركز رأس المال ، فيدمج الشركات الصغيرة فى شركات أكبر ، وأكثر احتكارا ٠ كان يهدف الى تمركز السلطة ورؤوس الأموال ويعتبر القيادة من أعلى مبدأ مقدسا ، والتكامل الرأسى أكثـر الطرق فعالية ، كان يعرف أن المستقبل يكمن فى الانتاج بالجملة ويحرص على ضـمان استثمـــاراته بأصـــول « مادية » ـ (مصـــانع ـ معـــدات ـ مواد أوليـــة) ٠

وكل ذلك ، يجعل منـه تجســيدا شبه كامل للحقبة الصناعية الأولى الكبرى التى ساهم فى خلقها ٠ وسواء أكان مورجان قد شعر بأنه « قوى » ولديه سلطة أم لا ، فان السيطرة على أموال ضـخمة فى فتـرة اتسمت بندرة فى رؤوس الأموال منحته فرصا لاحصر لها لمعاقبة أو مكافأة الآخرين ولتحقيق تغيير واسع النطاق ٠

المكتب الذى يتخذ شكل حرف أكس :

عندما ظهر اسمه لأول مرة فى العناوين الرئيسية كان ميخائيـل ميلكن قد تجاوز الأربعين من عمره : كان رجلا شـــديد التحفظ يعمل باستبسال كأحد النواب الرئيسيين لرئيس « دريكسل بورنهام لامبرت » ٠ وهو بنك استثمار كان مورجان أحد مؤسسيه فى عام ١٨٧١ ٠ وقد يكون

اللقب خادعا ، ففي الواقع لم يكن ميلكن نائب رئيس من بين نواب آخرين ولكنه كان المهندس لتنظيم جديد تماما لعالم التمويل الأمريكي وسرعان ما اعتبره الكثيرون جيه ٠ بي ٠ مورجان العصر ٠

ففي الثمانينات أصبح دريكسل أحد أكثر بنوك الاستثمار نشاطا في وول ستريت ، وهو يدين بالجزء الأكبر من هذا التطور المذهل لجهود ميلكن المستميتة ٠ وكان البنك قد عهد اليه بادارة شركة مستقلة بدرجة كبيرة ، على بعد خمسة آلاف كيلو متر من المقر الرئيسي ٠ فأقام مكاتبه في بيفرلي هيلز في كاليفورنيا في مواجهة فندق بيفرلي ويلشير ٠

وكان ميلكن يصل الى مكتبه ما بين الساعة الرابعة والنصف والخامسة والنصف صباحا ، لكي يستطيع ترتيب بعض المواعيد قبل افتتاح بورصة نيويورك على بعد ثلاث مناطق زمنية من مكان مكتبه ٠ وكان مديرو الشركات الكبرى القادمون من نيويورك أو شيكاغو يتسكعون ، بعد سفر متعب ، في طرقات هذه الشركة الجديدة ، عيونهم حمراء وقبعاتهم في أيديهم ، طلبا للتمويل ٠ فأحدهم يريد بناء مصنع جديد والآخر غزو أسواق جديدة والثالث شراء شركة جديدة ، يأتون جميعا الى هذا المكان لأنهم يعلمون أن ميلكن يستطيع أن يجد لهم رؤوس الأموال التي يريدونها ٠

منذ الصباح وحتى المساء كان ميلكن يجلس في قلب مركز عمليات ضخم على شكل حرف اكس ، يهمس ويحرك مقعده في جميع الاتجاهات ، يبيع ويشتري ، يصرخ أحيانا ، تحيطه دائما دوامة من العاملين المربوطين الى أجهزة الهاتف وشاشات الكمبيوتر ٠ انطلاقا من هذا المكتب ، أعطى ميلكن للاقتصاد الأمريكي شكله الجديد ، على غرار ما قام به مورجان في زمن سابق ٠

ان اجراء مقارنة بين أساليبهما وأفعالهما تمكننا من معرفة الكثير عن طريقة السيطرة على رأس المال ـ وبالتالي على السلطة الاجتماعية للنقود ـ وهي في طريقها للتحول ٠ لنضاه أولا شخصيتهما ٠

ميلكن مقابل مورجان :

كان جيه ٠ بي ٠ مورجان رجلا بدينا مهيبا ذا هيئة مخيفة ، أما ميلكن فهو طويل نحيف حليق الذقن مهندم ٠

ولد مورجان وفي فمه ملعقة من فضة أما ميلكن فكان يجمع الملاعق المتسخة من على موائد المقهى حيث عمل لفترة كمساعد نادل ٠

كان مورجان يتنقل ما بين وول ستريت ومحل اقامته فى مركز مانهاتن أو بيته فى وادى هودسون أو قصوره الأوروبية الفخمة ، بينما يسكن ميلكن حتى الآن بيتا من القرميد والخشب لايتسم بأى مظهر من مظاهر الفخامة ، فى انسينو بوادى سان فرناندو بلوس أنجلوس ، وهى ليست من المناطق الراقية • ومع أنه نادرا ما كان يبتعد عن ساحل المحيط الهادىء كان يركز أنظـــاره على اليـــابان والمكسيك والمناطق النامية فى الجنـــوب •

وبينما كان مورجان يحيط نفسه دائما بسيدات بارعات الحسن والجمال ويترك زوجته وأسرته يعانون الضجر والملل فى غيابه ، نجد أن ميلكن زوج ورب أسرة صالح بكل المقاييس • كان مورجان يمقت اليهود أما ميلكن فيهودى •

وفى حين كان مورجـــان يحتقر النقابات ، تولى ميلكن منصب المستشار المالى لكل من نقابات السكك الحديدية والنقل الجوى والملاحة البحرية • بينما كانت فكرة امتلاك العاملين للشركة التى يعملون بهـــا ستبدو لمورجان استفزازا شيوعيا ، فان ميلكن كان من أنصار امتلاك العاملين للشركات ويعتقد أن هذه الملكية ستلعب دورا اقتصاديا مهما فى الولايات المتحدة خلال السنوات القادمة •

لقد اكتسب الرجلان سلطة شخصـــية كبيرة وجعلا الصحف تتكلم عنهما كثيرا ، وكان كل منهما محل تحقيقات رســمية بســبب مخالفات حقيقية أو مفترضة • ولكن الأهم من كل ذلك أنهما عدلا هيكل السلطة فى الولايات المتحدة طبقا لاتجاهات أو توجهات مختلفة تماما •

فتح الأبواب :

فى ٤ يوليو ١٩٤٦ ، يوم ولادة ميلكن كان الاقتصـــاد الأمريكى تسيطر عليه شركات عملاقة أسس أغلبها مورجان • كانت جنرال موتورز وجود ييرتايرز وبور لينجتون ميلز وبتلهايم ستيل تمثل أفضل ما فى هذا العالم الجميل • وكانت الشركات الصناعية المسماة « بلو شيبس » تملك قوة سياسية واقتصادية ضخمة وضاربة تمكنها من أن تتصرف كمـــا لو كانت الولايات المتحدة ملكا لها • وقد اكتسبت هذه القوة من مندوبيها وعملائها السياسيين ومساهمتها الانتخابية وجمعياتها المهنية ، فضـــلا عن منظمات مثل الاتحاد الوطنى لأصحاب المصانع •

وقد تعززت سلطة هذه الشركات بشكل متزايد من خلال التأثير الذى كانت تمارسه على وسائل الاعلام بواسطة ميزانيات الاعلان الضخمة

لديها وبحكم قدرتها ولو نظريا ، على غلق أحد المصانع فى الدائرة الانتخابية لعضو برلمان مناهض لها ، الأمر الذى يترتب عليه نقل الاستثمارات وفرص العمل الى مناخ سياسى أكثر ملاءمة بالنسبة لها . وكانت هذه الشركات تنجح غالبا ، فى اقناع النقابات التى تمثل العاملين لديها بالانضمام اليها فى حملة ضغط مشتركة .

كانت « سلطة المصنع » من أكثر السلطات تمتعا بالحماية من جانب قطاع مالى جعل من الصعب على المنافسين تحدى سيادة وتفوق « البلو شيبس » .

وقد ظل الهيكل الأساسى للسلطة الصناعية بدون تغيير يذكر حتى منتصف القرن العشرين حيث بدأ يحدث ما هو جديد . ففى عام ١٩٥٦ ، عندما كان ميلكن لايزال فى المدرسة الابتدائية ، حدث لأول مرة أن تجاوز عدد العاملين فى قطاع الخدمات « والياقات البيضاء » فى الولايات المتحدة عدد « الياقات الزرقاء » . وعندما بدأ ميلكن عمله كموظف صغير فى أحد بنوك الاستثمار كان الاقتصاد قد بدأ بالفعل انتقاله المتسارع الى نظام جديد لخلق الثروة .

كانت أجهزة الكمبيوتر والأقمار الصناعية والتنوع الواسع للخدمات وتجاوز الاقتصاد للحدود الاقليمية ليشمل الكرة الأرضية ، كل ذلك كان فى طريقه لخلق بيئة جديدة يحكمها التغيير . غير أن القطاع المالى المحصور داخل أفكاره المسبقة ، والمحمى بالتشريعات ، كان يمثل عقبة رئيسية فى طريق التطور .

حتى السبعينات كان ديناصورات « البلوشيبس » يحصلون على الفور على رؤوس أموال طويلة الأجل ، بينما الأمر كان أكثر صعوبة بكثير بالنسبة للشركات الأصغر حجما أو التى تعمل فى مجالات مبتكرة .

فقد كان « وول ستريت » هو قبلة العالم المالية وكانت تحرس أبوابه شركتان هما موديز وستاندارد آند بورز . وكان عملهما « خدمات التقييم » حيث كانتا تقومان بتحديد معدلات المخاطرة للسندات . وطبقا لتقييمهما فان حوالى ٥٪ فقط من الشركات الأمريكية كان لها « قيمة استثمارية » .

وبالتالى وجدت آلاف الشركات نفسها مطرودة من سوق القروض طويلة الأجل وليس أمامها الا اللجوء الى خدمات البنوك وشركات التأمين ، نظرا لعدم قدرتها على اصدار سندات .

لقد درس ميلكن مخاطر الاستثمار فى جامعة كاليفورنيا (بركلى) ثم فى وارتون سكول بجامعة بنسلفانيا . واكتشف أن العديد من الشركات

الصغيرة نسبيا التى استبعدتها وول ستريت سددت فى الماضى ديونها ونادرا ما أخلت بالتزاماتها وكانت مستعدة أن تدفع أكثر من سعر الفائدة الجارى لمن يقبل سنداتها ·

ان هذه الرؤية الحدسية والمعاكسة للتيار السائد هى التى أوجدت السندات ذات العائد العالى المسماة « جنك بوندز » ـ أى « سندات زهيدة القيمة » ـ وأخذ الشــاب ميلكن على عاتقه عندما بدأ عمله فى دريكســل أن يبيعهــا للمستثمرين وتفـانى فى عمله كما لو كان أحد المبشرين ·

ان تفاصيل الحكاية لا تهم كثيرا هنا ، المهم أن ميلكن حقق نجاحا لم تكن تتوقعه أكثر الخيالات جنونا ، فقد استطاع بمفرده تقريبا أن ينهى العزلة المالية التى ظلت شركات الصف الثانى أسيرة لها حتى ذلك الوقت· وكان الأمر أشبه بانهيار سد ، فقد تدفق رأس المال فى هذا الطريق مرورا بدركسيل : بحيث بلغت قيمة السندات المتداولة فى سوق «الجنك بوندز» فى عام ١٩٨٩ رقما فلكيا وصل الى ١٨٠ مليار دولار ·

فبدلا من خلق « احتكار للمال » على طريقة مورجان جعل ميلكن الأنشطة المالية أكثر تنافسية وأقل احتكارا · لقد فتح الأبواب وحرر آلاف الشركات من تبعيتها للبنوك وشركات التأمين ، وفى الوقت نفسه ، تأثرت بذلك شركات وول ســتريت الوقحة التى أنشئت فقط لخــدمة « البلوشيبس » ، حيث وجدت نفسها بلا دور بعد أن أتاحت سندات ميلكن لأصحاب الشركات فرصة التوجه مباشرة الى الجمهور والى المقرضين التابعين للمؤسسات ـ مثل صناديق المعاشات ـ للحصول على رؤوس الأموال اللازمة لبناء وحدات انتاج جديدة أو لتوسيع الأسواق أو للأبحاث والتطوير أو لشراء شركات أخرى ·

ان حوالى ٧٥٪ من كتلة سندات « الجنك بوندز » قد مولت وبشكل طبيعى تماما ، ابتكارات تكنولوجية ، أو فتح أسواق جديدة أو أهدافا أخرى لا تدعو لأى جدل أو خلاف ·

وكانت احدى أهم الحجج التى تقدمها دريكسل فى دعايتها ، هى أن مستوى العمالة لدى العمالقة القدامى « البلو شيبس » لا يزال متأخرا عن النمو الاقتصادى ، بينما الشركات المتوسطة التى يتم تمويلها بواسطة دريكسل يزيد فيها عدد الوظائف الجديدة بسرعة أكبر من المتوســط السائد فى البلاد · غير أن جزءا من رأس المال الذى تم توفيره عن طريق ميلكن جرى استخدامه فى عروض شراء علنية تحولت الى معركة مواجهة مخططــة ·

ولقد احتلت صراعات القوى المذهلة عناوين الصحف وجعلت الجمهور والبورصة على حد سواء ، في حالة يقظة واستنفار مستمرين . كانت الأسعار ترتفع أو تنخفض بشكل جنوني على ايقاع شائعات عروض الشراء العلنية التي شملت بعض الشركات الأمريكية الشهيرة . وكان يتم ابرام صفقات لا تمنح المستثمر أي نسبة توازن مقبولة بين المخاطر واحتمالات الربح . وفي فيض من هذه المضاربات ، تكونت أهرامات من الديون على أسس غير حقيقية . وكان سائقو التاكسي وجارسونات المقاهي يناقشون آخر الأنباء ويتصلون بسماسرتهم في البورصة ، على أمل تحقيق مكاسب ضخمة من الارتفاعات المذهلة المتوقعه ، عندما يقوم المتنافسون في عمليات البيع المنظم للأسهم ، بالمزايدة على أسهم وسندات الشركات « القابلة لعروض الشراء العلنية » . ودخلت شركات أخرى في وول ستريت سوق « الجنك بونز » ، وأفلت زمام الآلة المالية التي كونها ميلكن ودريكسل من أيديهما وتحولت الى عربة طائشة لا يمكن السيطرة عليها .

وانتهت هذه الاضطرابات العنيفة التي شابتها في أغلب الأحيان صراعات ضارية على السلطة والنفوذ الشخصي ، بمجزرة للأبرياء . فقد « انكمشت » شركات ، وفقد عمالها وظائفهم . وفي ظل هذه الظروف لم يكن مستغربا اندلاع هجوم مضاد وأن يكون ميلكن هو هدفه الرئيسي .

الهجـــوم المضـــاد :

عندما فتح ميلكن صمامات خزائن رؤوس الأموال عنوة ، زعزع بذلك الصرح الكامل لسلطة العصر الصناعي في الولايات المتحدة . لقد زاد ميلكن من ثروة دريكسل بورنهام (دون أن ينسى نفسه ، وذلك بمعدل مذهل بلغ ٥٥٠ مليون دولار لعام ١٩٨٧ وحده) ، ولكنه في الوقت نفسه ، كسب أعداء عتاة من مجموعتين قويتين للغاية . تضم المجموعة الأولى شركات وول ستريت العتيـدة ، والتي كانت قد خنقت من قبـل تدفق رؤوس الأموال ، أما المجموعة الثانية فكانت تضم قادة أكبر الشركات . وكان لديهما أفضل الأسباب للعمل على سحق ميلكن اذا أمكن ، ولكل منهما حلفاء أقوياء في الحكومة وفي وسائل الاعلام .

في البداية ، هاجمته الصحف بوحشية ووصفته بأنه تجسيد مطلق لتجاوزات الرأسمالية ، ثم سقط ميلكن بعد ذلك تحت وطأة قرار اتهام فيدرالي يتكون من ٩٨ نقطة : فقد اتهم بالتدليس في أوراق مالية متداولة في البورصة والتلاعب في السوق والاحتفاظ بشكل غير قانوني بأوراق مالية كانت ملك ايفـان بويسكي أحـد رجال البورصـة الذي سبقت اذانته في جريمة مالية تتعلق بالاطلاع على سر وبيعه أو الاستفادة منه . وأمام تهديد الحكومة الفيدرالية باستخدام سلطات قانونية واسعة معدة

أصلا لمكافحة المافيا وليس لمعاقبة مخالفات خاصـة بالبورصة ، اضطرت دريكسـل أن تقطع صلتها بميلكن وأن تدفع للعـم سـام غرامة ضخمة قيمتها ٦٥٠ مليون دولار ٠

وفى الوقت نفسه ، بدأت عمليات استرداد الأوراق المالية السيئة تتحول الى كارثة ، مما بث الرعب لدى المستثمرين ودفع أسعار « الجنك بوندز » الى الهبوط بشكل واضح ـ السندات القوية منها وغير المضمونة على حد سواء ٠ ووجدت دريكسل نفسها وقد أصبح ظهرها للحائط وحاولت دون جدوى أن تستعيد توازنها ، بعد الغرامة الضخمة التى دفعتها، فضلا عن أنها كانت تحتفظ بما قيمته مليار دولار من سندات « الجنك بوندز » ولكنها انهارت وكان لانهيارها دوى الرعد ٠ أما ميلكن الذى حاكمته وأدانته الصحافة فقد انتهى الأمر بادانته فى ست مخالفات فقط فى اطار اتفاق معقد تم بموجبة اسقاط كل الاتهامات الأخرى ٠

وكما كان الحال بالنسبة لمورجان فما يهم الولايات المتحدة ليس معرفة ما اذا كان ميلكن قد انتهك القانون أم لا ، وانما تقييم التأثير الذى أحدثه على المالية الأمريكية ٠ لأنه بينما سـوق المال الأمريكية تعيـد هيكلة قطاعات أخرى كان ميلكن يعيد هيكلة هذه السوق ذاتها ٠

لقد عرفت كل البلدان منذ زمن بعيد ، الصراع بين الذين يريدون تقييد الوصول الى رأس المال ، من أمثال مورجان ، والذين يكافحون من أجل توسيع قاعدة الوصول اليه مثل ميلكن ٠

وقد كتب البروفسـير جلين ياجـو من جامعة ولاية نيويورك (ستونى بروك) العبارة الآتية : « لقد دار صراع طويل من أجل تجديد أسواق رأس المال الأمريكية بهدف تيسير سبل الوصول اليها ٠ ففى القرن التاسع عشر ناضل المزارعون للحصول على قروض [٠٠٠] ونجم عن ذلك زيادة فى الانتاجية الزراعية ٠ وفى الثلاثينات من هذا القرن قطعت البنوك القروض عن أصحاب الشركات الصغيرة ، ولكنهم حصلوا على مساعدات رغما عنها ٠ وبعد الحرب العالمية الثانية حاول العاملون والمستهلكون الاقتراض لشراء منازلهم أو لدفع تكاليف الدراسة الجامعية ٠ وبالرغم من مقاومة أعداء وصول الشعب الى مصادر القروض فان الأسواق المالية لبت الطلب وازدهرت البلاد » ٠

واذا كان صحيحا أن الافراط فى الاقراض قد يسبب تضخما ، فان هناك فرقا بين تسـهيل سـبل الوصـول الى رأس المال والافراط فى الاقراض ٠ وكان ميلكن يستطيع « أن يؤكد وبشكل مقبول [٠٠٠] أن ما قام به من توسيع قاعدة الوصول الى رأس المال أدى الى تقدم « دمقرطة رأس المال » ، وذلك باعتراف كونى بروك أحد أكثر أعداء ميلكن شراسة ٠

وهو ما يفسر أن بعض النقابيين الأمريكيين السود قد دافعوا عن ميلكن فى أوقاته الصعبة ٠

باختصار ، لقد غير مورجان وميلكن عالم التمويل الأمريكى ، ولكنهما فعلا ذلك فى اتجاهات متعارضة ٠

الفوط الصحية وتأجير السيارات :

بالاضافة الى ذلك ، كان مورجان الممثل المثالى للمركزية والتركيز ، فهو يعمل مفترضا أن المجموع يساوى أكثر من حاصل جمع الأجزاء ، فى حين كان ميلكن وغالبية من يمولهم من أنصار الفرض المعاكس ٠ لقد شهدت فترة الستينات والسبعينات تكون « تجمعات » مهولة بدون هدف محدد وهى تجمعات تنقصها المرونة ـ شركات ضخمة تقوم على ادارة بيروقراطية وايمان أعمى بمزايا « اقتصاد الأحجام الكبيرة » و « التآزر بين حركة الأجزاء تدعيما للكل » ٠ وعلى النقيض ، مولت السندات التى باعها ميلكن عروض شراء علنية تهدف الى تفكيك هذه الكائنات الضخمة لخلق شركات أقل ثقلا ، وأكثر قدرة على المناورة والحركة ، والتوجه الاستراتيجى ٠

وعلى الصعيد العملى ، أدت كل عروض الشراء العلنية التى ساندها ميلكن الى انفصال فروع أو وحدات متميزة ، لأن الأجزاء كانت « تساوى فى الواقع أكثر » من المجموع ، واتضح أن عمليات التآزر أقل مما كان متصورا ٠

ومن الأمثلة الصارخة على ذلك ، تفكك شركات بياتريس كمبانيز ، وهى عبارة عن تجمع بشع كان يضم بشكل يفتقر الى المنطق شركة افيز لتأجير السيارات وشركة لتعبئة زجاجات كوكوكولا وشركة بليتكس للملابس الداخلية وشركة لانتاج الفوط الصحية ، بالاضافة الى المنتجات الغذائية التى كانت تمثل فى السابق النشاط الرئيسى لهذه الشركة ٠٠ وبعد اعادة بيع العناصر المتنافرة لشركات أخرى ، انكمشت شركة بياتريس ، ولكنها باتت تعمل بمهارة أكبر فى قطاعات غذائية متعددة خاصة الأجبان واللحوم ٠ وبالتوازى باعت شركة بورج وارنر ذات النزعة الصناعية فرعها للعمليات المالية ٠ وتخلت شركة ريفلون عن فرع التجهيزات الطبية ووحدات أخرى لا صلة لها بنشاطها المركزى ، وهو مستحضرات التجميل التى تمتلك فيها الشركة خبرة كبيرة ٠

وبتسهيل سبل الوصول الى رأس المال ساعد ميلكن أيضا الشركات الوليدة فى الفروع الجديدة فى مجال الخدمات والمعلومات لتقوم بخطواتها الأولى ٠

بالطبع ، لم يكن ذلك هدفه الرئيسى فقد كان مستعدا لتمويل الصناعات القديمة أيضا • ولكن يبقى أنه كان يقوم بذلك فى لحظة كان مجموع الاقتصاد فى طريقه للخروج من العصر المصنعى ، لقد أدرك بالطبع هذا التحول الأساسى ، وساهم بطرق مختلفة فى تنشيطه • وهكذا صرح ميلكن ذات يوم لمجلة فوربس بأن موجة اعادة الهيكلة الجارية ترجع بدرجة كبيرة الى أن البلاد فى طريقها للانتقال من العصر الصناعى الى عصر آخر ، وأضاف « ان رأس المال يكون موردا نادرا فى المجتمع الصناعى فى حين توجد فى مجتمع المعلومات الحالى وفرة فى رؤوس الأموال » •

وبما أن السندات ذات العائد العالى ، المسماة أيضا « جنك بوندز » ، التى تم اصدارها برعاية ميلكن ، كانت أكثر نفعا للشركات الجديدة نسبيا والأقل رسوخا ، عنها بالنسبة لشركات « البلوشيبس » التى كانت تصل بسهولة لطرق التمويل التقليدية ، فلا عجب أن كان أكثر المستفيدين من هذا النظام الجديد هو فروع الخدمات أو المعلومات ذات النمو السريع ، حيث كانت الفرصة أكبر لانشاء شركات جديدة •

وبالتالى ساعد ميلكن فى اعادة تنظيم أو تمويل الشركات المنتجة للهواتف الرقمية المتطورة وكابلات التليفزيون وأجهزة الكمبيوتر والشركات التى تقدم خدمات طبية مساعدة مثل العناية الصحية فى المنزل ـ باختصار، أنشطة جديدة يمثل نموها تهديدا لتفوق وسيادة بارونات الصناعات القديمة •

وفى نهاية المطاف زعزع كل من مورجان وميلكن الهياكل الوطيدة والثابتة لبنيان العصر الذى كان يعيش فيه ، ولكن فى اتجاهات متناقضة تماما تقريبا • ولذلك ، وبمعزل عن أية دعوى قضائية ، فان كل منهما جلب على نفسه عواصف من الانتقادات والوشايات • وسواء أكان ذلك للخير أم للشر ، بشكل مشروع أو غير مشروع ، فان كلا منهما حول اللعبة المالية فى عصره بحيث تلبى احتياجات جديدة للاقتصاد •

عصر ما بعد وول ستريت :

بالرغم من أن الانقلابات التى تسبب فيها ميلكن بدت فى حينها مذهلة ، فانها فى الحقيقة لم تكن سوى أحد أوجه ثورة أكثر رحابة من ذلك بكثير ، لأن التغيرات التى حدثت فى مجال السيطرة على رأس المال واستخدامه ـ رأس المال الذى يظل أحد المصادر الرئيسية للسلطة فى مجتمعنا ـ تزامنت مع تغيرات أكثر عمقا ، تؤثر على الاقتصاد ككل •

ففى زمن مورجان ، وبقدر ما دامت أيام وول ستريت الجميلة ، كان الانتاج بالجملة وبملايين المنتجات المتماثلة هو الرمز الأمثل « للعصر الحديث » • أما فى الوقت الحالى ، فاننا نشهد أفول مبدأ الانتاج بالجملة ،

ولقد طرحت هذه الفكرة فى عام ۱۹۷۰ فى كتاب « صدمة المستقبل » ثم طورتها بعد ذلك فى عام ۱۹۸۰ فى كتاب « الموجة الثالثة » ·

فتقنيات الانتاج المزودة بالحاسب الآلى تسمح الآن ، وبشكل متزايد ، بانتاج كميات صغيرة من سلع مصنعة طبقا لمتطلبات العميل وتستهدف هذه المنتجات منافذ بيع متخصصة · وتنتقل الشركات الأكثر تقدما من انتاج نفس السلع على فترة طويلة الى انتاج مجموعات قصيرة من « منتجات ذات قيمة مضافة متزايدة » ، ومنها على سبيل المثال الفولاذ الخاص أو الكيمياء المتطورة · وفى الوقت نفسه ، فان الابتكارات المستمرة تقلل دورة حياة كل منتج ·

كما أننا نلاحظ تغيرات موازية تماما فى قطاع الخدمات المالية ، الذى ينوع أيضا مجموعاته ويقلل دورة حياتها ، ويطرح سيلا من « المنتجات » عالية التخصص مثل أنواع جديدة من الأوراق المالية المتنوعة وصكوك الرهنية وبوالص التأمين وأدوات الائتمان وسندات التمويل المشتركة ، مع عدد لا نهائى من التوافيق والتباديل فيما بينها · ان السلطة على رأس المال تنتقل تدريجيا الى الشركات القادرة على الابتكار المستمر والتميز ، باضفاء صفة شخصية على المنتج ·

فى الاقتصاد الجديد للموجة الثالثة ، يمكن صنع سيارة أو جهاز كمبيوتر فى أربع دول مختلفة وتجميعها فى دولة خامسة ·

كما تتسع الأسواق من جانبها وتمتد فيما وراء الحدود الوطنية : وباللغة الجارية ، فان الأعمال تتخذ « حجما عالميا » · ومرة أخرى ، نرى بالتوازى كل الخدمات المالية : بنوك ، تأمين ، أنشطة بورصة ، تتوسع بسرعة كبيرة لتشمل كوكب الأرض لخدمة الشركات العميلة ·

ان اقتصاد الموجة الثالثة يعمل بسرعة لم يسبق لها مثيل · ولمواكبة الايقاع ، تضخ الشركات المالية المليارات من أجل امتلاك التكنولوجيات الأكثر حداثة · أن أجهزة الكمبيوتر الجديدة وشبكات الاتصالات ، لا تسمح فقط بتنويع المنتجات الموجودة واكسابها مواصفات شخصية ولكنها تسمح أيضا بأن تقترب سرعة المعاملات من التشغيل اللحظى ·

وبينما ينتقل الجيل الجديد من المصانع من نظام « المجموعات » المتتالية الى الانتاج فى شكل تيار مستمر ، فان المؤسسات المالية تتبع هذه الحركة وتتخلى عن « مواعيد البنك » من أجل تأمين الخدمات لمدة أربع وعشرين ساعة يوميا · وتظهر مراكز مالية فى مناطق زمنية متعددة · فكل شىء يباع ويشترى بلا توقف : أسهم وسندات ومواد أولية ومواد غذائية ونقود · وتسمح الشبكات الالكترونية بتجميع وتوزيع مليارات فى وقت يبدو وكأنه جزء من مليون من الثانية ·

ان السرعة فى حد ذاتها ــ القدرة على متابعة الايقاع أو البقاء فى الصدارة والمقدمة ــ تؤثر على توزيع الأرباح والسلطات • ولعل أفضل مثال على ذلك هو تخفيض أو تقليل « التعويم » الذى كانت تستفيد منه البنوك من قبل • ويقصد به الأموال الموجودة فى حسابات العملاء والتى يستطيع البنك جنى فوائد عليها ، الى أن تتم مقاصة الشيكات المسحوبة • وكلما سارعت أجهزة الكمبيوتر من هذه العملية ، فان الأرباح التى تتحقق على هذه الأموال تقل وتجد البنوك نفسها مضطرة الى البحث عن موارد أخرى بديلة ــ وهو ما يقودها الى مواجهة منافسة مباشرة من فروع أخرى فى قطاع الخدمات المالية •

وكلما نمت أسواق رؤوس الأموال واتصلت وارتبطت فيما بينها متخطية المناطق الزمنية ، ابتداء من هونج كونج وطوكيو الى تورنتو ، فان النقود تدور بسرعة أكبر • ويزداد « التطاير » مع تزايد السرعة وتنتقل السلطة المالية من يد الى يد أخرى بسرعة أكبر فأكبر •

كل هذه التغيرات تمثل فى مجموعها أعمق عملية اعادة هيكلة عرفها عالم المال منذ فجر العصر الصناعى • فهى تعكس ظهور نظام جديد لخلق الثروة • حتى ان الشركات الأكثر قوة التى كانت حتى وقت قريب تسيطر على تدفقات ضخمة من رؤوس الأموال ، تعانى حاليا وتتعرض لهزات مثل قشة فى قلب العاصفة •

ففى عام ١٩٨٥ بدأ سولومون برزرس ــ أكبر بنك استثمارى أمريكى فى بناء مركز رئيسى له مدهش يتكلف ٤٥٥ مليون دولار فى دائرة كولومبس بمانهاتن • وفى ربيع ١٩٨٧ ، كانت الشركة مهددة بعرض شراء علنى ، مما اضطرها فى اكتوبر من نفس العام الى الانسحاب من سوق السندات المحلية التى ظلت تسيطر عليها طوال عشرين عاما ، كما اضطرت الى التخلى أيضا عن العمل فى السندات التجارية ، واستغنت عن ٨٠٠ موظف من ٦٥٠٠ هم اجمالى عدد العاملين فيها • ثم أصابها انهيار البورصة فى أكتوبر ١٩٨٧ فى مقتل • وفى ديسمبر اضطرت الى التخلى بخزى عن مشروعها الكبير لاقامة المقر الرئيسى للشركة وخسرت بذلك ٥١ مليون دولار •

وبينما كانت الأرباح تنهار وأسعار صكوكها الخاصة تنخفض كانت الانقسامات الداخلية تمزق سولومون برزرس : فريق يريد الاكتفاء بالدور التقليدى للمؤسسة ألا وهو دور مورد رؤوس الأموال لصالح « البلوشيبس » ، فى حين يريد الفريق الآخر الدخول فى سوق السندات ذات العائد العالى ــ أو « الجنك بوندز » ــ التى اخترعها ميلكن ، وكسبه عملاء من شركات الصف الثانى • ونجم عن كل ذلك اختلال فى

العمل وفوضى عامة · وأقر رئيس الشركة جون جوتفروند بذنبه حيث قال : « لغد تغيرت بعض السمات الأساسية للعالم ، ولم يكن معظمنا على رأس السباق · لقد تركنا انفسنا لهذا العالم الحديث يجرنا اليه كرها » ·

ولكن بالنسبة للكهنة القدامى ، فان « العالم الحديث » هو وسط متقلب وعدائي · ان فروعا كاملة من القطاع المالى تترنح ، وليس فقط شخصيات فردية أو شركات · ان انهيار أكثر من خمسمائة صندوق توفير أمريكي — مما اضطر الحكومة الى حقن مئات المليارات فى خطة انقاذ عاجلة ، يجسد تلك الحالة من عدم الاستقرار المتزايد · فالوكالات الحكومية المسئولة عن وضع اللوائح والقوانين ، والتى تم تكوينها وتصميمها لعالم صناعى أكثر بساطة وبطئا ، قد اتضح عجزها عن توقع الكارثة التى كانت تتشكل وأبعادها ، أما « مؤسسات الادخار » التى أخذت على غرة وهى عاجزة عن مواجهة التغيرات السريعة لأسعار الفائدة فقد غاصت فى مستنقع الحماقة والفساد ·

مسار السلطة المتعرج :

مع تأكد حقيقة أن الاقتصاد أصبح كونيا اتسع مجال السوق المالية ذاتها لدرجة أن أية مؤسسة أو شركة أو شخصية — تجد نفسها وقد تقزمت · ان تيارات هائلة تتدافع خلال النظام القائم ، وتثير فى طريقها اضطرابات وانفجارات على الصعيد العالمى ·

منذ فجر العصر الصناعى ، أصبحت أوروبا ولمدة طويلة مركز سلطة المال ، ولكن فى نهاية الحرب العالمية الثانية انتقل هذا المركز الى أمريكا الشمالية ، وبشكل أكثر تحديدا الى الطرف الجنوبى من جزيرة مانهاتن · وظلت السيطرة الاقتصادية للولايات المتحدة بغير منازع لحوالى ثلاثة عقود · بعدها ، لم يتوقف المال — والسلطة التى تنبع منه — عن الانتقال من مكان الى آخر فى مسار متعرج مضطرب على امتداد الكرة الأرضية مثل كرة باشينكو أصيبت بالجنون ·

فنحو منتصف السبعينات ، وعلى ما يبدو بين ليلة وضحاها ، انتزعت منظمة الأوبك مليارات من أوروبا وأمريكا الشمالية (فضلا عن باقى العالم) ، ثم جعلتها ترتد الى الشرق الأوسط · وسرعان ما انتقلت أرصدة البترودولار مباشرة الى حسابات بنكية فى نيويورك ، ومن هناك اتجهت الى الأرجنتين والبرازيل والمكسيك فى شكل قروض فاحشة ، حيث عادت أموال البترول مرة أخرى ومباشرة الى البنوك الأمريكية أو السويسرية · ومع انخفاض قيمة الدولار وتطور العلاقات التجارية العالمية ، اتجهت رؤوس الأموال هذه المرة الى طوكيو ومن هناك قفزت مرة أخرى الى الولايات المتحدة فى شكل استثمارات فى العقارات وسندات الخزانة

ومجالات استثمارية أخرى ـ كل ذلك كان يتم بسرعة جعلت الأمور تختلط على الخبراء فى محاولتهم لفهم الأحداث ٠

ان كل انحـراف أو تأرجح لرأس المال يجـر وراءه اعـادة توزيع للسلطة على المسـتوى المحلى وعلى المسـتوى العـالمى ٠ فعنـدما أغرقت الأرباح البترولية الشرق الشرق الأوسط ، بدأت البلاد العربية تمتلك سلاحا ثقيلا فى حلبة السياسة العالمية ٠ ووجدت اسرائيل نفسها معزولة بشكل متزايد فى الأمم المتحدة ٠ وقطع العديد من الدول الأفريقية علاقتها الدبلوماسـية مع اسرائيل نظرا لاحتياجها للبترول ومعونة الحكومات العربية ٠ وفى مناطق مختلفة من العالم ، بدأ البترودولار يمارس تأثيرا على وسائل الاعلام ٠ وفى الرياض وأبو ظبى ومدينة الكويت ، اكتظت ردهات الفنادق بمتسولين يحملون حقائب أوراق : مندوبو شركات ورجال مصـارف وكوادر مختلفة وسماسرة قدموا من جميع أنحاء العالم لكي يتسولوا بطرق مخزية ، اتصالات أو عقود لدى أقرباء الأسر الحاكمة ٠

وفى بداية الثمانينات ، ومع تفكك الأوبك وانخفاض سعر البترول هدأت الفورة وتقلصت السلطة السياسية العربية ٠ حاليا نجد حشد الزوار المتسولين ، الذى يمثل غالبا أكبر البنوك والشركات ، يتزاحم فى طوكيو فى ردهات فندق الاوكورا أو الامبريال ٠

وتجسـد الانهيارات الـكبرى فى البورصات (مثلما حدث فى ١٩٨٧ و ١٩٨٩) عدم الاستقرار المتزايد للسوق العالمية لرؤوس الأموال التى تتأثر تأثيرا هائلا بفعل هذه التقلبات الهائلة ٠ ولقد بات من الصعب الآن التحكم فى النظام القديم الذى استقر فى عالم كان لكل بلد اقتصادها الوطنى المستقل بنفسه ، والمنعزل عن اقتصاد الدول الأخرى ، ولكن يتضح أن آليات الأمن القديمة قد تجاوزها الزمن كما تجاوز عالم المصانع القديمة الذى كان عليها حمايته ٠

ان اتسـاع نطاق عملية الانتـاج والتسويق ليشمل الكرة الأرضية يتطلب أن تستطيع رؤوس الأموال عبور الحدود الوطنية بسهولة ، غير أن ذلك يسـتتبع ازالة اللوائح والأنظمة المالية القديمة والحواجز التى أقامتها الأمم لحماية اقتصاداتها المتبادلة ٠ ولكن من ناحية أخرى يمكن ادراك العواقب السلبية التى قد تنجم عن تخفيف الحواجز تدريجيا من قبل الجانب اليابانى أو عن اختفائها نهائيا ، كما فى الاطار الأوروبى ٠

ان مصادر رأس المال التى تتكون حاليا فى زيادة مستمرة ، وهى مصادر جاهزة وحاضرة فى كل لحظة وفى أى مكان ، بعد أن أصبح النظام المالى أكثر مرونة وأكثر قدرة على تجاوز الأزمات المحلية ٠ الا أن هذا

الوضع الجديد يجعل المزايدات ترتفع ويزيد من خطر حدوث انهيار عـــام ٠

ان السفن الحديثة مزودة بفراغات عازلة ، تعمل على ألا يؤدى نفاذ الميـاه الى جزء من السفينة لتسربها الى بقية الأجزاء وبالتالى غرق السفينة ٠ بالنسبة لتحرير رؤوس الأموال فان انسيابها وتدفقها بدون عوائق انما يساوى الغاء عوازل الأمان ٠ وان كانت الحرية تعد أساسية للنمو الاقتصادى ، فانها تزيد من خطر حدوث عدوى دولية فى حالة وجود صعوبات خطيرة فى بلد معين ٠ ومن ناحية أخرى ، فان هذه الحرية تهدد سـلطة مؤسسة من أهم المؤسسات الاقتصادية فى العصر الصـناعى ، ألا وهى البنك المركزى ٠

المعركة الوشيكة من أجل السيطرة على كوكب الأرض :

منذ حوالى عشر سنوات ، كانت حفنة أو حفنتان من قادة البنـوك المركزية وكبار الموظفين يستطيعون التدخل بشكل حاسم فى كل الأسعار ، سـواء أكان ذلك سعر لحم الخنزير الدنماركى أم سعر سـيارة داتسون يابانية وذلك بالتلاعب فى أسعار الفائدة وبالتدخل فى أسـواق صرف العمـلات ٠

أما اليوم فقد أصبح الأمر أقل سهولة ، بدليل النمو الهائل فى تجارة العملة والمنظمات والشبكات الدولية التى تسهل هذه التجارة ٠

منذ سنوات قليلة ، كان بنك اليابان يستطيع تعديل نسبة سعر الين مقابل الدولار وذلك بشراء أو بيع حوالى ١٦ مليار دولار ٠ أما الآن فمثل هذا المبلغ يبدو مثيرا للسخرية ، حيث تقدر قيمة التحويلات اليومية من النقود فى بورصات لندن ونيويورك وطوكيو فقط ، بحوالى ٢٠٠ مليار دولار أى أكثر من ألف مليار دولار أسبوعيا ، ١٠٪ فقط من هذه المبالغ يرتبط بالتجارة الدولية ، أما الباقى فيتسم بطابع مضاربى صرف ٠

وفى ظل هذه الظروف ، أصبح الدور الذى يمكن أن تلعبه البنوك المركزية ، سواء بشكل فردى أو حتى بالتشاور الجماعى ، دورا محدودا ٠

وبما أن هذه البنوك سرعان ما تفقد سلطتها ، وهو ما ينطبق على سلطة الدول التى من المفترض أنها تمثلها ، تتصاعد صرخات انذار تطالب بتنظيم جديد أكثر مركزية ، يتجاوز الحدود الوطنية ٠ وتوازى هذه الدعوة الرغبة فى السيطرة على نظام مالى لما بعد العصر الصناعى باستخدام نفس الأدوات التى كان يستخدمها عصر المصـانع ، ولكن باضـفاء مزيد من القوة عليها ٠

ففي أوروبا ، ينادى بعض القادة السياسيين باستبعاد العملات الوطنية ، وبخلق بنك مركزى أوروبى وحيد ٠

يدفع ادوارد بالادور ، وزير الاقتصاد والمالية الفرنسى الأسبق وهانز ديتريش جينشر ، وزير الخارجية الألمانى السابق وعدد آخر من كبار المسئولين الفرنسيين والبلجيكيين والايطاليين ، هذه المركزية الى مستوى أعلى ٠ يعرب ليان لاونهاردت من الكومرزبنك (البنك التجارى) فى فرانكفورت عن اعتقاده بأن الأمر سينتهى « بأن نصبح مرغمين على أن يكون لدينا بنك مركزى اوروبى » ، وان كان يقر بأن تحقيق ذلك سيتطلب بعض الوقت ٠

أما فى بريطانيا ، فقد قادت رئيسة الوزراء السابقة مارجريت تاتشر معركة فى الخطوط الخلفية للدفاع عن السيادة الوطنية ٠ غير أننا ، على الصعيد العالمى ، نرى مجموعة الدول الصناعية السبع الكبرى تعدد المحاولات من أجل تنسيق وتزامن السياسات فى مجال أسعار الصرف وأسعار الفائدة وعوامل متغيرة أخرى ٠ وفى الوقت نفسه ، ينادى أساتذة جامعات وبعض الخبراء الماليين بانشاء بنك مركزى عالمى ٠

واذا انتصر أنصار النشاط المالى على المستوى العالمى ، فان سلطة البنوك المركزية الحالية ستزداد ضعفا ، بعد أن كانت هذه البنوك ، ومنذ فجر العصر الصناعى هى المنظم الرئيسى للعبة رؤوس الأموال فى العالم غير الشيوعى ٠

ونتيجة لذلك ، سوف تشهد العقود القادمة صراعا ضخما من أجل السلطة بين أنصار العالمية والمدافعين عن القومية ، وسيدور هذا الصراع حول طبيعة المؤسسات الجديدة المسئولة عن تنظيم سير عمل أسواق رؤوس الأموال العالمية ٠ وهذا الصراع لن يكون سوى احدى سمات المجابهة بين النظام الصناعى المحتضر والنظام العالمى الجديد لخلق الثروة الذى يتشكل حاليا ٠

ومن سخرية القدر ، أن هذه الاقتراحات من أجل السيطرة المالية العالمية التى تتسم بالمركزية الشديدة ، تسير فى اتجاه معاكس لاتجاه التطور الاقتصادى الحقيقى ، الذى نلاحظه على مستوى الانتاج والتوزيع ، لأن كلا منهما يتجه الى الانتشار والتنوع واللامركزية ٠ ومن ثم يمكن تصور أن نتيجة هذه المعركة الكبيرة من أجل السلطة المالية لن ترضى أيا من المعسكرين ٠ وقد يحتفظ لنا التاريخ بمفاجأة أن يضطرنا الى اعادة صياغة المسائل فى منظور جديد ، والى اختراع مؤسسات جديدة تماما ٠

غير أن هناك شيئا يبدو أكيدا : فخلال بضعة عقود ، عندما تبلغ معركة اعادة تشكيل النظام المالى العالمى ذروة عنفها ، سيكون قد تم الاطاحة بالعديد من « العروش والهيمنات » الحالية ·

ولكن هذه الاضطرابات والانقلابات فى توزيع سـلطة المال على الصعيد العالمى لا تمثل سوى جزء من كل · فى الواقع ، ستبدو هذه الانقلابات من الناحية التاريخية صغيرة جدا بالمقارنة بالثورة التى ستحول طبيعة الثروة ذاتها : حيث يجرى حاليا شىء غريب للنقود نفسها ، شىء يكاد يكون غير طبيعى ·

الفصـــل السادس

المعرفة : ثروة مصنوعة من الرموز

كانت الثروة فى زمن سابق عنصرا بسيطا - يملكها الانسان او لا يملكها · كانت صلبة وملموسة · ومن ثم كان من السهل ادراك ان الثروة تمنح السلطة والنفوذ ، وان السلطة تمنح الثروة ايضا ·

كان الأمر واضحا ، بسبب أن الاثنين كانا يستندان الى الأرض ·

وكانت الأرض أهم أشكال رأس المال جميعا · كانت كمية محددة ، بمعنى أنك اذا استخدمتها لا يستطيع أحد آخر أن يستخدمها فى نفس الوقت · بل والأكثر من ذلك أنها كانت ملموسة تماما· كان يمكن قياسها وحفرها وتقليبها وغرس قدميك فيهـا والشعور بها بين أصابع القدمين وجعلهـا تنسـاب من بين أصـابع اليد · وخـلال أجيال ، كان أجدادنا اما يملكونها ، أو يتحرقون شوقا الى امتلاكها ·

وقد تعرضت الثروة لأول تحول عندما بدأت مداخن المصنع ترتفع نحو السماء · فبـدلا من الأرض أصبحت الآلات والمواد الأوليـة اللازمة للانتاج الصناعى هى أشـكال رأس المال المطلوبة بشدة : أفران عاليـة وأنـوال نسـيج وخطـوط تجميـع وآلات لحـام أو حيـاكة والبوكسيت والنحاس والنيكل ·

غير أن رأس المال الصناعى ظل كمية محدودة · اذا استخدمت فرن سباكة لانتاج كتلة المحرك ، فلا يستطيع شخص آخر استخدام هذا الفرن فى الوقت نفسه ·

كما ظل لرأس المال شكل مادى . فعندما كان جيه . بى . مورجان أو أى مصرفى آخر يستثمر فى شركة ما ، كان يريد أن يجد فى ميزانيته « أصولا صلبة » . عندما كان رجل مصرفى يدرس قرضا ، كان يريد ضمانا « ذا أساس » مادى وملموس .

غير أنه على خلاف ملاك الأراضى الذين كانوا يعرفون ثروتهم حق المعرفة ، وكان كل حقل ونبع وشجرة فاكهة هى أشياء مألوفة لهم ، فان قليلا من المستثمرين فى العصر الصناعى قد رأوا — أو لمسوا — الآلات والمعادن التى تستند عليها ثروتهم . وبدلا من هذه الآلات والمواد الخام ، كان المستثمر يحصل على ورقة رمزية تماما ، سند أو شهادة سهم تمثل قسما من قيمة الشركة التى استخدمت رأس المال .

كان ماركس يتكلم عن استلاب العامل بالنسبة لما ينتجه ولكن يمكن أيضا ذكر استلاب المستثمر بالنسبة لمصدر ثروته .

داخل الجمجمة :

كلما احتلت قطاعات الخدمات والمعلومات مكانا متناميا فى الاقتصادات المتقدمة ، أصبح الانتاج نفسه يعتمد على « المعلوماتية » ، وتتغير بالضرورة طبيعة الثروة . ولا يزال المستثمرون ، فى الفروع الصناعية المتخلفة ، يعتبرون « الأصول الصلبة » شيئا ضروريا — منشآت ومعدات ومخزون ، أما الذين يعملون فى الفروع الأكثر تقدما وذات النمو السريع ، فيتخذون عناصر مختلفة تماما كأساس لاستثمارهم .

فلا أحد يشترى سهم « آبل كمبيوتر » أو « آى . بى . ام » بسبب الأصول المادية للشركة . لأن المهم فى هذه الحالة ليس المبانى والآلات ولكن الاتصالات والقدرة التى تملكها هذه الشركات ، بالنسبة لامكانات النمو والدعاية والتسويق والقدرة التنظيمية لادارتها والأفكار التى تطن فى رؤوس مهندسيها . وينطبق الشىء نفسه بالطبع على مجموع القطاعات الاقتصادية التابعة للموجة الثالثة — مثل شركات فوجيتسو أو ان . اى . سى فى اليابان أو سيمنس فى ألمانيا أو مجموعة بل الفرنسية ، أو مثل شركات ديجيتل اكويبمنت وجينيتك وفيدرال اكسبريس . والمدهش فى الأمر ان صك المشاركة لا يمثل هنا سوى المزيد من الرموز الأخرى .

ان الانتقال الى هذا الشكل الجديد من رأس المال جعل الأفكار المسبقة التى تستند اليها الأيديولوجية الماركسية والاقتصاد الكلاسيكى وقد تجاوزها الزمن ، لأن كلا منها يفترض طابعا كميا محدودا لرأس

المال التقليدى · فعلى نقيض الأرض أو الآلات التى لا يستطيع سوى شخص واحد أو شركة واحدة استخدامها فى نفس الوقت ، فان بامكان العديد من المستخدمين الاستعانة بنفس المعرفة ، فى آن واحد ، واذا أحسنوا استغلالها ، يمكنهم أن يولدوا مزيدا من المعرفة ، فالمعرفة بطبيعتها ليست قابلة للنضوب ، ولا هى قاصرة على أحد بعينه ·

غير أن كل ذلك لا يعطى سوى فكرة ضعيفة جدا عن الثورة الكبيرة التى تؤثر على لب رأس المال وجوهره · واذا كان التطور نحو « رأس المال ـ المعرفة » حقيقة واقعة فان ذلك يستتبع بالتالى ، أن يصبح رأس المال ذاته بالتدريج « وهميا » : بمعنى أن يتكون بشكل كبير من الرموز التى لا تمثل هى ذاتها سوى رموز أخرى ، محفوظة فى ذاكرة وفكر الانسان ـ أو الكمبيوتر ·

وهكذا نجد رأس المال الذى كان فى البداية قابلا لأن يحس ويلمس بشكل مباشر، قد أصبح فى أول الأمر ورقا يرمز الى أصول مادية، ثم ورقا يرمز الى رموز ـ ليتحول فى النهاية الى اشارات الكترونية ترمز الى ورق·

وبينما يعتمد رأس المال بشكل مضطرد على عناصر غير ملموسة (وهو تطور غير قابل للارتداد تخفيه مؤقتا قواعد محاسبية ولوائح ضريبية بالية) ، تصبح الأدوات ذاتها المتبادلة فى الأسواق المالية من صكوك وأسهم وسندات « غير واقعية » ·

ففى شيكاغو ولندن وسيدنى وسنغافورة وأوزاكا ، تمر مليارات من يد الى يد فى شكل أدوات تسمى « مشتقات » ـ على سبيل المثال أوراق مالية لا تستند الى صكوك هذه الشركة أو تلك ولكن على المؤشرات المختلفة للسوق · وبالابتعاد خطوة أخرى عن « العوامل الأساسية » نصل الى خيارات على نفس هذه المؤشرات · وأبعد من ذلك ، نجد النواتج المسماة « اصطناعية » التى تمنح المستثمرين ، من خلال سلسلة من العمليات المعقدة نتائج تحاكى أو تعكس نتائج سندات أو أسهم أو خيارات أو مؤشرات موجودة ·

وسرعان ما نصل الى استثمارات أكثر تجريدا تعتمد على مؤشرات المؤشرات ومشتقات المشتقات وعلى مصطنعات تعكس مصطنعات ·

ان رأس المال فى طريقه الى أن يصبح وبسرعة « فوق رمزى » ·

ولما كانت قوة العلم الحديث ترجع الى سلاسل من البراهين والاستدلالات التى لا نهاية لها ، وحيث ان علماء الرياضيات يعدون هياكل

أكثر اتساعا بشكل مضطرد ويراكمون النظرية فوق الأخرى حتى يصلوا في النهاية الى انتاج جسم من المعارف يستطيع هو نفسه أن ينتج نظريات أكثر تجريدا ، وكذلك خبراء الذكاء الاصطناعى أو « مهندسو المعرفة » الذين يقيمون بمساعدة الاستدلالات بنايات وهياكل تصيبنا بالدوار ، نجد أننا فى النهاية ، ونتيجة لكل ذلك ، فى طريقنا لخلق رأسمال يتكون من مشتقات متتالية ، أو يمكن القول ، من صور تنعكس الى ما لا نهاية ٠

شاهد قبر للورق :

هذه التغيرات فى حد ذاتها تعد ثورية ، غير أن تحولات موازية تؤثر فى طبيعة النقود ذاتها ، توسع أيضا من مدى هذا التحول ٠

عندما نفكر فى الدولار والفرنك والين والروبل والمارك الألمانى ، فاننا نسمع فى الغالب حفيف الورق ٠ ولكن اذا وجد أحد أجدادنا نفسه وقد نقل بمعجزة الى عصرنا ، فان ذلك يبدو له أكثر الأشياء غرابة على الاطلاق : لأنه لن يبادل قط قطعة من قماش يمكن أن تكسوه أو مكيالا من حبوب يمكن أن يغذيه مقابل ورق « لا نفع منه » ٠

فعلى امتداد العصر الزراعى ، أو حضارة الموجة الأولى كانت النقود عبارة عن مادة لها كيان ملموس وتملك قيمة ذاتية ٠ كان هناك بالطبع الذهب والفضة ، ولكن أيضا الملح أو التبغ أو المرجان أو الأقمشة القطنية أو النحاس أو قواقع غورى ــ وهى عبارة عن نقد صدفى كان رائجا فى الهند وأفريقيا السوداء ٠ فى الواقع ، كان عدد لا نهائى من المنتجات النافعة فى لحظة أو أخرى يمكن أن يقوم بدور النقود ــ ومما يبعث على السخرية أن الورق ، الذى كان استخدامه قليلا فى الحياة اليومية قبل ظهور التعليم العام ، لم يقم قط بدور النقود أو نادرا ما كان يستخدم لهذا الغرض ٠

ولكن عند فجر العصر الصناعى ، بدأت تنتشر أفكار غريبة بخصوص النقود ٠ فعلى سبيل المثال ، نشر شخص فى انجلترا يدعى وليم بوتر ، كتيبا فى عام ١٦٠٥ ، كان بمثابة النبوءة حيث قدم افتراضا ، كان لا يمكن التفكير فيه اطلاقا فى ذلك الوقت ، يقول : « ان الثروة الرمزية [سوف] تحل محل الثروة الحقيقية » ٠

وبعد ذلك بأربعين عاما ، وبينما كان توماس سافرى وآخرون يبتكرون النماذج البدائية للآلة البخارية ، كان المفهوم الجديد للنقود ينتقل الى المرحلة التجريبية ٠

كان المستوطنون الأمريكيون هم أول من قام بطباعة النقود ، على الأقل فى الغرب ، وذلك لان الانجليز كانوا يحظرون عليهم سك قطع النقود الذهبية أو الفضية ٠

ويتطلب استبدال مادة تملك قيمة ذاتية مثل الذهب أو التبغ أو الفراء بورق لا قيمة له عمليا ، ثقة رائعة من جانب المستخدمين له ، لأنه اذا لم يعتقد الناس أن الآخرين سيقبلون الورق ويبادلونه مقابل مواد حقيقية ، فان هذا الورق ما كان ليساوى شيئا على الاطلاق ٠ وبالتالى اعتمدت النقود الورقية بالكامل على الثقة ٠ غير أن هذا النوع من النقود سيطر على المجتمع الصناعى وحضارة الموجة الثانية ٠

وحاليا ، وفى اللحظة التى يتأكد فيها اقتصاد الموجة الثالثة الأكثر تقدما ، تجد النقود الورقية نفسها مهددة بالبطلان شبه الكامل ٠ فهى تبدو الآن مثلها مثل مداخن المصانع وخطوط التجميع ، كمنتج من منتجات العصر الصناعى الذى يوشك على نهايته ٠ وباستبعاد الدول المتخلفة اقتصاديا وبعض الاستخدامات الثانوية تماما ، فان النقود الورقية ستلحق قريبا بالمصير الذى آلت اليه نقود المرجان أو الأساور النحاسية ٠

نقود على المقاس وأشباه النقود :

يوجد حاليا فى العالم حوالى ١٨٧ مليون شخص لديهم بطاقات الائتمان التى تحمل اسم « فيزا » ويستخدمونها فى حوالى ٥ر٦ مليون محل ومحطة ـ خدمة ومطعم وفندق وتعاملات تجارية أخرى ، وينفقون بهذه الطريقة ٥٧٠ مليون دولار يوميا ٠ وهذه البطاقة ليست سوى بطاقة اعتماد واحدة بين بطاقات عديدة أخرى ٠

وعندما يقوم صاحب المطعم بارسال رقم بطاقة « فيزا » الخاصة بك أو بطاقة « أميريكان اكسبريس » ، فان الحاسبات الالكترونية فى الشركة المعنية تضع فى حساب المطعم المبلغ المطابق وتطرحه من حساباتها الخاصة وتضيفه الى دينك لها ٠ غير أن ذلك ليس بعد سوى لعبة بطاقات بدائية ٠

فمع ما يسمى « بالبطاقة الذكية » يكفى أن يدخلها موظف الخزينة فى جهاز الكترونى لكى يتم على الفور دفع ثمن الوجبة من حسابك المصرفى ٠ وفى هذه الحالة لن تدفع فى نهاية الشهر ولكن على الفور وكأنه شيك يتم صرفه فى خلال ثانية واحدة ٠ لقد انتشرت هذه البطاقة الذكية بشكل كبير فى فرنسا بعد أن سجل براءة اختراعها المبتكر الفرنسى رولان مورنو ، وذلك بفضل مساندة البنوك والاتصالات اللاسلكية لها ٠

وتحتوى هذه البطاقة التى أنتجتها مجموعة « بل » على رقيقة الكترونية متناهية الصغر تتميز بأنها غير قابلة عمليا للتزوير والغش . وتستخدم اليابان وأوروبا حاليا حوالى ٦١ مليون بطاقة من هذا النوع .

ومع الاندماج المتزايد بين المحاسبة الالكترونية والنظـــام المصرفى سينتهى الأمر بخزينة التاجر التى أصبحت لا تقوم بعملية التحصيل الى أن ترتبط مباشرة بالبنك ، بحيث يتم اضافة المبلغ الذى يتم صرفه الى حساب التاجر . وابتداء من هذه اللحظة ستحسب فائدة على المبلغ لصالح التاجر وبالتالى يتحول « تعويم » البنك الى صفر ويحرم البنك من العائد الذى كان يجنيه فى السابق من الصكوك قيد التحصيل .

وفى الوقت نفسه ، بدلا من أن يسدد العميل فواتيره خـلال مهلة معينة ـ فى نهاية الشهر مثلا ـ سيتم دفـع الايجارات وقروض الشراء والمصروفات الأخرى المنتظمة بقدر ، أى قطرة بقطرة ودقيقة بدقيقة ، عن طريق نقـل دم الكترونى من حساب مصرفى الى حساب مصرفى آخر . وبالتوازى مع تطور قطاع الانتاج ، سوف تقلل هذه الابتكارات بشكل متزايد ، من معالجة العمليات المالية فى شكل مجموعات منفصلة ، لصالح نظام التـدفق المستمر ، وبذلك يزداد اقتراب الجهاز المالى من الهدف الآسمى ، ألا وهو التشغيل فى الزمن الفعلى ، أى بشكل لحظى .

وسيأتى اليوم الذى ستتيح لكم فيه ـ اذا أردتم ـ بطاقات أكثر « ذكاء » حسم ثمن وجبـة أو سيارة جديدة ، ليس فقط من حسابكم المصرفى ولكن من اجمالى مواردكم ، بل ونظريـا من قيمـة المجوهرات أو اللوحات اليابانية التى قد تملكونها .

وسيكون لدينا قريبا « البطاقـة الفائقـة الذكاء » المسماة « بنك الكترونى للجيب » التى أعدتها شركة توشيبا بشكل تجريبى لحساب فيزا انترناشيونال . وتتيح الرقيقة الميكروسكوبية التى تحتويها هـذه البطاقة لمستخدمها مراجعة حساباته المصرفية وشراء أو بيع أوراق مالية وحجز مكان فى الطائرة وانجاز مجموعة من المهام الأخرى .

ان التكنولوجيات الجديدة يمكن أن تحقق أيضا عودة جدلية الى موقف كان قائما قبل الثورة الصناعية ـ ألا وهو تعايش عدة عملات فى اطار اقتصاد واحد . النقود مثلها مثـل المواد الغذائية للافطار أو ألف عنصر آخر من عناصر الحياة اليومية تتجه نحو التنوع بحيث يمكن أن نصل الى عصر « العملات بالطلب أو بالمقاس » .

قالت مجلة الايكونوميست البريطانية فى أحد أعدادها : « لنفترض

أن بلدا أصدر عملة من نوع خاص الى جانب العملة الرسمية ... فى بعض البلدان يوجد بالفعل لدى المستهلكين هذه النقود الموازية ـ المعروفة باسم البطاقة المغناطيسية السابقة الدفع ، والتى تتناقص قيمتها كلما استخدمت » .

وهذه النقود الموازية بدأت تسود اليابان . فشركة التليفونات ان . تى . تى تبيع عشرة ملايين بطاقة شهريا من هذا النوع ، حيث يدفع المستهلكون قيمة البطاقة مقدما ، ثم يجرون مكالمتهم الهاتفية بفضل هذه البطاقة . وشركة ان . تى . تى سعيدة جدا بهذا النظام لأنها عندما تقوم بتحصيل النقود مقدما فانها تستفيد «بتعويم» مماثل لما كانت تتمتع به البنوك قبل زيادة سرعة مقاصات الشيكات . ويستطيع المستهلكون أيضا شراء بطاقات تصلح لمختلف أنواع الانفاق الأخرى ابتداء من تذاكر السكك الحديدية الى ألعاب الفيديو .

ويمكن تخيل أنواع من أشباه العملة عالية التخصص . فوزارة الزراعة الأمريكية تتبنى مشروعا سيؤدى الى احلال بطاقة ذكية مبرمجة لمدة شهر من الاعانة وتحمل رقما شخصيا لاثبات الهوية ، محل « طوابع التغذية » التى توزع على الفقراء . ويتعين على مستخدم هذه البطاقة أن يدخلها فى الوحدة الطرفية التى تتولى المحاسبة فى السوبر ماركت ، حيث تقوم الوحدة بالتأكد من هوية البطاقة قبل أن تحسم قيمة المشتريات من المبلغ المسجل فى « الحساب » . ويهدف هذا المشروع الى تحسين نظام المحاسبة من ناحية ، وتقليل الغش والتزوير والسوق السوداء لهذه « الطوابع » من ناحية أخرى . وفى هذه الحالة ، لا يبقى سوى خطوة للوصول الى ما يمكن تسميته « بطاقات الاحتياجات الأساسية » الموجهة الى كل المستفيدين من الاعانة الاجتماعية ، وهى بطاقة ستقتصر صلاحية استخدامها على قيمة الغذاء والايجار وأجرة المواصلات العامة .

وكمثال آخر على شبه العملة يكفى أن نذهب الى أقرب مقصف مدرسى ـ ففى الولايات المتحدة تستعد ٣٥ منطقة تعليمية لطرح نظام بطاقات وجبات ، قامت بدراسته مؤسسة برى بيد كارد سرفيس من بيرل ريفر بولاية نيويورك . فبواسطة هذه البطاقة التى يدفع الآباء قيمتها مقدما لمدة أسبوع أو شهر مثلا ، يعرف الحاسب الآلى للمدرسة ، الذى يتولى ضبط حساب الاستهلاك ، ما أنفقه كل تلميذ .

ومن خلال هذه الأمثلة ، لا يتطلب الأمر جهدا كبيرا كى نتخيل مثلا بطاقة قابلة للبرمجة بحيث تسمح للآباء بوضع نظام غذائى خاص لأطفالهم . بطاقة طفل معين لا تصلح مثلا للمشروبات السكرية ، وفى حالة

الحساسية من اللبن سوف تستبعد البطاقة الأغذية التى تحتوى عليه ٠٠٠ وهكذا ٠

كما يمكن تصور بطاقات يستطيع الأطفال استخدامها فى دور السينما ومحلات أشرطة الفيديو ، تستبعد الكترونيا الأفلام المصنفة اكس أى (للكبار فقط) ٠ ان كل أنواع العملات ذات المواصفات الشخصية قابلة للتحقيق بما فى ذلك ما يمكن تسميته « بالنقود المبرمجة » ٠

باختصار ، بعد أن ظلت هذه البطاقات لفترة ترمز الى الانتماء الى الطبقة المتوسطة ، بدأت الآن تفرض نفسها فى كل مكان ٠ ملايين المسنين الأمريكيين الذين اعتادوا لسنوات على أن يتلقوا شيكا شهريا من التأمين الاجتماعى ــ قطعة من الورق مساوية لعدد معين من الدولارات الورقية ــ لن يجدوا هذا الشيك بعد الآن فى صناديق بريدهم : بدلا منه ، ستوجه الادارة الى بنك كل منتفع اشارة الكترونية تضيف لحسابه المبلغ المخصص له ٠

وتستخدم الوكالات الفيدرالية أيضا بطاقات الائتمان سواء بالنسبة لمشترياتها أو لجمع الأموال ٠ وحسب ما يقوله جوزيف رايت المدير المنتدب لمكتب الادارة والميزانية فى البيت الأبيض فان العم سام « هو أكبر مستخدم لبطاقات الائتمان فى العالم أجمع » ٠

فى أى من هذه المعاملات ، لاتتبادل الأيدى شيئا يشبه ولو من بعيد « النقود » بالمعنى التقليدى للكلمة ، ولا يتم نقل أو تحويل قطعة نقود أو ورقة نقدية واحدة ٠ أصبحت « النقود » هنا تتكون من سلسلة من الأصفار والآحاد يتم ارسالها عبر سلك أو ميكروويف أو أقمار صناعية ٠

لقد بات كل ذلك معتادا بالنسبة لنا وبتنا نعطى ثقتنا تماما لهذا النظام ، لدرجة أنه نادرا ما نستشعر شكوكا ٠ على النقيض فاننا نرتاب عندما نرى مبالغ ضخمة من النقود السائلة تتبادلها الأيدى ، وينتابنا الشك فى أن هناك شيئا مشبوها ومريبا ، لأننا نفترض مسبقا أن الدفع نقدا يهدف الى التهرب من الضرائب أو أن الأمر يتعلق بتجارة المخدرات ٠

سلطات اخفقت :

ان مثل هذه التحولات العميقة التى يشهدها النظام النقدى تهدد بالضرورة المؤسسات القائمة التى ظلت تحظى حتى الآن بمكانة ذات سلطة ونفوذ هائلين ٠

فعند مستوى معين ، يطرح احلال النقود الالكترونية محل النقود

الورقية للمناقشة بشكل مباشر وجود البنوك ذاتها كما تعرفها . يؤكد دى هوك الرئيس السابق لفيزا انترناشيونال : « ان البنك لن يستطيع الحفاظ على دوره كمشغل رئيسى فى عمليات الدفع » . فى السابق ، كانت البنوك تتمتع أيضا باحتكار بالنسبة لمقاصة الشيكات ، وهو احتكار ممنوح من الدولة ، أما حاليا فان النقود الالكترونية تهدد البنوك فى هذا المجال . وكى تتدارك ذلك ، استثمرت بعض البنوك أموالها فى أنشطة بطاقات الائتمان . والشىء الأهم ، أنها مدت نطاق عملها بانشاء آلات الصرف الآلى . واذا أصدرت البنوك بطاقات خصم ، وتمكنت من اقامة وحدات طرفية موازية لهذه البطاقات فى ملايين نقاط البيع ، فانها ستتمكن من دفع هجوم شركات بطاقات الائتمان : لأن بطاقة الخصم فى هذه الحالة تسمح لتاجر التجزئة أن يحصل على ثمن المشتريات بشكل فورى بدلا من أن ينتظر الدفعات المؤجلة ل دينرز كلوب أو أمريكان اكسبريس أو فيزا ، ومن المحتمل أيضا ألا تكون لدى التجار رغبة شديدة فى أن يدفعوا باستمرار لهذه الشركات نسبة على كل شىء يبيعونه .

ومن ناحية أخرى ، يجب على البنوك أن تواجه هجمات كل أنواع ال « لابنك» . ففى اليابان ، مثلا ، أصيبت وزارة المالية بعرق بارد لفكرة أن شركات خاصة مثل ان . تى . تى . يمكنها اصدار « أوراق » من البلاستيك تمثل نوعا من العملة ، وبالتالى فان هذه العملة ستعمل خارج النظام المصرفى ولوائحه وقوانينه . واذا كان بامكان شركة ما تحصيل مال مقابل بطاقة مدفوعة القيمة مقدما ، فانها بذلك تتلقى « ايداعا » تماما كما كان أى بنك سيفعل ، وعندما يقوم المستهلك بعملية انفاق فأن ذلك يماثل عملية « سحب » ، وعندما تحاسب الشركة التى أصدرت البطاقة البائع فانها تعمل « كنظام دفع » . وكانت هذه المهام كلها قاصرة على البنوك وحدها من قبل .

وبالاضافة الى ذلك ، اذا أصبحت الشركات التى تصدر البطاقات حرة فى فتح ائتمانات لعملائها باتفاق متبادل دون الأخذ فى الاعتبار القيود والاحتياطات التى تنظم النشاط المصرفى ، فان البنوك المركزية فى هذه الحالة توشك أن تفقد سيطرتها على السياسة النقدية . لقد تضخمت النقود « البلاستيكية » بشكل سريع فى كوريا الجنوبية لدرجة أن الحكومة تخشى أن تؤدى الى رفع معدل التضخم .

باختصار ، يهدد انطلاق النقود الالكترونية فى الاقتصاد العالمى بزعزعة الكثير من علاقات السلطة القائمة والراسخة منذ وقت طويل . فى هذه المعركة من أجل السلطة ، تحتل المعرفة المتضمنة فى التكنولوجيا موقعا مركزيا ، ونتيجة المعركة ستعيد تحديد طبيعة النقود نفسها .

نقود القرن الواحدة والعشرين :

من غير المحتمل بالطبع أن تختفى النقود نهائيا سواء أكانت فى شكل معدنى أم ورقى (أو ورق مضمون بمعدن) · ولكن اذا نحينا جانبا افتراضات كارثة حرب نووية أو كارثة بيئية ، فان النقود الالكترونية سوف تنتشر وتتوالد وتستبعد أغلبية الأدوات الأخرى ، نظرا لأنها تجمع قدرة التبادل مع المحاسبة الفورية وهى بذلك تستبعد عمليات كثيرة قليلة الفاعلية ومكلفة كان يتضمنها النظام النقدى التقليدى ·

واذا حاولنا الآن تجميع كل هذه العناصر ، ستنتج عنها وبشكل أخاذ علاقة عامة ألا وهى : أن رأس المال ــ بمعنى الثروة التى يتم تشغيلها بهدف زيادة الانتاج ــ يتبدل بشكل مواز للنقود ، ويتخذ كلاهما أشكالا جديدة فى كل مرة يطرأ فيها على المجتمع تحول كبير ·

وفى هذه اللحظات ، يتطور أيضا مضمونهما من المعرفة · فخلال العصر الزراعى ، كانت النقود تتكون من المعدن (أو مادة أخرى) : وكان مضمونها من المعرفة يقارب الصفر · فى الواقع ، لم تكن عملة الموجة الأولى قابلة للمس وواقعية ومستديمة فقط ، بل كانت فى الوقت نفسه سابقة للحروف والكتابة بمعنى أن قيمتها كانت تتوقف على وزنها ، وليس على علامات أو كلمات كان يمكن أن تحفر أو تنقش عليها ·

أما بالنسبة للنقود الحالية ، عملة الموجة الثانية ، المصنوعة من الورق ، سواء بضمان مادى أو بدونه · فالمهم هو المكتوب على هذا الورق· لقد أصبحت العملة رمزية وان ظلت قابلة للمس وواقعية : وتحت هذا الشكل فرضت نفسها مع تعميم التعليم ·

ومع الموجة الثالثة ، تتحول النقود تدريجيا الى نبضات الكترونية · وتصبح متطايرة ، تنتقل وتتحول بشكل لحظى ، ويتم متابعة تدفقاتها على شاشة فيديو · فى الواقع لم تعد العملة سوى ظاهرة الكترونية ، تومض ، وتطلق صيحتها وتدوى فى أرجاء الكرة الأرضية · ان نقود الموجة الثالثة ليست سوى معلومات ــ التى هى ذاتها قاعدة المعرفة ·

ان رأس المال والعملة ، متجردان من تجسيدهما المادى ، يتبدلان معا على امتداد التاريخ · لقد مرا بالتدريج من شكل واقعى تماما قابل للمس ، الى شكل رمزى ، وحاليا الى شكل « فوق رمزى » ·

لقد صاحب هذه السلسلة الطويلة من التبدلات والتحولات تغير

عميق للمعتقدات يكافىء تقريبا التحول الدينى • فبعد أن منحت الثقة للمواد الدائمة والحقيقية مثل الذهب ، ثم الورق بعد ذلك ، توصل الأفراد الى الاقتناع بأن الاشارات الالكترونية المتناهية الصغر والزائلة يمكن مقايضتها مقابل سلع أو خدمات •

ان ثروتنا هى ثروة مصنوعة من الرموز • وينطبق الشىء نفسه ، ولدرجة مدهشة تماما ، على السلطة التى تعتمد على هذه الثروة •

الفصل السابع

المادية المزهوة

بينما كان رونالد ريجان لا يزال يشغل البيت الأبيض التقت ذات يوم مجموعة صغيرة على مائدة « غرفة الطعام الأسرية » لمناقشة مستقبل الولايات المتحدة فى المدى البعيد · وضم هذا الاجتماع ثمانية من الكتاب المستقبليين المعروفين ، وانضم اليهم نائب الرئيس وثلاثة من كبار مستشارى الرئيس منهم رونالد ريجان الذى كان قد عين حديثا رئيسا لموظفى البيت الأبيض ·

وكان قد نظم هذا الاجتماع كاتب هذه السطور بناء على طلب البيت الأبيض · بدأ الاجتماع بتقرير مشترك مفاده أنه اذا كان علماء المستقبل يختلفون بشدة حول عدد من القضايا التقنية والاجتماعية والسياسية ، فانهم يتفقون جميعا فى الاعتقاد بأن الاقتصاد يمر بمرحلة تحول عميق ·

وبمجرد أن تم التعبير عن هذا الرأى ، تدخل دونالد ريجان بعنف قائلا : « اذن فأنتم جميعا تعتقدون أننا سنعيش نقص شعر بعضنا البعض أو نبيع هامبورجر بالقطاعى ! ولن نكون قوة صناعية كبرى بعد الآن ؟ » ·

دونالد ريجان ، الذى اشتهر حاليا بمذكراته من نوع « قبلنى وساقول كل شىء » أكثر من عمله فى البيت الأبيض ، وسرعان ما فقد منصبه اثر خلاف مع سيدة البلاد الأولى نانسى ريجان ، كان فى ذلك اليوم قد تولى مهام منصبه فى الصباح ورمى قفازه على خشب المائدة اللامع ·

ونظر الرئيس ونائبه فى كل اتجاه انتظارا لرد ، ولكن أغلب

المدعوين بدوا منهولين بمباغتة وعنف الهجـوم • وكانت هيـدى توفلر المؤلف المشارك « لصدمة المستقبل » و « الموجة الثالثة » ولهذا الكتاب هى التى استطاعت مواجهة التحدى ، فقالت بصبر وأناة : « لا يا سيد ريجان •• ستظل الولايات المتحدة قوة صناعية كبرى • الفارق الوحيد أن نسبة الذين يعملون فى المصانع ستنخفض قليلا » •

ثم أخـذت تشرح الفرق بين طـرق التصنيع التقليـدية والطرق المستخدمة لانتاج جهاز كمبيوتر مثل الماكينتوش ، مشيرة الى ان الولايات المتحدة كانت بدون أدنى شك أحد أكبر مصادر المنتجات الغذائيـة فى العالم ، بالرغم من أن الزراعة كانت لا تستخدم سـوى ٢ ٪ من الأيدى العاملة • فخلال القرن الماضى كان كلما تنـاقص عـدد المزارعين بالنسبة لبـاقى القطـاعات الأخـرى ، عززت الزراعـة الأمريكيـة وضـعها ولم تتراجع • والسؤال : لماذا لا يحدث الشىء نفسه بالنسبة للصناعة ؟ •

ويثير الدهشة فى الواقع إن حجم العمالة الصناعيـة فى الولايات المتحدة كان فى عام ١٩٨٨ ، وبعد الكثير من التذبذب ، هو نفس حجمها تقريبا فى عام ١٩٦٨ ، أى يزيد قليلا عن ١٩ مليـون شخص • وكانت الصناعة فى ذلك الوقت تساهم فى الدخل القومى بنفس النسبة التى كانت عليها قبل ذلك بثلاثين عاما : ولكنها حققت هذه المساهمة بنصيب أقل من العاملين •

على أية حال ، فان البقية معروفة ويسهل فك رموزها ، فطالما أن عدد السكان الأمريكيين والجزء العامل منهم لديهم كل الفرص للاستمرار فى النمو ، وان العـديد من رجال الصناعـة أعادوا تنظيم انتـاجهم فى الثمانينـات وجعلوه يعتمد بدرجة كبيرة على الآليـة ، فان نسبة الأيدى العاملة الصناعية، بالمقارنة بالفروع الأخرى ، يجب أن تستمر فى الانخفاض• وطبقا لبعض التوقعات ، يتعين على الولايات المتحدة خلق حوالى ١٠ آلاف فرصة عمل يوميا خلال السنوات العشر القادمة ، غير أن القليل من هذه الفـرص سيكون فى القطاع الصناعى ـ وقد لا تكون هنـاك فرص على الاطلاق فى هذا القطاع • ان تطورا مشابها ترك أثره أيضا على اقتصادات اليابان وأوروبا •

الا أن كلمـــات دونالد ريجان لا تزال تسمع أحيـانا من أفواه قادة صناعات سيئة الادارة ونقـابيين يرون أصـولهم تذوب ورجال اقتصـاد ومؤرخين يدقون الطبول لصالح العظمة الصناعية ـ كما لو كان أحد يريد أن ينتقص من قدر الصناعة • ان الوهم الذى تم تغذيته ذاتيا ، والقائل بأن الولايات المتحدة فى طريقها لفقد قاعدتها الصناعية ، أتاح الفرصة

لاقتراحات معتوهة مثل التى نشرت مؤخرا فى احدى مجلات الأعمال والتى طالبت بفرض ضريبة عامة قدرها ٢٠٪ على « جميع الواردات » ، ومنع اعادة شراء الشركات الأمريكية بواسطة الأجانب ٠

ان جزءا كبيرا من هذه الهستيريا ، ينبع من الاحساس بأن انتقال العمالة من الأعمال اليدوية أساسا ، الى الخدمات والمهن الأكثر اعتمادا على العمل الذهنى ، لا يمكن بطريقة أو بأخرى الا أن يضر بالاقتصاد ككل ، وأن قطاعا صناعيا ذا حجم صغير (من حيث عدد فرص العمل) « يفرغ » البلاد من ماهيتها ٠ يذكرنا هذا الجدل ، بمفاهيم الفيزيوقراطيين الفرنسيين فى القرن الثامن عشر الذين كانوا يعتبرون الزراعة هى النشاط « الانتاجى » الوحيد ، نظرا لعدم قدرتهم على تصور اقتصاد صناعى ٠

المعنى الجديد للبطالة :

ان التباكى على « أفول » الصناعة يتفق فى الغالب مع مصالح شخصية ويعتمد على مفاهيم بالية للثروة والانتاج والبطالة ٠

ففى عام ١٩٦٢ صدرت دراسة رائدة بعنوان « انتاج وتوزيع المعرفة فى الولايات المتحدة » ٠ لقد وضعت هذه الدراسة ، التى يرجع الفضل فيها الى عالم الاقتصاد برينستون فريتز ماشلوب ، الأسس التى انبنى عليها وتطور صرح احصائى ، ونجم عن ذلك أن عدد العاملين الذى يتعامل حاليا مع الرموز أكثر بكثير ممن يتعامل مع الأشياء ٠ مع بداية الستينات تنبأت مجموعة صغيرة من علماء المستقبل الأمريكيين والأوروبيين بالانتقال من العمل العضلى الى العمل الذهنى ، أو على الأقل الى أعمال تتطلب قدرات نفسية وانسانية ، وذلك من خلال تلال من الكتب والمقالات والتقارير والدراسات الوافية ، بالاضافة الى « كتاب أبيض » أعد بناء على طلب آى ٠ بى ٠ ام ٠ ولكن فى ذلك الوقت رفضت هذه التنبيهات المبكرة على أساس أنها « وهمية » ٠

ومنذ ذلك الحين ، انتشر بشكل كبير احلال الأنشطة الخاصة بالخدمات أو الأنشطة فوق الرمزية محل العمل اليدوى ٠ لقد أصبح هذا التحول مذهلا ، وفى الوقت نفسه غير قابل للانعكاس ٠ ففى الولايات المتحدة تضم هذه المهن حاليا ٧٥٪ من الأيدى العاملة ٠ أما على المستوى العالمى فان هذا التحول الكبير يتجلى بشكل مدهش من خلال حقيقة مبهرة تبين أن الخدمات و « الملكية الثقافية » تمثل حاليا تجارة دولية ، لا تقل أهمية عن تجارة السيارات والأجهزة الالكترونية مجتمعة أو المنتجات الغذائية بالاضافة الى الوقود ٠

ونظرا لتجاهل المؤشرات الأولى لهذا التحول ، فان التطور تم بشكل عشوائى أكثر من اللازم • فكلما تأخرت الصناعات القديمة فى التزود بأجهزة الكومبيوتر والروبوت والأنظمة المعلوماتية ، وكلما أبطأت فى اعادة بنــاء هيــاكلها ، تعرضت لضربات قاصمة من المنافســين الأكثر مرونة وتزايدت عمليات الاستغناء عن أعداد كبيرة من العاملين وحالات الافلاس ، بالاضــافة الى اضطرابات أخرى عــديدة • لقد ألقى كثيرون باللائمة على العدوانيــة الأجنبية وسعر الفائدة العالى جدا أو المنخفض للغــاية وعلى المغالاة فى اللوائح ، فضلا عن ألف عامل آخر •

بعض هذه الأسباب لعب دورا بالطبع ، ولكن هناك خطأ مماثلا يقع على عاتق وقاحة الصناعات القديمة ، خاصة الفروع الأقوى فيها ـ صناعة السـيارات وصناعة الصلب وبنــاء السفن والمنسوجات ـ التى سيطرت طويلا على الاقتصاد • ان قصر نظر ادارة هذه الصناعات قد أدى الى معاقبة عمالها ، وهم بالطبع أقل فئات المجتمع مسئولية عن هذا التخلف ، والأقل قدرة على حماية أنفسهم • كما شعرت الكوادر المتوسطة أيضــا بأضرار البطالة الحارقة ورأوا حساباتهم المصرفية تنهار ، وكذلك احساسهم بذواتهم وأحيانا زيجاتهم • وفى أثناء ذلك ، لم تفعل واشنطن شيئا يذكر لتقليل الصدمة •

ان حقيقة أن العدد الاجمالى للعاملين فى الصناعة فى عام ١٩٨٨ عاد الى نفس مستوى عام ١٩٦٨ ، لا تعنى أن العاملين الذين تم الاستغناء عنهم عــادوا ببســاطة الى وظائفهم القــديمة • على العكس ، فمع اســتخدام تكنولوجيات جديدة ، أصبحت الشركة من الآن فصاعدا فى احتياج لقوة عمل مختلفة جذريا • لقد كانت مصانع الموجــة الثانية تستخدم أساسا عاملين قابلين للاستبدال ، بينما على النقيض ، تتطلب عمليــات انتاج الموجة الثالثة كفاءات متنوعة وقابلة للتطور بشكل مستمر : بمعنى آخر ، أصبح العاملون غير قابلين للاستبدال بشــكل متزايد • وبالتالى تطرح مشكلة البطالة نفسها حاليا بشكل مختلف تماما •

فى مجتمعات الموجة الثانية ، كان يمكن تنشيط الاقتصاد وخلق فرص عمل ، من خــلال حقنــه باستثمارات أو بزيادة القوة الشرائيــة للمستهلكين • فاذا كان هناك مليون عاطل مثلا ، كان من الممكن مبدئيا ، تسخين الآلة الاقتصادية بحيث يتم خلق مليون فرصة عمل • لأن الوظائف كانت قابــلة تماما للاستبدال ، أو كانت لا تتطلب الا قدرا ضئيــلا من الكفاءة ، بحيث كان تعلم حرفة جديدة يستغرق أقل من ساعه ، وكان أى عاطل يمكنه عمليا أن يشغل تقريبا أية وظيفة • ومن ثم لم تكن هناك مشكلة •

أما فى الاقتصاد الحالى فوق الرمزى ، فان الأمر يختلف ، ولذلك لا تعطى الوصفات الكينزية التقليدية نتائج طيبة وكذلك طـرق العلاج النقدية • ولنتذكر هنا ، أنه للتغلب على الأزمة الكبرى التى حدثت فى الثلاثينات ، أوصى جون مايناردكينز بضخ نفقات عامة تمول من عجـز الميزانية وتهـدف الى ملء جـوب المستهلكين • وبمجرد أن يكون لدى المستهلكين نقود فانهم سيندفعون للشراء ، مما سيدفع الصناعيين الى توسيع منشـآتهم والى استخدام مزيد من الأيدى العاملة ، ووداعا للبطـالة • أما المنادون بطرق العلاج النقدية ، فانهم يوصون بأساليب مختلفة : مثل التلاعب بسعر الفائدة والكتلة النقدية حيث يتعين أن يؤدى ذلك الى زيادة أو اضعاف القدرة الشرائية طبقاً لما يحتاجه الاقتصاد •

أما فى ظل الاقتصاد الحالى الذى يعمل على صعيد الكرة الأرضية ، قد يؤدى سكب النقود فى جيـوب المستهلكين ، الى ارسال هذه النقود بمنتهى البساطة لتنفق خارج البلاد ، دون أن يستفيد منها الاقتصاد الوطنى أدنى استفادة •

ان الأمريكى الذى يشترى جهاز تليفزيون جديدا أو جهاز تشغيل أسـطوانات مدمجة ، لا يفعـل أكثر من ارسـال الدولارات الى اليـابان أو كوريا أو ماليزيا الخ •• ان عملية الشراء لا تؤدى بالضرورة الى تكاثر فرص العمل فى الولايات المتحدة •

فضلا عن ان هناك ثغرة أخرى فى هذه الاستراتيجيات القديمة ، حيث ان محورها تداول النقود وليس تداول المعرفة • فلم يعد ممكنا خفض البطالة بزيادة عدد فرص العمل ، لأن المشكلة لم تعد كمية فقط : لقد أصبحت البطالة مسألة نوعية بالدرجة الأولى •

حتى لو كان هناك عشرة اعلانات وظائف لكل عاطل أو عشرة ملايين وظيفة خالية مقابل مليون طالب عامل فقط ، فان هذا المليون لن يستطيع شغل الوظائف المتاحة الا اذا كانت المواصفات الفردية ـ المعرفة ـ تتفق مع متطلبات الشركات • ان التخصصـات الآن متنوعـة وتتبدل بسرعـة كبيرة ، بحيث أصبح العاملون أقل امكانية للاستبدال عن ذى قبـل ، أو أصبحت عملية الاستبدال أكثر تكلفة • ولم تعد النقود والعدد هما المعطيات الوحيدة للمشكلة •

ان العاطلين فى حاجة ملحة للمال لبقائهم وعائلاتهم على قيد الحياة ، كما أنه من الضرورى اجتماعيا ومن المبرر أخلاقيا منحهم اعانة ذات مستوى

محترم . ولكن فى ظل اقتصـــاد فوق رمزى ، لا يمكن لأية استراتيجية تهدف لخفض البطالة أن تكون فعالة الا بشرط أن تركز على هبة المعرفة أكثر منها على المساعدة المالية .

بالاضافة الى ذلك ، فمن غير المحتمل أن تكون الوظائف الجديدة فى المصانع كما لا زلنا نتصورها . فلن يقتصر ما تتطلبه هذه الوظائف على كفاءة معينة فى الميكانيكا ــ أو حتى فى الرياضيات كما يدعى بعض رجال الصناعة ــ وانما أيضا على مجموعة كبيرة من القدرات الثقافية والاستعداد للعلاقات الانسانية . ومن ثم يتعين علينا اعداد الناس من خلال النظام التعليمى والتدريب المهنى والتدريب المباشر على مهـام مثل العناية بمن بلغوا سن الشيخوخة (والذين يتزايد عددهم سريعا) ، أو بالأطفال ، وعلى مهن الخدمات الصحية والأمن الشخصى والتـدريب والترفيه والسـياحة وخدمات أخرى من نفس النوع .

كما يتعين علينا البدء فى اظهار تقديرنا لوظائف الخدمات الانسانية، هذا التقدير الذى يقتصر حتى الآن على العالم الصناعى ، وبدلا من تقليل قدر العاملين فى قطاع الخدمات وتشبيههم بـ « بائعى هامبورجر » : كما لو أن ماكدونالد يستطيع أن يكون رمزا لمجموعة من الأنشطة اللانهائية تقريبا ، والتى تضم التعليم كما تضم العمل فى وكالات الزواج أو فى مركز الطب الاشعاعى فى احدى المستشفيات .

ومن ناحية أخرى ، اذا كانت رواتب قطاع الخدمات غالبا ما تكون منخفضة ، فان الحل لا يكون بالتنديد بالتنـاقص النسبى فى الوظائف الصناعية وانما بزيادة الانتاجية فى قطاع الخدمات ، وبابتكار أشكال مناسبة لتنظيم العاملين ، وللمفاوضات الجماعية . كما يتعين على النقابات التى أنشئت فى الأصل سواء لعمال مهرة أو للعاملين فى الانتاج بالجملة ، أن تتبدل تماما ، أو أن تترك المكان لهياكل جديدة تتوافق بشكل أفضل مع الاقتصـاد فوق الرمزى . واذا كانت تريد البقاء على قيد الحياة ، يتعين عليها أن تكف عن معاملة العاملين ككتلة غير متميزة ، والبدء فى التعامل معهم على أنهم ذوات فردية ، فيجب مثـلا أن تشجع بدلا من أن تحـارب التدابير والترتيبات الجديدة مثل العمل من المنزل والمواعيد المرنة ، وتقاسم مواقع العمل .

باختصار ، يضطرنا نمو الاقتصاد فوق الرمزى الى اعادة التفكير فى مشـكلة البطـالة من الألف الى اليـــاء . ولكن مناقشة الادعاءات البالية وتفنيدها ، يعنى تحدى الذين يستفيدون من تلك الادعاءات . وبالتالى

فان نظام خلق الثروة الخاص بالموجة الثالثة ، يهدد سلطات مسيطرة تحتل مواقع منيعة فى الشركات الكبرى والنقابات والدول ٠

صورة طيفية للعمل الذهنى :

يجعل الاقتصاد فوق الرمزى مفهومنا للبطالة باطلا ، وكذلك طريقتنا فى تصور العمل ٠ وكى نفهم الواقع والصراعات من أجل السلطة التى تنبع منه ، يتعين علينا اللجوء الى مصطلحات واستخدامات لغوية جديدة ٠

فتقسيم الاقتصاد الى قطاعات نطلق عليها مثلا « زراعية » و «صناعية» و «خدمات» يضفى تعتيما على الموضوع بدلا من أن يوضحه ٠ لأن سرعة التغيرات الحالية تمحو أو تظلل هذا التمييز الذى كان من قبل واضحا جليا ، والسيد دونالد ريجان الذى يثير قلقه فكرة أن يرى أعدادا متزايدة من الأمريكيين يشتغلون بقص شعر بعضهم البعض ، قد يندهش لو عرف أن مؤسس احدى أكبر شركات الكمبيوتر الأوروبية أكد مرارا « نحن شركة خدمات ـ تماما مثل صالون تصفيف الشعر ! » ٠

ولذلك فبدلا من التشبث بالتصنيفات القديمة يستحسن أن ننظر تحت العناوين ونتساءل عما يتعين أن يفعله حقيقة العاملون فى هذه الشركة أو تلك لخلق قيمة مضافة ٠ وبمجرد طرح السؤال ، سرعان ما سنكتشف أن العمل فى القطاعات الثلاثة يتكون بشكل متزايد من عمليات رمزية أى من « عمل ذهنى » ٠

حاليا ، يحسب مربو الماشية عليقة الحبوب بواسطة الكمبيوتر ، ويراقب العاملون فى مجال صناعة الحديد شاشات الكترونية ولوحات مفاتيح ، ويعتمد رجال البنوك المتخصصون فى الاستثمار على أجهزة الميكرو كمبيوتر المتنقلة الخاصة بهم ليقوموا بعملهم فى الأسواق المالية ٠ ومن ثم لا يهم كثيرا ان كان الاقتصاديون يفضلون تسمية هذه الأنشطة « زراعية » أو « صناعية » أو « خدمات » ٠

بل ان الفئات المهنية نفسها تتفكك وتتجزأ ٠ فعندما يقال ان شخصا ما سائق آلة أو مندوب تجارى ، فان ذلك يخفى أشياء أكثر مما يكشف ٠ قد تظل التصنيفات كما هى ولكن العمل الفعلى يختلف ٠

وبالتالى ، فان الأجدى هو تجميع العاملين طبقا للعمليات الرمزية أو العمل الذهنى الذى يقومون به فى اطار وظيفتهم ـ دون أن نتوقف

لمعرفة في أية فئة يتم تصنيفهم ، وهل يعملون في متجر أو شاحنة أو مصنع أو مستشفى أو مكتب ٠

وعلى قمة ما يمكن تسميته « بالصورة الطيفية للعمل » ، نجد الباحث العلمى أو المحلل المالى أو المبرمج أو المتخصص فى الاعـــلاماتية أو حتى موظف الأرشيف العـادى ٠ سيقال لمـــاذا يتم ادراج العـــالم وموظف الأرشيف فى مجموعة واحدة ؟ والاجابة أنهما وان اختلفت وظائفهما وان كانا يعملان عند مستويات تجريد مختلفة كلية ، فانهما كليهما ــ ومعهما ملايين البشر ــ لا يفعلون سوى تداول المعلومـات وتوليـد مزيـد من المعلومات ، أى أن عملهم رمزى تماما ٠

وفى منتصف الطيف تقريبـــا ، نجد مجموعة كبيرة من الوظائف « المختلطة » ــ مهام تتطلب قدرا من الجهد العضلى ولكن مع درجة من استعمال المعلومات ٠ فالســائق الذى يقوم بتسليم الطرود فى فيدرال اكسبريس أو يونيتد بارسل سرفيس ينقل الصـناديق والعلب ويقود شاحنة ولكنه حاليا يستخدم أيضا جهاز كمبيوتر مثبتا فى كابينة القيادة ٠ وفى المصانع التى تستخدم تكنولوجيا متطورة ، نجد أن مشغل الآلة على درجة رفيعة من التخصص فى الاعلاماتية ولا يقتصر عمل موظفى الاستقبال فى الفنادق والمرضات والعاملين فى مهن أخرى كثيرة ، على التعامل مع الجمهور ، ولكنهم يقضون أيضا جزءا كبيرا من وقتهم فى انتاج المعلومات وتقديمها ٠

قد تظل أيدى الميكانيكيين لدى وكلاء شركة فورد مغطاة بالزيوت والشحوم ، غـير أنهم سرعان ما سيستخدمون نظاما اعلاماتيـــا أعدته هيولت ــ باكارد لمساعدتهم فى تحديد مواضع الأعطال ٠ ويتيح لهم هذا النظام الوصول الى مائة ميجابيت من الرسومات التقنية والبيانات المخزنة فى الذاكرات الالكترونية ٠ كما يقدم لهم معلومات تكميلية عن السيارة التى يقومون باصلاحها ويســـاعدهم فى البحث عما يحتاجونه فى كتل المعدات ، ويقيم علاقات اســـتدلال ، ثم يرشـدهم خلال مراحل العمل المتتالية ٠

عندما يتحاور الميكانيكيون مع هـذا النظـام ، هل نعتبرهم مجرد « ميكانيكيين » أو « عمالا ذهنيين » ؟ ٠

ان المهام اليدوية البحتة التى تقع عند الطرف الأدنى للطيف ، هى التى فى طريقها للاختفاء ٠ وبما أنها أقل عددا ، فان « البروليتاريا » ستكون من الآن فصـــاعدا أقلية ، وسيتم استبدالهــــا بشكل مطرد

« بالكوجنيتاريا » أى بالمتعاملين فى المعرفة · وبتعبير أكثر دقة ، كلما ازداد الاقتصاد فوق الرمزى رسوخا «تتحول» البروليتاريا الى كوجنيتاريا ·

حاليا ، أصبحت الأسئلة الرئيسية التى يتعين طرحها بالنسبة لعمل شخص ما هى : ما نسبة معالجة المعلومات التى يتضمنها هذا العمل ؟ الى أى مدى هو عمل تكرارى أو قابل للبرمجة ؟ ما مستوى التجريد الذى يتضمنه ؟ هل يسمح لهذا الشخص بالتعامل مع بنك المعلومات المركزى ومع نظام المعلومات الخاص بالادارة ؟ وما مدى الاستقلالية والمسئولية الذى يتمتع به هذا الشخص ؟

ان الادعاء بأن ذلك « يفرغ » الاقتصاد ، أو استبعاده لاعتباره مساويا « لبيع الهامبورجر بالقطاعى » أمر بكل بساطة مثير للسخرية · لأن تأثير هذا الكلام المكرر هو الانتقاص من قيمة هذا القطاع الاقتصادى الذى ينمو بسرعة أكبر ويخلق أغلبية الوظائف الجديدة · كما أن ترديد هذه المقولات ، يعنى رفض الاعتراف بالدور الحاسم الذى تلعبه المعرفة من الآن فصاعدا فى انتاج الثروة ، كما يعنى عدم ادراك التطابق التام بين تحول العمل الانسانى ونمو رأس المال والنقود فوق الرمزيين اللذين رسم ملامحهما الفصل السابق ، وأن الأنماط المهنية الجديدة هى أحد مظاهر عملية اعادة الهيكلة الشاملة للمجتمع ، التى تتسارع عشية القرن الواحد والعشرين ·

« بدائى » ضد « راقى » :

ان تغيرات بمثل هذا الاتساع ، لا يمكن أن تحدث دون أن ينجم عنها صراعات على السلطة · وفى محاولة لتوقع الذين سيكسبون والذين سيخسرون فى هذا الصراع ، قد يكون مفيدا أن ننظر أيضا الى الشركات من زاوية المكان الذى تحتله كل منها فى صورة طيفية « للعمل الذهنى » ·

وبالتالى يتعين تصنيفها ليس كشركات « صناعية » أو « خدمية » ولكن طبقا لما يقوم به فعلا العاملون فى هذه الشركات · فشركة س · اس · اكس · مثلا تمتلك خطوط سكك حديدية فى شرق الولايات المتحدة كله · وهى فى الوقت نفسه احدى كبريات الشركات العالمية فى النقل البحرى بواسطة الحاويات (تتولى تسليم قطع غيار هوندا فى أمريكا) · غير أنها تعتبر أن المعلومات هى سمتها الأساسية ·

ويقول أحد قياداتها وهو الكس ماندل : « المعلومات تمثل مكونا متزايد الأهمية فى مجال خدمات نقل البضائع التى نقوم بها · اذ لا يكفى تسليم

المنتجات • فالعملاء يريدون الحصول على المعلومات التى تعنيهم مثل : متى سيتم تجميع رسائلهم للنقل ، ومتى سيتم اعادة فرزها ، وأين ستوجد هذه الرسائل فى هـذه اللحظة أو تلك ، وما هى التكاليف ومشـكلات الجمارك التى قد تتعرض لها ؟ والعديد من الأشياء الأخرى • فى شركتنا ، تلعب المعلومات دور المحرك » • أى بمعنى آخر أن نسبة العاملين فى س • اس • اكس • الذين يقعون فى الصفوف المتوسطة أو العليا من الطيف فى زيادة مستمرة •

ويقودنا ذلك الى فكرة امكان توزيع الشركات بشكل تقريبى الى شركات « بدائية » و « متوسطة » و « ذهنية » • مثلها فى ذلك مثل الوظائف الفردية ، فهى تحتل موقعا فى الصورة الطيفية يتطابق مع حجم العمليات الذهنية التى تنجزها ومدى تعقيد هذه العمليات •

ويذهب الدكتور دونالد • اف كلاين ، وهو طبيب نفسى ومدير أبحاث فى معهد الطب النفسى بولاية نيويورك ، الى أبعد من ذلك فى نفس الاتجاه مؤكدا أن هذه الفروق موجودة فى مستويات الذكاء العامة المطلوبة من العاملين • ويضيف قائلا : « ألا تعتقدون أن العامل المتوسط لدى شركة آبل أكثر ذكاء من العامل المتوسط لدى شركة ماكدونالد ؟ الادارة العليا لدى الأخيرة قد لا تقل ذكاء عنها لدى آبل (وان كنت أشك فى ذلك) ، غير أن نسبة العاملين المتبادلة التى تتطلب حاصلا ذكائيا مرتفعا وقدرة على الترميز مختلفة تماما بالطبع » •

وبمواصلة هذا التفكير ، من المفترض أن نصـل الى وضع مستوى جماعى للحاصل الذكائى لكل شركة • هل عمال كرايزلر أكثر ذكاء ذاتيا من عمـال فورد أو تويوتا ؟ (ليس أكثر تعليمـا ولكن أكثر ذكاء من « حيث المولد » ؟) وما الذى يمكن قوله عن ترتيب الشركات طبقا للحاصل الذكائى ، مثلا ترتيب آبل بالنسبة لـ كومباك ، أو جنرال فودز بالنسبة لـ بيلسبورى ؟ (وهما من شركات المنتجات الغذائية) • وبدفع هذه الطريقة لدرجة العبث يمكن تصور اعادة ترتيب الشركات الخمسمائة الكبرى المدرجة فى مجلة « فورتشن » على أسـاس الحاصـل الذكائى الجماعى •

ولكن هل الشركات ذات الحاصل الذكائى المرتفع تنتج بالضرورة ثروة أكبر من تلك التى تليها فى الترتيب ؟ وهل تحقق أرباحا أفضل ؟ هناك بلا شك عناصر أخرى مثل الحافز والديناميكية وشدة المنافسة ، وكلها عوامل لها بالتأكيد دور فى النجاح التجارى • ومن جهة أخرى ، كيف يمكن قياس الذكاء عامة ؟ •

هناك أسباب قوية تدفع الى الاعتقاد بأن اختبارات الحاصل الذكائى منحازة ثقافيا وتأخذ فى الاعتبار عددا غير كاف من سمات الذكاء ٠

غير أنه ليس من الضرورى بناء سيناريوهات وهمية لادراك أن الشركات « الراقية » ـ بغض النظر تماما عن مستوى الذكاء الفردى للعاملين ـ ليس لها نفس سلوك الشركات التى تحتل فيها المعرفة مكانا أقل ٠

ففى الشركات « البدائية » يكون العمل « الذهنى » وقفا على بضع قيادات ولا يترك لباقى العاملين غير العمل العضلى أو على الأقل غير الذهنى ٠ لأن هذه الشركات تفترض مبدئيا أن العاملين جهلة ، أو أن ما يمكنهم معرفته ليس له على أية حال أهمية بالنسبة للانتاج ٠

حتى فى القطاع « الراقى » يمكن حاليا رصد العديد من أمثلة « تقليل الكفاءة » ، أى تبسيط العمل ، الذى يتحول الى أصغر مكوناته ويتم مراقبته خطوة خطوة ٠ ولحسن الحظ ، هذه المحاولات لتطبيق طرق أعدها فريدريك تايلور لاستخدامها فى الانتاج الصناعى فى بداية القرن العشرين ، لم تعد الا مظهرا متأخرا للماضى « البدائى » ، وليس تجسيدا مسبقا لمستقبل « راقى » ، لأن أية مهمة بسيطة وتكرارية بحيث يمكن القيام بها بدون تفكير ، ستكون مرشحة قريبا للروبوتية ٠

وعلى النقيض من ذلك ، نجد أنه كلما اتجه الاقتصاد نحو الانتاج فوق الرمزى ، ستضطر كل الشركات الصناعية الى اعادة التفكير فى دور المعرفة ٠ وفى القطاع « الذهنى » ، الشركات الأكثر تقدما هى التى تبادر بذلك بشكل أسرع ، كما تعيد فى الوقت نفسه تعريف العمل ذاته ٠ وتنطلق هذه الشركات من مبدأ أنه بتقليل العمل العضلى البحت الى الحد الأدنى ، أو باسناده الى آليات ذات تكنولوجيا عالية ، بحيث تتاح للعامل الفرصة للتعبير بلا تحفظ عن قدراته الخاصة ، فان انتاجيتها وأرباحها سترتفع بسرعة ٠ وتضع هذه الشركات لنفسها هدفا ، هو استخدام عدد أقل من العاملين ولكنهم أكثر قدرة وكفاءة وتدفع لهم رواتب أفضل ٠

حتى الأنشطة من النوع المتوسط التى لا زالت تتضمن عمليات عضلية ، باتت أكثر اعتمادا على المعرفة ، وترتفع بالتالى على سلم طيف العمل ٠

ففى مدينة شلبيفيل بولاية انديانا ، توجد منشأة حديثة تابعة لجين كورب أوتوموتيف ٠ هذه المنشأة التى تكلفت ٦٥ مليون دولار سوف تستخدم قريبا ٥٠٠ شخص ، لانتاج عناصر بلاستيكية لهياكل السيارات

لكل من شيفروليه وبونتيـــاك وأولدزموبيل · وسيتلقى كل العاملين ــ وليس الكوادر والفنيون وحدهم ــ تدريبا تتراوح تكلفته بين ٨ آلاف وعشرة آلاف دولار · ولن يقتصر التدريب على تنفيذ المهام العضلية المطلوبة فقط ولكنه سيتضمن أيضا تقنيات حل المشـكلات وادارة المجموعة والتمثيل النفسانى (*) فضلا عن طرق التنظيم · كما سيتم تقسيم العاملين الى فرق لدى كل منها جهاز كمبيوتر ، بحيث يتدرب كل فريق على الرقابة بواسطة الطرق الاحصائية ، وسيتعلم كل فرد فى الفريق العديد من الوظائف المختلفة بحيث يتسنى لهم تبادل مواقعهم وتقليل الملل الى أدنى مستوى · أما رؤساء الفرق فسوف يتلقون تدريبا لمدة عام يتضمن فترة اقامة فى الخارج ·

واذا كانت جين كورب تستثمر كل هذه الأموال فانها لا تفعل ذلك لدوافع خيرية ، بل هى تأمل أن تجنى الثمار فى شـكل انطلاقة سريعة للمصنع ، ثم نوعية انتاج عالية المستوى مع تقليل الفاقد فضلا عن انتاجية فردية متزايدة ·

بشكل عام ، ليست الشركات « الراقية » مؤسسات خيرية · فبرغم أن العمل فيهـــا يميـــل الى أن يكون أقل معـــاناة عضليا عنه فى الانتـــاج « البدائى » ، والوسط المحيط أكثر لطفا الا أنها عادة ما تطالب العاملين فيها « بالمزيد » · ان العاملين فى هذه الشركات ليسوا مطالبين باستخدام قدراتهم الذهنية فقط فى العمل وانما بأن يستثمروا أيضـا انفعالاتهم وملكاتهم الحدسية وقدرتهم على التخيل · لذلك يدين أتباع ماركوز هذه الممارسات ويعتبرونها طريقة استغلال للأجراء أكثر اضرارا من سابقتها ·

الأيديولوجية « البدائية » :

كانت الثروة فى الاقتصـــادات الصناعية « البدائية » تقاس عادة بملكية السلع التى كان انتاجها يعتبر جوهر الحياة الاقتصادية · وعلى النقيض كانت الأنشطة الرمزية أو أنشطة الخدمات ــ وان كان لا غنى عنها للأسف ــ توصم بأنها غير منتجة (ولا زالت توصف كذلك أحيانا بقلم علماء اقتصاد يقيسون الانتاجية بمعايير نمطية أعدت من أجل القطاع الصـــناعى ولا تنطبق على قطاع الخدمات ــ فالخدمات بطبيعتها يصعب تقييمها) ·

كان انتاج الأشياء المادية : سيارات ــ جرارات ــ أجهزة تليفزيون ــ

(*) ارتجال موجه للمشاهد غايته حمل المرضى على تمثيل تصرفاتهم فى الحياة ·

يبدو كشيء « مذكر » بل و « فوق مذكر » ، وتقترن بمثل هذا الانتاج أوصاف من قبيل « عملى » أو « واقعى » أو « ايجابى » • على عكس انتاج المعرفة وتبادل المعلومات ، حيث كان يقلل من شأنه عامة بدعوى أنه مجرد « ركام من الورق لا قيمـة له » ، ويعتبر أنشطة لا تتسم بالجدية الكافية بل ومخنثة •

لقد أنتجت هذه المواقف عددا من النتائج الطبيعية • منها على سبيل المثال : أن « الانتاج » يرتكز على تضافر الموارد المادية والآلات والقوة البدنية وأن أهم أصول شركة ما هى تلك الأصول المحسوسة والملموسة • وأن الثروة الوطنية تنتج من فائض الميزان التجارى وأن تبادل الخدمات لا أهمية له الا فى حدود أنه يسهل تجارة السلع • ولا يمثل التدريب فى أغلب الأحيان سوى تبذير واهدار الا اذا كان تدريبا مهنيا بحتا • وأن البحث العلمى نزوة غير واقعية ، والفن لا علاقة له بالأعمال بل قد يتسبب فى الاضرار بها •

باختصار ، المهم فى كل شيء هو المادة •

فضلا عن ذلك ، فان هذا النوع من الأفكار ليس وقفا على أقطاب الرأسمالية وانما يوجد مثيل لها فى العالم الشيوعى أيضا • لقد وجد الاقتصاديون الماركسيون صعوبات أكثر ــ وهو أقل ما يمكن قوله ــ فى ادماج العمل « الراقى » فى خططهم • وفى المجال الفنى ، صورت« الواقعية الاشتراكية » آلاف العمال السعداء وهم يظهرون عضلات قوية على خلفية من التروس والمسننات ومداخن المصانع والقاطرات البخارية • فى الحقيقة كان تمجيد البروليتاريا ، التى تم تصويرها نظريا على أنها طليعة التقدم ، يجسد مسلمات اقتصاد « بدائى » •

وكانت المحصلة الاجمالية أكبر بكثير من مجرد تراكم غير متبلور من الآراء والأفكار المسبقة والمواقف المعزولة • بل انهـــا كانت تشكل بالأحرى أيديولوجية قادرة على تبرير وتدعيم نفسها بواسطة اندفاعها الذاتى ــ أيديولوجية معتمدة على مادية ــ ذكرية وقحة وظافرة •

وهى تمثل فى الواقع أيديولوجية صناعة الانتاج بالجملة ، سواء كان دعاتها هم قادة الصناعة الرأسمالية أو اقتصاديين من النوع التقليدى • وعلى أية حال فهى تجسد ، كما أشارت لذلك صحيفة « فاينشيال تايمز » مازحة بسخرية « النظرية القائلة بأولوية المنتج المادى والتى لن ينكرها المخططون السوفيت » • انها الهراوة التى يستخدمها المدافعون عن المصالح القائمة للاقتصاد المصنعى القديم فى صراعهم ضد أنصار الاقتصاد فوق الرمزى الذى يتشكل الآن •

فى زمن ما ، كان يمكن أن يكون للمادية ـ الذكرية بعض المعنى • أما الآن حيث ترجع القيمة الحقيقية لأغلب المنتجات الى المعرفة التى تتضمنها فان مثل هذا الموقف يبدو غبيا ورجعيا • وكل بلد يختار أن ينتهج سياسة تقوم على هذه الأيديولوجية يحكم على نفسه بأن يصبح بنجلاديش القرن الواحد والعشرين •

الأيديولوجية « الراقية » :

لم تقم بعد الشركات والمؤسسات والأشخاص المعنيون أكثر من غيرهم بقيام الاقتصاد فوق الرمزى باعداد نظرية مترابطة لمواجهة المادية ـ الذكرية وان كانت بعض الأفكار الأساسية قد بدأت تأخذ مكانها •

وبدأت الوثائق الأولى المتناثرة للاقتصاد الجديد تظهر فى أعمال لا زالت مجهولة بدرجة كبيرة ، لكتاب من أمثال أوجين لويبل ، الذى توفى مؤخرا ، والذى قضى ١١ عاما فى أحد سجون تشيكوسلوفاكيا يعيد التفكير بعمق فى التأكيدات الرئيسية وادعاءات كل من الاقتصاد الماركسى والاقتصاد ذى النزعة الغربية ، وهنرى • كيه • اتش • فوو من هونج كونج الذى حلل « الأبعاد غير المنظورة للثروة » ، وأوريو جياريني من جنيف الذى طبق مفاهيم المخاطرة وعدم اليقين على تحليل مستقبل أنشطة الخدمات ، والأمريكى ولتر ويسكوف الذى بحث دور شروط عدم التوازن فى التنمية الاقتصادية •

ويتساءل الباحثون العلميون حاليا ، كيف تتصرف النظم وهى فى حالة اضطراب وكيف يتمخض نظام من مواقف عشوائية ، وكيف تقفز نظم فى حالة نمو الى درجات نمو أعلى ؟ • كل هذه الأسئلة لها أهمية كبرى فى فهم النشاط الاقتصادى • وتؤكد كتيبات فى الادارة أنه يمكن « النجاح بفضل الفوضى » • ويعيد علماء الاقتصاد اكتشاف أعمال جوزيف شومبيتر الذى كان يعتبر « الهدم البناء » ضروريا للتقدم • ومن خلال عاصفة من عروض الشراء العلنية واعادة البيع واعادة التنظيم وحالات الافلاس وعمليات طرح للشركات والمشاركة فى رأسمال ذى مخاطر ، فان مجمل الاقتصاد فى طريقه لأن يتخذ بنيانا جديدا • هذا البنيان يسبق بتنوعه وسرعة تطوره وتعقيده الاقتصاد المصنعى القديم بسنوات ضوئية •

ان « القفزة » التى ستلقى بنا الى درجة أعلى من التنوع والسرعة والتعقيد ، تتطلب اكتمال قفزة موازية نحو أشكال من التكامل أعلى وأكثر تطورا • هذا التحول بدوره لا يمكن أن يكتمل الا برفع معالجة المعلومات الى مستويات عليا •

وفى غياب مثل هذا القدر الأعلى من التنسيق والعمل الذهنى المصاحب بالضرورة له ، لا يمكن أن تظهر قيمة مضافة ولا يستطيع الاقتصاد خلق الثروة ٠ وبالتالى لا ترتكز القيمة على توليفة الأرض والعمل ورأس المال فقط ٠ لأن كل الأرض وكل العمل وكل رأسمال العالم ، لا يستطيعون تلبية احتياجات المستهلكين اذا لم يتم التوصل الى دمجهم وتكاملهم بدرجة أعلى بكثير مما تحقق حتى الآن ٠ ومن ثم سوف يتغير تماما مفهوم القيمة طبقـا لذلك ٠

وتعبر مجموعة « برومثيه » ـ وهى مجموعة تفكير وتأمل مستقلة تعمل فى باريس ـ عن هذه الفكرة فى تقرير حديث لها قائلة : « ان القيمة « تستخلص » فى الواقع من خلال اجمالى انتـاج سلعة/خدمة ٠ اذ لا تتميز الاقتصادات المسماة خدمية [٠٠٠] بحقيقة أن الناس بدءوا فجأة يستكملون حياتهم باســتهلاك غير مادى أو غير ملموس ، ولكن بالأحرى بحقيقة أن الأنشطة المتصلة بالمجال الاقتصادى أصبحت أكثر تكاملا بشكل متزايد » ٠

ان الثقافة الصناعية ، بمعنى تفوق الصناعة فى النشاط الاقتصادى ، المستوحاة بشكل قوى من أفكار ديكارت التى ترجع الى القرن السابع عشر تشجع الذين يبدون قدرة على تحويل المشكلات والعمليات تدريجيا الى أصغر مكوناتها ٠ بتطبيق هذا النهج التجزيئى والتحليلى التـام على الاقتصاد ، اعتدنا على تصور الانتاج كسلسلة من المراحل المعزولة ٠

فى المنظور القديم ، كان جمع رؤوس الأموال وشراء المواد الأولية واختيار العمال واستخدام التقنيات المتاحة والقيام بالدعاية والبيع وتوزيع المنتج بشكل جيد ، كل ذلك كان يمثل سلسلة من العمليات غير المتصلة ، ان لم تكن مهام مستقلة تماما ٠

أما النموذج الجديد للانتاج ، الذى أوجده الاقتصاد الحالى فوق الرمزى ، فانه يتعارض بشكل مذهل مع النموذج القديم ٠ فهو يعتمد على منظور كلى يشمل النظام ككل ، أو بعبارة أخرى منظور تكاملى ٠ فهو ينظر الى الانتاج كعملية تركيبية ومتزامنة بدرجة متزايدة ، حيث مجموع الأجزاء لا يمثل الكل ، كما لا يستطيع اطلاقا أى جزء أن يظل بدون روابط مع الأجزاء الأخرى ٠

فالمعلومات التى يجمعها أخصـائيو التســويق والبيع تغذى رؤية المهندسين الذين يحتاجون بدورهم الى أن يفهم القســم المالى ابتكاراتهم بشكل جيد ٠ ولكى يستطيع هذا القسم تدبير رؤوس الأموال ، فانه يعتمد بدوره على درجة رضا أو استياء العملاء ، ويتوقف ذلك على دقة عمليات

التسليم التى تتم بواسطة شاحنات الشركة · وترتبط عمليات التسليم جزئيا بحافز العاملين الذى يعتمد بدوره على الرواتب والميل الى العمل المنجز بشكل جيد ، ويعتمد ذلك بدوره على ··· وهكذا ···

ان تفضيل الربط والاتصـــال عن العزلة ، وتفضيل التكامل عن الانفصال ، والتزامن فى الزمن الحقيقى عن المراحل التسلسلية ، كل ذلك يشكل الضروريات التى ينبنى عليها النموذج الجديد للانتاج ·

اننا فى الواقع ، فى طريقنا لاكتشاف أن الانتاج لا يبدأ ولا ينتهى داخل المصنع · هذا ما تحاول أن تبرزه أحدث نماذج الانتاج ، والمعدة من وجهة نظر اقتصادية ، حيث تمتد عملية الانتاج الى ما قبل وما بعد المصنع ـ وخاصة ما بعد أى نحو المستقبل ، فى شكل خدمات ما بعد البيع أو « لمساندة » المنتج الذى تم بيعه ، كما هو قائم فى حالة ضمانات صيانة السيارات ، أو المســـاعدة التى يعد بهـا البائع مشترى جهاز كمبيوتر · وقريبا ، سوف يمتد مفهوم الانتاج الى أبعد من ذلك ، بحيث تدمج فى عملية الانتاج ، عملية التخلص من المنتج غير المستخدم ، بطريقة مقبولة بيئيا · وبالتالى ستضطر الشركات الى أن تضع فى اعتبارها طرق « دفن » مناســبة وهو ما سيجبرها على مراجعــة مواصـفات المشروعات وحسابات التكلفة وطرق الانتاج والعديد من الأشياء الأخرى · وبذلك ستؤدى هذه الشركات مزيدا من الخدمات لوظيفة الانتاج وتخلق من خلال ذلك القيمة المضافة · وعندئذ سيعتبر أن « الانتاج » يشمل مجموع هذه الوظائف ·

وبمعنى مماثل ، يمكن أن يمتد التفكير الى ما قبل المصنع ليصـل الى تدريب العاملين والبيئة اليومية والخدمات الأخرى · واذا امتد بنـا التفكير لأبعد من ذلك قد توجد وسائل لتحويل عامل « عضلى » ساخط على مصيره ، الى شخصية « منتجة » · ففى الأنشطة ذات الرمزية العالية يحقق العاملون السعداء معدلات انتاج أكبر · وينجم عن ذلك أن تكون محركات الانتاجية ، قبل البداية الرسمية ليوم العمل بكثير · لكن أنصار الزمن القديم السعيد ، يعتبرون اعادة التعريف الموسع للانتاج غامضة تماما أو غير معقولة على الاطلاق · فى حين أن هذا التعريف يعتبر بدهيا بالنسبة للجيل الجديد من القيادات فوق الرمزية المدربين على التفكير وفق نظام متكامل وليس وفق وظائف منعزلة ·

باختصار ، يعاد حاليا صياغة مفهوم الانتاج فى اطار أوسع بكثير ، ليشمل جوانب لم يكن من الممكن أن يتخيلها رجال الاقتصاد ومنظرو التفكير « البدائى » · ان المعرفة من الآن فصاعدا هى التى تجسد القيمة وتخلقها

فى كل خطوة وليس الأيدى العاملة الرخيصة ، الرموز وليس المواد الأولية .

ان اعادة بحث وفحص مصادر القيمة المضافة بشكل متعمق تؤدى الى نتائج مهمة : فهى تحول الى العدم تلك المسلمات المشتركة لكل من أنصار الليبرالية المتطرفة والماركسيين وذلك بتقويض المادية ـ الذكرية التى يستوحون منها أفكارهم . وبالتالى ، يتضح خطأ المفهومين المتناظرين اللذين يريدان أن تكون القيمة اما نتاج العمل الشاق للعامل وحده أو من خلق الرأسمالى صاحب الشركات وحده ، وينكشف تأثيرهما الخادع الخطير على الساحة السياسية وفى المجال الاقتصادى .

فالجميع فى ظل الاقتصاد الجديد يضيف قيمة ، يتساوى فى ذلك عاملة الاستقبال ورجال الاستثمار فى البنك والكاتب الآلى (أى الذى يستخدم الآلات الكاتبة والحاسبة ذات البطاقات المثقوبة) والبائعة ومصمم النظم الاعلاماتية وخبير الاتصالات . والحقيقة الأكثر دلالة أيضا ، هى أن العميل يساهم كذلك فى هذه القيمة . ان القيمة تنتج من خلال جهد جماعى وليس من مرحلة معزولة فى مكان محدد من العملية الانتاجية .

ومهما تعددت الصرخات التى يطلقها البعض على العواقب الوخيمة « لزوال » القاعدة الصناعية ، أو محاولات السخرية من مفهوم « اقتصاد المعلومات » فان الأهمية المتزايدة للعمل الذهنى ستستمر فى تأكيد ذاتها وسينطبق الشىء نفسه على المفهوم الجديد لخلق الثروة .

ان ما نشهده الآن هو التقاء عظيم وتضافر لعدة تحولات يتم رصدها فى كل من الانتاج وتكوين رأس المال ، بل وفى طبيعة النقود . ومجموع هذه التغيرات التى تحدث فى آن واحد ، فى طريقه لاقامة نظام ثورى لخلق الثروة على ظهر هذا الكوكب .

الفصل الثـامن

البـديل النهـائى

كل شخص يقرأ هذه الصفحة لديه قدرة مثيرة جدا : فهو يعرف القراءة • لقد اصبح التعليم منتشرا حتى انه قد يبدو مدهشا احيانا ان نتذكر ان اسلافنـا جميعا كانوا اميين ، لم يكونوا جهلاء او اغبياء ولكن اميين تماما•

فى العالم القديم ، كان مجرد معرفة القراءة يعتبر انجازا رائعا • لقد كتب القديس أوغسطين فى القرن الخامس يصف أستاذه القديس امبرواز دى ميلان فقال انه كان متعلما لدرجة انه كان يقرأ دون تحريك شفتيه : قدرة مذهلة جعلته يعتبره أذكى شخص فى العالم •

لم يكن أغلب أسلافنـا أميين فقط وانما كانوا أيضا « لا يعرفون الأرقام » ، لم يكن بامكانهم اجراء أبسط العمليات الحسابية • والنادرون منهم الذين كانوا قادرين على ذلك كان ينظر اليهم على أنهم خطرون • هناك نص منسوب الى القديس أوغسطين ـ وهو نص مثير للعجب ـ يؤكد أنه على المسيحيين أن يتجنبوا الذين يعرفون الجمع والطرح : لأن هؤلاء بكل تأكيد « عقدوا عهدا مع الشيطان لتعتيم الروح والاحتفاظ بالانسان سجينا فى قيود جهنم » ـ وهو احساس يمكن حاليا أن يتقاسمه العديد من طلبة الرياضيات الخاصة •

وكان يتعين انتظار الف عام لكى يظهر « معلمو الحساب » الأوائل الذين أعدوا تلاميذهم للمهن التجارية •

هذه الأمثلة ، توضح حقيقة أن أبسط القدرات ، التى تعتبر من مسلمات الحياة الاقتصادية الحالية ، هى فى الحقيقة ثمرة قرون وآلاف

السنين من التطور الثقافى التراكمى • ان المعرفة المأخوذة من الصين والهند والعرب والتجار الفينيقيين وكذلك من الغرب ، هى جزء مكمل ومتمم للميراث الذى يستخدمه حاليا الكوادر وقادة العالم كله ، وان كان غير معترف به بشكل عام • لقد تعلم البشر جيلا بعد جيل هذه الطرق والأساليب وتناقلوها وكيفوها مع احتياجات زمنهم وشيدوا ببطء صرحا متكاملا انطلاقا من نتائج هذه الطرق •

اذن تستند كل النظم الاقتصادية على « قاعدة من المعرفة » ولا تستطيع أية شركة أن توجد بدون هذه القاعدة المعرفية الموجودة سلفا ، والتى أعدتها الهيئة الاجتماعية • وخلافا لرأس المال والعمل والأرض فان رجال الاقتصاد وقادة الشركات يهملون هذه القاعدة ، عندما يحسبون « المدخلات » الضرورية للانتاج • غير أن قاعدة المعرفة هذه التى يتم اكتسابها أحيانا مقابل مال ، وتستخدم مجانا فى أحيان أخرى ـ أصبحت حاليا أكثر الموارد أهمية •

ففى لحظات نادرة جدا من التاريخ ، أسقط تقدم المعرفة الحواجز القديمة بضربة واحدة • من بين أكثر هذه الطفرات أهمية ، كان اختراع أدوات تفكير واتصال جديدة مثل الرموز الكتابية فى شكل رسوم ثم الحروف الأبجدية ، ثم اختراع الصفر ، ثم الكمبيوتر فى عصرنا •

منذ ثلاثين عاما ، كان كل شخص يستخدم الكمبيوتر ولو بقدر ضئيل يعتبر فى الصحافة الشعبية « ساحر رياضيات » أو « عبقرى فذ » ، تماما كما كان القديس امبرواز فى العصر الذى كان يقرأ فيه بتحريك الشفاه •

اننا نعيش حاليا لحظة من لحظات التاريخ ، تختفى فيها الحواجز القديمة ويهتز البناء الكامل للمعرفة الانسانية على قواعده • لم نعد نكتفى بتجميع مزيد من « الوقائع » و « الحقائق » ـ أيا كانت طبيعتها • ففى الوقت الذى نعيد فيه بناء هياكل الشركات والاقتصاد بكامله ، فاننا نعيد تنظيم انتاج وتوزيع المعرفة ، ونبدل كذلك الرموز التى تستخدم فى توصيلها •

ماذا يعنى ذلك ؟

انه يعنى أننا نخلق شبكات معرفة جديدة ونربط المفاهيم مع بعضها البعض بروابط مدهشة ، ونشيد تدرجات وتسلسلات مذهلة من الاستدلالات • ونعد نظريات جديدة وافتراضات وصورا تعتمد على مسلمات مبتكرة وعلى لغات وشفرات ونظم منطقية جديدة • ان الشركات والدول

والأفراد يجمعون ويحتفظون حاليا فى ذاكرتهم بوقائع وحقائق خام أكثر من أى جيل آخر فى التاريخ ، مما يشكل فى مجموعه منجم ذهب لمؤرخى الغد ، منجم غنى لدرجة أن غزارته قد تسبب لهم الضيق والارتباك ٠

بيد أن الأهم هو أننـــا نقيم بين البيانات عـددا أكبر من العلاقات ونضعها فى سياق ، ومن ثم نحولها الى معلومات ، وبعد ذلك نجمع كتل المعلومات المختلفة لبناء نماذج أكثر اتســاعا وبنايات معمارية حقيقية للمعرفة ٠

ولا شىء من كل ذلك يفترض أن تكون البيانات صحيحة أو المعلومات حقيقية أو المعرفة نفـاذة وأريبة ٠ وان كان يعنى على أية حال تغيرات واسعة فى طريقتنا لرؤية العالم وخلق الثروة وممارسة السلطة ٠

ان المعرفة الجديدة ليست دائما واقعية ولا حتى واضحة أو جلية ٠ اذ يتعلق الأمر بمسلمات متراصة على مسلمات وبنماذج جزئية وبتماثلات وتشابهات خفية ، فضلا عن أن المجموع لا يقتصر على بيانات معلوماتية ومنطقية فقط تخلو ولو ظاهريا من أى تأثير عاطفى ، وانما يتضمن أيضا قيما هى ثمرة الانفعال والعاطفة فضلا عن التخيل والحدس ٠

ان الانقلاب الضخم لقاعدة المعرفة فى مجتمعنـا هو الذى يفسر نمو الاقتصاد فوق الرمزى ، وليس التأثير المنشط الراجع لأجهزة الكمبيوتر أو تأثير التلاعبات المالية البسيطة ٠

خيمياء المعلومات :

كثير من التغيرات التى طرأت على نظام المعرفة فى المجتمع يترجم مباشرة الى عمليات اقتصادية ٠ ونظام المعرفة موجود بشكل أكثر شمولا فى بيئة كل شركة عن النظام المصرفى أو النظام السياسى أو النظام الخاص بالطاقة ٠

بالاضافة الى أن أية شركة لن تستطيع فتح أبوابها فى غياب اللغة والثقافة والبيانات والمعلومات ، كما يتعين أيضا أن نفهم وبشكل أكثر عمقا ، أن من بين كل العناصر اللازمة لخلق الثروة فان المعرفة هى القادرة على التوافق والتكيف مع مختلف الاستخدامات ٠ وفى الحقيقة ، يمــكن للمعرفة (التى غالبا ما تتلخص فى معلومات وبيانات خام) أن تحل محل موارد أخرى ٠

ان المعرفة ، وهى مبدئيا لا تنضب ، تمثل البديل النهائى ٠

ولنتأمل الأمر من منظور تكنولوجى ·

فى أغلب المصانع القديمة كانت عملية تعديل منتج معين باهظة التكاليف ، حيث تتطلب صناع آلات ومن يقومون بتركيبها وضبطها ، فضلا عن تخصصات أخرى ذات أجور مرتفعة ، كما تتطلب فترة تعبئة طويلة لا تعمل خلالها الآلات ، وان كانت لا تتوقف عن التهام رأس المال والفوائد والنفقات العامة · وبالتالى كلما ازداد طول سلسلة المنتجات المتماثلة انخفض سعر تكلفة الوحدة ·

أما الآن فان تقنيات الانتاج الأحدث التى يساندها الكمبيوتر تسمح بانتاج متنوع للغاية بدلا من تلك السلاسل الطويلة ، ففى عام ١٩٧٢ كانت شركة فيلبس ـ عملاق الالكترونيات ـ التى تتخذ هولندا قاعدة لها ، تنتج مائة موديل مختلف من أجهزة التليفزيون الملون · حاليا ، تقدم نفس الشركة خمسمائة موديل · وفى اليابان ، تطرح شركة بريدجستون سيكل دراجة يتم تصنيعها طبقا للمواصفات الخاصة التى يطلبها العملاء · كما تقدم شركة ماتسوشيتا تشكيلة من سجاد التدفئة تكاد تكون حسب الطلب · وفى الولايات المتحدة تبيع شركة واشنطن شو أحذية للسيدات طبقا لمقاسات أقدامهن والتى يقوم الكمبيوتر بتحديدها فى محل للبيع ·

ان التقنيات الاعلاماتية الجديدة ، التى قلبت اقتصاد الانتاج بالجملة رأسا على عقب ، تنزع الى جعل تكلفة التنوع صفرا تقريبا · وهكذا ألغى تدخل المعرفة التكلفة المرتفعة التى كانت تنجم فى الماضى عن ادخال « تغيير » على عملية الانتاج ·

ولنأخذ المواد الخام كمثال آخر :

عند تشغيل مخرطة تستطيع برامج كمبيوتر ذكية أن تستخلص من كمية معينة من الصلب قطعا أكثر من تلك التى ينتجها أغلب العمال · فضلا عن أن الامكانات التى تتيحها المعرفة الجديدة فى مجال تصغير الأحجام تسمح بانتاج سلع أصغر حجما وأخف وزنا ، مما يقلل بدوره تكلفة النقل والتخزين · وكما سبق أن رأينا فى حالة شركة خطوط السكك الحديدية والتجهيزات البحرية س · اس · اكس يتم ، بفضل تحسين المعلومات ، تحقيق وفر آخر فى عمليات النقل عن طريق توجيه ومتابعة الشحنات دقيقة بدقيقة ·

كما تسمح المعرفة الجديدة بخلق مواد جديدة تماما ، مثل الألياف المركبة التى تستخدم فى صناعة الطائرات والمنتجات البيولوجية ، فضلا

عن أن هذه المعرفة تزيد من امكانات احلال مادة محل أخرى ، فبدءا من مضارب التنس وانتهاء بالمحركات النفاثة ، فانها جميعا تحتوى على مواد بلاستيكية حديثة وسبائك جديدة ومواد مركبة معقدة التركيب . فشركة آلايد سيجنال - مثلا - فى مدينة موريستاون بنيو جيرسى تقوم بتحضير منتج أطلقت عليه اسم « متجلاس » يجمع بين صفات المعدن والزجاج ويحسن بشكل كبير مردود الطاقة فى المحولات . كما تبشر مواد بصرية جديدة بظهور أجهزة كمبيوتر أسرع بكثير من الأجهزة الحالية ، ومن ناحية أخرى تجمع التركيبة المستخدمة فى تدريع دبابات القتال بين الصلب واليورانيوم والسيراميك . ويتيح تقدم المعرفة بناء توليفة جزيئية بالطلب لها مواصفات حرارية أو كهربية أو ميكانيكية محددة مسبقا .

ولأننا لم نكتسب بعد المعرفة الضرورية لانتاج بدائل قابلة للاستخدام من الموارد المحلية، نضطر الى نقل كميات ضخمة من المواد الأولية مثل البوكسيت والنيكل والنحاس من طرف الى آخر من الكرة الأرضية . وعندما يتم التغلب على هذه الصعوبات سيتحقق وفر جديد ضخم فى عمليات النقل . باختصار تقدم المعرفة بديلا للمواد الأولية والسفن التى تحملها فى آن واحد . وينطبق الشىء نفسه على الطاقة : لا يجسد قدرة المعرفة على الاستبدال والاحلال أكثر من الاكتشافات التى تمت مؤخرا فى مجال ظاهرة فوق التوصيل ، وهى اكتشافات ستقلل على الأقل كمية الطاقة المطلوب نقلها للحصول على نتيجة معينة . فطبقا لبيانات الرابطة الأمريكية العامة للطاقة يضيع ١٥٪ من الكهرباء المنتجة حاليا فى الولايات المتحدة بين مصدر انتاج الطاقة وأماكن استخدامها ، نظرا لأن أسلاك النحاس ليست موصلا عالى الكفاءة . هذا الفاقد فى الأسلاك يوازى اسهام خمسين محطة طاقة . فى حين تسمح ظاهرة فوق التوصيل بتحويل هذا الفاقد الى صفر تقريبا .

وفى نفس الاتجاه ، تدرس كل من بشتل ناشيونال فى سان فرنسيسكو واناسكو سرفيس بنيويورك مشروع « بطارية » مراكم عملاقة تبلغ مساحتها مساحة ملعب كرة قدم ، ومن المفترض مستقبلا أن تساهم خزانات الكهرباء تلك فى تقليل عدد المولدات التى ستستخدم فى ساعات الذروة فقط .

ان المعرفة لا تقدم بدائل فقط للمواد الخام وطرق النقل ولمجال الطاقة ، ولكنها توفر الوقت أيضا . فالوقت وان كان لا يظهر قط فى الحسابات الختامية والموازنات المعتمدة ، الا أن ذلك لا يقلل من كونه أحد الموارد الاقتصادية الأكثر أهمية ، بل انه يمثل فى الحقيقة « مدخلا »

غير مرئى ٠ ففى فترة تتسارع فيها التغيرات ، تصبح امكانية تقصير المهلة والمدة ـ فى مجال الاتصالات مثلا أو لطرح منتج جديد ـ عملية حاسمة يمكن أن تمثل الفرق بين الربح والخسارة ٠

ان المعرفة الجديدة تضاعف من سرعة العمليات ، وتجعلنا نقترب من النشاط الاقتصادى اللحظى وفى الزمن الحقيقى ، وهى تقدم أيضا بديلا لاضاعة واستهلاك الوقت ٠

كما أن هذه المعرفة تسيطر على الحيز وتحقق وفرا فيه ٠ فعندما بدأ فرع نظم النقل فى شركة جنرال الكتريك الذى يقوم ببناء القاطرات فى استخدام تقنيات متطورة لمعالجة المعلومات وللاتصالات فى علاقاته مع مورديه ، استطاع تأمين دوران مخزونه أسرع من السابق بمعدل ١٢ ضعفا ووفر بذلك حوالى نصف هكتار من مساحة التخزين ٠

بالاضافة الى عملية التصغير ووفر المساحة ، يمكن تحقيق أنواع أخرى من الوفر ٠ فالولايات المتحدة مثلا تنتج سنويا ١٣٠٠ مليار مستند مختلف ـ وهى كمية كفيلة بملء شعب كولورادو الكبير بالورق ١٠٧ مرات ٠ ولكن تقنيات المعلومات المتقدمة بما فى ذلك القراءة الالكترونية تبشر بانكماش هذه الكمية من الورق ٠ الأهم من ذلك أن الامكانات الجديدة فى مجال الاتصالات اللاسلكية المعتمدة على أجهزة الكمبيوتر وآخر الاكتشافات العلمية ، تسمح من الآن فصاعدا بتوزيع وتفريق الانتاج وبذلك تتفادى التكلفة العالية للمراكز الحضرية ، مما يؤدى بالتالى الى مزيد من خفض نفقات الطاقة والنقل أيضا ٠

المعرفة مقابل رأس المال :

كتب الكثير عن استبدال العمل البشرى بالمعدات والأجهزة الاعلاماتية حتى اننا نجهل فى كثير من الأحيان الاستبدال المتلازم لرأس المال ٠ وبالرغم من ذلك ، فان كل التطبيقات المذكورة عاليه تترجم أيضا بوفر فى رأس المال ٠

من منظور معين ، قد تمثل المعرفة على المدى الطويل تهديدا للسلطة المالية ، أكثر خطورة بكثير من النقابات العمالية أو الأحزاب السياسية المناهضة للرأسمالية ٠ اذا تكلمنا بطريقة نسبية ، فان الثورة الاعلاماتية أدت الى خفض احتياجات رأس المال بالنسبة لكل وحدة منتجة ، وفى ظل اقتصاد « رأسمالى » يكتسب هذا الاتجاه أهمية جوهرية ٠

ففى قاعة صغيرة فى المركز التعليمى لبنك « بنكا ناشيونال دل لافورو » فى روما ، تحدث الينا بصراحة تامة فيتورى مرلونى ـ ٥٧ عاما ـ عن شركته العائلية مرلونى الكترو دوميستيسى التى تنتج ١٠٪ من اجمالى الغسالات والثلاجات والأجهزة المنزلية الكبيرة الأخرى المباعة فى أوروبا . وهو يتولى رئاسة هذه الشركة التى يملك مع أسرته ٧٥٪ منها . وتعد الكترو لوكس فى السويد وفيليبس فى هولندا هما الشركتين المنافستين لهـا .

وأشار مرلونى الذى رأس منظمة أرباب العمل الايطالية خلال أربع سنوات شديدة الاضطراب ، الى أن التقدم الاقتصادى الذى تشهده ايطاليا مؤخرا يرجع الى حقيقة « اننا حاليا نفعل نفس الشىء برأس مال أقل عن ذى قبل » وهذا « يعنى أن بلدا فقيرا يستطيع حاليا أن يتخلص من مشاكله بنفس الموارد من رأس المال بشكل أفضل مما كان يفعل منذ خمس أو عشر سنوات » .

ويضيف مرلونى ان ذلك يرجع الى أن التقنيات ذات القاعدة المعرفية تسمح بتقليل كمية رأس المال اللازم لمن يريد مثلا انتاج غسالات أطباق أو مواقد أو مكانس كهربائية .

فالمعلومات تحل فى المقام الأول محل المخزون ذى التكلفة شديدة الارتفاع . فهو يستخدم التصميم بمساعدة الكمبيوتر كما أقام اتصالا بواسطة القمر الصناعي بين منشآته فى ايطاليا والبرتغال .

وبتقليص وقت استجابة التصنيع لطلب السوق وبجعل الانتـاج فى مجموعات صغيرة قابلا للاستمرار من الناحية المالية ، نجد أن المعلومات ـ ذات النوعية الأفضل والأسرع فى آن واحد ـ تسمح حاليا بتقليل كمية المكونات والمنتجات المصنعة التى تنتظر فى المخازن أو على طرق الجراجات .

وبذلك انخفضت تكاليف التخزين بنسب مذهلة بلغت ٦٠٪ لدى مرلونى . فحتى وقت قريب ، كانت مصانعه تحتاج الى مخزون ٢٠٠ ألف قطعة لانتاج ٨٠٠ ألف وحدة ، حاليا يكفى ٣٠٠ ألف قطعة ، فى الموقع أو فى طريقها اليه ، من أجل انتاج ثلاثة ملايين ماكينة تامة الصنع ، انه وفر ضخم يرجعه مرلونى لتحسن المعلومات .

ان نمـوذج مرلونى ليس ، استـثناء . ففى الولايات المتحدة تأمل صناعات النسيج والملابس وتجار التجزئة ، الذين تضمهم لجنة « المعايير الاختيارية للاتصال بين الصناعات » ، فى التخلص من فائض مخزون يقدر ب ١٢ مليون دولار بفضل شبكة الكترونية مشتركة للبيانات تربط بين

فروع هذه الصناعات · وفى اليابان تعمل شركة ان · اتش · كيه · سيرينج ، التي تورد المقاعد والنوابض لأغلب صانعى السيارات ، على أن يتزامن انتاجها مع انتاج عملائها بشكل كامل ، بحيث يتم التخلص من المخزون تماما ·

وكما يقول أحد قيادات هذه الشركة : « اذا توصلنا الى تطبيق النظام بشكل صحيح فسنتمكن نظريا من تحويل مخزون القطع الى صفر » ·

وبالطبع ، لا تسمح هذه التخفيضات بتوفير المكان والتكلفة العقارية فقط ، ولكنها تنعكس أيضا على الضرائب وأقساط التأمين والتكاليف العامة · ومن ناحية أخرى ، يشير مرلونى الى أن بامكانه حاليا تحويل أرصدة من لندن أو باريس الى ميلانو أو مدريد فى بضع دقائق ، متفاديا بذلك دفع فوائد لا يستهان بها ·

ويضيف ، أن الاستثمار الأصلى فى أجهزة الكمبيوتر والبرامج ومعدات الاتصالات اللاسلكية، حتى وان كان مرتفعا ، فان اجمالى ما يحققه من وفر يسمح لشركته أن تقوم بنفس النشاط كما فى الماضى ولكن برأسمال أقل ·

ان هذه الأفكار الجديدة عن رأس المال فى طريقها حاليا للانتشار فى العالم أجمع ·

ويعتقد الدكتور هارو شيمادا من جامعة كيو بطوكيو أننا نشاهد احلال شركات « تعبىء قدرا أقل بكثير من الموارد فى شكل رأسمال » محل الشركات التى « تتطلب تراكما مكثفا للعمل البشرى لتأمين الانتاج » ·

لقد بدأت الشركات اليابانية الكبرى ولأول مرة تنفق على الأبحاث والتطوير أكثر مما تنفقه على الاستثمار الرأسمالى وكأنها بذلك توضح التطور الجارى وأهمية المعرفة فى اقتصاد الغد ·

ويعبر ميخائيل ميلكن عن نفس الفكرة فى كلمات معدودة : « لقد حل رأس المال البشرى محل رأس المال الدولارى » ·

وهكذا أصبحت المعرفة المورد الاقتصادى الأخير لأنها البديل النهائى ·

اذن ، ان ما رأيناه حتى الآن هو أن الانتاج والأرباح فى أى اقتصاد يعتمدان بلا منازع على المصادر الثلاثة الرئيسية للسلطة : العنف والثروة والمعرفة · غير أن كلا من رأس المال والنقود فى طريقهما حاليا لأن يتحولا

الى معرفة • وبالتوازى يشهد العمل أيضا تحولا : فهو يعتمد بشكل متزايد على معالجة الرموز • وبتطور رأس المال والنقود والعمل ، بتطور ثلاثتهم ، فى نفس الاتجاه تتعرض كل أسس الصرح الاقتصادى الى تغيير ثورى • وبما أن الاقتصاد أصبح فوق رمزى فانه يعمل من الآن فصاعدا طبقا لقواعد تختلف جذريا عن تلك التى كانت سائدة فى عصر الاقتصاد المصنعى •

ونظرا لأن المعرفة تقلل الاحتياجات الى المواد الأولية والى العمل والوقت والحيز الى رأس المال ، فانها تصبح المورد الحاسم للاقتصاد المتقدم • ومع ارتفاع قيمة المعرفة هذا الارتفاع السريع سنرى « حروب المعلومات » ـ أى الصراعات من أجل السيطرة والتحكم فى المعرفة ـ تندلع فى العالم كله •

الباب الثالث:

حروب المعلومات

الفصل التاسع

معركة خزينة التحصيل المسجلة

منذ بعض الوقت فكرت مؤسسة سميثونيان بواشنطون ، وهى احد اكثر متاحف العالم روعة وشهرة ، فى شراء مطعم صغير من المطاعم الموجودة على الطرق الطويلة فى نيوجرسى ونقله الى واشنطن لضمه الى المتحف ، بل كان هناك تفكير فى أن يظل المطعم يعمل بشكل عادى وذلك بهدف عرض المواد الاصطناعية التى كان استخدامها علامة لمرحلة من الحياة الأمريكية · ولكن المشروع لم ير النور ·

ولا يزال المطعم الصغير على جانب الطريق يمارس على العديد من الأمريكيين سحرا يتميز بالحنين الى الماضى · لقد استخدم هذا النوع من المطاعم كديكور للعديد من المشاهد الهوليوودية ، كما فى رواية هيمنجواى الشهيرة «المقتلة» · ومن ثم كانت فكرة نقل مطعم فعلى ، بدلا من الاقتصار على توضيح استخدامات الفينيل والفورمايكا ، فكرة لا تخلو من المنطق وان كانت تبدو غريبة بعض الشىء ·

ولكن اذا أرادت مؤسسة سيمثونيان أن تبين ما كانت تمثله الولايات المتحدة بالنسبة للعالم الخارجى فى الخمسينات ، أى فى منتصف القرن العشرين ، فعليها شراء واعادة تركيب سوبر ماركت بدلا من المطعم · فلقد كانت عملية دفع عربة فى أحد ممرات سوبر ماركت شديد الاضاءة من الطقوس الأسبوعية لأغلب الأسر الأمريكية · وأصبح السوبر ماركت بأرففه المكتظة بالسلع رمزا للوفرة فى عالم جائع ، وسريعا ما تم تقليد هذا الاختراع الرائع للاقتصاد الأمريكى فى العديد من البلدان ·

وفى الوقت الحالى ، لا يزال السوبر ماركت قائما ولكنه أصبح ميدان معركة ، حيث تدور احدى حروب المعلومات المتعددة التى تحتدم فى عالم الأعمال ، وان كان الجمهور لايلاحظ ذلك قط ٠

ما وراء خزينة التحصيل :

يدور صراع محموم حول مليارات ومليارات الدولارات عبر الولايات المتحدة بين عمالقة صناعيين مثل نابيسكو وريفلون وبروكتر آند جامبل وجنرال فوودز وجيليت الذين كانوا يسيطرون فى السابق على قطاعاتهم ، وبين تجار تجزئة متواضعين ولكنهم يضعون منتجات هؤلاء العمالقة فى أكياس العملاء ٠ هذه المعركة المشتعلة على صعيد خزينة التحصيل المسجلة تعطى فكرة أولية عما يدخره لنا الاقتصاد فوق الرمزى ٠

ففى بداية عهد السوبر ماركت كان الموردون الرئيسيون للسلع الاستهلاكية أو الغذائية أو غيرها يرسلون مندوبيهم ، وهم بالآلاف ، الى محلات السوبر ماركت ليبيعوا لهم ويشجعوا مبيعات الأنواع المختلفة من المنتجات الغذائية أو المشروبات غير الكحولية ، أو مستحضرات التجميل ومنتجات أخرى كانت محل آلاف المفاوضات والمعاملات يوميا ٠

فى هذه المساومات اليومية ، كان مندوبو المبيعات فى موقع القوة ٠ فقد كانت تدعمهم كل قوة شركاتهم العملاقة التى لم يكن لأكبر سلاسل السوبر ماركت وزن أمامها ٠ كانت كل من هذه الشركات العملاقة تفرض وجودها بدون مناقشة ، فى الأسواق التى اختارتها لنفسها ٠

كانت شركة جيليت مثلا ، لا تزال تبيع حتى نهاية السبعينات ستا من كل عشر شفرات حلاقة يتم استعمالها فى الولايات المتحدة ٠ وعندما جاءت شركة بيك الفرنسية ، وهى أول منتج عالمى للأقلام الجافة ذات البلية الدوارة والقداحات التى ترمى بعد نفاد الغاز منها ، وتحدت شركة جيليت على أرضها بطرح ماكينات حلاقة يتم التخلص منها بعد استخدامها ، ردت جيليت بانتاج مثل هذه الماكينات وغزت ما بين ٤٠٪ الى ٥٠٪ من السوق ولم تحتفظ بيك الا بأقل من ١٠٪ ٠ ولجيليت نشاطها خارج الولايات المتحدة ، فلديها حاليا مكاتب فى ٤٦ دولة ومصانع فى ٢٧ دولة أخرى ابتداء من المانيا وفرنسا وحتى الفيليبين ٠

وعندما كان يصل مندوب جيليت لم يكن أمام السوبر ماركت سوى الاستماع والا ٠٠٠

فمنذ بداية الخمسينات وحتى بداية الثمانينات ، وعلاقات القوى بين قمة كبار الصناعيين وسفح تجار الجملة والتجزئة لم تعرف أى تعديلات رئيسية ، وكان أحد أسباب تفوق المنتجين على البائعين أنهم كانوا يتحكمون ويسيطرون على المعلومات ·

عطر مس أمريكا :

فى أوج سيطرتهم ، كانت هذه الشركات الكبرى من أكثر الجهات استخداما للدعاية التى تستهدف الجمهور العريض ، ومن هنا سيطرت على المعلومات التى تصل فى النهاية الى المستهلك ·

وفى هذا الحقل ، أبدت شركة جيليت ذكاء وفطنة خاصة · فقد أنفقت بسخاء على الدعاية لماكينات وكريمات الحلاقة التى تنتجها ، أثناء النقل التليفزيونى لمباريات كؤوس البيسبول العالمية · أما بالنسبة للعطور ، فقد راهنت على مسابقات اختيار « مس أمريكا » وهى مسابقات ينقلها التليفزيون أيضا ·

وشركة جيليت مثلها مثل شركات أخرى ، تطرح سنويا ست « دورات تسويقية » تدعمها دعاية قوية · ولقد أطلق على هذه العملية اسم «حملة تنظيف المدخنة» ، نظرا لأنها كانت تستهدف جذب العملاء نحو الأرفف وتنظيفها ، بافراغها بطريقة شبه مباشرة · وكانت هذه الطريقة فعالة جدا لدرجة أن السوبر ماركت لم يكن يستطيع « حقيقة » أن يسمح لنفسه بألا يبيع منتجات جيليت ·

وفى المقابل فان الانتصارات التى تحققت وسجلتها خزينة التحصيل المسجلة قد سمحت لشركة جيليت وأمثالها أن تطلب مستلزماتها الانتاجية بكميات كبيرة وسعر منخفض · وبالسيطرة على كل من الانتاج والتوزيع والدعاية الجماهيرية ، سيطر الصناعيون على كل المشاركين الآخرين فى الدورة الاقتصادية ـ أى المزارعين وموردى المواد الأولية وتجار التجزئة ·

ففى الواقع ، كان مندوب جيليت يستطيع فى أغلب الأحيان أن يفرض على محل التجزئة أنواع وكميات الشفرات التى سيشتريها وكيف سيقوم بعرضها وكثيرا ما كان يفرض عليه سعر بيعها أيضا ·

ان فى ذلك ممارسة لسلطة اقتصادية ، غير أن هذه السلطة كان لا يمكن لها أن توجد بدون السيطرة الحاسمة على المعلومات · ففى نهاية المطاف ، كانت جيليت ، وليس تاجر التجزئة ـ هى التى تمجد لمشاهدى

التليفزيون مزايا كريم الحلاقة « فومى » ، أو تظهر رياضيين يتخلصون من لحية ثلاثة أيام بواسطة ماكينة حلاقة وشفرة جيليت . ان كل ما يعرفه العالم عن هذه المنتجات يعرفه من خلال جيليت .

بالاضافة الى أن الشركة تسيطر على المعلومات « الموجهة للمستهلك » فانها أيضا تجمع المعلومات « القادمة من المستهلك » . ففى كل مراحل التسويق ، كانت جيليت تعلم أفضل من أى تاجر تجزئة ، متى وكيف ولمن سيتم بيع منتجاتها !

كانت جيليت تعرف متى ستعرض اعلاناتها على شاشة التليفزيون ، ومتى ستطرح سلعا جديدة ، ومواعيد حملات الترويج ذات السعر المنخفض التى تنتوى القيام بها ، وتتصرف فى هذه المعلومات كما تشاء . باختصار ، فان جيليت والمنتجين الآخرين لأسواق الاستهلاك الكبير ، كانوا يقفون « بين » تاجر التجزئة والمستهلك ويتحكمون تماما فى المعلومات التى يقدمونها لكل منهما !

وبالرغم من عدم تقدير أهمية المعلومات حق قدرها ، فان السيطرة عليها لعبت دورا أساسيا فى الحفاظ على التفوق التقليدى للمصنع على الدكان . وهذه الممارسة كانت تدر أرباحا كبيرة على الشركات الصناعية .

وجاء وقت كانت شركة كامبل سوب لا تكلف نفسها عناء كتابة رقم هاتفها على بطاقات مندوبى المبيعات التابعين لها . ويعلق نائب رئيس سلسلة سوبر ماركت « جراند يونيون » قائلا : « من غير المجدى الاتصال بهم .. لن يمنحوك شيئا قط » .

وبالتالى عندما كان يصل مندوب جيليت الى المحل ليبيع منتجات الشركة كان يعرف عما يتكلم بحيث تحول المشترى الى دور المستمع .

منجة المعروضات :

ان السلاح الذى أتاح لتجار التجزئة أن يجعلوا كبار الصناعيين يتراجعون الى علامات البداية ، لم يكن سوى رمز صغير من اللونين الأبيض والأسود .

فى منتصف الستينات أقامت لجنة من تجار التجزئة والجملة وصناعيين فى مجال التغذية علاقات منتظمة مع شركات مثل آى . بى . ام وناشيونال كاش ريجيستر وسويدا بهدف مناقشة المشكلات العامة لمجال السوبر ماركت : الطوابير أمام خزينة التحصيل والأخطاء المحاسبية .. غير أن هذه اللجنة لم تلفت الانتباه قط فى ذلك الوقت ..

وكان السؤال هل تستطيع التكنولوجيا التغلب على هذه الصعوبات ؟

وكانت الاجابة نعم — بشرط ايجاد وسيلة لتكويد المنتجات بطريقة تستطيع معها أجهزة الكمبيوتر « قراءة » هذا الكود · فى ذلك الوقت ، كانت عملية فك الشفرة بواسطة الكمبيوتر لا زالت في بدايتها ، ولكن منتجى أجهزة الكمبيوتر وقد استشعروا انفتاح سوق غنية جديدة أمامهم تحمسوا للتعاون مع تجار التجزئة ·

وفى ٣ أبريل ١٩٧٣ ، اتفقت « لجنة انتقاء الرموز » على كود وحيد يصلح لكل الفروع · ونتج عن ذلك « الكود العام للمنتجات أو « كود القضبان » الذى أصبح مألوفا لنا رؤية خطوطه السوداء وأرقامه على جميع ورق التغليف ، ابتداء من المنظفات الى عجائن الحلويات — كما انتشرت فى الوقت نفسه معدات القراءة الأتوماتيكية ·

ولقد شاع استخدام هذا الكود بشكل شبه عام فى الولايات المتحدة ، حيث تحمل ٩٥٪ من المنتجات الغذائية قضبانه ، وهو يغزو بسرعة بلدانا أخرى · وفى عام ١٩٨٨ كان ٣١٧٠ سوبر ماركت فرنسى يستخدم هذا الكود ما بين تجارة متخصصة ومحلات كبرى · وفى المانيا الغربية ، كان لدى ما لا يقل عن ١٥٠٠ نقطة بيع مواد غذائية و ٢٠٠ محل كبير أجهزة قراءة هذا الكود · اجمالا ، كان هناك ٧٨ ألف جهاز فى الخدمة ابتداء من البرازيل وحتى تشيكوسلوفاكيا ، بل وحتى لدى سكان غينيا الجديدة ، خلافا للموجود منها فى الولايات المتحدة ·

وفى اليابان ، حيث التقنيات الجديدة لبيع التجزئة تنتشر بسرعة الحريق ، فان ٤٧٪ من كل المحلات الكبرى و ٧٢٪ من محلات الأجهزة المنزلية مزودة بهذه الأجهزة منذ ١٩٨٧ ·

غير أن تأثير هذا الكود لم يقتصر على زيادة سرعة عمليات الدفع عند خزينة التحصيل ولا على تحسين عمليات المحاسبة · لقد تجاوز ذلك وأدى الى انتقال السلطة ·

فى الوقت الحالى ، تبيع محلات السوبر ماركت الأمريكية ٢٢ ألف سلعة وصنف مختلف · ومع آلاف المنتجات الجديدة التى لا تكف عن الحلول محل المنتجات القديمة ، فان السلطة قد انتقلت الى تاجر التجزئة الذى يستطيع الآن تتبع كل سلعة ، ومعرفة حجم المبيعات والأرباح لكل منها ، وكذلك توقع برمجة الدعاية لها والتكاليف والأسعار والخصومات

وأماكن عرضها فضلا عن عمليات الترويج الخاصة ومعدل دوران المخازن ، ... الخ .

تقول بات كولينز رئيسة محلات رالف ستورز ـ وعددها ١٢٧ محلا ـ بكاليفورنيا الجنوبية : « الآن .. نعرف عن السلعة نفس القدر من المعلومات الذى يعرفه المنتج ان لم يكن أكثر » . اذ تجمع أجهزة قراءة الشفرة تلك ، قدرا كبيرا من البيانات يسمح للمديرين أن يقرروا عن معرفة ، أرفف المعروضات التى يتعين تخصيصها لهذه السلعة أو تلك والتوقيت المناسب لذلك .

وفي الحقيقة ، يتسم هذا الاختيار بأهمية قصوى بالنسبة للمنتجين المتنافسين الذين يهرعون الى الأبواب ويتنازعون كل سنتيمتر من رف المعروضات . وفى هذه الظروف ، لم يعد المنتج يملى على تاجر التجزئة الكمية التى يتعين عليه شراؤها وانما أصبح تاجر التجزئة يفرض على المنتجين دفع ما يسمى « منحة عرض » للحصول على حيز عرض ـ وقد تصل هذه المنحة فى بعض الأحيان الى مبالغ مذهلة بالنسبة لبعض الأماكن المميزة .

لقد كتبت صحيفة « يو . اس . ايه توداى » : والنتيجة [لهذه التحولات] هى حرب من أجل الحيز بين المنتجين وتجارة التجزئة ـ وبين التجار فيما بينهم ـ من أجل الكسب والحفاظ على مواقعهم فى السوبر ماركت .

ويسهل تحديد المنتصر ـ حتى الآن على الأقل .

ولقد وصف كافين مودى ـ وهو مدير سابق لنظم المعلومات الخاصة بالادارة لدى جيليت ـ الموقف بمرارة قائلا : « اننا نريد أن نكون أسيادا لمصيرنا [...] ولكن المتاجر أصبحت حاليا أكثر قوة . انهم يحاولون الحصول على اتفاقيات مجزية أكثر من ذى قبل وعلاقات تعاون . انهم يريدون أسعارا أفضل مما يقلل هوامش ربحنا [...] . فى السابق لم يكن التاجر يعرف شيئا ، أما الآن فانه يعتمد على مجموعة أدوات متطورة » .

وتصبح البيانات التى يقوم تجار التجزئة بتجميعها سلاحا أكثر تهديدا ، عندما يتم تحليلها بواسطة الكمبيوتر، ودراستها طبقا لنماذج يمكن ادخال متغيرات مختلفة عليها . وبالتالى يستخدم بعض التجار نماذج « الربحية المباشرة للمنتج » من أجل تحديد ما يربحونه فعليا من كل سلعة . وتأخذ هذه النماذج فى الاعتبار عدة عوامل مثل حيز العرض

الذى تشغله عبوة مستطيلة ، أو عبوة أسطوانية ، والاختيار الأمثل للألوان تبعا للمنتجات ٠

بل ان بروكتر آند جامبل ـ وهو أحد أهم المنتجين ـ يزود تجار التجزئة مجانا بنسخة من هذا النوع من البرامج ، على أمل أن يحظى بعطفهم ٠ ويعرض مندوبو بروكتر آند جامبل ، وهم مزودون بمثل هذه الأسلحة ، على التاجر مساعدته في تحليل نسب ربحه بشرط أن يتقاسم بدوره مع الشركة معلوماته الخاصة عن المستهلكين ٠

كما يستطيع تاجر التجزئة استخدام برامج « ادارة رفوف العرض » و « نماذج الحيز » التى تسمح له بأن يقرر بشكل أفضل ، أى التشكيلات أو المنتجات عليه قبولها أو رفضها ، وأيها يقوم بعرضها فى المواضع الأكثر ارتيادا وتلك التى ينحيهـا الى أماكن أخرى : يضـع الكمبيوتر « تخطيطا » مفصلا لكل رف من رفوف العرض ٠

وبعد أن حقق تجار التجزئة السيطرة على التدفق الرئيسى للمعلومات « الواردة » من العميـل ، بدءوا فى التأثير ، بل والتحكم فى المعلومات « الموجهة اليه » ٠

يقول كافين مودى : « ان التاجر يستطيع حاليا تحديد نتيجة حملة ترويج [٠٠٠٠] ٠ فهو الذى يختار الى حد بعيد ما الذى سيراه المستهلك وما الذى لن يراه من السلع المعروضة » ٠

معنى ذلك أن شركات المنتجات الغذائية الكبرى وشركات أخرى قد فقدت السيطرة على المعلومات ، عند طرفى السلسلة ، وهى السيطرة التى كانت تستمد منها نفوذها فى السابق ٠

ما بعد السوبرماركت :

الصراع من أجل السيطرة على المعلومات بمساعدة التكنولـوجيات المتطورة ، والذى بدأ أولا على أرض السوبرماركت ، إتسع فيما بعد ليشمل ساحات قتال أخرى٠فأجهزة القراءة الالكترونية وأجهزة الليزر والكمبيوتر المتنقل ومعدات أخرى تكتسح الصيدليات والمحلات الكبرى ومحلات الفضل والمكتبات وتجارة الأجهزة الكهربية والملابس والخردوات ، باختصار كل أنواع المحلات ٠ فى هذه الأسواق أيضا يجد الصناعيون أنفسهم فجأة أمام خصوم أكثر شراسة وأكثر ثقة فى قدراتهم بل ووقحين فى بعض الأحيان ٠

ففى أحد مكاتب المشتريات التابعة لشركة تويز ـ آر ـ يوز وهى

سلسلة لديها ٣١٣ نقطة بيع يوجد اعلان يقول بلهجة تحذير حاسمة : « اذا كانت منتجاتكم لا تحمل الكود العام للمنتجات ، لا داعى للجلوس لأننا لن نتعاقد معكم على طلب شراء » ٠

وكلما انتقلت السلطة ، يقدم تجار التجزئة شروطا أكثر تشددا ٠ لقد تخطوا مندوبي الشركات الصناعية المستقلين ــ مائة الف مندوب ــ ويتعاملون الآن مع الموردين مباشرة ، فشركة وال ــ مارت مثلا ــ وهى رابع سلسلة متاجر فى الولايات المتحدة ، تطالب بحسم شركات مثل جيليت بتغيير نظام تسليم البضائع ٠ وبعد أن كانت وال ــ مارت أكثر تساهلا فى السابق ، تريد حاليا أن يتم تنفيذ طلباتها دون أدنى خطأ فى الكمية والحجم ونوع المنتج ٠ بالاضافة الى أن يتم الشحن طبقا لجدولها « هى » وليس جدول الموردين ٠ واذا لم تتوفر الدقة التامة فى النوعية وموعد التسليم ، فان التاجر يهدد باجراء خصم على الحساب أو أن يخصم منه جزء من « تكلفة النقل والتفريغ » ٠

ويجد المنتجون أن ظهرهم الى الحائط ، حيث يتعين عليهم اما زيادة المخزون لديهم أو تجديد معدات مصانعهم ، من أجل تحويل انتاجهم من الجملة الى انتاج مجموعات أقل طولا ، مع تدوير المخزون بدرجة أسرع ، والحلان مكلفان ٠ وفى الوقت نفسه يميل تجار التجزئة لفرض معايير جودة أكثر تشددا بما فى ذلك ختم العبوات ٠

هذه النقطة قد تبدو ظاهريا لا قيمة لها ، غير أنها فى الحقيقة شديدة الأهمية ، لأن الأمر يتعلق بكود القضبان الذى يعطى جزءا كبيرا من المعلومات التى تنبنى عليها السلطة المتزايدة لتجارة التجزئة ، ومن ثم اذا كانت الطباعة رديئة فان جهاز القراءة الالكترونى قد لا يفسر الشفرة بشكل سليم ٠ وفى هذا الحالة يريد بعض تجار التجزئة تحميل المورد مسئولية ذلك ٠

فقد حدث أن وقف ملايين الزبائن طويلا أمام عاملة الخزينة ينظرون اليها وهى تمرر السلعة مرة بعد الأخرى على جهاز القراءة الالكترونى ، قبل أن يتمكن من تسجيل البيانات ولا تجد مفرا فى النهاية من أن تسجل السعر يدويا ٠

وبالتالى قد يصل التجار حاليا الى صياغة تهديدات من هذا النوع : « اذا لم يتمكن جهازنا من فك الكود الخاص بكم فانها مشكلتكم ٠ لن أطلب من العاملين لدى أن يكرروا المحاولة مرة بعد أخرى ويتركوا العملاء ينتظرون ٠ اذا لم تمض الأمور كما ينبغى فبدلا من تسجيل السعر يدويا

سوف نضع السلعة فى كيس المشترى دون أن نجعله يدفع ثمنها وسنخصمه من فاتورتكم ! » .

لم يحدث ان خاطب أحد كبار المنتجين بهذه اللهجة ولكن لم يحدث أيضا أن امتلك أحد قط المعلومات التى فى حوزة تجار التجزئة حاليا .

ان هذه المعلومات حيوية لدرجة أن بعض المنتجين يشترونها من تجار التجزئة سواء بشكل مباشر أو بالتبادل مع خدمات أو عن طريق شركات متخصصة تشتريها لكى تبيعها للمنتجين .

الدفع المزدوج :

المعركة القائمة حول خزائن التحصيل لها نتائج مهمة بالنسبة للمستهلك أيضا ـ وبالنسبة للاقتصاد ككل . ومن بين جوانب أخرى فان هذه المعركة يجب أن تساعدنا فى مراجعة أفكارنا المسبقة التى تم تجاوزها ، عن الدور المتبادل بين المنتج والمستهلك .

وعلى سبيل المثال ، فى عالم تحولت فيه النقود الى « مادة اعلاماتية » وتتحول فيه المعلومات الى « نقود » ، فان المستهلك يدفع ثمن مشترياته مرتين : المرة الأولى بالنقود ، والثانية بالمعلومات التى تساوى نقودا .

وبشكل عام ، يقدم المستهلك المعلومات دون مقابل ، فى حين أن التجار والمنتجين والبنوك ومنظمات بطاقات الائتمان ومنتفعين آخرين يتصارعون من أجل حيازتها . فى فلوريدا وكاليفورنيا ، شنت سلاسل تجارية معارك قانونية شرسة موضوعها تحديد « من الذى يملك البيانات التى يتم جمعها من المستهلكين ؟ » .

ولم تفصل المحاكم بعد فى هذه المسألة ولكن الشىء المؤكد : أن أحدا لم يطلب رأى المستهلك .

ومن الناحية النظرية ، من المفروض أن يحصل المستهلك على مكافأته فى شكل خفض فى الأسعار ، نظرا لتحقق فاعلية أفضل للنظام ، غير أنه لايوجد اطلاقا شىء يضمن للمستهلك أن يستفيد بأقل نصيب من هذا الوفر المتحقق ، فى حين أنه مصدر هذه المعلومات ذات القيمة الحاسمة ، وتمضى الأمور حاليا وكأن المستهلك يمنح تاجر التجزئة « قرض معلومات » بدون فائدة على أمل أن يسدد الأخير الدين فى المستقبل .

وطالما أن هذه البيانات لا غنى عنها بشكل متزايد بالنسبة للتصميم الأصلى وانتاج السلع والخدمات فان المستهلك فى الوقت الحالى هو بمثابة منتج مشارك لمشترياته الخاصة .

ولكن هل هو فعلا « مالك » المعلومة ؟ أم أنها لاتكتسب قيمة الا بعد تجميعها ومعالجتها ؟ •

لدراسة هذه القضايا غير المعتادة التى تطرحها « حرب المعلومات » تنقصنا المفردات اللغوية الملائمة ـ ناهيك عن النظريات القانونية والمفاهيم الاقتصادية • غير أن القضية تتناول تحويلات تقدر بمليارات الدولارات كما تتضمن انتقالا بارعا دقيقا لسلطات التفاوض الاقتصادية والاجتماعية •

ولكن ما الذى يعطيه المستهلك مجانا للتاجر أو المنتج أو لشركات بطاقات الائتمان التى يتعامل معها ؟

لنأخذ حالة غاية فى البساطة لربة أسرة تعود من عملها وتريد تحضير العشاء بأقصى سرعة فتكتشف أن ليس لديها مرجرين • فتندفع الى أقرب محل وتلتقط من على الرف رطل مرجرين فليشمان بدون ملح من انتاج نابيسكو ، ثم تتجه الى الخزينة ، وفى انتظار دورها تأخذ مجلة « تى • فى جايد » (دليل التليفزيون) من اناء العرض المجاور لها ، ثم تناول مشترياتها لعاملة الخزينة التى تقوم بامرارها على جهاز القراءة الالكترونى •

مبدئيا ، هى بذلك أوصلت الى كمبيوتر المتجر المعلومات التالية : ١ ـ أحد أنواع المنتجات التى تستعملها ٢ ـ الماركة المختارة • ٣ ـ وبأية كمية ٤ ـ كون أنها تفضل المرجرين بدون ملح ٥ ـ ساعة الشراء ٦ ـ السلع الأخرى التى اشترتها مع توضيح الماركات والكميات ، الخ • ٧ ـ اجمالى ما أنفقته ٨ ـ نوع المجلة التى يمكن أن تصل اليها الاعلانات من خلالها ٩ ـ معلومات عن حيز العرض الذى أصبح خاليا بعد أن أخذت هذه السلع من الرف • والعديد من الأشياء الأخرى •

واذا اشترى زبون حمولة عربة من مختلف المنتجات ، فانه فى هذه الحالة يمد الكمبيوتر بنفس المعلومات عن كل سلعة ، ويصبح من الممكن نظريا « ربط » مشترياته بطريقة كفيلة باستنتاج « سلوك نمطى » ـ بمعنى آخر « توقيع » للاستهلاك الفردى ، قد يستخدم فيما بعد فى تحديد مجموعة من العملاء •

واذا تم الدفع عن طريق بطاقة ائتمان فان حصيلة المعلومات ستكون أوفر بالطبع •

ففى هذه الحالة يكشف المشترى عن : ١ ـ اسمه • ٢ ـ عنوانه وكوده

البريدى (مفيد جدا للتحديد الجغرافى للأسواق) ۰ ۳ ـ معلومات عن امكانات ائتمانه ۰ ٤ ـ قاعدة لتقدير دخله العائلى ، ومن المحتمل أن يكشف عن أكثر من ذلك بكثير ۰

وباقتران كل هذه العناصر ، سيصبح من الممكن قريبا ، بناء صورة مفصلة تفصيلا مدهشا عن أسلوب حياته ، تتضمن سلوكياته المعتادة ، ما يفضله فى مجال الأسفار والرحلات والترفيه والقراءة ، وعدد المرات التى يتناول فيها وجباته خارج المنزل ، ومشترياته من الكحوليات ومن وسائل منع الحمل ، وقائمة بالأعمال الخيرية التى يهتم بها ۰

وتستخدم ماروى ـ وهى احدى أكبر سلاسل المتاجر الكبرى فى اليابان ولديها بطاقة ائتمان خاصة بها ـ نظاما اسمه ام ـ توبس يسمح لها بشكل خاص بتحديد العائلات التى غيرت سكنها ۰ وتتلخص هذه الطريقة فى رصد المشتريات التى تتطابق عادة مع تجهيز وتأثيث مسكن جديد ، بافتراض أن الزوج الذى يشترى جهاز تكييف أو أثاث مطبخ قد يكون فى حاجة الى أسرة جديدة ۰

وقد نجحت ماروى من خلال هذا النظام فى الحصول على نسبة مذهلة من الطلبيات بنظام المراسلة ۰

والآن ۰۰ لنترك جانبا المسائل المقلقة التى تطرحها هذه الممارسات من منظور احترام الحياة الخاصة فى اقتصاد فوق رمزى ، ولنقتصر هنا على ملاحظة أن جزءا كبيرا من هذه المعلومات اذا وضعت تحت تصرف شركة تجارية ـ سلسلة سوبر ماركت أو بنك أو شركة منتجة ـ يمكن أيضا اعادة بيعها أو مبادلتها مقابل تخفيض على أسعار توريد الخدمات ۰ والحال أن سوق هذه المعلومات لضخمه ۰

ان العديد من البلدان تحاول حاليا تنظيم وتقنين استخدام المعلومات المخزونة فى أجهزة الكمبيوتر غير أن بنوك المعلومات تمتلىء وترتفع قيمتها الاقتصادية بشكل جنونى ۰

الا أن كل ذلك ليس سوى تقريب أولى وبدائى للغاية لما يخبئه لنا المستقبل ۰

السوبر ماركت الذكى :

قد يجد المستهلكون أنفسهم قريبا فى سوبر ماركت مزود بأرفف « الكترونية » ، وبدلا من قراءة أسعار علب المحفوظات أو الفوط الورقية

على علامات أو بطاقات ، سوف يرونها معلنة على حافة الرف ذاته بفضل أجهزة مصنوعة من البلورات السائلة الوامضة · هذه التكنولوجيا الجديدة تقدم للمتجر ميزة ضخمة ، فهى تسمح له بتعديل أسعار آلاف المنتجات بشكل تلقائى ولحظي كلما صبت أجهزة قراءة خزينة التحصيل معلومات جديدة الى الرف الالكترونى ·

كما سوف يصبح بالامكان خفض سعر السلع الراكدة ورفع سعر السلع التى يقبل عليها الجمهور بكثرة ، بحيث يتم ضبط عمليات الرفع والخفض طبقا للعرض والطلب بشكل فورى · وتقدر شركة تلى بانل فى تورنتو أن تصل تكلفة نظام من هذا النوع يمكنه تحديد الأسعار المثلى لما بين ٨ آلاف أو ١٢ ألف سلعة الى ما بين ١٥٠ ألفا و ٢٠٠ ألف دولار ، وسيتم تغطية هذه التكلفة فى أقل من عامين ·

وبالذهاب خطوة أبعد من ذلك ، سوف تتمكن الأرفف الالكترونية من اعطاء الزبائن معلومات عن القيمة الغذائية للسلع والسعر وذلك بمجرد الضغط على زر · على أية حال ، هذا المشروع لا يهم السوبرماركت فقط ، فكما ذكرت مجلة « بيزنس ويك » فان « سلاسل الصيدليات وتجارة الأجهزة العامة ، بل وحتى المحلات الكبرى بدأت فى دراسة النسخ الخاصة بها من هذا النظام » ·

وترتسم على بعد ، أرفف أكثر تطورا ، أرفف لن تكتفى بمنح معلومات للجمهور ولكنها ستستخرج المعلومات منه · على سبيل المثال ، أجهزة رصد مخبأة يمكنها الاشارة اذا كان أحد قد مرر يده فوق هذا الرف أو هذه السلعة ، وهل الازدحام عند معروضات معينة أكثر أو أقل من المتوقع ·

وقريبا لن يحرك الزبون عينيه أو ذراعه دون أن يمد فى نفس اللحظة ادارة المحل بمزيد من المعلومات ، وهى معلومات قابلة للاستخدام أو للبيع ·

ان العواقب الأخلاقية والاقتصادية لم تجذب حتى الآن وبشكل علمى اهتمام رؤساء الشركات والمدافعين عن المستهلكين (سرعان ما سيجد منظمو حركة حماية المستهلك أنفسهم مدعوين لدراسة آثار هذه الابتكارات قبل اقامة النظم وتركيبها) · ويكفينا فى الوقت الحالى أن نرى جيدا أن هوامش الربح تخضع حاليا وبشكل متزايد للصراع الممارس فى مجال المعلومات ·

تهديد للـ « شوجونز » (*) :

هناك عدد من القوى من النوع نفسه فى طريقها أيضا لتغيير علاقات القوى فى اليابان ، يقول الكس ستيوارت الذى أعد تقريرا شاملا عن نظام التوزيع فى اليابان : « ان تجار التجزئة يشكلون حاليا القوة المسيطرة فى قطاع التوزيع » ، فى حين « يتعين على المنتجين الصناعيين الاعتماد بشكل متزايد على تجار التجزئة لتفسير وتحديد احتياجات السوق » ٠

ويعتقد جورج فيلدز رئيس ومدير عام الشركة اليابانية آزى ماركت ريسرش أن « التوزيع لم يعد يقتصر فى اليابان على عـرض السلع على الأرفف وانما أصبح أساسا نظام معلومات » ٠ ويضيف أن التوزيع فى كل مكان لن يكون فى المستقبل مجرد « سلسلة من نقاط التخزين تتناقل البضائع فيما بينها كما يحدث الآن ، انما سيصبح حلقة معلومات تربط بين المنتج والمستهلك » ٠

ان الحقيقة التى قد يكون فيلدز مهذبا جدا لكى يقولها والتى قد يكون اليابانيون متحفظين فى الاعتراف بها صراحة هى أن التحول الجارى سيخلع « ملوك » الصناعة عن عروشهم ٠ ففى اليابان كما فى الولايات المتحدة ستنتقل السلطة الى الشركات أو الفروع الصناعية التى ستعرف كيف تكسب حرب المعلومات ٠

غير أن الحرب بين تجار التجزئة والمنتجين لازالت فى بدايتهـا والصراع لا يقتصر على هذين الجيشين فقط ٠ فقد دفعت الحقائق المعقدة للصراع عـددا آخر من المحاربين الى دخول الحلبة ـ ابتداء من البنـوك وشركات الكمبيوتر وحتى شركات النقل البرى وشركات الهاتف ٠

وقد تورط فى الصراع بين المنتجين وتجار التجزئة ، تجار الجملة وأصحاب المستودعات وشركات النقل وآخرون وبدءوا منافسة شرسة حيث يتصارع كل منهم ضد كل الآخرين ، والأسلحة الرئيسية فى هذه الحرب هى التكنولوجيات المتقدمة فى مجالى المعلومات والاتصالات ٠

فضلا عن أن ما رأيناه حتى الآن ليس سـوى مناوشة تمهيدية ، فالصناعيون يعدون لهجوم مضاد عنيف وذلك بالبيع عن طريق قنوات بديلة (بالمراسلة مثلا) وباقامة نظم التوزيع الخاصة بهم ذات التكامل

(★) ديكتاتور يابانى قديم ٠

الرأسى المعتمدة على الكمبيوتر والاتصالات اللاسلكية ، وبشراء محلات تجارة التجزئة ، ومحـاولة تحقيق قفزات تكنولوجيـــة ســتعطيهم السبق على تجار التجزئة .

ان كم المعلومات التى ستصبها هذه الوسائل ، سوف تحول كل هياكلنا الخاصة بالانتاج والتوزيع وتخلق فراغات واسعة فى السلطة ، ولقد بدأ بالفعل السباق لشغلها بين مؤسسات ومجموعات جديدة تماما .

الفصل العاشر

الذكاء الاضـافى

فى عام ١٨٣٩ ، كان هناك فنان معدم يعطى دروسا فى الرسم ، وذات يوم ساله احد تلاميذه اذا كان حصوله على عشرة دولارات كاجر يمثل خدمة له · اجاب مدرس الرسـم ان ذلك سينقذ حياته ليس اكثر او اقل · وكان الـذاك يجـرى تجـارب فى مجـال الكهرومغناطيسية الغامض ·

وقد أثبت صمويل مورس فى ذلك الوقت امكانية ارسال رسائل مشفر خلال سلك كهربى ، غير أنه لم يحصل من الكونجرس الأمريكى– على قـرض قدره ٣٠ ألف دولار الا بعد ذلك بأربعة أعوام ، وعقب حملة اقناع عنيدة بهدف اقامة خط تلغرافى بين مدينتى واشنطن وبالتيمور · وقد أعطاه افتتاح هـذا الخط فرصة نقل برقيته التاريخية : « ما الذى لم يخلقه الله ! » فى تلك اللحظة افتتح مورس عصر الاتصالات اللاسلكية وأطلق بدون أن يعرف ، أحد أهم الصراعات المالية فى القرن التاسع عشر · وسجل بذلك بده عملية قوية لم تنته بعد من رؤية تطوراتها ·

وبينما تتزايد فى الوقت الحالى حدة المعركة الدائرة حول خزينـــة التحصيل فى السوبرماركت يرتسم فى الأفق صراع ذو أهميـــة ومدى مختلف تماما ، صراع يهدف الى السيطرة على ما يمكن أن نسميه طرق الغد الالكترونية الكبيرة ·

باخ وبيتهوفن ويانج :

نظرا لأن حياة الشركات الدولية الكبرى تتوقف حاليا لدرجة كبيرة

على استقبال وارسال المعلومات ، فقد سارعت بربط كل عملائها والعاملين لديهـــا بشـــبكات الكترونيـــة ـ هـــذه الشبكات ستمثـــل فى القـــرن الواحد والعشرين البنية الأساسية ، وستصبح أداة حاسمة لنجاح الشركات أو التقدم الاقتصـــادى للأمم كمـــا كانت السكك الحديدية فى عصر صمويل مورس ٠

بعض هذه الشبكات تقتصر على « امتداد محلى » ، أى تعمل فقط على ربط أجهزة الكمبيوتر فى نفس البناية أو فى الجوار ٠ وهناك شبكات أخرى تغطى العالم كله ، مثـــل فروع السيتى بنك والحجز فى فنادق هيلتون أو شركة هيرتز لتأجير السيارات ٠

ففى كل مرة يبيع ماكدونالد شطيرة أو فطيرة من صنعه تولد هذه العملية بيانات الكترونية ٠ فهذه الشركة بمطاعمها ال ٩٤٠٠ المنتشرة فى ٤٦ بلدا تستخدم ما لا يقل عن ٢٠ شبكة مختلفة لتجميع ومعالجة واعادة توزيع هـــذا الـــكم من المعـــلومات ٠ ولدى الزوار الطبيـــين لشـــركة « دى بون دى نيمورز » أجهزة كمبيوتر متنقلة وعلى اتصال دائم بالشبكة المركزية للشركة ٠ أما فولفو فلديها ٢٠ ألف وحدة طرفية للاستعلام عن حالة الأسواق ، فى حين يتعاون مهندسو ديجيتل اكويبمنت فى مشروعات مشتركة على امتـــداد العـــالم من خـــلال شاشات أجهزة الكمبيوتر الخاصة بهم ٠

وتربط شركة آى ٠ بى ٠ ام بمفردها ٣٥٥ ألف وحدة طرفيـــة بنظام شبكات اسمه « فى نت » ، وقد عالج هذا النظام ٥ آلاف مليار اشارة فى عام ١٩٨٧ ، بينما ســـمح نظـــام فرعى اسمه « بروفس » بتوفير ٧٥ مليون مظروف ٠ بدون هذه الشبكة الأخيرة كانت الشركة ستحتاج الى حوالى ٤٠ ألف عامل اضافى للقيام بنفس العمل ٠

وقد امتـــد استخدام مثل هذه الشبكات الى أصغر الشركات حيث يوجد حاليا فى الولايات المتحدة حوالى ٥٠ مليون كمبيوتر شخصى وهو ما يسمح لشركة يانج بأن تقوم بدعاية واسعة عبر الموجات لمعدات الربط الخاصة بها ، وتبث هـــذه الرسائل بين قطع راقصـــة لباخ وسيمفونية لبيتهوفن ٠

ومع كل يـــوم يمر ، يتزايد اعتمـــاد الشركات الكبيرة على شبكاتها الالكترونية بالنسبة لاصدار الفواتير والطلبات وكل أنشطتها التجارية ـ كذلك بالنسبة لتبادل المواصفات التقنيـــة ، ورســـومات المهندسين والتقديرات الزمنية ، بل وللسيطرة والتحكم من بعد فى العمل الحقيقى

لسلسلة الانتاج • فيما سبق ، كانت نظم المعلومات المنظمة فى شبكل شبكات تعتبر أدوات ادارية بحتة ، حاليا تتجه القيادات بشكل متزايد الى اعتبارها معدات استراتيجية ستساعدهم على حماية أسواقهم أو على محاولة غزو أسواق جديدة •

ان السباق من أجل الربط والاتصال الالكترونى يذكرنا فى بعض سماته بهوس فترة السكك الحديدية الكبرى فى القرن التاسع عشر - حيث أدركت الدول أن مصيرها قد يتوقف على امتداد شبكات السكك الحديدية عبر أراضيها •

غير أن الجمهور العريض لايدرك الا بشكل مبهم ، عواقب هذه الظاهرة من حيث انتقال السلطة • ولتقدير أهمية ذلك بشكل أفضل ، قد يكون مفيدا العودة الى الماضى ، لنلقى نظرة على الأحداث التى تلت افتتاح مورس لأول شبكة - الشبكة التلغرافية •

مجنون الهاتف :

بحلول منتصف القرن التاسع عشر ، أقام مستغلو براءة اختراع مورس آلاف الكيلومترات من الخطوط التلغرافية • وكلما ظهرت شركات منافسة امتدت الشبكات ، وسرعان ما أصبح موضوع المنافسة الكبرى هو ربط المدن الكبيرة ببعضها البعض أو ربط طرفى القارة • وبدأت شركة اسمها ويسترن يونيون فى ابتلاع الشركات الأصغر وغرس أعمدتها على الأرض الممنوحة لخطوط السكك الحديدية • وفى أقل من ١١ عاما ، مدت خطوطها من الأطلنطى الى المحيط الهادى ورفعت رأسمالها من ٥٠٠ ألف دولار الى ٤١ مليون دولار - مما جعل الأمر يختلط على جميع رجال البنوك فى ذلك العصر •

وسرعان ما قامت احدى الشركات التابعة لها وهى شركة جولد آند ستوك تلجراف بتزويد المستثمرين فى البورصة والمضاربين على الذهب بالمعلومات السريعة - وفتحت بذلك الطريق للمؤشرات الحالية مثل مؤشر داوجونز أو مؤشر نيكى •

وبينما كانت الرسائل تنتقل بين طرفى الولايات المتحدة عبر كيس ساعى البريد الذى يمتطى الحصان أو عبر عربة البضائع فى القطار ، كانت ويسترن يونيون قد وضعت يدها بالكامل على أحدث وسائل الاتصال آنذاك •

ولكن ، كما هى العادة ، ولد هذا النجاح غطرسة لدى القيادات ،

ففي عام ١٨٧٦ ، عندما حصل مدرس الالقاء الكسندر جراهام بـــل على براءة اختراع أول جهاز هاتف ، حاولت شركة ويسترن يونيون في بادىء الأمهر اظهار المخترع على أنه مجنون وتحويل الأمر كله الى مادة للسخرية ، ولكن الطلب العام على الخدمات الهاتفية لم يتراجع ، عندئذ أعلنت شركة ويسترن دون مواربة أنها لا تنوى التخلى عن احتكارها ٠ وتلا ذلك صراع مرير استخدمت فيه الشركة كل الوســائل الممكن تخيلها لقتل التقنية الأكثر تقدما أو الاستيلاء عليها ٠

واســتخدمت الشـــركة توماس اديســـون لاختـــراع بدائل أخرى ، كما استعانت برجال قانون لملاحقة « بل » أمام المحاكم ٠

وكتب جوزيف جولدن مؤلف كتاب «مونوبولى» أو الاحتكار يقول : « وعلى صعيد آخر ، منعت ويسترن يونيون « بل » من اقامة شـــبكته الهاتفية على امتداد خطوط السكك الحديدية والطرق الرئيسية التى تحتكر امتيازها ٠ وكان لدى ويسترن أجهزة التلغراف الخاصـــة بها فى جميـــع الفنادق الكبرى ومحطات القطارات وصالات التحرير على امتداد البلاد ، وذلك طبقا لعقود تحظر تركيب أجهزة الهاتف فى هذه الأماكن ، وفى فيلادلفيا ، منع ممثل « بل » من اقامة خطوط هاتفية فى المدينة ، وكثيرا ما كان عماله يودعون فى السجن بناء على شكاوى من ويسترن يونيون ، وبفضل النفوذ السياسى الذى كانت تتمتع به فى واشنطن حصلت شركة التلغراف على قرار يمنع اســـتخدام الهاتف فى أى من مكاتب الحكومة الفيدرالية » ٠

وبالرغم من كل ذلك خسرت شركة ويسترن يونيون المعـــركة ٠ ولا يرجع الفضـــل فى ذلك الى جهود خصـــم أضعف منها بقدر ما يرجع الى الحاجة الملحة لاتصالات أفضل استشعرها عالم الأعمال ، وبدوره ، نما المنتصر فى هذه المعركة الكبرى من أجل السلطة وتطور حتى أصبح أكبر شركة خاصة عرفها العالم ــ ألا وهى شركة الهاتف والتلغراف الأمريكية (ايه ٠ تى ٠ آند تى) ٠

أسرار وسكرتيرات :

ان مزايا الاتصالات السريعة مسألة نسبية ، فما كان صحيحا بالنسبة لتلغراف مورس أو تليفون بل لايزال صحيحا بالنسبة للشبكات الاعلامانية الحالية ٠ فاذا لم يمتلك أحـــد مثل هذه الاتصالات فستعمل كل الشركات المتنافسة فى هذه الحالة على أرض محايدة وعلى ايقـــاع نفس الجهـــاز العصبى ٠ ولكن اذا استفاد البعض من الابتكارات وحرم منهـــا البعض

الطرق الالكترونية الرئيسية :

وبتزايد تبعية الاقتصاد للهاتف ، اكتسبت الشركات الخاصة أو الادارات التي تدير الشبكات أو تنظم عمليات الاستخدام هي أيضا سلطة ضخمة • ففي الولايات المتحدة ، كان ذلك هو الحال بالنسبة لشركة ايه • تي • آند تي • المعروفة أيضا بأسماء «بل سيستم» – أو « ما – بل » التي أصبحت المورد المسيطر في مجال الاتصالات اللاسلكية •

ويصعب على من اعتاد خدمة هاتفية مناسبة ، تصور كيف يمكن لاقتصاد أو لشركة ما أن تعمل بدون هذه الخدمة ، أو مايمكن أن يحدث في بلد تستطيع شركة الهاتف فيه (التي تكون الدولة عامة) رفض طلبات التعاقد الأكثر استعجالا أو تأخير اقامة أحد الخطوط لعدة سنوات• وعندما تتم الأمور بهذا الشكل في بلد ما ، فان السلطة البيروقراطية تولد المحسوبية السياسية والرشوة والفساد العام ، مما يبطىء النمو الوطني ، ويحدد بدرجة كبيرة فرص النجاح أو الفشل بين الشركات ، وهو الوضع السائد في العديد من البلدان التي كانت تطبق الاشتراكية وكذلك في البلدان غير الصناعية • وحتى بالنسبة للاقتصادات المتقدمة تكنولوجيا ، فان موردي الخدمات الهاتفية والسلطات التي تنظم هذه الخدمات تستطيع أن تقرر مصير فروع كاملة ، وذلك بمنح أو رفض الخدمات المتخصصة أو بفرض أسعار تفضيلية أو عن طريق وسائل أخرى•

ولكن قد ينتهي الأمر بالمستخدمين المحبطين الذين نفد صبرهم بالثورة والتمرد ، كما يوضح ذلك مثال أكبر عملية اعادة هيكلة في التاريخ الاقتصادي ألا وهي تفكك وتجزئة شركة ايه • تي آند تي : التي حكم بها القضاء في عام ١٩٨٤ •

لقد حاولت الحكومة الأمريكية منذ الأربعينات أن تفكك هذه الشركة بحجة أنها تفرض أسعارا مرتفعة للغاية ، ولكنها فشلت في ذلك رغم العديد من القضايا المنظورة أمام المحاكم والتي لم تسفر عن أي تغيير أساسي • وبينما كانت الشركة تتلقى الضربات لم ترتخ قبضتها قط على نظام الاتصالات الأمريكي ، حتى في ظل رؤساء ديمقراطيين أكثر اصرارا من الجمهوريين على مواجهة الاحتكارات بشدة •

ولكن الذي غير توازن القوى أخيرا كان هو ظهور تكنولوجيات جديدة متصلة بمتطلبات القيادات الاقتصادية التي لايمكن قهرها من مستخدمي الهاتف ، الذين لم يكفوا عن المطالبة بخدمات أكثر وذات نوعية أفضل •

ففي مطلع الستينات ، بدأ عدد كبير من الشركات الأمريكية في

التزود بأجهزة الكمبيوتر • وفي الفترة نفسها ، توصلت الأبحاث الى وضع أقمار صناعية في الخدمة ، وعدد كبير من أجهزة الاتصالات اللاسلكية الجديدة الأخرى - وكان بعضها يخرج من معامل بل التي تملكها شركة ايه • تي آند تي • ذاتهـا • وسرعان ما بدأ كبار مستخدمي أجهزة الكمبيوتر يطالبون بمجموعة كاملة من شبكات تبادل البيانات يمكن لأجهزتهم التحاور من خلالها • وكانوا يعرفون أن التقنيات اللازمة لذلك متاحة ، ولكن هذه الخدمات التي كانوا في حاجة ماسة اليها كانت تمثل في ذلك الوقت ، سوقا صغيرة جدا بالنسبة لشهية ايه•تي• آند تي •

ولأن شركة الهاتف احتكار محمي فلم يكن هناك منافسون لها ، وبالتالي لم تكن في عجلة للاستجابة لهذه الطلبات الجديدة • ولكن مع تضاعف عدد أجهزة الكمبيوتر والأقمار الصناعية ، تزايد بشكل مطرد عدد الشركات الراغبة في اتصالات أفضل ، وتصاعدت حالة عدم الرضا بدرجة تنذر بالخطر • فمن المحتمل جدا أن تكون شركة آي بي • ام • المورد الأول للمعدات الاعلاماتية ، قد خسرت صفقات مهمة نتيجة لتباطؤ ايه • تي • آند تي ، كما كان لدى آي بي • ام • أسباب أخرى تجعلها تتمنى نهاية هذا الاحتكار • وكل هؤلاء الساخطين لم تكن تنقصهم الحنكة السياسية •

وفي واشنطن ، أصبحت الانتقادات ضد ايه • تي • آند تي ، أكثر حدة • وفي نهاية المطاف ، أحدث اقتران الابتكارات التقنية والعداء المتزايد نحوها ، تغييرا في المناخ السياسي وسمح بالتصدع المدوي الذي وقع عندما قضت المحكمة بتفكك ايه • تي • آند تي • وفتحت بذلك مجال الاتصالات اللاسلكية الأمريكية للمنافسة ولأول مرة منذ بداية القرن • وبمعنى آخر ، فان هذا التفكك الضخم لايرجع فقط لأسباب قانونية ولكن لتأثير وعمل قوى هيكلية أيضا •

تماما كما حدث قبل ذلك بقرن ، عندما أدت مطالبة الشركات ، التي يصعب مقاومتها ، بوسائل اتصال أفضل ، الى هزيمة ويسترن يونيون ، فان ظهور التكنولوجيات الجديدة ووجود طلب ضخم لم تتم تلبيته ، أدى الى هزيمة ايه • تي • آند تي • ان ايقاع التقدم التقني يتسارع حاليا بشكل عنيف ، بحيث أصبح النشاط الاقتصادي أكثر ارتباطا وتبعية للاتصالات اللاسلكية من أي وقت مضى •

ونجم عن ذلك ، أن أصبحت شركات الطيران وشركات انتاج السيارات والشركات البترولية مجندة في حرب دائمة ، حيث يناضل كل منها ضد الآخرين من أجل السيطرة على نظم الاتصال بمجرد ظهورها •

وكما سنرى فى الصفحات التالية ، لقد هزت صدمة الابتكار والتجديد شركات النقل البرى والعاملين فى مجال المخازن والمستودعات والتجار والمنتجين ـ باختصار سلسلة الانتاج والتوزيع من أولها الى آخرها •

فضلا عن أن النقود أصبحت تشبه بشكل متزايد المعلومات ، كما أصبحت المعلومات تشبه النقود فقد تحولت كلتاهما الى نبضات الكترونية ، وهما ينزعان الى التداول والدوران فى هذا الشكل الالكترونى • وبمجرد أن يتأكد هذا الانصهار التاريخى بين الاتصالات اللاسلكية والمال ، فان السلطة المرتبطة بالسيطرة على شبكات المعلومات سوف تزيد تزايدا أسيا •

وكل ذلك يفسر لماذا تنطلق الشركات الكبرى والدول فى صراع محموم ، للسيطرة على الطرق الالكترونية الكبرى للغد ، ولكن المدهش ، أنه نادرا ما يوجد بين كبار المسئولين من يدرك فعلا مدى اتساع وضخامة هذا الرهان ، بغض النظر عن التحولات العملاقة التى فى طريقها لقلب طبيعة الاتصالات ذاتها •

الشبكة الواعية :

بامكان أى شخص أن يرى ويلمس الهاتف وجهاز الكمبيوتر الموجود على أى مكتب قريب ، ولكنه لايستطيع ذلك مع الشبكات التى تربط هذه الأجهزة مع باقى العالم •

ولا يعرف أغلبنا شيئا عن التقدم السريع الذى حول هذه الشبكات الى مكافىء للنظام العصبى لمجتمعنا •

ان الشبكات التى أقامها مورس وويسترن يونيون وبل وآخـرون لم تكن ذكية ، حتى لا نقول انها كانت غبية تماما • فالحس السليم يقول ان الخط المستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين ، وقد التزم المهندسون بهذا المبدأ ، وكانت كل الرسائل تتخذ الطريق المباشر من مدينة الى أخرى عبر الخط المستقيم •

غير أن امتداد هذه الشبكات التى تنتمى للجيل الأول ، أثبت أن الخط المستقيم فى هذا الكون ليس هو بالضرورة أفضل طريق للارسال• ففى الحقيقة ، كان من الممكن ارسال عدد أكبر من الرســائل وبسرعة أكبر ، اذا كانت الشبكة بدلا من ان تربط تالاهاس مثلا باطلنطا دائما عن طريق نفس الخط ، تستطيع أن تحسب عدد المكالمات على كل عنصر من عناصر الشبكة ، واذا كان الطريق المباشر لأطلنطا مزدحما أن تمــرر الرسائل عبر مراكز بعيدة مثل نيو أورليانز أو حتى سانت لويس بدلا من تأخيرها بوضعها فى حالة انتظار •

وفى تلك المرحلة التى كانت فيها الشبكات ماتزال بدائية ، كان يتم حقن النظام بجـــرعات من « الذكاء » والدقة ، كما بدأت الشبكات تراقب وتسيطر على عملها ذاتيـا ، وتبع ذلك الانتقال الى مرحلة ثانية ، حيث سمحت ابتكارات عديدة مكملة للشبكة الهاتفية أن تعرف معلومات متزايدة عن نفسها وعن حالة مكوناتها المختلفة ـ بل وأن تشخص حالات الخلل أو الأعطال الخاصة بها • وكانت هذه الابتكارات ثمرة براعة رائعة وعبقرية •

لقد حدث كل شىء كما لو كان هناك جسم محروم من الحيـــاة ، أو على الأقل فى حالة سبات ، وفجأة بدأ يقيس لنفسه ضغط الدم والنبض ويتابع تنفسه ، لقد بدأت الشبكة تعى نفسها بشكل ما •

وفى المرحلة الثـانية تلك كانت تتشابك الارتبـاطات والوصـلات وتتقاطع وتتلاقى على امتداد الأرض كلها ، وكانت تمثل الكابلات ، التى تتلوى تحت شوارع المدن وتنفذ الى مئات الملايين من المنازل ، الانتـــاج الكامل للعـديد من مناجـــم النحاس • وتضمنت الشبكات أجهزة ربط وارسال غاية فى التعقيد ، ومع تزايد انتشارها وتطورها بشكل مضطرد ، أصبحت تمثل أحد أروع نجاحات العصر الصناعى •

ونظرا لأن هذه الشبكات تكاد تكون غير مرئية للمستخدم العادى ، فان حضارتنا لم تقدر القيمة الساطعة والجمال الفكرى لهذه التشابكات الخفية حق قدرها ، وكذلك أهميتها لتطور الانسانية •

وفى الوقت الذى لازالت فيه بعض الشعوب فى حاجة الى خدمات هاتفية بدائية ، نجد الباحثين يعملون بجد وحماس من أجل خلق شبكات المرحلة الثالثة والتى ســتحدث ثورة جديدة فى مجـــال الاتصـــالات اللاسـلكية •

وبينما تربط الشبكات بين الملايين من أجهـزة الكمبيوتر ، ابتـداء من أجهزة كراى الضخمة الى الأجهزة الصغيرة المتنقلة ، ولاتتوقف عملية نسج شبكات جديدة وتنزع كلهـــا الى تكوين شبكة ذات عيون متزايدة الضيق ، يصبح لزاما أن يتم رفع مرة أخرى مستوى « ذكاء » و « وعى » هذه الشبكات اذا كنا نريد لها أن تتمكن من معالجة كميـات المعلومات الضخمة التى يصعب تصورها والتى تتدافع عبر قنواتها •

ومن هذا المنظور ، تحاول العديد من فرق البحث الوصول بأسرع مايمكن الى الهدف المأمول ، وهو الشبكات المسماة « عصبية » التى يمكنها استخلاص الدروس من تجربتها الخاصة وتوقع متى وأين يحتمل حدوث

زيادة فى التحميل ليتم تدعيم أو تقليص أقسام من الشبكة بشكل يوائم الاحتياجات وبحيث لايقتصر عملهـــا على ارســال وتحويل الرسائل • ولتقريب عمل هذه الشبكات نفترض أن طريق سان دييجو السريع أو أى طريق سيارات ألمــانى يستطيع أن يوسع أو يضيق نفســه ، تبعا لعــدد السيارات التى يقوم بتقييم تدفقها مسبقا فى كل لحظة •

غير أنه قبل اكتمال هذا الجهد الضخم ، يجرى الاعداد لقفزة أخرى أكثر غرابة ، ولا يتعلق الأمر هذه المرة بمرحلة رابعة تقع فى نفس الصف ، ولكن بخلق نوع جديد تماما من « الذكاء » •

رسائل داخل الرسائل :

حتى الآن لا تملك أكثر الشبكات تطورا ، سوى ما يمكن تسميته « ذكاء ـ داخلى » : حيث تهدف جميعها الى تحسين عملها الداخلى •

وهذا الذكاء الداخلى ، يشبه الذكاء المدمج فى جهازنا العصبى الذى ينظم بشكل مستقل وظائف الجســم غير الارادية مثــل دقات القلب والافرازات الهرمونية ـ وهى وظائف نادرا ما نفكر فيها ، رغم أنه لاغنى عنها للمحافظة على الحياة •

وتسلم الشبكات ذات الذكاء الداخلى الرسالة فى نهاية السلسلة كما تم ارسالها • وينكب الباحثون والمهندسون من أجل الحفاظ على نقاء الرسالة واستبعاد كل « تشويش » متطفل قد يحرف أو يقتضب مضمونها • ولنقل الرسالة من نقطة الى أخرى ، يمكنهم خلط مكوناتها أو عناصرها ووضعها فى شكل رقمى أو تحويلها الى « حزم » (أى الى تفريغات كهربية قصيرة منفصلة) ، غير أنهم يعيدون تركيبها عند وصولها ويظل المضمون هو نفســـه •

أما الآن فنحن فى طريقنا لتجاوز الذكاء الداخلى وصولا الى شبكات يمكن تسميتها « ذات ذكاء اضافى » • فلا تقتصر هذه الشبكات على نقل المعطيات ولكنها تحللها ، وتمزج الرســـائل وتصنع منها حزما جديدة ، أو تحولها بطرق أخرى ، وأحيانا تخلق معلومات جديدة أثنـــاء انتقال الرسائل خلالها ، بمعنى أنه بعد جهود متخصصة أو عملية اثراء ، أصبحت المخرجات تختلف عن المدخلات ، لأن البرامج الاعلاماتيـــة المدمجـة فى الشبكة غيرت شـــيئا ما • وتعمل « شـــبكات القيمة المضـــــافة » (فى • ايه • ان) بهذه الطريقة ، وهى شبكات « ذات ذكاء اضافى » •

وأغلب هذه الشبكات لاتفعل حاليا ســـوى خلط واعادة ترتيب

العناصر حتى يتم تكييف الرسالة لمختلف طرق الاستقبال • ففى فرنسا مثلا ، تستطيع خدمة أطلس دى فرانس ـ تليكم استقبال بيانات من جهاز كمبيوتر مركزى ثم اعادة تجميعها فى شكل يمكن استقباله عن طريق كمبيوتر شخصى أو جهاز فاكس أو وحدة فيديو طرفية •

ولأول وهلة قد لايوجد ما يثير فى ذلك ، ولكن امكانية اضافة قيمة ما لرسالة لا تقتصر على تعديل خصائصها التقنية • فشبكة مينى تل الفرنسية التى تربط خمسة ملايين منزل وشركة تقدم خدمات مثل الجاتراد والميتراد والديلو وخدمات أخرى بحيث تستقبل نصا فرنسيا وتنقله أتوماتيكيا الى المرسل اليه ، باللغة الانجليزية أو العربية أو الأسبانية أو الألمانية أو الايطالية أو الهولندية ، وبالعكس • وان كانت الترجمة لازالت غير متقنة فانها قابلة للاستخدام ، وهناك بعض البرامج تملك أيضا مفردات متخصصة لتناسب موضوعات مثل تقنيات أبحاث الفضاء أو الأبحاث النووية والقضايا السياسية •

وتعالج شبكات أخرى البيانات المدخلة طبقا لنموذج اعلاماتى معين وتسلم فى النهاية رسالة « مضافة » •

مثال افتراضى وبسيط سيسمح بفهم أهمية هذه العملية :

لنفترض أن شركة نقل برى فى احدى ضواحى باريس ترسل بانتظام شاحنات لاعادة تموين مخازن أربعين موزعا أوروبيا بمنتج معين • ولأن ظروف المرور والطقس تتغير بشكل مستمر من منطقة لأخرى ، كما يتغير سعر صرف العملات وثمن الوقود فضلا عن عدد آخر من العوامل، يتعين على السائق أن يحدد أفضل خط سير يسلكه أو يطلب يوميا التعليمات عن طريق الهاتف •

ولنتصور الآن شركة متخصصة لديها شبكة من نوع « شبكات القيمة المضافة » تستطيع ، بالاضافة الى الاتصال بسائقى الشاحنات فى أوروبا كلها ، أن تجمع بشكل مستمر المعلومات الخاصة بحالة الطرق وكثافة المرور وتوقعات الأرصاد وسعر الصرف وأسعار الوقود • عن طريق هذه الشبكة تستطيع شركة النقل الباريسية من الآن فصاعدا نقل معلومات جديدة وتعليمات يومية لسائقى شاحناتها • وفى أثناء ذلك ، تتم معالجة الرسائل بواسطة برنامج اعلاماتى للشبكة يحسب أتوماتيكيا خطوط السير بحيث يقلل الى أدنى درجة وقت القيادة والمسافات التى يتعين قطعها ومختلف المصاريف تبعا لسعر الصرف ، كل ذلك طبقا لآخر البيانات المتاحة •

وفي هذا المثال ، يتم تعديل التعليمات الموجهة من شركة النقل الى العاملين لديها أثناء ارسالها ويتم « تخصيبها » قبل أن تصل اليهم . وبذلك تكون « الشبكة ذات القيمة المضافة » قد أضافت بالفعل قيمة بدمجها معلومات جديدة للرسالة الأصلية لعميلها وبتعديلها قبل ايصالها للمرسل اليه .

ولكن ذلك ليس سوى صورة مبسطة تماما للامكانات المحتملة للشبكة ذات الذكاء الاضافي . فالخدمات المتاحة تصبح أكثر تعقيدا وتنوعا بشكل مضطرد . فعندما يقوم النظام بتجميع وتقييم البيانات ويدمجها بشكل أفضل ويستخلص منها النتائج أوتوماتيكيا ويحولها طبقا لنماذج اعلاماتية متزايدة التطور ، فان القيمة الاضافية التى يمكنه توفيرها ترتفع بسرعة السهم .

واجمالا ، سنرى قريبا هذه الشبكات « المتطورة » تتكاثر ، وهى شبكات لم تعد تهدف الى تغيير أو تحسين عملها فقط ، وانما تمارس عملا حقيقيا على العالم الخارجي باضافة « ذكاء اضافي » الى الرسائل التى تمر خلالهـا .

وهذه النظم « ذات الذكاء الاضافي » وان كانت حتى الآن ولدرجة كبيرة أملا يلمع بريقه فى عيون مهندسيه ، فانها تمثل قفزة فى التطور نحو درجة أخرى من الاتصال ، ولكنها فى الوقت نفسه ترفع أيضا مستوى التطور المطلوب من المستخدمين . ان الشركة التى ستعطى رسائلهـا لشبكة من « شبكات القيمة المضافة » وبالتالى ستسمح لها بتعديل هذه الرسائل ، اذا لم تفهم وبعمق الأسس التى تعمل بمقتضاها البرامج المقابلة ، فانها تتصرف فى الحقيقة بناء على ثقة عمياء وليس بناء على قرار عقلانى . واذا لم تعرف هذه الأسس فان التفاوت والتحريف الذى تفرضه البرامج قد يكلفها غاليا جدا .

وفى هذا الاطار تقدمت شركات الطيران الأجنبية بشكوى الى وزارة النقل الأمريكية من أنها تتعرض لتفرقة مجحفة تقوم بها الشبكة الالكترونية التى تخدم آلاف وكالات السفر المحلية لاختيار رحلات عملائهم ، فنظـام الحجز الاعلاماتى المسمى « سـابر » الذى يعمـل تحت ادارة شركة « ايه . ام . آر » ، التى تمتلك أيضا شركة أمريكان اير لاينز ، يستطيع حجز أماكن لدى العديد من الشركات . و « الذكاء الاضافي » الذى يحتويه هذا النظام فى شكل نموذج اعلاماتى يبين للوكالة أفضل الرحلات المتاحة ، الا أن الافتراضات الأصلية لمجموع البرامج الاعلاماتية هى بالتحديد محل الشـكوى .

فعلى سبيل المثال ، فى حالة رحلة من فرانكفورت الى سانت لويس بولاية ميسورى ، فان الوكيل يرى الرحلات على شاشته مرتبة طبقا لطول المدة التى تستغرقها ، وبالطبع يكون الوقت الأقصر هو الأفضل · ولكن نظام « سابر » يفترض أتوماتيكيا أن كل عملية تغيير للطائرة وللشركة الجوية تستغرق ٩٠ دقيقة بشكل منتظم دون أن يأخذ فى الاعتبار الفروق الحقيقية ، ولما كان العديد من الرحلات التى تؤمنها شركات الطيران الأجنبية الى الولايات المتحدة تتطلب انتقالا على رحلة داخلية أمريكية ، فان هذه الشركات الأجنبية قد تعاقب ظلما لو استغرق التغيير أقل من ٩٠ دقيقة ، لأن زيادة تقدير الوقت قد يجعل الوكالات لاتختار رحلاتها ــ على حد قولها · باختصار كان « الذكاء الاضافى » منحازا فى هذه الحالة ·

ولنتصور اذن ما الذى سيحدث قريبا عندما تصبح الشبكات ذات القيمة المضافة بالآلاف ، والنزاعات التى ستنجم عن ذلك ، حيث ستحمل هذه الشبكات عشرات الآلاف من البرامج والنماذج المدمجة وستعالج وتغير بشكل مستمر ملايين الرسائل التى ستنطلق خلال الاقتصاد عبر هذه الطرق الالكترونية الكبيرة النشطة · ويمتلك بريطانيا وحدها ٨٠٠ شبكة ذات قيمة مضافة وألمانيا ٧٠٠ شبكة من هذا النوع وفى اليابان سجلت أكثر من ٥٠٠ شركة نفسها فى وزارة البريد والاتصالات اللاسلكية من أجل انشاء هذا النوع من الشبكات ·

ويمكن الآن توقع أن تقلل الشبكات ذات القيمة المضافة ، التكلفة الحالية للانتاج والتوزيع بعدة مليارات من الدولارات (الرقم الدقيق يصعب توقعه) ، وذلك باختصار اللوائح والنظم القائمة وخفض حجم المخزون وتعجيل الاستجابات · الا أن حقن جرعة من الذكاء الاضافى فى هذه الشبكات فى أوج انتشارها وارتباطها فيما بينها يؤدى الى ما هو أبعد من ذلك : أنه أشبه باضافة قشرة دماغية على نحو فجائى لكائن لم يكن لديه مثلها من قبل وكانت النتيجة ضوءا مبهرا · فباقترانها بالجهاز العصبى الموجود قبل ذلك ، لن تقتصر هذه القشرة على منح هذا الكائن مجرد وعى بالذات واعطاء جهازه العصبى قدرة ما على أن يحول نفسه وانما ستجعله قادرا على التدخل مباشرة فى حياتنا بدءا بحياتنا الاقتصادية ·

ولذلك فان شبكات الاتصالات مؤهلة لأن تقوم بدور ثورى فى الاقتصاد بصفة خاصة وفى المجتمع البشرى بشكل عام · واذا لم يستخدم أحد ــ على حد علمنا ــ « الذكاء الاضافى » لأغراض ضارة أو اجرامية حتى الآن ، فانه يظل أن امتداد الشبكات ذات الذكاء الاضافى لازال فى المهد وانه لم يوضع أى تنظيم أو تقنين أو وقاية لها ·

ولكن من يعرف ما سيحدث بعد ذلك ، الأمر المؤكد أنه بخلق نظام عصبى الكترونى مزود بنوع من الوعى وبدرجة من « الذكاء الاضافى » فاننا نغير بذلك قواعد ثقافتنا وطرق عمل اقتصادنا ٠

ان ما نسميه « ذكاء اضافى » سيطرح بدون أدنى شــك مشكلات غاية فى الصعوبة فيما يتعلق بالعلاقات بين البيانات الخام من جهــة ، والمعلومات المجهزة والمعرفة من جهة أخرى ٠ كما سيطرح مشكلات بالنسبة لموضوع اللغة ومسائل الأخلاق المهنية ، كذلك بالنســبة للنماذج التى يصعب الوصول اليها والتى تعمل كقاعدة للبرامج الاعلاماتية المستخدمة ٠ وفى السنوات القادمة ، وفيما يحاول المجتمع التكيف مع وجــود الذكاء الاضافى ســوف تولد حقوق التعويضــات والمسئولية ، فى حالة الخطــأ أو التحريف وحماية الحياة الخاصة وعدالة الممارسات بشكل عام ، سلسلة من القضايا التى ستتدفق على المحاكم ٠

وستمتد العواقب والآثار يوما الى ما هو أبعد من المجال الاقتصادى الصرف ــ وعندئذ ستثير بالضرورة تفكيرا واسعا ذا طابع اجتماعى وسياسى ، بل وفلسفى عميق ٠ والحقيقة ، ان لا وجه للمقارنة بين كم العمل الضخم والذكاء والخيال العلمى الذى يستثمر حاليــا لاعداد البنية التحتيــة الالكترونية للمجتمع فوق الرمزى الذى يتشكل حاليا وبين ما اســتخدم فى الماضى لبناء الأهرامات أو الكاتدرائيات الضخمة ٠

وكما سنرى ، فان الذكاء الاضافى سوف يقلب رأسا على عقب من الآن فصاعدا ، علاقات السلطة فى قطاعات كاملة من الاقتصــاد الجديد الذى يولد أمام عيوننا ٠

الفصل الحادى عشر

سـلطة الشـبكة

تشعر اليابان بالقلق · فهى فى عيون العالم الخارجي دولة لا تقهر اقتصاديا ولكن بالنظر اليها من الداخل تبدو الصورة مختلفة تماما · فاليابان لا تملك مصادر طاقة · ولا تغطى ذاتيا سوى جزء صغير من احتياجاتها الغذائية ، كما انها تدرك أن فرض قيود على التجارة سيصيبها بخسائر جسيمة · واذا انخفضت اسعار الين تشعر اليابان بالقلق وكذلك اذا حدث العكس ·

ولكن اذا أخـذنا اليابانيين بشكل فردى ، فان خوفهم لا يقتصر على اقتصادهم الوطنى ، وانما يمتد أيضا لمستقبلهم الشخصى · ولذلك يعتبر اليابانيون من بين أكبر المدخرين فى العالم · كما تعتبر التأمينات من أكثر مجالات توظيف الأموال تفضيلا لديهم ·

ولزمن طويل ، استفادت شركات التـأمين العملاقة من هذه الهموم وهذا القلق · ولكن هذه الشركات نفسها أصبحت الآن أكثر الجميع شعورا بالتوتر ·

فالحكومة تفتح الباب الذى كان يحميهم حتى الآن من تدخل سماسرة الأوراق المالية اليابانيين الذين يتميزون بعدوانيـة وشراسة عاليـة · كما تستعد شركات عنيدة من الطبقة الدولية مثل نومورا ودايوا ومريل لينش وشيرسون اليابانية لاكتساح المجال ·

ومما يزيد الآمر سوءا أن كل قطاع التأمين يمر حاليا بحالة اضطراب عامة · فالعملاء يطالبون بأحدث أنواع بوالص التأمين وأكثرها تطورا ،

وبخدمات مالية تجد شركة عملاقة ومحترمة مثـل نيبون لايف ــ عمرها أكثر من مائة عام ــ صعوبة فى تنظيمها وتشغيلها ٠

وفى مواجهـة هذه التهديدات ، قررت الشركات الكبرى اقامة خط دفاع الكترونى ٠ فشركة نيبون لايف ترصد حوالى نصف مليار دولار لاقامة نظام اعلاماتى جديد ، وتزود وكالاتها بخمسـة آلاف جهـاز مينى كمبيوتر اضافى و ١٥٠٠ جهاز آخر أكثر قوة ، كما تزود مكاتبها الاقليمية ومقرها الرئيسى بأجهزة كمبيوتر كبيرة جدا ، فضلا عن أجهزة ضوئية لفك الشفرة ومعدات أخرى وترتبط كل هذه الأجهزة بشبكة عامة ٠

ولا تدخر الشركة المنافسة داى ــ اش موتيال جهدا هى الأخرى ، فشبكتها الجديدة ستسمح لوكلائها المحليين بسؤال بنك المعلومات المركزى وتلقى التعليمات عبر الهاتف حيث يتولى جهـاز لتوليف الصوت نطقها والحصول بواسطة النسخ عن بعد على معلومات عن العملاء أو البوالص التى سيحتاجـونها ٠ وفى الوقت نفسـه لم تتوان شركة ميجى موتيـال التى تضم ٣٨ ألف موظف أغلبهم من النساء ، فانطلقت هى أيضا فى سباق التسلح فى مجال الاتصالات ٠

على أية حال ، ليست شركات التأمين وحدها التى تشارك فى هذا السباق ، اليابان كلها على ما يبدو تتجه نحو الالكترونيات ٠ تقول مجلة « داتاميشون » ان « شركات الخدمات الكبرى مدت شبكات عبر طرفى البلاد وأقامت مراكز للمعالجة تضم ٥ آلاف ميكروكمبيوتر أو أكثر » ، بينما يوضح توشيوكى ناكامورا من ميجى موتيال قائلا : « اذا لم نفعل ذلك ٠٠ فاننا نجازف بخسارة كل شىء » ٠ وهو محق فيما يقول ، لأنه مع امتداد الشبكات الالكترونية تبدأ السلطة فى الانتقال ٠ وهذه الحقيقة ليست قاصرة على اليابان : ففى الولايات المتحدة وأوروبا ينسجون أيضا شبكاتهم بنشاط وحماس غير مسبوق ٠ ان المجال الالكترونى هو قطعـا مجال سباق القرن ٠

بحثا عن « الدنيم » :

ان قماش « الدنيم » القطنى المتين الذى تنسج منه بنطلونات الجينز غالبا مايكون من انتاج شركة برلينجتون ، ويقدم هذا العملاق الأمريكى فى مجال النسيج الى عملائه برامج معلوماتية مجانية تسمح لهم بالاتصال مبـاشرة بوحدته المركزية وبفحص مخزونه الكترونيا ، للعثور على نوعية « الدنيم » الخاصة التى يحتاجونها واجراء طلبية منها ــ ويتم كل ذلك بشكل لحظى ٠

وتأمل شركة برلينجتون وشركات أخرى في التميز عن منافسيهـا وتسهيل الامور لعملائها بمنحها هذا النوع من الخدمات • وان كانت تهدف أيضا الى ضم هؤلاء العملاء « للنظم الالكترونية الجديدة لتبادل البيانات » بحيث يصعب عليهم فيما بعد الافلات منها •

وتقتصر خدمة هذه النظم فى أبسط شكل لها على التبادل الالكترونى للمستندات بين الشركات أو مراكز الادارة — فواتير ، مواصفات ، حالة المخزون الخ•ولكن الاكتفاء بهذه الوظيفة يوازى تقريبا اعتبار موتسارت مجرد عازف بيانو • على النقيض ، تستطيع الشركات الكبرى من خلال المطابقة والتنسيق بين بياناتها ومعلوماتها ومعداتها الالكترونية أن تتوافق وتكون روابط حميمة للغاية •

ان برلينجتون يطلع عملاءه على بيـان مخزونه كما يكشف صـانع أجهـزة الكمبيـوتر لمورديه عن سر مشروعـاته • والهـدف من كل ذلك هو تمكين البائع والمشتري من ان يعملا معا في كل المراحل بحيث تتكون بينهما علاقة حميمية فعلية • ويرفض حاليا كبار صناع السيارات التعاقد مع الموردين غير المزودين بأجهزة المشاركة الالكترونية والتفـاعل الالكترونى ، ولقد أرسلت شركة فورد الى ٥٧ مصنعا لقطع الغيار تابعا لها بتعليمات للتبادل الالكترونى لبرامج التسليم الخاصة بالتعامل مع عملائهم ومورديهم ، وكذلك لاحتياجاتهم من المعدات وعمليات الشحن والاستلام التى يقومون بها •

ان مزايا « نظـم التبـادل » لا تقتصر على خفض العمليـات الورقية وحجم المخزون ، فبفضل هذه النظم تصبح الاستجابة لطلب المستهلكين أسرع وأكثر مرونة مما يحقق وفرا ضخما •

أما على الصعيد العالمى ، فان تقدم عمليات التبادل الالكترونى يؤدى الى تعديلات جذرية للممارسة الاقتصـادية ، حيث تسعى الشركات الى أن تتحد فيما يمكن تسميته « مجموعات تقاسم المعلومات » • لقد أصبحت الاتصالات أكثر وفرة وتمكنت من اجتياز — وأحيانا من مسح — الحدود التى كانت تعزل المؤسسات •

ويفرض التبادل الالكترونى للبيانات تغيرات رئيسية فى مجـال المحاسبة وأدوات الرقابة والتحكم الأخـرى ، سواء أكان ذلك فى شركة تأمين يابانية أم لدى صانع سيارات أمريكى • فعندما تتحول شركة ما نحو النظام الالكترونى يحدث تعديل للوظائف وتغيير وتبديل فى العاملين ، وتأخذ بعض الادارات مزيدا من الأهمية فى حين يفقد البعض الآخر جزءا من أهميته ، ومن ثم تتغير العلاقات تماما سواء مع العملاء أو الموردين •

ان انتقال السلطة لايؤثر فقط على هذه الشركة أو تلك ، لقد بدأت قطاعات كاملة فى ادراك تأثير نظام التبادل الالكترونى ، بحيث يمكن أن تستخدمه كسلاح لطرد الوسطاء الذين يتدخلون فى المجال ·

هل قضى على تاجر الجملة ؟ :

تستخدم شيسايدو ، وهى أكبر ماركة منتجات تجميل فى اليابان ، شبكاتها لتفادى شبكة التوزيع التقليدية · ان منتجاتها من الكريمات والبودرة وأقلام الجفون واللوسيونات وأحمر الشفاة وغيرها منتشرة فى كل أنحاء اليابان ، كما بدأت تلمع فى أسواق أمريكا وأوروبا ·

وبربط أجهزة الكمبيوتر الخاصة بها بأجهزة عملائها مباشرة ، تختصر شيسايدو تجار الجملة والمستودعات : انها تسلم المحلات من مراكز التوزيع الخاصة بها · ومادام فى امكانها ـ مثل شركات أخرى ـ أن « تخاطب » تجار التجزئة مباشرة ، ومادام بامكان هؤلاء التجار الوصول الكترونيا لأجهزة كمبيوتر الصانع ، فما هى الحاجة اذن لوسيط ؟ ·

ويقول مونرو جرينشتاين محلل تجارة التجزئة لدى بير وستيرنز وهما سماسرة أوراق مالية بنيويورك : « تاجر الجملة ؟! لقد تم استبعاده! واختصاره » · ولكن للهروب من هذا المصير الحزين ، بدأ تجار الجملة هم أيضا فى اللجوء الى التسلح الالكترونى ·

المثال الأكثر شهرة ـ والذى أصبح تقليديا ـ لتاجر جملة عرف كيف يبادر ويستولى على مواقع جديدة فى السوق هو مثال أمريكى : شركة « أمريكان هوسبيتال سابلاى » المتخصصة فى تجهيزات وتوريدات المستشفيات والتى أصبحت الآن فرعا لمؤسسة باكستر هيلث كيركوربوريشن· ففى عام ١٩٧٨ قامت هذه الشركة بتركيب وحدات طرفية فى المستشفيات ، وبفضل شبكة خاصة تستطيع هذه الوحدات الوصول مباشرة الى أجهزة كمبيوتر الشركة · وبالطبع وجدت وحدات الخدمات بالمستشفيات أنه أسهل لها بمراحل أن تطلب احتياجاتها من خلال الضرب على لوحة مفاتيح عن استخدام وسطاء أقل تطورا ·

وفى المقابل ، استخدمت الشركة شبكتها لكى توزع على عملائها كل المعلومات المفيدة عن المنتجات وطرق استخدامها وأثمانها وبيان المخزون من كل منها ، الخ · ومن خلال هذا النظام تمكنت المستشفيات من خفض مخزونها وحققت بذلك وفرا أساسيا فى مصروفاتها · واذا قررت احدى المستشفيات قصر تعاملها على هذه الشركة فقط فانها تؤمن لها خدمة

ادارية اعلاماتية كاملة · والنتيجة أن رقم أعمال هذه الشركة صعد بسرعة كالسهم ·

ويعرض المستشار بيتركين مؤلف كتاب « التنافس فى الوقت » ، وهو العمل الذى نستمد منه بعض هذه المعلومات ، كيف طبقت شركة فورموست مكسون ، التى تعمل بتجارة الجملة فى مجال الصيدلة ، استراتيجية الشركة الأمريكية لتوريد مستلزمات المستشفيات ، فهذه الشركة تستقبل طلبيات العملاء بأجهزة كمبيوتر من خلال وحدات طرفية لدى ١٥ ألف صيدلية ، وفور ذلك يتم فرزها ويعاد تجميعها فى شكل طلبيات تسلم للموردين الخاصين ·

وتسمح هذه النظم الفائقة السرعة لشركات أخرى كثيرة بالتعرف بصورة جيدة على الاحتياجات اليومية لعملائهم ، بحيث يصبح تحويل معاملاتهم التجارية الى جهات أخرى أمرا صعبا ومكلفا · وفى المقابل تسمح هذه الطريقة للمشترين بخفض المصاريف بنسبة لايمكن اهمالها ، كما تساعدهم فى ادارة أنشطتهم بشكل أفضل · وفى نهاية المطاف يجد هذا النوع من تجار الجملة أنفسهم فى موقع قوة فى جميع المفاوضات ·

الا أن هذين النموذجين لايزالان يمثلان استثناء · ولكن أغلب تجار الجملة الآخرين قد يجدون أنفسهم قريبا وقد وقعوا فى فخ الكترونى وأصبحوا مهددين من الصناع ومن تجار التجزئة ·

مجال النقل والعقارات :

مع امتداد « الذكاء الاضافى » بشكل تدريجى الى كل الاقتصاد ، تعتبر شركات المستودعات من بين الأكثر تعرضا للخطر ·

ان تقدم الانتاج المرن ذا المواصفات المميزة والذى أصبح ممكنا بفضل المعلوماتية ، يؤدى الى نتائج عديدة من بينها احلال عدد كبير من الطلبيات الصغيرة محل الطلبيات الكبيرة قليلة العدد ، وتشمل هذه الطلبيات منتجات أكثر تنوعا بكثير عن ذى قبل · وفى الوقت نفسه ، يفرض تسارع النشاط الذى يسرته الشبكات الالكترونية الجديدة ، متطلبات متزايدة فيما يتعلق بدقة مواعيد التسليم سواء بالنسبة للمصانع أو لتجارة التجزئة ·

كل هذا يعنى عددا أقل من الشحنات ذات الكميات الكبيرة وسرعة دوران أكبر وتقصير فترة بقاء البضائع فى المخازن والمستودعات · وفى الجانب المقابل ، يطلب العملاء مزيدا من المعلومات الدقيقة عن كل سلعة

من السلع المخزونة · باختصار ، المطلوب هو توفير معلومات أكثر وحيز أقل ·

وسوف يدفع هذا بعض أصحاب المستودعات والمخازن الى البحث عن أنشطة بديلة · فيستخدم بعضهم الشبكات الالكترونية وأجهزة الكمبيوتر لتزويد عملائهم بالمعلومات وخدمات النقل المنظمة مع تأمين التغليف والفرز ومراجعة الطرود والتجميع واعادة التوزيع ، الخ · وآخرون مثل شركة سوميتومو وارهاوس في اليابان ، التى تحولت الى مجال الترويج العقارى بعد أن تضاءلت وظائفهم التقليدية ·

كما يهز الاقتصاد فوق الرمزى وانتشار الذكاء الاضافى بقسوة قطاع النقل أيضا ـ السكك الحديدية والتجهيزات البحرية وشركات النقل البرى · وتحاول العديد من شركات النقل البرى التماس سبيل للنجاة فى الشبكات الالكترونية ، على غرار شركات المستودعات ·

وفى اليابان ، يؤدى تقدم الانتاج فى مجموعات صغيرة وزيادة الطلب على التسليم فى ساعات محددة بدقة الى نمو كبير فى عمليات النقل لمسافات قصيرة ، فبدلا من شحنات أسبوعية كبيرة بدأ الاتجاه الآن الى شحنات متكررة ولكن لمسافات أقصر ، وتشهد عمليات النقل من الباب الى الباب نموا ملحوظا عن غيرها ·

والحقيقة ، أن كل قطاعات الانتاج التقليدية تتسلح الآن بالذكاء الاضافى ، سواء لكى تظل على قيد الحياة أو للهجوم بهدف زيادة سلطتها·

التعبئة من اجل الحرب الالكترونية :

عندما تعبىء قطاعات صناعية كاملة نفسها من أجل المعركة الكبرى ، فان الحرب الالكترونية تغير من نطاقها ومستواها ·

وتنطلق حاليا تجمعات واسعة من الشركات ، بالاضافة الى شركات مستقلة ، صوب انشاء شبكات الكترونية · وتتضح هذه الحقيقة بشكل خاص فى اليابان حيث تشجع وزارة التجارة الدولية والصناعة ـ الموجودة فى كل مكان ـ هذا الاتجاه بشدة ، فهى مثلا تدفع صناعة البترول للانتهاء من اقامة شبكة ستربط معامل التكرير بمنشآت التخزين وبتجار التجزئة · وبدأت بالفعل نظم ربط ذات قيمة مضافة تعمل فى فروع متنوعة مثل المنتجات المجمدة وزجاج النظارات والمعدات الرياضية ·

أما فى أستراليا ، فتتنازع شبكتان متنافستان من الشبكات ذات القيمة المضافة ، هما « وول كم » وشركة خدمات تالمان بتى ، العملاء من

سماسرة الصوف والمصدرين . وتعتزم هاتان الشبكتان ربط نشاطهما بشبكة التجارة الدولية « تريد جيت » وبنظام المقاصة « اجزت » الخاص بعمليات التصدير .

وفى الولايات المتحدة ، تبذل جهود مكثفة لاقامة شبكة عامة لايقتصر عملها على ربط منتجى النسيج مثل برلينتجتون بعملائهم ولكنها تربط صانعى الملابس الجاهزة أيضا بكبرى شبكات التوزيع مثل « وال ـ مارت » و « كيه ـ مارت » . ولضم أكبر عدد من الشركات لهذه الشبكة تقوم شخصيات كبيرة فى عالم الأعمال مثل روجر ميليكن ، رئيس ميليكن آند كمبانى ، بالقاء المحاضرات وتنظيم الندوات وتمويل الدراسات والتبشير فى كل مكان بمزايا الشبكات .

وكان بطء الاستجابة في مجال الملابس الجاهزة يمثل مشكلة دائمة نظرا للتغير السريع للموضة . وبالتالي يريد المعنيون اختصار المدة التى تفصل الطلب عن التسليم من عدة أسابيع الى عدة أيام ، وذلك باقامة اتصالات الكترونية معممة ، ابتداء من مصنع النسيج حتى خزينة تحصيل تاجر التجزئة . ان تسارع العمليات يمكن أن يؤدى الى خفض كبير جدا فى المخزون ، خاصة أن النظام الالكترونى يسمح لتاجر التجزئة أن يطلب كميات صغيرة ويتكيف مع أهواء الموضة ومع أذواق العملاء ، وذلك بأن يكرر طلب السلع التى تلاقى نجاحا ، بدلا من الاحتفاظ بمخزون يستنفد ببطء . ويذكر ميليكن مثال سلسلة من المحلات الكبرى زادت مبيعاتها من البنطلونات الرياضية بنسبة ٢٥ ٪ مع خفض مخزونها بنفس النسبة أيضا . وبالرغم من أن النظام لم يستكمل بعد فان النتائج مذهلة . لقد بدأت الحملة في عام ١٩٨٦ ، وفي عام ١٩٨٩ ـ وطبقا لما تذكره شركة آرثر اندرسون آند كمباني ـ استثمر ٧٥ من كبار تجار التجزئة حوالى ٣ر٦ مليار دولار فى شبكة « الاستجابات السريعة » وحققوا من خلالها أرباحا تقدر بحوالى ٩ر٦ مليار دولار .

ويعتقد ميليكن وآخرون أن هذا النظام سيتيح وفرا أعلى من ذلك بكثير بحيث يمكن أن يصبح سلاحا في الحروب التجارية الدولية . ويضيفون أنه اذا تم التوصل بسرعة الى فعالية كافية ، فان صناعات النسيج والملابس الأمريكية ستصبح فى وضع أفضل للدفاع عن نفسها ضد الواردات القادمة من البلاد ذات الأيدى العاملة الرخيصة .

وبينما يتعجل الجميع ، على صعيد الشركة أحيانا وعلى صعيد قطاعات واسعة أحيانا أخرى ، أن ينظموا أنفسهم من أجل المستقبل بخلق شبكات

بخاصة عالية التخصص ، فان عمالقة آخرين انطلقوا فى سـباق مختلف يتعلق هذه المرة باقامة نظم ذات توجه عام وشـامل لمعالجة كل أنواع الرسـائل ٠

ومعنى ذلك ، أننا نشهد ازدهار ونمو عدة أنواع متلازمة وفئات من الشبكات الالكترونية : شبكات خاصة موجهة فى المقام الأول للعاملين فى شركة واحدة وشبكات لتبادل البيانات بين شركة ما وعملائها ، وهم تجار التجزئة فى الغالب ، ونظم تغطى صناعة بأكملها ٠ ولكن يجب أن يضاف الى هذه الشبكات الآن الشبكات الشاملة ـ المسماة بأجهزة الارسـال العامة ـ والتى يتلخص دورها فى ربط النظم الأقل اتساعا فيما بينهـا وارسال رسائل لحساب الجميع ٠

ان حجم المعلومات والبيانات التى تعبر الآن هذا النظام الأخير من الضخامة بحيث بدأت حرب جديدة على صعيد أعلى بين الشركات الكبرى التى تريد أن تسيطر على أجهزة الارسـال العامة ذاتها ٠ فهنـاك عمالقة أمثال بريتيش تليكوم البريطانية و « ايه ٠ تى ٠ آند تى » الأمريكيـة و « كيه ٠ دى ٠ دى ٠ » اليابانية يبذلون كل ما فى وسعهم لزيادة قدرة وكفاءة الارسال وسرعة التنفيذ ، ومما يزيد الأمر تعقيدا أن الشركات الكبرى التى تملك شبكات خاصة واسعة تبيع الخدمات لشركات أخرى منافسة ٠ فعلى سبيل المثال تتنازع شركات آى ٠ بى ٠ ام وتويوتا قطاعا من العملاء كان من الطبيعى أن يلجأ الى شركات الهاتف القديمة ٠ كما تمد جنرال الكتريك شبكتها الى ٧٠ بلدا ، وتستخدم بنيتون هذه الشبكة لربط مقرها الايطالى بـ ٩٠٪ من وكلائها الموزعين فى أنحاء العالم ٠

ان هذا النظام الجديد تماما الذى تتشكل فئاته وطبقاته المتراكبة أمام أعيننا ، سيمثل البنية التحتية لاقتصاد القرن الواحد والعشرين ٠

المستهلك فى دائرة مغلقة :

وتثير هذه التطورات صراعات جديدة من أجل السيطرة على المعرفة والاتصالات ، وهى صراعات تؤدى الى عملية انتقال للسلطة بين أفـراد وشركات وفروع اقتصادية وقطاعات كبرى ـ وأخيرا بين الدول ٠ غير أن « تزويد الاقتصاد بجهاز عصبى » أمر لايزال فى بداياته ، ويدخل الحلبة كل يوم لاعبون جدد متلهفون الى السلطة ٠ ومن ضمن هؤلاء نجد شركات بطاقات الائتمان والشركات التجارية اليابانية الكبرى ومنتجى المعدات ٠

ففى النظام الذى يتشكل الآن ، تحتل البطـاقة البلاستيكية التى يحتفظ بها المستهلك فى محفظته موقعا حاسما ٠ وسواء أكانت البطاقة

مزودة بنظام محاسبة أتوماتيكي أم بطاقة ائتمان تقليدية ، فانها جميعا تمثل حلقة الوصل بين الشبكة والفرد ــ وهى حلقة يمكن مبدئيا تعزيزها وتوسيعها ٠

فكلما توغلت البنوك والشركات البترولية وحتى تجار التجزئة فى عالم الالكترونيات ، وكلما تضمنت البطاقات ذات الذكاء المتزايد قدرا أكبر من المعلومات وقامت بنقلها ، وكلما قل ارتباط النقود ذاتها بالمعدن أو الورق وأصبحت تدريجيا فائقة الرمزية ، فان البطاقة تفرض نفسها على أساس أنها الحلقة المكملة والأساسية للنظام الذى يتشكل حاليا ٠

ان الذى يسيطر ويتحكم فى البطاقة ــ سواء أكان بنكا أم أحد منافسيه ــ يمسك بوسيلة نفيسة للوصول الى الحياة الأسرية الخاصة واليومية للمستهلكين ، ولذلك يرتسم اتجاه يحاول ادخال العملاء فى مدار الشبكات المتخصصة ٠ على سبيل المثال ، تصدر حاليا الشركة اليابانية لبطاقات الائتمان جيه ٠ س ٠ بى كمبانى ، بمعاونة ان٠تى٠تى٠ داتاكوميونيكيشن بطاقة تستخدمها السيدات لدى مصففى الشعر ٠ وتأمل هذه الشركة أن يكون لديها خلال عامين من الآن عشرة ملايين من حاملات هذه البطاقة يتعاملن مع ٣٥ ألف صالون لتصفيف الشعر ٠

وعلى المدى الطويل ، يتلخص حلم بناة الشبكات فى العالم كله ، فى تحقيق دائرة مغلقة متكاملة ، بحيث تنتقل النبضة الصادرة من المستهلك (الذى يبلغ الشركات الكترونيا بالأشياء أو الخدمات المطلوب انتاجها) الى المنتج ، مرورا بتجار الجملة أو أى وسطاء آخرين ، ثم الى تاجر التجزئة أو الى الخدمة الالكترونية للبيع فى المنازل ثم الى ماكينة المحاسبة الأتوماتيكية أو نظام الدفع بواسطة بطاقة الائتمان ــ لكى تعود النبضة مرة أخرى فى نهاية المطاف الى المستهلك ٠

ان أية شركة أو مجموعة اقتصادية ستتمكن من تأمين سيطرتها على المراحل الأساسية لهذه الدورة ، ستملك على الفور سلطة اقتصادية حاسمة ــ وبالتالى سلطة سياسية كبيرة ٠ ولكن يتوقف النجاح فى هذا المجال على الذكاء أكثر منه على رؤوس الأموال ، والذكاء المقصود هنا هو ذلك الذى تتضمنه أجهزة الكمبيوتر والبرامج الاعلاماتية والشبكات الالكترونية ٠

حرب الأعمال الخاطفة :

لقد قامت اقتصاديات الماضى ، سواء أكانت زراعية أم صناعية ، على أساس هياكل طويلة الأجل ٠

وهو نقيض ما يحدث الآن ، حيث نضع أساسات اقتصاد مشكالى(*) فى حالة تسارع دائم وقادر فى كل لحظة على اعادة توزيع عناصره طبقا لنماذج جديدة دون أن يتفكك من جراء ذلك • ويعتبر التقدم فى مجال الذكاء الاضافى جزءا من الأدوات التى لا غنى عنها لهذا التكيف المستمر •

وفى ظل هذا التطور ، حيث يصعب تحديد الوجهـــة ، تستطيع الشركات أحيانا استخدام الذكاء الاضافى لتوجيـــه هجمات مباغتة على ساحات جديدة تماما بالنسبة لها : بمعنى آخر لم يعد أحد يستطيع أن يوقن من أى جانب سيأتى الهجوم التنافسى المقبل •

المثال التقليدى للحرب الخاطفة ـ الذى تناولته النشرات المتخصصة بتعليقات مستفيضة ـ هو ابتكار « ميريل لينش » فى عام ١٩٧٧ لنوع جديد من الحسابات أطلق عليه « حساب ادارة النقد » ، وكان يمثل أحد أول تطبيقات تكنولوجيا المعلومات على هدف استراتيجى وليس على هدف ادارى فحسب •

وكان هذا الحساب ابتكارا ماليـــا جديدا يمنح العميل توليفة من أربع خـدمات كانت من قبل منفصلة وهى حســاب جار وحســاب وديعة بفوائد وبطاقة ضمان وحساب سندات • بحيث يستطيع العميل ، فى أى وقت ، ان ينقل نقوده من خانة الى أخرى ، ومعنى ذلك أنه لم يعد هناك مهلة « تعويم » ، كما أصبح الحساب الجارى ذاته يحقق فوائد •

ان تكامل ودمج هذه الخدمات التى كانت حتى ذلك الوقت منفصلة عن بعضها لم يكن ممكنا الا بفضل التقنيات المعلوماتية المتطورة والشبكات الالكترونية التى تملكها ميريل لينش • وخلال عام واحــد تلقت الشركة ودائع قيمتها خمسة مليارات من الدولارات • ويقول المستشار بيتركين ان مجموع المبالغ التى أودعها العملاء فى عام ١٩٨٤ كان ٧٠ مليار دولار • وقد وصف كين العملية بأنها « هجوم وقائى » ضد البنوك التى عانت من عمليات سحب مكثفة لصالح هذا الحساب الجديد الذى اعتبره العملاء أفضــل بكثير من الحساب المصرفى العادى • ان شركة ميريل لينش ، من الناحية الرسمية ، شركة سمسرة للأوراق الماليـــة ، وبهذه الصفة تخلصت من اللوائح والقوانين البنكية ، وباعتبارها ليست بنكا شنت غـارة مدمرة ضد البنوك •

(*) نسبة الى المشكال ، وهى آلة أنبوبية تحتوى على مرايا مركزة بحيث عندما تتحرك الأشياء الصغيرة الملونة الموجودة معها فى الأنبوب تولد رسوما مختلفة الأشكال والألوان •

منذ ذلك الحين ، قدم عدد من البنوك ومؤسسات مالية أخرى توليفات مماثلة ، ولكن ميريل كان لها السبق لعدة سنوات ٠

ان المجالات الجديدة والغريبة لهذا التنافس الذى لايرتبط بقواعد محددة ، سمح مثلا لتجار تجزئة مثل مجموعة سايبوسيزون اليابانية أن تدخل فى مجال أنشطة الخدمات المالية ، حيث يستعد أحد فروع هذه المجموعة لتركيب أجهزة توزيع نقود فى محطات القطارات ٠ ونجد شركة بريتيش بتروليوم ، بعد أن أسست بنكها الداخلى تبيع حاليا منتجات مصرفية فى الخارج ، وهو ما يعكس عملية التغيير فى بنية الأسواق والتى نجمت عن ظهور الذكاء الاضافى ٠

ومن خلال هذا المنظور ، تساهم الشبكات ذات الذكاء الاضافى فى تفسير العمليات التى نشاهدها لتحرير الاقتصاد من اللوائح والقيود ، والتى تبعث آثارها الأولى على التفكير بأن التقنين الحالى الذى تقوم به الدولة سيبدو أقل فاعلية بشكل مضطرد ، لأنه يعتمد على تصنيفات وتقسيمات بين القطاعات يعمل الذكاء الاضافى حاليا على الغائها ٠ على سبيل المثال هل يجب أن ينطبق التشريع المصرفى على المؤسسات غير المصرفية ؟ ولكن ، ما هو البنك حاليا ؟ ٠

ان الشبكات ذات الذكاء الاضافى تحطم التخصصات القديمة وتدمر تقسيم العمل التقليدى ، وذلك بتأمينها اضطراد وتسلسل العمليات الحقيقية بما يتجاوز الحدود القديمة للشركات وبمنحها هذه الشركات ، امكانية التصدى لمجالات كانت تعتبر فى السابق غريبة عنها ٠

وبدلا من هذه الهياكل التى تجاوزها الزمن ، نشهد الآن تكوين مجموعات وتجمعات جديدة لم يعد المال هو وحده الرابط الجوهرى بينها ولكن تقاسم المعلومات ٠

ومن سخريات القدر ، أن الانقلاب الناجم عن اعادة بناء الاقتصاد العالمى على أساس المعرفة ، هو بالذات الذى يفسر لدرجة كبيرة أوجه القصور والشلل الحالية – فواتير تائهة وأخطاء الكمبيوتر وخدمة لا تفى بالغرض ، مع الاحساس المتكرر بأنه لايوجد شىء يعمل بشكل صحيح ٠ الحقيقة ، أن الاقتصاد الصناعى القديم يتفكك بينما لايزال الاقتصاد فوق الرمزى الجديد فى مرحلة البناء ، والبنية الأساسية الالكترونية التى يعتمد عليها لاتزال تخطو خطواتها الأولى ٠

ان المعلومات أكثر الموارد سيولة ، وهذه السيولة هى بالذات العلامة المميزة لاقتصاد يتزايد فيه اعتماد انتاج وتوزيع السلع والخدمات بشكل عام (منتجات غذائية ، طاقة) على التبادل على المستوى الرمزى ؛

ويشبه التنظيم الجديد النظام العصبى أكثر من أى شىء آخر ، ولكنه يعمل طبقا لقواعد لم يتمكن أحد حتى الآن من صياغتها بشكل مترابط .

ففى الواقع يطرح النمو غير المسبوق للذكاء الاضافى على المجتمع كله أسئلة أساسية ومحيرة أحيانا ، وهى فى جميع الأحوال أسئلة مختلفة تماما عن تلك التى أثارتها ثورات المعلومات الأخرى .

نحو احتكارات المعلومات ؟

بمقدور الذكاء الاضافى أن يتيح للاقتصاد أن يتخلص من الدهون الزائدة التى لا فائدة منها ومن عناصر أخرى ضارة وذلك بدرجات وكميات لاتحصى ، وبهذه الصفة ، يفترض أنه يتضمن وعدا بتقدم ضخم وسريع ـ وبمستقبل لا يحل فيه النشاط الذهنى والخيال محل رأس المال والطاقة والموارد التقليدية فقط ، ولكن أيضا محل الأعمال المنهكة .

ولكن هل سيمنحنا الذكاء الاضافى طريقة حياة « أفضل » ؟ تتوقف الاجابة فى جزء كبير منها على الذكاء الاجتماعى والسياسى الذى سيتعامل به المجتمع فى توجيه تطور الذكاء الاضافى .

فكلما زادت أتوماتيكية شبكاتنا ، ضمت مزيدا من الذكاء الاضافى وتوارت عمليات القرار الآدمى وأخضعتنا جميعا لأحداث سابقة البرمجة تعتمد على تصورات وافتراضات بمقدور القليلين منا فقط فهمها ، بل وأحيانا لايفصح المسئولون الأصليون عنها الا بتحفظ .

فقبل مرور وقت طويل ستضاعف فجأة الابتكارات المدهشة ، مثل المعالجة المتزامنة والذكاء الاصطناعى من قوة أجهزة الكمبيوتر . كما سنشهد الاستخدام الفعلى للتعرف على الصوت ومماثلته والترجمة الأتوماتيكية وكذلك الصورة شديدة الوضوحية والصفاء الصوتى المطلق . وبالتالى ، ستنقل الشبكات المشتركة بشكل عادى للغاية الكلمة والصورة مع البيانات والمعلومات بكل أشكالها ، وكل ذلك يطرح قضايا أخلاقية خطيرة .

وبالنسبة للبعض ، فان نظام احتكار المعرفة يعلن بذلك عن وصوله. ففى مرحلة سابقة من نمو الاقتصاد الرمزى كتب البروفسير فردريك جامسون ، من جامعة ديوك ، يقول : « ستأتى لحظة الحقيقة (...) عندما تطرح بكل عنف ، قضية ملكية بنوك المعلومات الجديدة والسيطرة عليها » . ومضى جامسون فى تحذيره الى ذكر شبح « احتكار خاص للمعلومات العالمية » .

وحاليا ، تبدو مثل هذه المخاوف تبسيطية · فلم تعد المشكلة هى معرفة هل سيسيطر احتكار ما على كل المعلومات ـ وهو ما يبـــدو بعيد الاحتمال ـ ولكن معرفة من الذى سيسيطر على السلسلة اللانهائية من « التحويلات » و « اعادة التحويلات » التى أصبحت ممكنة بفضل الذكاء الاضافى والتى تستطيع التأثير على البيـــانات ومختلف المعلومات ، أى اجمالى المعرفة المنقولة عبر النظام العصبى للاقتصاد فوق الرمزى ·

وسوف يتعين على الشركات والمجتمع فى اجمـــاله أن يواجه قريبا تساؤلات جديدة ومحيرة عن الاستخدامات الجيدة والسيئة للمعرفة · ولن يتعلق الأمر هنا بالحقيقة كما عرفها بيكون والتى تعتبر أن المعـرفة سلطة وانما بتلك الحقيقة الأعلى فى ظل الاقتصاد فوق الرمزى والتى تعتبر أن المعرفة « عن » المعرفة أهم من المعرفة ذاتها ·

الفصل الثاني عشر

اتســاع الصراع

المظلة والسيارة شيئان مختلفان • وسبب الاختلاف لا يقتصر على ابعادهما ووظيفة كل منهما وسعرهما ولكن هناك سببا آخر نادرا ما نأخذه في الاعتبار • اذ يمكن استخدام المظلة دون شراء اى شيء آخر غيرها ، على عكس السيارة فانه لا نفع لها بدون وقود وزيت وصيانة وقطع غيار ، وذلك بغض النظر عن الشوارع والطرق • تبدو المظلة المتواضعة كشخص خشن ولكنه مستعد دائما لتقديم خدماته لمالـكه دون الحـاجة الى اى منتج تكميلى •

لا تستطيع السيارة القوية أن تلعب الا ضمن فريق ، فهى تعتمد على مجموعة من الأشياء الأخرى • وينطبق الشيء نفسه على موسى الحـلاقة وجهاز التسجيل أو الثلاجة ، والعديد من الأشياء التى لا تعمل الا بالتعاون مع أشياء أخرى فجهاز التليفزيون كان سيكتفى بتأمل قاعة المعيشة بنظرة فارغة ، اذا لم يكن هناك فى مكان ما شخص يرسل له الصور • وشماعة الملابس المتواضعة تفترض مسبقا وجود مسمار على هيئة خطاف أو حلقة أو قضيب معدنى •

كل هذه الأشياء تكون جزءا من « نظام » منتجات ، وطبيعتها كجزء من نظام ، هى بالضبط التى تعطيها الجزء الأكبر من قيمتها الاقتصادية • وكما يتعين على لاعبى أى فريق أن يلتزموا ببعض القواعد القائمة فان هذه المنتجات لا تستطيع بدورها الاستغناء عن المعايير والضوابط • المقبس

الكهربى (الكبس) ذو الأسياخ الثلاثة يصبح عديم الجدوى اذا كانت المقابس فى البيت ذات ثقبين فقط ٠

ان التمييز بين نوعى الأشياء يسمح بتوضيح مسألة لازالت أهميتها تلهب الصراعات الدائرة على كوكب الأرض من أجل المعلومات ، والتى يشير اليها الفرنسيون باسم « حرب المعايير » ٠ هذا النوع من الصراعات ينشب فى قطاعات مختلفة ومتنوعة مثل التكنولوجيا الطبية أو الأجهزة الفوتوغرافية أو الخزانات الصناعية المضغوطة ٠

وفى هذا المجال ، نجد أن بعض الخلافات الأكثر عنفا ـ والأكثر ذيوعا ـ ذات صلة مباشرة بوسائل خلق وتوزيع البيانات والمعلومات بشكل عام ، والصور وبرامج الترفيه والمعرفة ذاتها ٠

وان كانت المعركة تتناول مصالح مالية وسلطات سياسية كبيرة ، فانها تعنى أيضا ملايين وملايين الأسر ٠ وستغير نتيجتها بشكل جذرى علاقات السلطة بين عمالقة صناعيين عالميين مثل « آى ٠ بى ٠ ام » و « ايه ٠ تى آند تى » و « سونى » و « سيمنز » ٠ فضلا عن أنها ستؤثر على الاقتصادات الوطنية ٠

ولكن أكثر السمات المعروفة للجمهور ، هو الصراع الثلاثى الذى يتناول نوع التليفزيون الذى سيشاهده العالم كله خلال العقود القادمة ٠

رهان على ١٥٠٠ مليار دولار :

هناك ثلاثة نظم للتليفزيون يتم استخدامها حاليا فى مختلف أنحاء العالم ، ألا وهى « سيكام » و « بال » و « ان ٠ تى ٠ اس ٠ سى » ، وان كانت هذه النظم لا تختلف كثيرا فيما بينها ، الا أنها متعارضة ، ولا تصلح أن يحل أحدها محل الآخر ٠ وبالتالى فان بث برنامج أمريكى مثل ال « كوسبى شو » فى الخارج يقتضى تحويله طبقا لمتطلبات نظام آخر ٠ ولكن كل هذه الأنظمة الثلاثة تعطى صورا غير واضحة ومهتزة ، بالمقارنة بصور الطريقة المعروفة باسم « اتش ٠ دى ٠ تى ٠ فى » ـ أى « التليفزيون ذو الوضوحية العالية » ـ والذى يمثل تليفزيون الغد ٠

ويعتبر « التليفزيون ذو الوضوحية العالية » بالمقارنة بالشاشات العائلية الحالية ، مثل الاسطوانة « المدمجة » (كومباكت ديسك) بالنسبة للتسجيلات النشاز التى كانت تذيعها جرامافونات جدة الجدة ٠ اذ يمكن أن تضاهى نوعية الصور المنقولة عبر التليفزيون الجديد نوعية أفضل الأفلام المعروضة على الشاشة الكبيرة ٠ حيث ، سيقوم الكمبيوتر المستقبل لها باعادة تكوينها حتى تنبثق من الشاشة بكل بريق ووضوح الصفحة المطبوعة بأرقى مستويات الطباعة ٠

لقد أشار مل ليفين عضو الكونجرس فى شهادة له أمام اللجنة الفرعية للاتصالات اللاسلكية بمجلس النواب الأمريكى الى أن « التليفزيون ذا الوضوحية العالية » بالرغم من اسمه فانه سوف يستخدم فى مجالات أخرى بالاضافة للترفيه • وأضاف مؤكدا أن هذا التليفزيون « يمثل جيلا جديدا من المعدات الالكترونية ذات الاستهلاك الكبير التى ستثير تطورات تكنولوجية فى عشرات المجالات ، بدءا من الرقائق الالكترونية الى الألياف الضوئية والمراكم والتصوير الضوئى » •

ونظرا لأن نوعية الصور ذات الوضوحية العالية متميزة فمن الممكن ان تتيح لدور السينما فى العالم أجمع أن تستقبل عروضها عن طريق الأقمار الصناعية بدلا من شكل الأفلام القائم حاليا • وفى هذه الحالة سيتم فتح سوق اضافية ضخمة لهوائيات الاستقبال ومنتجات أخرى •

اجمالا ، فان اختيار نظام الوضوحية العالية (أو النظم) سيحدد اطار سوق عالمى يقدر بـ١٥٠٠ مليار دولار •

ويعمل المهندسون اليابانيون فى هذا المجال منذ حوالى عشرين عاما ، بحيث أصبحت الوضوحية العالية جاهزة حاليا للظهور على الساحة الاقتصادية العالمية • وكتب برنارد كاسين فى صحيفة «لوموند ديبلوماتيك» يقول : « فى هذه اللحظة يهدد اليابانيون والأمريكيون بجعل كل أجهزة الاستقبال التليفزيونى الأوروبية لا قيمة لها ــ وبأن يكونوا وحدهم القادرين على استبدالها » •

كان اليابانيون يأملون أن يتبنى العالم معيارا أو نظاما واحدا ، الأمر الذى كان سيسهل المشكلة ويوفر لهم الكثير من المال • فلو أنهم تمكنوا من بيع نظامهم كمعيار دولى فان التقدم الذى يملكونه كان سيفتح لهم الطريق لتوسع وازدهار مكثف لصناعتهم للمنتجات الالكترونية « الموجهة للجمهور العريض » •

ولدفع هذه الهجمة ، اتفقت حكومات وشبكات تليفزيون أوروبية (فى كثير من الأحيان تتطابق هذه الشبكات مع الدول) على التمسك بمعايير لا تتوافق مع النظام اليابانى ــ آملين بذلك منح صناعييهم الوقت لتعويض تأخرهم • بحيث تستطيع أوروبا بعد ذلك ادخال الوضوحية العالية على مراحل •

ولقد بدأت ٣٢ شبكة تليفزيونية وجامعة وشركة صناعية أوروبية ــ تجمعت على عجل فى اطار مشروع يوريكا ٩٥ ــ فى دراسة مجموعة كاملة من تقنيات الوضوحية العالية التى يجب أن تغطى كل المجالات ،

ابتداء من استوديوهات الانتاج حتى أجهزة الاستقبال مرورا بمعدات الارسال · وتولت شركة طومسون الفرنسية مسئولية تنسيق الأبحاث الخاصة بالمعايير المطبقة على انتاج الصور ، وركزت بوش الألمانية على معدات الاستوديو وثورن/ايمى البريطانية على أجهزة الاستقبال ·

وفى الوقت نفسه ، بدأ الأوروبيون التودد للولايات المتحدة · وطار كريستيان شوارز ـ شيلينج ، وزير البريد والاتصالات اللاسلكية فى ألمانيا الغربية (آنذاك) لواشنطن حيث اقترح عقد تحالف طبقا للأصول الواجبة وأكد الموقف الأوروبى قائلا : « يتعين ألا نسمح لليابان بأن تحقق التفوق بالنسبة لمعايير الجيل القادم · وعندئذ ، شن الصناعيون اليابانيون بدورهم حملة قوية فى الولايات المتحدة ضد النظام الأوروبى المنافس ، خشية أن يحقق الأوروبيون ونظامهم للوضوحية العالية نجاحا استراتيجيا وذلك بالقيام بهجوم مضاد فى الأسواق الأمريكية والأسواق اليابانية ذاتها فى آن واحد · وفى ظل هذا الوضع الذى يتميز بالتشكك وعدم اليقين ، يستعد اليابانيون بهدوء لتسويق أجهزة متنوعة فى مختلف أنحاء العالم · ويشكل ذلك خط التراجع بالنسبة لهم فى حالة عدم تمكنهم من فرض معيار وحيد ·

وفى الولايات المتحدة يسود نفس مناخ التشكك والارتياب الاقتصادى حيث تغوص مشكلة الوضوحية العالية فى مناقشات وجدل تقنى ينم عن مغالاة فى التدقيق وفى منازعات سياسية ومنافسات تجارية ·

فشبكات التليفزيون الأمريكية الثلاث الرئيسية ترغب فى ابطاء ادخال الوضوحية العالية ، وتقترح نظاما خاصا للولايات المتحدة يمكنه نقل البث من النوع العادى والصور الجديدة فى آن واحد · وعلى العكس ، تعتقد شبكات الكابلات والبث المباشر عبر الأقمار الصناعية أن هذا المعيار الأمريكى الوحيد سيصيب بالشلل الأبحاث الخاصة بتحسين البث بواسطة الكابل أو الأقمار الصناعية ·

وفى الوقت نفسه ، يريد الكونجرس التأكد من أن أجهزة الاستقبال التليفزيونى الجديدة التى ستوجد اليوم أو غدا فى المنازل الأمريكية ستأتى من مصانع أمريكية · يقول عضو الكونجرس ادوارد · جيه · ماركيى : « لقد حققت الشركات اليابانية والأوروبية تقدما كبيرا فى الوقت الحالى بالنسبة لمثيلاتها الأمريكية [···] ، بينما صناعتنا الوطنية للمعدات الالكترونية الموجهة للجمهور الكبير فى حالة احتضار » ·

وفى السنوات القادمة ، ستزداد شدة حرب التليفزيون وسط الاتهامات المتبادلة « بالنزعة التكنو ـ قومية » · ولكن بالتوازى مع هذا

الصراع الذى يزداد قسوة ، يدور الآن صراع آخر يراهن على مستقبل الكمبيوتر ٠

معايير استراتيجية :

فى عصرنا ، يجبر الايقاع المجنون للابتكارات أصحاب المصانع على اختيار استراتيجية ما ٠ فاما أن يخترعوا ويفرضوا معاييرهم فى مجالهم ، واما أن ينقادوا الى منتج آخر ويتبنوا معاييره ـ أو يتركوا أنفسهم الى نوع من «سيبريا» تجارية ، حيث لن تجد منتجاتهم سوى استخدامات وسوق محدودة للغاية ٠

منذ بدايات صناعة الكمبيوتر ، ظلت « آى٠بى٠ام » القوة المسيطرة عليها ٠ وكانت أول شركة تتولى تركيب وحدات مركزية فى ادارات ومكاتب الشركات الكبرى ، وخلال عشرين عاما تقريبا لم تواجه سوى منافسة ضعيفة ٠ تفتقر الى حسن التنظيم ٠

ويمكن ارجاع هذا النجاح الضخم ، بدرجة كبيرة لحقيقة أن آى ٠ بى ٠ ام ٠ عرفت منذ البداية أن تصمم معيارا للتشغيل الداخلى لآلاتها وتفرض هذا المعيار ٠

ففى البداية كانت المعدات هى الأهم ، ولكن اتضح تدريجيا أن البرامج المعلوماتية تمثل فى كل نظام معلوماتى العنصر الأكثر أهمية ٠ وان « برامج التطبيق » تعطى الآلة التعليمات التى تسمح لها بانجاز مهام المحاسبة أو معالجة النصوص أو الطبع أو عرض الرسوم البيانية أو الاتصال ٠ ولكن كل كمبيوتر كان يتضمن برنامجا أساسيا يعرف باسم « نظام التشغيل » وهذا النظام يحدد أنواع البرامج الأخرى التى يستطيع تنفيذها ٠

ان البرامج هى مفتاح السلطة فى الصناعة المعلوماتية وبدونها تظل الأجهزة لا حراك فيها وغير قابلة للاستخدام ٠ ولكن مفتاح السلطة على البرامج هو « نظام التشغيل » ٠ وأداة السيطرة القصوى ـ مفتاح السلطة على نظم التشغيل تكمن فى المعايير التى تخضع لها هذه النظم ذاتها ٠ وبالسيطرة على هذه المعايير ، أصبحت آى ٠ بى ٠ ام٠ القوة العظمى لعالم الكمبيوتر ٠

ولكن بالرغم من جهودها ، فان نظما أخرى رأت النور مثل يونيكس الذى قدمته في الأصل ايه٠تى٠ آند تى ٠ بالاضافة الى العديد من البدائل لكلا النظامين ٠ وعندما أحدثت آبل فى منتصف السبعينات ثورة

الميكروكمبيوتر فانها قررت بحسم بناء أجهزة لا تتوافق مع أجهزة آى · بى · ام · وذلك باختيار نظام تشغيل مختلف ·

ولقد بدأ الآن صراع حتى الموت على المستوى العالمى ، بين آى·بى·ام· ومنافسيها الأساسيين من أجل تحديد معايير لنظم تشغيل المستقبل · وتدور المعركة ، فى جانب كبير منها ، فى المجال التقنى حيث يقف خبراء فى مواجهة آخرين · غير أن المراهنات تتجاوز بكثير المصالح المرتبطة مباشرة بانتاج أجهزة الكمبيوتر ، فالمسألة بالنسبة للدول تقتحم مباشرة خططها للتنمية الاقتصادية ·

ولما كانت آى· بى· ام· لا تزال تتمتع بموقع مسيطر يضطر معه المستخدمون والمنافسون على حد سواء الى أن يأخذوا فى الاعتبار نظم التشغيل الخاصة بها ، فلقد تكونت منظمة تحمل اسم اكس/اوبن مقرها لندن ، تهدف الى اقامة معيار لنظم التشغيل الخاصة بالمينى كمبيوتر ومحطات العمل والكمبيوتر الشخصى ــ وهى مجالات جديدة نسبيا وتعتبر فيها آى · بى · ام · أقل قوة · ولقد قام بتأسيس هذه المنظمة كل من ايه·تى· آند تى وديجيتل ايكويبمنت وشركة سيمنز الألمانية ثم انضمت اليهم بعد ذلك فوجيتسو اليابانية · وكل هذه الشركات تطالب بمعيار « مفتوح » لايمثل عائقا للمعدات والأجهزة التى ليست من انتاج آى · بى · ام ·

ومنذ ذلك الحين والضغط الممارس على آى·بى·ام·أصبح قويا لدرجة أن الشركة وجدت نفسها مضطرة للانضمام للمجموعة ولأن تتعهد بممارسة سياسة « انفتاح » فى المستقبل ·

وحتى قبل أن تستشعر كل آثار هذا الفشل ، اضطرت آى·بى·ام· الى مواجهة تحد آخر ، جاء هذه المرة من ايه·تى· آند تى· فمنذ الستينات أعد مهندسو ايه·تى· آند تى · نظام تشغيل اسمه يونيكس للاستخدام الداخلى للشركة · وكان يونيكس يملك سمات جعلته مفيدا للجامعات وبعض صغار منتجى أجهزة الكمبيوتر · وبما أن ايه·تى· آند تى · لم تكن دخلت بعد مجال انتاج أجهزة الكمبيوتر فقد تركتهم يستخدمون نظامها مقابل مبالغ زهيدة · وأعد المستخدمون بدورهم نسخهم الخاصة من يونيكس · ولقى النظام تقديرا متزايدا · وتبيع حاليا شركة صن ميكروسيستم أجهزة تتضمن هذا النظام فى سوق محطات العمل المعلوماتى الذى يعيش مرحلة ازدهار ·

وبمناورة استراتيجية ماهرة ، سارعت ايه·تى· آند تى· بشراء جزء من رأسمال صن ثم تحالفت مع زيروكس ويونى سيستم وموتورولا وآخرين بهدف خلق معيار يونيكس عام تحت قيادتها ·

ومع تزايد شهرة معيار يونيكس ودعم ايه٠تي٠ آند تي٠ له ، أصبح يهدد بشكل مباشر تفوق آي٠ بي٠ ام٠ وصناع آخرين كانوا قد خلقوا أنظمة تشـــغيل خاصة بهم ٠ وبعد أن تحولت مؤخرا الى سياســـة « الانفتاح » فى مجال النظم قامت آي٠ بي٠ ام٠ بهجوم مضاد ٠

وكان الخطر أن تظهر النسخة الموحدة ليونيكس على معدات وأجهزة ايه٠تي٠ آند تي٠ قبل كل الآخرين ٠ وكان رد فعل آي٠بي٠ام٠ أن كونت تحـــالفها الخـــاص ٠ وهو مجمـــوعة « أوبن سوفت وير فاونديشن » (« مؤسســة البرامج الاعـــلاماتية المفتـــوحة ») التى تضـــم حاليـــا « دي٠ ايه٠ سي » و « بل » الفرنسية وسيمنز ونيكسدورف الألمانيتين وعددا كبيرا من الشركات الأخرى ٠ ويعمل هذا التجمع حاليا لتجهيز معياره الخاص الذى سيكون قادرا على مواجهة يونيكس ٠

المباراة الرئيســـية :

احدى الوظائف الرئيسية الآن لأجهزة الكمبيوتر تكمن فى أن تتكلم هذه الأجهزة فيما بينها ، وهي تعتمد في الواقع على ارتباطاتها لدرجة أن أصبح الكمبيوتر والوصلات الخاصة به كلا غير قابل للتجزئة ٠

وبالتالى ، يتعين على منتجي الكمبيوتر أن يدافعوا ليس فقط عن أنظمة التشغيل الخاصة بهم ولكن أيضا عن نفاذهم الى شبكات الاتصالات اللاسلكية أو سيطرتهم عليها ٠ واذا كانت النظم تعطى سلطة على ما يدور داخل أجهزة الكمبيوتر ، فان معايير الاتصالات اللاسلكية تمنح سلطة على ما يدور « بين الأجهـــزة وبعضها البعض » (فى الحقيقـــة ، أن التمييز ليس بهذا الوضوح ولكنه كاف بهذا الشكل لهدفنا الراهن) ٠ وهنا أيضا ، نرى الشركات الكبرى والدول مشتركة فى معركة قاسية من أجل السيطرة على القنوات الرئيسية للمعلومات ٠

ان قدرا متزايدا من البيانات والمعلومات والمعرفة يعبر الحـــدود الوطنية ومن ثم فمن الحتمى أن تكون حرب الاتصالات اللاسلكية أحفل بالعواقب والآثار السياسية من حرب نظم التشغيل ٠

وقد أعدت جنرال موتورز معيارا خاصا للربط بين كل عناصر جهاز انتاجها ، وهـــذا المعيار يجب أن يسمح لمعـــداتها المعلوماتية أن تتصـــل فيما بينها حتى وان كانت واردة من منتجين مختلفين ٠ وأطلقت على هذا المعيار اسم « بروتوكول من أجل أتمتة الانتاج » ٠ وحاولت أن تجعل رجال صناعة آخـــرين يتبنـــونه فى العالم كله كمـــا يتبنـــاه الموردون الخاصون بها ٠

وردا على هذا الهجوم ، أقنعت الجماعة الأوروبية ثلاثين من أكبر الشركات ، منها « بى٠ام٠دبليو » و « أوليفتى » و « بريتش ايرو سبيس » و « نيكسدورف » بمساندة معيار ـ مضاد سمى « س٠ان٠ام٠ايه » ٠ وبدا كأن الجماعة الأوروبية تؤكد أنه اذا كان على الآلات الأوروبية أن تتحاور فيما بينها فلن يكون ذلك طبقا لشروط حددتها جنرال موتورز ـ أو الولايات المتحدة ٠

غير أن المعركة القائمة على مهل فى مجال الاتصالات الالكترونية الصناعية لا تمثل سوى جزء من صراع شامل للسيطرة على الشبكات ذات الذكاء الاضافى على مستوى الكرة الأرضية ٠

فعندما بدأت الشركات اليابانية تربط نفسها بمكاتب ومصانع تنتشر فى العالم كله ، سارع جيش من الموردين لكى يبيعوا لها أجهزة كمبيوتر ومعدات الربط اللازمة ٠ وفى هذا المجال ، تظل التكنولوجيا الأمريكية أكثر تقدما عن مثيلتها اليابانية ٠ ومرة أخرى كانت آى٠بى٠ام ٠ أيضا فى وضع جيد جدا للقيام بهذا الدور ٠ ولكن وزارة البريد والاتصالات اللاسلكية اليابانية أعلنت حينذاك أن كل شبكة تربط اليابان بدول أخرى يجب أن تكون طبقا لمعايير تقنية أعدتها لجنة استشارية غامضة تابعة للأمم المتحدة ، مسئولة عن دراسة مشكلات الاتصالات اللاسلكية الدولية٠وكان هذا القرار كفيلا بمنع آى٠ بى٠ ام٠ من تركيب المعدات والنظم المصممة طبقا لمعاييرها الخاصة فى اليابان ٠ وأعقب ذلك ، حملات ضغط مكثفة فى واشنطن وطوكيو ومفاوضات بين حكومتى البلدين ، وتراجعت اليابان فى نهاية الأمر ٠

عندما كانت شركة واحدة أو وزارة تدير الشبكة الهاتفية فى كل دولة ، كان يوجد العديد من المعايير الوطنية بينما كان الاتحاد الدولى للاتصالات اللاسلكية يضع معايير أخرى للخطوط المشتركة ٠

وكانت الحياة بسيطة حينذاك ، الى أن جاء اليوم الذى أرادت فيه أجهزة الكمبيوتر أن تتحاور فيما بينها ٠

ففى عقد الثمانينات ، عندما ظهرت التكنولوجيات الجديدة بالجملة فى الأسواق ، كان لدى الشركات والأفراد أجهزة تضم أنظمة تشغيل مختلفة من انتاج العديد من المنتجين ، وكانوا يستخدمون برامج من مصادر متفرقة ويحاولون ارسال رسائل الى الطرف الآخر من العالم عبر شبكة مرتجلة للكابلات والبث عن طريق موجات متناهية القصر وأقمار صناعية تابعة لسلطات وطنية مختلفة ٠

ونجم عن ذلك برج بابل للالكترونيات ، وتجرى في الوقت الراهن محاولات لتطوير هذه الشبكة • وهذه المرة أيضا ، اتخذ الصراع الرئيسى شكل دعوى قضائية حيث تقف شركة آى • بى • ام فى مواجهة العالم كله •

لقد ساندت آى • بى • ام • منذ وقت طويل معيارا اسمه « هيكل شبكة النظم » • والمشكلة فى هذا المعيار هى أنه وان كان يسمح لأجهزة آى • بى • ام • أن تتحدث مع أجهزة أخرى آى • بى • ام • (ولكن ليس كلها • • •) فانه لا يستجيب بالمرة لنداءات عدد كبير من أجهزة كمبيوتر أخرى غير آى • بى • ام •

وكما كتبت « وول ستريت جورنال » ذات يوم فان « ربط أجهزة كمبيوتر مع هذه الشبكات دون استخدام « هيكل شبكة النظم » يمثل كابوسا للمبرمجين • وكان المنافسون الذين يبحثون عن بيع أجهزة الكمبيوتر التى ينتجونها لعملاء آى • بى • ام • يضطرون الى تقليد هذا المعيار فى أجهزتهم » • ان هذه السيطرة غير المباشرة على سبل الوصول للمعلومات أمر ربما كان يمكن قبوله وقت أن « كان » أغلب أجهزة الكمبيوتر من صنع آى • بى • ام ، ولكن هذا الوضع لم يعد قائما الآن • لذلك بدأت المطالبة بديمقراطية الكمبيوتر تشتد بقوة متزايدة •

ديمقراطية الكمبيوتر :

لقد رفضت الشركات الاستمرار فى الخضوع لسيطرة آى • بى • ام ، وبحثت طويلا عن السلاح الذى سيسمح لها بهزيمة « هذه الشركة » العملاقة واكتشفته فعلا •

وسلاح هذه الشركات الخطير هو معيار مضاد اسمه « ترابط الأنظمة المفتوحة » ، وهو يسمح بروابط مباشرة وبسيطة بين أجهزة الكمبيوتر من كل نوع • وحظيت « النظم المفتوحة » بمساندة نشطة من الصناع الأوروبيين مما اضطر آى • بى • ام الى التراجع : واضطرت الى التخلى عن سياستها المنغلقة •

وكان الموقف قد توتر فجأة فى عام ١٩٨٣ ، وهى السنة التى اتفق فيها حوالى ١٢ من المنتجين الأوروبيين ـ الذين أفزعتهم هيمنة آى • بى • ام ـ على القيام بالمهمة المعقدة بشكل لا يمكن تصديقه ، ألا وهى اعداد نظام مفتوح مزود بكل المواصفات التقنية الضرورية • وسارعت الحكومات الأوروبية ـ المدركة للآثار والعواقب المستقبلية لذلك ـ لمساندة هذه المبادرة •

وفى الجانب المقابل ، وفى مواجهة هذه التعبئة الموجهة ضـــد آى • بى • ام ، صاح العـم سـام ان هناك غشا وتدليسا • واتهم دونال ايلسون ، بمكتب التجارة الخارجية للولايات المتحدة بمجلس النواب ، الأوروبيين بممارسات تمييزية•وأكد ذلك قائلا : « يشك الأمريكيون[•••] أنهم هدف مؤامرة منظمة » •

ومن ذلك الحين ، اتسعت الحملة المضادة ل آى•بى•ام• واستفادت من دعم برنامج الجماعة الأوروبية للتقدم العلمى والتقنى « اسبريت » • وفى نهاية عام ١٩٨٦ قرر مجلس وزارة الجماعة الأوروبية أن مجمـوعة فرعية من الاختيارات التى أقرتها « الأنظمة المفتوحة للربط » ستمثـل المعيار الاجبارى لأجهزة الكمبيوتر التى تقتنيها دول المجموعة •

وردت آى•بى•ام بتقديم حل جديد سمى بشكل غامض « هيكل تطبيقات النظم » وهو يشتمل على نسخة من نظامها الخاص « هيكل شبكة النظم » ، وبعد ذلك تركت للعملاء الاختيار بين منتجاتها ومنتجات النظام المفتوح للربط الأوروبى •

ولكن فى مواجهة هذه المعارضة الضخمة سلمت الشركة مرة أخرى باتباع النصيحة القديمة القائلة : « اذا لم تتمكن من سحقهم فانضم اليهم » • وانضمت آى•بى•ام• الى مختلف التجمعات وتعهدت بدعم المعيار المفتوح من الآن فصاعدا • وكما حدث بالنسبة لنظم التشغيل ، تراجعت آى•بى•ام فى اللحظة الأخيرة مما يثير تشكك كل من المعلقين والشركات المنافسة فى التزامها بما تعهدت به • لقد نمت آى • بى • ام مثل جنرال موتورز والعديد من الشركات العملاقة الأخرى للعصر الصناعى ، بطريقة جعلتها تشغل كل سنتيمتر من الحيز المتاح فى « وسطها » البيئى • وبما انها تكيفت بشكل مريح للغاية مع هذا الوسط ، تجد نفسها الآن فى بيئة سريعة التغير ومتزايدة العدوانية ، بحيث أصبحت ميزة الضخامة القديمة عائقا فى أكثر الأحيان • وطبقا لبعض المراقبين ، يبدو أن المعركة من أجل معايير الاتصالات اللاســـلكية قد تحدد بداية مرحلة ما بعد آى•بى•ام •

تناقض المعايير :

تخفى هذه الصراعات من أجل السلطة تناقضا أو مفارقة • فالاقتصاد الجديد بانتاجه لمنتجات متزايدة التنوع ، أدى الى ظهور ضرورة التوحيد ووضع ضوابط أكثر تحديدا ، كما أدى فى الوقت نفسه الى ظهور حركة فى الاتجاه المعاكس تحاول زيادة تنوع الأشياء ، بجعلها تتوافق مع تعدد الضوابط والمعايير الموجودة : وهكذا نجد بعض أجهزة التليفزيون المتنقلة

تملك زرا يسمح بالانتقال من المعايير الأوروبية « بال » و « سيكام » الى المعيار الأمريكى ان٠تى٠اس٠س٠ وبالعكس ٠

وهناك تكنيك آخر يحقق نفس النتيجة ، يرتكز على تضمين المنتج نسبة أكبر من المكونات النمطية المتزايدة الصغر بحيث يؤدى تجميع هذه المكونات الى تفادى قيود المعيار العام الخارجى ٠ ولكن هذه الطريقة تضاعف فى الوقت نفسه من « المعايير ــ الفرعية ــ المدمجة فى « الداخل » والتى بدونها لا يتحقق التناسق والتطابق المطلوب لتشغيل المكونات ٠

على أية حال ، كلما تم اعداد معيار لنظم الوصل المفتوحة على سبيل المثال ــ تأتى تقنيات جديدة تجعله مهجورا أو تسلبه أية أهمية ٠ زد على ذلك ، أنه بمجرد وضع القواعد فى مجال الشبكات أو البرامج ، تنتقل المعركة الى مستوى أعلى وأكثر تعقيدا ٠ فعندما يوجد معياران أو أكثر فى حالة تنافس ، تظهر معدات جديدة تسمح للمستخدم بالانتقال من نظام الى الآخر ، ولكن أجهزة التوافق تولد بدورها الاحتياج الى معايير توافق ٠ لذلك نشاهد الآن محاولات تهدف الى خلق ما يمكن تسميته « معايير المعايير » : ولقد تكون مؤخرا فى مجال الاتصالات ، ومن هذا المنظور بالذات ، تجمع اسمه « مجلس المتطلبات التكنولوجية » ٠

بمعنى آخر ، ان المعركة من أجل السيطرة على المعايير ، يمكن أن تتذبذب بين مستويات مرتفعة جدا ومستويات أكثر انخفاضا ولكنها لا تتوقف قط ــ لأنها احدى سمات الحرب الأكثر شمولا والمستمرة من أجل السيطرة على المعلومات ونقلها وتقنينها ٠ انها احدى الجبهات الحاسمة للصراع من أجل امتلاك السلطة المبنية على المعرفة ــ صراع لا يقتصر على الأحراش الشائكة للتليفزيون والكمبيوتر والاتصالات ولكنه يحتدم أيضا فى الحانة عند ناحية الشارع وحتى فى مطابخنا ٠

ثلاثية الجعة والسجق :

منذ زمن طويل ، وضعت القطاعات الاقتصادية أو الدول معايير لضمان سلامة أو جودة المنتجات ٠ ومؤخرا ، فعلوا ذلك أيضا من أجل حماية البيئة ٠ ولكن الحكومات الحمائية تحاول أيضا عن طريق هذه المعايير ابعاد المنافسة الأجنبية أو مساندة سياستها الاقتصادية ٠ فعلى سبيل المثال ، منعت ألمانيا الاتحادية بالفعل ، بيع الجعة القادمة من أى مكان آخر فى أراضيها بحجة أنها « غير نقية » ــ وهو موقف لم يكن ليغضب تجار وصناع الجعة المحليين ٠

ولكن ما قيمة الجعة بدون سجق ؟ وبالتالى تم حظر معلبات اللحوم

الايطالية مثلها فى ذلك مثل أغذية أخرى كثيرة مستوردة كانت تحتوى لسوء حظها على مادة مضافة تعمل على تحسين قوام خثيرة لحم الخنزير والعجول المعلبة ، وهى مستخدمة بشكل كبير فى بلدان أخرى .

ولجعل الألمان يتراجعون ، تطلب الأمر مفاوضات دبلوماسية مكثفة ، وفى نهاية الأمر التهديد بأن تقيم الجماعة الأوروبية دعوى قضائية . وحاليا لن يدهش أحد أن يرى الجات (الاتفاقية العامة للتعرفة والتجارة) تتبنى أيضا قرارا جديدا خاصا بالمعايير ـ بهدف تقليل استخدام معايير تخفى ممارسات تمييزية .

ولكن فيما وراء المناورات التنافسية والأهمية التى تمثلها المعايير فى الصراعات العنيفة للتجارة الدولية ، فان شدة « حرب المعايير » يمكن تفسيرها بسبب أكثر عمقا .

ولقد أعرب الفرنسى فيليب ميسين فى مقال مثير عن أن هذا النوع من الصراعات سيتضاعف بالضرورة لأن نسبة المنتجات التى تمثل جزءا من « نظام » فى تزايد مستمر فى الاقتصادات المتقدمة ، مقارنة بالمنتجات « المعزولة » ، مما يضع مشكلة المعايير فى مركز المعارك الصناعية الكبرى .

وتأييدا لهذه الفكرة المهمة ، يمكن اضافة أن الانتاج بمساعدة الكمبيوتر سوف يؤدى الى تنوع ضخم فى المنتجات : ومن ثم فسوف ترتب هذه النظم عناصر الانتاج فى مجموعات وظيفية ، وسوف يزداد عدد هذه العناصر المحتشدة فى المجموعات الوظيفية ، التى تؤلف مجتمعة وحدة وظيفية ذات خصائص لا يمكن أن تستمدها من مجرد تجميع أجزائها .

وتتفق هذه السمة للأشياء مع مضمون ملحوظة ميسين الذى يرى أن المنتجات التى تمثل جزءا من نظام تضم كميات متزايدة من « مكون مهم غير مادى ، أى كل ما يتعلق بالعمل الذهنى » . ففى الواقع أن تصنيع عدد كبير من الأشياء فى مجموعات صغيرة موجهة لمنافذ بيع خاصة يزيد من حجم المعلومات اللازمة لتنسيق الاقتصاد ككل . مما يجعل دورة الانتاج والتوزيع تعتمد بشكل متزايد على المعرفة .

وفى الوقت نفسه ، ومع تقدم العلم والتكنولوجيا فان المعايير التقنية ذاتها سوف تتطلب معرفة عميقة . وسوف تزداد دقة الاختبارات وطرق القياس ويقل التفاوت : وتتضمن المعايير مزيدا من المعلومات والمعارف المتقـدمة .

وفى النهاية ، كلما طرحت المنافسة المبدعة والمجددة فى الأسواق مزيدا من المنتجات الجديدة التى تشبع أحدث احتياجات المستهلكين (والتى

تساهم بصورة ما فى خلقها) اقتضى الأمر تطوير المعايير ، وهذا الشيء فى حد ذاته عامل لنمو البحث العلمى ودفعه الى الأمام ٠

ويمكن اذن أن نتوقع أن يؤدى الاندثار السريع للعالم الصناعى الذى ينتمى الى الماضى ، والذى حل محله نظام خلق الثروة الجديد ، الى احتدام « حرب المعايير » بجوانبها العلمية والسياسـية والاقتصـادية وكذلك التكنولوجية على جميع الجبهات ٠

ان حرب المعايير تزداد اتساعا ، وفى عالم الغد الذى يتشكل الآن سيملك المنتصرون فى هذه الحرب سلطة ضخمة وذات نوعية عالية جدا ٠

الفصل الثالث عشر

شرطة أفكار الـــكوادر

مازال توم فارنوم ـ ٤٨ عاما ـ يعيش مع زوجته الأولى ويعمل حوالى ٦٠ ساعة اسبوعيا مقابل ١٦٢ الف دولار سنويا • بالاضافة الى عائد بعض السندات وبوليصة تامين على حياته بمبلغ محترم • ولكنه عندما يسافر بالطائرة يركب فى الدرجة السياحية • وهو يعمل فى نفس الشركة منذ عشر سنوات ويشغل موقعه الحالى منذ خمس سنوات • وموقعه الوظيفى يلى قمة التسلسل الوظيفى مباشرة ، وهو يحلم بأن يصبح ذات يوم مديرا عاما للشركة وان كان يدرك ان ذلك ليس بالأمر السهل ، ولهذا يريد ان تضعه الشركة فى نفس مرتبة المدير المالى •

ومشكلة توم أنه متخصص ، لذلك يعتبره رؤساؤه غير ملم بما فيه الكفاية بالادارة العامة • ومن ثم يشعر توم أن تخصصه تحول الى فخ ، وينظر بحسد الى زملائه الذين نجحوا فى الخروج من هذا الفخ ووصلوا الى أعلى مستويات الادارة الحقيقية ـ مثل آوت ريان نائب رئيس بنك تشيز منهاتن ، أو آد شيفير نائب رئيس ومدير مجموعة لدى جنرال فودز أو جوزفين جونسون نائبة الرئيس المفوضة لشركة اكيكور •

ان توم ذكى ، يقظ ، واثق من نفسه ويجيد التعبير وان كان يميل الى أن يفعل ذلك باستخدام لغة خاصة تبدو عدوانية ، وتسبب الحيرة لمعاونيه أو رؤسائه بحيث أصبحت الصـــفة الملازمة له على الفور أنه « تكنو قراط » •

أما ريان وشيفير وجونسون فيتمتعون بشخصية واضحة المعالم تماما. انهم متخصصون فى مجال المعلومات « هاجروا » من « نظم المعلومات » ليرتفعوا الى صفوف الادارة العليا . وعلى النقيض من ذلك فان توم ذو شخصية مركبة وشبه وهمية ولكنه مع ذلك ــ وطبقا لدراسة حديثة ــ يمثل مجموعة من الكوادر معروفة باسم « مديرو المعلومات » ، وهى مجموعة متمردة وعنيدة ومدفوعة دائما لتأكيد ذاتها . ويوجد فى الولايات المتحدة حاليا أكثر من مائتى شركة كبيرة لديها « مدير معلومات » أو شخص له مسمى قريب من ذلك ، فى حين لم تكن هذه الوظيفة موجودة منذ بضع سنوات . وقد تختلف المصطلحات ولكن نجد فى العديد من الحالات أن منصب « مدير المعلومات » يكون أعلى بدرجة أو درجتين من منصب « المسئول عن معالجة البيانات » ، أو « نائب رئيس نظم المعلومات » أو « مدير نظم معلومات الادارة » .

هؤلاء المديرون ــ هم دائما من الرجال ونادرا ما تشغل امرأة هذه الوظيفة ــ مسئولون عن ميزانيات ضخمة مكرسة لأجهزة الكمبيوتر ومعالجة البيانات وخدمات المعلومات . ولذلك فهم موجودون فى مركز حرب المعلومات .

معركة ذات مستويات متعددة :

اذ تناهى اليكم من خلف الباب ما يقوله مديرو المعلومات المجتمعون فى مؤتمر ما سيتتاح لكم فرصة سماعهم يعربون عن شكواهم التقليدية : الادارة العليا لا تفهمهم وأصحاب العمل والرؤساء يعتبرون أقسامهم بالوعة مالية تضخم الميزانيات بشكل مفرط . بينما نظم المعلومات ذات التقنية العالية والتى يحسن استخدامها تقلل ــ فى رأى هؤلاء المديرين ــ التكاليف وتولد الأرباح . فضلا عن أن معلومات أرباب العمل ضحلة ــ وقد تكون « الكلمة الصحيحة » هى وصفهم « بالجهلة » ــ فيما يتعلق بأجهزة الكمبيوتر والاتصالات بحيث لا تسمح لهم بأن يحكموا بفهم على الموضوع ، كما أنهم لا يتحلون بالصبر الكافى ليتعلموا . ففى الواقع ، لا يوجد حاليا سوى مدير معلومات واحد من بين كل ١٣ مديرا يستطيع أن يقدم تقريرا أو تحليلا الى الرئيس أو المدير العام مباشرة .

ولكن اذا كان هؤلاء المديرون يتذمرون فان ذلك لا يعنى اطلاقا أنهم بلا سلطة . فمع انتشار الاقتصاد فوق الرمزى ترتفع بسرعة كبيرة الاعتمادات التى تخصصها الشركات لمعالجة المعرفة . ولا تمثل مشتريات أجهزة الكمبيوتر والنظم المعلوماتية المكملة سوى جزء من هذه النفقات ، وان كان هذا الجزء وحده يصل الى مبالغ ضخمة .

وطبقا لمجلة « داتامشن » فان مبيعات أهم مائتى شركة عالمية للمعدات المعلوماتية فى عام ١٩٨٨ تجاوزت ٢٤٣ مليار دولار • وتشير توقعات موضوعية الى أن هذا الرقم سيصل الى ٥٠٠ مليار دولار خلال عشر سنوات • فكل شخص يلعب دورا فى قرارات الشراء وتوزيع الاعتمادات فى هذا المجال يملك بذلك وحده نوعا من التأثير والنفوذ • ولكن ما ينسى « مديرو المعلومات » أن يقولوه فى كثير من الأحيان أنهم يوزعون المعلومات ذاتها ، التى هى مصدر سلطة للآخرين ، ولكنها وبشكل لا يستهان به مصدر سلطة لهم أيضا •

فبمجرد أن تخصص شركة ما بضعة ملايين من الدولارات لتقنيات المعلومات تخوض جماعات عديدة معارك ضارية للاستحواذ على قطعة من الكعكة • ولكن بالاضافة الى الصراعات التقليدية حول المخصصات المالية يجد المديرون أنفسهم وسط صراعات حول المعلومات ذاتها • من الذى سيحصل على هذا النوع من المعلومات أو تلك ؟ من الذى سيسمح له بالوصول الى مخزون البيانات ؟ من سيكون له الحق فى « اضافة » عناصر للبيانات ؟ ما هى الافتراضات التمهيدية التى يتعين ادراجها فى طريقة المحاسبة ؟ أى البيانات تخص أى الأقسام ؟ وهناك سؤال أهم هو من الذى يقرر الافتراضات أو النماذج المتضمنة فى البرامج الاعلاماتية ؟ هذه الصراعات وان كانت تقنية ظاهريا فانها تؤثر بالطبع على الموقف المالى ومكانة وسلطة الأشخاص والشركات •

وبالاضافة الى ذلك ، فان هذا النوع من الصراعات له انعكاسات واسعة • فالمدير ومعاونوه يزعزعون علاقات السلطة القائمة باعادة توجيه تدفق المعلومات • وتضطر الشركات الى اعادة تنظيم نفسها لكى تستخدم بكفاءة وفاعلية أجهزة الكمبيوتر أو الشبكات الجديدة المكلفة • وكرد فعل ، تفجر عمليات اعادة الهيكلة الرئيسية التى تعقب ذلك صراعات أخرى حول السلطة على امتداد كل الشركة •

ومن ناحية أخرى ، سرعان ما تدرك الادارة الذكية ـ بايعاز من المسئول عن المعلومات ـ أن التقنيات المعلوماتية الجديدة لا يقتصر دورها على تقليل ركام الورق أو زيادة سرعة العمليات ، ولكن يمكن أحيانا استخدامها استراتيجيا لغزو أسواق جديدة وخلق منتجات جديدة ودخول مجالات جديدة • لقد سبق أن رأينا « سيتى بنك » يبيع برامج معلوماتية لوكالات السياحة الأمريكية ، وفعلت شركة سينو ترانسبورت اليابانية الشىء نفسه مع شركات النقل بالشاحنات • ولكن هذا الاقتحام لفروع جديدة من الأعمال سرعان ما يبدأ فى تعديل مهمة الشركة وكذلك بنيتها ويثير فى صفوف الكوادر العليا صراعات على السلطة أشد خطورة •

ومما يزيد الأمور تعقيدا ، أن النمو الهائل لأجهزة الكمبيوتر وانتشار الشبكات ، يؤدى الى ظهور مجموعة سلطة جديدة لا تتأخر فى الدق على باب الأقسام الادارية : انهم مديرو الاتصالات اللاسلكية والعاملون معهم الذين كثيرا ما يكيدون لزملائهم مديرى المعلومات من أجل تخصيص الموارد والاستحواذ على النفوذ والسلطة · ويثور سؤال ، هل يتعين اخضاع الاتصالات للمعلومات أم تكوين قسم مستقل ؟

بالتالى يجد مديرو المعلومات أنفسهم فى قلب نزاعات متعددة يمكن أن يؤدى بعضها الى ثورات أو أن تمثل هذه الصراعات على الأقل احدى سماتها ·

معركة بين معسكرين :

تشهد شركة « ميريل لينش » هذا الصراع منذ عدة سنوات ، وهى أشهر الشركات فى مجال استثمارات البورصة فى الولايات المتحدة ، كما أنها تخصص لخدمات المعلومات ميزانية ضخمة ·

ففى عام ١٩٧٦ ، حصلت « ميريل لينش » فى عامها الواحد والتسعين على حصيلة اجمالية تجاوزت ولأول مرة الرقم السحرى « مليار دولار » · وبعد ذلك بعشر سنوات ، احتلت المعلومات والتكنولوجيا الخاصة بها أهمية قصوى بحيث وضع تحت تصرف دواوين بيترسون ، رئيس العمليات المعلوماتية والاتصالات اللاسلكية ، ٨٠٠ مليون دولار سنويا ، ولم يكن هذا المبلغ سوى جزء من المبالغ المخصصة لخدمات ونظم المعلومات ·

كان تنظيم الشركة يعتمد على تقسيمها الى قسمين كبيرين · أولهما قسم « أسواق رؤوس الأموال » حيث يخلق العاملون فى هذا القسم « منتجات » ـ صناديق متخصصة ، عقود بضمان ، عروض أسهم وسندات ـ وبالتالى يقدمون تنوعا مذهلا من أدوات الاستثمار · كما كان يوزع أيضا رؤوس الأموال التى تم جمعها · وفى الجانب الآخر ، قسم خدمات التجزئة الذى يتعامل مع حوالى ١١ ألف سمسار أوراق مالية موزعين على ٥ آلاف وكالة لبيع « المنتجات » للمستثمرين ·

ويمثل كل قسم من هذين القسمين ما يشبه حزبا سياسيا أو قبيلة مستقلة لها ثقافتها وقادتها الخاصون بها واحتياجاتها المعينة · ويقدم كل منهما متطلبات واحتياجات مختلفة لنظم المعلومات فى المؤسسة ·

ويقول لنا جيرالد ايلى أحد نواب الرئيس : « فى قسم أسواق رؤوس الأموال ، كل شىء يتم بشكل لحظى أى فى زمنه الحقيقى [···] ·

الأرباح والخسائر وقوائم جرد المخزون والأسعار ، كل شيء يتم بشكل لحظى [...] ، كل شيء يجب أن يكون جاهزا فى الزمن الحقيقى [...] . عندما كنت فى قسم « التجزئة » كنت أجد الأمور لا تسير على ما يرام وعندما انتقلت للأسواق دخلت عالما مختلفا تماما [...] ، وناسا مختلفين [...] ، ومواقف مختلفة . من البدهى أن يعمل مركز البيانات بشكل مختلف . المبرمجون والذين يشرفون عليهم مختلفون . وكذلك المواهب المطلوبة منهم والمعرفة بالأعمال والفهم العميق للمنتجات وتكامل المنتج والتكنولوجيا ـ لم أر من قبل شيئا متطورا لهذه الدرجة » .

وفى ظل هذه الظروف لم يكن غريبا أن يعيش القسمان فى حالة توتر دائمة ، خاصة وأن كل قسم يتوقع اسهاما مختلفا من الميزانية الضخمة المخصصة للخدمات وتكنولوجيا المعلومات . فسوق رؤوس الأموال لا تكف عن المطالبة بنتائج آنية شديدة التطور والتعقيد ومحللة تحليلا جيدا ، فى حين يحتاج قسم « التجزئة » الى بيانات أكثر ولكن بدرجة أقل من التعقيد والتركيب ومن النقاء والدقة أيضا .

وتحدث الظاهرة نفسها فى العديد من الشركات المالية الكبرى الأخرى . ومن الملاحظ أن الشركات التى يتركز نشاطها على جمع وتوريد رؤوس الأموال مثل « سالمون برزرس » و « فيرست بوطنز » و « مورجان ستانلز » و « جولدمان ساشسيز » تستثمر بشكل أكبر فى نظم المعلومات والاتصالات عن الشركات التى تظل موجهة أساسا نحو بيع الأوراق المالية للجمهور العريض مثل شركات « ميريل » و « شيرسون وهوتون » .

ولقد تحول تعارض المعسكرين فى شركة « ميريل » الى معركة مواجهة مخططة كانت نتيجتها رحيل المدير العام ـ الذى كان يحابى رجال « سوق رؤوس الأموال » واحتياجاتهم من المعلومات .

غير أن فى هذه الحالة بالذات ، لم تكن ميزانية النظم هى العامل الرئيسى وان كانت كل الاحتمالات ترشحها فى المستقبل لأن تحتل مكانا متزايد الأهمية فى استراتيجيات الشركات الكبرى ، نظرا لأن أجهزة الكمبيوتر والاتصالات بدأت فى تعديل التوجهات والمهام الأساسية للشركات على أعلى المستويات .

انسحاب استراتيجى :

من الأمثلة التى تجسد هذا الأمر ما حدث عندما قرر مصرف « بنك أوف أميركا » (لا « بوفا ») توسيع أنشطته فى مجال الائتمان .

ففى عام ١٩٨٢ ، كان بنك أوف أميركا يمتلك أصولا تقدر ب ١٢٢ مليار دولار ويعمل لديه ٨٢ ألف شخص فى وكالات ومكاتب منتشرة من ساكرامنتو (كاليفورنيا) الى سنغافورة • وكان قسم الائتمان وحده يدير أموالا تقدر ب ٣٨ مليار دولار لحساب ٨٠٠ مستثمر من المؤسسات الكبرى وصناديق المعاشات • وكان من بين العملاء الرئيسيين شركة والت ديزنى و ايه • تى • آند تى • وكايزر ألومنيوم ومؤسسات ثقيلة أخرى فى الاقتصاد الأمريكى • ولكن من المنظور التكنولوجى كان البنك قد تخلف بعض الشيء • وعندئذ قرر توسيع نشاطه فى سوق الائتمان لينافس فى ذلك « بنكرز ترست » و « ستيت ستريت دى بوسطن » والعمالقة الماليين الآخرين فى الساحل الشرقى •

وقد أدرك كليد • آر • كلاوس مدير قسم الائتمان أنه يحتاج لنظام معلوماتى متطور للغاية ، رغم أن النظام القديم كان قد تم تعديله مؤخرا وتكلفت هذه العملية ٦ ملايين دولار ورغم هذه النفقات أثبت النظام القديم فشله ولم يعد يلائم العصر ••

وقد مضى الزمن الذى كان « الأرامل واليتامى » يتقدمون فيه بحياء الى خدمات الائتمان فى البنك ليعهدوا لها بأموالهم ويكتفون بتقرير موجز كل ستة أشهر أو كل عام • لقد أصبح العملاء أكثر تشددا • ويملك بعضهم حسابات ضخمة ويريد معلومات مفصلة تم تحليلها من كافة الأوجه • ويملك العملاء الأكثر أهمية أجهزة كمبيوتر قوية وشبكات اتصالات وبرامج تحليل مالى متطورة ، ولكى يستخدموها كانوا يطالبون ببيانات آنية مركبة •

وبالتالى ، استعان كلاوس ومجموعة النظم المعلوماتية فى بنك أوف أميركا بمستشارين ووقعوا عقودا لتركيب أحدث النظم فى مجال ادارة الائتمان • وتم كتابة حوالى ٣٫٥ مليون سطر من شفرات البرمجة ، وتلقى العاملون ١٣ ألف ساعة من التدريب لاعدادهم لاستخدام النظام الجديد •

وبالرغم من علاج « الصدمة » هذا ، تباطأ الانطلاق • حيث تبين أن البرنامج حافل بالأخطاء • والأسوأ من ذلك أن النظام السابق كان يراكم هو أيضا العديد من حالات التأخير • وبدأ العملاء يتهامسون وتزايدت الضغوط •

وفى عام ١٩٨٦ ، تلقت النشرة الداخلية لقسم الائتمان ــ واسمها « ترتل توك » ــ خطابا مجهولا ينصح كلاوس بعدم تشغيل النظام الجديد • حيث قال المرسل ان النظام الجديد ليس جاهزا بعد • واذا كان كلاوس يعتقد عكس ذلك فلأن أحدهم « وضع له عصابة على عينيه » •

غير أن كلاوس لم يكن يستطيع الانتظار . فقوائم حسابات العملاء تأخرت عن موعدها ثلاثة شهور . وكانت الأمور في حالة سيئة للغاية نتيجة لعدم امكانية العثور على المستندات اللازمة لوضع الأرقام ، وكانت قيادات بنك أوف أمريكا تصرف مبالـغ ضخمة تحت مسمى مصروفـات مؤقتة و « كلمة الشرف » . وتتابعت الأزمات وتلاحقت المعـارك وكانت التعديلات التي أجريت في الادارة العليا والتغيرات المفاجئة في الاتجاهات وتسريح العاملين والتحولات في الطاقم الوظيفي قد أحدثت آثارها الوخيمة على قسم الائتمان . وفي عام ١٩٨٨ ، انهار المشروع كليـة بينما تبخر ما يقـرب من ثمانين مليون دولار . وبشعور الخـزى تخلى « بنك أوف أمريكا » عن عملية الادارة الائتمانية .

لقد كانت الهزيمة كاملة .

وفي الشهور التي أعقبت ذلك سقطت رؤوس من القيادات : رحل كلاوس والعديد من نواب الرئيس ذوى المراتب العالية (كما رحل ٣٢٠ من اجمـالي العـاملين لدى المورد الرئيسي للبرامج المعـلوماتية والعمارة الالكترونية البالغ عددهم ٤٠٠) .

ورحل أيضا العملاء ومعهم ٤ مليارات دولار وأخيرا رحلت عناصر خدمة الائتمان المختلفة التي كان قد تم بيع جزء منها الى ولز فارجو وتم التخلي عن جزء آخـر لـ « ستيف متريت دى بوسطن » ــ وهي احـدى المؤسسات الكبرى المتخصصة التي أراد « بنك أوف أمريكا » تحديها في مجالها .

وكان ذلك أشبه بانسحاب نابليون من روسيا . ان خبراء النظم ، سواء أطلق عليهم اسم مديرو المعلومات أو مسئولو تنظيم النظم أو مسئولو النظم المعلوماتية للادارة يقفون في الخط الأول في حروب المعلومات وهم بذلك معرضون لتلقى القنابل من جميع الجهات .

عصر المخ العملاق :

منذ حوالى ثلاثين عاما عندما ظهرت أول أجهزة كمبيوتر في مكاتب الشركات الكبرى أفاضت الصـحافة بالتوقعات والتـأملات حـول قدوم « المـخ العملاق » . وكان من المفترض أن يحتوى هذا المـخ العملاق كل المعلومات اللازمة للادارة .

(في الاتحـاد السوفيتي ، اتخـذت هذه الأوهام الأولية حـول

امكانية انشاء بنك معلومات ونظام لاتخاذ القرارات له صفـة الشمول ، شكلا أكثر طموحا . حيث تم تصور بعض أدمغة الكترونية عملاقة تسيطر عليها هيئة التخطيط التابعة للدولة ، الجوسبلان ، ولا تقود هذه الأدمغة شركة معينة ولكن الاقتصاد الوطنى كله) .

وهكذا كان النظام سيحل نهائيا محل الفوضى فى مجال المعلومات . فلن يكون هناك اهمال ولا علب بطاقات مكتظة ولا مذكرات تائهة . لن يكون هناك شك أو تردد .

هذه الرؤى المصابة بجنون العظمة قللت بشـكل كبير من أهميـة التنوع والتعقيـد المتزايدين اللذين يتسم بهما الاقتصاد فوق الرمزى . لقد أنكر كتاب هذه الرؤى فى غطرستهم ، دور الصدفة والحدس والقدرة على الابتكار والخلق فى الحيـاة الاقتصادية . ولكن أخطر ما فى الأمر كان وجهة نظرهم التى ترى أن القادة يعلمون بما يكفى لكى يقرروا بشـكل صحيح الاحتياجات المختلفة من المعلومات اللازمة للمستويات الأدنى فى التسلسل التنظيمى .

لم يكن لقب « مدير معلومات » موجودا فى الشركات الأمريكية ، ولكن خبراء معالجة البيانات كانوا يكونون نوعا من « الكهنوت » . هذه الحفنة من المتخصصين كانت تسيطر سيطرة مطلقة على أجهزتها لأنها هى وحدها التى تعرف كيف تستخرج أية معلومة من هذا « العقل العملاق » ، ومن ثم كان على كل من يريد معـلومات أن يتوجه اليهم . وتمتـع كبار الكهنة بامتيازات احتكارية .

عندئذ وصلت أجهزة الميكرو كمبيوتر ، فى شكل أجهزة كمبيوتر مكتبيـــة .

وهبت العاصفـة فى نحو نهايـة السبعينات . وأدرك الكثير من المتخصصين على الفور أن الأجهـزة الجديدة ذات السـعر الرخيص تهدد بتآكل سلطاتهم ، فحاولوا منـع وصول هذه الأجهـزة الى الشركات . وعارض كبار الكهنة رصد أموال لشراء هذه الأجهزة وسخروا من حجمها الصغير ومن القدرات المحدودة للجيل الأول من الميكروكمبيوتر .

ومثلما حدث فى القرن التاسع عشر حينما عجز احتكار « ويسترن يونيون » بجبروته عن منع الأمريكيين من امتلاك أجهزة الهاتف . اكتسح تعطش القادة الاقتصاديين للمعلومات مقاومة الخبراء فى القرن العشرين . وبسرعة كبيرة بدأ آلاف الكوادر فى التحايل على سلطة كبار الكهنة بشراء معداتهم الخاصة والبرامج المعلوماتية وباعداد روابط واتصالات مستقلة .

وسرعان ما أصبح من المسلم به أن الشركات ستحتاج الى قدرات معلوماتية موزعة ، بالاضافة الى بعض الوحدات الكبيرة ، تحت سيطرة مركزية • وأصبحت الفكرة الخيالية « للمخ العملاق » فكرة ميتة واختفت معها السلطة المركزة بين أيدى أساتذة معالجة البيانات •

ولم تعد الكوادر العليا فى حاجة لأن تستجدى بضع دقائق من وقت الكمبيوتر ، بعد أن تحررت من سلطة كبار الكهنة وأصبح لأقسامهم ودوائرهم ميزانية خاصة بالمعلومات لا يستهان بها •

ووجد كبار الكهنة أنفسهم فى موقف قريب من موقف الأطباء الذين أفقدهم الانتشار المتزايد للمعرفة الطبية فى الصحف غير المتخصصة ثم فى وسائل الاعلام وضعهم كأشباه آلهة • فبدلا من التعامل مع أميين فى مجال الكمبيوتر ، وجد هؤلاء الخبراء أمامهم عددا كبيرا من « المستخدمين النهائيين » الذين يلمون على الأقل ببعض المبادىء ويقرءون مجلات متخصصة فى مجال المعلومات ويشترون أجهزة كمبيوتر لأبنائهم ولم يعودوا ينبهرون بأى شخص يتكلم أمامهم عن « الروم » (ذاكرة للقراءة فقط) « والرام » (ذاكرة الوصول العشوائى) ان « ثورة الميكرو » قوضت احتكار المعلومات وجردت كبار السادة من سلطتهم •

ولكن سرعان ما أعقبت ذلك ثورة التوصيل والربط بين مختلف الأجهزة التى أدت الى نقل جديد للسلطة •

وكما يحدث فى أغلب الثورات ، فان ثورة « الميكرو » كانت حركة مضطربة ومرتبكة للغاية • فقد اندفع مختلف المسئولين واتباعهم لشراء المعدات والبرامج والخدمات التى كانوا يريدونها من كل نوع ، وكانت النتيجة برج بابل الكترونيا • ولم تظهر مشكلات ذات أهمية طالما كان الأمر يتعلق أساسا بنظم معزولة ، ولكن بمجرد أن أصبح من الضرورى لهذه الأجهزة ان تتحاور مع الوحدات المركزية ومع بعضها البعض ومع العالم الخارجى ، ظهرت مساوىء الحرية غير المحدودة بكل أبعادها •

وعندئذ حذر خبراء الكمبيوتر رؤساءهم وقالوا ان الديمقراطية المعلوماتية تهدد فى النهاية بتقليص سلطات الادارات العليا نفسها • وبالفعل ، كيف يمكن ادارة شركة بشكل مسئول اذا كان نظام المعلومات ككل لا يمكن السيطرة عليه نظرا لتباين واختلاف الأجهزة والبرامج وتصنيف البيانات الأمر الذى كان يهدد بحدوث فوضى هائلة • وكان الوقت قد حان لرد الأمور الى نصابها •

ومع كل ثورة تنشأ فترة من الاضطرابات والتطرف تتبعها فترة يوطد فيها النظام قدمه ٠ وهكذا بدأ أخصائيو معالجة البيانات تساندهم مستويات الادارة العليا فى تحويل الثورة الى مؤسسات – واستعادوا أثناء هذه العملية جزءا من تأثيرهم القديم ككهنة كبار ٠

وحصـل مديرو المعلومات الجـدد على موارد وسلطة لم يسبق لها مثيل من أجل اعادة النظام الى عالم الكمبيوتر والاتصالات ٠ ولقد تولوا مهمة دمـج النظم وربطها ببعضها وصياغة ما يمكن تسميته « شـفرات الطريق الالكترونية » ٠ لقد جمع أسلافهم واحتكروا معلومات مركزية ثم فقدوا لبعض الوقت السيطرة على النظام ، والآن وتحت صولجان المديرين يؤكد المتخصصـون الجـدد وجودهم من جـديد كشرطة معلومات ، فهم يفرضون قواعد تحدد فى اجمالها أسس النظام المعلوماتى للشركة ٠

وتنطبق هذه القواعد بالطبع على المعايير التقنية وأنواع التجهيزات وغالبا ما تنظم وتحدد أيضا سبل الوصول الى بنوك المعلومات المركزية والأولويات والعديد من العناصر المهمة الأخرى ٠ ومن سخرية القدر أن العـديد من مديرى المعلومـات يشيدون الآن ويتغنـون بمزايا أجهـزة الميكروكمبيوتر التى سبق أن احتقروها بعمق شديد ٠

ان أسباب هذا التحول واضحة تماما ٠ فأجهزة الميكروكمبيوتر لم تعد هى تلك الأجهزة السابقة الضعيفة بالرغم من وزنها الثقيل الذى كان يصـل الى ٤٠ كيلو جـراما ٠ لقـد اكتسبت مثلها مثل المينى كمبيوتر ومحطات العمل قوة بحيث يمكنها حاليا انجاز جزء كبير من الوظائف التى كانت مقصورة سابقا على الوحدات المركزية ٠

ولذلك ينادى العديد من مديرى المعلومات « بتصغير حجم » الأجهزة وبمزيد من اللامركزية ٠ ويرى الكثير من الخبراء أن « الاتجاه الى تصغير الحجم يأخـذ أبعاد الظـاهرة » على حين تنتظم تلك الأجهزة الصغيرة فى شبكات تسـمح باعادة فرض السيطرة المركزية على المعـلومات وتخضـع لهيمنة خبراء المعلومات الذين ينظمون عملها ، ومن ثم راجت فكرة الادارة بواسطة الشبكات ٠

ويقول بيل جاسمان أخصـائى التسويق لدى دى ٠ آى ٠ سى : « ان الادارة بواسـطة الشبـكات ليست مجـرد مسـألة تقنيـة ولكنها سياسية » ٠ ويعتقد آخرون ـ طبقا لما أوردته مجلة « داتا ميشن » ـ أن « الحجج التى قدمت لصالح الادارة المركزية بواسطة الشبكات [٠٠٠ تخفى غالبا لدى بعض كوادر نظم المعلومات ، الرغبة فى استعادة السيطرة

الشخصية على تشغيل هـذه النظـم ، تلك السيطرة التى فقدوها خـلال السنوات الأخيرة » •

باختصار ، فيما تحتدم حرب المعلومات فى البيئة الخارجية للشركة ـ والتى كما رأينا تخلق مواجهات بين تجار التجزئة والمنتجين وبين فروع الاقتصاد المختلفة بل وبين الدول ـ فان حروبا على مستوى أصغر تمزق الشركة داخليا •

وبالتـالى يصبح مديرو المعلومات والمتعـاونون معهم مقاتلين سواء أرادوا ذلك أم لا ، لأنهم حتى وان كانوا لا يتصورون وظيفتهم من خلال هذا المنظور فان عملهم يقودهم الى اعادة توزيع السلطات - وان كانت هذه الحقيقة نادرا ما يعترف بها •

انهم يقومون بدور المهندسين ورجال الشرطة فى آن واحد على امتداد طرقنا الالكترونية الكبيرة التى تعيش مرحـلة نمو وتطـور واضـحة • وبما أنهم يحاولون أن يديروا بأنفسهم النظم التى بنوهـا ، فـان ذلك يضعهم فى موقف غير مريح يجعلهم أشبه « بشرطة أفكار الكوادر » •

أخلاقيات المعلومات :

فى ظل هذه الظروف ، يستحق مديرو المعلومات رواتبهم تماما • لأن وظيفتهم مليئة بالصعوبات وتولد توترا عصبيا شديدا ، اذ يصعب وصف مدى تعقيد مهمتهم : فهم فى الواقع مسئولون عن اعداد القواعد التى ستسمح باقامة ودمج نظم المعلومات على مستوى الشركات الكبرى وهى نظم سوف تجعل المعلومات فى متناول كل من يحتاج اليها ، وتمنع التحايل أو التخريب وتحافظ على أسرار الحياة الخاصة ، وسوف تنظم سبل انتفاع العـاملين والعمـلاء والموردين بمختلف الشبكات وقواعـد البيـانات وتحـدد أولويات كل منهم وتعـد عـددا لانهائيا من التقارير المتخصصـة وسـوف تتيح لمسـتخدمى الشـبكات امكانيـة اضـفاء مواصفاتهم الشخصية على برامجهم المعلوماتية وتلبيـة عشرات المتطلبات الأخرى ، كل ذلك فى اطار القيـود الخاصة بالميزانية • كمـا أن ظهور تقنيات جديدة باستمرار ،ومنافسين جدد ومنتجات جديدة يجعل عملية اعادة العمل مطلوبة بشكل دائم •

ويتطلب اعداد هذه المجموعات من القواعد مستوى عاليا من الكفاءة التقنية بحيث ينسى مديرو المعلومات والعاملون معهم التأثيرات الانسانية والبشرية لقراراتهم • ان تحديد من له حق الوصول الى أية معلومات يعتبر

تصرفـا سياسيا · واحترام الحياة الخاصة مشكلة سياسية · وتصميم نظام ما بشكل معين بحيث يتلاءم بشكل أفضل مع احتياجات قسم أو دائرة أكثر من احتياجات أقسام أخرى هو أيضا اجراء سياسى ، وينطبق الشيء نفسه على وضع جدول لتنظيم أوقات العمل على الكمبيوتر وما يؤدى اليه من انتظـار وتأخير بالنسبة للأقســام التى لا تقع فى ترتيب متقدم فى قائمة الأولويات · أما بالنسبة لعمليــة تقدير وتوزيـع التكاليف فانها تستخدم دائما علاقات سلطة ·

لذلك ، فما أن نشرع فى ذكر تنظيم وتقنين المعلومات حتى تتراءى لنا كل أنواع المسائل « شبه السياسية » شديدة الازعاج ·

وقد يتورط اثنان من العاملين فى صراع شخصى عنيف · ويتمكن أحدهما من الحصول على كلمة السر المنـاسبة التى تتحكم فى البرنامـج ويصل الى ملفات العاملين فيدخل بيانات ضارة فى ملف خصمه ، لا تنكشف حتى اللحظة التى يكون فيها الضحية قد غـادر الشركة ووجد عملا فى شركة أخرى · وفى هذه اللحظة تظهر المعلومة الضارة للنور وتؤدى الى فصله من عمله ·

وقياسا على ذلك ألا تقل فرص ترقى المستخدم اذا لم يكن يستطيع أو لم يعد يستطيع الوصول الى المصادر المهمة للبيانات ؟

ولا يحتاج الأمر قدرا كبيرا من الخيال لطرح العديد من الأسئلة من نفس النوع · ففى غياب تشريع شامل يحكم هذه الأمور يتعين حاليا على الشركات الخاصــة أن تفكر فى التـأثيرات الشـخصية والسياسية لكل القواعد التى تدار بها نظم المعلومات التابعة لها · ولكن هل يجب أن تترك لها حرية التقدير فى هذه المواضيع التى تمس حقوق الانسان ؟ واذا كان الرد بالايجاب فمن فى الشركة سيكون عليه سن القواعد ؟ هل هو مدير المعلومات ؟ ·

نحن هنا نخطو فى أرض مجهولة ونتقدم على طبقة هشة من الجليد· فالقليل منا من لديهم خبرة واسعة بالنسبة للمشكلات الأخلاقية والقانونية وأخيرا السياسية الناشئة عن ضرورة فرض بعض القيود على سيل المعلومات التى يولدها النشاط الاقتصادى ·

فى أغلب الأحيان تفوض الادارة العليا حل هذه المشكلات· ولكن هل يتعين تقاسم سلطة وضع القواعد التى تحكم هذه الأمور مع جهات أخرى ؟ وهل يجب على الشركات أن تشكل داخلها « مجالس معلومات » ، أو حتى

« سلطات تشريعية » مسئولة عن اعداد القوانين الخاصة بالحقوق فى مجال المعلومات وعن المسئوليات المتصلة بها وامكانات الاطلاع عليها ؟ وهل يجب أن تشارك النقابات فى هذه القرارات ؟ وهل نحن فى حاجة الى « محاكم شركات » للفصل فى منازعات الأمن وسبل الوصول الى البيانات ؟ وهل نحن فى حاجة الى متخصصين فى « آداب المعلومات » لتحديد مبادىء أخلاقية نوعية جديدة ؟

وهل القواعد المطبقة على المعلومات فى الاقتصاد ستحدد وتؤثر على مواقف الدولة من حرية المعلومات على صعيد المجتمع ؟ وهل هذه القواعد قد تعودنا على ممارسة الرقابة والسرية ؟ وفى النهاية هل سيتعين علينا أن نقترع ذات يوم على « اعلان للحقوق » كبير وواضح فى مجال المعلومات الالكترونية ؟

كل هذه الأسئلة تتعلق بالسلطة وسيترتب على الاجابات عليها انتقال للسلطة داخل الشركة ، وفى النهاية داخل الجسم الاجتماعى ككل ·

تناقض متفجر :

كلما أصبحت البيئة الاقتصادية التى فى طريقها لتكون مضطربة وغير مستقرة وابتعدت عن حالة الاتزان ، أصبحت احتياجات المستخدمين غير متوقعة ·

ان التحولات السريعة تعنى تدخل الصدفة والتقلب وهجمات تنافسية تأتى من الجانب غير المتوقع تماما · فنجد مشاريع كبرى تنهار وأخرى صغرى تنجح نجاحا مبهرا · ان هذه التحولات تعنى تكنولوجيات جديدة وأنواعا من المهن والعاملين وظروفا اقتصادية جديدة لم يسبق لها مثيل اطلاقا ·

بالاضافة الى ذلك تتفاقم الأوضاع عندما تصبح المنافسة دامية وعندما تأتى من بلد أو ثقافات مختلفة جذريا عن الثقافة التى تكيفت معها الشركة أصلا ، وهو أمر كثير الحدوث ·

وفى مثل هذا العالم ، كيف يستطيع أكثر مديرى المعلومات كفاءة أن يحدد مقاما من سيحتاج هذه المعلومة أو تلك ولكم من الوقت ؟

فى بيئة مضطربة بهذا الشكل ، يتطلب بقاء الشركات واردا مستمرا من المنتجات والخدمات المبتكرة · الا أن الابتكار يتطلب نوعا من « الجلاسنوست » أو حرية التعبير ، الداخلية ـ انفتاح على الخيال ودرجة

من القبول للتفرد الشخصى وللملكة الحدس التى أدت فى الماضى الى العديد من الاكتشافات الخصبة ابتداء من النايلون والبويات التى تحتوى على عصارة بعض الأشجار الى بدائل المواد الدهنية فى أطعمة الرجيم ·

ومن ثم يظهر تنـاقض عميق بين الحاجـة الى التنظيم والانضباط الدقيق والرقابة الصارمة فى مجال المعلومات من ناحية ، وضرورة الابتكار من ناحية أخرى ·

فكلما اشتدت صرامة القواعد التى توفر الضمانات وسبل الحماية لنظم المعلومات وتحدد مسارها وتفاصيلها تقلصت القـدرة على الابتكار وواجهت الشركة قيودا تعيق عملها ·

يتضح من كل ذلك ، أن حـروب المعلومات التى تشـتعل خارج الشركة وتمس الاقتصـاد ككل ، ابتداء من أجهـزة القراءة البصرية فى السـوبر ماركت ومعـايير المنتجـات حتى أجهـزة التليفزيون والسياسات التكنو ــ وطنية ، لها مثيلاتها داخل الشركة ذاتها ·

ان السلطة فى الحياة الاقتصادية ستذهب غدا الى الذين يعرفون بشكل أفضل حدود المعلومات · ولكن قبل ذلك ، ستكون حروب المعلومات التى نراها تشتد الآن قد عدلت شكل الأنشطة ذاتها · ولكى نرى فى أى اتجاه سيكون هذا التعديل ، يتعين علينا أن ندرس عن قرب هذا المورد الحاسم ألا وهو المعرفة ، والتى سيؤدى طلبها والبحث عنها الى زعزعـة السلطات القديمة وعمليات السيطرة من نيويورك الى طوكيو ومن موسكو الى مونتفيديو ·

الفصل الرابع عشر

الحرب الشـــاملة للمعلومات

ادت حرب المعلومات المحتدمة فى ميدان الاقتصاد العالمى الى تشكيل تصـور جـديد للحياة الاقتصادية فى الوقت الراهن • ونظرا لأن المعرفة اصبحت بشكل مضطرد العـامل الحاسم فى خلق الثروة بدانا نرى فى الشركة تنظيما خلاقا لمعرفة جيدة •

اننا نتحدث عن قيمة مضافة نتيجة اعداد وتجهيز المعلومات وتحسين الموارد البشرية للشركة • ولكننا بدأنا فى الوقت نفسه نزج بأنوفنا فى المعلومات التى لا تخصنـا • وقد يبـدو أن كل شيء مسموح به فى هذه الحروب ـ كما هو الحال فى الحب •

ففى يوم ٢٥ أبريل ١٩٨٥ ، رن جرس الهاتف فى مكاتب تكساس انسترومنت بدالاس ، وطلب صوت ذو نكهة أجنبية موعدا مع المسئول عن خدمات الأمن فى الشركة • وكان صاحب الصوت رجلا سورى الجنسية يعمل مهندسا كهربائيا ، وكان قد طلب حق اللجوء السياسى للولايـات المتحدة ، ثم عمل لدى تكساس انسترومنت لفترة قصيرة قبل أن يفصل منها بعد أن حامت حوله الشبهات• ويبدو أنه كان فى الأصل ضابطا مهندسا فى الجيش السورى قبل أن يهاجر الى الولايات المتحدة بمساعدة وكالة المخابرات المركزية • وقال انه يريد الآن أن يتصالح مع الشركة ويعود الى عمله فيها ، مؤكدا أن لديه معلومات عن أسرار مهمة سرقت من الشركة•

وعلى أثر مكالمته الهاتفية أغارت شرطة دالاس فى الفجر على مكاتب شركة صـغيرة للتكنولوجيـا المتقـدمة اسـمها فويس كونترول سيستمز

(نظم التحكم الصوتى) . وكان المؤسس الأصلى لهذه الشركة سمسار عقارات وكان قد سجن بتهمة تهريب المخدرات ، ثم آلت لمجموعة استثمار أخرى وكان مديرهـا رئيسا سابقـا لشركة « يو . اس . تليفون » . واتضح أن هذه الشركة كانت تستخدم عددا من الباحثين السـابقين فى تكساس انسترومنت ومنهم كزبرى ذاته .

واكتشفت الشرطة ٧٩٨٥ وثيقة منسوخة من أجهزة كمبيوتر فريق البحوث المتقدمة التابع لشركة تكساس انسترومنت وكان هذا الفريق يعمل فى مجال تحليل الصوت البشرى . وكان كبار صناع أجهزة الكمبيوتر ومنهم آى . بى . ام . وتكساس انسترومنت قد دخلوا (ولا يزالون) سباقـا صعبا لاكتشاف الطـرق التى تسمح لأجهزة الكمبيوتر أن تفهم الكلمة المنطوقة (تقوم أجهزة الكمبيوتر بذلك فعلا ولكن بشكل محدود وبتكلفة مرتفعة جدا) ، ويعلم كل هؤلاء المتسابقون أن الفائز يستطيع أن يأمل فى تحقيق أرباح خياليـة من وراء ذلك . ففى تقدير ميخائيـل در توزوس رئيس قسم الدراسات المعلوماتية بمعهد التكنولوجيا فى ولاية ماساشوسيتس أن « الذى سيتجاوز الطريق المسدود الذى بلغته الأبحاث حاليا ويتمكن من جعل الآلات تفهم الكلمات المنطوقة سيكون فى مقدوره التحكم فى مسيرة ثورة المعلومات » .

هل المهندسون الذين تركوا تكساس انسترومنت والتحقوا بفويس مذنبون كما تتهمهم الشركة الأولى بأنهم سرقوا نتائج أبحاث قيمتها ٢٠ مليون دولار ؟

وأثناء الدعوى القضائية أكد ممثلا الادعاء لمدينة دالاس ، تيد شتاينك وجان جاكسون ، أنهم ارتكبوا جريمة . فى حين أشـار محامو المتهمين توم شالك وجارى ليونارد الى أن كل المواد التى نسخت ليس مكتوبـا عليها عبارة « سرى للغاية » التى كان يتعين مبدئيا أن تكون موجودة على جميع الوثائق والمستندات السرية . فضلا عن أن مدير قسم الأبحاث فى ذلك الوقت كان الدكتور جورج دودينجتون ، وهو ذكى وبارع ومتمرد على التقـاليد وكان كثيرا ما يعلن أن معمله « حر ومفتوح » ، كما كان يؤكد أنه لن تكون هنـاك اكتشافات حاسمة ما لم يضع باحثو مختلف الشركات والجامعات معرفتهم معا . والواقعة الأوثق صلة بالموضوع هى أن شركة فويس لم تستخدم على ما يبدو النتائج المعنية .

ولقد أكد شالك أمام هيئة المحلفين أنه عندما كان يعمل فى تكساس انسترومنت لم يعتبر فى أى وقت من الأوقات أبسط جزء من هذه المواد كأسرار . كما أوضح ليونارد من جانبه أنه أراد فقط الاحتفاظ بسجل

تاريخى للأبحاث التى أجراهـا ، وإذا كان قد نسـخ دليـلا معلوماتيـا لتكساس فذلك لأن هذا الدليل يضم قائمة زملائه القدامى فى مدرسة الأحـد ٠

ورد الادعاء على جميع هذه الحجج بهذه الكلمات : « هنـاك شيء لا يستطيعون تغييره وهو أنهم اختلسوا هذه البرامـج دون أن يخبروا أحدا بذلك » ٠

وأعلنت هيئة المحلفين فى دالاس أن الرجلين مذنبان بالرغم من أن بعض أعضائها بكوا عند النطق بالحكم ٠ وحكم عليهما بالسجن والغرامة ٠ وقد أطلق سراحهما ولكنهما وضعا تحت المراقبة ٠ واستأنفا الحكم وعند عودتهما الى عملهما ضاعفا على الفور جهودهما من أجـل تدريب أجهزة الكمبيوتر على فهم الكلمات الآدمية ٠

قضبان صدئة وهمسات الحب فى الفنادق :

يصعب معرفة ما اذا كان التجسس الصناعى فى ازدياد ، فعلى حد قول بريان هولستاين ــ عضو لجنة حماية المعلومات لدى الشركة الأمريكية للأمن الاقتصادى ــ « الوقوع ضحية للتجسس الصناعى أشبه بالاصابة بمرض تناسلى ٠ قد يحدث ذلك لكثير من الناس ولكن لا أحد يريد التحدث عنه » ٠ غير أن القضايا المرفوعة ضد لصوص أو قراصنة المعلومات فى تزايد مستمر ٠

ويعتبر هولستاين من الشخصيات النادرة التى فكرت بشكل جدى فى قيمة المعلومات وكان يقول منذ بضع سنوات ان « العديد من الشركات لا تفهم حقا أى شيء [٠٠٠] ٠ فهى ما زالت تفكر أساسا بلغة تحركات وانتقـالات البشر والمواد » ــ وكأنها لا زالت أسيرة الاقتصاد الصناعى القديم ٠ وأضاف قائلا : « ان معنى ذلك هو اظهار عجزها عن فهم مدى قيمة المعلومات » ٠

ولكن هذا الموقف فى طريقه للتغير سريعا ٠ فأمام اشتداد الصراعات من أجل السيطرة على المعلومات توصلت شركات عدة الى الاعتقاد بأن عليها أن تعرف أكثر عن مشروعات ومنتجات وأربـاح المنافسين أو الخصوم ٠ ونجم عن ذلك هـذا النمو المذهل للظاهرة المعروفة باسـم « الاستخبار التنافسى » ٠

بالطبع كانت القيادات الذكية تراقب دائما منافسيها ، ولكن معرفة الخصم أصبحت الآن سلاحا أساسيا فى حرب المعلومات ٠

وهناك العديد من الأسباب التى تفسر هذا التغيير · اذ يمكن الآن مهاجمة أى سوق من الخارج بعملية هجومية فائقة السرعة ·

فالوقت اللازم لتحقيق تقدم فى البحث العلمى يطـول بينما يقصر أجل المنتجات نتيجة لسرعة التطور ، وبالتالى تشتد المنافسة · كل هذه العوامل ساهمت فى تكثيف نشاط التجسس فى مجال الأعمال ، وتنظيمه ووضع مناهج له وهو ما جسدته وسائل الاعلام بشكل كبير ·

وازاء الحاجة الدائمة للابتكار تضطر الشركات الى تخصيص مزيد من الموارد لاعـداد منتجات جـديدة قد يتطلب انتـاج بعضها استثمارات ضخمة من أجل الأبحاث · ويقول جون · د · هالامكا فى كتابه « التجسس فى وادى السيلكون » : « ان خلق رقيقة الكترونية قد يمثل عمل مئات السنين ويبتـلع ملايين الدولارات » · ولذلك – على حـد قوله – تلجأ الشركات حاليا الى اتباع منهج معكوس أى تفكيك المنتج المنافس بأسلوب منهجى لاكتشاف أسراره وفهم الأساليب والطرق التى يحقق المنافسون أرباحهم من خلالها ·

وهنـاك سبب آخر شجع نمو التجسس التنـافسى : انه الانتشـار الواسع النطاق لعمليات تنظيم التخطيط الاستراتيجى ، ففى السابق ، كان هذا النوع من التخطيط مهمة شديـدة المركزيـة يتولاهـا مجلس متخصص لا يعرض أعماله الا على الادارة العامة · لكن فى الوقت الحالى ، نزلت هذه المهمة فى كثير من الأحيان الى مستوى الوحدات التنفيذية ، وبالتالى يتولاها رؤساء المنتجات ذوو التفكير العملى ، الذين اعتادوا بشكل خاص الالتحام بأرض الواقع ·

وعنـد هذا المستوى ، تمثل المعلومات عن نوايـا المنـافسين ميزة تكتيكية مباشرة ، كما تمثل عنصرا احتماليا للتوقع الاستراتيجى ·

وكل ذلك يساعد فى فهم لماذا تستخدم حاليا ٨٠٠ شركة من بين أكبر ألف شركة أمريكية جـواسيس متفـرغين ، كما توجـد مؤسسات لمحترفى الاستخبارات الاقتصادية تستطيع تزويد عملائها بالمعلومات التى يطلبونها ·

فقبل أن تقرر شركة فنادق ماريوت طرح سلسلة الفنادق المنخفضة التكلفة « فيرفيلد ان » فى الأسواق ، أرسلت – طبقا لمجلة « فورتشن » – فريقا من المستطلعين الى ما يقرب من ٤٠٠ مؤسسة منافسة لمعرفة نوع الصابون والمناشف التى تقدمها للعملاء وكيف يتمكن رجال الاستقبال

من حل المشكلات غير العادية التى تصادفهم ، وهل يمكن سماع صوت الفراش من الغرفة المجاورة (وللتحقق من ذلك قام أحد عملاء ماريوت بتقليد هذه الأصوات بينما كان زميله يتسمع من الجانب الآخر للجدار) ٠

كما استخدمت ماريوت أيضا خبراء للالتقاء بالمديرين الاقليميين للسلاسل المنافسة للتعرف منهم على مستويات الأجور ونوعية التدريب المهنى عندهم وعما اذا كان هؤلاء المديرون راضين عن موقعهم ٠

وعندما أرادت شيللر جلوب كوربريشن ـ التى تنتج كبائن الشاحنات الثقيلة ـ ابتكار موديل جديد نظمت زيارات منتظمة للعملاء المحتملين وطلبت منهم ملاحظات عن المعدات المنافسة تتناول سبع نقاط : استهلاك الوقود ، الراحة ، وضوح الرؤية من خلال الزجاج الأمامى للشاحنة ، سهولة القيادة ، نوعية المقاعد ، مدى سهولة الوصول الى أجهزة التحكم والتوجيه ، مقاومة التآكل ٠ واستخدمت نتائج هذه الزيارات فى توضيح الأهداف التى يتعين على فريق المصممين تحقيقها وتجاوزها ٠

وكما يفعل الجواسيس الحقيقيون يبدأ عملاء الاستخبارات الاقتصادية بدراسة دقيقة للمصادر « المفتوحة » ٠ حيث يدققون فى الاعلانات المهنية ورسائل الاعلام والصحافة عموما على أمل العثور على مؤشرات عن المشروعات المنافسة ٠ ويقرءون الخطب ويمحصون عروض العمل ويحضرون الاجتماعات والندوات ٠ ويذهبون للقاء العاملين القدامى الذين لا يطلب أكثرهم سوى الحديث عن الشركات التى عملوا بها ٠

وقد تلجأ المؤسسات الصناعية الى استئجار جواسيس للتحليق فوق المصانع المنافسة بطائرة عمودية لتقدير طاقتها الانتاجية ويفتشون سلات الورق كما يستخدمون أحيانا طرقا أكثر عدوانية ٠ ولكن من الممكن أن يستعين هؤلاء بدليل التليفون الداخلى لاحدى الشركات المنافسة لوضع خريطة تفصيلية لهيكلها التنظيمى وبالتالى وضع تقدير لميزانية هذه الشركة٠ وقد أرسلت شركة يابانية خبراء لفحص القضبان الحديدية المؤدية الى مصنع أمريكى منافس : حيث يفترض أن سمك طبقة الصدأ على القضبان تشير الى كثافة الحركة وتبين متى كان آخر مرور عليها ، الأمر الذى يمد الخبراء بدلائل ومؤشرات عن الانتاج ٠

وهناك من يقومون بزرع الميكروفونات فى غرف الفنادق أو المكاتب التى يتفاوض فيها المنافسون حول الصفقات ٠ ومن الأساليب الخسيسة التى اتبعها بعض موردى العتاد العسكرى أنهم استأجروا جواسيس لكى يعرفوا مقدما قيمة العروض المقدمة من منافسيهم لمشروع للبنتاجون لكى

يقدموا عطاءات أقل • ويقال ان بعض هؤلاء الجواسيس حصلوا على هذه البيانات بعد أن رشوا بعض العسكريين •

ان محترفي هذا النوع من التجسس يعتبرون نشاطهم بحثا « مشروعا » عن المعلومات • بل وأظهر استطلاع للرأى أجرته مؤخرا احدى الوكالات مع كبار المسئولين أن ٦٠٪ منهم يعتبرون ان كل الوسائل يجوز استخدامها في مجال التجسس الاقتصادى •

ومع احتدام حرب المعلومات الآن أصبحنا ندرك أن المعرفة هي العنصر الأساسي للاقتصاد الجديد ولا يخضع هذا العنصر للقواعد التى تخضع لها الموارد الأخرى • فهو مورد لا ينضب • لكننا لا نزال حتى الآن نجهل كيفية ادارة مورد هو قابل للبيع ، بل ان جزءا كبيرا منه يأتى (وغالبا بشكل مجانى) من العملاء أنفسهم ، وحتى من المنافسين — سواء أرادوا ذلك أم لا • كما أننا لم ننجح أيضا حتى الآن فى فهم الطريقة التى تعمل بها الشركة في مجموعها لزيادة المعرفة •

المعلومات الخارجة والداخلة :

ان حرب المعلومات تلقى ضوءا جديدا على « الشركة » وعلى العمل الذى ينجز فيها •

ولننس للحظة كل التصنيفات التقليدية للوظائف ، ولننس أيضا درجات التسلسل الادارى ، ولننس كذلك تقسيم العمل • ولنفكر فى الشركة على أنها خلية تنشط بمعالجة المعرفة •

كان من المسلم به فى الماضى أن العمال لا يعرفون شيئا ذا قيمة وأن الادارة العليا وعلى الأكثر مجلس قيادة صغيرا هو القادر على تجميع المعلومات والبيانات النافعة وكانت نسبة العاملين التى تخصص وقتها لمعالجة المعرفة تعد ضئيلة قياسا باجمالى قوة العمل فى الشركة •

ولكننا نرى الآن أن الشركات تهدف أساسا الى تحديث مخزون المعرفة الذى يتقادم بسرعة متزايدة وزيادة رصيدها من المعلومات ، وتحويل البيانات الخام الى معلومات ومعرفة أكثر اعدادا وتجهيزا • وللوصول الى ذلك ، لا يكف العاملون عن « استيراد » و « تصدير » و « نقل » أشكال ومراحل المعرفة المختلفة •

وبعض موظفى الشركات يعملون من الخارج الى الداخل ، أى يجمعون المعلومات الخارجية ويوزعونها فى الداخل • فمستكشفو الأسواق مثلا يتحركون من الخارج نحو الداخل ، يبحثون رغبات المستهلكين من الخارج ويرفعون قيمة البيانات التى يجمعونها وذلك بتفسيرها وتأويلها •

أما موظفو العـــلاقات العـامة فيعملون فى الاتجـاه المعاكس · انهم يمثلون الشركة أمام العالم الخارجى بادئين بتجميع المعلومات الداخلية ثم توزيعها ــ بتصديرها · هؤلاء يتحركون من الداخل الى الخارج ·

فى حين يبـقى المحاسبون أساسا محصورين فى الداخـل ، فكل معلوماتهم تقريبا تأتى من الداخل ، كما ينقلون الى الداخل أيضا نتائج عملهم ·

والبائعون المهرة يعملون فى الاتجاهـين · انهم ينشرون المعلومات ولكنهم أيضا يجمعونها من الخارج لتمريرها الى الداخل بعد ذلك ·

كل هذه الوظائف ترتكز على معالجة « تدفق » البيانات أو المعلومات أو المعرفة · ولكن هناك وظائف أخرى تتلاقى معها ، وتكون مسئولة عن ايصال « مخزون » البيانـات والمعلومات والمعرفـة التى تملكها الشركة والعاملون فيها الى مستوى أعلى ·

فبعض الموظفين الذين يمارسون أعمالا ذهنية يتمتعون بملكة الابتكار ويستطيعون اقامة روابط وعلاقـات جديدة وغير متوقعـة بين مفاهيـم متباعدة ، أو يكسبون الأفكار القديمة مظهرا جديدا · وهناك آخـرون « يصيغون » وينقحون الأفكار الجديدة وذلك بمقابلتها منهجيا بالضرورات الاستراتيجية وبالاعتبارات العملية بحيث يتم استبعاد الأفكار التى لا تلبى الاحتياجات ·

اننا جميعا نفعل مثل هذه الأشياء فى الحياة ، فى أوقات مختلفة · ولكن بينما تزيد أهمية أية وظيفة أو تقل تبعا لمهارات أو لقدرات معينة ترتبـط بها ، لا تراعى التصنيفات التقليـدية للوظائف ولا التوجيهـات الادارية هذه الاعتبارات المميزة وتأثيراتها بلغة السلطة ·

فعند كل مرحلة تقريبا من معالجة المعرفة ، يكتسب بعض الأشخاص أو التنظيمات بعض السلطة بينما يفقدها آخرون · وهكذا نرى نزاعات تتحول أحيانا الى حرب معلومات تحمل طابعا شخصيا ، وتدور حول أمور مثل : معرفة من الذى ستوجه له الدعوة لاجتماع ما ، ومن سيدرج اسمه فى قائمة المدعوين ، ومن سيتصل مباشرة برئيسه ، أو على النقيض من سيتعين عليه تسليم أوراقه ومستنداته للسكرتارية الخ · هذه المعـارك التنظيمية ــ « حروب المعلومات المصغرة » هـذه كما يمـكن تسميتها ــ لا تمثل فى حد ذاتها شيئا جديدا ، فهى سمة دائمة لكل نشاط جماعى · ولكن مع نمو الاقتصاد فوق الرمزى تأخذ معنى جديدا ·

وبما أن المعـالجة الجيدة للمعرفة تمثل فى النظام الجديد لخلق

الثروة أداة حاسمة ، يتعين على محاسبى القرن الواحد والعشرين ايجاد طرق يمكنها أن تحسب بدقة القيمة الاقتصادية المضافة بواسطة أنشطة المعلومات المتنوعة • وعندئذ يمكن أن تأخذ تقديرات الأداء الشخصى والجماعى فى الاعتبار الاسهامات التى قام بها العاملون لزيادة المعرفة •

فالجيولوجى الذى يكتشف الآن حقل بترول كبيرا تكافئه شركته بسخاء لأنه زاد من مخزونها • وغدا ، عندما سيتم الاعتراف بأن موارد المعرفة هى أهم الموارد كلها ، فقد تتوقف المكافآت ــ جزئيا على الأقل ــ على قدرة الموظف على زيادة الرصيد المعرفى لشركته • وفى المقابل ، يتعين توقع نزاعات على السلطة أكثر تعقيدا من أجل السيطرة على أصول المعرفة والعمليات التى تولدها •

تعميم التجسس :

اننا نشاهد تغيرات فى موقف المسئولين الذين بدءوا يعيدون النظر فى أفكارهم المسبقة عن دور قوة العمل لديهم • من الآن فصاعدا ، ينتظر من العاملين أن يسهموا بشكل مضطرد فى اثراء المعرفة الاجمالية للشركة، بالاضافة الى تدعيم ترسانتها من الاستخبارات الخاصة بالمنافسين •

تقول ميندى كوتلر ، رئيسة « الباحثون المشتركون » ، وهى شركة تمد الشركات اليابانية والأمريكية على حد سواء بمعلومات عن منافسيها ، ان رؤية اليابانيين لهذا النوع من عمليات جمع المعلومات أشمل بكثير من الأمريكيين • فبالنسبة للكوادر اليابانية يمثل جمع المعلومات جزءا من العمل العادى ، ولكن كما تقول رئيسة هذه الشركة : « اذا طرحت سؤالا حول هذا الموضوع على خريج من جامعة هارفارد فسيجيبك بأن تلك مهمة رجال الأرشيف » •

غير أن الصورة أخذت تتغير الآن • ففى شركة جنرال ميلز يتعين على كافة العاملين أن يساهموا فى جمع المعلومات عن الشركات المنافسة • حتى ان الحراس ذاتهم عندما يتم ارسالهم لاحضار التموين والتوريدات يجب أن يسألوا البائعين عما يشتريه المنافسون وما يفعلونه اذا أمكن •

ان شركات الهاتف الأمريكية تنظم ندوات وتوزع نصوصا لكى تشرح لكوادرها طرق ومميزات عمليات جمع المعلومات • وقد بلغ الأمر بشركة باير أنها تجرى تدريبات فى القسم المختص بذلك لكى يدرك العاملون أهمية الأمر • وتدمج جنرال اليكتريك الاستخبار التنافسى مباشرة فى تخطيطها الاستراتيجى •

وتقربنا هذه الممارسات فى حدها الأقصى من مفهوم للشركة يعتبرها آلة قتال تبنى فى اجمالها من أجل حرب المعلومات ٠

خطأ بنسبة ٧٥٪ :

وبينما أولت الصحافـة الاقتصاديـة بعض الاهتمـام - وان كان سطحيا - لنمو ظاهرة تجسس الأعمال ، فانها لم تقل شيئا تقريبا عن العلاقات التى تربط هذا النشاط بانتشار نظم المعلومات وبالدور المتزايد للمديرين المسئولـين عن هذه النظم وان كان الربـط بينهما لا يصعب اكتشافه ٠

ويمكن أن نتخيل بسهولة أن يطلب قسم التجسس فى شركة ما من مدير المعلومات أن يساعده فى تجميع معلومات عن منافس معين ٠ ويجب على المدير المذكور أن يهتم بشكل متزايد ليس فقط بنظم المعلومات الداخلية ولكن أيضا بالروابط الالكترونية التى تسمح بالوصول الى قواعد البيانات الخاصة بالشركات الأخرى ، وبمعنى آخر فانه يتحكم فى مجموعات معدات وأجهزة تسمح باجتيـاح المحيط الالكترونى - حتى وان كان فى مـدى محدود - للموردين والعملاء وآخرين ٠ وقد تكفى للوصول الى المنافس وصلة واحدة محسوبة بشكل جيد ٠

ولقـد تمـكن ثلاثة جواسيس معلوماتيين من ألمـانيا الغربية ، من الوصول الى بيانات تتعلق بالتسلح النووى وبمبادرة الدفاع الاستراتيجى الأمريكية ، وذلك بالنفاذ الى ٤٣٠ جهاز كمبيوتر ، واستمر هذا الاختراق مدة تزيد على العام ٠ وقد استهدفوا بشكل خاص ثلاثين جهازا تقريبـا تمثل جزءا من شبكة أقامتها وكالة مشروعات أبحاث الدفاع المتقدمة ، وهى وكالة تابعة للبنتاجون ٠ ولم يتم رصد هؤلاء الجواسيس الا عندما لاحظ كليفوردستول - وهو هيبى سابق أصبح رئيسا للنظام المعلوماتى فى معمل لورنس بركيلى - فرقا قدره ٧٥٪ بين محتويات مجموعتين من البطاقات ٠

ويظـل العـديد من شـبكات الشركات معرضـا لاختراق لصوص أو جواسيس معينين ، قد يكون من بينهم عاملون فى الشركة أو عاملون سابقون اسـتغل منافس سخطهم على شركتهم السابقة فأخضعهم له ٠ وطبقـا لمجـلة « سبكترام » التى يصـدرها معهـد مهندسى الكهرباء والالكترونيات « يستطيع المشاركون فى أغلب الشبكات ذات المدى المحلى اضافة أجهزة ربط « مودم » لأجهزة الكمبيوتر الخاصة بهم بحيث يخلقون طرق وقنوات ربط جديدة داخل النظام بدون علم المسئولين » ٠

وعندما يستطيع العملاء الوصول الكترونيا لقوائم مخزون الشركة وعندما يتقاسم الموردون مع المشترى أسرار المنتجات التى يعدها فان التحديد والحصر وكلمات السر لا تستطيع منع وجود تهديد حقيقى باختلاس المعلومات لصالح منافس ما ٠

ولكن الوصول الى المعلومات لا يتم بالضرورة بشكل مباشر ٠ اذ يمكن أن يتحقق أيضا باستخدام وسطاء بعضهم يجهل الدور الذى يقوم به ٠ فوكالة المخابرات المركزية الأمريكية لديها مخبرون يدركون ما يقومون به وآخرون ليسوا كذلك ٠ وبامكان جواسيس الأعمال أيضا أن يستخدموا طرفا ثالثا للحصول على المعلومات ٠

فعلى سبيل المثال ، اذا تم ربط سلسلتين من محال البيع بالتجزئة مثل وال ـ مارت وكيه ـ مارت بأجهزة كمبيوتر أحد الموردين ، كم من الوقت سيمر قبل أن يأتى فريق شديد الحماس من فرق التجسس الصناعى أو ذئب من عشيرة « الاستشاريين » المتزايدة العدد فى هذا المجال ويقترح فك الشفرة العددية واكتشاف كلمات السر للوصول الى الوحدة المركزية للشركة الصناعية أو اختراق خطوط اتصالاتها اللاسلكية ونهب قواعد بياناتها ؟ واذا كان قد تم اختراق شبكة أبحاث عسكرية أمريكية بواسطة المخابرات السوفيتية عن طريق بعض الجواسيس المسلحين بأجهزة كمبيوتر شخصية فقط ، وكانوا يعملون فى هدوء من مواقعهم فى ألمانيا الغربية ، فأى أمن هذا الذى تستطيع أن تمتلكه الشبكات التجارية وقواعد بيانات الشركات التى تعتمد عليها حاليا حياتنا الاقتصادية ؟

ان هذا المثال افتراضى تماما : فنحن لا نحاول أن نوحى بأى شكل من الأشكال أن شركتى وال ـ مارت أو كيه ـ مارت قامتا بمثل هذه الممارسات أو فكرتا قط فى القيام بذلك ٠ ولكن يوجد حاليا الآلاف من نظم التبادل الالكترونى للبيانات ، وتفتح التقنيات الجديدة امكانات مدهشة لجمع هذه البيانات سواء بشكل مشروع أو غير مشروع ٠

وبقليل من القدرة على التخيل ، يمكن افتراض أن يقوم فريق الاستخبار التنافسى بتركيب معداته وأجهزته فى مواجهة محل مهم ، ويراقب من الجانب الآخر من الشارع الاشارات المرسلة من أجهزة قراءة الشفرة ٠ وبالتالى ، يستطيع أحد المنافسين أو المنتجين أن يحصل على حصاد غنى من المعلومات فور ارسالها ٠ وقد أوضحت الاكتشافات التى تمت فى سفارة الولايات المتحدة فى موسكو أنه أصبح حاليا من الممكن تقنيا تركيب معدات تنسخ حرفيا الحروف التى تدقها على الآلة الكاتبة سكرتيرة المدير العام لشركة منافسة ٠

ولكن حرب المعلومات الشـاملة قد لا تقتصر على الجمع السلبى للمعلومات • فالاغراء للقيام « بعمليات تجارية سرية » يتزايد باستمرار، لذلك لم يستبعد المستشار المتخصص جوزيف كوات أن نرى ذات يوم شركة تمر بضائقة تقوم بادخال طلبيات مزيفة فى أجهزة كمبيوتر شركة منافسة لدفعها الى انتاج كميات كبيرة من موديلات لا يوجد عليها اقبال وكميات قليلة جدا من الموديلات ذات القدرة التنافسية •

كما أن الثورات الجارية فى مجالات الفيديو والبصريات والصوتيات ستسمح قريبا بالتجسس أيضـا على الاتصالات المبـاشرة بين شخصين والتدخل فى هذه الاتصالات وتزييفها ، حيث تتيح تقنية توليف الصوت امكانية تزييف صوت مدير ما واستخدام الهاتف لاعطاء تعليمات مضللة لمرؤوسيه • وفى هذا المجال لا توجد حدود لما يمكن تخيله •

كل هذه التهديدات أدت بالطبع الى نمو تكنولوجيـات الدفـاع • فبعض الشبكات الآن تطالب المستخدمين لها ببطاقة خاصة ترسل كلمات سر تتزامن مع برنامج فى الكمبيوتر المطلوب التعامل معه • وهناك نظم أخرى تستخدم البصمة أو سمات جسدية أخرى، بل وحتى سمات سلوكية للتأكد من هوية المستخدم قبل التصريح له بالدخول • أحد هذه الأجهزة يرسل فى عين طالب الاستخدام حزمة من الأشعة تحت الحمراء ضعيفة الشدة للتعرف خلف الشبكية على الرسم الخاص للشبكة الدموية والذى لا يشترك فيه اثنان • وهناك جهاز آخر يحدد هوية المستخدم عن طريق ايقاع ضرباته على لوحة المفاتيح •

ولكن بسبب تكلفتها العاليـة ، يقتصر استخدام الطـرق المتطورة والمعقدة للتشفير ، على الصناعات المرتبطة بالدفاع الوطنى أو المؤسسات المالية ـ خاصـة البنـوك وذلك لعمليات التحويل الالكترونية للأموال • ولكن جنرال موتورز تقوم بتشفير جزء من المعلومات التى تمر فى شبكة التبادل التابعة لها ولكن ليس هذا كله الا جانبا واحدا من جوانب حرب المعـلومات •

ففى كل مستوى من مستويات الحياة الاقتصادية نجد أنفسنا فى قلب حروب معلومات ومقاتلين يحاربون من أجل السيطرة على المورد الذى يتضح أنه أكثر الموارد حسما فى عصر السلطات الجديدة •

الباب الرابع:

السلطة داخل الشركة المرنة

الفصل الخامس عشر

سقوط نظام الحويصلات

لقد بدات بالفعل الحرب من اجل التفوق الاقتصادى فى القرن الواحد والعشرين · وفى هذا الصراع العالمى من اجل السلطة ، تظل الأسلحة التكتيكية الرئيسية تقليدية : تشير عناوين الصحف كل يوم الى مناورات نقدية واجراءات حماية وتقنيات مالية وهلم جرا · ولكن التسلح الاستراتيجى الحقيقى حاليا ، كما هو الحال فى النظام العسكرى ، يعتمد على المعرفة ·

وعلى المدى الطويل ، تعتبر منتجات العمل الذهنى هى الشىء المهم حقيقة بالنسبة لكل أمة : البحث العلمى والتكنولوجى ، تدريب القوى العاملة ، البرامج المعلوماتية المتطورة ، تحسين الادارة ، الاتصالات فائقة التطور والتقدم والشبكات المالية الالكترونية · هذه هى المصادر الرئيسية للسلطة فى المستقبل · ومن بين هذه الأدوات الاستراتيجية لا يوجد ما هو أهم من التفوق فى مجال التنظيم ـ خاصة تنظيم المعرفة ذاتها ·

وكما سنرى فان ذلك يمثل الرهان الرئيسى للهجوم الحالى على البيروقراطية ·

هادمو البيروقراطيات :

لقد غذى رجال الأعمال لزمن طويل الوهم القائل بأن البيروقراطية مرض خاص بالدولة · ومن ثم اعتبر أن الموظفين كسالى وطفيليون وأفظاظ، فى حين قدمت كوادر الاقتصاد الخاص على أنهم ديناميون ومنتجون ويسعون لاكتساب العملاء · غير أن البيروقراطية تعيث فسادا فى الشركات الخاصة

كما فى القطاع العام . ففى الواقع تعانى العديد من الشركات الكبرى ذات النطاق العالمى من تصلب المفاصل كأية وزارة سوفيتية ، كما أنها لا تقل عنها عجرفة وغطرسة .

والآن ، يجرى البحث فى كل مكان عن طرق جديدة للتنظيم . ففى الاتحاد السوفيتى وأوروبا الشرقية كانت القيادة السياسية تخوض حربا ضد عناصر بيروقراطيتها ، بينما أخذت حكومات أخرى تبيع شركات القطاع العام وتحاول تجربة ربط الأجر بالكفاءة فى الدوائر الحكومية ، بالاضافة الى العديد من الابتكارات الأخرى .

ولكن الشركة الخاصة تتميز بأنها أكثر تقدما من حيث ادخال نماذج تنظيمية جديدة . ولا يمر يوم دون أن يدين مقال أو كتاب أو محاضرة ، الأشكال القديمة للتسلسل الهرمى للسلطة .

وينشر الشيوخ الروحيون لعلم الادارة العديد من الدراسات عن شركات تتجه نحو أساليب جديدة ، ابتداء من « الأبحاث السرية » لدى توشيبا الى الهيكل المضاد للتسلسل الهرمى لدى تاندم كمبيوتر . ويتصح المسئولون بالاستفادة من « نظرية الفوضى » ، وتظهر آلاف الوصفات السحرية وآلاف النزوات التى سرعان ما تطرح جانبا بنفس سرعة ظهورها .

وبطبيعة الحال ليس من المتوقع أن يختفى التنظيم البيروقراطى ، فهو لا يزال مناسبا لبعض الوظائف . ولكن من الآن فصاعدا استقرت الفكرة القائلة بأن الشركات اذا تشبثت بالهياكل المركزية والبيروقراطية القديمة التى ازدهرت فى عصر الصناعة ، فانها تعرض نفسها للافلاس والتدهور تحت ضغط المنافسة .

ففى المجتمعات الصناعية ، حتى وان كانت مقاليد الأمور فى أيدى قادة يتمتعون بسحر الشخصية ومناهضين أحيانا للبيروقراطية ، فان البيروقراطيين هم الذين يديرون عجلة الأمور نيابة عنهم . وأيا كان أسلوب وشخصية كبار المسئولين عن الشرطة والجيش والشركات الكبرى والمدارس والمستشفيات ، فان تنظيم كل هذه المؤسسات هو تنظيم بيروقراطى .

ان الثورة على البيروقراطية تهاجم فى الحقيقة الشكل الغالب للسلطة فى العصر الصناعى . وهى تتطابق مع التطور الذى يقودنا نحو اقتصاد القرن الواحد والعشرين ، ولذلك فان أولئك الذين يخلقون المناهج التنظيمية التى تكسر قيود البيروقراطية ، سواء أكان ذلك فى الشركات أم الدولة أو فى المجتمع المدنى ، هم ثوريون حقيقيون .

الحويصلات والقنوات :

وتنطوى كل بيروقراطية على سمتين أساسيتين يمكن تسميتهما « بالحويصلات » و « القنوات » ·

وبالتالى تكون السلطة اليومية داخل هذه البيروقراطية ـ أى السيطرة الجارية على العمليات ـ فى يد نوعين من الكوادر هما : الأخصائيون والمديرون ·

وتستمد الكوادر المتخصصة سلطتها من السيطرة على المعلومات التى تملكها الحويصلات ، أما المديرون فيستمدون سلطتهم من السيطرة على المعلومات التى تنساب فى القنوات · ويمثل نظام السلطة هذا العمود الفقرى للبيروقراطية وهو الذى يتعرض حاليا للمراجعة وللهجوم العنيف فى الشركات الكبرى فى العالم أجمع ·

قد تبدو لنا البيروقراطية وسيلة لتنظيم العاملين طبقا لوظائفهم ، ولكنها أيضا وسيلة لتجميع « الوقائع والحقائق » وتصنيفها · على كل حال ، الشركة المقسمة بوضوح الى أقسام متطابقة مع المهام أو الأسواق أو المناطق أو المنتجات ، هى مجموعة من « الحويصلات » التى تتجمع فيها المعلومات ثم تتدفق فى القنوات ، لكل منها محتواها من المعلومات المتخصصة والتجربة الشخصية · فالبيانات الهندسية تذهب الى المهندسين وبيانات المبيعات الى قسم المبيعات ·

وقبل وصول أجهزة الكمبيوتر ، كان « التحوصل » هو الطريقة الرئيسية لتنظيم المعرفة من أجل انتاج الثروة ، وكانت الميزة المهمة للنظام هو أن يبدو للوهلة الأولى وكأنه قابل للامتداد الى ما لا نهاية · اذ كان عدد الحويصلات غير محدود نظريا ·

ولكن عمليا بدأت الشركات والحكومات تكتشف حاليا أن هذا النوع من التخصص له حدوده·ولقد ظهرت هذه الحدود أولا فى مجال الخدمة العامة ، عندما وصلت بعض الادارات الى أحجام مهولة بلغت معها نقطة اللاعودة · ولنستمع مثلا الى شكوى جون · اف · ليهمان جينيور الذى كان حتى وقت قريب وزيرا للبحرية ·

لقد صرح لزملائه أثناء احدى المآدب أن الوحدات الحويصلية قد نمت فى البنتاجون لدرجة أنه أصبح « من المستحيل لى أو لأى شخص من الجالسين حول المائدة أن يصف بدقة [···] النظام الذى يتعين أن نعمل به وداخله » ··

واصطدمت الشركات الكبيرة الخاصة بحدود التخصص التنظيمى بعد أن بلغت هى أيضا أحجاما عملاقة • وحاليا تشهد هذه الشركات ، الواحدة تلو الأخرى ، انهيار نظامها الحويصلى تحت وطأة وزنه ذاته ، وليس حجمه وحده الذى يفسد هذا النظام •

السلطة مقابل العقل :

ان مجتمعنا يتنوع تاركا وراءه العصر الصناعى • لقد كان الاقتصاد الصناعى القديم متكيفا مع مجتمع الانتاج بالجملة ووسائل الاعلام الجماهيرية الخ ، أما الاقتصاد فوق الرمزى فيتوافق مع مجتمع يتناقض مع كل هذه المفاهيم ، وينطبق ذلك على أساليب الحياة الشخصية والمنتجات والتكنولوجيا ووسائل الاعلام ، فكل ذلك يتجه نحو عدم التجانس والتباين على نحو متزايد •

ان التنوع يأتى معه بالتركيب والتعقيد ، وبالتالى تحتاج الشركات لكى تعمل الى كمية متزايدة من البيانات والمعلومات والمهارة • ويتراكم كل ذلك بكميات ضخمة فى حويصلات يتزايد عددها باستمرار ويتحدى تكاثرها كل فهم بحيث تصبح كل حويصلة متخمة لدرجة الانفجار •

وفى الوقت نفسه ، تحدث التغيرات بسرعة كبيرة لدرجة لا تستطيع البيروقراطيات متابعتها • فارتفاع سعر الين فى طوكيو يسبب عمليات بيع وشراء فورية فى زيورخ أو لندن ، ويثير مؤتمر صحفى يعرضه التليفزيون فى طهران رد فعل فورى فى واشنطن ، وتدفع ملحوظة يرتجلها أحد السياسيين حول الضرائب المستثمرين والمحاسبين للاسراع باعادة تقييم شروط أحد عروض الشراء العلنية •

ان تسارع التغيير يجعل معرفتنا فانية ـ سواء أكانت هذه المعرفة تتعلق بالتكنولوجيا أم الأسواق أم الموردين أم الموزعين أم العملات الأجنبية وسعر الفائدة أو أذواق المستهلكين وجميع المتغيرات الأخرى للحياة الاقتصادية •

وهكذا يتعرض اجمالى موارد الشركة من بيانات وكفاءات ومعرفة لعمليات تدهور وتجدد مستمرة طبقا لدورة متزايدة السرعة • وينجم عن ذلك ، أن الحويصلات القديمة التى تكدست فيها المعرفة تبدأ فى التداعى ، بينما تكتظ حويصلات أخرى بشكل خطير ، وتصبح ثالثة متعطلة لأن المعلومات التى تحتويها قديمة وعديمة النفع • هذا بالاضافة الى أن العلاقات التى تربط كل هذه الأقسام والدوائر أو الحويصلات لا تكف عن التغير والتبدل •

ومعنى ذلك باختصار أن النموذج الحويصلي المصمم لعام ما لم يعد مناسبا للعام الذي يليه • ومن الصعب تغيير التنظيم في هذه الحالة طالما كان توزيع البشر والميزانيات يتم طبقا للنموذج ، لأن أية محاولة تغيير أو تعديل هيكلي ستشعل صراعات على السلطة ، ومن ثم كلما زادت سرعة التطور في العالم الخارجي تضاعفت صلابة الهياكل البيروقراطية وازدادت شدة التوترات والصراعات الداخلية •

غير أن المضايقات الحقيقية لا تبدأ الا عندما يلم الاضطراب بالسوق والاقتصاد أو المجتمع ككل فتواجه الشركة مشكلات من نوع جديد تماما أو تتعرض لظروف لم يسبق أن واجهتها من قبل • وعندئذ يتعين على متخذي القرار مواجهة الموقف الجديد الذي لا تتوافر عنه معلومات في الحويصلات • وكلما تسارع ايقاع التغيير الاقتصادي ــ وهذا شيء لا يتوقف ــ تضاعف عدد المواقف الفريدة •

ففي يوم ٣ ديسمبر ١٩٨٤ علم مسئولو شركة « يونيون كاربايد » عند استيقاظهم من النوم أن تسربا حدث في مصنعهم للمبيدات في بوهال بالهند وتكونت سحابة سامة تسببت في وقوع كارثة تعتبر من أسوأ الكوارث في التاريخ الصناعي • فقد لقي أكثر من ٣ آلاف شخص مصرعهم وأصيب أكثر من ٢٠٠ ألف آخرين • وكان يتعين اتخاذ قرارات فورية اذ لم يكن من الممكن اللجوء للعمليات العادية ، يدة التعقيد والبطء •

وهناك أحداث أخرى لا مثيل لها ، وان كانت أقل خطورة بكثير ، تسقط كحبات البرد على القيادات ، ففي اليابان ، يكتشف المسئولون في « موريناجا شوكولايت » أن مجرما مجهولا يسمم منتجاتهم • وفي بريطانيا اضطرت « جينيس » فجأة الى مواجهة الفضيحة الناجمة عن عملية تدليس في السندات ، وفي الولايات المتحدة وجدت بنزويل وتكساكو نفسيهما مدفوعتين فجأة في دعوى قضائية هائلة ، وأرغمت مانفيل كوربوريشن على اعلان الافلاس نتيجة لدعاوى قضائية تتهمها بتعريض العاملين فيها الى استنشاق مادة الأمينت أو الحرير الصخري • كما اضطرت سي • بي • اس الى دفع غارة خاطفة شنها عليها تيد ترنر في محاولة لخفض أسعار أسهمها • واضطرت « يونيتد ايرلاينز » لمواجهة عرض شراء علني غير مسبوق طرحه طياروها ، وانهار هذا العرض بعد ذلك وأحدث خسائر كبيرة في وول ستريت • ان أحداثا من هذا النوع ــ كثير منها أقل اتساعا ولم يلفت الانتباه ــ تضع القيادات بدون سابق انذار في مواقف لم يستعدوا لها ــ هم وبيروقراطيتهم ــ بشكل مناسب •

وفى هذه الحالات التى يصعب فيها اللجوء الى حويصلة معلومات محددة مسبقا يصبح البيروقراطيون شرسين · ويبدءون فى التقاتل من أجل مناطق نفوذهم وميزانيتهم والعاملين معهم والمعدات والأجهزة التى تحت سيطرتهم ــ ومن أجل السيطرة على المعلومات · ان هذه المعارك تعبىء كمية ضخمة من الطاقة والقدرات الانفعالية ، ولكن بدلا من أن تساعد في حل المشكلات تستهلك كل هذه الموارد البشرية فى صراع عقيم · والشيء الأسوأ أن هذا الصراع بين الاخوة يقود الشركة الى التصرف بشكل غير عقلانى · وتتلاشى « عقلانية » البيروقراطية التى طالما حظيت بالتمجيد ، وتذهب أدراج الرياح ، وتحل السلطة ــ العامل الموجود دائما ــ محل العقل فى اختيار القرارات ·

« الجمل ــ الفيل » والجمرة :

عندما يقع حادث استثنائى خارج نطاق اختصاص المعلومات المتوافرة فى الشركة التى تفاجأ به ، فان رد الفعل الغريزى هو تجاهل هذا الحدث · ولقد طبق تكتيك النعامة هذا عند ظهور أولى السيارات الأجنبية فى السوق الأمريكية · فتلك الحفنة من سيارات « أوبل » الصغيرة و « سيتروين » التى شوهدت فى الشوارع نحو نهاية الخمسينات لم تثر لدى بيروقراطيى ديترويت سوى شعور باللامبالاة · وحتى عندما بدأت أفواج الفولكس فاجن تنساب فى شوارع أمريكا ، فضل عمالقة صناعة السيارات تجاهل الأمر ، اذ لا تضم شركاتهم دوائر مسئولة عن محاربة المنافسة الأجنبية ، ولا توجد حويصلات تحتوى المعلومات الضرورية لذلك ·

وعندما تضطر البيروقراطيات لمواجهة مشكلة لا تدخل فى نطاق أى من الحويصلات الموجودة تحت أيديها ، فانها تتبنى سلوكيات نمطية معينة · أولها اتخاذ بعض التدابير الدفاعية المبدئية وقد يتبع هذا اقتراح تكوين وحدة جديدة (تكون تحت ادارة صاحب الاقتراح) · وعلى الفور ينظر الى الاقتراح على أنه سيستقطع الاعتمادات المخصصة للدوائر القديمة · وقد يرفض هذا الاقتراح من جراء ذلك ، فيطرح حل وسط ألا وهو « الجمل ــ الفيل » المشهور فى البيروقراطية أى تكوين لجنة تنسيق بين عدة دوائر أو قوة تدخل خاصة · وتمتلىء واشنطن بمثل هذه اللجان وكذلك الشركات الكبيرة ·

ان الوحدة الجديدة التى تجمع بين مشية الفيل الثقيلة والبطيئة وبين الحاصل الذكائى للجمل ، ليست فى الحقيقة سوى حويصلة اضافية ولكنها فى العادة تتميز بخاصية أن بها عاملين من المستويات الدنيا

توفدهم فى الواقع أقسامهم الأصلية للتأكد من أن الوحدة الجديدة لن تتعدى على مناطق النفوذ والميزانيـــات القائمة وليس لمحاولة ايجاد حل للمشكلة ٠

وأحيانا تبدو المشكلة أيضا كجمرة لا يريد أحد امساكها أو بالأحرى تحمل مسئوليتها ٠ وعندئذ يتم التخلص منها بتحويلها الى موظف شاب سيىء الحظ تنقصه الخبرة أو حتى تترك « يتيمة » دون أن يهتم بها أحد ٠ وفى كلتا الحالتين تتحول المشكلة بعد فترة الى أزمة كبيرة ٠

لقد أثارت هذه الصراعات الداخلية حفيظة أحد كبار المديرين فقرر ذات يوم « التخلص من الروتين » ، وعين أحد كبار المتخصصين لعـلاج المشكلة وكان من المفترض نظريا أن يحصل هذا المتخصص على تعاون جميع الدوائر والفروع والأقسام المعنية ٠ وانتهى به الأمر الى السقوط تحت سلطة النظام الحويصلى الموجود من قبل ، لأن المعلومات الضرورية لمعالجة المشكلة كانت تنقصه ٠

وبعد ذلك ، اقتنع هذا المدير بعدم جدوى مهاجمة البيروقراطيـة بشكل مباشر ولجأ الى حيلة أخرى تقليدية : فبدلا من انتظار أن تبدأ الآلة البيروقراطية البطيئة والعنيدة فى العمل ، عهد بهدوء بالمهمة الى موظف اختاره بعناية من مساعديه وعهد اليه بمهمة التوفيق بين قطاعات العمل ، ولكنه حاول تخطى الادارات القائمة فبدأت تلك الادارات ، وقد أسخطها تصرفه ، تعمل بحماس لهزيمة مبعوث العناية الالهية ٠

هذا ما حدث تقريبا عندما عهد رونالد ريجان لأعضاء فى مجلس الأمن القومى ـ وهو عادة ادارة استشارية ـ بمهام بيروقراطيات وزارة الدفاع أو وزارة الخارجيـة أو وكالة المخابرات المركزية ٠ وكان الأمر يتعلق بمحاولة عقد اتفاق مع « المعتدلين » الايرانيين ، على أمل أن يتمكن هؤلاء من الاسهام فى تحرير الرهائن الأمريكيين ، غير أن العملية انقلبت ضد الرئيس ٠ وبعد ذلك بقليل ، أعلنت لجنة « تاور » رسميا ، وهى اللجنة التى عهد اليها بالتحقيق فى فضيحة « ايران جيت » ، أنه كان يمكن تفادى الفضيحة اذا كان البيت الأبيض « استخدم النظام » ـ بمعنى آخر اذا كان البيت الأبيض منح ثقته للبيروقراطيــات القائمة بدلا من أعوانه ٠ غير أن اللجنة لم تحدد ما اذا كانت الأجهزة المذكورة ، بعد أن فشلت من قبـل فى مفاوضــات تحـرير الرهائن وكذلك فى استعادتهم بالتدخل العسكرى ، كانت ستنجح حيث أخفق الفريق الرئاسى ٠

ان ألعابا مماثلة من أجل السلطة تحدث « داخل » كل قسم عندما تصل وحداته الفرعية الى التنازع بكل الوسائل من أجل السيطرة على

النقود والأشخاص والمعرفة . وقد يعتقد المرء أن الصراعات الداخلية تأخذ هدنة فى حالة الأزمة العميقة ، ولكن اذا كانت هامات الرؤساء مهددة فان العكس هو الذى يحدث . وفى السياسة كما فى النظام العسكرى ، غالبا ما يظهر موقف الأزمة أسوأ جوانب وسمات المؤسسات والمنظمات بدلا من أفضلها .

يكفى لادراك لمحة عن التعصب الذى تستطيع أن تولده ــ خاصة فى وقت الأزمة ــ صراعات بيروقراطية صرفة أساسا ، قراءة تاريخ الصراعات بين الهيئات العسكرية أثناء الحرب العالمية الثانية فى أتون المعركة ، أو قصص الصراع حتى الموت بين المخابرات البريطانية من جانب وشبكات العمل السرى من الجانب الآخر . ان الشركات ليست بمعزل عن هذه التناقضات الانفعالية والمدمرة ، لأن صورة « العقلانية » التى تتمتع بها البيروقراطية هى صورة زائفة . ان السلطة وليس العقل هى التى تقود حركة هذه الهياكل الهرمية التقليدية التى لا يزال وجودها يزحم المشهد الاقتصادى .

ولكى يكون هناك أمل فى التخلص من البيروقراطية ، يجب القيام بشىء آخر غير تغيير وتبديل العاملين ، أو « ازالة الشحوم » أو تجميع وحدات تحت سلطة « نواب رئيس المجموعة » أو حتى تقسيم الشركة الى « مراكز ربح » متعددة . ان أية اعادة بناء جادة لشركة أو دولة يجب أن تهاجم مباشرة تنظيم المعرفة ومجمل نظام السلطة الذى ينبنى عليه ، لأن كل التنظيم الحويصلى هو الذى يعانى من أزمة .

قنوات مسدودة :

وكلما تسارع التغيير زاد خطر تفاقم « أزمة الحويصلات » ومما يزيد الأمر خطورة حدوث انقطاع مواكب « لقنوات » الاتصال .

ولقد أدرك المسئولون الأذكياء دائما أن النجاح مستحيل اذا لم تعمل العناصر المختلفة فى حالة انسجام . فعندما تكون خدمات البيع رائعة ولكن الانتاج لا يمكن تسليمه فى الوقت المحدد ، أو عندما تكون الدعاية ممتازة ولكنها لا تتطابق مع سياسة أسعار جيدة ، أو عندما لا يفهم المهندسون ما الذى يستطيع البائعون بيعه ، وعندما يكتفى المحاسبون بعد حبات الفاصوليا والقانونيون بدراسة القانون دون أن يطرحوا على أنفسهم أسئلة عن حياة الشركة ، فان هذه الشركة محكوم عليها بالفشل .

غير أن هؤلاء المسئولين أنفسهم يعرفون أيضا أن العاملين فى قسم أو وحدة نادرا ما يتحدثون الى العاملين فى الأقسام أو الوحدات الأخرى .

والحقيقة ، أن هذا النقص فى الاتصالات البينية بالذات هو الذى يعطى لمسئولى الصفوف المتوسطة سلطتهم • وهنا أيضا تمثل السيطرة على المعلومات العنصر الحاسم •

ان الكادر المتوسط ينسق عمل عدة وحدات تابعة بتجميع تقارير المتخصصين الذين يديرونها • وأحيانا يقوم بانزال المعلومات المتجمعة الى حويصلة أخرى • اذن ، هو يقوم بدور ربط من أعلى • وأحيانا أيضا ينقلها أفقيا لمسئول مجموعة أخرى • غير أن مهمته الرئيسية تتضمن دائما تجميع النتائج الجزئية للتحليلات التى قام بها المتخصصون وتوليفها قبل توصيلها عبر القنوات المناسبة الى المستوى الأعلى مباشرة من هرم السلطة •

أى بمعنى آخر ، كل بيروقراطية تجزىء المعرفة فى الاتجاه الأفقى ثم تعيد تركيبها مرة أخرى فى الاتجاه الرأسى •

لقد كان الهيكل القديم للسلطة المبنى على السيطرة على المعلومات بسيطا : كان المتخصصون يسيطرون فيه على الحويصلات ، بينما كانت الكوادر القيادية تسيطر على القنوات •

كان النظام مرضيا عندما كان الاقتصاد يعمل ببطء • أما حاليا فتتغير المواقف بشكل متسارع،وأصبحت المعلومات الضرورية معقدة ومركبة لدرجة أن القنوات ، مثلها مثل الحويصلات ، تعجز عن التعامل مع سيل الرسائل (العديد من هذه الرسائل لم يوجه الى الجهة الصحيحة) المنهمرة عليها •

ولذلك تتزايد أعداد المسئولين الذين يبتعدون عن القنوات الطبيعية ليلتفوا حول النظام ، ويحتفظون بالمعلومات التى يتلقونها من رؤسائهم أو من زملائهم لنقلها بشكل غير رسمى ، أو يتصلون عبر القنوات الخلفية ، أو يعملون « على طريقين » (طريق رسمى والآخر ليس كذلك) وبذلك تزداد تغذية وتعقيد الحروب الداخلية التى تمزق حاليا كل البيروقراطيات حتى تلك التى تدار بشكل جيد •

واذا كانت الشركات اليابانية قد واجهت حتى الآن بشكل أفضل مشكلة انحلال البيروقراطية،فذلك لأن لديها أساليب متعددة لمواجهة هذه المشكلة من بينها نظام بديل لنظام الشركات الأمريكية والأوروبية ولكننا قلما نفطن الى هذه الحقيقة •

ففى حين يتم الاعتماد فى الغرب على الحويصلات والقنوات فقط يملك اليابانيون بالاضافة الى ذلك ما يسمى بال « دوكيكاى » • انه نوع

من مشتقات البيروقراطية الشكلية ولكنه مشتق يضيف لهـا الكثير من الفعالية ٠

ففي أية شركة يابانية كبيرة يحافظ كل العاملين الذين التحقوا بها في وقت واحد ـ بحيث يمكن اعتبارهم مثل « وحدة في القوات المسلحة » أو « كتيبة » ـ على الاتصال ببعضهم البعض طوال مدة خدمتهم في هذه الشركة ، فيما يستمرون في الترقي تدريجيا الى الصفوف الأعلى ٠ وبعد فترة من الوقت ، يجدون أنفسهم موزعين في مختلف وظائف ودوائر وأقسام الشركة ٠ ويكون البعض قد صعد أسرع من الآخرين ٠

غير أن « الأخوة » كما يسمونهـا أحيانا ، تحافظ على وجودهـا الجماعي ، ويلتقي الأعضاء في سهرات حيث يتناولون كميات كبيرة من البيرة والساكي ، وحيث يتم بالذات تبادل معلومات واردة من عدد كبير من الجويصلات وذلك خارج أية قناة بيروقراطية ٠

وعن طريق الـ « دوكيكاي » يتم تناقل الوقائع « الحقيقية » أو العناصر « الواقعية » لموقف ما بين العديد من المعنيين على عكس القنوات الرسمية ، وفي قلب الـ « دوكيكاي » وبتأثير الخمر يتكلم الجميع بروح « هونتو » ـ أي يعبرون عن أحاسيسهم الحقيقية ـ بدلا من « تاتيماي » ـ حيث يقولون ما ينتظره الآخرون منهم ٠

ولكن من الخطأ تصديق الصورة التى تقدم الشركة اليابانية على أنها تعمل بدون اهتزاز وبشكل فعال وتوافقي خال من الصراعات ، اذ لا يوجد ما هو أبعد عن الصحة من ذلك ٠ ولكن المصفوفة المعلوماتيـة ـ الـ « دوكيكاي » الذى يتجاوز البيروقراطية ـ تسمح للمهارة والمعلومات أن تتداول عبر الشركة حتى عندما تكون القنوات الرسمية والحويصلات مكتظة ومحملة فوق طاقتها ٠ وتعطي هذه الممارسة لليابانيين ميزة في مجال المعلومات ٠

غير أن ذلك لا يكفي لتأمين بقاء التنظيم فضلا عن أن « الدوكيكاي » ذاته في طريقه للتفكك ٠ وبناء على ذلك تسرع كل الشركات لخلق نظم معلوماتيـــة قادرة على أن تحل محل الاتصـــالات القديمـة من الطراز البيروقراطي ، ويؤدي ذلك الى اعادة تنظيم أساسية ليس في اليـابان وحدها ولكن أيضا في الولايات المتحدة وأوروبا وفي كل الاقتصـــادات المتقدمة ٠

اذن ، نحن نشاهد أزمة متزايدة الخطورة في قلب البيروقراطيـة ذاتها ، فالتغيير المتسارع لا يقتصر على اغراق هيكل الحويصلات والقنوات

ولكنه يعيد النظر فى الافتراض الأساسى المسبق الذى بنى عليه النظام ـ أى الاقتناع بأنه من الممكن مسبقا تحديد من فى الشركة يحتاج أن يعرف ماذا ، وهو افتراض مبنى فى ذاته على فكرة أن الشركات هى أساسا آلات تعمل فى بيئة منظمة ٠

اننا نتعلم حاليا أن هذه التنظيمات والشركات لا تشبه الآليات ولكنها أقرب الى الأجهزة البشرية ، وأنه فى وسط مضطرب حيث تكثر وتتعدد التحولات الثورية والمفاجآت والاضطرابات التنافسية ، لم يعد ممكنا من الآن فصاعدا تحديد ما يجب أن يعرفه كل فرد مسبقا ٠

التدفق الحر للمعرفة :

لقد رأينا فى الفصل الثالث عشر كيف تحاول الشركات أن تفرض نظاما للمعلومات الضرورية للادارة ٠ ويلاحظ أن بعض هذه النظم تستهدف تدعيم التنظيم القديم ، فهى لا تستخدم أجهزة الكمبيوتر والاتصالات الجديدة الا من أجل مضاعفة الحويصلات وزيادة سعة القنوات ٠ وفى الجانب المقابل يرمى البعض الآخر الى تحقيق أهداف ثورية تماما ، اذ يسعون الى تقويض النظام القديم واحلال نظام التدفق الحر للمعلومات محله ٠

ولكى نقدر أهمية هذا التطور حق قدرها ، وانتقالات السلطة التى تنجم عنه سيكون من المفيد الاشارة الى أوجه التشابه اللافتة للنظر (وان كان نادرا ما تسترعيه) التى يمكن اقامتها بين البيروقراطيات والجيل الأول من أجهزة الكمبيوتر ٠

ففى الواقع ، لقد عززت الوحدات المركزية الأولى الضخمة البيروقراطيات القائمة فى الاقتصاد والدولة ، وهو ما يفسر الخوف والنفور الذى أثارته هذه الأجهزة فى البداية ، حيث كان الجمهور العريض يرى غريزيا فى هذه الآلات الضخمة جدا أداة جديدة للسلطة يمكن استخدامها ضده ٠ وكانت البيانات التى تجمعها هذه الأجهزة على شاكلة البيروقراطيات التى تستخدمها ٠

كانت الوظيفة الأساسية للجيل الأول من أجهزة الكمبيوتر المستخدمة فى الشركات هى تنظيم المهام الروتينية مثل وضع الآلاف من جداول الدفع ٠ وكان الملف المعلوماتى للسيد دوران يتضمن عدة « حقول » ، كما يقول الخبراء ، كان اسمه مثلا يمثل الحقل الأول وعنوانه الثانى وتوصيفه المهنى الحقل الثالث وراتبه الأساسى الرابع وهلم جرا ٠

وهكذا كان عنوان كل فرد يسجل فى حقله الثانى ورقم الراتب الأساسى لكل فرد فى حقله الرابع ٠

بهذه الطريقة ، نجد كل المعلومات التى أدخلت فى ملفات الدفع قد وجهت نحو أماكن ومواضع محددة مسبقا فى قاعدة البيانات ـ تماما كما فى البيروقراطية حيث تذهب المعلومات الى أقسام أو حويصلات محددة مسبقا ٠

وهذا بالاضافة الى أن النظم الأولى للبيانات المعلوماتية كانت متدرجة ومتسلسلة أيضا على غرار البيروقراطيات التى صممت من أجلها ٠ كانت الذاكرات ترتب المعلومات طبقا لترتيب تسلسلى ٠ لقد صنع الجهاز ذاته لتركيز السلطة المعلوماتية عند قمة الهرم ٠ فالمخ يقع فى الوحدة المركزية فى حين أن الأجهزة السفلى مجردة من أى ذكاء : لذلك كان وصفها المعتاد بأنها « الوحدات الطرفية الصماء » له ما يبرره ٠

لقد غير الميكروكمبيوتر كل شيء ٠ فقد جرى لأول مرة ادخال الذكاء المعلوماتى فى آلاف المكاتب التى جهزت بقواعد بيانات وبالسلطة اللازمة لمعالجتها ٠ غير أن هذه الهزة لم تكن قد هددت بعد التنظيم البيروقراطى بشكل جدى ٠

والسبب فى هذا أنه رغم استبدال البنك المركزى العملاق بمجموعة كبيرة من قواعد البيانات ، لكن هذه القواعد ما زالت توزع حصيلتها من المعرفة على حويصلات جامدة ومحددة مسبقا ٠

ولكننا أصبحنا الآن على مشـــارف ثورة جديدة فى طرق تنظيم المعلومات داخل قواعد البيانات ٠

فالقواعد الجديدة المسماة بالقواعد « الترابطية » تسمح للمستخدمين باضافة أو حذف حقول أو اقامة علاقات أخرى بينها ٠ ولنذكر فى هذا الصدد قول مارتن تمبلمان ، النائب الأول لرئيس شركة اس ٠ بى ٠ سى ٠ لخدمات برامج الكمبيوتر التى تصمم برامج للشركات المالية : « لقد أدركنا على الفور [٠٠٠] آخذين فى الاعتبار كل أبعاد التغيير [٠٠٠] أن العلاقات المتسلسلة والمتدرجة بين البيانات ستؤدى الى كارثة » ٠ وأضاف قائلا : « يجب أن تسمح القواعد الجديدة باقامة علاقات جديدة » ٠

غير أن هذه النظم لازالت شديدة التعقيد بحيث يصعب استخدامها على الميكروكمبيوتر ٠

وتمثلت المرحلة التالية فى ظهور قواعد بيانات أطلق عليها اسم « الوسائط المتعددة » ٠ وهى قواعد تستطيع تخزين الرسوم البيانيـــة والموسيقى والكلام وأصوات أخرى بالاضافة الى النصوص ٠ والأمر الأكثر

أهمية أن قواعد البيانات تلك ، تجمع بين وظائف قواعد البيانات والبرامج بطريقة تمنح مرونة فى الاستخدام أكبر بكثير من القواعد السابقة ٠

حتى فى النظم الترابطية ، لم يكن ممكنا جمع وربط المعطيات أو البيانات الا طبقا لبعض الطرق الموضوعة مسبقا ٠ فى حين تسمح قواعد البيانات ذات « الوسائط المتعددة » بتعدد خيارات توفيق وتركيب المعلومات الواردة من مختلف الحقول والملفات واعادة تركيب تلك المعلومات ومعالجتها ٠ ففى النماذج الأولى لهذا التنظيم ، كانت المعلومات مبنية على هيئة شجرة : وللانتقال من ورقة على فرع الى ورقة على فرع آخر ، كان يتعين المرور مرة أخرى بجذع الشجرة ٠ أما قواعد البيانات « ذات الوسائط المتعددة » فتكون ما يشبه بيت عنكبوت ، حيث يمكن الانتقال بسهولة من عنصر معلوماتى الى عنصر آخر طبقا للمضمون الذى يجمع بينهما ٠

ان الهدف الأقصى لرواد هذا النوع من قواعد البيانات هو تحقيق نظم قادرة على تجميع وتشكيل وتقديم المعلومات ، فى عدد لا نهائى تقريبا من الأشكال ـ وان كانوا يعترفون بأنهم لا يزالون بعيدين عن هذا الهدف٠ وبذلك يتم اعطاء المعلومات « شكل حر » أو « تدفق حر » ٠

وفى هذا المجال ، هناك مثال مدهش ، ونقصد به « البطاقة الفارطة » « هيبر كارد » التى نشرتها شركة آبل وكان مبتكرها بيل اتكينسون قد عرضها لأول مرة فى بوسطن أثناء معرض للمنتجات المعلوماتية وانبهر بها الجمهور ٠

كانت أول صورة ظهرت على الشاشة هى صورة راعى بقر ٠ وعندما وضع اتكينسون اشارة ضوئية على قبعته بدأت قبعات أخرى تجتاح الشاشة ، كانت احداها قبعة بيسبول ٠ وبالاشارة الى هذه القبعة بواسطة الاشارة الضوئية أظهر اتكينسون ، على التوالى ، صورا أخرى مرتبطة برياضة البيسبول ٠ لقد أصبح اذن قادرا على استخراج معلومات من قاعدة البيانات وايجاد تركيبات ترابطية بينها بشكل شديد التنوع ٠

وكانت النتيجة جديدة بالنسبة لنظم القواعد القديمة لدرجة أن الأمر بدا وكأن الكمبيوتر يقوم بعمليات تجميع وربط حرة ـ كما يفعل الانسان تقريبا ٠

وبتجاوز حدود الفئات التقليدية والوصول مباشرة الى مجموعات مختلفة من البيانات ، تسمح « الوسائط المتعددة » مثلا لمتخصصة فى التصميم مكلفة باعداد منتج جديد أن تترك لذهنها وخيالها أن يجوسا خلال مخازن المعرفة ٠

فعلى سبيل المثال تستطيع هذه المتخصصة أن تنتقل على الفور ، من البيانات الفنية الى صور المنتجات التى سبق طرحها فى الأسواق ، والى ملخصات لمقالات في الكيمياء ومنها الى سيرة مشاهير العلماء ثم الى مشاهد مصورة تعرض مناقشات فريق التسويق والى تعريفات النقل ومشـــاهد لمجموعة أخرى معنية بالمنتج الجديد ، ومنها الى آخر أسعار البترول وقوائم المكونات التى يجب أن يتضمنها المنتج الجديد أو الاطلاع على آخر الدراسات عن المخاطر السياسية فى البلدان التى ترد منها المواد الأولية للمنتج ·

وبالاضافة الى أن هذا النوع من قواعد البيانات يزيد بشكل قوى الحجم الكمى للبيانات المتاحة ، فانه يسمح أيضا « بتركيب » المعلومات فوق بعضها البعض فى شكل طبقات · يستطيع المستخدم اذا أراد أن يتعامل أولا مع شكل المعلومة الأكثر تجريدا ثم مع الأقل تجريدا والانتقال الى أعلى سلم التجريد أو أسفله ، كمـا يستطيع أن يولد أفكارا مبتكرة بترتيب البيانات فى تركيبات وتوليفات جديدة ·

ان القواعد التقليدية تناسب عمليات البحث عن المعلومات عندما نكون مدركين تماما لما نريده ، أما نظم « الوسائط المتعددة » فهى الأنسب عندما لا نكون متأكدين مما نريد · وتعد شركة فورد موتور حاليا نظاما للتشخيص يتيح لميكانيكيي الشركة البحث على الشـــاشة عن الاجابات التى يحتاجونها اذا لم يتوصلوا الى تحديد العطل فى سيارتك ·

وتقترح وكالة حماية البيئة الوطنية فى الولايات المتحدة قاعدة بيانات « متعددة النصوص »، لتساعد الشركات فى العثور على اللوائح والتقنينات المعقدة التي تنطبق على مليونى خزان أرضي والربط بينها · وتستخدم جامعة كورنيل نظاما « متعدد الوسائط » لطلبة السنة الثانية فى كلية الطب وهو يسمح للطلبة « بتصفح » المنهج الدراسى بشكل متفاعل على الشاشة لاقامة تداعيات وروابط مرتبة · وفى جامعة طليطلة يجرى اعداد منهج أدب اسبانى يعتمد على قاعدة بيانات ذات « نصوص متعددة » ·

ولكننا لا نزال بعيــدين عن امكانية أن ندخـل أنواعا مختلفة من البيانات أو المعلومات وننقب عنها دون أن يكون المبرمج قد أدخل افتراضات مسبقة عن الترابطات القائمة بين أجزاء الموضوع · حتى فى النظم المتعددة الوسائط لا زالت الارتباطات الممكنة تتوقف على البرمجة الموضوعة مسبقا · غير أن توجه البحث واضح : اننا نقترب تدريجيا من أشكال حرة (أو على الأقل أكثر حـرية) لتخزين المعلومات والبيـانات فى ذاكرة الكمبيوتر والتعامل معها) ·

ان البيروقراطيات بحويصـــلاتها وقنواتها المحفدة مسبقا تمنع

الاكتشاف التلقائي والابتكار · وعلى العكس فان النظم الجديدة باتاحتها الفرصة للفكر الحدسي ، كما للتفكير المنهجي ، تفتح الباب للالهام الذى يقود الابتكــــار ·

ان هذه النظم تمنحنا الاحساس المبهر بامتلاك حـرية جـديدة ·

والمهم هنا هو أننا نتوجه نحو استخدام أشكال قوية لمعالجة المعرفة تعد فى ذاتها مناهضة بعمق للبيروقراطية ·

فبدلا من البيروقراطية المصغرة المسجونة ، اذا أمكن القول ، داخل آلة حيث كل شيء متسلسل وهرمي ومصنف سلفا ، نتجه الآن نحو معلومات مفتوحة وذات طراز حر · وبدلا من وحدة مركزية أو بضع وحدات معالجة عملاقة تملك وحدها هذه السعة والامكانية الضخمة ، تمتلك الشركات حاليا الآلاف من أجهزة الكمبيوتر الشخصى التى ستصل قريبا الى نفس القوة والامكانية ·

وتدعو هذه الطرق فى الترتيب والتصنيف ومعالجة المعلومات ، الى توقع ثورة عميقة فى مناهج تشكيل وتحليل وتوليف المعلومات والتعبير عنها ــ فضلا عن أنها سوف تشكل قفزة الى الأمام فى القدرة على الابتكار فى مجال التنظيم · الا أن هذه الطرق قد تؤدى أيضا الى تفكك الاحتكارات الصغيرة للمعلومات المنغلقة تماما على نفسها والتى خلقهـا الافراط فى التخصص فى الشركة البيروقراطية · مما سيفقدها سلطتها بالتالى ·

الا أن ذلك لا يمثل سوى جزء من القصة ، اذ يتعين فى الواقع أن نضيف الى الابتكارات الحقيقية فى مجالات تخزين البيانات الـكترونيا واستخدامات المعرفة ، شبكات الاتصالات غير المتدرجة هرميا التى تتجاوز حدود الشركات وتحطم الحواجز بين مناطق اختصاص الأقسام ولا تحقق الترابط فيما بين مستخدمى الأقسام ، ولكنهـا تربطهم أيضا بالدرجات الأعلى أو الأدنى من التسلسل الهرمى ، بحيث يستطيع حاليا أى موظف مبتدئ فى أسفل السلم الوظيفى ، الاتصـال مباشرة بالكوادر العليـا التى تتعامل مع نفس المشكلة التى يتعامل معها · كما يستطيع المدير العام بمجرد الضغط على زر الاتصال بأى من العاملين فى مستوى أدنى ، بل ويستدعى معه صورا أو يضع تصورا مشتركا أو يتدارس معه تخطيطا فنيا أو يحلل ميزانية ، كل ذلك دون المرور عبر الكوادر المتوسطة ·

وفى ظل هذه الظروف ، لا يجب أن نندهش عندما نرى التناقص المستمر لصفوف الكوادر المتوسطة خلال السنوات الأخيرة ·

ان الطرق الجديدة لتخزين المعلومات الكترونيا توجه ضربة قاسية للتخصص ، كما تختصر فى الوقت نفسه وســـائل الاتصال الجديدة

التسلسل الهرمى • ويتعرض المصدران الرئيسيان للسلطة البيروقراطية ــ الحويصلات والقنوات ــ للهجوم •

المعرفة هى السلطة والسلطة هى المعرفة :

لقد وصلنا الى ادراك احدى العلاقات الأكثر جوهرية ــ وان كانت مهملة غالبا ــ التى توحد المعرفة والسلطة فى المجموع الاجتماعى ، بمعنى طرح مسألة العلاقات بين الطريقة التى ينظم بها شعب ما أفكاره ، والطريقة التى ينظم بها مؤسساته •

ونقول باختصار ، ان الطريقة التى ننظم بها المعرفة تحدد غالبا الطريقة التى ننظم بها الناس والعكس صحيح • فعندما صممت المعرفة على أنها متخصصة ومتدرجة شيدت الشركات أيضا طبقا لقواعد التخصص والانظام المتسلسل •

وتتطلب سرعة التحولات حاليا سرعة مماثلة فى اتخاذ القرارات ، غير أنه من المعروف تماما أن الصراعات على السلطة هى سبب البطء فى البيروقراطيات • والمنافسة تتطلب ابتكارات مستمرة الا أن السلطة البيروقراطية تخنق القدرة على الابتكار • ان البيئة الاقتصادية الجديدة تتطلب ردود فعل حدسية،كما تتطلب وبنفس القدر تحليلات دقيقة للغاية، ولكن البيروقراطيات تريد أن تحل القواعد الآلية الأكيدة محل الحدس •

لن تختفى البيروقراطية ولن تنهار الدولة ، غير أن الظروف البيئية التى سمحت بازدهار البيروقراطيات لتصبح آليات ذات فاعلية عالية ، هى فى طريقها لأن تتغير جذريا وبسرعة كبيرة ، حتى ان هذه البيروقراطيات لم تعد قادرة على انجاز الوظائف التى خلقت أصلا لأدائها •

ونظرا لأن البيئة الاقتصادية عرضة لمفاجآت من كل نوع ولاضطرابات وانقلابات وعاصفة عامة ، أصبح من المستحيل أن نعرف مقدما وبدقة نوعية المعلومات التى يتطلبها كل من يعمل فى الشركة أو المنظمة • وبالتالى ، فان المعلومات اللازمة سواء للكوادر أو العاملين لكى يعملوا بشكل صحيح ــ بغض النظر عن الابتكار وتحسين الأداء ــ يتعذر عليها أن تجد وجهتها الصحيحة عن طريق القنوات الرسمية القديمة •

ولذلك يكتشف ملايين الأشخاص الأذكياء والمجتهدين أنهم لا يستطيعون انجاز مهامهم ــ فهم لا يستطيعون فتح أسواق أخرى أو خلق منتجات جديدة أو اعداد تكنولوجيات أفضل أو تحسين معاملة العملاء أو زيادة الأرباح ــ بدون الالتفاف حول اللوائح وخرق الاجراءات الشكلية • وكم من العاملين يضطرون حاليا لاغماض عيونهم عن هذا النوع

من المخالفات لكى يتم انجاز الأعمال رغم كل شيء ! ولكى يكون الشخص ديناميكيا وماهرا ذا حيلة ويستطيع اختراق الموانع والصعود فى سلم الترقى ، عليه أن يضع البيروقراطيات فى سلة المهملات ٠

ومن ثم تبدأ المعلومات فى هجر القنوات الرسمية لكى تنساب عبر الشبكات غير الرسمية ، من الفم الى الأذن ، التى تجتهد البيروقراطية بشكل خاص لالغائها ٠ وفى الوقت نفسه ، تنفق الشركات الكبرى المليارات لاحلال النظم الالكترونية محل هياكل الاتصال القديمة ٠ غير أن ذلك يتطلب تغييرات واسعة فى التنظيم القائم وفى التصنيف الذى يحدده للعاملين وفى التجمعات التى يتم توزيعهم فيها ٠

لكل هذه الأسباب ، سنشهد فى السنوات القادمة مدا من عمليات اعادة الهيكلة ستبدو بجانبها موجة الاضطرابات التى وقعت مؤخرا وكأنها موجة خفيفة ٠ وعندما يفقد المتخصصون والمديرون السيطرة على الحويصلات والقنوات التابعة لهم سيشعرون أنهم مهددون فى مواقعهم الراسخة ٠ وسوف تنعكس عليهم آثار عمليات انتقالات السلطة وتؤثر على الشركات من أولها لآخرها وعلى فروع بأكملها ، لأننا اذا غيرنا العلاقات بين المعرفة والانتاج ، فاننا بذلك نزعزع أسس الحياة الاقتصادية والسياسية ذاتها ٠

ولذلك فاننا نعيش الآن عشية أكبر انتقال للسلطات فى التاريخ الاقتصادى كله ، وتتجلى أولى علاماته بوضوح فى تلك التنظيمات ذات الطراز الجديد التى لا تكف عن الظهور حولنا والتى يمكن تسميتها « شركات المستقبل المرنة » ٠

الفصل السادس عشر

الشركة المرنة

ندعوكم للتعرف على بعض ابطال الاقتصاد الحالى - اناس من امثال سرجيو روسى • انه ليس بيروقراطيا منتفخ الاوداج او احد أباطرة الأعمال القابعين في ناطحات السحاب الزجاجية • انه يعمل في منزله بفال فيبراتا في شرقي ايطاليا مع ثلاثة من العاملين ينتجون على آلات شديدة التطور والحداثة حقائب يد ذات نوعية متميزة يصدرها الى كبرى محلات نيويورك •

وغير بعيد عن هذا المكان ، يمكن مقابلة ماريو دوسيستاكيو مدير ايروفلكس وهى شركة يعمل بها ٢٠٠ شخص وتورد أمتعة ل « ماسيز » • وتعتمد هذه الشركة على التعاون الأسرى : فزوجة ماريو بيا مسئولة عن المبيعات وابنهما تيتو يسهر على الشئون المالية ، في حين تقوم ابنتهما تيزيانا بتصميم الموديلات ويتولى ابن الأخ باولو شئون الانتاج •

وطبقا لصحيفة « كريستيان سينس مونيتور » فان هاتين الشركتين ليستا سوى نموذجين من بين ١٦٥٠ شركة صغيرة منتشرة في الوادى ، تستخدم كل منها ١٥ شخصا في المتوسط وان كان اجمالى انتاجها يبلغ أكثر من مليار دولار سنويا من الملابس والمنتجات الجلدية والأثاث • وتمثل فال فيبراتا احدى المناطق الصغيرة التى تكون ما يسمى بايطاليا الثالثة •

فاذا اعتبرنا أن ايطاليا الأولى هى الجنوب الزراعى ، وأن ايطاليا الثانية هى الشمال الصناعى • فان ايطاليا الثالثة هى مناطق ريفية صغيرة أو شبه ريفية على غرار فال فيبراتا وشركاتها الأسرية - التى وان

كانت صغيرة الا أنها ذات تكنولوجيا متقدمة وتساهم فى صنع « المعجزة الايطالية » ٠

وهناك نموذج مماثل في المدن الصغيرة ٠ فعلى سبيل المثال ، يوجد فيمدينة « مودين » ١٦ ألف فرصة عمل في مجال صناعة الملابس الداخلية والجوارب ٠ ففي الوقت الذي انخفض فيه ـ منذ عام ١٩٧١ ـ عدد العاملين في الشركات التي يعمل بها أكثر من خمسين شخصا ، زادت القوة العددية فى الشركات التى يعمل بها خمسة أشخاص على الأكثر ، وأغلب هذه الشركات ذات طابع أسري ٠

وفى أماكن أخرى أيضا بدأ الجميع في اكتشاف الفضائل الاقتصادية للأسرة ٠ ففى الولايات المتحدة ، كتبت مجلة « نيشنز بيزنيس » تقول : « تعيش الشركات الأسرية حاليا حالة ازدهار بعد أن كانت لا تمثل أهمية لسنوات طويلة » ٠ وأعرب فرنسوا ٠ ام ٠ دى فيشر بشركة سميث بارني عن رغبته فى جعل شركته « أول بنك استثمارى للأعمال الأسرية » ، ويستعد الجميع لبيع خدماتهم لما يمكن تسميته « قطاع الشركة الأسرية » ، ابتداء من استشاريين في الادارة الى مستشارين فى شئون الزواج ٠

ومن بين هذه الشركات ، نجد الشركات الأصغر حجما لا تهتم اطلاقا بالشكليات أو الألقاب ، ولكن الشركات الأكبر حجما تجمع بين الوجاهة فى القمة ، حيث أفراد الأسرة ، وبين تنظيم بيروقراطى عند أسفل السلم ٠

وقد يكون خادعا تماما التأكيد على أن كل ما هو صغير جميل ، أو أن الاقتصاد المتقدم يستطيع العمل دون أن يملك شركات كبيرة جدا ، خاصة فى وقت لا يكف التكامل والدمج عن التقدم على الصعيد العالمى ٠ وعلى سبيل المثال ، تثير فكرة الشركات الايطالية الصغيرة ، بالرغم من ديناميكيتها ، حنق الاقتصاديين الايطاليين على أساس أنها لن تمثل ثقلا كبيرا فى السوق الأوروبية الموحدة ٠ أما بالنسبة للجماعة الأوروبية ، التى نادت دائما بالحجم الكبير ، فهى تشجع عمليات الاندماج الواسعة النطاق وتدفع الشركات الصغيرة لتكوين تحالفات أو كونسورتيوم ٠ قد يكون لهذا التوجه الأخير فوائده ، ولكن فى الجانب المقابل قد يكشف الولع بالضخامة عن موقف لا يتسم بالفطنة ـ وعدم قدرة على قبول متطلبات واحتياجات الاقتصاد فوق الرمزى ٠

ففى الواقع تتجمع الأدلة التى توضح أن الشركات العملاقة التى تكون العمود الفقرى للاقتصاد الصناعى هى شركات شديدة البطء وسيئة التكيف مع تسارع النشاط التجارى والصناعى ٠ ففى الولايات المتحدة ، خلقت الشركات الصغيرة الجزء الأكبر من فرص العمل التى ظهرت منذ عام

١٦٧٧ ، فضلا عن أنها كانت أكثر الشركات قدرة على الابتكار • والأسوأ أيضا أن الشركات العملاقة أقل نجاحا على صعيد الأرباح اذا أخذنا بدراسة مجلة « بزنس ويك » عن أكبر ألف شركة حيث يذكر المقال : « أن الشركات الأكبر حجما ليست هى الأكثر ربحا ـ على أساس النسبة بين الأرباح ورأسمال الشركة التأسيسى ـ الا فى أربعة فروع من ٦٧ فرعا [•••] • وفى أكثر من نصف الحالات تعجز أكبر الشركات القائمة من بلوغ متوسط نسبة الربح على رأس المال المستثمر الذى تم تحقيقه فى اجمالى الفرع » •

وفى العديد من القطاعات أخذ الوفر الذى كان يمكن أن يحققه الحجم الكبير يتناقص كلما خفضت التقنيات الجديدة سعر شخصنة المنتجات (أى الانتاج طبقا لمواصفات خاصة للعملاء) ، وأنقصت حجم المخزون وقللت الاحتياجات لرؤوس الأموال • وطبقا لدونالد بوفيجيل النائب السابق لرئيس شركة وستنجهاوس والمسئول عن الخطط طويلة المدى « لقد اتضح ان التبريرات التقليدية للحجم الكبير غير فعالة أو غير منتجة أو مضللة » •

وتستطيع حاليا الشركات الصغيرة أن تحصل على رؤوس أموال ضخمة من وول ستريت وأن تصل بسهولة الى المعلومات • ولأنها تميل الى أن تكون أقل بيروقراطية فان ذلك يسهل عليها الاستخدام الجيد لهذين العنصرين •

وعلى أية حال ، من المؤكد أن الشركات الكبيرة جدا فى اقتصاد الغد ستعتمد ، أكثر من السابق ، على بنية تحتية واسعة من صغار الموردين الذين يتميزون بفاعلية ومرونة كبيرتين ـ وستكون أغلبية هؤلاء الموردين شركات أسرية •

ان البعث الحالى للمنشآت الصغيرة ، وهى غالبا أسرية ، يجلب معه أيديولوجية وأخلاقيات ونظام معلومات مناهضا بعمق للبيروقراطية •

ففى نظام الأسرة كل فرد يفهم كل شىء ، على عكس البيروقراطية التى تنطلق من مسلمة أن لا أحد يفهم شيئا (ولذلك فهى مضطرة الى ذكر كل شىء بالتفصيل فى دليل عمليات يتعين على العاملين اتباعه حرفيا) • وكلما كانت الأمور مفهومة بشكل جيد قل الاحتياج الى اعطاء تعليمات شفوية أو مكتوبة ، وكلما كان هناك تقاسم للمعلومات والمعرفة قل احتياج التنظيم الى حويصلات وقنوات •

وفى الشركة البيروقراطية يتم تحديد موقع ورواتب العاملين ، على الأقل ظاهريا، على أساس « ما يعرفه المتقدم للعمل » ، وكأن علاقات المتقدم الاجتماعية والشخصيات التى يعرفها لا تؤخذ فى الاعتبار ـ

والحقيقة أن هذه العلاقات مهمة دائما وتصبح أكثر أهمية كلما ارتفعنا فى السلم الاجتماعى • فهى التى تؤدى الى الوصول الى المعارف الحيوية ــ وهى التى تسمح بمعرفة من يدين لمن بخدمة أو من هو أهل للثقة (وبالتالى من يعتبر مصدر معلومات موثوق بها) •

أما فى الشركة الأسرية ، فلا أحد يخدع أحدا ، فكل فرد يعرف أكثر من اللازم عن كل شىء • وعندما تقدم مساعدة لابن أو ابنة عن طريق « الواسطة » يبدو الأمر طبيعيا تماما ، فى حين يسمى ذلك فى الشركة البيروقراطية محسوبية ، ويعتبر مساسا بنظام الكفاءة المفترض أنه معمول به •

وفى الأسرة ، تؤدى الذاتية (عكس الموضوعية) والحدس والانفعال الى الحب أو الكره • أما فى أية بيروقراطية ، فمن المفترض أن تكون القرارات غير شخصية وموضوعية ، وان كانت التوجهات المهمة تحددها فى الواقع كما رأينا ، الصراعات الداخلية من أجل السلطة ــ أكثر من العقلانية الواضحة والباردة المذكورة فى النشرات والكتيبات •

وفى نهاية الأمر ، يصعب غالبا فى أية بيروقراطية ، بالرغم من ألقاب الوظائف والتدرج الشكلى ، معرفة من بيده السلطة • أما فى الشركة الأسرية ، فالجميع يعلمون أن الألقاب والتدرج لا يؤخذان فى الحسبان • السلطة لرب الأسرة ويحتمل أن تكون لربة الأسرة • وعندما يموت المالك تنتقل السلطة عادة لأحد الأقارب يتم اختياره بعناية •

باختصار ، فى كل مكان تلعب فيه العلاقات الأسرية دورا فى الأعمال ، فانها تميل الى قلب القيم والقواعد البيروقراطية ــ وفى الوقت نفسه هدم هيكل السلطة المطابق لها •

وتكتسب هذه الحقيقة أهمية أكبر ، بما أن البعث الحالى للشركة الأسرية ليس ظاهرة عابرة على الاطلاق • غير أن الشركة الأسرية فى عصر « ما بعد البيروقراطية » الذى ندخل فيه لن تكون سوى حل من بين العديد من الحلول لاستبدال البيروقراطية والسلطة التى تنطوى عليها •

نهاية قطاعة الحلوى :

قلة محدودة من بين الأطفال الذين يكبرون فى مجتمع التكنولوجيا المتقدمة سيرون قطاعة الحلوى • هذه الأداة شديدة البساطة المستخدمة فى الطهى وهى نوع من الصمة القاطعة المثبتة على مقبض ، عندما نضغط بها على العجين تقطع بدقة حدود الكعكة الصغيرة المنتظرة ، وبالتالى يمكن خبز كميات من منتجات كلها متماثلة • وبالنسبة للأجيال السابقة كانت قطاعة الحلوى رمزا للانتظام والتماثل •

ان عصر الانتاج بالجملة الذى يتلاشى حاليا ، لم يقتصر فى الماضى علي توفير منتجات متماثلة ولكنه أنتج أيضا في أوج ازدهاره شركات أقيمت طبقا لمبدأ الكعكات الصغيرة ·

ولنلق نظـرة على أية خطة عضوية ـ الخطة الاجمالية لتنظيم ادارة أو مصلحة ما ـ فان الاحتمال الأكبر أن تظهر فى شكل خطوط تربط مربعات صـــغيرة محددة تماما ، كل منها مماثل تماما للآخر · ونادرا ما تستخدم هذه الخطة العضوية اشارات مختلفة لتمثل تنوع الوحدات التى تتكون منها الشركة ـ رسم حلزونى مثلا للاشارة لقسم فى حالة نمو سريع ، أو شبكة عنكبوتية توحى بالعديد من الروابط مع عناصر أخرى أو الاشارة بخط متعرج ليرمز الى أداء متذبذب ·

وعلى غرار منتجات الشركة والبيروقراطية التى تمثلها ، نجد الخطة العضوية ذاتها موحدة النمط ·

ولكن عندما يحل البحث عن منافذ نوعية للبيع محل التســـويق بالجملة والانتاج ذو المواصفات الشخصية محل الانتاج بالجملة ، يصبح من المنطقى توقع أن تفقد هياكل الشركة ذاتها نمط الجملة · بمعنى آخر ، مضى عهـد الشركة من نـوع « الكعكات الصغيرة » وهياكل السلطة من نفس النوع التى كانت سائدة فى الشركات الكبرى ·

فى كتاب « الموجة الثالثة » ، كنا قد تكلمنا عن ابتكارات مثل العمل المرن والمميزات الاجتماعية المرنة وترتيبات أخرى بدأت في معاملة العاملين ، على أنهم شخصيات مفردة وتمنح في الوقت نفسه الشركة ذاتها مرونة متزايدة بشكل كبير · لقد أصبحت هذه الأفكار متداولة حاليا لدرجة أن مجـلة « نيوز ويك » نشرت مقـالا بعنوان « لمحة عن المستقبل المرن » ·

ولكن ما لم تدركه الشركات الكبرى بعد ، أنه يتعين أن تنفذ المرونة الى أعمق من ذلك بكثير وأن تمتد لأسس التنظيم · ان الهيكل الجامد والمنتظم يجب أن يترك مكانه لتشكيلة من الترتيبات التنظيمية المتناسقة · فتفكك الشركات الكبرى الى وحدات عمل لا مركزية لا يمثل الا خطوة صغيرة تأخذها على مضض فى الاتجاه الصحيح · وبالنسبة للعديد من الشركات يجب ان تكون المرحلة القادمة مرحلة تحقيق المرونة الكاملة ·

القضاء على الاستعمار فى الشركة :

حاليا ، تخفي كل شركة كبيرة داخلهـا عـددا من « المستعمرات » بحيث يتصرف سكانها مثل كل المستعمرين في العالم ـ مطيعون أو حتى خانعون فى وجود الصفوة المسيطرة ، وحاقدون أو محتقرون فى غيابها ·

لقد رأى الكثيرون منا ، فى لحظة أو أخرى ، كوادر عليا يفترض أنهم « شخصيات مهمة » يتراجعون عن أفكارهم الحقيقية أمام اعتراضات رؤسائهم ويوافقون بهز رؤوسهم على حماقات ، ويضحكون من مزحات ثقيلة · وقد يذهبون أحيانا الى حد تبنى أسلوب كبار المسئولين فى الملبس والحركات والاهتمامات الرياضية · ويظل ما يعتقده ويستشعره هؤلاء المرءوسون فى ضميرهم مجهولا وغير مرئى· ان أغلب الشركات الكبرى تحتاج وبشكل ملح الى ثورة داخلية أى الى التشجيع على حرية التعبير ·

فتحت السطح الأملس للزمالة الذكرية ولمظاهر المساواة (على الأقل فى الولايات المتحدة) تظل عقلية التذلل أمام « السيد » حية تماما · غير أن التأثير السيىء للاستعمار فى الشركات الكبرى يمتد لأبعد من ذلك أيضـــا ·

فالبيروقراطية فى الواقع هى نوع من الامبريالية التى تسود على مختلف « المستعمرات » الخفية فى الشركة ·

وهذه المستعمرات ، ليست سوى العديد من المجموعات الصغيرة غير الرسمية ، الحذرة والمستترة التى تتولى فى الواقع تشغيل كل شركة كبيرة يعوق تنظيمها الرسمى عملها · وتجمع كل مجموعة قدرا من المعارف الفريدة والمتميزة تماما تقوم بتنظيمها واستخدامها خارج الصرح الحويصـــلى والرسمى للبيروقراطية ·

لكل واحدة من هذه المستعمرات قياداتها الخاصة بها ونظم اتصالاتها وهياكل غير شكلية للسلطة ، والتى نادرا ما تتطابق مع هياكل التدرج والتسلسل الادارى الرسمى ·

ان عملية اعادة بناء الشركة طبقا لمبادىء ما بعد البيروقراطية تعتمد، فى جانب كبير منها ، على الجهد اللازم لازالة الاستعمار الذى سيحرر هذه التجمعات المرفوضة حتى الآن · ويمكن القول بأن المشكلة الرئيسية لكل الشركات الكبرى حاليا هى معرفة كيفية تحرير الطاقة المتفجرة والمبدعة التى تخفيها هذه المستعمرات السرية ·

الرقص على الموائد :

لقد أعلنت مؤخرا شركة سيرز ، روبيوك وشركاهم ــ التى تعد أهم شركة أمريكية للبيع بالتجزئة ــ عن عملية اعادة تنظيم أساسية لمجموعة تقنيات التسويق لديها · وفى تقدير رئيس المجموعة والمدير العام ميخائيل بوزيك أن هذا القرار لا غنى عنه حيث قال : « فى الحقيقة ، لقد استخدمنا نفس الشكل التنظيمى لمواجهة المنافسة فى مجالات عديدة متنوعة ومختلفة » ·

واستنتج المعلقون أن ذلك جعل سيرز ، رويبوك كسولة وغير قادرة على التنافس ·

غير أنه حتى كبار المسئولين الذين يدركون ضرورة « اطلاق » طاقات العاملين وارخاء اللجام لهم لايزالون بعيدين عن ادراك المدى الذى عليهم بلوغه لفك قبضة البيروقراطية ·

لقد تم تقسيم عشرات ، ان لم يكن مئات ، الشركات الى عدد كبير من « مراكز الربح » بهدف أن يتصرف كل مركز كشركة صغيرة يقظة للسوق · ولقد بلغ الأمر حد أن بعض وظائف القيادة العليا تحولت الى مراكز ربح يتعين عليها أن تمول نفسها ذاتيا (وبالتالى تبرر وجودها) وذلك ببيع خدماتها الى وحدات أخرى فى الشركة · ولكن ما فائدة هذه التجزئة اذا كان كل مركز ربح ليس سوى « نموذج مصغر » على غرار الشركة الأم ــ بيروقراطية مصغرة تسكن فى البيروقراطية الضخمة ؟

ان ما يعلن حاليا عن وصوله هو تحول ثورى وأكثر عمقا سيغير طبيعة السلطة الاقتصادية فى جملتها ·

ففى الولايات المتحدة لايزال أغلب المديرين يعتبرون المؤسسة أو الشركة مثل « الآلة » التى يمكن ربط أو فك مساميرها و « ضبط » أو تشحيم أجزائها المختلفة · وهو ما يمثل استعارة بيروقراطية · وعلى النقيض من ذلك بدأ العديد من اليابانيين يستخدمون استعارة أخرى من نوع ما بعد البيروقراطية : فالشركة بالنسبة لهم هى « كائن حى » ·

ويقتضى هذا التعبير ، بين أمور أخرى ، أن الشركة تولد وتنضج وتشيخ وتموت ــ أو تولد مرة أخرى فى شكل جديد ·

وميلاد شركة باللغة اليابانية يسمى « سوجيو » ، ويشير حاليا العديد من القيادات الى المرور « بسوجيو » « جديد » أو ثانى أو ثالث ·

وفى لحظة هذه الولادة الثانية بالتحديد يتقرر النجاح أو الفشل على المدى الطويل · فاذا ظل تنظيم الشركة على نفس الأسس البيروقراطية للشركة القديمة ، فانه من المحتمل جدا أن تكون حياتها الثانية قصيرة وتعيسة · فى حين أن الشركات التى استطاعت بهذه المناسبة أن تستكشف بحرية طرقا جديدة فى جميع الاتجاهات وتختار الأشكال التنظيمية التى تناسبها بشكل أفضل ، لديها فرص أكثر بكثير لأن تتكيف مع البيئة الابداعية والمبتكرة التى تنتظرها ·

ان مفهوم الشركة المرنة لا يستلزم اطلاقا غياب الهياكل ، وانما يفترض أن تكف الشركة أثناء ميلادها الثانى عن أن تكون « بغلا هجينا » لكى تصبح فريقا كبيرا ، يضم نمرا وسربا من سمك بيرايا الصغير الضارى

وبغلا صغيرا أو اثنين وقد يضـم ــ من يدرى ــ فريقا من النحل لجمع المعلومات • هذه الصورة تصلح لتوضيح حقيقة أن شركة الغد يمكن أن تجمع ، فى اطار مشترك ، عددا كبيرا من الصيغ المختلفة أى أنها قد تعمل كشكل من أشكال سفينة نوح •

ولفهم هذه الفكرة جيدا من المهم أن نتذكر أن البيروقراطية ليست سوى طريقة لتنظيم الأفراد والمعلومات ، بين العديد من الطرق الأخرى ذات التنوع اللانهائى تقريبا • ففى الواقع لدينا قائمة ضخمة من الصيغ التنظيمية لنقتبس منها ، ابتداء من فرق الجاز الصغيرة الى شـبكات التجسس ، ومن القبائل والجماعات العشائرية بمجالسها الى أديرة الرهبان وفرق كرة القدم ، وكل نوع من هذه التنظيمات يتناسب مع مواقف معينة وان كان لا قيمة له بالنسبة لمواقف أخرى • وكل تنظيم له طرقه المميزة لجمع وتوزيع المعلومات وكذلك لاسناد السلطات •

ومن الممكن تماما أن نتخيل شركة كبيرة تضم وحدة على غرار الدير مكلفة بكتابة البرامج المعلوماتية ، وفريق بحث منظم على منوال فرقة جاز ارتجالية ، وشبكة تجسس مجزأة الى فئات مستقلة طبقا لقواعدها الملزمة تبحث بالطرق المشروعة عن فرص الاندماج أو الشراء ، وقوة بيع تعمل مثل « قبيلة » متحمسة وقد يكون لها حتى أناشيد الحرب الخاصة بها وطقوسها الجماعية الانفعالية (حضر مؤلف هذا الكتاب اجتماعا لقسم المبيعات فى شركة مهمـة حيث تأكدت تباشير تنظيم قبائلى ، فقـد كان المشاركون فى هذا الاجتماع مأخوذين نفسيا بعملهم لدرجة أنهم كانوا يرقصون فعلا على الطاولات من فرط الحماس) •

هذه الرؤية الجديدة للشركة المصممة من الآن فصاعدا على أنها تجميع لطرق تنظيم مختلفة تماما وبعضها مضاد جذريا للبيروقراطية ، بدأت تظهر فى بعض الشركات فى شكل جنينى أو نصف مستتر • وستتجه العديد من الشركات الأخرى اراديا بدرجة أو أخرى نحو طريق النموذج ذى الهياكل الحرة ، لأن هذا الطريق هو الذى يتحكم فى بقائها فى اقتصاد الغد الذى يتميز بأنه نقيض لاقتصاد الجملة •

لقد اقتنعنا باستخدام تعبير « الشركة المرنة » لوصف وتسمية هذا الكيان الجديد • وقد وصف الاقتصادى الفرنسى هوبرت لانديه شركة المســتقبل بأنها يجب أن تكون « متعددة الخلايا » وهى كلمة صعبة التداول • ويصفها آخرون بأنها « عصبية » على أساس انها ستشبه الجهاز العصبى أكثر من الآلة ، كما يصف آخرون نمط التنظيم الوليد « بالشبكة » •

ويعبر كل من هذه المصطلحات الأخيرة عن وجه للحقيقة الجديدة وان

كان لا يوجد واحد منها ملائم تماما ، لأن الشكل المستقبلي الذى نراه يتشكل يتضمن كل هذه السمات بالاضافة الى سمات أخرى أيضا ٠ اذ سيكون فى امكان الشركات أن تضم عناصر « متعددة الخلايا » أو « عصبية » ، كما قد يتخذ هيكلها شكل « الشبكات » ، وان كان بامكان بعضها أيضا أن يضم وحدات ستظل بيروقراطية بالكامل ، لأنه لا يمكن الاستغناء عن البيروقراطية فى بعض الوظائف ٠

ولكن توجد سمة رئيسية للشركة فى مرحلة ما بعد البيروقراطية وهى أن العلاقات بين مكوناتها ليست محددة مسبقا بشكل صارم ، كما هو الحال بالنسبة للتوزيع المصطنع للمعلومات فى قواعد البيانات القديمة الطراز ٠

ففى الشركة المرنة ، تستطيع الوحدات الحصول على المعلومات من بعضها البعض أو طلبها من الخارج ، وينطبق نفس الشىء على العاملين والمال الذى يحتاجون اليه ٠ وقد يكون الطرف الآخر فى المكتب المجاور أو فى قارة أخرى ، وأحيانا تتداخل الوظائف كما هو الحال بالنسبة لقاعدة البيانات « المتعددة الوسائط » ، أو قد يتم تقسيم الوظائف الى خانات لأسباب منطقية أو جغرافية أو مالية ٠ وقد تلجأ بعض الوحدات بشكل كبير الى الخدمات التى تؤمنها الادارة المركزية فى حين تفضل وحدات أخرى عدم استخدامها الا نادرا ٠

ويتعين على أية حال ، أن يكون تدفق المعلومات أسرع وأكثر حرية ٠ ولذلك يجب أن تكون شبكة القنوات متقاطعة بحيث تكون قادرة على العمل من أسفل الى أعلى وبالعكس وأفقيا أيضا ــ روابط عصبية ستجتاز جدران مربعات الخطة العضوية ، بحيث يسمح لأفراد الشركة بتبادل الأفكار والبيانات والصيغ والاقتراحات والرؤى والوقائع والاستراتيجيات والهمسات والايماءات والابتسامات وكل ما يتضح أنه أساسى لفاعلية وكفاءة الشركة ٠

ويقول شارلز جيبسون المدير التجارى للتجهيزات المكتبية بشركة هيولت ــ باكارد : « عندما تقوم بربط الأشخاص المناسبين بالمعلومات اللازمة تحصل على القيمة المضافة » ، ثم يضيف : « ان المعلومات هى العامل الحافز الذى لا غنى عنه للتغيير على جميع المستويات ولذلك فان سلطتها خطيرة للغاية » ٠

الشركات الأسرية فى المستقبل :

من بين أنواع الشركات التى طالما تم سحقها ، وان كانت تناضل حاليا بصلابة لتتحرر من البيروقراطية الادارية للنظام القديم ، الشركات الأسرية مثل « روسى » و « دوستاشيو » الايطالية ٠

فى زمان ما ، كان لا يوجد عمليا سوى هذه الوحدات الصغيرة المملوكة لعائلة أو أسرة ما • وفى القرن التاسع عشر ، عندما كبر حجم الشركات بدأت تتحول الى بيروقراطيات يديرها محترفون •

أما الآن فاننا نجد أن عدد المؤسسات المستقلة ذات الادارة الأسرية يتضاعف من جديد • كما شهدنا أيضا اتساع ظاهرة التوكيل الانتاجى الذى يجمع النشاط المعزول لفرد أو لشريكين بالامكانات المالية والترويجية لشركة كبيرة • ومن المنطقى فى المرحلة التالية أن يظهر « داخل » الشركات الكبيرة شركات اسرية بحيث تشكل داخلها وحدات محترمة وقوية •

ان أغلب الشركات الكبيرة تستخدم حاليا تعبير « الأسرة » بشكل بلاغى مصطنع يتسم بالوقاحة • فيقدم لنا التقرير السنوى صورة لرئيس الشركة ، يبدو فيها أنيقا ومبتسما بينما يؤكد لنا النص الذى كتبه مساعده أن كل العاملين ابتداء من الرئيس حتى البواب يكونون « أسرة كبيرة » •

ولا يوجد فى الواقع ما هو أكثر تناقضا مع أشكال التنظيم الأسرى ، بل وبشكل أشمل لا يوجد ما هو أكثر عداء للحياة الأسرية فى حد ذاتها من بيروقراطية الأعمال النمطية • وليس صدفة أن العديد من الشركات الكبيرة ترفض تماما تعيين رجل وزوجته فى نفس الشركة •

ففى الولايات المتحدة توجد قواعد من هذا النوع وضعت أصلا لمنع المحسوبية والاستغلال ولكنها بدأت تفقد صرامتها • فمثلا ، مع تزايد عدد السيدات ذوات الكفاءة العالية تجد القيادات صعوبة فى نقل أحد الزوجين الى مكان آخر عندما يكون للآخر وظيفة جيدة فى المكان نفسه •

ومن المتوقع حاليا أن تستخدم الشركات أزواجا وزوجات ـ بصفتهم كذلك ـ وسرعان ما قد يديرون مراكز ربح وقد يسمح لهم ـ أو بالأحرى يتم تشجيعهم ـ بادارتها كشركات أسرية •

وفى حالة شراء شركة مثل اوروفليكس المملوكة لأسرة ديوستاشيو من المحتمل أن تستمر ادارتها كشركة اسرية ، اذ لا يوجد مبرر لتفكيك الفريق الأسرى الذى حقق نجاح الشركة فى السابق • بل ان أى مشتر حكيم سيعمل كل ما بوسعه للحفاظ عليها دون تغيير •

ان ظاهرة « الأسرة » تطرح العديد من المشكلات بالنسبة للمديرين وان كانت تصور أحيانا من منظور ايجابى للغاية •

فمن الممكن اذا عمل زوج وزوجته معا وكانا يتمتعان بطاقة كبيرة ونشاط أن يشكلا فى الشركة قوة سياسية خطيرة •

وقد يحل الصراخ والبكاء وكل ما تتضمنه الحياة الأسرية من انفعالات قد تبدو فى كثير من الأحيان غير منطقية ، محل عملية كبت الانفعال التى تمثل قاعدة فى الشركات الكبرى • وقد تضطر الادارات ذات الأغلبية الذكرية الى التخلى عن بعض المناصب المهمة لسيدات يدعمهن أزواجهن أو أى فرد آخر فى الأسرة • فى مثل هذا النظام ، كيف يمكن التأكد من أن المسئوليات المهمة لن توكل الى ابن أحمق ؟ وكيف يتم معالجة مشكلات الخلافة ؟ كل هذه الصعوبات ليس من السهل التغلب عليها •

ومن ناحية أخرى ، تمثل الشركات الأسرية مزايا كثيرة • فهى على عكس الهياكل البيروقراطية الكبيرة تستطيع اتخاذ قرارات سريعة ، كما انها غالبا ما تكون مستعدة للقيام بمجازفات كبيرة • بل وتستطيع الشركات الأسرية أن تتغير بسرعة أكبر وأن تتكيف بشكل أفضل مع الطلبات الجديدة للسوق • ان التعاون الشخصى المستمر بل وحتى محادثات قبل النوم تتيح اتصالا غنيا وفوريا ، حيث تكفى دمدمة تذمر أو تكشيرة لتعبر عن الكثير • فضلا عن أن أفراد الأسرة يشعرون عامة باحساس قوى بالملكية تجاه الشركة ويظهرون حافزا كبيرا ودرجة عالية من الأمانة • وأخيرا ، فان ساعات العمل التى يقضونها فى الشركة تتجاوز غالبا كل ما هو آدمى •

لكل هذه الأسباب ، يمكن توقع انتشار الشركات الأسرية داخل الشركات العملاقة الأكثر ذكاء وكذلك خارجها •

وفى هذا الصدد ، يقدم سيد ممتاز سعيد الخبير الباكستانى فى مجال الادارة فكرة ثاقبة حيث يكتب « أن غياب العنصر الانسانى الذى ميز العصر الصناعى فى الغرب كان نتيجة اقصاء دور الأسرة وقصره على دور اجتماعى بحت وليس دورا اقتصاديا • وبالتالى فان كلا من المدير والعامل فى العصور الحديثة يشعر بالتمزق بين مكان العمل والمنزل بالمعنى المادى وبين الأسرة والشركة بالمعنى الانفعالى والعاطفى ••• هذا الصراع موجود فى قلب مشكلات الدافع والحافز والروح المعنوية والانتاجية التى تعرفها المجتمعات الغربية الحديثة » •

ويؤكد سعيد أن على بلدان العالم الثالث رفض الموضوعية البيروقراطية وموقف الغرب المناهض للأسرة ، من أجل بناء اقتصادات سيكون أساسها الحقيقى هو الأسرة •

ان ما يطالب به هو الاحتفـاظ بأسلوب الوصـاية الأبوية (وهى طريقة أسرية رحيمة تنهجها الحكومة فى ادارة البلاد) التى استبعدتها بالفعل أغلب الشركات الغربية الكبيرة والتى تتراجع حتى فى اليابان ٠ غير أن مثل هذا المفهوم بعيد جدا عن مفهوم الشركة المرنة التى من الممكن أن تضـم نظريا مركز ربح يعمل بأسـلوب الوصـاية الأبوية ، الى جانب توجهات أخرى مناقضة له تماما ، ووحدة تدار مثل معسكر تدريب فى البحرية الأمريكية الى جانب تجمع فوضوى ٠ وخلال التحول الذى يقودنا الى تنويع الأشكال التنظيمية قد يؤدى القضاء على « الاستعمار » الى تحرر التنظيم الأسرى داخل اطار الشركة المرنة ٠

غير أن الأسرة - كما سوف نرى - ليست سوى أحد الأشكال التنظيمية للشركة بين أشكال أخرى عديدة ومتألقة ستنتزع خلال السنوات القادمة السلطات من أيدى المديرين - البيروقراطيين ٠

الفصل السابع عشر

زعماء القبائل و « مفوضو » الشركات

تتعرض الولايات المتحدة كل عشر سنوات لغزو ٠

وقد انتشر مؤخرا جيش قوامه ٤٠٠ الف رجل انطلقوا من ١٢ نقطة انزال ٠ وقام هذا الجيش بمسح البلاد خلال حملة استمرت ستة اسابيع ، اوقف بعدها عملياته وذاب فى السكان المدنيين بكل جهازه الخاص بالتموين والايواء والمعلومات والاتصالات اللاسلكية الذى كان يربط بين وحداته اثناء تقدمه ٠

ان خطط هذا الغزو ، وان كان نادرا ما تدرس ، مليئة بالدروس المستفادة بالنسبة للعديد من الشركات الأمريكية ٠ هذا « الجيش » المعنى ، يستهدف فى الحقيقة جمع البيانات المفصلة التى ستستخدم كأساس لملايين القرارات الاقتصادية ٠ هذا بالاضافة الى أن الطريقة التى يتم بها تنظيم هذه الحملة يمكن ان تغذى تفكير العديد من الكوادر المسئولة ٠

ان الهيئة التى نشير اليها هنا هى بالطبع هيئة التعداد والاحصاء الأمريكية ، والتى تلقى عملياتها التى تتم كل عشر سنوات ضوءا قويا على بعض سمات الشكل المستقبلى للشركة ، ألا وهو الشركة المرنة ٠ لأنه مع التنوع المتزايد للاقتصاد ما بعد الصناعى يتعين ابتكار أشكال جديدة وأكثر تنوعا للشركات ٠

ولا يتعلق الأمر هنا بنظرية أكاديمية بحتة ولكن بقضية حياة أو موت ٠

فمنذ سنوات عديدة ، كتب عالم السبرانطيقا روس أشبى تعبير « التنوع الضرورى » لتحديد أحد الشروط المطلقة لاستمرار حياة أى نظام · ان الشركات الحالية ينقصها ، بكل بساطة ، التنوع الضرورى الذى سيسمح لها بالبقاء على قيد الحياة خلال القرن الواحد والعشرين ·

وبالبحث فى كل صوب عن وسائل عمل أكثر توافقا ، ستنتهى هذه الشركات الى اكتشاف ـ أو اعادة اكتشاف ـ عدد من الطرق التى تهملها الادارة البيروقراطية الحالية ، أو تستبعدها أو تسىء فهمها واستخدامها · وللعثور على هذه الأفكار سيتعين عليها استكشاف كل المجالات وسوف يكون عليها أن تهتم بدراسة مؤسسات ذات طابع غير اقتصادى مثل الدول والأحزاب السياسية والجامعات والجيش ـ وهيئة التعداد والاحصاء ·

وفيما يلى عينة مما ستستطيع هذه الشركات أن تتعلمه ·

التنظيم النابض

المقصود هنا تنظيم يتمدد وينكمش بايقاع منتظم ، ويوجد مثال جيد لمثل هذا التنظيم فى مكتب التعداد والاحصاء فى الولايات المتحدة ، الذى يتمدد كل عشر سنوات لأبعاد ضخمة ، ثم ينكمش ويبدأ فى وضع خطط التعداد المقبل بعد عقد من الزمان قبل أن ينتفخ من جديد ·

ويملك المكتب ١٢ مركزا اقليميا دائما موزعة فى أنحاء الولايات المتحدة ، تضم فى الأوقات العادية حوالى ٧ آلاف شخص · ويتضاعف عدد هذه المراكز خلال فترة التعداد الكامل بمراكز موازية · وتستقبل هذه المراكز الموازية المتقدمين ـ أكثر من ١ر٢ مليون شخص ـ يختار منهم ٤٠٠ ألف يكلفون بالطواف بجميع الأبواب · وتستمر المراكز « الموازية » لمدة عام أو عام ونصف العام قبل أن يتم تفكيكها · ويعود عدد العاملين عندئذ الى ٧ آلاف شخص مرة أخرى ويبدءون فى وضع خطط التعداد العقدى التالى ·

ان الانجاز الناجح لمثل هذه المهمة يستحق فى مجال الادارة ما يعادل الميدالية الذهبية الأولمبية · ولقد تضمن تعداد ١٩٩٠ العديد من الأخطاء ، غير أن ذلك لا يقلل من أن انجاز مثل هذا العمل كان سيصيب بالفزع أكثر من مدير شركة ذى خبرة ·

والواقع أن الكثير من الشركات يمكنها أن تتبين أن لديها نفس المشكلات تقريبا وان كان على مستوى أصغر ، لأن « التنظيم النابض » موجود فى فروع اقتصادية كثيرة ·

ومثال ذلك ، الشركات التى تنشط فى فترة معينة لاعداد

« الموديلات » السنوية الجديدة ثم تهدىء من نشاطها بقية العام ، وتجارة التجزئة التى تزيد من عدد العاملين لديها وقت احتفالات رأس السنة ثم تستغنى عنهم فى يناير ، وكذلك الفرق المؤقتة التى تتكون لتصوير فيلم أو بث تليفزيونى معين ٠

وأحد أشكال التنظيم الاقتصادى التى تنتشر حاليا أسرع من غيرها هو شكل القوة الخاصة أو « فريق المشروع » ٠ ويتعلق الأمر فى الحقيقة بأحد بدائل التنظيم النابض وهو تنظيم ذو « نبضة وحيدة » ، ففى حين تزيد النظم النابضة الحقيقية وتتناقص بشكل تكرارى ، فان فريق المشروع مكلف عادة بانجاز مهمة وحيدة ، ومن ثم يكبر ثم ينكمش مرة واحدة قبل أن يتفكك نهائيا ٠

ولكن المتطلبات فى مجال المعلومات والاتصالات هى متطلبات نوعية محددة فى جميع الحالات ٠ فبالنسبة لعملية تعداد ١٩٩٠ مثلا كانت المراكز « الموازية » متصلة فيما بينها بشبكة مؤقتة تضم أجهزة كمبيوتر ومعدات اتصالات لاسلكية قيمتها ٨٠ مليون دولار ٠ ومقدر لهذه الشبكة أن تتحول بعد ذلك الى مهملات أو أن يتم سحبها جزئيا داخل الهيئة الدائمة ٠

ان قادة الشركات أو الوحدات النابضة غالبا ما يدركون أن سلطتهم هى أيضا نابضة ٠ ففى فترة الانكماش ، تميل الاعتمادات للنضوب ويختفى الأفراد ويتناقص مخزون المعرفة والموهبة ، فى حين تتزايد السلطة النسبية للوحدات المنافسة داخل الشركة ٠ وفى ظل هيكل سلطة نابض يستطيع المسئول بصفته رئيسا لمشروع كبير أن يكون ذات يوم « غوريلا تزن ٣٠٠ كيلو جرام » ثم يتحول فى اليوم التالى الى قرد أمريكى صغير ٠ ومن ناحية أخرى يشيع التفاعل بين العديد من التنظيمات النابضة نوعا من الايقاع المنتظم فى اجمالى الاقتصاد ٠

غير أن النبض لا يقتصر على التغير فى الحجم ٠ فبعض الشركات تخضع للتنظيم النابض ولكن بمعنى أنها تتذبذب بشكل مستمر بين المركزية واللامركزية ٠ وكل نبضة أو انقلاب فى الاتجاه تؤدى الى تعديل لهياكل المعلومات وبالتالى الى انتقال للسلطة ٠ ان التسارع وطابع التغيير غير المتوقع يدفعان الى الاعتقاد بأن النبضات ستزداد سرعة خلال السنوات القادمة ٠

التنظيم ذو الوجهين

هناك نوع آخر من التنظيم من المحتمل أن يتواجد فى العديد من الشركات المرنة : انه الوحدة ذات الوجهين القادرة على العمل تبعا للظروف بطريقتين مختلفتين تماما ٠ ان النبضة تنطوى على تغيرات للأبعاد وللهيكل

موزعة فى الزمن ، وعلى النقيض ، يمكن للتنظيم ذى الوجهين أن يحتفظ بنفس الحجم ولكنه ينتقل ـ تبعا للاحتياجات ـ من القيادة المتدرجة الهرمية الى ادارة ذات طابع غير رسمى على الاطلاق ٠

وأحد أفضل الأمثلة على ذلك ، هو بالطبع التشكيل العسكرى البريطانى الشهير للقوات الجوية الخاصة (اس٠ايه٠اس) والمخصص لعمليات مكافحة الارهاب ، كاستعادة الرهائن أو مهام أخرى تتطلب الحيلة وعنصر المفاجأة فى آن واحد ٠ ويعمل هذا التشكيل طبقا لنوعين متناقضين تماما من الممارسات ٠ فعلى أرض المناورة الرسمية لا يرى الا كل ما هو مصقول ، أحذية لامعة وطاعة عمياء ، بينما يفرض الرقباء بأوامرهم احترام النظام ٠ هنا تتأكد بشكل حاد امتيازات الرتبة والتدرج والتسلسل الهرمى ٠

ولكن يقدم هؤلاء الرجال شيئا مختلفا تماما على أرض الواقع ٠ فهذا التشكيل يقاتل فى وحدات صغيرة ، وغالبا ما يكون الاتصال بقواعدها مقطوعا ولا يوجـد فى هذه الوحدات ضابط واحـد ٠ هناك بالطبع قائد للوحدة ٠ ولكن قد لا تكون له رتبة وهو يسمى عادة « بالرئيس » ٠ والرجال الذين كانوا يلقبون فى أرض المناورة « بالسادة المهذبين » ، وهو لقب قد يثير الابتسام ، يفقدون هذا اللقب وسائر الألقاب ، وينادون بأسمائهم المجردة ٠

ففى المعركة يستعاض عن الرتب والامتيـازات والتسلسل الهرمى بمجموعة من القواعد الأساسية ٠ وكان الكولونيل دافيد ستيرلينج ، هو أول من اقترح تكوين هذه القوات ، التى قسمها الى وحدات صغيرة تتألف كل وحدة من أربعة رجال ٠

وكتب ستيرلينج يقول ان « كل رجل من هؤلاء المقاتلين مدرب تدريبا خاصا ويتمتع بمستوى كفاءة عال فى كل مجالات ومهام الخدمة ، بالاضافة الى أن كل واحد منهم يتلقى تدريبا اضافيا فى تخصص واحد على الأقل يتم اختياره حسب الاستعداد الشخصى لكل منهم ٠ وأثناء العمليات التى تتم غالبا فى ظلام الليل يستخدم كل رجل فى هذه القوات الخاصة قدراته الفردية فى التمييز والحكم الى أقصى حد » ٠

لقد تمسك ستيرلينج برقم أربعة ، بهدف منع ظهور سلطة من النوع التقليدى ٠ وقد تحاشى خطر الفوضى بفضل الحرص على اختيار أفراد الفريق من الأشخاص الذين يحركهم للعمل حافز جماعى قوى للغاية ٠ والنتيجة هى تنظيم وصف بأنه « ديمقراطية عسكرية فريدة تماما [٠٠٠] اذا نجح الفرد فى التكيف معها ، فانه يتخلى عن وضعه الاجتماعى وحتى عن هويته الأصلية ليصبح عضوا فى فرقة تتســـم الروابط فيها بقوة

الروابط الأسرية » ٠ ونرى هنا أن برامج التدريب وروح الالتزام العميق بين أفرادها أمران سمحا للوحدة بأن تعمل أحيانا بأسلوب استبدادى وأحيانا أخرى بأسلوب ديمقراطى على حسب مقتضيات الموقف ٠

وتتطلب الحياة الاقتصادية أيضا سلوكيات تختلف فى الوقت العادى عنها فى أوقات الأزمة ٠ وبالفعل نجد الآن العديد من الشركات تشكل خلايا للأزمات أو الطوارىء وتعد خططا لهذا الاحتمال أو ذاك وتضع تكتيكات بديلة ٠ ولكن قلة هى التى تعد العاملين فيها للعمل وفق أسلوبين مختلفين تمـــاما ٠

ويرتكز المفهوم الحالى « لادارة الأزمة » على اقامة « ادارة ظل » تبقى مدخرة ومستعدة لتولى السلطة فى حالة الطوارىء ٠ على سبيل المثال ، أقامت شركة أديسون بجنوب كاليفورنيا المسئولة عن المحطة النووية ، فى سان أونوفر نظام معلومات معقدا يستخدم عند الضرورة تدابير التحكم عن بعد ووسائل صوتية ووسائل فيديو لربط خلية الأزمة لديها بوحداتها فى الموقع ٠

وكلما تقدمنا فى هذه الحقبة من الاضطراب الاقتصادى والسياسى التى تتسم بتوالى الفتوحات والكوارث التكنولوجية ، تعين علينا أن نتوقع سلسلة متصلة من الأزمات ، قد تمتد من هجمات ارهابية أو فشل منتج معين الى توتر دولى مفاجىء أو أى شىء آخر ٠ ان البقعة السوداء الناجمة عن التسرب البترولى «لاكسون فالديز» وانهيار بنك كونتيننتال الينوى وموجة افلاس مؤسسات الادخار والائتمان ، وافلاس شركة ايه٠اتش٠روبينز اثر اكتشاف الأخطار الصحية لوسيلة منع الحمل المستخدمة داخـل الرحم والتى تنتجها الشركة ، كل هذه الأزمات ليست سوى عينات لمختلف أنواع الصعوبات الحادة التى يمكن أن تهدد الشركات ٠

وكل واحدة من هذه الأزمات تؤدى الى انتقال ضخم للسلطة ، حيث يعلو نجم قيادات وتحل محل قيادات أخرى تزول حظوتها ، كما يسقط أكثر من كبش فداء ٠ ان تزايد احتمالات المواقف الخطرة فى وقت التغيير الثورى يجعل من المتوقع انتشار فرق الأزمات والتنظيمات ذات الوجهين فى عالم الاقتصاد ، وأن تصبح عنصرا طبيعيا من عناصر شركة الغد المرنة ٠

التنظيم فى شكل رقعة الضامة

فى النمسا ، بعد الحرب العالمية الثانية ، أبرم الحزبان السياسيان الرئيسيان اتفاقا يقضى بأن يوكل من يتواجد على رأس هيئة عامة المنصب الذى يليه مباشرة ، لعضو من المعارضة وهكذا دواليك حتى أسفل درجات السلم الوظيفى ٠ ونجم عن هذا النظام أن احتل الاشتراكيون « الحمر »

والمحافظون « السود » بتناوب رأسى كل المواقع الرئيسية فى الشركات والبنوك وشركات التأمين المملوكة للدولة وحتى فى المؤسسات المدرسية والجامعات ٠

ونرى حاليا طريقة مشابهة يتبعها البنك اليابانى بكاليفورنيا ، حيث يتناوب اليابانيون والأمريكيون المناصب فى كل مستوى من مستويات التسلسل الادارى ، بحيث تتلقى طوكيو المعلومات من وجهة نظر يابانية واردة من العديد من المستويات التنظيمية وليس من الادارة وحدها ٠

وهكذا تتغذى السلطة فى مستوى القمة بسيل مستمر من الأفكار المتنوعة وليدة عقول مختلفة ٠ ولا شك أنه كلما اتسع عمل الشركات على امتداد الكرة الأرضية ، سيحاول الكثيرون اللجوء الى مثل هذه الطريقة النمساوية أو اليابانية ٠

المفوضـــون فى الشركة

كانت وحدات الجيش السوفيتى ، تضم عادة ضباطا سياسيين الى جانب القادة العسكريين ٠ وفى حين يقدم العسكريون تقاريرهم الى رؤسائهم فى الجيش ، كان « المفوضون السياسيون » يقدمون أيضا تقاريرهم ولكن للحزب الشيوعى ، وذلك بهدف الحفاظ على خضوع الجيش للحزب ٠ وفى الشركات أيضا ، كثيرا ما نرى « مفوضين » معينين من أعلى يتم تسكينهم فى الوحدات التابعة ، بهدف مراقبتها وتقديم تقارير عنها للقيادة العليا عن طريق قنوات منفصلة بدلا من القناة البيروقراطية الطبيعية ٠

وفى هذه الحالة ، تسلك المعلومات مسلكين رئيسيين ، مخالفة بذلك المبدأ البيروقراطى الذى لا يقر سوى مسلك واحد ٠ ويجسد هذا الأسلوب من ناحية أخرى عدم ثقة القيادات العميق فى المعلومات التى تصعد اليها من خلال القنوات الرسمية ٠

ومع تسارع التغيير الذى أصبح من الصعب التكهن به ، سيسعى مديرو العموم سعيا متزايدا ، لاختصار الاجراءات البيروقراطية فى محاولة مستميتة للحفاظ على سيطرتهم ٠

تنظيم « المكتب ـ الاقطاعى »

أفضل مثال على استمرار بقاء تنظيم من النوع الاقطاعى فى حياتنا هو تنظيم الجامعة ، حيث كل قسم يمثل اقطاعية يحكمها أستاذ الكرسى الذى يتحكم فى فريق من المساعدين الذين هم أقنان له ٠ ونجد هذه الآثار الباقية من أزمنة غابرة فى الهيكل الادارى البيروقراطى للجامعة (والذى

هو فى حرب معها فى كثير من الأحيان) • وينطبق الشىء نفسه على ٥٣٥ « سيدا » منتخبا فى كونجرس الولايات المتحدة يسيطرون على عدد ضخم من العاملين الاداريين •

كما يوجد تركيب مماثل من البيروقراطية الاقتصادية والاقطاع فى الشركات « الثمانى الكبرى » الأمريكية للمحاسبة ، وفى كبرى المكاتب القانونية وبيوت سمسرة البورصة ، وفى المجال العسكرى حيث كل سلاح ـ القوات البرية والبحرية والطيران ـ يمثل اقطاعية (منطقة نفوذ) مستقلة استقلالا تاما ويتمتع الجنرالات والأدميرالات الذين يقودون هذه الأسلحة ، فى أغلب الأحيان ، بسلطة حقيقية أكبر من سلطة رؤسائهم من ضباط هيئة الأركان العامة الذين لا يقودون أية وحدة بشكل مباشر •

وفى « المكاتب ـ الاقطاعية » يتصارع السادة فيما بينهم وان كانوا لا يترددون فى تكوين تحالفات من أجل اضعاف السيطرة المركزية • ويتضمن عالم الأعمال أيضا عناصر اقطاعية كما يتضمن فى الوقت نفسه ما يمكن تسميته « التبعية المتخلفة » • لتوضيح ذلك نذكر مثال جورج ماسترز ـ مهندس قديم ـ عمل لدى العديد من منتجى المعدات الالكترونية الأمريكيين وهو حاليا المساعد الادارى لفيليب آمز نائب رئيس احدى أكبر شركات انتاج الكمبيوتر على الصعيد العالمى • واذا فكر أحد أفراد قسم شئون العاملين أن يراجع تاريخهما الوظيفى فسوف يكتشف أن ماسترز التحق بالشركة بعد آمز بقليل ، واذا بحث أبعد من ذلك سيجد أن الشىء نفسه تكرر فى الشركة التى كانا يعملان بها معا فى السابق ـ وكذلك بالنسبة للشركة الأسبق •

انهما يكونان زوجا من الرفاق ، فى البار أو فى المكتب ، حتى انهما يقومان بأجازاتهما السنوية معا ومعهما زوجتاهما • وفى الوقع يعمل ماسترز وآمز معا منذ أكثر من ١٥ سنة (هما مثالان حقيقيان وان كانا بأسماء مستعارة) ، ففى كل مرة يحصل فيها الثانى على موقع مرموق يتبعه الأول •

وسواء سمى ذلك « انقياد لنجم » أو « مرادفة » فان هذه المزاوجة موجودة فى كل الشركات الكبرى تقريبا ، لأنها تبسط جدا مشكلات الاتصال • فمعرفتهما العميقة ببعضهما البعض تجعل كلا منهما يتوقع ردود فعل الآخر ، ومن ثم تكون المزاوجة فعالة للغاية بالنسبة لبعض المهام ـ وان كانت تتناقض مع القواعد الصريحة للاختيار « الموضوعى » للعاملين •

ان نفسية وعقلية «التبعية» من الأمور الأكثر تعقيدا وتركيبا ، فهى قد تتضمن علاقات وصاية من أستاذ على تلميذ ، كما قد تنطوى فى أحد

جوانبها على تبادل لعمليات محاباة مالية أو جنسية أو أى نوع آخر من المحاباة . ويظل النظام اقطاعيا وشخصيا بالأساس ، على نقيض الموضوعية البيروقراطية .

كما تكون علاقات السلطة فى ظل مثل هذا النظام معقدة أيضا . فمن ناحية ، يخضع « التابع » « للسيد » الذى يحتل موقعا أعلى فى التسلسل الوظيفى ، ولكن قد يعتمد الأعلى أيضـــا اعتمادا كليا على مرؤوسه الذى تتلخص أحيانا وظيفته الرئيسية فى اخفاء نقاط ضعف سيده . وطبقا للممارسة الجارية فقد يتعلق الأمر بتغطية الرئيس عندما يكون قد أفرط فى الشراب بحيث لا يستطيع القيام بعمله ، أو بأن يقرأ له المستندات ويقدم التقارير بدلا منه نظرا لعسر فى النطق يعانى منه ولا تعلم به الادارة ـ وان كان ذلك يعتبر استثناء .

ومع ضعف البيروقراطية وانسداد قنواتها وحويصلاتها ، من المحتمل أن نشـــهد ظهور عدد من الأشكال والممارســـات الاقطاعية الحديثة التى ستجد لها مكانا فى الشركة المرنة .

الفرق البرية

ها هم يعهدون لفريق بمشكلة أو هدف غير محدد بدقة ، وتخصص له موارد ويتركونه يعمل خارج القـــواعد الرســـمية للشركة . اذن ، ستتجاهل تماما هذه « المجموعة البرية » الحويصلات والقنوات الرسمية ـ بمعنى آخر ، ســـتتجاهل التخصص والتـــدرج الهرمى المـــلازمين للبيروقراطية القائمة .

وتتحرر عندئذ طاقات رائعة ، وتدور المعلومات بسرعة كبيرة فى طرق تلقائية ومستقلة . وتنشأ روابط عميقة بين المشاركين . وغالبا ما يتم انجاز مشروعات شديدة التعقيد بمهارة وفى زمن قياسى .

ويقول هيروتاكا تاكيوش واكوجيرو نوناكا من جامعة هيتو تسوباش باليابان ، فى بحث لهما عن «اللعبة الجديدة لتطوير المنتج» انه فى اليوم الذى قررت فيه شركة هوندا أن تنتج سيارة تتفق مع أذواق الشباب ، شكلت فريقا متوسط أعمار أفراده ٢٧ عاما وأطلقت لهم العنان . ويقول مهندس شاب مشارك فى هذا الفريق : « ان الحرية التى منحتها لنا الشركة لكى نعمل كما نريد شىء يصعب تصديقه » .

وعندما أرادت شركة نيبون الكتريك (ان·اى·سى) انتاج جهاز الكمبيوتر الشخصى الخاص بها موديل بى· سى· ٨٠٠٠ عهدت بالمشروع الى مجموعة من المهندسين السابقين يعملون فى قطاع المبيعات ومتخصصين

فى المعالجات الميكروية ولم تكن لديهم حتى ذلك الوقت أية تجربة فى مجال الكمبيوتر الشخصى • ويقول رئيس الفريق : « ان الادارة العليا أعطتنا الضوء الأخضر لكى نهتم بالمشروع ، شريطة أن ننجزه بأنفسنا وأن نكون مسئولين أيضا عن الانتاج والمبيعات وخدمة العملاء » •

أما بالنسبة للكمبيوتر الشخصى لد آى٠بى٠ام٠ الذى أصبح بعد ذلك المعيار المرجع للفرع كله ، فكان نتيجة عمل مجموعة شبه مستقلة كانت تعمل فى بوكا راتون بفلوريدا • وفيما عدا تقريرا ربع سنوى يقدم لمركز الشركة فى آرمونك (بولاية نيويورك) كان الفريق حرا فى التصرف كما يشاء بل وأن يشترى ما يريده — على عكس السياسة العامة للشركة — من موردين خارجيين • وسنجد أمثلة مشابهة لدى آبل وهيولت — باكارد وزيروكس وشركات أخرى تعمل فى مجال التكنولوجيات المتقدمة •

ان صيغة تنظيم « الحيوانات البرية » تناهض بطبيعتها البيروقراطية مناهضة جذرية •

وطبقا لتاكوش ونوناكا « يميل فريق المشروع الى تنظيم نفسه ذاتيا وبطريقته الخاصة ، فهو يبنى من الصفر نظامه المعلوماتى ، لأنه لا يستطيع استخدام المعرفة السابقة ••• وتبدأ العملية فى خلق نظامها الديناميكى الخاص بها بعد أن تترك لنفسها • ويعمل الفريق مثل شركة جديدة : يأخذ مبادرات ويقوم بمجازفات ويعد برنامج عمل مستقلا » •

والجماعات البرية التى تنجح ، تختار تدريجيا قيادتها الخاصة • ويتم هذا الاختيار وفقا للقدرات والكفاءات أكثر منه وفقا للألقاب الرسمية• وغالبا ما تدخل هذه القيادات التى اضطلعت حديثا بالسلطة فى صراع مباشر ، مع المسئول الرسمى المعين من جانب البيروقراطية لتأمين انطلاق الوحدة ثم الاشراف عليها •

الفريق العفوى

وبدأنا نشهد أيضا ظهور فرق أو مجموعات ذات تشكيل ذاتى • فبدلا من تلقى مهمة من أعلى ، تتكون هذه المجموعات عامة عن طريق الشبكة الالكترونية • وتعتبر « جماعات المعلومات » الصغيرة تلك أكثر مناهضة للبيروقراطية من « الفرق البرية » •

وتتشكل هذه الفرق عبر أجهزة الكمبيوتر ، عندما يتعارف أشخاص يهتمون بمشكلة بعينها ويبدءون فى تبادل المعلومات من قسم الى آخر ، دون الاهتمام بالألقاب الرسمية أو الحدود الجغرافية •

وطالما أن نشاط هذه المجموعة يتفق مع الأهداف العامة للشركة

فانها تترك للمجموعة حرية تحديد أهدافها الخاصة ، وهو ما تقوم به فى أغلب الأحيان بشكل ديمقراطى ·

ففى شركة ديجيتل اكويبمنت مثلا ، يعقد أفراد مجموعة الادارة فى مجال الهندسة التى يديرها دافيد ستون - وهى مجموعة تغطى جميع أنحاء العالم - «مؤتمرا» الكترونيا يعرض فيه كل مشارك أو مشاركة مخططات مشـــاريعه ·

ويقول ستون : « عندئذ أطلب من كل مشارك التعليق على مقترحات الآخرين وما اذا كان مقتنعا بها أم لا وهل هى تطابق التوجه المختار وما هو الاسهام الذى يقدمه هذا الشخص أو ذاك والذى يتعين ضمه للبرنامج المشترك · وعلى مدى شهر ونصف الشهر من التبادل [···] يعيد كل منا كتابة كل شيء تبعا للمعلومات التى تم تلقيها · وحينذاك نكون قد أعددنا كفريق مجموعة من الأهداف المشتركة يتعين بلوغها » ·

وهذه الطريقة - المناهضة بعمق للبيروقراطية - لا تستطيع أن تنجح الا فى مناخ تحظى فيه الشخصيات المختلفة باستقلالية واسعة معترف بها ، عندئذ يمكن أن ينجم عن هذا التنظيم تفاعل متسلسل من الخلق والابتكار · ويفسر ذلك سبب كثرة هذا النوع من الوحدات فى المجالات التى يبلغ فيها الابتكار التنافسى أعلى درجة · ومن ثم كلما تمتد الشبكات التى تربط بين الشركات المرنة ينبغى أن يتكون مزيد من الوحدات العفوية ومنهـا وحدات تتجاوز حدود الشركات ·

سلطات متنوعة :

نظرا للتنوع الكبير للشركات المرنة ، فانها ستتطلب أساليب ادارة غير معروفة اطلاقا بالنسبة للمدير البيروقراطى ·

فطبقة الادارة العليا ستكون أقل تجانسا · اذ بدلا من أن تضم كوادر أحادية النمط ، متماثلة الهيئة (ومتماثلة كذلك فى طريقة التفكير) ستكون المجموعة الممسكة بزمام السلطة فى الشركة المرنة غير متجانسة وفردية ومناهضة للبيروقراطية · كما سيتسم أفرادها فى الغالب بالعناد ونفاد الصبر ، وان كان من المحتمل أن تكون هذه المجموعة أكثر خلقا وابتكارا من اللجان البيروقراطية الحالية ·

وبدلا من التخطيط المنظم للتسلسل الهرمى الاستبدادى للسلطة ، ستقدم الشركة المرنة صورة أكثر تعقيدا وتقلبا وأكثر ابهاما · بحيث قد يتعامل المدير العام ، فى ظل الشركة الجديدة ، مع ما قد يبدو من المنظور البيروقراطى الحالى أنه خليط متنـــافر من زعمـاء القبـائل والمفوضين السياسيين ونجوم الاوبرا ذوى الشهرة والنزعة النرجسية ومن سادة

وجهاء يملؤهم الاحساس بأهميتهم ومن متخصصين فى الهتاف والتهليل وتكنوقراط صامتين ، الى جانب رب العائلة أو رئيس الشركة الأسرية ·

فعلى سبيل المثال تحتاج التنظيمات النابضة الى قادة قادرين على توجيه مجموعات صغيرة بنفس كفاءة قيادتهم لتجمعات كبيرة ـ الا اذا كانت هذه التنظيمات قد وضعت نظام خلافة محددا بدقة ، لنقل السلطة طبقـا للمراحل المختلفة للدورة الى اشخاص يتمتعون بقدرات مختلفة ·

وفي حالة تطبيق مبدأ التنظيم الضامي (الشطرنجى) أو مبدأ « المفوضين » يكون هناك تنافس بين خطي اتصـــال · فمع نظام رقعة الضامة ، يفضى الخطان الى مكتب المدير العام · ومع نظام المفوضين ، ينقل الخط الأول المعلومات الى المدير العام فى حين قد ينقل الخط الآخر المعلومات مباشرة الى مجلس الادارة مثلا ·

وينجم عن كل الترتيبات التى تؤثر على تدفق المعلومات ، منح سلطة أو اعادة توزيعها · ففي التنظيمات ذات الطابع الاقطاعى يتعين على المدير العام أن يتفاوض ، دون توقف ، مع كبار معاونيه ويستخدم فريقا منهم ضد الآخر بهدف تفادى تكوين تكتل يضعفه أو يخلعه تماما ·

وفي مثل هذه الظروف ، من المحتمل أن تصبح الوظيفة الادارية أقل موضوعية وأقل « علمية » ، بحيث ستعتمد بدرجة أعلى على الحساسية الحدسية وفهم الآخرين ، وهو ما يتطلب بعض المكر والجرأة ، أى يتطلب كمية من ردود الفعل الانفعالية التى يقال ان الزمن عفا عليها ·

كما أن الشركة المرنة تكتسب تدريجيا طابعا سياسيا ، بمعنى أن التصرف مع الأخذ فى الاعتبار عددا كبيرا من الدوائر الانتخابية هو مهمة سياسية كما أن الاستخدام الواعى للسلطة هو وظيفة سياسية ·

ان السلطة ــ أى السيطرة المكفولة بقوة القانون على الموارد المالية للشركة وعلى المعلومات ــ تفلت حاليا من أيدى الذين يحتفظون بها بموجب صفة قانونية أو شكلية بحتة ، لتذهب الى الذين يملكون سلطة طبيعية مبنية على المعرفة وعلى بعض القدرات النفسية والسياسية ·

لا يوجد ترياق لجميع الأمراض :

وختاما ، لنقل كلمة عن الشبكات · لقد أثار هذا الشكل من التنظيم اهتماما كبيرا فى السنوات الأخيرة ، وكان محل العديد من المبالغات كما تم تحديد هذه الشبكات وتعريفها بشكل فضفاض للغاية ، بحيث يستوجب الأمر بعض التعقل والاحتراس · وبالنسبة لكثيرين ، تبدو الشبكة وكأنها الترياق ، أى الحل لجميع المشكلات ·

وتضم الشركات والاقتصادات عددا كبيرا من الشبكات شديدة التنوع تعودنا أن نعتبرها طرقا غير رسمية للمعلومات والتأثير • فالمدافعات عن حقوق المرأة مثلا تنددن بشبكة « الرجال القدامى » التى كثيرا ما تحول دون حصول الكوادر النسائية على أى ترق • وغالبا ما يحافظ العسكريون المتقاعدون على مجموعة من الاتصالات ، وكذلك قدامى رجال الشرطة وأفراد مكتب التحقيقات الفيدرالى الذين يحتل الكثيرون منهم ـ بعد ترك خدمة الدولة ـ مواقع الأمن فى الشركات •

كما أن للشواذ جنسيا شبكاتهم ، وهى ذات تأثير خاصة فى فروع مثل الموضة والديكور • وتملك الأقليات العرقية شبكات قوية للغاية ـ مثل شبكات الهجرة الصينية فى جنوب شرقى آسيا ، واليهود فى أوروبا وأمريكا ، والقادمون من جزر الهند الغربية فى بريطانيا • كما تميل الجماعات المزروعة ـ النيويوركيون فى تكساس ، ومافيا جورجيا المزعومة التى استقرت فى واشنطن فى ظل رئاسة جيمى كارتر ، والأوكرانيون الذين « صعدوا » مع ليونيد برجنيف الى موسكو ـ الى تكوين شبكات الاتصال الخاصة بهم •

باختصار ، تظهر هذه الروابط غير الرسمية تحت أشكال متعددة فى جميع المجتمعات المركبة تقريبا ، ويضاف اليها شبكات ذات بنيان وهيكل أكثر وضوحا وتحديدا مثل شبكات الماسونية والمورمون وأعضاء التنظيم الكاثوليكى أوبس داى •

ولقد أهمل الاقتصاديون ومنظرو الشركة طويلا دراسة دور وتنظيم هذه الشبكات • وهى تلقى حاليا اهتماما منهم كنماذج ممكنة لتشغيل الشركات •

وتكمن أسباب هذا التحول فى التعديلات الاجتماعية العميقة ، وأولها انقطاع وتعطل نظم الاتصالات الرسمية فى الهيئات والمؤسسات الاقتصادية الكبيرة التى سبق الاشارة اليها • ويحدث ذلك عندما تنسد الحويصلات والقنوات البيروقراطية ، وتصبح غير قادرة على ارسال تدفقات الاتصالات الضخمة والمعلومات التى لا غنى عنها لانتاج الثروة ، وتكف « المعلومة الجيدة » عن الوصول الى « المرسل اليه المناسب » كما كان يحدث سابقا ، وبالتالى يتجه العاملون نحو الشبكات غير الرسمية لنقل المعلومات بالرغم من كل شىء •

وبالتوازى ، فان تحول الاقتصاد من الاعتماد على الانتاج بالجملة الى الانتاج بالطلب ، أجبر الشركات ووحدات العمل أن تعمل بالاتصال مع شركاء أكثر عددا وأكثر تنوعا ، مما استلزم مزيدا من الاتصالات ـ سواء شخصية أو الكترونية ـ مع « غرباء » • ولكن عندما يقول شخص غريب

شيئا لنا ، كيف نتأكد من صحة ما يقوله ؟ ان القيادات ـ التى تعانى من التشكك ـ تتأكد كلما أمكنها ذلك ، عن طريق شبكاتها الشخصية ، أى عن طريق أشخاص كانت على معرفة بهم أو عملوا معها لسنوات ، بحيث تستطيع السيطرة على ما أبلغت به من خلال القنوات واستكماله .

وأخيرا ، بما أن عددا متزايدا من المشكلات يتطلب حاليا معلومات متعددة التخصصات العلمية ، وبما أن النظام القديم الخرب للحويصلات والقنوات يعوق ذلك ، يلجأ العاملون الى أصدقائهم أو الى اتصالاتهم فى شبكة قد ينتمى أعضاؤها الى عدد من الأقسام والوحدات المختلفة .

والشبكات من هذا النوع ، سواء أكانت رسمية أم لا ، لها مواصفات مشتركة . فهى شبكات أفقية أكثر منها رأسية ، بمعنى أن تدرجها من النوع المسطح ، أو ليس لها تدرج أصلا . كما أنها مرنة ، تعرف كيف تغير سريعا من شكلها تبعا للظروف . ويعتمد تعيين قادتها على الكفاءة والشخصية أكثر منه على المكانة الاجتماعية أو درجة التسلسل الوظيفى . وتتغير السلطة فى هذه الشبكات بسهولة وبمعدلات أعلى منها فى البيروقراطيات وذلك عندما تتطلب المواقف الجديدة صفات مختلفة .

ولقد أكسبت كل هذه الاعتبارات مفهوم شبكة الشركة شعبية بين المديرين والأكاديميين على حد سواء . فشركة كورنينج التى تعمل فى أربعة فروع ـ الاتصالات اللاسلكية ، الأجهزة المنزلية ، والمواد الجديدة والبحث المعملى ـ تصف نفسها بأنها « شبكة كلية » . وصرح رئيسها جيمس . آر . هوجتون بأن :

« الشبكة هى مجموعة شركات مرتبطة فيما بينها ، وان كانت أنواع الملكية تمثل تنوعا كبيرا [...] . ويوجد فى كل قطاع هياكل للشركة مختلفة تماما ، ابتداء من أقسام ذات تسلسل وتدرج وظيفى تقليدى الى فروع مستقلة مائة فى المائة والى تحالفات مع شركات أخرى ..

« وتتسم الشبكة بالمساواة . لا توجد شركة أم . وهيئة الادارة العليا فيها ليست أكثر أو أقل أهمية من أية مجموعة تقع فى مكان ما من التسلسل الادارى » .

ومن الممكن بالطبع أن يتضح أن الشبكات مفيدة للغاية ومرنة ومناهضة للبيروقراطية . غير أن الحماس مؤخرا قد أدى ، فى كثير من الأحيان الى تجاهل عدد من الفوارق الأولية .

ففى السبعينات ، درس أنطونى جادج ـ وهو من أوائل محللى التنظيم الشبكى ومن أكثرهم عمقا ، وكان يعمل حينئذ فى بروكسل فى

اطار اتحاد الجمعيات الدولية ـ كثافة « الشبكات التى تربط بين الأفراد » (المعنية بالعلاقة بين الشخصيات) والوقت اللازم لها لكى تستجيب وهياكلها ووظيفتها الاجتماعية وكذلك درجة قدرتها على الارتباط . كما قام بمقارنة هذه التنظيمات الانسانية مع شبكات جامدة (نسبة الى الجوامد) مثل شبكات خطوط الأنابيب والخطوط الكهربية والمعاملات التجارية على العملات والمواد الأولية . وأعد جادج معجما مختصرا لمفهوم « الشبكة » يعد من أكثرها نفعا وان كان غير معروف الا لقلة .

كما كون فى الوقت نفسه مصفوفة رائعة بمطابقة الشبكات فى اجمالها مع المشكلات فى اجمالها ، ووضح باستخدام قاعدة بيانات شديدة الاتساع كيف ترتبط شبكات الأفكار مع شبكات المشكلات وكيف تتداخل شبكات التنظيمات وما هى العلاقات القائمة بين الأفكار والتنظيمات .

ومؤخرا ، أعدت نتماب انترناشيونال ، وهى فرع من كيه . بى . ام . جى . بيت مارفيك ، طريقة سمحت لها ، فى اطار عملها لحساب شركات وحكومات فى جميع أنحاء العالم من ماليزيا الى السويد ، أن تكشف وتحدد هوية شبكات الاتصال السرية بدرجة أو بأخرى ، داخل تنظيمات مختلفة مثل الحزب الجمهورى الأمريكى وشركة محاسبة عملاقة . وتقول ليزلى . جيه بيركز نائبة الرئيس : « ان التنظيم يتم عادة رسمه يوميا بواسطة أعضائه بطريقة تسمح بانجاز المهام المحددة . ان ذلك هو الهيكل الحقيقى . انه التنظيم غير الشكلى ـ المضاد للتنظيم [..]. انه التنظيم الأساسى » .. ولكن اذا كان من غير الممكن تحديد هويته ولا تتبع تغيراته ، تتساءل بيركز : « كيف يمكن السيطرة عليه ؟ سينتهى الأمر بالاكتفاء بمعالجة التنظيم الرسمى بكل ألقابه وتسلسله وتدرجه الوظيفى وخططه الاجمالية للتنظيم الادارى » .

وبامكان البحوث التى تمت فى هذا المجال أن تلقى بالطبع بأضواء قوية على طريقة عمل التنظيمات الحالية ، ولكن التحمس الأعمى للشبكات، كما يحدث الآن ، واعتبارها الشكل الأساسى الوحيد للمستقبل يعنى بدرجة كبيرة القبول من جديد بنفس هذا التماثل والانتظام الذى كانت تفرضه البيروقراطية ، وان كان على مستوى أعلى وبشكل أقل التزاما باللوائح .

حدود السيطرة :

الا أن هناك حدودا لاتستطيع الشركة المرنة الباحثة عن التنوع تجاوزها .

لقد انتشرت طريقة « مركز الربح » لدرجة أن عددا من الشركات التى كانت فى السابق أحادية الهيكل والبنيان ، تفككت حاليا الى وحدات شبه مستقلة ذات نظام محاسبى مستقل ، كل منها مسئولة عن عملها وأرباحها وخسائرها • ويمكن اعتبار هذا التطور مرحلة أولى لعملية من المحتمل أن تقود الى الانحلال المحض للشركة الكبيرة ، التى ستجد نفسها عندئذ وقد تحولت الى كيانات ذرية صغيرة فى شكل شبكة أو كونسورتيوم ـ من المقاولين ومقاولى الباطن المستقلين تماما • وفى ظل هذا النموذج ، يصبح كل واحد من العاملين فردا مستقلا يبرم بحرية عقدا مع أقرانه لانجاز مهمة معينة •

ولكن أية عملية اجتماعية لا تستمر الى ما لا نهاية ، ولا زلنا بعيدين عن فردية العمل المطلقة ـ هذا الحلم النهائى لليبرالية الذى يصل الى حد العقيدة اللاهوتية • قد نستطيع بالأحرى توقع رؤية مراكز ربح أصغر حجما وتنوعا ، دون أن يؤدى ذلك الى ظهور ملايين الشركات التى تتكون كل منها من شخص واحد •

وعلى أية حال ، فان درجة التنوع التى يمكن أن يسمح بها تنظيم ما والتى يستطيع فريق ادارة السيطرة عليها ليست بلا حدود • ان ما نود التأكيد عليه هنا أنه ليس على الشركات أن تبحث عن أكبر تنوع ممكن من الأشكال التنظيمية ، وانما يتعين عليها فى وضعها الحالى أن تدرس أكبر قدر من الخيارات المتنوعة للافلات من جمود البيروقراطية • باختصار ، يتعين عليها على أية حال تحرير « مستعمراتها » واذا لزم الأمر ، اختراع أشكال جديدة •

وبذلك ستبتعد الشركات ـ ونحن معها ـ عن المفهوم الذى يقدم التنظيم على أنه آلة ذات حركات محددة ومتوقعة فى كل تفاصيلها ، لكى تنضم الى رؤية أقرب لرؤية علم الأحياء • ان النظم الحية لاتحكمها الحتمية الا جزئيا ، ولا يكون أداؤها متوقعا بالكامل الا نادرا •

ولذلك ، تميل النظم الالكترونية الجديدة بشكل متزايد الى تبنى أشكال أشبه بتركيب الخلايا العصبية ، بدلا من الأشكال المحددة مسبقا ، وهو ما يؤكده دافيد ستون نائب رئيس قسم الهندسة الدولية لدى ديجيتل اكويبمنت بقوله : « لا يمكن قط القول مسبقا كيف سيتم الاتصال [•••] • اذا قطعت وصلة بين نقطتين ، ستشق الاشارة طريقا خاصا بها شريطة أن تظل النقطتان متصلتين ، بالشبكة العامة [•••] » ويضيف : « اننا نعتقد فى قيمة الاتصال المباشر بين شخصين أيا كان هذان الشخصان على أساس المعرفة التى يملكها كل منهما وليس طبقا لموقعهما فى التسلسل الادارى » •

وكما تسمح قواعد البيانات الجديدة المسماة « المتعددة الوسائط » بمزج وتركيب المعرفة بطرق متنوعة للغاية ، فان مفهوم الشركة يفترض تنظيمات ستكون قادرة على التكيف بعدد لايحصى من الطرق مع الآلاف من حيل وفخاخ المنافسة المتجددة دائما التى تنتظرها ٠

وعلى كل حال ، لن تستطيع شركة المستقبل المرنة أن تعمل دون تغيرات أساسية فى علاقات السلطة بين العاملين والرؤساء ٠ وكما سنرى ، هذه التحولات والتغيرات بدأت بالفعل وبشكل واسع ، لأن السلطة فى طريقها للتحول فى عنابر الانتاج كما فى قاعات الادارة العليا ٠

الفصل الثامن عشر

العامل المستغل

خلال سنوات عديدة من العمل في مصانع ومسابك شتى عملت على خط لتجميع السيارات · ولازلت حتى الان ، وبعد مضى اكثر من ثلث قرن ، لا استطيع نسيان ما كنت استشعره هناك خاصة التاثيرات الرهيبة لتسارع الايقاع · ففى كل يوم ، ابتداء من اللحظة التى يدوى فيها الجرس ايذانا ببدء نوبة عمل فريقنا ، كنا نحن العمال ، ننطلق فى سباق ضد عقارب الساعة لانجاز مهامنا المتكررة فى محاولة يائسة الا تسبقنا هياكل السيارات المتتابعة امامنا على السيور الحديدية التى تتقدم بهزات سريعة · وكانت الشركة لا تكف ابدا عن السعى لزيادة سرعة الخط ·

وكان المصنع مشحونا بسخط مكبوت لدرجة أنه من وقت لآخر ، وبدون سبب واضح كان يخرج تأوه مخيف من حناجر مئات العمال ، ثم يتعاظم ليصبح أنشودة تصم الآذان يرددها الجميع من ورشة الى ورشة قبل أن تضيع فى هدير وصليل الآلات ·

وبينما كانت السيارات تمر بأقصى سرعة ، كان يتعين أن نعدها لورشة الدهان وذلك بمعالجة الانبعاجات أو أى عيوب أخرى يطرقها بواسطة آلة يدوية خاصة ، غير أن هياكل السيارات كانت تختفى قبل أن نتمكن من انجاز عمل جيد · وكانت هذه الهياكل تمر ، بعد أن تغادرنا أمام مفتشين يضعون علامات بالطباشير على العيوب المتبقية ـ التى ستعالج

فيما بعد . ان تكرار هذا النظام يوميا لمدة تتراوح بين ثمانى وعشر ساعات كان كافيا لصم آذاننا عن أية دعوة الى « الجودة » .

أما المديرون فكانوا فى مكان ما .. انهم رجال يرتدون رابطة عنق وقمصانا بيضاء ولكننا لم نكن على اتصال بهم على الاطلاق تقريبا .

لم تكن سلطة هؤلاء الرجال ذوى القمصان البيضاء نابعة فقط من احتياجنـــا الى أجورنا ، ولكن من معرفتهـم بالمصنع وأهدافه وطـرقه ومخططاته . وعلى النقيض منهم لم نكن نحن نعرف عمليا شيئا عن عملنا ذاته ، فيما عدا بعض الحركات المبرمجة مسبقا التى كان يتعين علينـــا القيام بها . لم نكن نتلقى أية معلومات تقريبا من الشركة سوى الدعوة الى العمل بجد وحمية أكبر . واذا تعين اغلاق ورشة أو مصنع كنا آخر من يعلم ذلك . لم يكن يقال لنا كلمة واحدة عن السوق ولا عن المنافسة ولا عن الموديلات الجديدة التى يتم اعدادها أو الآلات الجديدة .

كان من المفترض أن نعتقـد يقينـا أن رؤســـاءنا يعلمون ما يفعلونه (وبالحكم على تدهور صناعة السيارات الأمريكية لم يكن ذلك صحيحا) . كان كل المطلوب منا هو الوصول فى الموعد المحدد والعمـــل والاحتفاظ بعضلاتنا فى حالة حركة وأفواهنا مغلقة . وبالرغم من وجود نقابة قوية كنا نشعر أننا محرومون من أية سلطة . كان « هم » ــ أشخاص بلا وجه ــ الذين يمسكون بنا تحت سلطتهم . « هم » الرجـال ذوو القمصـــان البيضـــاء ، المديرون . أما نحن ، فكنا أثنـاء ساعات العمل مواطنين فى دولة شمولية .

أتذكر هذه التجربة كلما قرأت ، يوميا تقريبا ، أوصاف المصـــانع الجديدة تماما ، ان السلطة فى طريقها للتحول فى أماكن العمل ولن تكون الأشياء قط كما كانت .

تحرير الأذهان :

تنتج شركة جنرال الكتريك معدات توزيع الكهرباء فى مدينـــة ساليسـبورى بولاية كارولينـا الشـمالية ــ وقد صمم المصنع طبقـــا لنموذج تريد الشركة تكراره فى ثلاثمائة منشأة أخرى .

فى المـاضى كان يتعين على مشـغل الآلة اذا تعطلت أن يخبر رئيس العمال التابع له وأن ينتظر المساعدة . أما حاليا ، فان هذا العامل يتخذ بنفسه القرارات اللازمة ، فيسأل هاتفيـــا مهنـدس الشركة المقيم فى مدينة بلانفيل بولاية كونكتيكت النصح ثم يتحمل مسـئولية الاصلاح . ويبادر بطلب قطع غيار قيمتها ٤٠ الف دولار ، يرى أن آلاته فى حاجة اليهـا . انه فرد فى مجموعة يقدر عددها بحوالى ٧٥ عاملا يتخذون فى

لجانهم الخاصة قرارات تمس الانتاج وجدولته بل وعملية تعيين العاملين . ولقد خفضوا معا زمن العمل اللازم لكل وحدة منتجة بحوالى الثلثين ومهلات التسليم للعملاء بحوالى ٩٠٪ .

وعندما أصبح النظام سارى المفعول رحل بعض العمال مبررين رحيلهم بأنهم لايريدون تحمل مسئوليات اضافيــة . غير أن نسبة عدم استقرار العاملين انخفضت من ١٥٪ فى السنة الأولى لتطبيق هذا النظام الى ٦٪ بعد ذلك بأربع سنوات .

ولقــد استمعت الى وقائع من هذا النــــوع فى كل البــــلدان ذات التكنولوجيا المتقدمة ، فقد شرعت شركة فورد ـ استراليا مؤخرا فى بناء سيارتها « فالكون اى ـ ايه » طبقا لنظام عمل مبتكر « يناقض الطريقة التقليدية المستخدمة فى الغرب لضمان الجودة ـ ألا وهى فحص ومراجعة الادارة لانتاج العمال الذين يتبعون التعليمات المفصلة المقدمة من المهندسين» على حد وصف صحيفة « الفاينننشيال تايمز » .

وتوصلت شركة فورد الى أنه كان من الخطأ البدء فى معاينة الأخطاء ثم علاجها بعد ذلك . فالوسيلة الوحيدة للاقتراب من الجودة الكاملة هى ترك مزيد من الحرية للعمال وذلك بالكف عن برمجة أبسط حركاتهم . وأضاف المقــال أن ذلك يعنى « الاعتراف بسلطة العــاملين على صعيد الورشة ذاتها » .

وفى مصنع دايموند ـ ستار لكريزلر ـ ميتسوبيشى الواقع فى مدينة نورمال بولاية الينوى يتم اخطار العمال قبل استخدامهم ، بأنه يتعين عليهم القيام بعدة أعمال متنوعة بدلا من المهمة الواحدة المتكررة وأنه سيطلب منهم تقديم أفكار جديدة لتحسين الانتــاج ، وبالتالى فعليهم أن يكونوا مستعدين لابداء نقد بناء ـ وأيضا لسماعه .

وفى مصنع محركات المازدا فى مدينة فلات روك بولاية ميتشجان يحصل العمال المتخصصون على تدريب لمدة ثلاثة أسابيع يتضمن دروسا فى علم النفس . وتمنح مجموعة صغيرة من العمال مهلة ســـت دقائق لتخيل ٢٥ تطويرا يمكن ادخاله على حوض سباحة لحديقة قابل للفك والتركيب ، ثم مهلة دقيقتين فقط لاقتراح ثلاثين تطويرا اضافيا . ويقول المسئول عن التدريب : « اننــــا نحــاول أن نجعل العــاملين يســترخون وينطلقون » . وبعد التدريب الأصلى لمدة ثلاثة أسابيع يلتحق العاملون بعدة دورات تدريبية أخرى لاستيعاب تعليم تقنى أكثر تخصصا ، وتقدر مازدا تكلفة تعيين وتدريب العامل المتوسط بنحو ١٣ ألف دولار .

ان هذه الطرق فى طريقها للتعميم : وهى توضح التحول التاريخى الذى يجرى حاليا ، أى الاحلال التدريجى للمخ محل العضلات فى عملية خلق الثروة ، غير أن اتاحة الفرصة للعاملين لكى يقولوا كلمتهم عن تفاصيل المهام التى يقومون بها ، لاتمثل سوى الجزء الطافى من جبل ثلج أكبر من ذلك بكثير ٠

الفلاح العاصى :

لكى نضع هذا التحول فى سياقه التاريخى ، من المفيد الرجوع الى بدايات الثورة الصناعية فى انجلترا وأوروبا الغربية ، واسترجاع شكاوى أصحاب العمل الأوائل من عدم انضباط وعدم الاحساس بالمسئولية وجهل المواطنين الريفيين واقبالهم على الافراط فى الشراب ، وكان هؤلاء المواطنون يشكلون المورد الرئيسى لقوة العمل فى المصانع ٠

ان كل مجتمع يفرض انضباطه أو « نظامه » الخاص فى العمل ، ومن المفترض دائما أن يطيع العاملون بعض القواعد التى غالبا ما تكون ضمنية ، وتتم مراقبتهم أثناء انجازهم لمهامهم ويتم وضعهم داخل أطر : فهيكل السلطة الموجود يستهدف فرض احترام القواعد ٠

خلال الموجة الأولى ، فى ظل المجتمعات الزراعيـــة كانت الأغلبية العظمى من الفلاحين يعملون دون راحة للوصول الى مجرد حد الكفاف ٠ وكان لقوة العمل الزراعى ، المنظمة فى فرق انتاج أسرية ، نظامها المحدود بايقاع الفصول ، وبزوغ وغروب الشمس ٠

واذا تغيب فلاح أو أبدى تكاسلا كان أهله هم الذين يفرضون عليه الانضبـــاط ، اذ كان بامكانهم مقاطعته أو ضربه أو انقـاص حصته من الطعام ٠ فالأسرة ذاتها كانت هى المؤسسة الاجتماعية المسيطرة ، وفيما عدا بعض الاستثناءات ، كانت تؤمن احترام نظام العمل ، وكانت الضغوط الاجتماعية التى يمارسها القرويون تعزز من سيطرة الأسرة على كل واحد من أفرادها ٠

وبالطبع ، كانت الصفوة غالبا ما تمارس حق الحياة أو الموت على طبقة الفلاحين كما أن التقاليـــد كانت تنظم وبشكل صارم السلوكيات الاجتماعية والجنسية والدينية ، وكان الفلاحون يعانون فى كثير من الأحيان من الجوع والفقر المدقع ٠ ولكن فى حياتهم اليوميـــة كانوا يخضعون ـ على ما يبدو ـ لقواعد أقل اكراها واجبارا من تلك التى تحكم الأشخاص الذين يشكلون قوة العمل الصناعية التى كانت قليلة فى ذلك الوقت ، وان كانت فى تزايد مستمر ٠

لقد ظل نظام العمل الزراعي قائما منذ آلاف السنين ، وأغلب البشر الذين سبقونا بقرن أو قرنين من الزمان لم يعرفوا نظاما آخر غيره ، وكانوا يعتبرونه الطريقة « الوحيدة » المنطقية لتنظيم العمل والتي يجب أن تدوم للأبد ·

السلاسل الجديدة :

ومع ظهور المصانع الأولى ولد نظام عمل مختلف تماما · ففي البداية لم يؤثر هذا النظام الا على جزء صغير جدا من السكان ، ثم مد نفوذه تدريجيا مع تناقص أهمية العمل الزراعي وتزايد عدد المهام الصناعية ·

وفي قلب مجتمعات الموجة الثانية ، كان العامل الصناعي الحضري يستطيع بالطبع أن يشعر بدرجة أكبر من الحرية الاجتماعية في ظل جهل الناس ببعضهم ببعض في أحياء الأكواخ الفقيرة المزدحمة · ولكن حياته في المصنع كانت مقننة بصرامة شديدة · وكانت التكنولوجيا المبسطة لتلك الفترة مصممة لأميين ـ وهو ما كان عليه أغلب أسلافنا ـ ولأنها تستهدف تضخيم الطاقة العضلية البشرية كانت ثقيلة وجامدة ، كما كانت تتطلب كثافة عالية لرأس المال · فقبل اختراع المحركات الكهربية الصغيرة كانت الآلات توضع عامة في صفوف وتحركها سيور ، وكان محور البكرات المحركة هو الذي يحدد ايقاع العمل لكل ورشة · ثم جاء بعد ذلك السير الآلي الذي أجبر جيوش العمال على العمل في تزامن صارم وربطهم بسلاسل الى نظام الانتاج ·

ولم يكن صدفة أن يطلق الفرنسيون على « خط التجميع » اسم « سلسلة » ولا أن يجد كل فرد في المصنع نفسه مدمجا في « سلسلة من القيادة » بدءا من العامل غير الماهر حتى أعلى القيادات ·

وأصبح العمل موحد النمط ويسير بدون تفكير بعد تحليله الى أبسط عملياته · ومع تطور العمل المكتبي بعد ذلك وجد ذوو « الياقات البيضاء » أنفسهم خاضعين لتنظيم من نفس النوع · كانوا يتمتعون من الناحية الجسدية بحرية حركة أكبر قليلا نظرا لكونهم لا يخضعون لخط التجميع الا أن هدف الادارة العليا كان أيضا زيادة الانتاجية في المكتب بجعله مماثلا للمصنع كلما أمكن ذلك ، سواء بشكل انساني أو غير انساني ·

لقد أثار فقدان العامل صفته الآدمية نقدا قاسيا ضد مصانع العصر المصنعي ، غير أن أكثر المفكرين راديكالية في ذلك الوقت كانوا يعتبرون هذه المصانع انجازات « متقدمة » و « علمية » ·

ان تعديل وظيفة الشرطة أثارت تعليقات أقل · ولكن بدلا من

الأسرة التي كانت تقود العمل وتجبر أفرادها على حسن الأداء ظهر هيكل سلطة جديد يهدف الى تطبيق قواعد جديدة : ألا وهو الادارة ذات التسلسل والتدرج الهرمي ·

ففي البداية ، اصطدم نظام عمل الموجة الثانية بمقاومة عنيفة حتى من جانب أصحاب العمل الذين حاولوا الاحتفاظ بالنظام الريفي القديم وذلك بزرعه في المصنع · ونظرا لأن أفراد الأسرة كانوا يكدون معا فى الحقول ، استخدم بعض الصناعيين الأوائل مجموعات أسرية كاملة · ولكن النظام الذي أثبت فاعليته فى الزراعة طوال عشرة آلاف سنة تبين أنه لايصلح في المصنع على الاطلاق ·

اذ لم يقدر الشيوخ على متابعة ايقاع الآلات · وكان يتعين ضرب الأطفال بل وربطهم أحيانا لمنعهم من ترك أماكنهم والذهاب للعب · وكانت الأسر تصل الى المصانع في ساعات مختلفة وفى فوضي كما كانت تفعل فى الريف · ولم يكن هناك مفر من فشل محاولة الحفاظ على فريق الانتاج الأسرى فى البيئة التكنولوجية الجديدة ، ومن ثم فرض النظام المصنعى نفســـــه ·

وكان الدرس واضحا : لايمكن تنظيم العمل حول آلة بخارية أو نول كما لو أن الأمر يتعلق بمعزقة أو بزوج من البقر ، لقـد تطلبت التقنية الجديدة نظـــاما جديدا ــ وهيكلا جديدا للسلطة يتعين تحديده وفرض احترامه ·

البروليتاريا الالكترونية :

ومع تطور الاقتصاد فوق الرمزى ، يشق نظام جديد للعمل طريقه مرة أخرى ليحل محل النظام الأقدم منه ·

وفى مصانعنا ومكاتبنا التى ظلت فى العصر المصنعي ، لم يتغير الموقف منذ عشرات السنين · ففى كل أنحاء العالم ، وخاصة فى الدول الحديثة التصنيع ، يظل مئات الملايين من العاملين مكبلين لنظام الموجة الثانية ·

والآن وكما حدث فى الماضى تماما ، نرى أصحاب الأعمال لايقدرون الثورة التى تدور حولهم حق قدرها · انهم يستخدمون حاسبات آليـــة وتكنولوجيات متطورة تنتمى للموجة الثالثة ، ولكنهم يحاولون الاحتفاظ بقواعد العمل وقواعد السلطة التي أعدتها بالأمس الموجة الثانية ·

وفي محاولة منهم لتحويل العاملين الى « بروليتاريا الكترونية » ــ كما كان جورج أورويل يمكن أن يسميهم ــ نجدهم يحصون عدد الضربات

على لوجات مفاتيح الآلات ويراقبون بشكل دائم أوقات الراحة ويتصنتون على المكالمات الهاتفية • انهم يريدون السيطرة على سير العمل في أبسط تفاصيله • وتنتشر هذه الطرق الخاصة بالعصر الصناعى لدى شركات التأمين خاصة في معالجة مجموعة طلبات التعويض ، أما بالنسبة لفروع أخرى ففى الحصول على البيانات المعلوماتية ، غير أن هذه الطرق يمكن أن تنطبق أيضا على وظائف الادارة العليا •

وطبقا لتقرير لمكتب الكونجرس الأمريكى لتقييم التكنولوجيات ، فان هذه الطرق المعنية « تمتد وبشكل متزايد في كثير من الأحيان [•••] الى أكثر الوظائف كفاءة فى المجالات التقنية فضلا عن بعض المهن الحرة وادارة الشركات ، فبعض المهن مثل سمسار مواد أولية أو مبرمج كمبيوتر أو مسئول عن قروض بنكية [•••] قد تتعرض هى أيضا لنظام المراقبة المستمرة » •

ويبقى أن نعرف الى متى ستظل هذه الطرق مربحة ، لأن قواعد العمل فى الماضى تتعارض مع الامكانات الجديدة التى تمنحها التكنولوجيا المتقدمة • وأينما تتعايش الطرق القديمة مع التكنولوجيا المتقدمة ، يكون من المرجح حدوث سوء استخدام لهذه التكنولوجيا وتبديد لمزاياها دون تحقيق عائد فعلى ، ولقد بين التاريخ مرارا أن التكنولوجيات المتقدمة حقا تتطلب أيضا طرق عمل وتنظيم متقدمة حقا •

ويشبه أصحاب العمل الذين لايزالون يتوهمون أنهم فى حاجة الى بروليتاريا الكترونية ، الى حد كبير أصحاب المسابك القدامى وأصحاب مصانع النسيج الذين كانوا يعتقدون أن بامكانهم تشغيل مصانع تعمل بطاقة البخار بطرق أعدت للتعامل مع قوة جـر الأبقار • ولقد اضطر هؤلاء الى تصحيح خطئهم سريعا والا كان مصيرهم الافلاس فى مواجهة منافسين أكثر ذكاء تعلموا كيف يعيدون تنظيم سياق العمل ذاته ، بمطابقة نظام العمل مع التقنيات الأكثر تقدما حينذاك •

ومن بين آلاف أماكن العمل ، ابتداء من ورش صناعة السيارات الى المكاتب ، تجرب بعض الشركات الذكية حاليا ــ أو تطبق فعلا ــ النظام الجديد الذى يتميز بميزة رئيسية ، ألا وهى تغير الموقف تجاه المعرفة وكذلك تجاه السلطة •

نظام عمل الغد :

ان التغيرات التى فى طريقها لتحويل العمل لاتنتج اطلاقا من أى نوع من الغيرية الغامضة ، وانما ترجع الى حقيقة أن انتاج الثروة حاليا يتطلب حجما من المعلومات والاتصالات أكبر بكثير من السابق، عندما كانت أغلب

الشركات لا تزال صغيرة الحجم جدا وكان صاحبها أو مديرها يستطيع عمليا معرفة كل ما يحتاج معرفته • ولكن مع زيادة حجم الشركات والتعقيد المتزايد للتكنولوجيا ، أصبح مستحيلا على أى من كان النهوض بعبء المعرفة كاملا • ومن ثم تم استخدام مجموعة من المتخصصين والمديرين ووزعت على الأقسام والمستويات الخاصة بالبيروقراطية • فلقد تعين توزيع اجمالى المعرفة بين مختلف عناصر ودرجات الادارة العليا •

وتحدث الآن ظاهرة موازية • فكما كان رجال الأعمال يعتمدون على المديرين للحصول على المعرفة،أصبح المديرون يعتمدون حاليا على مرؤوسيهم لنفس الغرض •

ولقد عفا الزمن على التقسيم القديم لقوة العمل الى « رؤوس » و «أيدى» وهو التقسيم الذى وضعه العصر الصناعى • ويعبر تيرويا ناجاو بروفسير علم المعلومات والقرار بجامعة تسوكوبا عن هذه الحقيقة قائلا : « ان الفصل بين الفكر والفعل المادى كما حققه النموذج التقليدى [•••] يتوافق تماما بدون شك مع تكنولوجيا ساكنة غير أنه من الصعب أن يتوافق مع تقدم تكنولوجى سريع » •

ولأن التقنيات أصبحت أكثر تعقيدا وتتوالى الواحدة تلو الأخرى بسرعة أكبر من ذى قبل ، ينتظر من العامل أن يعرف المزيد عن الوظائف المجاورة لوظيفته وأن يستوعب الابتكارات • وهكذا تشير دعاية لجنرال موتورز بفخر الى عمال يساهمون فى اختيار طريقة انارة مصنعاتهم ويختارون أدواتهم والورق الشفاف الخاص بهم ، بل أنهم « يتعرفون على كيفية عمل المصنع وتكلفة الأشياء واستجابة العملاء لناتج عملهم » • ويوضح دافيد هيويت من شركة يونيتد ريسيرش كمبانى أن العمال فى حالة الانتاج بمساعدة الكمبيوتر لايحتاجون الى مجرد معرفة كيف تعمل آلاتهم الخاصة ولكن [•••] كيف يعمل المصنع ككل » •

ان ما يحدث هو اعادة توزيع لمسئولية وعبء المعرفة ، والشىء الأهم ، اعادة توزيع لمسئولية اتخاذ القرار •

فالعاملون الذين يتلقون دورة مستمرة من التدريب ، حيث يتعين عليهم التعلم ثم الغاء بعض ما تعلموه ثم التعلم من جديد ، يحتاجون الى السيطرة على التقنيات الجديدة والتكيف مع أشكال تنظيمية جديدة وايجاد أفكار جديدة •

وبالتالى يقول ناجاو مشيرا الى دراسة سابقة لشركة سونى : « ان العاملين الخاضعين الذين يحترمون اللوائح دائما ويكتفون بتطبيق التعليمات حرفيا ليسوا بالعاملين الجيدين • وهو ينبه الى أن البيئة

الحاليـــة ذات التطور السريع تجبرنا على تغيير القواعد ذاتها أكثر مـن ذى قبل ، ومن ثم يتعين تشجيع العاملين على اقتراح تعديلات بمبـادرة خاصـــة منهم ٠

ففى الحقيقة ، ان الذى يساهم في تحديد القواعد الجديدة سيدرك ضرورة هذه القواعد وكيف أنها تتكامل مع المجمـوع ـ ويعنى ذلك أنه سيتمكن من تطبيقها بشكل أذكى ٠ ومن جهة أخـــرى ، يقول راينهارد موهن رئيس شركة برتلسمان ايه ٠ جى ٠ وهى احدى أكبر المجموعات العالمية فى مجال وسائل الاعلام : « ان اللوائح والقوانين التى تحظى بتأييد أغلبيـة القوة العـــاملة هى وحدها التى لديهـــا فرصة ما لكى تحظى بالاحترام » ٠

ولكن اشراك العاملين فى عملية اعداد القواعد ، يعنى جعلهم يتقاسمون سلطة كانت وقفا مطلقا على رؤسائهم ، ويصعب على بعض المديرين قبول هذا التحول فى السلطة ٠

وكما هو الحال بالنســـبة للديمقراطيـــة الســياسية ، لايمكن للديمقراطية فى مكان العمل أن تزدهر فى قلب تجمع جاهل ، وبالعكس ، كلمـــا كان التجمـع متعلمـــا طالب ـ على ما يبـــدو ـ بالديمقراطية ٠ لذلك يؤدى انتشار التكنولوجيات المتقدمة فى الشركات الى التخلى تدريجيا من العمـــال غير المؤهلين وذوى التعليم المنخفض بحيث يشكل المتبقون مجمـوعة أفضـل تعليمـا ، ومن المستحيل قيادتهم طبقـا للطريقة القديمة المستبدة من نوع « اعملوا ولا تطرحوا أسئلة » ٠ بل ان العكس صحيح اذ أصبح جزءا من عمل كل واحد طرح الأسئلة ومناقشـــــة الأفكار القائمـــة ٠

ويوضـح لوويل ٠ اس ٠ باين الذى يدير مصـــنع جـين كورب أوتوموتيف فى مدينة شيلبيفيل بولاية انديانا ، مشيرا الى دوره كمدير ، « ان الضغط هنا يأتى من قوة العمل ذاتها ـ قوة عمل تتحدى الادارة وترفض قبول أوامرها أو سلطتها ٠ ويعيد العاملون هنـــا النظر فى الأهـــداف المحـــددة [٠٠٠] اذ لا يكفي أن تنتمي للادارة لتكون أفكارك مقدسة وغير قابلة للنقاش » ٠

اذن الصورة واضـــحة : اذا كانت السلطة فى مكان العمل فى طريقها للتحول فان ذلك ليس نتيجة لتاثير نوع غامض من المثالية ولكن لأن نظام خلق الثروة الجديد يتطلب ذلك ٠

الشخص غير القابل للاستبدال :

من بين عوامل تحول علاقات السلطة فى العمل ، هناك عامل رئيسى يرجع لمفهوم عدم القابلية للاستبدال ، لقد اعتمد أحد أهم ابتكارات الثورة الصناعية على فكرة قطع الغيار القابلة للاستبدال ، غير أن العمال سرعان ما أصبحوا كذلك أيضا ·

وكان ذلك على وجه الخصوص أحد أهم أسباب العجز النسبى للطبقة العاملة فى العصر الصناعى · فمنذ أن أصبحت الوظائف لاتطلب كفاءة عالية ، بحيث لايستلزم الأمر سوى بضع دقائق لكى تشرح لأى شخص كيفية انجاز مهمة شبه آلية ، أصبح أى عامل يساوى أى عامل آخر ، وعندما كان يزيد عرض العمل عن الحاجة كانت تنخفض الأجور وحتى عندما كان ينضم العمال الى النقابات كانوا يجدون أنفسهم فى مركز تفاوضى سيىء ·

« ان جيشا احتياطيا » من العاطلين كان مستعدا لشغل كل الوظائف الشاغرة · أما حاليا ، وكما سبق أن رأينا فى الفصل السابع ، لايستطيع العاطلون فعل ذلك الا بشرط امتلاك الجرعة المناسبة من الكفاءة فى اللحظة المناسبة ·

هذا بالاضافة الى أن مضمون العمل من المعرفة يتجه الى التزايد ، كما تتجه الوظائف الى أن تكون ذات مواصفات فردية وشخصية ، بمعنى آخر أصبحت أقل قابلية للاستبدال · وطبقا للاستشارى جيمس · بى · وار نائب رئيس اندكس جروب « تزداد صعوبة استبدال العاملين فى قطاعات المعرفة ، لأن كل واحد منهم يستخدم نفس الأدوات بشكل مختلف · فمهندس ما يستخدم الكمبيوتر بشكل مختلف عن مهندس آخر ولمحلل السوق طريقته الخاصة لتحليل الأشياء ، ومن سيحل محله ستكون له طريقة أخرى » ·

وعندما يترك أحد العاملين الشركة ، يتعين عليها اما يجاد من يحل محله على أن يكون بنفس الكفاءة ، وهى عملية ليست سهلة نظرا للعبة الاحتمالات الرياضية (ومكلفة أيضا) وتزداد صعوبة كلما تزايدت ظاهرة التنوع ، أو تقوم بتدريب شخص جديد (بتكلفة كبيرة أيضا) · وبالتالى أصبح استبدال شخص ما عملية مكلفة بشكل مضطرد وأصبح لدى هذا الشخص سلطة تفاوضية تزداد بنفس النسبة ·

ويعرض رئيس الفريق المكلف بمشروع ضخم للدفاع القومى هذا التطور فى هذه الكلمات : « فى الماضى كان من الممكن جعل الجميع يفعلون

نفس الشيء [...] . أما حاليا فان الأمر مختلف تماما ، اذا فقدنا أحد العاملين يحتاج الأمر الى ستة شهور من التدريب لشخص آخر لكى يفهم نظامنا » . فضلا عن أن العمل منظم فى مجموعات « لذلك يختل عمل كل الفريق عندما نفصل شخصا ما » .

والنتيجة النهائية لهذا التطور هى توجه الشركات الى استخدام عاملين أقل عددا ولكن بأجور أعلى ، أما الصناعات المتطورة ذات النمو العالى فتلجأ الى استبعاد هيكل القيادة الاستبدادى القديم وتستبدله بأسلوب عمل جماعى أو أكثر مساواة .

وعندما نضع هذه التغيرات فى سياقها التاريخى ، تبدو كتحول مهم للسلطة فى مواقع العمل .

ضرورتان :

لن يمحو نظام العمل الجديد كل أثر للنظم الأقدم ، وسيتعين أن يمر وقت طويل لكى يختفى آخر سجن أشغال شاقة صناعى . ولكن توجد ضرورتان تجعلان من غير الممكن وقف التقدم .

الضرورة الأولى « ضرورة الابتكار » . اذ لايوجد حاليا نصيب مضمون من السوق ولا منتج يعيش الى مالا نهاية . ولا يقتصر الأمر على مجال المعلوماتية أو مجال الملابس ، حيث تستولى المنافسة على منافذ مفترض أنها مكتسبة وتنتزع من شركات قوية مساحات كبيرة من نفوذها باستخدام سلاح الابتكار ، ولكن فى جميع الفروع ــ سواء أكانت بوالص تأمين أم خدمات طبية أو رحلات منظمة . وتجف الشركات وتموت اذا لم تتمكن من خلق سيل لا ينقطع من المنتجات الجديدة .

ولكن فرصة العاملين الأحرار لأن يظهروا قدرات ابتكارية تفوق فرصة أولئك الخاضعين لرقابة دقيقة فى ظل ظروف شمولية . وكما يقول دافيد ستون نائب رئيس شركة ديجيتل اكويبمنت والمسئول عن الهندسة الدولية : « اذا أمضيت وقتك فى مراقبة شخص ما يقضى بدوره وقته فى مراقبة عملك فلن تخلقا شيئا يذكر » . وبالتالى ، فان ضرورة الابتكار تشجع استقلالية العاملين .

ويستتبع ذلك أيضا اقامة علاقة سلطة جديدة تماما بين أرباب العمل والعاملين ، سماتها الأولى ضرورة اتاحة المجال للأخطاء الذكية . فقبل طرح فكرة واحدة جيدة ، يجب أن يكون قد تم طرح ــ ومناقشة ــ مجموعة من الأفكار الرديئة ، وهو ما يستتبع بدوره أن يصبح كل فرد من الآن فصاعدا متحررا من الخوف .

ان الخوف هو أخطر قاتل للأفكار ، الخوف من السخرية ومن العقاب ومن ضياع الوظيفـــة يبطل ويلغى الابتكار · وكانت الادارة فى الماضى تعتبر مهمتها الأولى تجنب الوقوع فى الخطأ بينما الابتكار على نقيض ذلك ، يحتاج الى الخطأ التجريبى لكى ينجح ·

تروى عن توم واتسون ، وهو من كبار قادة آى · بى · أم النادرة التالية ، التى يحتمل أن تكون مختلقة : سأله أحد زملائه ان كان سيفصل المسئول عن مشروع تكلف ٥ ملايين دولار وانتهى بالفشل · فأجـــاب واتسون : « أفصله ! لقد دفعت له توا تكاليف دراسته ! » سواء أكانت الرواية حقيقية أم لا ، فانها توضح موقفا تجاه العمل متناقضا تماما مع نظام العصر الصناعى ، وتؤكد مرة أخرى على أهمية التدريب ·

والضرورة الثانية التى تدفع الى اقامة نظـام جديد هى السرعة · فالنظم الاقتصادية المتقدمة محكوم عليها بالتسارع ، ففى هذا المناخ الجديد لايكفى الابتكار وحده ، بل يجب أن تطرح الشركة منتجاتهـــا الجديدة بسرعة جدا قبل أن يسبقها أحد منافسيها الى السوق أو يكون لديه الوقت لنسخ منتجاتها الجديدة وتقليدها ·

وفى الوقت نفسه يعدل ضغط التســارع بدوره علاقات السلطة بكسره للتسلل البيروقراطى للقيادة ·

وزد على ذلك أن الشبكات الالكترونية الجديدة تسمح فى كثير من الأحيان داخل الهيئة باتصالات نحو الأعلى والأدنى أو اتصالات أفقية ، وبفضل هذه الاتصالات يمكن لأحد العاملين أن يندس خلال مستويات التسلسل الادارى ، وتحدث ظـــاهرة مماثلة فى الاتصـــالات الشخصية والمباشرة ·

فى السابق ، كان تجاوز أحد العاملين لرئيسه المباشر لعرض مشكلة أو فكرة جديدة كفيلا بأن يسبب له المضايقات ، بينما يجبر التسارع حاليا العاملين على اختصار وتجاوز التسلل الادارى ، وقد يتم تشجيعهم على ذلك فى حالة الضرورة · ولقد أصبح هذا السلوك معتادا فى المقـــر الرئيسى لشركة برازر اندستريز فى ناجويا ، لدرجة أن مسئولا عن العاملين يمكن أن يعلن ما يلى : « اذا شعر كادر وسيط بالاهانة لأن أحد مرؤوسيه تخطاه دون استئذان ، فان هذا الكادر سيفقد على الفور احترام رؤسائه وكذلك احترام مرؤوسيه » ·

ومن ثم يساهم كل من التسارع والابتكار فى اســقاط التسلسل الهرمى للسلطة المنتمية للماضى المصنعى · ويشجعان التقدم نحـــو نظام عمل جديد ينتمى للموجة الثالثة ·

المطالبة بحرية الوصول الى المعلومات :

لكل هذه الأسباب سوف يمتد نظام العمل الجديد الى جميع قطاعات الاقتصاد الرئيسية · وكلما حصلت قوة العمل على استقلالية ، طالبت بتوسيع حقها فى الوصول الى المعلومات ·

وفى العصر السابق ، كان المطالبون بمعاملة العاملين معاملة أكثر انسانية يصطدمون بواقع تكنولوجيا ذلك العصر المتخلفة والتى وان ظلت رابحة لكنها أبقت العمال أسرى الجهل والعجز ·

أما الآن ، فالعاملون يريدون الاطلاع على المعلومات المتزايدة لأنهم فى حاجة ماسة اليها لانجـــاز مهامهم ، ان عملية اعادة توزيع المعـرفة (والسلطة) التى نشاهدها أصبحت ضرورية بحكم الظروف الجديدة للسوق وبحكم التكنولوجيات الجديدة ذاتها ·

ولقـد كتبت صحيفة « النيويورك تايمز » تقول : « بما أن برامج الكمبيوتر تحاكى وتملك الامكانات التى طالما جعلت من المديرين مجموعة منفصلة ، فان العاملين فى المستويات الأدنى يستطيعون فى الوقت الراهن القيام بالوظائف التى كانت وقفا من قبل على المديرين » · كما استشهدت الصحيفة بتصريح لشارلز ابيرل النائب السابق لرئيس شركة بروكتر آند جامبل يقول فيه : « فجأة أصبحت المعلومات تصـل الى أيدى الذين يشغلون الآلات ، ولم تعد وقفا على أولئك الذين يحتلون درجتين أو ثلاث درجات أعلى فى السلم الوظيفى · والواقع أن هذه الكوادر العليا قد لاتفطن الى أهمية تلك المعلومات طالما أنها لم تصل الى العمال ، ولكنها تبـدى مقـاومة شـديدة للغـاية اذا وصلت هذه المعلومات اليهم » · وبالطبع ليس كل العمـال قادرين على شـغل مناصـب تتطلب مبادرة وتقاسما للمسئولية ومشاركة بدون تحفظ ، ولا كل المديرين قادرين على التكيف مع أسلوب العمل الجديد ·

ولكن مع اتجاه وحدات العمل الى أن تصبح أصغر حجما وارتفـاع مستويات التعليم بشكل مضطرد ، يتزايد الضغط من أسفل ، وينجم عن ذلك تحول أساسى فى علاقات السلطة ·

انها ليست المرة الأولى منذ فجر العصر الصناعى ، التى يواجه فيها المديرون ظهور نماذج جديدة للعلاقات الانسانية فى مواقع العمل ، فمنذ عهد بعيد هاجمت مدرسة من المنظرين مفاهيم تايلور القديمة التى جعلت من العامل تابعا للآلة وأكدوا أنه سيكون من الأجدى فى نهاية الأمر معاملة العاملين كآدميين ·

الا أن النظام الجديد يحظى بتأييد ومساندة المديرين الثوريين • ويقول تيرويا ناجاو : « ان الفكرة تذهب الي أبعد بكثير من افتراضات نموذج « العلاقات الانسانية » ، التي كانت تهدف الى جعل العاملين يشعرون بأهميتهم • فالآن يتم الاعتراف بأنهم بالفعل مهمون » •

ويظل صحيحا أن السلطة العليا ـ الأقوى من سلطة أى شخص ـ ملك لسوق العمل ، ان النقص أو الفائض من العاملين المؤهلين فى هذا التخصص أو ذاك هو الذى يحدد الثوابت الخارجية وحدود الاستقلالية الجديدة • لقد تعلم عدد كبير من المبرمجين ومهندسي الفضاء درسا قاسيا ، ألا وهو أنه يمكن الإستغناء عنهم ببساطة ، تماما مثل عمال المطبعة أو العمال على خط تجميع ، بينما يمنح رؤساؤهم لأنفسهم « مظلات هبوط ذهبية » • ان من يفقدون عملهم يتعرضون لخفض رهيب فى سلطتهم سواء الشخصية أو الجماعية ـ الا أن ذلك سيكون موضوع كتاب آخر تماما •

المهم هنا ، هو ادراك كيف تتغير الأشياء بالنسبة لمن « ينتمون » لقوة العمل • والحال هذه فاننا فى هذا الاطار نشاهد حاليا تحولا ذا أهمية تاريخية •

ففى العصر المصنعي ، لم يكن لأى عامل سلطة فردية مهما كانت بسيطة فى مواجهة الشركة ، وكان ذلك ينطبق علي أى نوع من الصراع • ان تجمعا من العاملين فقط كان يستطيع أحيانا ، إذا ما هدد برفض تقديم خدمة عضلاته للشركة ، اجبار الادارة المتعنتة علي تحسين الرواتب أو أوضاع العمال • فالعمل الجماعي فقط كان يمكن أن يبطيء أو يوقف الانتاج ، طالما أن كل فرد كان قابلا للاستبدال ، وعلى هذا الأساس تكونت النقابات العمالية •

واذا كانت النقابات ، مع ارتباطها التقليدى « بالتضامن » و « الوحدة » ، تفقد حاليا من أعدادها ومن سلطتها فى كل البلدان المتقدمة تكنولوجيا تقريبا ، فان ذلك يرجع بالتحديد الى أن العاملين لم يعودوا قابلين للاستبدال بنفس القدر الذى كان فى السابق •

وفى عالم الغد ، لن يحتاج احداث أية خسائر لانتاج شركة ما أو شل انتاجها الى أعمال جماعية • اذ يكفى دس « فيروس معلوماتى » فى برنامج، أو ادخال التواء بارع للمعلومات فى قاعدة بيانات ، أو تسليم المعلومات لمنافس • وهذه ليست سوى بعض أمثلة لوسائل بديهية من بين طرق التخريب الجديدة المتعددة ، التى يمكن أن يستخدمها شخص غاضب أو غير مسئول أو مجروح الكرامة •

وقد يقتصر « اضراب المعلومات » فى المستقبل على عمل احتجاجى لشخص واحد ـ وهو عمل لايستطيع أى قانون أو حيلة معلوماتية أو اجراء أمنى أن يضمن فى مواجهته حماية كاملة ٠ وان لأفضل دفاع بدون شك هو الضغط الاجتماعى الذى يمكن أن يمارسه زملاء وأقران الشخص المعنى ، أو مجرد احساسه بأنه يعامل بانصاف وكرامة ٠

غير أن الأكثر أهمية هو التطور نحو عدم القابلية للاستبدال ٠ ومع التمييز المضطرد للعمل ، فان وضع الذين يملكون كفاءات أساسية وحاسمة سيتعزز بشكل كبير ٠ ولم يعد الأمر قاصرا على الجماعات المنظمة بل ان الأفراد المعزولين يمكنهم حاليا الضرب وبشدة ٠

ولقد أكد الثوريون الماركسيون أن السلطة ملك لمن يمتلك « وسائل الانتاج » وقارنوا وفقا لهذه المقولة عامل المصنع مع الحرفى فى العصر ماقبل الصناعى ٠ كما أكد ماركس أن العاملين سيظلون بدون سلطة طالما أنهم لم ينتزعوا « أدوات الانتاج » من الطبقة الرأسمالية التى تمتلكها ٠

ولكننا ، بعد زمن ماركس نعيش الآن التحول التالى لعلاقات السلطة فى موقع العمل ، وانه لمن سخريات التاريخ أن نشهد حاليا ظهور نوع جديد من الأجراء المستقلين الذين يملكون فعلا وسائل الانتاج ٠ اذ أن هذه الوسائل فى شكلها الجديد ، لم تعد داخل صندوق أدوات الحرفى ، وبنفس القدر ليست تلك الآلية المكثفة التى ميزت العصر المصنعى : ان هذه الوسائل تنبض داخل جمجمة الأجير المستقل حيث سيجد المجتمع فى المستقبل أهم مصدر للثروة والسلطة ٠

الفصـــل التاســـع عشر

فسـيفسـاء السـلطة

فى عـام ١٩٨٥ ، اشـترت شركة جنرال موتورز ، الصانع الأول للسيارات فى الولايات المتحدة ، اغلب راسمال « هيوز ايركرافت » ، وهي الشركة التي اسسها هوارد هيوز ، هذا الملياردير غريب الأطوار الذى اعتزل الحياة العامة · ودفعت جنرال موتورز ٧ر١ مليار دولار ــ وكان ذلك اكبر مبلغ يدفع حتى ذلك الحين لامتلاك شركة ·

وكانت موجة جنونية من الاندماجات قد بدأت فى الولايات المتحدة فى بداية الثمانينات ، وهى الموجة الرابعة منذ ١٩٠٠ · ومع توالى السنين تضاعفت عمليات الاندماج · ففى عام ١٩٨٨ ، بلغ عدد عمليات الشراء أو الاندماج ٣٤٨٧ عملية وبلغ مجموع ما دفع فيها رقما فلكيا هو ٢٢٧ مليار دولار · ثم فى عام ١٩٨٩ ، تم تحطيم الأرقام القياسية السابقة بعرض الشراء العلنى لـ « آر · جيه · آر · نابيسكو » والذى تكلف ٢٥ مليار دولار ·

باختصار ، تضاعفت التكلفة القصوى للاندماج خمسة أضعاف خلال أربع سنوات فقط · ومع أخذ التضخم فى الاعتبار تكون الزيادة شديدة الضـــخامة ·

وكانت غالبية العمليات الكبرى من هذا النوع فى تاريخ الولايات المتحدة تتم بين شركات أمريكية ، على نقيض ما يحدث الآن ، حيث لا يمر يوم دون أن تعلن العناوين الرئيسية عن « زيجات مختلطة » ــ عمليات اندماج عبر الحــدود · فقد حصلت شركة بريدجستون اليابانية على شركة

فيرستون تاير آند رابر • واندمجت سارا لى مع العملاق الهولندى دووى اجبرتز • وابتلعت كادبورى شويبس الانجليزية الشوكولاته الفرنسية بولان • واشترت المجموعة الفرنسية « هاشيت » شركة جروليبه الأمريكية كما اشترت سونى اليابانية شركة كولومبيا بكتشرز الأمريكية •

وكتبت صحيفة « الفايننشيال تايمز » تقول : « ان التزايد غير الطبيعى لعمليات الشراء فى العالم لا يبدى أية علامة انحسار » • ورجحت الصحيفة « أن تتسارع المعركة من أجل اعادة تنظيم العديد من القطاعات المهمة ، [•••] تحت تأثير عوامل تتجاوز بكثير عمليات اعادة بيع الأصول التى جعلت موجة الاندماجات تندلع أصلا فى الولايات المتحدة » •

وكما يشير المقال ، كان الهدف أصلا من العديد من الاندماجات هو الاثراء السريع الذى يتحقق بفضل أعمال مالية أو ضريبية بهلوانية • ولكن كان لاندماجات أخرى طابع استراتيجى • ففى اوروبا المتجهة بخطوات واسعة نحو الوحدة الاقتصادية الكاملة ، اندمج عدد من كبريات شركاتها على أمل الاستفادة من السوق المشتركة الواسعة ، أو لمقاومة هجمات العمالقة اليابانيين والأمريكيين بشكل أفضل - بينما كان المتقدمون الأمريكيون واليابانيون يبحثون عن زيجات أوروبية •

وبعض هؤلاء ، كان ينظر الى أبعد من ذلك ويستعد للعمل على امتداد السوق التى تسمى « الثلاثية » ألا وهى أوروبا والولايات المتحدة واليابان ، بل ان بعضهم كان يحلم بغزو « السوق على مستوى الكرة الأرضية » •

وأثارت كل هذه الأنشطة المحمومة قلقا عميقا ، اذ خشى الكثيرون من رؤية السلطة الاقتصادية تتركز فى أيدى قلة قليلة • وفي الوقت نفسه ، نددت النقابات وبعض الساسة « بهوس الضربات الضخمة » التى قارنها بعض المعلقين بالهياج الذى يصيب أسماك القرش المتضورة جوعا •

واذا لم نر الأشياء الا من منظور القدرة الاقتصادية ، فان ذلك قد يقودنا فعلا الى التفكير فى أن السلطة فى اقتصاد الغد قد تنتهى الى أن تؤول الى حفنة صغيرة من الهياكل الهرمية الضخمة أحادية التركيب التي تشبه الى حد كبير تلك التى تعرضها علينا بعض الأفلام •

غير أن هذا السيناريو شديد السذاجة ••

أولا ، يخطىء من يعتقد أن هذه الاتحادات بين الشركات العملاقة ستدوم الى مالا نهاية • فموجات الاندماج السابقة تلتها بعد ذلك بعدة سنوات موجات من تفكك الشركات وتجريدها من أصولها • ويرتسم فى الأفق مجموعة جديدة من حالات الطلاق ، اذ يحدث أحيانا أن تتبخر السوق

المتوقعة ، أو أن تدخل الثقافات الخاصة للشركات المدمجة في صراع - أو يتضح أن الاستراتيجية كانت خاطئة تماما منذ البداية · ففي الواقع ، وكما رأينا فيما سبق ، أن كثيرا من عمليات الشراء التي تمت مؤخرا كانت تستهدف تحقيق عمليات تجريد وتفكيك رابحة ، حتى ان وحدات متعددة تجد نفسها بعد عملية اندماج ضخمة وقد انفصلت عن النواة المركزية ، وينجم عن ذلك في النهاية حدوث انكماش بدلا من التوسع ·

ثانيا ، اننا نشهد فصلا متزايد الوضوح بين عالم المال وعالم الاقتصاد « الحقيقي » الذي ينتج ويوزع السلع والخدمات · ففي نهاية الثمانينات ، أوضح انهياران مخيفان للبورصة أن الأسواق المالية يمكن أحيانا أن تنهار ، مؤقتا على الأقل ، دون ان يؤدي ذلك الى اضطراب عميق في سير عمل الاقتصاد ككل · ففي انتاج الثروة يعتبر رأس المال عاملا في حد ذاته ، ولكن بدلا من أن تزيد أهميته فانها على العكس تتناقص عما كانت عليه في الماضي ·

ومن ناحية أخرى ، فان السلطة لا تزيد بالضرورة مع الحجم · فعديد من الشركات العملاقة تملك مصادر سلطة ضخمة ولكنها لا تستطيع استخدامها بفاعلية · لقد تعلمت الولايات المتحدة في فيتنام ، والاتحاد السوفيتي في أفغانستان أن تفوق الحجم لا يكفي لضمان الانتصار ·

ولكن لمعرفة كيف سيتم توزيع السلطة في قطاع أو اقتصاد معين ، من المهم أن ندرس « العلاقات » أكثر من دراسة الهياكل ويقودنا ذلك الى اكتشاف تناقض مدهش ·

ففي الوقت الذي تتضخم فيه بعض الشركات (أو تنتفخ) ، تتجه حركة قوية معاكسة الى تفكيك الشركات الكبرى الى وحدات متزايدة الصغر ، والى تكاثر الشركات الصغيرة أيضا · لأن تركيز السلطة لا يمثل سوى نصف المسألة : فبدلا من نموذج وحيد ، فاننا أمام اتجاهين متناقضين تماما ولكنهما بدآ في الانصهار معا في توليفة جديدة ·

ونجم عن الآثار المتفجرة للأهمية الاقتصادية للمعرفة أن هيكلا جديدا تماما للسلطة في طريقه للميلاد هو فسيفساء السلطة ·

من التركيبات الأحادية الضخمة الى الفسيفساء :

في الثمانينات ، وفي أوج اندلاع جنون الاندماجات « اكتشفت » الشركات مركز الربح ·

وفي اندفاعة حماسية ، بدأت الشركات في التفكك الى عدد كبير من الوحدات ، وتلقت كل وحدة مهمة أن تعمل كشركة صغيرة مستقلة ·

وهكذا دخل العمالقة في طريق التخلى عن هياكلهم الضخمة أحادية التركيب ، واستبدالها بفسيفساء مكونة من عشرات بل مئات من الوحدات ذات النظم المحاسبية المستقلة ٠

ان الأسباب العميقة لعملية اعادة الهيكلة تلك ، تكمن فى التغيرات التى عرفها نظام المعرفة ، وان كان قليل من المديرين يدركون ذلك ٠

إن فكرة اقامة مراكز ربح منفصلة في الشركة الكبيرة ليست بالفكرة الجديدة ولكن القيادات فى عصر ما قبل الكمبيوتر ، عارضت قيامها نظرا لانها تنطوى على تقليل مهم لسلطتهم ٠

وحتى بعد ظهور الوحدة المركزية ، ظل من الصعب على الشركات ممارسة سيطرة مستمرة على عمليات عدد كبير من « المراكز » من هذا النوع ٠ وكان يتعين انتظار الوصول المكثف لأجهزة الكمبيوتر الشخصى فى الشركات ، لكى يبدأ مفهوم مركز الربح فى اثارة اهتمام حقيقى فى قاعات مجالس الادارة ٠ وان ظل هناك شرط يتعين توفره ، ألا وهو ربط الميكروكمبيوتر بالوحـــدات المركزية ٠ وبدأت اقامة هذه الروابط فى الثمانينات ، وفجأة لقى مفهوم مركز الربح رواجا كبيرا ٠

فى البداية ، أدت أجهزة الميكروكمبيوتر المستقلة الى نقل السلطة نحو الأسفل ٠ ومع هذه الأسلحة الجديدة ، تذوقت الكوادر المتوسطة بل وحتى العاملون البسطاء طعم حرية وسلطة لم يعتادوها ٠ ولكن عندما تم بشكل فعلى ربط أجهزتهم بالوحدة المركزية ، أصبح بامكان الادارة العليا أن تراقب عن كثب بعض الثوابت الرئيسية لنشاط عـدد كبير جدا من الوحدات الصغيرة ، وأصبح من الممكن السماح لها بقدر كبير من الحركة المستقلة ، مع الاحتفاظ بالسيطرة على المحاسبة المالية لهذه الوحدات ٠

وهكذا بدأت الثورة المعلوماتية فى تعميق الهوة بين الجانب المالى والجانب الخاص بالعمليات والتشغيل ، وذلك بالسماح بالجمع بين المركزية من ناحية واللامركزية الممتدة من ناحية أخرى ٠

غير أن أغلب مراكز الربح الآن ليست سوى انعكاس للشركة الأم ، وصورة مصغرة للبيروقراطية المنبثقة من البيروقراطية الأم٠ولكن مع اقترابنا من مفهوم الشركة المرنة سنرى هذه المراكز تبدأ فى تنويع أشـــكالها التنظيمية وتكون فيما بينها فسيفساء من نوع جديد ٠

ففى كنيسة سانت ابوليناري نوفو بمدينة رافينا توجد لوحة جدارية من الفسيفساء تمثل موكبا للقديسين ٠ فلنتخيل أن هذا الموكب الطواف بدلا من أن يدور على جدار مسطح وثابت ، فانه يدور فى اطار نوع من الفسيفساء المتحرك المصنوع من العديد من الألواح الشفافة التى تنتقل

الواحدة منها وراء الأخرى وتتداخل وترتبط فيما بينها فى توليفات متعددة ، حيث لا تكف الألوان والأشكال عن الاختلاط والتغير والتحول والتباين فيما بينها ·

ويمكن تطبيق هذه الصورة على أنواع تنظيم المعرفة الجديدة فى قواعد البيانات · وهى توحى بالفعل بالشكل المستقبلى للشركة وللاقتصاد ذاته · فبدلا من تسلسل هرمى وادارى كان يركز السلطة وتهيمن عليه بعض التنظيمات المركزية ، نتجه الآن نحو سلطة فى شكل فسيفساء متعددة الأبعاد ·

الادارة و « ازالة الدهون » :

ان طبيعة التسلسل الهرمى فى الشركة فى حالة تغير · ففى الحقيقة شهدت الثمانينات بالتوازى مع خلق مراكز الربح « تسطيحا للتسلسل الهرمى » الذى عرف أيضا باسم « مذبحة الصفوف المتوسطة » · والسبب العميق لذلك ، كما كان الحال بالنسبة للانتقال الى مراكز الربح ، هو شعور القيادات بالحاجة الى اعادة السيطرة على المعرفة ·

فبينما كانت الشركات تقوم بعمليات استغناء ضخمة فى صفوف كوادرها المتوسطة ، كان المديرون والجامعيون وخبراء الاقتصاد الذين طالما طالبوا من قبل ونادوا فى صوت واحد أن « الأكبر هو الأفضل » قد بدءوا ينشدون أغنية أخرى · لقد اكتشفوا فجأة « اقتصاديات التوسع اللاحجمى » ·

وتنجم اقتصاديات التوسع اللاحجمى المعنية أساسا عن انهيار نظام المعرفة القديم ، أى النظام الذى يعتمد على التوزيع البيروقراطى للمعلومات على حويصلات منفصلة عن طريق قنوات اتصال رسمية ·

وكما سبق أن اشرنا من قبل ، فان جزءا كبيرا من عمل الكوادر المتوسطة يتلخص فى جمع المعلومات الواردة من مرؤوسيهم ونقلها الى رؤسائهم · ولكن منذ أن أدى تسارع العمليات وتعقيدها المتزايد الى اكتظاظ الحويصلات وانسداد القنوات ، بدأ اجمالى نظام الابلاغ فى التفكك · وتكاثرت الأخطاء وسوء التفاهم ، ودفع تعدد المواقف المعقدة والمتشابكة الى حنق العملاء · وتزايد عدد الأشخاص الذين يتحايلون على هذا النظام « الكافكى » (*) ·

وارتفعت تكلفة المعاملات ارتفاعا سريعا · وكان العاملون يبذلون

(*) نسبة الى الأديب « كافكا » ·

جهدا أكبر للقيام بعدد أقل من المعاملات • وأصبح الدافع للعمل فى انخفاض مستمر ومتسارع •

وكانت قلة من المديرين تدرك ما يدور حولها • فعندما تعرض على الكوادر العليا قطعة معيبة أو آلة مكسورة على أرضية الورشة ، فان أغلبهم سيعرفون ما الذى ينبغى القيام به • ولكن أن تعرض عليهم نظام معلومات عتيق لم يعد يتلاءم مع العصر ، فانهم لن يدركوا حتى ما تتحدث عنه •

لقد بدا واضحا أن الادارة العليا لم تعد تستطيع انتظار عمليات تركيب وتوليف المعلومات التى تتم مرحلة تلو الأخرى،فى المستويات الأدنى وتصل اليها عبر رسائل محكوم عليها أن تصعد ببطء سلسلة القيادة • وفضلا عن أن حجم المعرفة الذى يهبط خارج الحويصلات الرسمية والذى يتم نقله عبر قنوات غير متوقعة أو طارئة أصبح من الآن فصاعدا كبيرا ، بحيث بدت كتلة الكوادر المتوسطة عائقا أكثر منها أداة لا غنى عنها لاتخاذ قرارات سريعة •

وفى مواجهة الضـــغوط التنافســـية وتهديدات الشراء بدأ نفس المديرين الذين كانوا أول المسئولين عن بطـلان البنية التحتية للمعـرفة يبحثون بيأس عن وسائل خفض النفقات •

وكثيرا ما كان أول رد فعل لهم هو اغلاق المصانع وتشريد العمال ؛ ونادرا ما كانوا يلاحظون وهم يفعلون ذلك ، أنهم ينالون من نظام المعرفة الخاص بالشركة •

ولقد أشار البروفيسير هارولد أوكلاندر من جامعة بيس والخبير فى تخفيض قوة العمل الى أن عمليات الاستغناء عن العمال التى تهدف الى « تخفيض التكاليف » غالبا ما تؤثر سلبا على هذا الهدف لأنها تمس المعرفة بشكل خاص •

فعندما تقضى الاتفاقات الجماعية بأنه فى حالة الاستغناء عن العاملين تجب مراعاة الأقدمية • تكون نتيجة ذلك ــ كما يقول أوكلاندر ــ سلسلة من التغيرات فى الوظائف • اذ أن مقابل كل عامل يتم الاستغناء عنه ينزل ما بين ثلاثة أو أربعة عمال سلم التسلسل الوظيفى ، حيث يجدون أنفسهم فى مواقع تنقصهم فيها المعرفة اللازمة ، ومن ثم تتقطع قنوات اتصـال كانت قائمة منذ زمن طويل • وبدلا من أن ترتفع الانتاجية بعد عمليات الاستغناء عن العمال ، كما كان منتظرا ، تنخفض هذه الانتاجية •

ثم تستهدف القيادات العليا بعد ذلك جحافل الكوادر المتوسطة التى كونوها على مدار السنوات لمعالجة سيل المعلومات •

ان أرباب العمل الأمريكيين الذين يقتطعون من كتلة الأيدى العاملة ، دون الاهتمام بالعواقب الاجتماعية لذلك ودون ادراك آثار هذه العملية على هيكل المعرفة للشركة ، يشعرون بالارتيـــاح لأنهم بذلك « أزالوا الشحوم » الزائدة · (الأمر مختلف فى اليابان ، حيث تعتبر عمليات الاستغناء عن العاملين اعترافا بالفشل ، وكذلك الحال فى عدد كبير من الدول الأوروبية حيث النقابات ممثلة فى مجلس الادارة ومن ثم يتعين اقناعها بأنه لا يوجد حل آخر غير الاستغناء عن بعض العاملين) ·

ان عمليات الاستغناء عن الكوادر المتوسطة « باستخدام المفرمة » تمثل فى الحقيقة محاولة متأخرة جدا ، وغير واعية فى أكثر الأحيان ، لاعادة تشكيل الهيكل المعلوماتى للشركة وزيادة سرعة الاتصالات ·

ويتضح فى الواقع أن جزءا كبيرا من المهــام غير الخلاقة المسندة للكوادر المتوسطة ، يمكن حاليا انجازها بسرعة أكبر وبكفاءة أعلى بواسطة أجهزة الكمبيوتر وشبكات الاتصالات اللاسلكية · وكما سبق أن رأينا ، تقدر شركة آى · بى · ام · أن شبكة بروفس الفرعية ــ وهى جزء من شبكتها الالكترونية الداخلية ــ تحل وحدها محل ٤٠ ألف كادر متوسط كان يتعين التعاقد معهم بشكل اضافى ·

ومع الشبكات الجديدة التى تدخل الخدمة كل يوم ، يتزايد اتساع الاتصالات طبقا لقنوات أفقية أو قطرية أو بالقفز درجات نحــو الأعلى أو الأسفل متجاهلة مستويات التسلل التنظيمى والادارى · اذن ، أيا كان ما « تعتقد » القيادات العليا أنها فعلته ، فان تعديل البنية الأساسية للمعلومات فى الشركة ــ ومعها تعديل هيكل السلطة ــ كان احدى نتائج خفضها للانفاق ·

وعندما نخلق مراكز ربح ونفلطح التسلسل الهرمى وننتقل من الوحدات المركزية الى أجهزة الكمبيوتر الشخصى المرتبطة فيمـــا بينها بشبكات والمرتبطة مع الوحدات المركزية · فاننا نجعل السلطة فى الشركة أقرب لنموذج « الفسيفساء » وأبعد عن التركيب الأحادى الضخم ·

دعاة الاحتكار فى الداخل :

ولســـبب آخر أيضـــا ، تقودنا ثورة المعلومات الى الســـلطة الفسيفسائية ، نظـرا لأن هــذه الثـورة تشجع الشركات على القيـــام بمشترياتها ــ اذا أمكن القول ــ من خارجها ·

فبدلا من محاولة انجاز مزيد من المهام فى داخل الشركة ، أى بدلا من تنمية « التكامل الرأسى » ، تنقل العديد من الشركات الكبرى العمل الى موردين خارجيين ، وهو ما يسمح لها بمزيد من الخفض لحجمها ·

ولقد كانت الطريقة التقليدية لتنسيق الانتاج ، هى طريقة جون٠دى-روكفلر التى استخدمها فى شركة ستاندرد أويل فى بداية القرن ٠ وكان الهدف من هذه الطريقة هو السيطرة على دورة الانتاج والتوزيع فى جميع مراحلها وتأمين كل العمليات المقابلة ٠ وقبل أن تحل حكومة الولايات المتحدة شركة ستاندرد أويل فى عـام ١٩١١ ، كانت الشركة تستخرج بترولها وتنقله ، عبر خطوط أنابيب وناقلات بترول خاصة بها وتقوم بتكريره فى منشآتها الخاصة وتبيعه من خلال شبكة التوزيع التى تملكها ٠

ولنأخذ مثالا آخر اختير عشوائيا ٠ ففى الثلاثينات من هذا القرن ، جعل ارنست ٠ تى ٠ فير من شركة « ناشيونال ستيل » أكثر شركات صناعة الحديد والصلب الأمريكية ربحية ٠ ولقد بدأ بمصنع فولاذ صغير شبه منهار ، ولكنه كان يعرف منذ البداية أنه يريد أن يصل الى تشغيل « متكامل تماما » ٠ وانتهت هذه الشركة بالسيطرة على مواردها من معدن الحديد وأصبحت تستخرج الفحم اللازم لها وتملك شبكة النقل الخاصة بها ٠ واعتبر فير أحد « كبار منظمى » الصناعة الأمريكية ٠

وفى هذه الشركات ، كان يوجد فى كل مرحلة من مراحل العمليات تنظيم هرمى أحادى التركيب ٠ وكان هذا التنظيم يضع البرامج ويحدد أحجام المخزون ويناقش مع الآخرين أسعار النقل الداخلى ويتخذ قراراته بشكل مركزى ٠ وكان ذلك يمثل هيكل قيادة تسلطيا ـ يعمل بأسلوب يعرفه جيدا بيروقراطيو التخطيط السوفيتى ٠

أما حاليا ، فتوكل شركة الطيران الأمريكية بان أمريكان لآخرين استخدام حيز « الشحن » الذى تملكه على رحلاتها عابرة القارات ٠ كما أعلنت شركتا جنرال موتورز وفورد أنهما سترفعان نصيب « المصادر الخارجية » فى انتاجهما الى ٥٥٪ ٠ ونشرت مجلة « مانجمنت تو داى » ، لسان حال جمعية الادارة الأمريكية ، مقالا بعنوان « تجاوز الزمن التكامل الرأسى للشركات متعددة الجنسيات » ٠ بل ان أجهزة الخدمات الكبرى للدولة ذاتها تعطى عمليات لمقاولين من القطاع الخاص ٠

ويسمح هذا الحل بتنسيق الانتاج عن طريق المنافسة ٠ ففى ظل هذا النظام ، يتعين على الشركات أن تتفاوض فيما بينها للحصول على حق أن تتكفل شركة ما بهذه المرحلة أو تلك من مراحل الانتاج ٠ ويتم اتخاذ القرارات بشكل غير مركزى ٠ وفى الجانب المقابل ، تتكلف عملية وضع المواصفات والسهر على احترامها وقتا كثيرا وطاقة ونقودا ، وكذلك الأمر بالنسبة لتجميع وتوصيل المعلومات اللازمة للمفاوضات ٠

ولكل طريقة مزاياها ونواقصها ٠ فانتاج الأشياء داخل الشركة

يحقق تأمين السيطرة على الامدادات : فعندما حدث نقص فى الرقائق الالكترونية من نوع « درام » ، الذى امتد مؤخرا للعالم أجمع ، لم تعان شركة آى · بى · ام · من ذلك اطلاقا لأنها تقوم بتصنيع رقائقها ·

غير أن تكلفة التكـــامل الرأسى ترتفع حاليا بسرعة كبيرة نتيجة للتضخم البيروقراطى الاضافى وللنفقات المباشرة ، فى حين أصبح جمع المعلومات المتعلقة بالسوق والمفاوضات أقل تكلفة بكثير ـ وذلك بفضل الشبكة الالكترونية وثورة المعلومات ·

هذا بالاضافة الى أن الشركة التى توفر مشترياتها عن طريق مجموعة من الموردين الخارجيين تتاح لها فرصة الاستفادة من أى انجاز تكنولوجى ، دون الاضطرار الى شراء التكنولوجيا ذاتها ، وما يستتبع ذلك من ضرورة تدريب العاملين تدريبا اضـــافيا والقيام بآلاف التعديلات الصغيرة فى اجراءاتها التقنية والادارية أو فى أسلوب تنظيمها · بمعنى آخر ، ستلقى هذه الشركة على آخرين جزءا كبيرا من تكاليف التعديل والتكيف · بينما القيام داخل الشركة بجميع الأشياء حافل بالعديد من أشكال الجمود وعدم المرونة الخطيرة ·

وغالبا ما يكون عمل الأشياء داخل الشركة أكثر تكلفة · فالمورد الداخلى للمكونات أو الخدمات اذا لم يكن موضع منافسة خارجية ، فانه يتحول فى الواقع الى « احتكار داخلى » ، لأنه فى هذه الحالة يكون فى وضع مميز يسمح له بزيادة أسعار البضاعة المباعة الى عملائه ·

وللحفاظ على احتكارهم ، اعتاد الموردون الداخليون أن يولوا عناية قصوى للاحتفاظ بمعرفتهم لأنفسهم ، مما يجعل أية مقارنة موضوعية بين فاعليتهم وفاعلية منافسيهم الخارجيين صعبة ، وبدورها تمثل سيطرتهم على المعلومات التقنية أو المحاسبية عائقا سياســـيا لاستبعاد الاحتكار الداخلى ·

غير أن التكنولوجيا المعلوماتية تحمل فى هذا المجال أيضا ، وعدا بالتغيير لأنها تؤدى الى تآكل أسس قلاع المعرفة ذات النزعة الاحتكارية ·

وينـــزع بحث أجـــراه مؤخرا معهـــد ماساشوست للتكنولوجيا فى شركات مثل زيروكس وجنرال الكتريك الى اثبات أن « النظم المعلوماتية لمراقبة المخزون والأشكال الأخرى للتكامل الالكترونى تسمح لبعض مزايا » التكامل الرأسى أن تظل قابلة للاستخدام عنـــدما يتم نقل عمل ما الى الخـــارج ·

وفى الوقت نفسه ، يعزز الانخفاض السريع لتكلفة وحدة المعلومات الالكترونية وضـــع صغار الموردين الخارجيين ، ومن ثم تصـــبح الســـلع

والخدمات منتجات لفسيفساء من الشركات وليس لشركة واحدة ضخمة التركيب . ان الفسيفساء التى كونتها مراكز الربح فى الداخل تضاعفت بفسيفساء أخرى يتم اعدادها فى الخارج وعلى مستوى أوسع .

فى بطن الغــــول :

ان عمل هذه القوى يفسر جزئيا ذلك الانفجار الديمغرافى المدهش للشركات الصـــــغيرة فى اجمالها والتى يبعدنا تكاثرها بدرجة أكبر عن الاقتصاد الاحادى التكوين .

اننا نسلم فى الوقت الراهن بأن الشركات الصغيرة والمتوسطة هى المراكز الجديدة لخلق فرص العمل والابتكار والديناميكية الاقتصادية ، بحيث أصبح صاحب الشركة الصغيرة هو البطل (أو البطلة فى كثير من الأحيان) الجديد للاقتصاد .

ولقــد كتبت جــريدة « الفايننشيال تايمز » أنه « ألقى بمشروعات دعم الشركات الكبيرة فى فرنســـــا فى سلة المهملات واستبدلت هذه المشروعات ببرامج كفيلة بمساعدة الشركات الصغيرة » . وتدعم بريطانيا الخدمات الاستشارية الموجهة الى زيادة فاعلية هذا النوع من الشركات . وفى الولايات المتحدة تشير مجلة « انك » ، التى تقيس بانتظام نشاط أول مائة شركة صغيرة ، الى أن متوسط معدل النمو الذى سجلته هذه الشركات خلال خمس سنوات « يصعب فهمه ــ فهو مرتفع لدرجة أنه يدهشنا ويحير حتى [الشركات المعنية] » .

وبدلا من اقتصاد تسيطر عليه حفنة من العمالقة ذوى التكوين الأحادى ، نحن فى طريقنا لخلق اقتصاد فوق رمزى يتكون من وحدات تشغيلية صغيرة ، يمكن أن يبدو بعضها وكأنه محفوظ فى غلاف واحد داخل الشركات الكبيرة ، وذلك لأسباب محاسبية ومالية : اقتصاد أقرب للتجارة الصغيرة منه للمحــل الكبير شــديد الضخامة (وان كان بعض المحـــال الصغيرة لازالت داخل بطن الغول) .

وهذا الاقتصاد المتعدد الأشكال ، الذى يتكون من عدد لا حصر له من قطع الفسيفساء يتطلب أشكالا تنظيمية جديدة تماما ــ وهو ما يفسر عمليات الانفصال واعادة التشكيل التى لا تتوقف لتحالفات قيــل انهـــا استراتيجية وعمليات دمج أخرى من نوع جديد .

ولقد لفت كنيشى أوهماى ، المدير الناجح لوكالة ماكينزى فى طوكيو ، الانتباه الى العدد المتزايد من الشركات ذات المساهمة « الثلاثية » ، التى تضم شركات ــ أو فروعا لشركات ــ يابانية وأمريكية وأوروبيـــة . وأضـــاف

قائلا : « ان هذا النوع من « الكونسرتيوم الثلاثى الأضلاع » فى طريقه للتكون فى كل قطاعات التكنولوجيا المتقدمة تقريبا ، مثل التكنولوجيا الحيوية والمعلوماتية والروبوتية وأشباه الموصلات والمفاعلات والطاقة النووية وألياف الكربون والمواد الجديدة الأخرى » •

ويمثل ذلك عناصر لفسيفساء انتاجية فى طريقها لاعادة ترسيم الحدود الاقتصادية ، وتدعو لتوقع اعادة تعريف للحدود الوطنية ذاتها فى وقت لاحق •

وفى ايطاليا ، يتحدث برونو لامبورجينى ، نائب رئيس أوليفتى المسئول عن البحوث الاقتصادية ، عن « شبكات الشركات » التى تعتمد على « تحالفات ومساهمات مشتركة واتفاقات وتعاون فى مشروعات بحثية أو تطبيقات تقنية » • لقد دخلت أوليفتى بمفردها فى خمسين عملية تعاون من هذا النوع •

ويضيف لامبورجينى أن الوضع التنافسى « لن يتوقف فقط على [•••] الموارد الداخلية » وانما على هيكل العلاقات مع الوحدات الخارجية أيضا • ان النجاح يتخذ طابعا « ترابطيا » مثل قواعد البيانات •

وفى الوقت نفسه ، يعتبر من الأمور ذات الدلالة أن هذه العلاقات الجديدة للانتاج ليست محددة بصرامة وجامدة وسابقة التحديد ـ كما كان الحال بالنسبة لموقع الأسماء والعناوين فى الطريقة القديمة لقواعد البيانات ، بل انها تتسم بالسيولة والحرية ، على غرار قواعد البيانات ذات الوسائط المتعددة • ان التنظيم الجديد للشركات وللاقتصاد ككل على شكل فسيفساء يجسد (وبالمقابل يشجع) التغيرات التى تحدث فى تنظيم المعرفة ذاتها •

ولفهم طبيعة السلطة فى العالم الاقتصادى للغد ، يتعين علينا نسيان هذه الرؤى الخيالية التى تتوقع تركيزا شبه كامل وعالما تسيطر عليه بضع شركات عملاقة • يجب علينا أن نفكر طبقا لمفاهيم فسيفساء السلطة •

الثروة الترابطية :

فى مدينة أطلنطا الكبيرة والنشطة (بولاية جورجيا) ، تستخدم أكبر شركة حوالى ٣٧ ألف عامل • وتدفع هذه الركيزة الأساسية للاقتصاد المحلى أكثر من مليار ونصف مليار دولار سنويا كأجور • وتغطى منشآتها الرئيسية مساحة تزيد على ألفى هكتار •

هذه الشركة الضخمة للخدمات ليست شركة مساهمة كبيرة وانما هى مطار أطلنطا ٠

انها فسيفساء عملاقة تضم عشرات المنظمات المنفصلة ـ شركات جوية وموردو أغذية من كل نوع وشركات شحن أو وكالات تأجير سيارات بالاضافة الى الخدمات الرئيسية للادارة الفيدرالية للطيران والبريد والجمارك والعديد من الخدمات الأخرى ٠ والعاملون فيها أعضاء فى مجموعة من النقابات ، ابتداء من رابطة الطيارين الى منظمة سائقى الشاحنات ٠

ويخلق هذا المطار ثروة ، وهي حقيقة يؤكدها رجال الفنادق والمطاعم ووكلاء وأصحاب العقارات وبائعو السيارات وعدد كبير من السكان ، فضلا عن ٥٦٠٠٠ من العاملين من سكان المنطقة يحصلون على أجورهم من هذه الأنشطة ٠

وينجم جزء صغير فقط ، من كل هذه الثروة ، من عمليات شركة بعينها أو وكالة فردية ٠ ان الثروة المنتجة بواسطة هذه الفسيفساء الضخمة قد نتجت بالتحديد انطلاقا من « علاقات ترابطية » ـ من الاعتماد المتبادل والتنسيق بين كل هذه العناصر ٠ وعلى غرار أحدث أشكال قواعد البيانات ، يعتبر مطار أطلنطا ذا طبيعة « ترابطية » ٠

ولقد لعبت العلاقات والروابط دائما دورا مهما فى خلق الثروة نظرا لأنها ملازمة لممارسة تقسيم العمل ذاتها ، ولكنها تحتل الآن مكانا أكبر بكثير فى عملية خلق الثروة ، حيث يتزايد باستمرار عدد « اللاعبين » وتنوعهم داخل النظام الفسيفسائى ٠

وعندما يزيد عددهم طبقا لمتوالية حسابية يزيد عدد العلاقات التى تربطهم طبقا لمتوالية هندسية ٠ هذا فضلا عن أن الروابط لا يمكن أن تنبنى بعد الآن على مبدأ سلطوى حيث تقرر ارادة أحد المشاركين سلوك الآخرين ٠ ان الاعتماد المتبادل يدفع دائما اللاعبين الى البحث عن مزيد من التوافق والاجماع ، وبالتالى الى الأخذ في الاعتبار تعددية المصالح ٠

وبينما يتم تنظيم المعرفة فى هياكل ترابطية أو فى شكل وسائط متعددة بحيث تستطيع دائما استقبال أشكال جديدة ، يجب أن يصبح التنظيم أيضا ذا مرونة قصوى ٠ ولذلك فان الاقتصاد الذى يتكون من شركات صغيرة فى حالة تفاعل فيما بينها والتى تتجمع فى فسيفساء مؤقتة ، يكون أكثر توافقا وأكثر انتاجية فى النهاية ، من الاقتصاد الذى يقوم على بعض الشركات الضخمة الجامدة ٠

السلطة داخل الفسيفساء :

منذ جيل سبق ، كان هناك هيكل مختلف تماما عن هذه الفسيفساء الجديدة ، هيكل يذكر بالهرم أو بالأحرى بأشعة عجلة مرتبطة بمركزها • حيث الشركة الكبيرة تحيط نفسها بدائرة من الموردين والموزعين ، وتجمع الآخرين في « نظام » هم فيه مجرد توابع لها • ولم يكن وزن العملاء والنقابات ثقيلا في مواجهة هذا الفيل الضخم •

ومما لا شك فيه أن الشركات الكبرى لازالت تحتفظ بقوة ضاربة مخيفة • وان كان هذا الموقف يتبدل سريعا •

أولا : لم يعد دور الموردين يقتصر على بيع السلع أو الخدمات • انهم يجلبون حاليا معلومات حيوية ، ويحصلون في المقابل على معلومات من قواعد بيانات المشترى • وطبقا للتعبير الرائج الآن ، هم في حالة « مشاركة » مع عملائهم •

وتأكيدا لهذا المعني يقول جون سكوللي رئيس شركة آبل : « نستطيع [•••] ان نعتمد على شبكة مستقلة من الشركاء من النوع الثالث ـ مؤلفو البرامج الاعلاماتية ، وصناع الوحدات الطرفية ، وتجار التجزئة [•••] • يؤكد البعض في نقده لهذا النوع من العلاقات انها تؤدى الى توالد « شركات جوفاء » ، قواقع فارغة من السهل الاضرار بها ، يعتمد بقاؤها على قيد الحياة واستمرارها على شركات خارجية • ولكن هذا النقد يجانبه الصواب » •

وفى الحقيقة أن سكوللي يعارض هذا الزعم ، فهذا النوع من العلاقات على حد قوله ، سمح لآبل أن تكون أقل ضخامة وأكثر قدرة على الحركة والتكيف ، بالاضافة الى أن هذا النوع من « الشركاء » ساعد آبل على تجاوز الفترات العصيبة •

ويضيف قائلا « في الواقع ، ان كل دولار تحصل عليه الشركة التى تقوم بدور الحافز أو العامل المساعد يمكن أن يجلب ثلاثة أو أربعة دولارات للبنية الأساسية الخارجية في شكل مبيعات اضافية [•••] • ولكن ما يهم أكثر بكثير من ذلك هو ما ينجم عن هذه العلاقات من مرونة متزايدة تسمح بتحويل التغيرات أو الفوضى والركام الى فرص مواتية » •

في الماضى كثيرا ما استخدمت الشركات الكبرى مفهوم « المشاركة » استخداما بلاغيا ، الآن تجد هذه الشركات نفسها مدفوعة الى هذا المفهوم بقوة الأشياء •

واذا حاولنا تتبع مسيرة المعلومات في سلطة فسيفسائية يمكن أن

نرى بشكل أوضح أين تقع حقائق السلطة والانتاجية . على سبيل المثال قد يكون تدفق المعلومات الأكثر كثافة هو الاتصالات التى تربط مورد قطع غيار بالمنتج النهائى (أو بالأصح الوحدات المتخصصة لدى الاثنين) . ان قسم الشحن لدى الأول وقسم تسلم البضائع لدى الثانى يكونان فى الواقع وحدة عضوية ـ علاقة جوهرية . واذا ظل صحيحا بموجب اعتبارات محاسبية أو مالية أن احدى الوحدات المعنية هى جزء من الشركة (أ) والوحدة الأخرى جزء من الشركة (ب) ، فان هذه الاعتبارات تبتعد تدريجيا عن الحقائق الانتاجية ، وقد يجد العاملون فى الوحدات المعنية فى كل جانب نفعا وفائدة أكبر فى هذه العلاقات المشتركة عن العلاقات التى تربطهم بشركتهم الخاصة . وبالتالى يشعرون بالارتباط بدرجة أعلى بهذه العلاقات .

ففى اليابان ، عرفت شركة ماتسوشيتا رسميا المشاركة بأنها « الانتاجية العالية من خلال استثمار الحكمة الكاملة » .

فالشركة تنظم لقاءات مع الصناعات المغذية لها منذ المرحلة الأولية لتصميم منتج جديد ، وتطلب منها المساعدة لجعل هذا المنتج أفضل ما يمكن ، وهو ما سيترتب عليه أيضا الوصول بسرعة أكبر الى السوق .

ويعتقد كوزابورو سيكاتا ، رئيس الكيويى ـ كاى وهى جمعية تضم الصناعات المغذية لماتسوشيتا ، أن هذا النظام سيغدو شائعا . واذا كانت شركة ماتسوشيتا قد قررت اقتسام معلومات كانت حكرا عليها فى السابق ، فانها لم تفعل ذلك بدافع الطيبة وانما استجابة لمتطلبات المنافسة . وعلى أية حال ، فانه رغم قوة الشركة فان قيادتها تصغى باهتمام الى ما يقوله موردوها المنظمون وعددهم ٣٢٤ موردا .

والأهم من ذلك ، أن الموردين لم يعودوا مرتبطين الكترونيا فحسب بالشركة الكبيرة، على غرار ارتباط أشعة العجلة بمركزها، ولكنهم يتصلون أيضا ببعضهم البعض وهو ما يجعلهم فى وضع أفضل يسمح لهم بالتكاتف عندما يرون ضرورة ممارسة ضغط على عميلهم الكبير .

وهناك سبب آخر يجعل الفسيفساء التى تتشكل لا تتفق بالضرورة مع تصور « المسيطر والخاضع للسيطرة » . فعندما ينقسم الكيان الأحادى الضخم الى مراكز ربح ، يجد العديد من الموردين أنفسهم لا يتعاملون مع العملاق فى ذروة قوته ولكن مع وحدة صغيرة الحجم تكون فى بعض الأحيان أضعف من الموردين أنفسهم . ان حجم الشركة الكبير الذى كان حتى وقت قريب عنصرا حاسما يتجه الى أن يفقد تأثيره تدريجيا .

وبانتقال السلطة من الكيانات الضخمة الى قطع الفسيفساء الصغيرة ،

يصبح من غير المنطقى الاعتقاد بأن العمالقة يسيطرون على الفسيفساء التى تشكل جزءا منهم ٠

وتواجه الشركة الكبيرة جدا ضغوطا من جانب آخر ـ من جانب عملائها الذين ينظمون أنفسهم بشكل متزايد فى ما يسمى « لجان المستخدمين » ٠ وهذه التجمعات تهتم أساسا بتبادل البيانات التقنية ، وهى فى الواقع شكل جديد لجماعات الضغط الخاصة بالمستهلكين ٠

وتتكاثر هذه التنظيمات بسرعة كبيرة وتتسلح بنصائح أفضل الخبراء ، فى مجال القانون والتكنولوجيا ومجالات أخرى بحيث أصبحت « لجان المستخدمين » تمثل سلطة مضادة قادرة ، فى كثير من الأحيان ، على جعل أقوى مورديها يخضعون ٠

وتتميز بعض هذه المجموعات بالنشاط فى مجال الاعلاماتية بشكل خاص حيث نظم مثلا مستخدمو برامج فاكس ولوتس أنفسهم فى تجمع من هذا النوع ٠ أما بالنسبة لشركة آى٠بى٠ام فقد كون عملاؤها العديد من التجمعات ، وتجمعت هذه التجمعات ذاتها فى مجلس دولى يمثل حوالى ١٠ آلاف شركة يحتل بعضها الصفوف الأولى عالميا ٠ وتتباهى آى٠بى٠ام الآن بأنها تنصت لمستخدمى أجهزتها وبرامجها ٠ وهو بالطبع أفضل ما يمكنها القيام به ٠

وقد يكون أعضاء هذه المجموعات فى الوقت نفسه عملاء ومنافسين وشركاء فى مشروعات مشتركة ٠ لقد أصبحت الأنشطة الاقتصادية متعددة الترابطات لدرجة أن الأمر يختلط على الكثيرين ٠

وفى نهاية المطاف ، لم تعد فكرة اقتصاد تسيطر عليه حفنة من عمالقة ذوى كيانات أحادية الا ضربا من الخيال والوهم ٠

فيما وراء شركة المساهمة :

وتضطرنا هذه التغيرات ، التى مرت غير ملحوظة ، الى اعادة التفكير فى وظائف الشركة نفسها ٠ فاذا كان جزء كبير من القيمة المضافة فى النظام الفسيفسائى ينبع من « العلاقات » ، فان القيمة التى تنتجها شركة ما ـ وما تساويه هذه الشركة ذاتها ـ يتوقف جزئيا على « موقعها » المتغير دائما فى ظل الاقتصاد فوق الرمزى ٠

وطالما أن المحاسبة التقليدية تجهل بشكل عام أهمية « رأس المال التنظيمى » وأهمية مجموع هذه العلاقات المعقدة ودائمة التغير بالنسبة لانتاج القيمة ، فان المحاسبين والمديرين الذين يحاولون تحديد كمية القيمة المضافة والفروع أو مراكز الربح التى تحقق هذه القيمة يضطرون الى اعطاء أحكام تعسفية وأحكام ذاتية تماما فى كثير من الأحيان ٠

ولقد بدأ منظرو الادارة ـ متأخرين جدا ـ فى الحديث عن « رأس المال التنظيمى » • ولكن يوجد أيضا ما يمكن أن يسمى « رأس المال الموضـــعى » ، أى الموقع الاستراتيجى للشركة فى النســـيج العام للفسيفساء •

ففى قلب أى فرع من فروع النشاط الاقتصادى ، قد يساوى احتلال موقع رئيسى فى أحد نظم انتاج الثروة ، مالا مودعا فى البنك وسلطة فى الجيب • كما قد يمثل فقدان هذا الموقع أو التواجد عند أطراف الدائرة كارثة حقيقية •

كل ذلك يؤدى بنـــا الى الاعتقاد ، بأن شركة المساهمة الكبيرة فى العالم الرأسمالى والاقتصادات المتطورة بشكل عام ، لم تعد بالضرورة هى المؤسسة الرئيسية لانتاج الثروة المادية •

اننا نشـــهد انفصالا فعليا بين الشركة الكبيرة والعمليات المادية الحاسمة لخلق الثروة • حيث أوكلت هذه العمليات وبشكل متزايد الى الشركات الصغيرة والمتوسطة أو الى مراكز الربح • فمنذ أن عهد بالجزء الأكبر من العمل الفعلى الى هذه الوحدات ، أصبحت وظائف الادارة العليا فى الشركة الكبيرة تؤمن بشكل متناقص عملية الانتاج ، وتتركز هذه الوظائف فى تحديد التوجهات ذات الطابع العام جدا ، والسهر على هيكل رأس المال وتقديم حساب عن استخدامه ، وتوجيه الدعاوى القضائية ، وتنظيم الضغوط ، أى احلال المعلومات محل كل عناصر الانتاج الأخرى •

ولهذا التفويض لجزء مهم من وظائف الشركة الكبيرة ـ التى كانت فى السابق الأداة الحاسمة للانتاج ـ سابقة تاريخية •

لقد سبق أن انتزعت الثورة الصناعية من المؤسسة الرئيســـية للمجتمع ، ألا وهى الأسرة ـ العديد من المهام • لقد أوكل التعليم الى المدرسة ، ورعاية المسنين الى الدولة ، وتم نقل العمل الى نطاق المصنع ، وهكذا دواليك • وبما أن العديد من الوظائف القديمة للشركة العملاقة أصبح من الممكن أن تقوم بها الآن وحدات صغيرة مسلحة بتكنولوجيا معلومات قوية ، فان الشركة العملاقة فقدت أيضا بعض أسباب وجودها الســـابقة •

لم تختف الأسرة بعد الثورة الصناعية ، ولكنها أصبحت أصغر حجما وتقلصت مسئولياتها ، وفقدت الكثير من سلطتها مقارنة بالمؤسسات الاجتماعية الأخرى •

وهو ما يحدث الآن لشركة المساهمة الكبيرة ، فى هذا الوقت الذى نخرج فيه من العصر المصنعى الذى كانت تسيطر عليه شركات عملاقة •

باختصار ، حتى ان استمرت الشركات الكبيرة فى الامتداد ، فان أهميتها كمؤسسة تتناقص ٠

وان كان الوقت لايزال مبكرا لكى نفهم تماما فسيفساء السلطة التى تتشكل أمامنا ولكى نتوقع مصير الشركات الكبرى على المدى الطويل ، فان هناك أمرا أكيدا ، ألا وهو أن فكرة سيطرة حفنة من الشركات العملاقة على اقتصاد الغد هى صورة ساخرة تصلح لألبوم فكاهى ٠

خاتمـــــة

النظام الجديد لخلق الثروة

منذ فترة ،ابتكرت شركة ويندى انترناشـــيونال ، التى نشرت ٣٧٠٠ مطعم « فاست فوود » (أى وجبات سريعة) ابتداء من الولايات المتحدة وحتى اليابان واليونان ، وجبة أسمتها « اكسبريس باك » ، أو العبوة السريعة ، لخدمة المستهلكين الذين يأكلون فى سياراتهم • وتتكون هذه الوجبة من هامبورجر وبطاطس مقلية وكوكاكولا ولكن بدلا من ذكر ثلاثة أصناف يقول العميل كلمة واحدة هى « اكسبريس باك » • وكان الهدف هو اسراع الخدمة • فكما يقول أحد المتحدثين باسم ويندى : « ان الأمر لا يتعدى ثلاث ثوان ولكن التأثير التراكمى قد يكون مهما » •

هذا الابتكار الصغير التافه ظاهريا له دلالته بالنسبة لمســـتقبل السلطة • ففى الواقع ، ترتبط السرعة التى نتبادل بها المعلومات ـ حتى وان كانت للوهلة الأولى غير ذات بال ـ ببزوغ نظام لخلق الثروة جديد جذريا ، ويمثل قاعدة لأحد أهم تحولات السلطة فى عصرنا •

الأيض الاقتصـــادى الجـــديد :

أن تبيع شركة ويندى الهامبورجر بسرعة أقل أو أكبر ، فان ذلك لا يمثل ما يمكن أن يجعل العالم أكثر ثورية • ولكن احدى السمات الأكثر أهمية التى يتعين معرفتها بالنسبة لأى نظام ، وبشكل خاص لكل نظام اقتصادى هو السرعة التى يعمل بها هذا النظام أى سرعة تشغيله •

اذ لا يستطيع أى نظام ـ ابتداء من الدورة الدموية فى الجســـم البشرى الى النظام الاجتماعى لخلق الثروة ـ أن يعمل الا بسرعات محددة • اذا عمل ببطء أكثر مما يجب فانه يختل ويتوقف واذا زاد فى سرعته عن الحد ينفجر • وكل النظم تتكون من نظم ثانوية ، لها أيضا حدود أعلى وأدنى للسرعة • ويمكن تعريف « خطوة » المجموع بأنها متوسط ايقاعات التغيير فى مختلف أجزاء هذا النظام • ان كل اقتصاد وطنى ، وكل نظام

لخلق الثروة يسير بخطوة خاصة به هى التى تميزه · ويمكن القول بأن لكل نظام ايقاعا « أيضى » خاصا ·

ونستطيع قياس سرعة نظام منتج للقيمة بطرق عديدة ، سـواء بدراسة تشغيل وسير الآلات أو المعاملات فى مجال الأعمال أو تدفق الاتصالات أو السرعة التى تنتقل بها المعرفة التى تم الحصول عليها فى المعمل ، الى منتج يجرى تسويقه أو الوقت الذى يستغرقه اتخـاذ بعض القرارات أو مهلات التسليم ، وهكذا ·

واذا قارنا السرعة العامة لسير اقتصاد الموجة الأولى ، أى النظم الزراعية لخلق الثروة مع النظم الصناعية للموجة الثانية ، فانه من المسلم به أن الاقتصادات المصنعية تجرى أسرع من الاقتصادات الزراعية التقليدية · ففى كل مكان امتدت اليه الثورة الصناعية نقلت العمليات الاقتصادية الى سرعة أعلى ·

وبمتابعة المقارنة ، فان نظام خلق الثروة الجديد الذى نتناوله فى هذه الصفحات يعمل بسرعات كان لا يمكن تخيلها منذ جيل أو جيلين فقط · ومنذ عهد قريب ، كان الأيض الحالى للاقتصاد كفيلا بجعل النظام ينفجر · وكرمز للايقاع الجديد ، يمكن اختيار رقيقة الكترونية جديدة ذات « اتصال متعدد الأشكال » ، حيث تتولد النبضة الكهربية فى اثنين على مليار من الثانية ·

وفى كتابنا « صدمة المستقبل » الذى صدر لأول مرة فى عام ١٩٧٠ ، أكدنا أن تسارع التغيير سيحدث تحولات فى المجتمع ، وأوضحنا ما يمكن ان يحدث للنظم عندما تكون السرعات أكبر بكثير من قدرتها على التكيف والتوافق · ولقد برهنا أن التسارع يحدث بذاته تأثيرات خاصة بمعزل عن طبيعة التغيير المعنى · ويتجاوز هذا المبدأ التفكير الاقتصادى الذى تنطوى عليه الصيغة التقليدية القائلة : « ان الوقت مال » · ففى الحقيقة ، ينطوى تأثير التسارع على قانون اقتصادى جديد وقوى ·

ويمكن التعبير عن هذا القانون ببساطة شديدة ، بأنه عندما تزيد سرعة النشاط الاقتصادى ، فان كل وحدة زمن تصبح تسـاوى « قدرا أكبر » من المال ·

وهذا القانون المثقل بالعواقب يؤدى ــ كما سنرى الى تأثيرات عميقة ليس فقط بالنسبة للشركات ، ولكن لاجمالى الاقتصاد والعلاقات العالمية « بين » الاقتصادات · ويتخذ هذا القانون معنى خاصا عندما يتعلق الأمر بالعلاقات بين الأغنياء والفقراء على كوكبنا ·

وابل من النداءات :

واذا نزلنا من مستوى التعميمات الاقتصادية الى مســـتوى الحياة اليومية نلاحظ أن مديرى مطاعم ويندى ، بزيادة سرعة خدمتهم ، يستجيبون لرغبة العملاء الذين يريدون استجابة مباشرة لطلباتهم وخدمة سريعة ومنتجات تكسبهم وقتا ، لأنه فى ظل الثقافة التى تتشكل الآن يصبح الوقت ذاته منتجا له قيمة ٠

وبالاضافة الى هذا الاعتبار ، فان القدرة على طرح المنتجات بسرعة كبيرة جدا فى السوق تمثل عاملا رئيسيا فى اقتصادنا العالمى الذى أصبح تنافسيا بشكل مضطرد ٠ وعلى سبيل المثال ، السرعة المذهلة التى تكتسح بها السوق أجهزة الفاكس ومعدات الربط التى تستخدم الفيديو والأجهزة الألكترونية الأخرى التى يستخدمها الجمهور العريض ، تثير انبهار المنتجين بنفس قدر عملائهم ٠

ان وجود أجهزة الفاكس يرجع الى عدة عقود ، ولكن عددها كان قليلا ٠ وفى عام ١٩٦١ ، قدمت معامل أبحاث شركة زيروكس جهازا أطلق عليه اسم « ال٠دى٠اكس٠ » اختصارا لاسم الشركة وعملية النسخ عن بعد ، وكان هذا الجهاز يقوم بجزء كبير من وظائف الفاكس الحالى ٠

ولكن تسويقه اصطدم وقتها بالعديد من العراقيل ، فالخدمات البريدية فى تلك الفترة كانت لاتزال فعالة بدرجة معقولة ، فى حين كان يعانى الهاتف من تأخر نسبى ، كما كانت الاتصالات لمسافات طويلة مكلفة جــــدا ٠

وفى نهاية الثمانينات تدخلت عدة عوامل جديدة فى آن واحد ٠ فقد انخفض سعر تكلفة أجهزة الفاكس انخفاضا كبيرا ، وتحسنت تقنيات الاتصالات اللاسلكية بشكل كبير ، وساهم انتهاء احتكار ايه٠تى٠ آند تى فى خفض تكلفة المكالمات لمسافات طويلة فى الأراضى الأمريكية ٠ وفى الوقت نفسه ، تدهورت الخدمات البريدية بحيث عطلت المعاملات ، بينما انتقلت الحياة الاقتصادية الى ايقاع أسرع ٠ فضلا عن أن تأثير التسارع زاد من القيمة الاقتصادية لكل ثانية يتم توفيرها بفضل الفاكس ٠ وفتح تلاقى كل هذه الظروف سوقا سرعان ما نمت بسرعة متفجرة ٠

ففى ربيع ١٩٨٨ ، وكأن الأمر حدث بين ليلة وضحاها ، تلقى حشد من الأمريكيين وابلا من المكالمات الهاتفية من أصدقاء أو زملاء عمل تطلب منهم تركيب جهاز فاكس ٠ وبعد ذلك ببضعة شهور كانت ملايين الأجهزة تطن وتطقطق من طرف لآخر من الولايات المتحدة ٠

وفى ظل الوضع التنافسى الحالى ، أصبح ايقاع الابتكار سريعا لدرجة

انه بمجرد طرح منتج فى الأسواق ، يظهر منه جيل جديد أكثر تطورا واتقانا • وبالنسبة لشخص اشترى مؤخرا ذاكرة لجهاز الكمبيوتر الشخصى الخاص به على أسطوانة صلبة تقدر سعتها بعشرين ميجابايت ، هل سيشترى بعد ذلك أسطوانة سعتها أربعون أو سبعون أو حتى عشرون ميجابايت اذا علم بأن ذاكرة القراءة فقط (روم) على أسطوانة مدمجة ستكون فى القريب متاحة فى الأسواق ؟ (عندما يصدر هذا الكتاب قد تبدو هذه الأرقام وقد تجاوزها الزمن بشكل مثير للسخرية) •

وعندما يتحدث الآن اخصائيو التسويق عن « نافذة الاطلاق » لتعيين المهلة القصيرة جدا التى بعدها يكون للمنتج الجديد كل فرص الفشل أمام منافسة موديلات أكثر تقدما ، فانهم يستخدمون مصطلحات تذكرنا بالرحلات الفضائية والحرب النووية •

وتؤدى ضغوط التسارع الى تبنى طرق انتاج جديدة • واحدى وسائل الاسراع تتلخص فى أن يتم فى آن واحد انجاز ما كان يتم عادة فى مراحل متتالية ، ولذلك ظهر مؤخرا مصطلح « الاعداد المتزامن » •

فى السابق ، كان يتم تصميم المنتج أولا ، ولا تتم دراسة عملية التصنيع الا بعد ذلك • حاليا « يتم تحديد واعداد عمليات الانتاج فى نفس الوقت مع تصميم المنتج النهائى ذاته » على حد قول دافيد • و• كلارك نائب رئيس قطاع الهندسة بشركة جيسرفيز • بى ـ ويب ، التى تنتج معدات تفريغ البضائع •

ويتطلب مفهوم « الاعداد المتزامن » درجة عالية من الدقة والتنسيق غير مسبوقة • وطبقا لجيرى روبرتسون الذى يعمل بشركة اوتوميشن تكنولوجى برودكتز « كان مفهوم الاعداد المتزامن [•••] معروفا منذ أكثر من ١٥ عاما » ، ولكن مؤخرا فقط بدأ « التقدم فى مجال قوة أجهزة الكمبيوتر وامكانات قواعد البيانات » يجعل الأمر قابلا للتحقيق •

وهناك طريقة أخرى للاسراع تقضى باستبعاد قطع أو اعادة تصميمها ـ للحصول على منتجات تضم عددا أقل من المكونات ، وبحيث تكون هذه المكونات ذاتها بقدر الامكان معيارية • ويتطلب ذلك أقل قدر ممكن من التساهل المسموح به ، ومستويات أعلى من المعلومات والمعرفة • فعندما راجعت آى•بى•ام تصميم أحد مكونات طباعتها ٤٧٢٠ لم تخفض فقط تكلفة الوحدة من ٥ر٩٥ دولار الى ١ر٨١ دولار ولكنها خفضت زمن التصنيع من ثلاث دقائق الى بضع ثوان • وكما هو الحال لدى مطاعم ويندى الثوانى لها أهمية كبيرة •

وطريقة أخرى تتلخص فى وضع نظام لتسليم المكونات « فى الوقت المحدد تماما » ، واليابانيون هم مبتكرو هذا النظام • قبل ذلك ، كان

الموردون ينتجون قطعة ما بكميات كبيرة ثم يسلمونها بكميات كبيرة على دفعات ، ولكن طبقا للنظام الجديد ، يتم بشكل متكرر تسليم كميات صغيرة فى الوقت المحدد لتجميع الأجزاء • ويسمح هذا الابتكار باسراع عملية الانتاج ويحقق خفضا فى رؤوس الأموال المجمدة فى شكل مخزون • وتؤكد شركة رولز ــ رويس البريطانية أنها خفضت مدد التسليم وحجم المخزون لديها بنسبة ٧٥٪ بفضل نظام « فى الوقت المحدد » •

ومن ناحية أخرى ، أصبحت سرعة الاستجابة لطلبات العملاء عاملا حاسما ، لأنها تميز المنتج أو الخدمة المقدمة من شركة ما عن تلك المقدمة من منافسيها • وتتنافس وتتبارى فى هذا المجال وكالات السفريات والبنوك والمنظمات المالية وأصحاب توكيــلات تجارة « الوجبــات السريعة » (فاست فوود) وذلك لارضاء المستهلك وتزويده بالمعلومات مباشرة وفى الحــال •

ففى الماضى ، كان أصحاب العمل يحاولون زيادة سرعة الانتاج بجعل العمال يعملون بسرعة أكبر • وفى هذا الصدد فان احدى كبرى المساهمات الانسانية التى ندين بها للحركة النقابية القديمة هى النضال الذى قادته ضد تســارع معدلات الانتاج • وان كان هناك آلاف المصانع والمكاتب التى لم تحسم فيها هذه المعركة حتى الآن •

وعلى النقيض من ذلك ، تهبط تكلفة العمل البدنى فى نظام خلق الثروة الجديد الى نسبة ضعيفة من اجمالى تكاليف الانتاج • فلم تعد السرعة تتحقق بالاستغلال الضارى لقوة العمل ، وانما باعادة تنظيم ذكية وبعمليات تبادل للمعلومات ، مستخدمة فى ذلك تقنيات عالية التطور • وفى الوقت الذى يعمل فيه اجمالى النظام بسرعة أكبر ، فان المعرفة تحل محل العرق •

فى يونية ١٩٨٦ ، شكلت شركة موتورولا مجموعة من ٢٤ شخصا وكلفتها بهدف من المستحيل ظاهريا بلوغه • وكانت المهمة هى ابتكار جهاز لاسلكى جديد للجيب ، وفى الوقت نفسه ، ابتكار وحدة انتاج تعمل بالكمبيوتر على أفضل مستوى عالمى لانتاج هذا الجهاز • وكان يتعين أن يطبق المصنع مواصفات جودة استثنائية : ان يخلو كل جهاز من أى عيوب بنسبة احتمال ٩٩٫٩٩٩٧٪ •

وكانت المهلة المحددة لهذا الفريق ١٨ شهرا •

وينتج حاليا مصنع بوينتون فى فلوريدا أجهزة ذات مواصــفات شخصية تقتصر مجموعاتها أحيانا على موديل وحيد • ويقوم ٢٧ روبوتا بكل العمل البدنى ، من بين أربعين شخصا يعملون فى هذه الشركة •

واحد منهم فقط يلمس الأجهزة فعليا · ونجحت عملية هذا الفريق بسبق ١٧ يوما ·

وحتى صناعة السيارات ، الديناصور البطيء بالمقارنة بفروع التصوير أو الالكترونيات ، تصارع من أجل خفض مدد التسليم الخاصة بها ·

وفي هـذا المجال ، ينجم النجاح الياباني ، بشكل خاص ، من قدرة صناع السيارات اليابانية ، على تصميم وتسويق موديل جديد في نصف الزمن الذي يستغرقه منافسوهم الأوروبيون أو الأمريكيون ·

ففي مجلة « هارفارد بيزنيس ريفيو » يصف جوزيف ·ال· بووير وتوماس ·ام· هـوت شركة تويوتا اليابانية بأنها « شركة ذات دورة سريعة » · حيث ينتج عن التنسيق بين الاعداد المتزامن ونظم المعلومات المتطورة والفرق المستقلة وتقاسم المعلومات مع الموردين في المراحل الأولى « دورة تطوير (للمنتج) أسرع دائما [···] وتقديم موديلات جديدة بشكل متكرر للغاية وتدفق مستمر لابتكارات كبيرة أو صغيرة تضاف للسيارات الموجودة » ·

ومن ناحية أخرى ، يذكر بووير وهوت حالة بنك خفض مهلة الرد على طلب القروض من عدة أيام الى ثلاثين دقيقة وذلك بتوصيل المعلومة الضرورية بشكل لحظي الى الاخصائيين المعنيين بينما كانت هذه المعلومة تنتقل من قبل من شخص لآخر على التوالي ·

وكما يشير المستشار هووارد· ام· اندرسون مؤسس يانكي جروب، فان « تأثير التسارع » اكتسب قوة كبيرة بحيث يتعين على الشركات حاليا ان تحـدد لنفسـها « هدفا أعلى : السرعة [···] ، السرعة بأي ثمن [···] والسرعة الفائقة » ·

ان ما يولد أمام أعيننا هو نظام اقتصادي جديد تماما يعمل بايقاع أسرع من جميع الأنظمة التي عرفها التاريخ على الاطلاق :

ثروة الغد :

في الصفحات السابقة لخصنا وصفا لبعض عناصر النظام الجديد لخلق الثروة · الآن يصبح من الممكن تجميع الأجزاء المختلفة في لوحة مترابطة وأن يظهر بوضوح الى أية درجة هذا النظام الجديد ثوري حقيقة ، والى أية درجة أيضا يبتعد بشكل قاطع عن العمليات القديمة لتكوين الثروة ·

١ ـ يعتمد النظام الجديد المتسارع لتكوين الثروة باطراد على تبادل البيانات والمعلومات والمعرفة · وهو نظام « فوق رمزي » : وبدون تبادل للمعرفة لا يكون هناك تكون لثروة جديدة ·

٢ ـ ينتقل النظام الجديد من الانتاج بالجملة الى انتاج مرن يكتسب صفات شخصية أو انتاج بالطلب • وبفضل التكنولوجيات الجديدة للمعلومات أصبح من الممكن انتاج منتجات شديدة التنوع بمجموعات صغيرة بل وحتى بالوحدة ، وذلك بتكلفة قريبة من تكلفة الانتاج بالجملة •

٣ ـ ان عوامل الانتاج التقليدية : الأرض والعمل البدنى والمواد الأولية ورأس المال تفقد أهميتها كلما استبدلت أو حلت محلها المعرفة الرمزية •

٤ ـ بدلا من النقود المعدنية أو الورقية تصبح المعلومات الالكترونية هى وسيلة التبادل الحقيقية • لقد بلغت سيولة رأس المال الآن درجة عالية بحيث يمكن أن تتجمع رؤوس أموال بكميات ضخمة بين ليلة وضحاها وتتفرق بالطريقة والكمية نفسها • وبالرغم من التركز الضخم الحالي فان مصادر رأس المال أكثر عددا •

٥ ـ تتجه السلع والخدمات لأن تصبح قياسية وان تشكل نظما تتطلب مضاعفة المعايير ومراجعتها بشكل منتظم • وينجم عن ذلك حروب من أجل السيطرة على المعلومات التي تنبنى عليها المعايير •

٦ ـ ستحل محل البيروقراطيات البطيئة وحدات عمل صغيرة وفرق عمل « تعتمد على الخبرة والكفاءة » وتحالفات وكونسورتيوم أعمال تتخذ أشكالا معقدة ومركبة بشكل متزايد • ومن أجل زيادة سرعة اتخاذ القرارات يتم « تسطيح » التسلسل الهرمى أو استبعاده بلا تردد • ويترك التنظيم البيروقراطى للمعرفة المكان لنظم المعلومات ذات التدفق الحر •

٧ ـ تتعدد الوحدات التنظيمية وتتنوع فى الوقت نفسه • وكلما يزيد عددها وتجرى معاملات فيما بينها زاد حجم المعلومات المطلوب خلقها وتبادلها •

٨ ـ تتناقص بشكل مضطرد قابلية العاملين للاستبدال والتعاوض• ففى العصر الصناعى لم يكن العاملون يملكون سوى جزء صغير جدا من وسائل الانتاج • حاليا ، أصبحت أقوى أدوات تنمية وزيادة الثروة هى الرموز التى يحتفظون بها فى رؤوسهم • وبالتالى يملك العاملون نصيبا حاسما من « وسائل الانتاج » وغير قابل للاستبدال فى كثير من الأحيان •

٩ ـ لم يعد بطل زماننا هو العامل ذو الأوفرول الأزرق ولا رجل المال ولا المدير ، ولكنه المبتكر الذى يجمع بين المعرفة والقدرة على الابداع والقدرة على الفعل (سواء فى داخل منظمة كبيرة أو خارجها) •

١٠ ــ يتزايد الاعتراف بأن خلق الثروة عملية دائرية ، حيث يتم الاستفادة بالنفايات واعادة تحويلها لاستخدامها كموارد نافعة للدورة التالية • وتتطلب طريقة الانتاج هذه رقابة مستمرة بواسطة الكمبيوتر ، كما تتطلب معرفة مضطردة العمق فى مجال المعطيات العلمية أو البيئية •

١١ ــ اجتمع من جديد المنتج والمستهلك فى دورة انتاج الثروة بعد أن كانت الثورة الصناعية قد عزلتهما عن بعضهما البعض • فالمستهلك لا يقدم نقوده فقط ولكنه يقدم أيضا معلومات عن السوق ونماذج المنتجات وهى معلومات حيوية بالنسبة لمجموع العملية • ويتقاسم المشترى والمورد بيانات ومعلومات ومعرفة • وقد يأتى اليوم الذى يستطيع فيه المستهلك أن يطلق من بعد أنشطة انتاجية بمجرد الضغط على أزرار • ويتجه كل من المنتج والمستهلك الى أن يمتزجا فيما يمكن تسميته « منتهلك » أو « المنتج ــ المستهلك » •

١٢ ــ ان النظام الجديد لخلق الثروة هو نظام محلى ودولى فى آن واحد • ففاعلية تكنولوجيات تصغير الأحجام تسمح حاليا بانجاز مهام فى حيز صغير كان لا يمكن، حتى وقت قريب، انجازها اقتصاديا الا على النطاق الوطنى • وفى الوقت نفسه تتجاوز وظائف عديدة الحدود الوطنية وتدمج فى جهد انتاجى مشترك أنشطة تقع فى عدد من البلدان المختلفة •

هــذه العنــاصر الاثنــا عشر لاقتصــاد التســارع ، ترتبط بالطبع فيما بينها ويعزز تفاعلها معا أهمية البيانات والمعلومات والمعرفة فى اجمالى الحياة الاقتصادية • وهذه العناصر كلها ، تحدد وتعرف النظام الجديد لخلق الثروة ، المبنى على التكنولوجيا المتقدمة ، وبمجرد أن تتجمع أجزاء هذا النظام معا سوى تتقوض أساسات هياكل السلطة المعدة لخدمة نظام خلق الثروة الخاص بالعصر الصناعى •

وكما يتضح من هذا التلخيص ، فان النظام الجديد يتيح فهما أفضل للاضطرابات الضخمة التى نشاهدها على كوكبنا ، هزات مبشرة تعلن عن صراع بين طرق مختلفة لانتاج القيمة يتم على مستوى غير مسبوق •

حواشى الكتاب

الأرقام بين قوسين معقوفين [ ] تشير الى العناوين المدرجة فى فهرس المراجع ·
فمثلا رقم [١] يقابل العنوان الأول فى فهرس المراجع وهو :
Amon, Raymond, Les étapes de la pensée sociologique".

المقـــدمة

(١) معهد المعلومات العلمية (Institute for Scientific Information)
مراسلات مع المؤلف ٥ يناير ١٩٧٨ ، ص ١٠ ·

(٢) حول كتاب « الموجة التالية » فى الصين انظر [٣٦٢] وكذلك :
"Alvin Toffler in China : Deng's Big Bang".
بقلم (Andrew Mendelson) فى مجلة New Republic ٤ أبريل ١٩٨٨ ، ص ١١ ·

الفصل الأول

عصر السلطات الجديدة

(١) انظر "GM Is Tougher Than You Think"

بقلم (Anne B. Fisher) مجلة Fortune ١٠ نوفمبر ١٩٨٦ ، ص ١٩ ٠

(٢) حول أفول السيطرة الأمريكية على مجال الكمبيوتر انظر : Datamation ١٥ يونية ١٩٨٨ ، ص ١٩ ٠

(٣) انظر "Gephardt Plans to Call for Jopon — Style Trade Agency".

لوس انجلوس تايمز ٤ اكتوبر ١٩٨٩ ، ص ٢٠ ٠

(٤) فيما يتعلق بوزارة التجارة الدولية والصناعة (الميتى) انظر المقالات التالية المنشورة في مجلة Japan Economic Journal

"MITI Fights to Hold Influence as Japanese Firms Go Global"

"Icy Welcome for MITI's Retal Law Change" عدد اول أبريل ١٩٨٩ و ٢١ اكتوبر ١٩٨٩ ،

"Japad Car Makers Eye Gro th Despite MITI Warning"

"Trade Policy Elip-flop Puts MITI on Defensive" ٢١ اكتوبر ١٩٨٩ ،

٢٠ يناير ١٩٩٠ ، ص ٢١ ٠

(٥) تم الحصول على المعلومات الطبية من مقابلات مع العاملين فى :

wilkenson Group (وهى هيئة استشارية فى مجال الادارة الطبية) نيويورك ومع (Wendy Borow) مدير قسم التليفزيون والراديو والفيلم بالجمعية الطبية الأمريكية ٠ ومع (Barry Cohn) وهو مخرج نشرات انباء تليفزيونية بمحطة (AMA) شيكاغو ، ص ٢٣ ٠

(٦) مقولة لمارك بوستر (Mark Poster) . انظر : [٢٧٤] ص ٥٣ ٠

الفصل الثانى

القوة المادية والمال والذكاء

فيما يتعلق بالتعريفات .. هناك عدد كبير من تعريفات السلطة بقدر ما يوجد من زهور الكرز فى اليابان وجميعها لا تخلو من صعوبات . أشهر تلك التعريفات هو تعريف برتراند راسل الذى يقول : « يمكن تعريف السلطة بأنها احداث تأثيرات مقصودة » . وهو تعبير عقلانى تماما وواضح ودقيق .

ولكن للأسف ، حتى هذه الجملة البسيطة مزروعة بالفخاخ .

أولا : يمكن أن نتساءل عن معنى كلمة « مقصودة » . ليس من السهل تحديد ذلك (حتى بالنسبة لصاحب هذه « المقاصد » . بعد ذلك يتعين علينا فهم ما هى « التأثيرات » لكى نستطيع مقارنتها بالمقاصد .من جهة أخرى ، كل فعل له نتائج من الدرجة الثانية والثالثة الخ ... بعضها مقصودة والأخرى غير مقصودة . وبالتالى ما الذى يتعين تصنيفه فى قائمة التأثيرات ؟

فضلا عن ذلك يتعين أيضا التأكد من أن ما حدث هو « نتاج » الفعل الذى تم . وهو ما يتطلب معرفة السببية التى غالبا ما تكون خارج متناولنا .

أخيرا ، يظهر تناقض ضخم فى هذه الجملة : كلما زاد عدد المقاصد وتنوعت ازداد احتمال ألا يتحقق سوى جزء يسير منها وزادت صعوبة تحديد أى المقاصد هو العلة الحقيقية . وبهذا المعنى ، اذا اعتمدنا على تعريف راسل المقبول تماما ظاهريا فاننا نصل الى أنه كلما كان عدد المقاصد محدودا أمكن ممارسة سيطرة حقيقية .

وإذا كان احداث التأثير المرغوب بأدنى قدر (يمكن تحديده) من التأثيرات الثانوية هو تعريف للسلطة ، فان من كانت أهدافه محددة ومحصورة ووعية بالتأثيرات الثانوية بدائيا سيتم تعريفه على أنه الأكثر سلطة .

بالرغم من هذا المثال الذى يدعونا الى الحذر (مع ادراكنا بأن تعريفنا نفسه لا يخلو من صعوبات تتصل بالمفهوم) فاننا نحتاج الى تعريف أساسى مرن بدرجة كافية لكى يستطيع دفع تفكيرنا الى التقدم . وبالتالى فان مصطلح « سلطة » سيعنى فى هذا الكتاب القدرة على اللجوء الى العنف أو الثروة أو المعرفة أو كل هذه العناصر مجتمعة وكذلك العديد من مشتقاتها من أجل التأثير على الآخرين بحيث يستجيبون بشكل ايجابى لاحتياجاتنا ورغباتنا .

(١) لازالت الرموز الاسطورية الثلاثة للسلطة تلعب دورا فى الطقوس اليابانية · عند وفاة الامبراطور هيروهيتو فى عام ١٩٨٩ تم تسليم السيف والجوهرة والمرآة ـ طبقا للتقاليد ـ الى ابنه ، اكيهيتو : انظر : "What sort of Peace in heisi "

مجلة الايكونوميست ١٤ يناير ١٩ وللمزيد من المعلومات راجع Encyclopedia of Japan · طوكيو دار نشر Kodansha باب "Imperial Regalia" وراجع أيضا [٢٣٩] ، ص ١٢٤ ـ ١٣١ ، ص ٢٩ ·

(٢) حول المعنى الرمزى للمرآة انظر [٤٤٣] ص ٢٠١ · فى اليابان لا يعبر عن السلطة من خلال الاسطورة فقط ولكن من خلال اللغة والحديث أيضا ، مثلها فى ذلك مثل العديد من اللغات الأخرى · اذ تنطوى على ألقاب وألفاظ تبجيلية وهو ما يتطلب تحديد موقع المتحدث فى التسلسل الهرمى الاجتماعى بمجرد أن يفتح فمه ليتكلم · فمن المستحين تقريبا أن يتكلم المرء دون أن يحدد موقعه ف مواجهة من هو أعلى أو من هو أدنى · اللغة اذن تفترض وجود تسلسل هرمى للسلطة · يرمز الى الرجل فى النظـام الكتابى اليابان بحقل قمح وسيقان قوية ، بينما يرمز الى للمرأة يتمثـال صغير لامرأة راكعة وخاضعة · ان مثل هذه الرموز تعكس السلطة الابوية · ويعد باب (Womans word) [٤٤٢] الذى يحمل عنوانا فرعيا "What Japenese Words say About Women" مصدرا غنيا بالأمثلة · لكن اللغة اليابانية ليست اللغة الوحيدة المحمـلة بالمعـانى الضمنية للسلطة · لغة آهل جاوة مثلا لها مستويان هما : « نجوكو » للتخاطب مع من هم أدنى منزلة و « كراما » للحديث مع الرؤساء ويحتوى كل مستوى على مستويات فرعية دقيقة (راجع [٢٨]) ، ص ٢٩ ·

(٣) عن بويسكى (Boesky) انظر : "Suddenly The Fish Gets Bigger" بيزنيس ويك ٢ مارس ١٩٨٩ ، ص ٢٩ ·

(٤) بشأن (Claus Fuchs) راجع : [٤١١] ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤ ، ص ٣٠ ·

(٥) عن مقولة شين كونرى انظر فيلم (Cuba) انتاج شركة (United Artists) عام ١٩٧٩ ، ص ٣٢ ·

(٦) فيما يتعلق باعتماد القدرة العسكرية على الكمبيوتر "Real Time Creates "Smart" Flight Simulator" بقلم (Richarrd E. Morley) و (Todd Leadbeater) مجلة Defense Science نوفمبر ١٩٨٨ ، ص ٣٤ ·

الفصل الثالث

ما وراء عصر البريق الخادع

(١) Doonesbury القصة المصورة التى الفها جارى ترودو والتى نشرت فى العديد من المجلات تنتقد بقسوة قطب العقارات دونالد ترامب ، الذى كتب بالتعاون مع الكاتب تونى شوارتز كتاب "The Art of The Deal" الذى حقق نجاحا · كما نشر رئيس كرايزلر لى اياكوكا كتابا من اكثر الكتب مبيعا حينذاك كتبه له وليم نوفاك · أما فيما يتعلق بالشائعات الخاصة برئاسة الولايات المتحدة ، راجع « اياكوكا رئيسا ؟ »
"Iacocca For President ?"

واشنطن بوست ١٢ ديسمبر ١٩٨٧ ومقال جانى وليمز "Star Watch" ، المنشور فى USA Today ، ٢٦ أكتوبر ١٩٨٩ ، ص ٤١ ·

(٢) حول « حمى عروض الشراء العلنية » فى الثمانينات ، والتى تشهد حاليا حالة خمود مؤقتة ، راجع « العالم يصاب بحمى عروض الشراء العلنية » ·
"The World Catches Take over Fever"
نيويورك تايمز ، ٢١ مايو ١٩٨٩ ، و "Attack on Corporate Europe"
تايمز (لندن) أول اكتوبر ١٩٨٩ ، وراجع ايضا [٧٣] و [١٢٧] ، ص ٤٣ ·

(٣) فيما يتعلق باقطاب العصر المصنعى : « الستون اسرة التى تحكم امريكا » · "America's Sixty Families" New Republic. ، ١٧ نوفمبر ١٩٣٧ · للمقارنة مع "The Forbes Four Hundred" لهارولد سينيكر : فوربس ، ٢٣ اكتوبر ١٩٨٩ · ص ٤٣ ــ ٤٤ ·

(٤) عن النقابات وعروض الشراء العلنية ، راجع : "Move Over Boone, Carl and IRV-Here Comes Labor". بيزنس ويك ، ١٤ ديسمبر ١٩٨٧ ، ص ٤٤ ·

(٥) فيما يتعلق بـ « عصر البريق الخادع » ، راجع [٥٣٩] الصفحات ٣٤ ــ ٣٧ ، ٥٠ ــ ٥١ ، وانظر أيضا [٥٣٧] الصفحات ٧٠ ــ ٧١ ، ١٦٤ ــ ١٦٧ ، ١٧٠ ــ ١٧١ ، [٥٨٨] الصفحات ١٠ ــ ١١ ، و [٢٠٦] · ص ٤٦ ·

(٦) مقولة Weingarten ماخوذة من حديث للكاتب ، ص ٤٦ ·

(٧) بالنسبة لانتقام أياكوكا ، راجع كتابه الذى نشرته دار Bantam عام ١٩٨٤ وحقق أعلى المبيعات ، ص ٤٧ ·

(٨) روس بيرو وجنرال موتورز : [١٢٣] الصفحات ٢٨٩ـ٢٨٠ · ص ٤٧ ·

(٩) حول المعركة الايطالية بين القوة المالية القديمة والجديدة وعن دور كارلو دي بينيديتي وجانو انيللي وانريكو كاشيا : « الامبراطور الاخير » ٠

"The Last Emperor", Euromoney اكتوبر ١٩٨٨

وانظر أيضا [٩٥] ، ص ٤٧ ٠

(١٠) بالنسبة لعمليات الشراء الفرنسية ـ الالمانية ، راجع "Europe's Buyout Bulge" نيويورك تايمز ، ٦ نوفمبر ١٩٨٩ ، ص ٤٨ ٠

وراجع أيضا حديث فيليب ادهيمر ، المستشار المالى وسفير فرنسا فى واشنطن ٠

(١١) يوجد عرض للمأساة الاسبانية فى « تتحول قصة النجاح الى شىء بغيض » "A Success Story Turns Sour"

فاينتشيال تايمز ، ٢٥/٢٦ فبراير ١٩٨٩ ، ص ٤٨ ٠

(١٢) قصة المستشارة مأخوذة من [٦٤] صفحات ٣ ـ ٧ ، ص ٥١ ٠

الفصل الرابع

القوة : العنصر ياكوزا

(١) مقولة Séliounine ماخوذة من « اخطا لينين فيما يتعلق بارهاب الدولة ، وتحطيم أحد المقدسات السوفيتية ٠
"Lenin Faulted on State Terror, and a Soviet Taboo Is Broken."
نيويورك تايمز ، ٨ يونية ١٩٨٨ ، ص ٥٦ ٠

(٢) بالنسبة للعنف فى الحركة العمالية ، يمكن الرجوع الى [١٠٨] الصفحات ٢١٣ ـ ٢١٣ و [١٢٢] صفحات ٧ و ٥٥ ـ ٦٣ ، ص ٥٦ ٠

(٣) « العنف لدى موتورولا فى كوريا » "Violence at Motorola in Korea"
فاينتشيل تايمز ، ٣١ ديسمبر ١٩٨٨ ، ص ٥٧ ٠

(٤) "Firms Gang Up to Quiet Stockholder Meeting Louts" ;
Japan Economic Journal, ٢ يوليو ١٩٨٨ ٠ وكذلك : "Japan's Sokaiya Fail to Trap Juiciest Prey"
فاينتشيال تايمز ، ٢٧ يونية ١٩٨٩ ، ص ٥٧ ٠

(٥) "Japanese Fund Manager Found Buried in Concrete"
فاينتشيال تايمز ، ١٩ اكتوبر ١٩٨٨ ، ص ٥٧ ٠

(٦) فيما يتعلق بممارسة العنف فى مجال العقارات فى اليابان ، راجع « نقابة الظل » "Shadow Syndicate" لكاى هيرمان ، 20/20 (لندن) ، فبراير ١٩٩٠
وراجع أيضا : "No Vacancy : Soaring Land Prices in Japan Slam Door no Housing Market"
وول ستريت جورنال ، ١٣ اكتوبر ١٩٨٧ ، ص ٥٧ ٠

(٧) المحامى الأمريكى وعصاة البيسبول : "Nippon Steal" لايامون فينجلتون ، Euromoney ، اكتوبر ١٩٨٨ ، ص ٥٨ ٠

(٨) « ثعابين حية فى دور السينما الكورية » فاينتشيال تايمز ، ٥ أكتوبر ١٩٨٩ ص ٥٨ ٠

(٩) فيما يتعلق بالمرابين : [٢١٣] الصفحات ١٦٧ ـ ١٦٨ ٠ ص ٥٨ ٠

(١٠) « سيلكوود : القصة وراء القصة » ·
"Silkwood : The Story Behind The Story", New Statesman,
٤ مايو ١٩٨٤ ، ص ٥٨ ·

(١١) حول ديجول ، راجع [٥٤٦] صفحة ٣١ ، ص ٦٠ ·

(١٢) قضية فضيحة Recruit ملخصة فى : "Takeshita Hears the Thud of the the Axes" ايكونومست ، ١٨ فبراير ١٩٨٩ و فى : "Will the Recruit Scandal Just Go Away ?" بيزنس ويك ، ١٢ يونية ١٩٨٩ ، ص ٦١ ·

(١٣) حول الفضيحة الالمانية : « لعبة مميتة من الحيل القذرة » ·
"A Deadly Game of Dirty Tricks".
نيوزويك ، ٢٦ أكتوبر ١٩٨٧ · راجع ايضا « زوج من الروائح الكريهة » "A Pair of Bad Smells" ايكونومست ، ١٧ اكتوبر ١٩٨٧ ، ص ٦١ ·

(١٤) حول الباشينكو :
"A Pinball Bribery Scandal Rocks 2 Japanese Political Parties".
نيويورك تايمز ١٣ اكتوبر ١٩٨٩ ·
"Pinball Scandal Threatens Political Upsets in Japan".
فايننشيال تايمز ، ١٢ اكتوبر ١٩٨٩ · ص ٦١ ·

الفصل الخامس

الثروة : مورجان وميلكن ٠٠ وماذا بعد ؟

(١) بخصوص مورجان ، انظر [٥٤٤] ص ١٢ ، ٤٩ ، ١٧٦ ـ ١٧٧ ، ١٩١ ، ٢١٢ـ ٢١٤ ، ٢٣٦ ـ ٢٤٠ ، ٢٥٥ ـ ٢٥٧ ، ٣٥٤ ، ٣٩٦ ، ٤٠٣ ، وانظر أيضا [١٠٦] ص ١٣ ، ٨٢ ، ٩٨ ـ ٩٩ ، ١١٤ ، ١٢٥ ـ ١٢٧ ، ١٧٣ ، ٣١٢ ، مقدمة ، [٨٤] ص ٩٩ وكذلك [٥٤١] : ص ٦٥ ـ ٦٦ ٠

(٢) عن بداية مؤسسة دريكسل : [٥٨٩] ص ١٢٤ ـ ١٢٥ ٠ ص ٦٧ ٠

(٣) بخصوص ميلكن : كتاب The Predators Ball [٨٣] بقلم Connie Bruck يقدم صورة لاذعة عن ميلكن وأعمال السندات ذات العائد المرتفع (الجنك بوندز) التى ابتدعها ، وان كانت هذه الصورة تفتقر الى القيمة التحليلية ٠ ابسط الشروح الموجزة لظاهرة سندات ميلكن واكثرها توازنا تجدها فى مقال : "Bearing Down on Milken" بقلم (David Frum) فى National Review ١٩ مارس ١٩٩٠ ٠ المصادر المهمة الأخرى تشمل : "How Milken Made a Billion Dollars and Changed the face of American Capitalism" بقلم : (Edward Epstein) فى Manhattan inc. سبتمبر ١٩٨٧ ٠ انظر كذلك [٩٢] ص ١٤ ـ ١٧ ، ٢٣٢ ـ ٢٣٣ ، ٢٣٦ ـ ٢٣٨ ، و "A Chat With Michael Milken" بقلم (Sloan Allen) مجلة فوربس ١٣ يوليو ١٩٨٧ ٠ "Milken's Salary is One for Record Books" وول ستريت جورنال / الطبعة الأوربية ، ٢ أبريل ١٩٨٩ ، و "Lynch Law" بقلم (Andrew Marton) فى Regardie's مارس ١٩٩٠ ٠ و "Caught Up in a Morality Tale" بقلم (Richard Starr) فى Insight ، ٥ مارس ١٩٩٠ ، ص ٦٨ ٠

(٤) عن علاقات ميلكن مع النقابات المهنية :
"Move Over Bonne, Carl, and IRV — Here Comes Labour"
بزنيس ويك ١٤ ديسمبر ١٩٨٧ ٠
وانظـر أيضـا "The Mercenary Messiah Strikes Again" بقلم (Mark Feinberg) فى In These Times ٧ ـ ٢٠ يونيو ١٩٨٩ ، ص ٦٨ ٠

(٥) عن تحول الولايات المتحدة الى اقتصاد المعلومات ـ الخدمات انظر مقـال :
"A New Revolution in the U.S. "Cla s Structure", And Labour Force"
مجلة فورتشن أبريل ١٩٥٨ ٠ ص ٦٩ ٠

(٦) عن الأثر الهيكلي لما فعله ميلكن على الشركات :
"How Milken Machine Financed Companies, Take over Raids"
لوس أنجلوس تايمز ٣٠ مارس ١٩٨٩ ، كذلك"High — Stakes Drama at Revlon"
نيويورك تايمز ١١ نوفمبر ١٩٨٥ و "A chat with Milken" بقلم (Allan Sloan)
مجلة فوربس ١٣ يوليو ١٩٨٧ و "Junk Bond' Genius Inspires Loyalty From
و "Some, Hostility Others" لوس انجلوس ، تايمز ٢٠ مارس ١٩٨٩ · ص ٧٠ ·

(٧) حول اتهام ميلكن "Junk Bond King Indicted for Stock Fraud"
لوس أنجلوس تايمز ٣٠ مارس ١٩٨٩ وكذلك "Predator's fall مجلة تايم
٢٦ فبراير ١٩٩٠ · بشأن انهيار مؤسسة دريكسل : "Lynch Law" بقلم :
(Andrew Marton) في Regardie's مارس ١٩٩٠ ، ص ٧١ ·

(٨) حول الصراع بين أنصار تقييد الاقراض وانصار تسهيله انظر :
"Junk Bonds - A Positive Force in the Market"
نيويورك تايمز ٢٣ نوفمبر ١٩٨٧ ، ص ٧٢ ·

(٩) عن قيام ميلكن باضفاء الديمقراطية على رأس المال : [٨٣] ص ٣٥٠ · ص ٧٢

(١٠) عن تفكيك الشركات الكبرى بدلا من تكوين تكتلات ضخمة : مقابلة المؤلف مع ميلكن وكذلك مع (Dean Kehlr) المدير العـام لشئون الاستثمار والاعمـال المصرفية في مؤسسة دريكسل المتوفاة الآن :

انظر أيضا : "The new Buy - Out Binge" نيوزويك ٢٤ اغسطس ١٩٨٧ ·
ص ٧٣ ·

(١١) عن الملاحظة الخاصة بـ « عصر المعلومات » انظر "Achat with Milken"
بقلم (Allan Sloan) مجلة فوربس ١٣ يوليو ١٩٨٧ وانظر كذلك مقابلتي المؤلف مع ميلكن و (Kehler) ص ٧٥

(١٢) حول احتضار شركة سولومون براذرز : [٩٢] ص ٣٥١ ، ٣٥٦ ــ ٣٥٩ ·
ص ٧٦ ·

(١٣) عن ورطة صناديق الادخار والاقراض :
"Can the Thrifts be Salvaged ?"
نيوزويك ٢١ أغسطس ١٩٨٩ · و "Up to $ 100 Billion $ Extra Sought
For S & L Rescue." لوس أنجلوس تايمز ١ نوفمبر ١٩٨٩ ، ص ٧٧ ·

(١٤) بشأن تجارة النقد الاجنبي "What Moves Exchange Rates" وهو تحليل بارع بقلم (Kenichi Ohmae) في جريدة (جابان تايمز) ٢٩ يوليو ١٩٨٧ ، ص ٧٩ ·

(١٥) عن سلطة المصارف المركزية : "Concept of a Central Bank Gains
support in Europe" نيويورك تايمز ١٣ يونيو ١٩٨٩ · ص ٨٠ ·

الفصل السادس

المعرفة : ثروة مصنوعة من الرموز

(١) عن النقود فى الأزمنة السابقة : [٥٣٦] ص ٤٤٢ ـ ٤٤٣ وأنظر أيضا [١٤١] ص ٢ ، ص ٨٥ ٠

عن النقود والرغبة ··· تعتبر النقود فى العادة ، وسيلة لاشباع حاجة أو رغبة ، بيد أن النقود لعبت أيضا دور المحرر لهذه الرغبة ٠

فى حضارات ما قبل النقود كان يتعين أولا على الشخص الذى كان لديه دجاجة فائضة ويحتاج الى غطاء أن يجد من لديهم اغطية ثم يحدد من بين مالكى الأغطية من على استعداد لمقايضة الغطاء بالدجاجة ٠ كان لابد للرغبات أن تتقابل ٠

وقلبت النقود هذا الموقف رأسا على عقب ٠ اذ أطلقت العنان للخيال نظرا لامكانية تحويلها الى عدد لا حصر له من أنواع الاشباع ٠ وفجأة اكتشف من يملكون النقود رغبات لا عهد لهم بها ٠ وبرزت أمام أعين الجميع أمكانات لم تخطر على بال من قبل ٠ وكانت النقود مصدراً للخيال لكل الجنس البشرى ٠

كذلك دفعت النقود الأذكياء الى التعرف وتحديد رغبات الآخرين سواء كانت رغبات فجة أو راقية ثم الى الانطلاق فى بيع الأشياء والخدمات والخبرات الكفيلة باشباع تلك الرغبات ٠ وبالتالى أصبحت النقود قابلة للتحويل الى مجموعة أكبر من الرغبات ومن ثم ازداد نفعها عن ذى قبل ٠ (مجرد انطلاق هذه العملية أحدثت تفاعلا متسلسلا ويفسر هذا التفاعل كيف أصبحت للنقود هذه الاهمية الكبيرة فى التطور الاجتماعى) ٠

كذلك أدى اختراع النقود الى زيادة قيمة الثروة كأداة من أدوات السلطة ٠ حيث عززت سطوة الأغنياء بتبسيط ، جذريا ، عملية التحكم فى السلوك ٠ لقد أصبح من الممكن مكافأة الناس أو معاقبتهم دون الاهتمام بمعرفة رغباتهم ، حتى ان مدير المصنع لم يكن ليهتم كثيرا أو قليلا اذا كان العامل يرغب فى دجاجة أو غطاء أو سيارة كاديلاك ٠ اذ بتوفر قدر كاف من النقود يمكن شراء كل شىء ٠

فى الحضارات الزراعية كان نطاق الرغبات الجماعية محدوداً للغاية حتى انه يمكن تلخيصه فى كلمتين : الخبز (أو الأرز) والأرض · أما بالنسبة لرغبات الأغنيـاء فى هذه الحضارات فكانت تتراوح بين التأمل الجمالى والشهوانية وبين الميتافيزيقا والفنون العسكرية ·

أما فى مجتمعات العصر الصناعى فكان الوضع على نقيض ذلك فبعد تلبية الحاجات الأساسية للسكان كانت الرغبات الجماعية تبدو متضاعفة · لقد انفلتت الرغبة من عقالها وانطلقت لتحتل مناطق جديدة ، وحول التقدم المستمر كماليات جيل ما الى « ضروريات » بالنسبة للجيل التـالى ·

هذا التوسع فى الرغبة كان واضحا فى المجتمعات الاشتراكية كما كان واضحا فى المجتمعات الاستهلاكية الرأسمالية · لقد كان هذا التوسع ، ولا يزال ، أساس مجتمع الاستهلاك الجماعى · وهو ما يفسر لماذا أصبح كشف الأجور فى العـالم الصناعى وسيلة تحكم جوهرية ·

اليوم أصاب هيكل الرغبة اضطراب شديد · اننا ونحن نتقدم نحو ثقـافة ما بعد العصر الصناعى لا نرى انحسارا للرغبة ، بل على العكس نراها تمتد الى مناطق جديدة اكثر رقيا ونقاء واكثر بعدا عن المادية ويصاحب ذلك اتجاه متزايد نحو الفردية ·

(٢) بشان وليم بوتر انظر [٦] ، ص ١٥٤ · ص ٨٥ ·

(٣) عن النقود الورقية [٩٦] ، ص ٥١ · ص ٨٥ ــ ٨٦ ·

(٤) بيانات (فيزا انترناشيونال) مأخوذة من الشركة نفسها · ص ٨٦ ·

(٥) عن البطاقات الذكية انظر : "Smart Cards Pocket Power" نيوزويك ٣١ يوليو ١٩٨٩ ، وأنظر ايضا الايكونوميست ٣٠ ابريل ١٩٨٨ · ص ٨٦ ــ ٨٧ ·

(٦) حول انجازات الفرنسيين فى مجال البطاقات الذكية : "A New Technology Emerges on The World Stages" فى النشرة الفصلية : "French Advances in Science and Technology" عدد الصيف ١٩٨٦ · وكذلك "Bull's Smart Cards Come up Trumps" فاينانشيال تايمز ٣٠ سبتمبر ١٩٨٧ · ص ٨٦ ــ ٨٧ ·

(٧) عن أن عدد البطاقات الذكية المستخدمة الآن فى أوروبا واليابان يبلغ ٦١ مليون بطاقة : "Smart Cards : Pocket Power" نيوزويك ٣١ يوليو ١٩٨٩ · ص ٨٧ ·

(٨) عن بطاقات شركة نيبون للهاتف والتلغراف (NTT) : "Putting Smart Money on Smart Cards" الايكونوميست ٢٧ اغسطس ١٩٨٨ · ص ٨٨ ·

(٩) مشروع وزارة الزراعة الأمريكية : "Smart Cards : Pocket Power" نيوزويك ٣١ يوليو ١٩٨٩ ، ص ٨٨ ·

(١٠) عن بطاقات المدارس انظر : "Debit Cards for Pupils to Use in Cafeteria" بقلم (Susan Dillingham) فى Idsight ٢١ اغسطس ١٩٨٩ · ص ٨٨ ·

(١١) قول جوزيف رايت ماخوذ "US Plans Wide Use of Credit Cards" نيويورك تايمز ١ مارس ١٩٨٩ ، ص ٨٩ .

(١٢) قول هوك ماخوذ من مقابلة مع المؤلف عن فقدان البنوك المركزية لسيطرتها على السياسة النقدية : "Designer Currency Dangers" بقلم (David Kilburn) في Business Tokyo مايو ١٩٨٨ ، ص ٩٠ .

(١٣) عن النقود « البلاستيكية » فى كوريا الجنوبية : "A State of Siege for Corporate Corea" بقلم (Michael Berger) فى مجلة Billion Magazine (هونج كونج) سبتمبر ١٩٨٩ ، ص ٩٠ .

الفصل السابع

المادية المزهوة

(١) القوة العاملة فى المجال الزراعى بالولايات المتحدة انظر النشرة الصادرة عن وزارة التجارة الامريكية Statistical Abstract of the United States 1989. ص ٣٧٦ • ص ٩٤ •

(٢) القوة العاملة فى المجال الصناعى بالولايات المتحدة "Flat Manufacturing Employment for 1990's" بقلم (Michael K. Evans) و (R. D. Norton) فى مجلة Industry Week ٢ اكتوبر ١٩٨٩ • وكذلك "The Myth of U.S. Manufacturing" لوس انجلوس تايمز ٢٢ اكتوبر ١٩٨٩ • ص ٩٤ •

(٣) عن الدعوة الى منع شراء الاجانب للشركات الأمريكية انظر مقال : "America's Destiny is in Danger" بقلم (June-Collier Mason) فى مجلة Industry Week ٦ يونية ١٩٨٨ • ص ٩٥ •

(٤) عن القوة العاملة فى مجال الخدمات فى الولايات المتحدة : "End Sought to Barriers to Trade in Services" نيويورك تايمز ٢٥ اكتوبر ١٩٨٩ • ص ٩٥ •

(٥) عن قيمة صادرات العالم من الخدمات والمنتجات الفكرية "Exports of Services Increase to $ 560 Billions" فاينانشيال تايمز ١٥ سبتمبر ١٩٨٩ • ص ٩٥ •

(٦) حول الذاكرة الالكترونية انظر : "HP and Ford Motors" بقلم (John Markoff) فى windows Vol 1, no 1 خريف ١٩٨٧ ، ص ١٠٠ •

(٧) عن شركة (CSX) : مقابلة مع (Alex Mandl) رئيس (Sea-Land Services Inc.) • ص ١٠١ •

(٨) مستوى الذكاء فى مختلف الشركات : اتصال شخصى من د• دونالد ف• كلين • ص ١٠٢ •

(٩) بيانات شركة (جين كورب) انظر : "The (New Flat Earth Society Gathers in Shelbyville" بقلم (Brian S. Moskal) مجلة Industty Week ٢ اكتوبر ١٩٨٩ ، ص ١٠٣ •

(١٠) عن عقلية المخططين السوفيت فى الغرب "?Is There a British Miracle" فاينانشيال تايمز ١٦ يونية ١٩٨٨ · ص ١٠٥ ·

(١١) بشأن جيارينى انظر [١٠٠] بأكمله · عن لوبيل [١٢٥] عن (Woo) : [١٦٧] · وجهة نظر فايسكوف واردة فى تقرير "Reflections on Uncertainty in Economics" بقلم (Walter A. Wessikopf) فى Geneva Papers, Vol 9 No 33 اكتوبر ١٩٨٤ · ص ١٠٦ · ·

(١٢) حول (Promtthée) وهى احدى المؤسسات الباريسية المستقلة انظر : "From Trade to Global Wealth Creation" اصدار خاص عن لجنة (Thinknet1) تحت عنوان (Project Prométhée Perspectives, No 4) باريس ، ديسمبر ١٩٨٧ ص ١٠٧ ·

الفصل الثامن

البديل النهائي

(١) عن القدرة على القراءة والحساب : [٤٨٠] ص ٢٨٢ ــ ٢٨٣ ، ٣٢٨ وكذلك "Capitalism Plus Math : It All Adds Up" لوس أنجلوس تايمز ١٣ مايو ١٩٨٩ ، ص ١١٠ .

(٢) عن الانتاج فى شكل مجموعات صغيرة : "Manufacturing : The NeW Case for Vertical Integration" بقلم (Ted Kumpe) و (Piet T Bolwijn) فى Harvard Business Review مارس/أبريل ١٩٨٨ . أيضا "Kicking Down the Debt" مجلة تايم ٧ نوفمبر ١٩٨٨ . و "Customized Goods Aim at Mass Market" مجلة Japan Economic Journal أول أكتوبر ١٩٨٨ ، ص ١١٣ .

(٣) عن المواد الجديدة "Materials Battle Heats Up" بقلم (Thomas M. Rohan فى مجلة Industry Week ٢ اكتوبر ١٩٨٩ و "Plastics and Ceramics Replace Steel a the Sidews of war" نيويورك تايمز ١٨ يوليو ١٩٨٩ ، و "Project Forecast II" فى Assault System, Vol. 1, No 1, ص ١١٤ .

(٤) عن ظاهرة فرق التوصيل : [٥١٨] ص ١٦٦ ــ ١٧٣ . ص ١٤٤ .

(٥) حول جنرال الكتريك : "Electronic Data Exchange : A leap of faith" بقلم (Neal Boudette) مجلة Industry Week ٧ اغسطس ١٩٨٩ ، ص ١٥٥ .

(٦) ١,٣ مليار من المستندات : "Throwing Away Paper — Based Systems" فاينانشيال تايمز ٢٦ أبريل ١٩٨٩ ، ص ١١٥ .

(٧) كل الجزء الخاص بـ (Merloni) يعتمد على مقابلة مع المؤلف . ص ١١٦ .

(٨) عن صناعات النسيج والملابس : "EDI, Barcoding Seen the Way to Save Millions" فى Daily News Record ١١ مارس ١٩٨٧ . ص ١١٦ .

(٩) عن شركة (NHK) لصناعة النوابض : "Just in Time Computers" بقلم (Peter Fuchs) فى مجلة Business Tokyo مايو ١٩٨٨ . ص ١١٧ .

(١٠) ملحوظة (ميرلونى) عن تحويل الأموال : مقابلة مع المؤلف .

(١١) مقولة ميلكن عن الرأسمال البشرى : مقابلة المؤلف معه . ص ١١٧ .

الفصل التاسع

معركة الخزانة المسجلة

(١) بالنسبة للمنافســة بين شركتى بيــك وجيــليت : مقابــلات المــؤلف مع (Tom Johnson) مدير البحوث بمؤسسة (Nolan Norton & Co.) للاستشارات ·
وكذلك التقرير السنوى لشركة جيليت لعام ١٩٨٨ و [١٣٦] ص ٦٩ـ٧٣ · ص ١٢٢ ·

(٢) عن التسويق فى شركة جيليت : مقابلات المؤلف مع (Tom Johnson)
"Marketing's, New Look" مجلة بيزنس ويك ٢٦ يناير ١٩٨٧ · ص ١٢٣ ·

(٣ـ حول ادخال (رمز المنتجات الموحد) فى متاجر البيع بالتجزئة : مقابلة المؤلف مع (Harold Juckett) ، مدير (Uniform Code Council Inc) وانظر أيضا ·
"UPC History" وهى وثيقة مقدمة من Uniforum Code Council . ص ١٢٥ ·

(٤) البيانات الدولية عن (رمز المنتجات الموحد) مأخوذة من :
(International Article Numbering Association)
ص ١٢٥ ·

(٥) الصراع على رفوف العرض فى متاجر البيع بالتجزئة انظر : "Supermarkets Demand Food Firms Payments Just to Get on the Shelf".
وول ستريت جورنال أول نوفمبر ١٩٨٨ وكذلك "Want Shelf Space at the Super. Market ? Ante Up" بزنيس ويك ٧ اغسطس ١٩٨٩ ، "Stores Ofter Paid to Stock New Items" فى USA Today ٢٦ اغسطس ١٩٨٧ ، ص ١٢٦ ·

(٦) البيانات الخاصة بشركة جيليت واردة فى مقابلة مع (Kavin W. Moody)
المدير العام لنظم المعلومات بشركة جيليت · ص ١٢٦ ·

(٧) عن النماذج الاعلاماتية التى يستخدمها تجار التجزئة : مقابلات مع :
(Tom Johnson) مدير البحوث فى مؤسسة (Nolan Norton & Co) للاستشارات
وكذلك "At Today's Supermarket, The Computer is Doing it All"
بزينس ويك ١١ اغسطس ١٩٨٦ · ص ١٢٧ ·

(٨) بشان (Toys-R-US) انظر : "Stores Rushto Automate for the Holidays"
نيويورك تايمز ٢٨ نوفمبر ١٩٨٧ · ص ١٢٧ ـ ١٢٨ ·

(٩) عن سياسات متاجر (وال مارت) مقابلات المؤلف مع (Tom Johnson)
وانظر ايضــا : "Make that Sale, Mr. Sam" مجلة تايم ١٨ مايو ١٩٨٧ · ص ١٢٨

(١٠) مقابلة مع (Max Hopper) نائب مدير شركة (American Airlines) وكذلك [١١٢] ص ٤ ـ ٥ · ص ١٢٩ ·

(١١) المعلومات عن شركة (Marui) اليابانية مأخوذة من [١٦٣] أى من التقرير الذى يحمل عنوان "Automating Distribution : Revolution in Distribution Retailing and Financial Services" وهو اشمل تقرير باللغة الانجليزية عن التقدم اليابانى فى هذه المجالات ، وقد قام بإعداده (Alex Steward) لصالح (Baring Securities) ، لندن ١٩٨٧ · ص ١٣١ ·

(١٢) عن الأرفف الالكترونية : مقابلات المؤلف مع (Tom Johnson) وكذلك "At Today's Supermarket, the Computer Is Doing it All" مجلة بزنيس ويك ١١ اغسطس ١٩٨٦ و "Electronic Prices" بقلم (George Nobbe) فى Omni نوفمبر ١٩٨٧ ، ص ١٣٢ ·

(١٣) عن الرفوف « الاكثر تطورا » : مقابلات المؤلف مع (Tom Johnson) ص ١٣٢ ·

(١٤) تجار التجزئة ، قوة مسيطرة : [١٦٣] · ص ١٣٣ ·

(١٥) التوزيع كنظام معلومات : "Small Stores and Those Who Service Them in Times of Structural Change" فى Japan Times ١٣ يوليو ١٩٨٧ · ص ١٣٣ ·

الفصل العاشر

الذكاء الاضـافى

(١) المعلومات الواردة عن (مورس) ماخوذة من [٥٨٥] ص ١٠٢ ـ ١٠٣ : ص ١٢٥ ٠

(٢) شبكة (ISDN) الخاصة بسلسلة مطاعم ماكدونالدز : انظر اعلان (AT& T) فى مجلة Datamation أول اكتوبر ١٩٨٧ ، ووصف شبكة فولفو موجود فى نفس العدد ٠ ص ١٣٦ ٠

(٣) عن الشبكات الالكترونية فى شركة (Du Pont) و (Sara Lee) انظر ، "When Strategy Meets Technology" بقلم (Therese R Welter) مجلة Industry Week ١٤ ديسمبر ١٩٨٧ ، ص ١٣٦ ٠

(٤) الأرقام الواردة بشأن الكمبيوتر الشخصى ماخوذة من (International Data Corporation) التى تعرف « الكومبيوتر الشخصى » بانه يشمل كل الوحدات الطريفة التى تعمل بنظام (Ms-Dos) اى مايكروسـوفت لتشـغيل الأسـطوانات بـدءا من الوحدات المستخدمة فى الترفيه المحض حتى محطات العمل ، ص ١٣٦ ٠

(٥) عن الايام الأولى لشركة وسترن يونيون : [٤٩٤] وأيضا [٥٨٥] ص ١٠٨ ٠ ص ١٣٧ ٠

(٦) حول المواجهة بين وسترن يونيون وشركة (Art & T) انظر : [٤٩٤] ص ٣٤ ـ ٣٥ ٠ ص ١٣٨ ٠

(٧) عن حصة الولايات المتحدة من الهواتف انظر : "Rewiring the World" مجلة الايكونوميست ١٧ أكتوبر ١٩٨٧ ٠ وأيضا (Anthony Rutkowski) مستشار أول بالاتحاد الدولى للاتصالات السلكية واللاسلكية (جنيف) ٠ ص ١٣٩ ٠

(٨) بشأن تفكك شركة الهاتف الامريكية (AT & T) : [١٦٤] ص XXIII - XXII . ص ١٤٠ ٠

(٩) عن الشبكات « العصبية » : "Government Researchers Work to Nail Down Building Blocks for Neural Networks" فى (Defense News) ١١ يناير ١٩٨٨ ٠ ص ١٤٣ ٠

(١٠) بشأن شبكة مينيتل : انظر(Teletel News Letter No 5) حقائق وارقام عام ١٩٨٩ ، مؤسسة (France Telecom) ـ باريس و (Teletel Newsletter No 2) الطبعة الدولية و "France Hooked on Minitel" فاينانشيال تايمز ١٣ ديسمبر ١٩٨٩ • ايضا المقابلات مع (Manuel Barbero) مؤسسة فرانس تليكوم انترناشيونال (نيويورك) و (Olivier Duval) دراسات النظم والبرامج الاعلاماتية (باريس) و [٥٠١]٠ ص ١٤٥ •

(١١) نظام سابر (Sabre) : مقابلة مع (Max Hopper) النائب الأول لرئيس شركة (American Airlines) ، ص ١٤٦ •

(١٢) عن شبكات القيمة المضافة (VAN) انظر : "Rewiring the World" مجلة الايكونوميست ١٧ اكتوبر ١٩٨٧ و "Competition Endangering Small VAN Operators" فى Japan Economic Journal ، ٢ ابريل ١٩٨٨ • ص ١٤٧ •

الفصل الحادى عشر

سلطة الشبكة

(١) عن شركة التأمين اليابانية (Nippon life) انظر : "Networking Global Finance" مجلة بزنيس طوكيو ، مايو ١٩٧٧ ، وكذلك "Japanese Networks Expand After Deregulation" مجلة Datamation بقلم (Robert Poe) اول نوفمبر ١٩٨٧ · ص ١٥٠ ·

(٢) بشأن داى ايتش (Dai Tchi) وميجى (Meiji) للتأمين : "Japanese Networks Expand After Deregulation" بقلم (Robert Poe) فى مجلة Datamation اول نوفمبر ١٩٨٧ · ص ١٥٠ ·

(٣) عن شركة بيرلينجتون انظر [٥٠٥] ص ٤٩ · ص ١٥٠ ·

(٤) حول الشبكات الخاصة بصناعة السيارات "Electronic Data Interchange Aleap of Faith" بقلم (Neal E. Boudette) فى مجلة Industry week ٧ اغسطس ١٩٨٩ ، وكذلك "Auto ID & EDI ; Managing in the go" فى مجلة Industry Week ٢٤ اغسطس ١٩٨٩ · ص ١٥١ ·

(٥) حول الشبكات الالكترونية لشركة شيسايدو (Shiseido) اليابانية : [١٦٣] ص ١٠ · ص ١٥٢ ·

(٦) عن التأثيرات على تجار الجملة : مقابلة مع (Monroe Greenstein) فى مؤسسة (Bear, Streans and Co., Inc) نيويورك وكذلك [١٦٣] ص ١٠ــ١٣ · ص ١٥٢ ·

(٧) حول شبكات المستشفيات والصيدليات انظر : "Origin of the Species" بقلم (P. Gralla) فى مجلة CIO يناير/فبراير ١٩٨٨ ، وكذلك [١١٢] ص ٤٦ ــ ٤٩ · ص ١٥٢ ــ ١٥٣ ·

(٨) عن شركات النقل اليابانية : [١٦٣] ص ٩ ، ١٢ ، ١٣ ، ٢٣ · ص ١٥٤ ·

(٩) عن شبكة صناعة النفط اليابانية : "MITI to Establish Oil Information Network" فى Japan Economic Journal ٢٦ ديسمبر ١٩٨٧ · ص ١٥٤ ·

(١٠) شبكة صناعة الصوف : "Woolcom Move in Paperless Trading "Predatory Pricing" وكذلك "Push for Closer Links" فى فايناشيال ريفيو (سيدنى) ٤ سبتمبر ١٩٨٩ · ص ١٥٤ ــ ص ١٥٥ ·

(١١) عن صناعة النسيج والملابس الامريكية انظر : "Spreading the Bar Code Gospel" فى مجلة women's wear Daily سبتمبر ١٩٨٦ و "Auto ID & EDI Managing in the go's" فى مجلة Industry Week ٢٤ اغسطس ١٩٨٩ وكذلك "Apparel Makers Shift Tactics" نيويورك تايمز ٢١ سبتمبر ١٩٨٧ · ص ١٥٥

(١٢) المعركة بين (AT & T) و (KDD) وبريتيش تليكوم : "A Scramble for Global Networks" بزنيس ويك ٢١ مارس ١٩٨٨ · ص ١٥٦ ·

(١٣) حول الخدمات الالكترونية لشركة جنرال الكتريك : انظر : "Messenger of the Gods" بقلم (Alyssa A. Lappen) مجلة فوربس ٢١ مارس ١٩٨٨ ، أيضا "Fast Forward" بقلم (Curtis Bill Pepper) مجلة Business Month فبراير ١٩٨٩ · ص ١٥٦ ·

(١٤) عن بطاقة الائتمان الخاصة بصالونات التجميل : "NTT Data to Provide Telecom VAN Service" فى Japan Economic Journal أول أبريل ١٩٨٩ · ص ١٥٧ ·

(١٥) عن حساب ادارة النقد فى مؤسسة (Merrill Lynch) : [١١٢] ص ٩٧ · ص ١٥٨ ·

(١٦) آلات صرف النقود فى متاجر سايبو اليابانية : [١٦٣] ص ٧٥ · ص ١٥٩ ·

(١٧) عن بريتش بتروليوم : [١١٢] ص ٩٢ · ص ١٥٩ ·

الفصل الثاني عشر

اتساع الصراع

(١) التليفزيون ذو الوضوحية العالية : « اقامة كونسورتيوم من أجل التليفزيون الجديد » "Consortium Set Up for New TV". نيويورك تايمز ، ٢٦ يناير ١٩٩٠ ، و« عندما تتكلم أوروبا تضبط اليابان أجهزة استقبالها "Japan Tunes In While Europe talks" فايناشيال تايمز ، ٢١ ابريل ١٩٨٨ · ص ١٦٣ ·

(٢) مقولة ليفين : « الشبكات تستحث الانتقال البطيء نحو نظام صورة تليفزيونية أكثر نقاء ووضوحا · "Networks urggeslow shift to sharper TV picture system لوس أنجلوس تايمز ، ٢٤ يونية ١٩٨٨ · ص ١٦٤ ·

(٣) حول السمات التقنية للصراع من أجل الحصول على التليفزيون ذى الوضوحية العالية : « مطاردة اليابان فى سباق التليفزيون ذى الوضوحية العالية » · "Chasing Japan in the HDTV Race" لرونالد كيه جورجين IEEE Spectrum أكتوبر ١٩٨٩ · وراجع أيضا « نظام تليفزيون الغد » ، French Advances in Technology and Science. شتاء ١٩٨٧ · ص ١٦٤ ·

(٤) وجهة نظر الأوربيين حول التليفزيون ذى الوضوحية العالية : « حرب المعايير » لومند ديبلوماتيك (باريس) سبتمبر ١٩٨٧ ، و « صناع التليفزيون يقبلون التحدى اليابانى » "TV MAKERS Take on Japanese" فايننشيال تايمز ، ٢٧ يناير ١٩٨٨ · راجع أيضا « حرب الوضوحية العالية » "High-Definition war" لجون بويد ، بيزنس طوكيو ، مايو ١٩٨٨ · ص ١٦٤ ـ ١٦٥ ·

(٥) حول الطريقة التى يتودد بها الأوربيون الى الولايات المتحدة من أجل أن تتحالف معهم ضد المعايير اليابانية اليابانية : « بون تدعو لجهد أمريكى ـ أوربى مشترك فى سباق تكنولوجيا التليفزيون » · "Bonn Calls for Joint US-Europe Effort in TV Technology Race". فايننشيال تايمز ، ١٦ مايو ١٩٨٩ · ص ١٦٥ ·

(٦) حول النماذج المختلفة على امتداد العالم : « الشركات مستعدة لمواجهة أى تصميم للتليفزيون ذى الوضوحية العالية » · "Firms are Ready to Meet Any HDTV Format" ، ٢٢ أكتوبر ١٩٨٨ ,Japan Economic Journal و « عندما تتكلم أوروبا تضبط اليابان أجهزة استقبالها » "Japan Tunes in While Europe Talks" فايننشيال تايمز ، ٢١ ابريل ١٩٨٨ · ص ١٦٥ ·

(٧) مقولة ماركى : « الشبكات تستحث الانتقال البطىء نحو نظام صور تليفزيونية اكثر نقاء ووضوحا · "Networks Urge Slow Shift to Sharper TV Picture System" لوس أنجلوس تايمز ٢٤ يونية ١٩٨٨ ·

(٨) قدرة آى·بى·ام المبكرة على فرض النظام فى صناعة الكمبيوتر : « الحياة مع فوضى الكمبيوتر » "Living With Computer Anarchy" لناوا كوتارو ، Japan Echo (طوكيو) (عدد خاص ، ١٩٨٦) ، ص ١٦٦ ·

(٩) فيما يتعلق بمعايير البرامج المعلوماتية ADA : راجع أعداد Defense Science . ص ١٦٦ ·

(١٠) حول معركة يونيكس : « الشجار حول معايير الكومبيوتر قد يكلف غاليا كلا من الصناع والمستخدمين » · "Computer Standards Row May Be Costly for Makers and Users" فايننشيال تايمز ، ٢٣ يناير ١٩٨٩ ، و « تتزايد الآمال فى معيار عالى للكمبيوتر » · "Hopes Rise for world Computer Standard" فايننشيال تايمز ، ١٢ يوليو ١٩٨٨ ، و "Standards by fiat" لاستير دايسون ، فوربس ، ١١ يوليو ١٩٨٨ ، و "Apollo Aims for Eclipse of the Sun" فايننشيال تايمز ١٢ يوليو ١٩٨٨ ، وكذلك "OSF à la Vitesse Mach" لباتريس آرون وجى هيرفييه 01 Informatique لباركر هودجز ، داتاميشن ، ١٥ نوفمبر

(١١) مؤسسة من أجل البرامج الاعلاماتية المفتوحة : "OSF à la Vitesse Mach" لباتريس آرون وجى هيرفييه ، 01 Informatique (باريس) ٢٤ نوفمبر ١٩٨٩ ، و "Computer Gangs Stake out Turf" نيويورك تايمز ، ١٣ ديسمبر ١٩٨٨ ، و "Apolo Aims for Eclipse of the Sun" فايننشيال تايمز ، ١٢ يوليو ١٩٨٨ ، "Standards by Fiat" لاستر دايو ، فوربس ، ١١ يوليو ١٩٨٨ · وكذلك « قوة وقدرة معايير الكمبيوتر» "The Power and Potential of Computing Standards" فايننشيال تايمز ، ٢٦ مايو ١٩٨٨ · ص ١٦٨ ·

(١٢) معركة جنرال موتورز لفرض معيارها : « مشكلة التصنيع الاتوماتيكى » "Manufacturing Automation's Problem" لباركر هودجز ، داتاميشن ، ١٥ نوفمبر ١٩٨٩ · ص ١٦٨ ·

(١٣) معايير آى·بى·ام للاتصالات بين أجهزة الكمبيوتر : « اليابان تتحول الى شبكات الكمبيوتر » "Japan Shifts on Computer Networks" نيويورك تايمز ، ٢٢ اكتوبر ١٩٨٨ ، « آى·بى·ام أوروبا تساند لغة كمبيوتر مدفوعة من منافسيها » · "IBM Europe Backs a Computer Language Pushed by Its Rivals" وول ستريت جورنال ، ٢ مايو ١٩٨٦ · ص ١٦٩ ·

(١٤) معركة ربط وتوصيل النظم المفتوحة : « أى·بى·ام · أوروبا تساند لغة كمبيوتر مدفوعة من منافسيها » "IBM Europe Backs a Computer Language Pushed by it's : Rivals" وول ستريت جورنال ، ٢ مايو ١٩٨٦ ·
و « اعلاماتية : فشل أى·بى·ام » لومند ديبلوماتيك (باريس) سبتمبر ١٩٨٧ · ص ١٧٠ ·

(١٥) الولايات المتحدة تحتج ضد المعايير الأوربية : حديث دونالد · اس · ابيلسون ، مدير العراقيل التقنية للتجارة ، مكتب ممثل التجارة الامريكية ، وكذلك ملاحظاته على « وجهة نظر الحكومة الامريكية عن السياسة التجارية المعاصرة » أمام الجمعية العامة للجمعية الفرنسية للمعايرة (AFNOR) (باريس) ٢٤ أبريل ١٩٨٦ · ص ١٧١ ·

(١٦) المعايير ، عائق للتجارة : « ألمانيا الغربية تتراجع عن موقفها حول نقاء النقانق » "West Germany Climbs down over Purity of Sausages" فايننشيال تايمز ١٨ يناير ١٩٨٨ · وراجع كذلك حديث ابيلسون المذكور عاليه · ص ١٧٢ ·

(١٧) راجع المقال الثاقب ليسين : « فى قلب الاستراتيجيات الصناعية » لوموند ديبلوماتيك (باريس) سبتمبر ١٩٨٧ · ص ١٧٣ ·

الفصل الثالث عشر

شرطة أفكار الـكوادر

(١) المواصفات الخاصة « بمديرى المعلومات » مأخوذة من دراسة قام ليومكريرى بعرضها فى سبتمبر ١٩٨٩ "CIO's in the Spotlight", CID, ، ص ١٧٥ ـ ١٧٦ ·

(٢) ريان وشيفر وجونسون : « طريق الهجرة » "Migration Path" لكاتلين ميليموكا ، CIO سبتمبر ١٩٨٩ · ص ١٧٥ ـ ١٧٦ ·

(٣) مبيعات تكنولوجيات المعلومات : "Charting the Champs" لباركر هودجز ، و "At the Top of the IS Peak" داتاميشن ، ١٥ يونية ١٩٨٨ ، ص ١٧٧ · ١٩٨٨ ·

(٤) صراع ميريـل لينـش : حـديث جيرالد·اتش·ايلى نائب رئيس ميريـل لينش · ص ١٧٨ ·

(٥) فيما يتعلق ببنك أوف أمريكا : « بنك أوف أمريكا يحصى المزيد من المتاعب » · "Bank America IS Computing More Trouble' امريكن بانكر (American Banker) ١٦ يوليو ١٩٨٧ ، « خطط بنـك أوف أمريكا الخاصة بالكمبيوتر لم تضف شيئا "Bank of Americas is Plans for Computer لوس انجلوس تايمز ، ٧ فبراير ١٩٨٨ "Don't ADD Up » وتؤكد مصادر أن بنك أوف أمريكا اقال اثنين من مسئوليه » وول ستريت جورنال ، ٢٢ اكتوبر ١٩٨٧ · ص ١٨٠ ·

(٦) خفض حجم أجهزة الكمبيوتر : مقولة كلاين مأخوذة من « حبيبى ، لقد جعلت جهاز الكمبيوتر الرئيسى ينكمش ! » "Haney, I Shrunk the Main Frame !" لكاثلين ميليموكا ، مجلة CIO ، سبتمبر ١٩٨٩ · ص ١٨٤ ·

(٧) مقولة جاسمان مأخوذة من « سياسات الادارة بالشبكة "The Politics of Network Management" لسوزان كير ، داتاميشن ، ١٥ سبتمبر ١٩٨٨ · ص ١٨٤ ·

الفصل الرابع عشر

الحرب الشاملة للمعلومات

(١) التجسس فى تكساس انسترومنت : « قضية أسرار الوحدة الطرفية » "The case of the Terminal Secrets" لسكيب هولندزورث ، مجلة D ، نوفمبر ١٩٨٦ . ص ١٨٩ ــ ص ١٩١ .

(٢) فولستاين : « جريمة الاتصالات اللاسلكية » "Telecommunication Crime" لنات ويبر ، Across the Board ، فبراير ١٩٨٦ . ص ١٩١ .

(٣) « خلق رقيقة الكترونية » : [٤٠٩] صفحة ٥٠ . ص ١٩٢ .

(٤) زيروكس : « يتطفل جواسيس الشركة لتحقيق النصر » "Corporate Spies Snoop to Conquer" لبريان دومان ، فورتشن ، ٧ نوفمبر ١٩٨٨ . ص ١٩٢ .

(٥) المنتجات الخدمية : "Reverse Engineering a Service Product" لروبرت ·أى· شميدت ، Planning Review سبتمبر ــ اكتوبر ١٩٨٧ . ص ١٩٢ .

(٦) حول الجواسيس لكل الوقت : « جورج سميلى ينضم للشركة » "George Smiley Joins the Firms" نيوزويك ، ٢ مايو ١٩٨٨ . ص ١٩٢ .

(٧) جمعية محترفى الاستخبار التنافسى : « خبراء الاسـتخبارات للشركات » "Intelligence Experts for Corporations" نيويورك تايمز ، ٢٧ سبتمبر ١٩٨٨ . ص ١٩٢ .

(٨) جواسيس ماريوت : « يتطفل جواسيس الشركة لتحقيق النصر » : "Corporate Spies Snoop to Conquer" لبريان دومان ، فورتشن ، ٧ نوفمبر ١٩٨٨

(٩) حالة "Sheller-Globe : « ازالة غموض التحليل التنافسى » "Demystifying Competitive Analysis" لدانيال ·س· سميث وجون ·أى· بريسكوت ، Planning Review ، سبتمبر ــ أكتوبر ١٩٨٧ . ص ١٩٣ .

(١٠) فضيحة موردى العتاد العسكرى : « تحقيق فى البنتاجون حول قضية التدليس : ما هو معروف حتى الآن » "Pentagon Fraud Inquiry : What is known to Date" نيويورك تايمز ، ٧ يوليو ١٩٨٨ .

وكذلك « البنتاجون يوقف دفع ١١ مليار دولار قيمة العقود » "Pentagon Halts Pay on $ 11 Billion in Contracts" لوس انجلوس تايمز ، ٢ يوليو ١٩٨٨ . و «البنتاجون معروض للبيع» "The Pentagon Up For Sale" تايم، ٢٧ يونية ١٩٨٨ . ص ١٩٣ ــ ص ١٩٤ .

(١١) « كل الوسائل طيبة » : "Never Mind MIS ; Constder M 15", L.B.C.
بيزنس منث Business Month ، فبراير ١٩٨٩ · ص ١٩٤ ·

(١٢) جنرال اليكتريك : « الاستمرار فى مراقبة المنافسين مراقبة شديدة »
"Keeping Tabs on Competitors" نيويورك تايمز ، ٢٨ أكتوبر ١٩٨٥ · ص ١٩٦

(١٣) حول الجواسيس المعلوماتيين لألمانيا الغربية :
"Byteman Blows the Whistle on the Sysop Cops"
لوس انجلوس تايمز بوك ريفيو ، ١٩ نوفمبر ١٩٨٩ · وكذلك « البحث عن حماية لنظم الكمبيوتر من الدخلاء »
"The Quest for Intruder — Proof Computer Systems"
لكارين فيتزجيرالد IEEE Spectrum, ، اغسطس ١٩٨٩ ·

(١٤) طلبيات زائفة فى أجهزة كمبيوتر منافس : « نماذج جرائم الكمبيوتر : خلال العشرين عاما الأخيرة (١٩٩٠ ــ ٢٠١٠) » ·
"Computer Crime Patterns : The Last 20 Years (1990-2010"
لجوزيف · أف·كويتس·داتاميشن ، ١٥ سبتمبر ١٩٨٧ ، ص ١٩٩ ·

(١٥) تكنولوجيات الدفاع : « البحث عن حماية لنظم الكمبيوتر من الدخلاء »
"The Quest for Intruder-Proof Computer Systems"
لكارين فيتزجيرالد IEEE Spectrum ، اغسطس ١٩٨٩ · ص ١٩٩ ·

الفصل الخامس عشر

نهـاية الحويصـلات

(١) « البحث السرى » لدى توشيبا وتاندم :
« الشركات تحاول أن تجعل هياكلها مرنة » "Firms Try to Make Corporate Structure Flexible", Japan Economic Journal ٢٧ فبراير ١٩٨٨ . ص ٢٠٤ .

(٢) حول استحالة وصف النظام السارى فى البنتاجون "Entities of Democracy" (مأخوذة من خطاب لوزير البحرية جون٠اف٠لهمان فى مأدبة أقيمت بمناسبة معرض البحر ـ الجو ـ الفضاء فى ٣ أبريل ١٩٨٥) ، نيويورك تايمز ، ٦ أبريل ١٩٨٥ . ص ٢٠٥ .

(٣) كارثة بوبال : « بوبال : مأساة فى حالة انتظار "Bhopal : A Tragedy in Waiting" لجارى ستيكس IEEE Spectrum يونية ١٩٨٩ . ص ٢٠٧ .

(٤) شيكولاتة مسممة : « حلوى ذات نكهة مميتة "Candy with a Deadly Taste" لبيتر مكجيل ، MacLean's (تورنتو) ، ٢٢ أكتوبر ١٩٨٤ . ص ٢٠٧ .

(٥) انهيار البورصة عام ١٩٨٩ : « مؤشر داو جونز ينخفض ١٩٠ نقطة ، حوالى ٧٪ فى عملية بيع تصـفية تمت مؤخرا ، وتضرب عروض البيع العلنية بقســوة » . "The Dow Plunges 190 Points, About 7٪ in a Late Selloff ; Take over Stocks Hit Hard" نيويورك تايمز ، ١٤ أكتوبر ١٩٨٩ . ص ٢٠٧ .

(٦) نظم البيانات غير المتسلسلة هرميا : « الشركات تحاول كسب أفضلية عن طريق السيطرة السريعة على البيانات » "Firms Seeks to Gain Edge With Swift Grip on Data" لايفى شميركن ، Wall Street Computer Review يوليو ١٩٨٧ . ص ٢١٤ .

(٧) الوسائط المتعددة : حديث مع بيل اتكينسون ، مخترع الهايبر كارد . وكذلك « حوار بيل اتكينسون » : [٤٩٣] صفحات XXI الى XXXII وصفحات ١ الى ١٤ ، ص ٢١٥ .

الفصل السادس عشر

الشركة المرنة

(١) « المعجزة الايطالية » : "A Pattern of "Putting out"
فايننشيال تايمز ، ٧ مارس ١٩٨٩ · و « فى ايطاليا ، نهضة صناعية تزدهر » ، كريستيان ساينس مونيتر ، ابريل ١٩٨٧ · ص ٢٢٠ ·

(٢) تجدد الاهتمام بالشركات الأسرية : « الأعمال الأسرية : سوق ساخنة » "Family Busines : A Hot Market" لشارون نلتون ، Nation's Business سبتمبر ١٩٨٨ · ص ٢٢٠ ·

وحول وجهة نظر مختلفة : « افول امبراطورية الأسرة » "The Decline of the Family Empire", (مونج كونج) World Executive Digest يوليو ١٩٨٧ · ص ٢٢١ ·

(٣) موقف الجماعة الاوربية : « لم يعد الصغير جميلا عندما يكون وحده » "Small IS No Longer Beautiful When It's Alone" فاينتشيال تايمز ، ٤ يوليو ١٩٨٨ ص ٢٢١ ·

(٤) ديناميكية الشركات الصغيرة : « هل شركتك كبيرة جدا ؟ » "Is Your Company Too Big ?" بيزنس ويك ، ٢٧ مارس ١٩٨٩ · وستجد مثالا للطريقة التى يمكن للتكنولوجيا الجديدة أن تكون مساعدا فى « الافضل أن يكون عدد المهندسين لكل مشروع اقل »
"The Fewer Engineers per Project, the Better", IEEE Spectrum, لـ س· جوردن· بل ، فبراير ١٩٨٩ · ص ٢٢٢ ·

(٥) مقولة بوفيجسيل (Povejsil) : « استراتيجية الشركة فى التسعينات » "Corporate Strategy for the 1990's" لوالتر كيشل III ، فورتشن ، ٢٩ فبراير ١٩٨٨ · ص ٢٢٢ ·

(٦) اكتشاف وسائل الاعلام لمرونة الشركات : "A Glimpse of the "Flex" Future" نيوزويك ، أول اغسطس ١٩٨٨ · ص ٢٢٤

(٧) دورات الميلاد والموت فى الشركات : « تغيير سلوك الشركة : ١ ــ التنوع » "Changing Corporate Behavior : 1, Diversification" صيف ١٩٨٨ Japan Economic Journal, ص ٢٦٦ ·

(٨) جيبسون من هيوليت ــ باكارد : "At Seatrain, The Buck Stops Here ... and here, Too" لوليم· اتش· ميللر ، اندسترى ويك ، ٧ مارس ١٩٨٨ · ص ٢٨٨ ·

(٩) افكار سعيد عن العلاقة بين تنظيم العمل والحياة الأسرية ماخوذة من كتابه المنشط للقدرات الذهنية [١٥١] صفحة ٥٣ · ص ٢٣٠ ·

الفصل السابع عشر

زعماء القبيلة و « مفوضو » الشركة

(١) التعداد كتنظيم « نابض » : حديث لورى كاجل ، خدمة التعداد فى الولايات المتحدة ، و « مكتب الاحصاء السكانى يتدافع لشغل وظائف هنا » . "Census Bureau Scrambling to Fill Job Here" لادم لاشينسكى ، كرينز شيكاغو بيزنيس ، (Grain's Chicago Business) ١٩ مارس ١٩٩٠ . ص ٢٣٣ .

(٢) مثال الـ SAS ماخوذ من [٢٧٩] صفحة ٢٤ . ص ٢٣٥ .

(٣) دافيد ستيرلينج والوحدة المتكونة من أربعة رجال : [٢٦٧] الصفحات ٢ـ٣ و ٧ـ٨ . ص ٢٣٥ .

(٤) ساوثرن كاليفورنيا اديسون : « نظم المعلومات لأزمات الادارة » . "Information Systems for Crisis Management" لتوماس . جيه . هوسل وعمر الصاوى وبول اف . دونوفان ، Mis Quarterly ، الجزء ١٩ العدد ٤ ديسمبر ١٩٨٦ . ص ٢٣٦ .

(٥) بنك كونتيننتال الينوى وايه . اتش روبينز : [١٣٢] صفحات ٢٢ و ٢٣ ، ص ٢٣٦ .

(٦) التنظيم النمساوى على شكل رقعة الضامة : "Austria's Jobs Carve - Up Keeps Bank Post Vacant, فايننانشيال تايمز ، ٧ يوليو ١٩٨٨ . ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧ .

(٧) فيما يتعلق بالفرق البرية : « لعبة تنمية المنتج الجديد ، "The New Product Development Game" لهيروتاكا تاكيوشى واكوجيرو نوناكا ، Harvard Busines Review ، يناير ـ فبراير ١٩٨٦ . ص ٢٣٩ .

(٨) الفرق العفوية (الذاتية) : حديث دافيد ستون ، شركة ديجيتال ايكويبمنت (جنيف) . ص ٢٤١ .

(٩) شركة كورنينج : « لقد ولى عصر التسلسل الهرمى » "The Age of the Hierarchy is Over" نيويورك تايمز ، ٢٤ سبتمبر ١٩٨٩ . ص ٢٤٤ .

(١٠) فيما يتعلق بـ Netmap : "A Business Profile" نشرة Netmap
واعادة تشكيل الشركة بواسطة الكمبيوتر "Corporation Reshaped by Computer"
نيويورك تايمز ، ٧ يناير ١٩٨٧ ، وكذلك ملاحظات Les Berkes ، نائب رئيس
Netmap ، أثناء ندوة Nolan and Norton في ٢٠ نوفمبر ١٩٨٧ بنيويورك.
ص ٢٤٤ .

(١١) حول تفكير عن الشبكات : « الشبكة كبديل » "Network Alternative"
اقتراح لانطوني . جيه . ان . جادج . من اتحاد الجمعيات الدولية (بروكسل) .
كما سنجد مصفوفة جادج ، التى توضح الشبكات الدولية على محور وعلى المحور الآخر
المشكلات العالمية فى كتاب : "Year Book of World Problems and Human
Potential" الصادر فى عام ١٩٧٦ عن المنظمة المذكورة اعلاه . ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥ .

الفصل الثامن عشر

العامل المستقل

(١) مصنع جنرال اليكتريك : « آلات ذكية وعمال أذكياء » "Smart Machines, Smart Workers" نيويورك تايمز ، ١٧ أكتوبر ١٩٨٨ · ص ٢٤٩ ·

(٢) فورد ــ استراليا : "Bringing More Brain Power to Bear" فاينانشيال تايمز ، ٢٣ مارس ١٩٨٨ · ص ٢٥٠ ·

(٣) كرايزلر ــ ميتسوبيشى ومازدا :
« كيف تختار الشركة اليابانية العاملين الأمريكيين لديها ؟ » "How Does Japan Inc. Pick Its American Workers ?" بيزنس ويك ، ٣ اكتوبر ١٩٨٨ · ص ٢٥٠ ·

(٤) الاستخدام التعسفى لأجهزة الكمبيوتر :
« يقول التقرير ان أجهزة الكمبيوتر تتجسس على ٧ ملايين عامل فى الولايات المتحدة » "Report Says Computers Spy On 7 Million Workers in U.S." نيويورك تايمز ، ٢٨ سبتمبر ١٩٨٨ · ص ٢٥٣ ــ ٢٥٤ ·

(٥) انفصال الفكر عن العقل : « السلوك التنظيمى اليابانى » ·
"Japanese Organizational Behavior" لتيرويا ناجو : [١٣٥] صفحة ٣٤ · ص ٢٥٥ ·

(٦) مقولة هويت مأخوذة من تقرير خاص · "Getting Set for Implementation" لتيريز · آر · ولتر ، اندسترى ويك ، ٢ نوفمبر ١٩٨٧ · ص ٢٥٥ ·

(٧) مقولة Mohn مأخوذة من المخطوط الأصلى [١٣٤] ·
بالنسبة لوجهة النظر الأوربية ، راجع « اعادة اكتشاف » رأس المال الانسانى » لومند (باريس) ، ٥ أكتوبر ١٩٨٨ · حول وجهة نظر شباب العاملين : « ما يعتقده الشباب » لروزلين بوش ، لوبوان (باريس) ، ١٦ يونية ١٩٨٧ ، و « الأسر اصبحت أكثر أهمية » ، بيزنس طوكيو ، مايو ١٩٨٨ · ص ٢٥٦ ·

(٨) جين كورب أوتوموتيف : "The (New) Flat Society Gathers in Shelbyville" لبيران موســكال ، اندسترى ويك ، ٢ أكتوبر ١٩٨٩ · ص ٢٥٦ ·

(٩) مقولة Ware مأخوذة من لقاء له مع الكاتب · ص ٢٥٧ ·

(١٠) مقولة Stone مأخوذة من لقاء له مع الكاتب · ص ٢٥٨ ·

(١١) براذر اندستريز : « الابداع فى اليابان : بعض الملاحظات الأولية » ·
"Creativity in Japan : Some Initial Observations"
للدكتور نيجل هولدن « Cteativity and Innovation أبريل ـ يونية ١٩٨٦ · ص ٢٥٩ ·

(١٢) حول انحسار السلطة فى الورش : « لماذا يقاوم المديرون الآلات » ·
"Why Managers Resist Machines"
نيويورك تايمز ، ٧ فبراير ١٩٨٨ · راجع أيضا [١٦٩] لدراسة عن التعقيدات التى أدخلت مع التكنولوجيا الاعلاماتية الجديدة · ص ٢٦٠ ·

(١٣) نموذج العلاقات الانسانية : « السلوك التنظيمى اليابانى » · "Japanese Organizational Behavior" لتيرويا ناجاو : [١٣٥٦ ، صفحة ٢٧ · ص ٢٦١ ·

الفصل التاسع عشر

فسيفساء السلطة

(١) عن عمليات الشراء والاندماج : [٧٣] ص ١١ ـ ١٥ ٠ ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤ ٠

(٢) حول عمليات الاستغناء عن العاملين : "General Semantics as a Diagnostic Tool in the Management of Radical Work force Reduction" بقلم (Harold Oaklander) اثناء انعقاد المؤتمر الخمسيني لمعهد (General Semantics) بجامعة بيل ٢٨ يوليو ١٩٨٨ ٠ ص ٢٦٨ ٠

(٣) عن نظام Profs لـ اى٠بى٠ام ٠ راجع العلاقات العامة بشركة اى٠بى٠ام فى (Armonk) ولاية نيويورك ٠ ص ٢٦٩ ٠

(٤) حول التكامل الرأسى فى صناعة النفط : [١٠١] ، ص ٣ـ٧ ٠ ص ٢٧٠ ٠

(٥) حول التكامل الرأسى فى صناعة الصلب : [٤٤] ، ص ١١٤ـ١١٥ وص ١٢٦ـ١٢٩٠ ص ٢٧٠ ٠

(٦) بشأن عمليات الشحن الجوى انظر : "Pan American World Airways to Contract out All Belly Freight Space on Transcontintal Flights" فى (Journal of Commerce) اول نوفمبر ١٩٨٥ ٠ ص ٢٧٠ ٠

(٧) حول زيادة نصيب « المصادر الخارجية » لدى جنرال موتورز وفورد انظر : "Original Auto Parts Will Grow 2.3%" فى Metalworking News ٢٧ أغسطس ١٩٨٧ ٠ ص ٢٧٠ ٠

(٨) عن مقال الرابطة الأمريكية للادارة حول التكامل الرأسى فى الشركات : "Vertical Integration of Multinationals Becomes Obsolete" فى مجلة Management Today يونية ١٩٨٦ ٠ ص ٢٧٠ ٠

(٩) صناعة الرقائق الالكترونية لدى اى٠بى٠ام ٠ "How the Computer Companies Lost Their Memories" بقلم (George Gilder) مجلة فوربس ١٣ يونيو ١٩٨٨ ٠ ص ٢٧١ ٠

(١٠) عن التحقيق الذى أجراه معهد ماساشوسيتس للتكنولوجيا راجع : "Electronic Markets and Electronic Hierachies : Effects of Information Technology on Market Structures and Corporate Strategies" بقلم (Robert I. Benjamin) و (Thomas W. Malone) و (Joanne Yates) فى (Sloan School of Management) بمعهد ماساشوسيش للتكنولوجيا ، ابريل ١٩٨٦ ٠ ص ٢٧١ ٠

(١١) عن الشركات الصغيرة فى الولايات المتحدة : "The Inc 100" مجلة Inc مايو ١٩٨٩ · ص ٢٧٢ ·

(١٢) عن الأنواع المختلفة للكونسورنيوم الثلاثى الأضلاع : [٣٢٢] ص ٨٩ · ص ٢٧٣·

(١٣) اقوال Lamborghini مأخوذة من الورقة التى قدمها فى مؤتمر International Management Institute/European Foundation for Management Development
المنعقد فى بروكسل فى الفترة من ٤ الى ٥ يونية ١٩٨٧ وكانت هذه الورقة بعنوان : "Technological Change and Strategic Alliances"
ص ٢٧٣ ·

(١٤) البيانات الخاصة بمطار أطلنطا مأخوذة من تقرير "Hartsfield Atlanta International Airport Economic Impact Report" لعام ١٩٨٧ وهو التقرير الذى أعد بناء على بيانات واردة من (Deloitte, Haskin & Sells) و (Martin, Murphy, Harps, Syphoe) لصالح ادارة الطيران المدنى فى مدينة أطلانطا وكذلك من "Fact Sheet" من مكتب مدير المطار · ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤ ·

(١٥) مقولة جون Sculley مأخوذة من [١٥٤] ص ٩٦ـ٩٧ · ص ٢٧٥ ·

(١٦) عن علاقات شركة ماتسوشيتا بمورديها راجع : "Manufacturing Innovations Save Shitauke" فى Japan Economic Journal ١٩ يناير ١٩٨٨ · ص ٢٧٦ ·

(١٧) بشأن مستخدمى IBM انظر : "Council Units Top IBM User Groups" بقلم (Paul Tate) فى مجلة Datamation ١٥ سبتمبر ١٩٨٧ · ص ٢٧٧ ·

(١٨) بشأن مستخدمى (VAX) و (Lotus) انظر : "The Number of User Group Is Adding Up" بقلم (Judith A. Finn) فى Digital Review ١٨ أبريل ١٩٨٨ · ص ٢٧٧ ·

خاتمــة الكتــاب

النظام الجديد لخلق الثروة

(١) بشأن رقائق الذاكرة الالكترونية الفائقة السرعة التى تعمل بسرعة اثنين على مليار من الثانية : "New Chips Offer the Promise Of Much Speeder Computers" نيويورك تايمز ٤ يناير ١٩٨٩ · ص ٢٨١ ·

(٢) عن الانتاج والاعداد المتلازمين انظر : "Strategic Alliances Make Marketing & Manufacturing an International Game" بقلم (George Weimer) وآخرين ، مجلة Industry Week ٢١ نوفمبر ١٩٨٨ · ص ٢٨٣ ·

(٣) حول نظام « التسليم فى الوقت المحدد » : "Added Value Emanating From Acronyms" فاينانشيال تايمز ١٣ ديسمبر ١٩٨٩ · ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤ ·

(٤) عن فريق شركة موتورولا : "State-of-the-Art CIM in 18 Months ?" بقلم (John H. Sheridan) مجلة Industry Week ٥ ديسمبر ١٩٨٨ · ص ٢٨٤ ·

(٥) عن مزية صناعة السيارات اليابانية انظر : "Time — The Next Source of Competitive Advantage" بقلم (George Stalk) فى Harvard Business Review. يوليو ـ أغسطس ١٩٨٨ · ص ٢٨٥ ·

(٦) بشأن تويوتا والمصرف الذى نجح فى تقليل وقت اتخـاذ قرار الاقراض : "Fast-Cycle Capability for Competitive Power" بقلم (Joseph L. Bower) و (Thomas M. Hout) فى Harvard Business Review نوفمبر ـ ديسمبر ١٩٨٨ · ص ٢٨٥ ·

اقــرأ فى هــذه الســلسلة

أحلام الاعلام وقصص اخرى	برتراند رسل
الالكترونيات والحياة الحديثة	ى · رادونسكايا
نقطـة مقابل نقطـة	الدس هكسـلى
الجغرافيا فى مائة عـام	ت · و · فريمـان
الثقـافة والمجتمـع	رايموند وليـامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ جـ)	ر · ج · فوربس
الأرض الغـامضة	لنزو راى
الرواية الانجليـزية	والتـر الـن
المرشد الى فن المسرح	لويس فارجـاس
آلهـة مصر	فرانسوا دوماس
الانسان المصرى على الشـاشة	د · قدرى حفنى وآخرون
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة	اولج فولكف
الهوية القومية فى السينما العربية	هاشـم النحـاس
مجمـوعات النقـود	ديفيد وليام ماكروال
الموسيقى ـ تعبير نغمى ـ ومنطق	عزيز الشـوان
عصر الرواية ـ مقال فى النوع الأدبى	د · محسن جاسم الموسوى
ديـلان تومـاس	اشراف س · بى · كوكس
الانسان ذلك الكائن الفـريد	جـون لويس
الرواية الحـديثة	بـول لويس
المسرح المصرى المعـاصر	د· عبد المعطي شعراوى
على محمـود طـه	أنـور المعـداوى
القـوة النفسـية للأهرام	بيل شـول وأدنبيت
فـن الترجمـة	د · صـفاء خـلوصى
تولستوى	رالف ئى ماتلـو
سـتندال	فيكتور برومبير

رسائل واحاديث من المنفى	فيكتور هوجو
الجزء والكل (محاورات في مضمار الفيزياء الذرية)	فيرنز هيزنبرج
التراث الغامض ماركس والماركسيون	سدنى هوك
فن الأدب الروائى عند تولستوى	ف · ع · أدنيكوف
ادب الأطفال	هادى نعمان الهيتى
احمد حسن الزيات	د · نعمة رحيم العزاوى
اعلام العرب فى الكيمياء	د · فاضل أحمد الطائى
فكرة المسرح	جلال العشرى
الجحيم	هنرى باربوس
صنع القرار السياسى	السيد عليوه
التطور الحضارى للانسان	جاكوب براونوفسكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال	د · روجر ستروجان
تربية الدواجن	كاتى ثير
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	ا · سبنسر
النحل والطب	د · ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية إزاء مصر ١٨٣٠ ـ ١٩١٤	د · لينوار تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د · جون شندلر
الصحافة	بيير البير
اثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن التشكيلى	د · غبريال وهبة
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها	د · رمسيس عوض
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د · محمد نعمان جلال
الفكر الأوربى الحديث (٤ جـ)	فرانكلين ل · باومر
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥	شوكت الربيعى
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د· محيى الدين احمد حسين

نظريات الفيلم الكبرى	ج · دادلى اندرو
مختارات من الأدب القصصى	جوزيف كونراد
الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد	د · جرهان دروشنر
حـــرب الفضـــاء	طائفة من العلماء الأمريكيين
ادارة الصراعات الدوليـة	د · السـيد عليـوة
الميكروكمبيـــوتر	د · مصطفى عنـانى
مختارات من الأدب اليابانى	مجموعة من الكتاب اليابانيين القدماء والمحدثين
الفكر الأوربى الحديث ٢ ج	فرانكلين ل · باومر
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة	جابرييـــل بايـر
اعلام الفلسفة السـياسية المعاصرة	انطـونى دى كرسبنى
كتـابة السـيناريو للسينما	دوايت ســـوين
الزمن وقيـــاسه	زافيلسـكى ف · س
أجهـزة تكييف الهـــواء	ابراهيم القرضــاوى
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	بيتـــر رواى
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى	جـوزيف داهموس
التجـــربة اليـــونانية	س · م بـورا
مراكز الصناعة فى مصر الاسـلامية	د · عاصم محمد رزق
العـلم والطـلاب والمـدارس	رونالد د · سمبسـون ونورمان د · اندرسون
الشـارع المصرى والفـكر	د · أنور عبـد الملك
حوار حول التنمية الاقتصادية	والت روستو
تبسـيط الكيميـــاء	فريد · هيس
العـادات والتقاليد المصرية	جـون بوركهارت
التـــذوق السـينمائى	آلان كاسبيار
التخطيط السـياحى	سامى عبـد المعطى
البـــذور الكونيـة	فريد هـــويل شاندرا ويكراما ماسينيغ
دراما الشاشة (٢ ج)	حسين حلمى المهندس
الهيـروبين والايـدز	روى روبرتســون
نجيب محفوظ على الشاشـــــــة	هاشـم النحــاس
صـــور افريقيـــة	دوركاس ماكلينتوك

المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لوری
وظائف الأعضاء من الألف الى الياء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
الهندسة الوراثية	ويليام بينز
تربية اسماك الزينة	ديفيد الدرتون
الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)	جمعها : جون ر . بورر وميلتون جولد ينجر
الفكر التاريخى عند الاغريق	أرنولد توينبى
قضايا وملامح الفن التشكيلى	د . صالح رضا
التغذية فى البلدان النامية	م.هـ . كنج وآخرون
بداية بلا نهاية	جورج جاموف
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	د . السيد طه أبو سديرة
حوار حول النظامين الرئيسيين للكون	جاليليو جاليليه
الارهاب	أريك موريس ، آلان هو
اخناتون	سيريل الدريد
القبيلة الثالثة عشرة	آرثر كيستلر
التوافق النفسى	توماس ا . هاريس
الدليل الببليوجرافى	مجموعة من الباحثين
لغة الصورة	روى أرمز
الثورة الاصلاحية فى اليابان	ناجاى متشيو
العالم الثالث غدا	بول هاريسون
الانقراض الكبير	ميكائيل ألبى ، جيمس لفلوك
تاريخ النقود	فيكتور مورجان
التحليل والتوزيع الأوركسترالى	اعداد محمد كمال اسماعيل
الشاهنامة (٢ ج)	الفردوسى الطوسى
الحياة الكريمة (٢ ج)	بيرتون بورتر
كتابة التاريخ فى مصر	جاك كرابس جونيور

عن النقد السينمائي الأمريكي	ادوارد مرى
ترانيم زرادشت	اختيار / د٠ فيليب عطية
السينما العربيــة	اعداد/ مونى براح وآخرون
دليل تنظيم المتــاحف	آدامز فيليب
سقوط المطر وقصص أخــرى	نادين جورديمر
جماليــات فن الاخراج	زيجمونت هبنــر
التاريخ من شتى جوانبه (٣ ج)	ستيفن أوزمنت
الحملة الصليبية الأولى	جوناثان ريلى سميث
التمثيل للسينما والتليفزيون	تونى بار
قيام الدولة العثمانيــة	محمد فؤاد كوبريلى
العثمانيون فى أوربا	بول كولز
الكنائس القبطية القديمة فى مصر (٢ ج)	الفريد ج٠ بتلر
رحلات فارتيما	الحاج يونس المصرى
انهم يصنعون البشر	فانس بكارد
فى النقد السينمائى الفرنسى	اختيار / د٠ رفيق الصبان
الســينما الخيالية	بيتر نيكوللز
الســلطة والفرد	برتراند راســل
الأزهر فى ألف عام	تأليف/ بيارد دودج
رواد الفلسفة الحديثة	ريتشارد شاخت
سفر نامه	ناصر خسرو علوى
مصر الرومانيــة	نفتالى لويس
الاتصــال والهيمنة الثقافية	هربرت شيلر
مختارات من الآداب الأسيوية	اختيار / صبرى الفضل
ما بعــد الحداثة	مارجريت روز
الكاتب الحديث وعالمه ٢ ج	ج٠س٠ فريزر
كتب غيرت الفكر الانسانى (٣ ج)	اعداد/ أحمد محمد الشنوانى
الشموس المتفجرة	اسحق عظيموف

مدخل الى علم اللغة	لوريتــو تود
حديث النهر	اعداد / سوريال عبد الملك
من هم التتــار	د· أبرار كريم الله
ماستريخت	اعداد/ جابر محمد الجزار
معــالم تاريخ الانسانية (٤ ج)	هـ · ج · ولــز
حضــارة الاســلام	جـــرونيبــاوم
الحمــلات الصليبيــة	ستيفن رانسيمان
أفريقيا الطريق الآخر	بادى اونيمود
السحر والعلم والدين	برنسلاو مالينوفسكى
الطفل ٢ ج	ارنولد جذل
تكنولوجيا فن الزجاج	د· محمد زينهم
الكون ذلك المجهول	جـلال عبد الفتاح
رحلة بيرتون ٣ ج	ريتشارد بيرتون
الحضارة الاسلامية فى ق· الرابع الهجرى	آدم متز

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

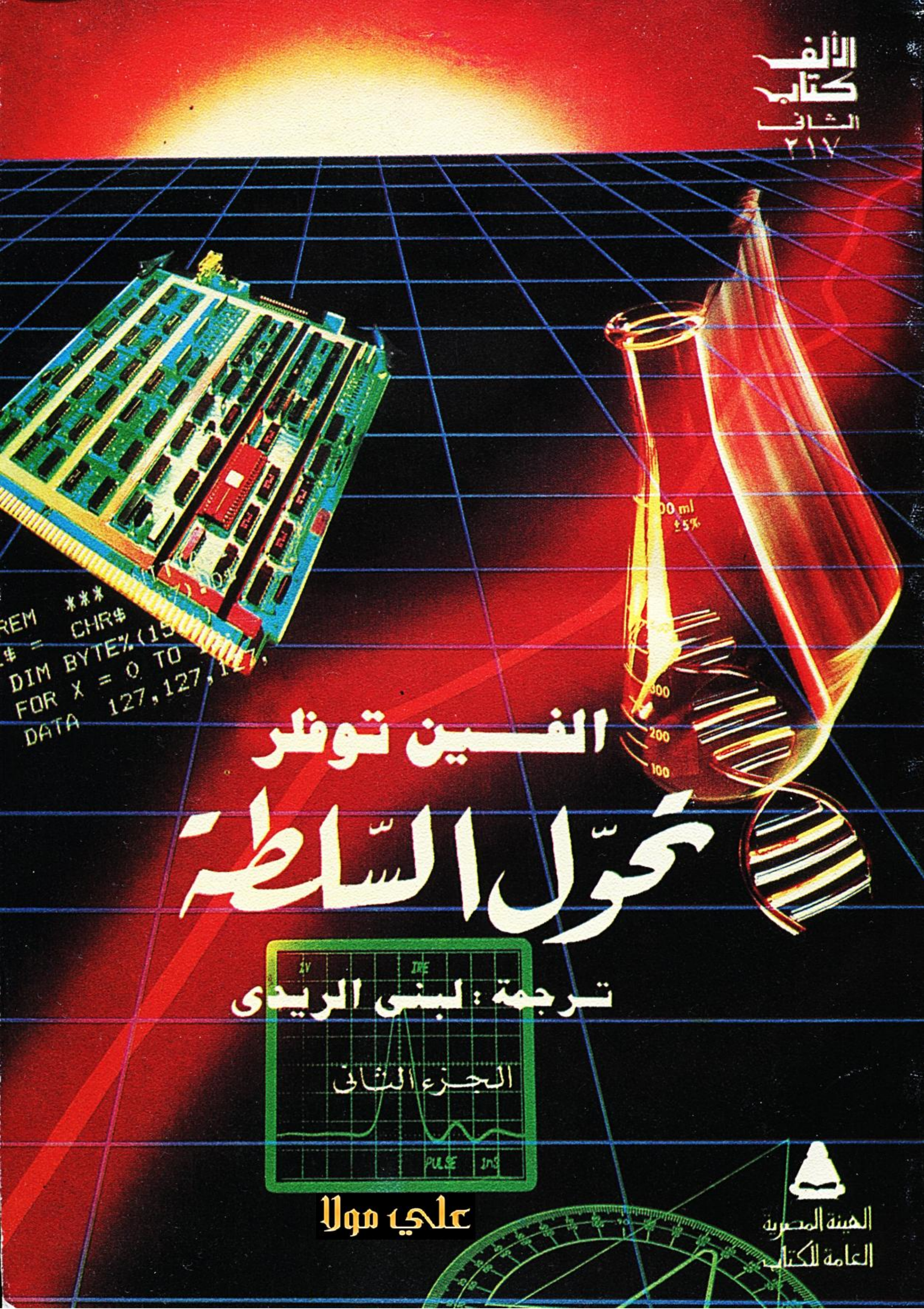
رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٥/٤٥٣٧

ISBN 977 — 01 — 4366 — 9

موضوع هذا الكتاب هو الصراع المحموم على امتلاك السلطة في الوقت الذي تفقد فيه الحضارة الصناعية تفوقها العالمي وتطمح قوى جديدة حاليا إلى السيطرة على الكرة الأرضية ويستهدف الكتاب بشكل خاص التغيرات الحاسمة التي ترتسم في العلاقة بين المعرفة والسلطة ويقترح نظرية جديدة للسلطة الاجتماعية ويأخذ على عاتقه استكشاف التحولات والتغيرات الجارية في عالم الأعمال والاقتصاد بشكل عام والسياسة والعلاقات الدولية.

ويركز الكتاب على تحليل الجوانب البارزة في عالم الغد وعلى النزاعات التي نواجهها اليوم حيث تهاجم القوى الجديدة القلاع القديمة ويوضح مدى تذبذب السيطرة على الاقتصاد نتيجة التنافس على استحواذ المؤسسات الانتاجيةوعمليات إعادة الهيكلة التي لا تمثل سوى أولى طلقات النار في معارك الأعمال التي ستتسع وتتخذ أشكالا جديدة والأهم من ذلك أن الكتاب يؤكد أن التحولات الأخيرة في أوربا الشرقية والاتحاد السوفيتي [السابق] ليست سوى مناوشات بسيطة بالمقارنة بالصراعات المطلقة من أجل السلطة التي تنتظرنا وبالمثل فإن المنافسة التي تخلق مواجهة بين الولايات المتحدة وأوروبا واليابان لم تبلغ بعد أوج شدتها.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب



الألف
كتاب
الثانى
٢١٧
REM ***
CHR$
DIM BYTE%(1
FOR X = 0 TO
DATA 127,127,1
الفين توفلر
تحول السلطة
ترجمة : لبنى الريدى
الجزء الثانى
على مولا
الهيئة المصرية
العامة للكتاب

تحوّل السلطة

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

عزت عبدالعزيز

الإخراج الفنى

محسنة عطية

تحوّل السّلطة

المعرفة والثروة والعنف على أعتاب القرن الحادى والعشرين

الجزء الثانى

تأليف

ألفين توفلر

ترجمة

لبنى الريدى

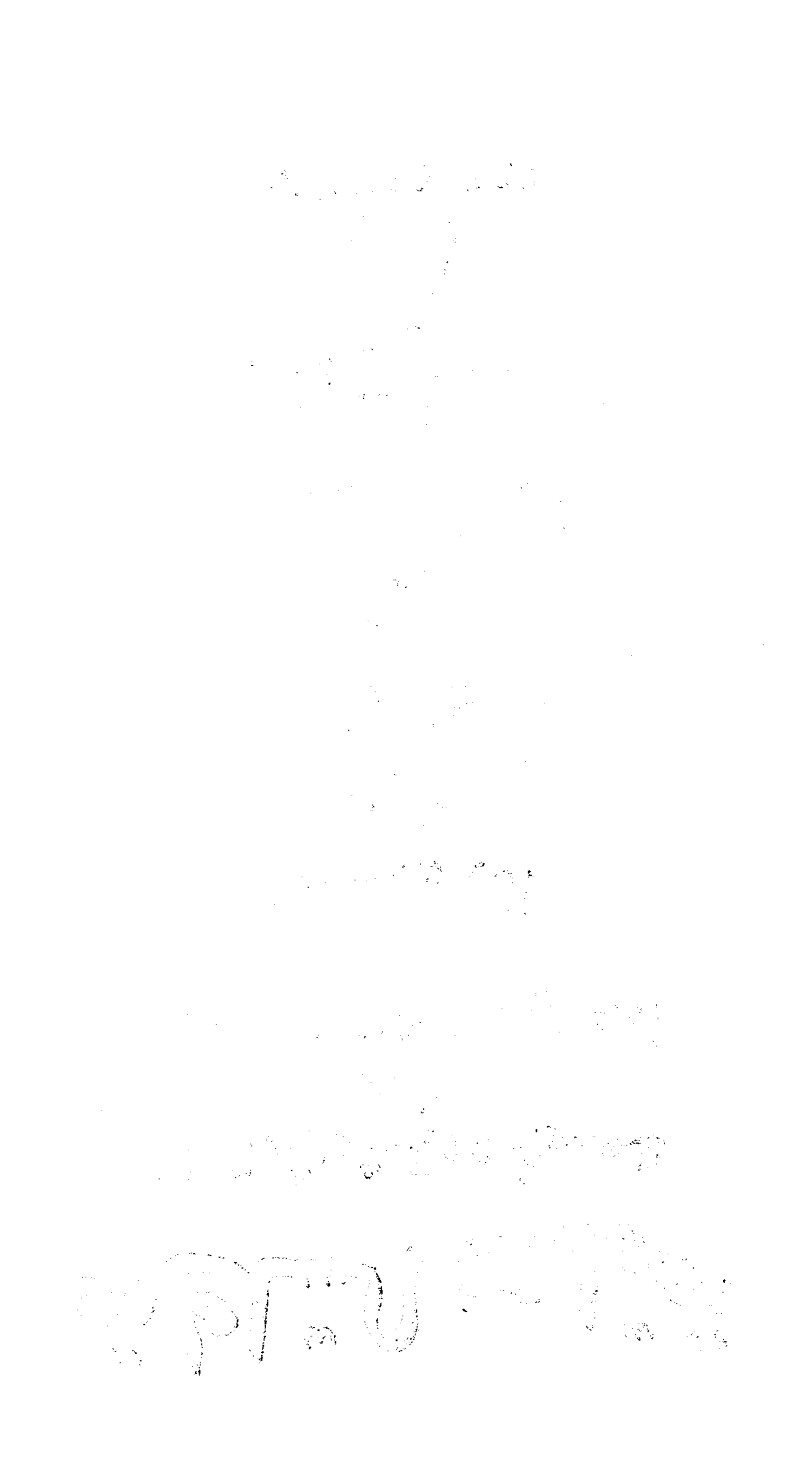
تعقيب

محمد سيد أحمد



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٦



فهـــرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الباب الخامس

السلطات الجديدة والسياسة

الفصل العشرون

العقــود الحاســمة

فى يوم ٩ نوفمبر ١٩٨٩ بمدينــة بلوفيلد (فرجينيا الغربيـــة) أجهشت مدرسة بالبكاء وشاركها ملايين الرجال والنساء فى العالم كله دموع الفرحة تلك وهم يشاهدون انهيار سـور برلين على شاشــات التليفزيون · طوال جيل كامل تعرض الألمان الشرقيون للسجن والرصاص بل والقتل لمحاولتهم اجتياز هذا السور الذى يبلغ طوله ٤٥ كيلومتراً · أما الآن فالجمـــاهير تجتازه وعيونهم تبرق ووجوههم تشى بتعبيـرات شتى من الفرحة التى لا تشوبها شائبة الى ذهول الصدمة الثقافية · وسرعان ما بدأت المعاول العمل ولم يعد باقيا من هذا الحائط الذى قسم حتى وقت قريب برلين ، بل وألمانيا كلها ، الى نصفين الا قطع من الحجر والأسمنت يحتفظ بها للذكرى عدد لا حصر له من الأسر الألمانية عـلى المدافىء حيث تتراكم الأتربة ·

ولأن سقوط سور برلين كان يجسد نهـاية النظام الشمولى الذي فرضه السوفيت على أوروبا الشرقية والوسطى فلقد أثار موجة شديدة من الحماس فى الغرب · وعزف مثقفون وساسة قصيرو النظر نشيـد ابتهاج جديد بمباركة بيتهوفن ، وغنوا معا لمستقبل الديمقراطية الذى أصبح مضمونا بعد أن باتت الماركسية في وضـــع ميئوس منه وانتهت الأيديولوجية ودفنت ·

غير أنا نرى اليوم أوروبا الشرقية تعـانى من عـدم الاستقرار : فبولندا على شفا انهيار اقتصادى كامل ، وفى رومانيا تتقاتل الجموع فى الشوارع كما يحذر رئيس يوجوسلافيا من « اشتعال حرب أهلية مع احتمال تدخـل أجنبى مسلح وذلك نتيجة لتجاوزات الأحزاب اليمينيـة والقوى الانفصالية الموتورة » · وانطلقت من عقالها الأحقاد العرقيـة

القديمة وكذلك معادلة السامية · وأصبحت الحدود المتفق عليها بعد الحرب العالمية الثانية مطروحة ثانية للبحث فى العديد من المناطق · ان انهيار السلطة السوفيتية فى أوروبا الشرقية بدلا من أن يؤمن الديمقراطية خلق فراغا متفجرا ، قد يندفع اليه الحمقى ومحترفو اثارة الفتن ·

وفى غضون ذلك يهدد الارتباك والفوضى حركة التوحيد الجارية فى أوروبا الغربية ·

وفيما وراء المسرح الأوروبى الواسع ترتسم امكانية تمزق الاتحاد السوفيتى الذى قد يشعل حروبا جديدة تستمر لسنوات وتجدد مخاطر الحرب النووية بعد أن ساد الاعتقاد بأنها أصبحت مستبعدة نسبيا ·

ويواجه البشر سخرية جديدة من سخريات التاريخ · فبينما يطمح بشغف ملايين البشر الى حرية لم يملكوها قط تواجه الديمقراطيات القديمة فى كل من أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية واليابان أزمة داخلية بدأت تتجمع خيوطها منذ وقت طويل ، اذ نصل الى نهاية عصر ديمقراطية الجماهير ـ وهى النوع الوحيد من الديمقراطية الذى عرفه العالم الصناعى ·

الأسر الحاكمة والديمقراطيات :

يتطلب أى نظام ـ سواء أكان ديمقراطيا أم غير ديمقراطى ـ درجة من التوافق بين الطريقة التى ينتج بها الشعب ثروته والطريقة التى يحكم بها نفسه · لأنه اذا تنافر النظام السياسى تنافرا شديدا مع النظام الاقتصادى فسينتهى الأمر بأن يحطم أحدهما الآخر ·

وعلى امتداد التاريخ لم يحدث سوى مرتين أن اخترعت البشرية نظاما جديدا كليا لانتاج الثروة · وفى المرتين اخترعت البشرية أيضا أشكالا جديدة للحكم لتتماشى معه ·

فانتشار الزراعة وضع نهاية للتجمعات القبلية ولجماعات الصيادين وغيرها من التكوينات الاجتماعية ـ السياسية الأخرى · واحل محلها المدن ـ الدول ـ أى المدن ذات السيادة ـ والممالك الأسرية والامبراطوريات الاقطاعية · وأزاحت الثورة الصناعية الكثير من هذه التكوينات ، وفى العديد من البلدان واكب نظام الانتاج بالجملة والاستهلاك بالجملة ووسائل الاعلام الجماهيرية نظام « الديمقراطية الجماهيرية » ·

غير أن هذه الديمقراطية اصطدمت بمقاومة مستميتة • لقد اتحدت قوى الاقطاع الزراعى القديمة ـ الأرستقراطية الزراعية والكنيسة ودعائمهما الثقافية والفكرية ـ ضد حركة التصنيع الجديدة وشنت حربا ضارية ضد ديمقراطية الجماهير التى تلازمت فى كثير من الأحيان مع حركة التصنيع • ففى كل المجتمعات الصناعية لم يكن الصراع الرئيسى، كما يتصور الكثيرون ـ بين اليمين واليسار ولكنه كان فى الواقع بين المعجبين بمجتمع الموجة الأولى الزراعى « وبالتقليدية والسلفية » من ناحية وأنصار « التصنيع » المميز لاقتصاد الموجة الثانية و « التحديث » من ناحية أخرى •

وكثيراً ما يدور هذا النوع من الصراع من أجل السلطة تحت مسميات أخرى كالقومية أو الدين أو الحقوق المدنية • وتؤثر هذه الانقسامات فى الحياة الأسرية والعلاقات بين الرجل والمرأة والمدارس والمهن الحرة وعالم الفنون • غير أن أهمية هذا الصراع التاريخى الذى لا يزال محتدما تتضاءل أمام اندلاع صراع آخر جديد ، صراع يدور هذه المرة بين مدنية الموجة الثالثة أى مدنية ما بعد العصرية من جهة وبين « العصرية » و « التقليدية والسلفية » من جهة أخرى •

واذا صح أن اقتصادا جديدا قائما على المعرفة فى طريقه لأن يحل محل الانتاج المصنعى فعلينا أن نتوقع صراعا تاريخيا جديدا لاعادة بناء مؤسساتنا السياسية حتى تتوافق مع الاقتصاد الثورى الجديد ، اقتصاد ما بعد الانتاج بالجملة •

وتواجه اليوم المجتمعات الصناعية مجموعة من الأزمات المتراكمة والتى تؤثر على نظمها الأساسية : النظم الحضرية والنظم الصحية ونظم الضمان الاجتماعى وشبكات النقل والتوازن البيئى • غير أن ساسة العصر المصنعى مستمرون فى التصدى لهذه الأزمات بسياسة ردود الأفعال ويكتفون بتقديم بدائل لطرق التناول القديمة • الا أن هذه الأزمات قد تكون غير قابلة للحل فى اطار المؤسسات القائمة التى تم ابتكارها وصياغتها للمجتمع الجماعى •

بالاضافة الى ذلك ، فان الاقتصاد الجديد الذى يتكون حاليا يطرح تحديات غير مسبوقة ويخلق ازمات أخرى تقلب الافتراضات التقليدية لعصر ديمقراطية الجماهير والتحالفات التى تنبع منها رأسا على عقب •

انتقالات لمستويات السلطة :

تلازمت ديمقراطية الجماهير مع تركيز ضخم للسلطة على الصعيد القومى ـ تركيز يعكس ازدهار تقنيات الانتاج بالجملة والأسواق الوطنية · أما اليوم فلقد غيرت تقنيات الانتاج فى مجموعات صغيرة الموقف تماما ·

ولنأخذ مثال الخبز ·

كان الخبز والمنتجات المماثلة تأتى أصلا من المخابز المحلية · ثم عقب التصنيع طغت محلات السوبر ماركت التى تتزود من شركات عملاقة مثل نابيسكو فى الولايات المتحدة على الشركات الأسرية الصغيرة · أما الآن فمن المدهش أن نرى العديد من محلات السوبر ماركت وقد بدأت فى تصنيع الخبز فى منشآتها الخاصة ، مع الاستمرار فى بيع الأنواع القومية منه · اذن فالدائرة تنغلق على نفسها ولكن مع استخدام تقنيات أكثر تطورا ··

فى الماضى كانت بكرات الأفلام الفوتوغرافية ترسل الى روشيستر بولاية نيويورك كى يتم معالجتها فى المصنع المركزى لكوداك ، أما الآن فان تحميض وطبع هذه الأفلام يتم فى محلات صغيرة وأكشاك عند ناصية أى شارع · كما كانت الطباعة التجارية تتطلب أستثمارات ضخمة وآلات معقدة ، أما الآن ففى كل الأحياء معدات نسخ صغيرة وفعالة · وهكذا ، فان التكنولوجيات الجديدة تجعل الانتاج المحلى قادرا على المنافسة مرة أخرى ·

ولكن فى الوقت نفسه ، ينقل الاقتصاد المتقدم بعض أشكال الانتاج الى مستوى عالمى · فالسيارات وأجهزة الكمبيوتر والعديد من المنتجات الأخرى لم تعد تصنع فى بلد واحد ، فمكونات هذه الأجهزة والمنتجات يتم انتاجها جزئيا فى الخارج كما يتم تجميعها فى العديد من الأماكن المتباعدة · هذان التطوران المتلازمان اللذان « يخفض » أحدهما الانتاج فى حين « يرفعه » الآخر لهما مقابلهما المباشر فى النظام السياسى ·

انهما يفسران سبب الضغوط التى نراها فى كل من اليابان وأوروبا والولايات المتحدة وكل البلدان ذات التكنولوجيا المتقدمة من أجل اللامركزية السياسية ، وكذلك الاتجاهات المتزامنة الرامية الى نقل السلطة الى هيئات فوق قومية ·

ومن أهم هذه الاتجاهات ما تقوم به المجموعة الأوروبية التى تتجه نحو سلطة مركزية على مستوى أعلى عن طريق خلق سوق واحدة متكاملة وعملة مشتركة وبنك مركزى واحد ·

غير أنه فى اللحظة نفسها التى تحاول فيها الأسطوانة الضاغطة للمجموعة الأوروبية محو الاختلافات وتركيز آليات اتخاذ القرار السياسى والاقتصادى فان مناطق متعددة تستفيد مما ينجم عن ذلك من اضعاف للسلطات الوطنية لشن هجوم من أسفل · فعلى سبيل المثال يعلن رئيس وكالة التنمية الاقتصادية لمنطقة ليون أن « السوق الأوروبية الموحدة تتيح لنا فرصة عظيمة لتحطيم المركزية الباريسية » · وبالفعل تقيم منطقة الرون ـ الألب بأكملها ، والتى يمثل تجمع ليون جزءا منها ، علاقات مع مثيلاتها من المناطق فى بلدان أخرى مثل منطقة كاتالونيا ولمباردى وباد فورتمبرج بهدف تشجيع المصالح المشتركة ·

وكلما انتشر الاقتصاد فائق الرمزية فانه يخلق جماعات ناخبين كفيلة بمساندة العديد من التحولات الجذرية فى السلطة على الصعيد المحلى والاقليمى والوطنى والعالمى · وبالتالى فمن المتوقع أن يتم تقسيم الناخبين طبقا « لسياسات المستويات » تلك الى أربع مجوعات متميزة هى : « العالميون » و « الوطنيون » و « الاقليميون » و « المحليون » · وستدافع كل مجموعة بشراسة عن هويتها (والمصالح الاقتصادية المقابلة لهذه الهوية) وستبحث جميعها عن حلفاء لها ·

وستحصل كل مجموعة على دعم مالى وصناعى من جهات مختلفة كما ستجذب الموهوبين من الفنانين والكتاب والمفكرين الذين سيقدمون لها المبررات الأيديولوجية الملائمة ·

فضلا عن أن الأقاليم والمحليات مقدر لها أن تكون اكثر تنوعا على نقيض الرأى السائد القائل بأنها ستصبح اكثر تجانسا · ويؤكد جيمس كروبى رئيس المركز الدولى للقيادة (International Leadership Center) بمدينة دالاس « انكم تقعون فى خطأ خطير اذا ما اعتبرتم الولايات المتحدة كيانا متجانسا ، اذ يوجد فى البلاد مناطق متناقضة فيما بينها كتناقض الليل والنهار » ·

ودون الوصول بالضرورة الى ما ذهب اليه كروبى من « ان الولايات المتحدة فى طريقها لأن تصبح أمة تتألف من مدن ـ دول » ،

أى مدن ذات سيادة ، فان دراسة فاحصة لاحصائيات الثمانينيات توضح وجود اختلافات متزايدة بين الساحلين الشرقى والغربى وبين منطقة وسط الغرب والمنطقة البترولية أو بين المراكز الحضرية الكبرى وضواحيها • وسواء تم قياس هذه الاختلافات بمقياس نشاط التشييد العقارى أو بمؤشرات النمو أو مستويات العمالة أو الظروف الاجتماعية فمن المرجح أنها ستتسعوتزداد عمقاً بدلا من أن تقل تحت تأثير الاقتصاد الجديد الذى يدير ظهره للتجانس الذى ميز العصر المصنعى •

وبتأكيد الأقاليم والمحليات لأصالتها الثقافية والتكنولوجية والسياسية سيكون من الأصعب على الدول أن توجه اقتصادات هذه المناطق بواسطة أدوات التنظيم التقليدية أى عن طريق البنك المركزى والضرائب وطرق المراقبة المالية • اذ سينجم عن رفع أو خفض سعر الفائدة أو تغيير نسبة الضرائب نتائج مختلفة تماما بالنسبة لمختلف مناطق البلد الواحد •

ويمكن أن يؤدى اتساع هذا التفاوت الى نشأة الحركات المتطرفة أو تدعيمها بشكل متفجر • تلك الحركات التى ستطالب بالحكم الذاتى أو الاقليمى أو المحلى بل وقد تطالب بالانفصال التام • ومن ثم فان قنابل التطرف موجودة فى كل الاقتصادات المتقدمة تنتظر من يفجرها •

اذ توجد فى كل بلد مناطق تعتبر أنها تلقى معاملة ظالمة من قبل السلطة المركزية • ان أى مواطن من سكان جلاسجو سيقول لك ان الوعود بتقليل التفاوت بين المناطق لم تحقق شيئا يذكر • (وطبقا لبعض ما ورد فى الصحافة فان تجدد الشعور الانفصالى فى اسكتلندا أثار قلق الملكة الى حد أنها أعربت فى أحاديثها الخاصة عن مخاوفها من احتمال تفكك المملكة المتحدة) •

وبالاضافة الى التفاوت الاقتصادى ، فهناك الجيوب الانفصالية الملتهبة ذات الأصل اللغوى والعرقى التى تقيحت منذ زمن طويل كما فى التيرول الجنوبى وبريتانى والالزاس وفلاندرز وكاتالونيا ومناطق أخرى • وبالتالى سيتعين على أوروبا الغربية الموحدة أن تمنح قدراً أكبر من الحكم الذاتى الاقليمى والمحلى أو أن تسحق كل هذه الحركات بقبضة من حديد •

لقد تمكنت السلطة المركزية فى أوروبا الوسطى طيلة حكم أسرة هابسبرج ، أى على امتداد القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ،

من احتواء النزاعات العرقية بين رعاياها من الألمـان والايطـاليين والبولنديين والماجيار والسلوفاك والنمساويين وآخرين • ولكن بمجرد أن تفككت امبراطورية النمسا ـ المجر ، غداة الحرب العالمية الأولى لم تتوقف هذه الجماعات عن التقاتل فيما بينها • ويوقظ انهيار السيطرة السوفيتية فى أوروبا الوسطى حاليا هذه الشياطين القديمة • اذ بدأنا نرى بالفعل تزايد حدة مشكلة الأقلية المجرية فى رومانيا والأقلية التركية فى بلغاريا •

واذا انتقلنا غربا ، نجد أن التقاتل بين الصرب والألبان والكروات والقوميات الأخرى قد يؤدى الى تفكك يوجوسلافيا • وذلك بغض النظر عن القوى المركزية الطاردة المهولة التى تهدد وحدة الاتحاد السوفيتى ذاته •

لقد كان العصر المصنعى هو الحقبة الكبرى للكيانات القوميـة التى فرضت السيطرة المركزية على التجمعات الصغيرة والمـدن ذات السيادة (المدن ـ الدول) والمناطق والأقاليم والتى نجم عن تدعيمهـا جعل العواصم مراكز للسلطات الضخمة للدولة • ان أفول الاقتصاد القديم وما يترتب عليه من انتقال لمراكز السلطة الحقيقية يطلق ويحرر ضغائن وعداوات متأصلة وموجات انفعالية عميقة وعنيفة • وفى أركان كثيرة من العالم سيضاعف الموقف الجديد من عدد الجماعات المتطرفة التى تمثل الديمقراطية بالنسبة لهـا عائقا يتعين ابعاده اذا ما عرقل اشباع أهوائها المتعصبة •

سياسة البيئة الأرضية :

أثناء حقبة ديمقراطية الجماهير كان يتم عـادة تصنيف الناس والأحزاب والاتجاهات السياسية الى « يمين » أو « يسار » ، وكـانت المشكلات اما « داخلية » أو « خارجية » • كان كل شيء يتم تصنيفه فى فئات واضحة تماما •

ولكن النظام الجديد لخلق الثروة يجعل كل هـذه المسـميات السياسية باطلة وكذلك التكتلات المقابلة لها • فالكوارث البيئية لا تنتمى ليمين أو يسار كما أن بعضها يكون محليا ودوليا فى آن واحد •

ان الكثير من أخطر مشكلاتنا البيئية ، مثل تلوث الهواء والنفـايات السامة ، هى نواتج ثانوية للطرق الصناعية القديمة •

وعلى النقيض من ذلك ، فان النظام الجديد يبشر بالأمل في امكانية الجمع بين التقدم الاقتصادي والسلامة البيئية وذلك باحلاله المعرفة محل الموارد المادية وبتوزيعه للانتاج بدلا من تركيزه وباستخدامه الأكثر كفاءة للطاقة فضلا عما يسمح به التقدم المذهل فى تقنيات اعادة استخدام النفايات الصناعية ٠

وان كان محتملا أن تحدث خلال العشرة أو العشرين عاما القادمة كوارث بيئية جديدة من طراز تشرنوبل أو بوهال أو بقع زيت أخرى ، وهى تمثل مواريث العصر الصنعى ، فان هذه الكوارث ستغذى نزاعات عنيفة بشأن التكنولوجيات الجديدة وعواقبها المحتملة ٠ وفى كل بلد ستطلب الجماعات الاجتماعية من بعضها البعض « تعويضات بيئية » وستتقاتل من أجل توزيع تكاليف « التنظيف » ٠ وعلى الصعيد الدولى ستتصرف بلدان كاملة بنفس الطريقة ٠ كما ستقوم بعض البلدان فى حالات أخرى بنوع من « الابتزاز البيئى » وذلك بأن تطالب « بفدية » مقابل امتناعها عن مزاولة أنشطة قد تؤدى الى ارسال غبار اشعاعى أو أمطار حمضية أو نفايات سامة أو أى نواتج خطيرة عند جيرانها عبر الحدود و احداث تغيرات مناخية فى البلدان المجاورة لها ٠

هل الاقتصادات المتقدمة مستعدة لدفع « اعانات بيئية » للبرازيل والهند وبلدان أخرى لصرفها عن قطع الغابات الاستوائية والأدغال والموارد الطبيعية الأخرى ؟ وماذا عن الكوارث الطبيعية في اقتصاد عالمى تتحكم فيه حاليا الشبكات ؟ ان حدوث هزة أرضية فى طوكيو قد يقذف الرعب والفوضى فى وول ستريت ، فهل معنى ذلك أنه يتعين على وول ستريت أن تدعم ماليا البرامج اليابانية للوقاية من الزلازل ؟ وهل هذه المشكلات يسارية أم يمينية ؟ وهل هى محلية أم دولية ؟ ٠

ان محاولة حل هذه المشكلات بالطرق السياسية التقليدية لن تؤدى فحسب الى تحطيم تحالفات قديمة بل ستضاعف عدد « منقذى العالم » المؤمنين بالعنف للدفاع عن قضيتهم وبأن لمتطلبات البيئة (كما يحددونها) الأسبقية على مقتضيات الديمقراطية وأحكامها ٠

انفجار المشكلات العرقية :

يصاحب تطور الاقتصاد فائق الرمزية تحولات ديموغرافية وهجرات سكانية ٠ وستتم مناقشة سياسات الهجرة ـ المثيرة دائما

لنزاعات عنيفة ـ فى ظل خلفية مدموغة بمواقف قومية وعرقية متأصلة ٠ ولن يقتصر ذلك على مناطق بعيدة مثل أرمينيا وأذربيجان والبانيا وصربيا وانما سيمتد الى نيويورك وناجويا (اليابان) وليفربول وليون ٠

فى المجتمعات الصناعية الجماعية ، كانت العنصرية تأخذ عامة شكل اضطهاد الأغلبية لأقلية ٠ ولا يزال هذا النوع من المرض الاجتماعى يمثل تهديداً للديمقراطية ٠ ان مشاغبى الشوارع وحليقى الرؤوس والمعجبين بالنازية من البيض « فى طريقهم لأن يصبحوا [٠٠٠٠٠٠] ارهابيين محليين » ، على حد قول موريس دين من مركز دراسات قوانين الفقر ٠

غير أن النظام الجديد لخلق الثروة وما يصاحبه من تحولات من اقتصاد الجملة الى اقتصاد أكثر تنوعا وتخصصا سيؤدى الى تنوع اجتماعى متزايد ، وبالتالى فبالاضافة الى النزاع التقليدى بين الأغلبية والأقليات يتعين حاليا على الحكومات الديمقراطية أن تواجه حروبا مفتوحة بين جماعات الأقليات المتنافسة ، كما حدث فى ميامى بين المهاجرين من كوبا والمهاجرين من هاييتى ، وكما يحدث فى أماكن أخرى من الولايات المتحدة بين الأمريكيين من أصل أفريقى والأمريكيين من أصل أسبانى ٠ ففى لوس انجلوس يتصارع الأمريكيون من أصل مكسيكى على الوظائف مع الأمريكيين من أصل كوبى ، وفى مدينة جريت نك الغنية بمنطقة لونج آيلاند القريبة من نيويورك يتصاعد التوتر بين اليهود الذين ولدوا فى الولايات المتحدة واليهود المهاجرين من ايران الذين يرفضون التخلى عن عاداتهم القديمة ٠ وتقوم جماعات موسيقى الراب الأفرو أمريكية ببيع أسطوانات مناهضة للسامية ٠ وفى المدن الداخلية يهاجم الزنوج التجار الكوريين ٠

اذن ، تحت تأثير النظام الجديد للانتاج تتزايد المقاومة « لبوتقة الانصهار » الامريكية فى كل مكان ٠ وبدلا من الانصهار ، تطالب الجماعات العنصرية والعرقية والدينية بحقها فى الوجود والبقاء مختلفة بكل اعتزاز وفخر ٠ كان المثل الأعلى بالنسبة للمجتمع الصناعى هو انصهار الجماعات المتباينة وامتزاجها ، نظرا لحاجة هذا المجتمع الى قوة عمل متجانسة ، أما المثل الأعلى الجديد ، وهو التنوع ، فيتفق مع سمة عدم التجانس التى تميز النظام الجديد لخلق الثروة ٠

وفى ظل هذا المناخ المفعم بالكراهية قد تضطر الدول الى ارضاء بعض المجموعات المعنية بالحفاظ على هويتها ، مثل الأتراك فى المانيا

والكوريين والفليبينيين وأبناء جزر جنوب الباسفيك فى اليابان والشمال أفريقيين فى فرنسا · لكن فى الوقت نفسه ، سيتعين على هذه الدول أن تعمل على حفظ السلام بين جماعات المهاجرين المختلفة ·

الا أن صعوبة القيام بهذا الدور ستزداد باطــراد لأن نمــوذج التجانس (اليابان) أو بوتقة الانصهار (الولايات المتحدة) يحل محلــه تدريجيا نموذج « طبق السلطة » حيث تحتفظ مختلف المكونات بتفردها ·

وتقدم مدينة لوس أنجلوس مثــالا حيا للتنوع الجــديد بحيها الكورى وضواحيها الفيتنامية والعدد الكبير من سكانها المنحدرين من أصــل مكسيكى ومطبوعاتها المعبرة عن الأصول العرقية المختلفة والتى يصــل عددها الى ٧٥ مطبوعة · وذلك بالاضافة الى اليهود والأمريكيين الأفارقة واليابانيين والصينيين وجاليتها الايرانية الكبيرة · غــــير أن نموذج « طبق السلطة » يستتبع توفر أدوات قانونية واجتمــاعية لدى الحكومات لكى تتمكن من القيام بدور الحــكم فى التناقضـــات المتزايدة التعقيـــد والمشحونة بالعنف ، وهى أدوات تفتقر اليها حاليا · وبينما تناضـــل الأقاليم والدول والقوى الدولية فوق الوطنية من أجل الحصـــول عــلى السلطة فان الطاقة الكامنة للتطــرف المعــادى للديمقــراطية لا تكف عن النمـــــو ·

ديمقراطية الفسيفســـــاء :

ان ديمقراطية الجماهير تعنى وجود « جماهير » ، فهى تعتمد على الحركات الجماعية للجماهير والأحــزاب السياسية الجمــاهيرية ووسائل الاعلام الجماهيرية · ولكن ما الذى يحدث عندما يبدأ المجتمع الجماهيرى فى التفكك الى فئات وطوائف وجماعات متزايدة التنوع ويفقد بالتالى صفته الجماعية ،وعندما تتجزأ الحركات والأحزاب ووسائل الاعلام ؟ واذا كنا نتحول الى اقتصاد قائم على عمالة غير قابلة للاستبدال ، فبأى معنى نستطيع الاستمرار فى الحديث عن « الجماهير » ؟·

واذا كانت التكنولوجيا تتيح صنع المنتجات وفقا لمتطلبات العميل ، واذا كانت الأسواق تتجزأ الى منافذ بيع متخصصة ، واذا كانت وسائل الاعلام تتضاعف لكى يخدم كل منها جمهورا أقل اتساعا باطراد ، واذا كانت البنية الأسرية ذاتها والثقافة تمثلان عدم تجانس متزايد ، فلماذا يصر النظام السياسى على افتراض وجود جماهير متجانسة ؟ ·

ان تأكيد الخصوصية المحلية ومقاومة الاتجاه الى العالمية والتطرف البيئى والوعى العرقى ، كل هذه الاتجاهات الجديدة تجسد التنوع الاجتماعى المتزايد للاقتصادات المتقدمة كما أنها تعلن اختفاء المجتمع الجماهيرى ٠

ومع اختفاء المجتمع الجماهيرى تتنوع الاحتياجات البشرية وينطبق الشىء نفسه على التطلعات السياسية ٠ وكما يكتشف أخصائيو التسويق مزيدا من الشرائح التسويقية المتمايزة و « الأسواق المصغرة »، نظرا للتنوع المتزايد لأساليب الحياة ، فان السياسيين يستمعون الى ما يعرب عنه ناخبوهم من اهتمامات متزايدة التنوع ٠

لازالت الحركات الجماهيرية الكبيرة تستطيع أن تملأ ميدان « تيان انمين » فى بكين أو ميدان « ونسيسلاس » فى براغ ٠ ان هذه المظاهر لم تختف بالطبع ولكنها تميل بدرجة متزايدة الى التجزؤ فى بلدان التكنولوجيا المتقدمة ، بحيث أصبح تحقيق اجماع جماهيرى حول قضية ما أمرا متزايد الصعوبة ، فيما عدا بعض المشكلات الرئيسية النادرة ٠

وبالتالى يأتى فى مقدمة نتائج تفكك المجتمع الجماهيرى أن تغدو الحياة السياسية فجأة أكثر تعقيدا ٠

لقد كانت مهمة كبار زعماء العصر الصناعى فى الانتخابات أبسط نسبيا ٠ فقد استطاع فرنكلين روزفلت فى عام ١٩٣٢ تجميع ائتلاف ضم ست جماعات أهمها عمال المدن وفقراء الفلاحين والمهاجرين والمثقفين ٠ وبذلك تمكن الحزب الديمقراطى أن يحتفظ بالسلطة فى واشنطن طوال ثلث قرن ٠

أما اليوم ، فلا يستطيع أى مرشح للرئاسة أن يكتفى بتجمع يضم أربعة أو ستة تكتلات كبرى فقط وانما عليه أن يضم اليه مئات من التجمعات الصغيرة التى لكل منها برنامجه الخاص ، وهى تجمعات فى حالة تغير مستمر بل ان الكثير منها لا يستمر الا لبضعة شهور أو بضعة أسابيع (بالاضافة الى تكلفة استخدام البث التليفزيونى فى الحملات الانتخابية ، الأمر الذى يسهم فى تفسير زيادة تكاليف الحملات الانتخابية فى الولايات المتحدة) ٠

ان ما يتأكد اليوم ــ كما سنرى ــ لم يعد ديمقراطية الجماهير وانما « ديمقراطية فسيفسائية » تضم عناصر شديدة التنوع والتعقيد

وفى حالة تحول سريع . ويتطابق هذا النوع من الديمقراطية مع بزوغ الفسيفساء فى الاقتصاد ، وهى تعمل طبقا لقواعد خاصة بهـــا بحيث سنضطر الى اعادة تعريف حتى أكثر الافتراضات الديمقراطية أساسية.

لقد صممت ديمقراطية الجماهير لتستجيب أساسا لكل ما هو جماعى ـ حركات ، أحزاب ، وسائل اعلام . وهى لا تعرف بعد كيف تعالج أمر الفسيفساءات ، مما يجعلها معرضة مرتين لهجمـــات ما يمـــكن تسميته بـ « الأقليات المحورية » .

الأقليات المحـــورية :

يعرف العلماء الذين يدرسون حالات الاضطراب وعـدم الاستقرار والفوضى فى الطبيعة أو فى المجتمعات أن نفس النظـام ـ سـواء أكان نظاما كيمائيا أم مجتمعيا ـ يتصرف بشكل مختلف فى حالة الاتزان عنه فى حالة عدم الاتزان . اذا دفعت أى نظام ـ هضمى أو اعلاماتى أو مرورى أو سياسى ـ لا يهم نوع النظام ـ الى حد أكثر من اللازم فانه سيخرق قواعده التقليدية ويسلك مسلكا شاذا .

عندما تصبح بيئة ما شديدة الاضطراب تفقد النظم نسقها الخطى ، وهو ما يمنح المجموعات الصغيرة امكانات عمل واسعة . اننـــا نقترب فى الواقع من مرحلة جديدة للحياة السياسية يمكن الاشارة اليهـــا على أنها « زمن فرص » الأقليات المحورية .

بعد تحول المجتمع الجماهيرى وتفككه يجد الزعماء السياسيون أنفسهم فى مواجهةعدد لا حصر له من المجموعات الصغيرة المتجمعـة مؤقتا حول هدف وحيد والتى لا تنفك تعقد التحالفات وتفصمها بمجرد تكوينها تقريبا لتكون تحالفات جديدة . وذلك بعد أن كان هؤلاء الزعماء يتعاملون فى السابق مع عدد قليل من التجمعات الكبيرة للناخبين والتى كان يمكن التنبؤ بدرجة أو أخرى باتجاهاتها .

ان أية مجموعة من هذه المجمــوعات الصغيرة تستطيع أن تمارس تأثيراً لا يتناسب اطلاقا مع قوتها الذاتية اذا احتلت نقطة استراتيجيــة حاسمة فى اللحظة المناسبة . ففى عام ١٩١٩ كان انطون دريكسلر ـ وهو ميكانيكى فى السكك الحديدية ـ يتزعم جماعة سياسية صـــغيرة فى ميونخ ، ولم يكن هذا التجمع يمثل سوى اقلية الأقلية ، فلم يجذب أول

اجتماع عام له سوى ١١١ مستمعا ٠ وكان اسم أحد المتحدثين فى هذا الاجتماع والذى ظل يتحدث من على المنصة لـمـدة نصف ساعة ٠٠ أدولف هتلر ٠

لقد ساهم العديد من العوامل بالطبع فى صعود هتلر للسلطة غير أن علم النظم غير المتزنة الجديد يقدم ، على أية حال ، عنصرا من عناصر التفسير ٠ فهذا العلم يوضح فى الواقع أنه فى لحظات عدم الاستقرار القصوى ، مثل تلك التى كانت عليها ألمانيا فى تلك الفترة ، تحدث ثلاث ظواهر : أولا ٠٠ تلعب الصدفة دورا متناميا ٠ ثانيا ٠٠ تكتسب ضغوط العالم الخارجى وزنا أكبر ٠ وأخيرا تولد التغـذية الارتجاعية الايجابية تأثيرات ضخمة تتزايد بشكل مطرد مثل كرة الثلج ٠

ان ما تقدمه وسائل الاعلام لأفضل مثال لـ « تأثير كرة الثلج » ، اذ يكفى أن يصوب مراسل آلة تصويره على أصغر زمرة من المهووسـين السياسيين أو الارهابيين لكى يفرض على العالم كله صورتهم المباشرة ويعطى بذلك هذه الزمرة أهمية أكبر بكثير من التى كانت تستطيع الحصول عليها بمفردها ٠٠ ومنذ تلك اللحظة تصبح هذه المجموعة من « أحداث الساعة » ، وتغطى وسائل الاعلام الأخرى أنشطتها مما يدعم تأثيرهـا على الرأى العام : وبذلك تتكون « حلقة تغذية ارتجاعية موجبة » ٠

ويمكن أن تؤدى آليات أخرى الى نفس النتيجة ٠ ففى ظل الروابط العالمية التى تربط كل أجزاء الكرة الأرضية ببعضها تستطيع المصالح الأجنبية بسهولة أن تمد جماعة صغيرة بالمال أو بأى شكـــل آخر من المساعدة بحيث يتضخم حجمها بدرجة هائلة ، وبالتالى تجتذب مزيدا من المـــوارد ٠

وتساهم هذه العوامل الثلاثة : الصدفة والمساعدة الخارجية والأثر الارتجاعى الموجب ، فى تفسير ازدهار أنواع متعددة من التعصب فى فترات الاضطرابات الصاخبة على امتداد تاريخ الديمقراطية الجماهيرية ابتداء من المؤامرات الثورية والمجالس العسكرية الحاكمة الى المكائـد من كل نوع ٠ كما أنها تفسر لماذا تستطيع جماعة غير ذات بال أصلا أن تتحـول فجـأة الى جمـاعة محـورية ٠ ان الوضـع مختلف بالنسـبة للديمقراطيات الفسيفسائية ٠ فمنذ عهد قريب كانت توجد أغلبية تستطيع

أحيانا احتواء أو سحق الحركات المتطرفة الخطرة • ولكن اذا لم تكن هناك ثمة أغلبية متماسكة الآن ؟ •

ان بعض الأقليات المحورية قد تكون مفيدة غير أن أغلبها ضـار للديمقراطية ، وهى تتمثل فى أشكال متنوعة ، ففى ايطاليا كان المحفل الماسونى « P2 » يتطلع الى الاستيلاء على السلطة كما تفعل الآن فى اسرائيل رابطة الدفاع اليهودية بمسـاندة من مواطنين أمريـكيين • وتنفث الجماعات النازية ، وبعضها مسلح ، الكراهية العنصرية وبشكل خاص العداء للسامية وتحلم بأن تسيطر على الولايات المتحدة ، ولقد خاض بعض أعضاء هذه الجماعات معارك مسلحة ضد مكتب التحقيقات الفيدرالى (FBI) • وفى الولايات المتحدة أيضا زاد عدد المنضمين الى منظمة من الأمريكيين الأفارقة يقودها أحد المعجبين بهتلر بعد أن حصلت من القائد الليبى معمر القذافى على قرض بدون فوائد قيمته ٥ ملايين دولار • ويضاف الى عصيدة الساحرات تلك حركة لاروش (La rouche) التى تعانى من جنون العظمة ، بـ « عملياتها الاستخبارية » وفروعهـا ومجموعاتها الهجومية الموجودة فى كل من ألمانيا الغربية والمكسـيك والولايات المتحدة •

ويؤكد الدكتور وليم تافويا ، وهو من أكبر خبراء مكتب التحقيقات الفيدرالى فى مجال التوقعات المستقبلية ، أنه خلال العـقد القـادم سيصاحب تزايد القلق الاجتماعى فى الولايات المتحدة تكاثر الجماعات المحمومة بالكراهية والتى ستحاول التسلل الى أجهزة الشرطة الأمريكية بهدف تسهيل العمليات الارهابية ويتساءل تافويا « اذا كنت عنصريا فهل يوجد غطاء لمشروعاتى السرية أفضل من شارة رسمية ؟ » •

ويعتبر تافويا أن البطالة والفقر والأمية ووضع المشردين بدون مأوى من أهم مصادر القلق الاجتماعى • ولقد توصل ، بناء على احصاء لمعدل تزايد الجرائم والفتن والاعتداءات المرتبطة بالعنصرية ، الى أن الاطار الهادف الى تأمين العدالة الاجتماعية لم يعد حاليا سوى « قشة جافة » قد تكفى شرارة لكى تشتعل •

غير أن الأوضاع الداخلية ليست وحدها المعنية • فلقـد جلبت الجاليات المهاجرة معها من « البلد القديم » احساسها بالمظلم وأهواءها السياسية الى موطنها الجديد ، واحتفظت بها سليمة كاملة ، مثل الأكراد فى السويد والسيخ فى كندا • فى الماضى كان المهـاجرون منعـزلين عن أوطانهم الى حد كبير ، أما الآن فان وسائل الاتصالات الفورية والسفر

بالطائرات تتيح للثقافات السابقة أن تحتفظ بتأثيرهـــا ونفـــوذها ، ولحركاتهم السياسية أن تستمر بعيداً عن الوطن الأم . ان هذه الجماعات تريد هى أيضا الاستيلاء على السلطة ، ليس فى بلدان المهجر ولكن فى أوطانها . وينجم عن ذلك تعقيدات جديدة وتوتر فى العلاقات الدولية .

هذه التجمعات الصغيرة التى لا أهمية لها فى الوقـت العـــادى تستطيع أن تبلغ مرحلة « الانطلاق » عندما تكون التربـــة الثقـــافية والاجتماعية جاهزة لذلك ، أو عندما تكون الأحزاب الرئيسية فى حالة شلل أو حالة اخفاق انتخابى بحيث يكفى انضمام حليف صغير لترجيح ميزان السلطة لصالحها .

ان الديمقراطيات المستقرة القوية يجب أن تقبل بالطبع بحد أقصى من التنوع ، ولا يمثل وجود مثل هذه الجماعات الصغيرة أى وضع غير عادى بالنسبة لها كما لا يحمل فى طياته أى تهديد طالما يظل النظـــام السياسى فى حالة اتزان . ولكن هل يظل النظام محتفظا بهذه الحالة ؟

اننا نعيش بالفعل فى عالم يتمكن بالكاد من احتواء تأثير أشكـال التعصب المختلفة . فثمة تنظيمات مصممة على فرض مبادئها الشمولية ، ليس على أمة بعينها فحسب ولكن على العالم كله كما يحث آيات الله على القتل باصدارهم حكم اعدام على سلمان رشدى بسبب جمل فى كتابه تبدو لهم مهينة وجارحة . أما المناهضون للاجهاض فيضعون القنابل قرب العيادات التى تزاول هذا النوع من العمليات . وللدفاع عن هويتها القومية ، تتـرك الحركات الانفصالية وراءها ســيارات ملغومة ودمـا مراقا . كما لا يتردد الارهابيون الدينيون ـ السياسيون فى القاء قنبـلة يدوية فى مقهى أو فى اســقاط طائرة بوينج ٧٤٧ ، كمـا لو كان مـوت سكرتيرة مسافرة لقضاء عطلتها أو مندوب مبيعات يحمل حقيبة مكتظة بالكاتالوجات سيكسبهم حظوة عند الله .

ان ارتباط الكثيرين فى الغرب بمفهوم للتقدم تجاوزه الزمن يجعلهم يفترضون أن الأيديولوجيات المتعصبة وغير المنطقية والمحرضـة على الحقد والكراهية ستزول من على سطح الأرض كلما أصبحت المجتمعات اكثر « تحضرا » . « لا يوجد ما هو اكثر تضليلا من هذا الاعتـــقاد المطمئن » على حـد قـول البروفسير درور يهزكل من الجامعـة العبرية بالقدس ـ وهـو متخصص فى القضـايا السياسية والشئون المستقبلية ـ الذى يؤكد أن « النزاعات الطائفيـة » و « الحـــروب المقدســـة »

و « المقاتلين الساعين للاستشهاد » ظواهر لا تنتمى لماض ذهب ولن يعود وانما ظهورها مرة أخرى هو نذر شؤم لمستقبلنا ٠

وتقدم دراسته عن « الأيديولوجيات العدوانية الشديدة المحددة » تحليلا لما تشكله هذه المعتقدات من تهديد على النطاق الدولى ٠ غير أن هذا التهديد يحمل طابعا محليا أيضا بالنسبة للديمقراطيات ٠ ففى الوقت الحالى حيث الثقافة والحياة الاقتصادية فى طريقهما للانصهار فى اطار الاقتصاد الجديد وحيث يتم طرح قضايا جديدة محملة بشحنات انفعالية قوية ، تتفاقم الأخطار التى تمثلها الأقليات المحورية وكذلك اخطار التعصب الدولى ٠

ان بزوغ اقتصاد جديد تماما ، لم يعرف مثله العالم من قبل ، قد يشكل تهديداً لكثيرين ، فهو اقتصاد يتطلب تغيرات سريعة فى طرق العمل وأساليب الحياة والعادات ٠ ومن ثم فان اعداداً كبيرة من البشر ، تحت تأثير الرعب من المستقبل ، تبحث عن خلاصها من خلال تشنجات ونوبات من ردود الفعل المتصلبة ٠ ويفتح التحول الصدوع التى يتدافع من خلالها المتعصبون كما أنه يعطى أسلحة لكل هذه الأقليات الخطرة التى تكرس حياتها من أجل الأزمة ، على أمل أن تتيح لها هذه الأزمة أن تنطلق على الساحة الوطنية أو العالمية وأن تعيدنا جميعا الى عصور ظلام جديدة ٠

وبدلا من « نهاية الأيديولوجيات » التى يكثر الحديث عنها قد نشهد ظهور عدد كبير من الأيديولوجيات الجديدة سواء على الصعيد الوطنى أو العالمى ٠ وستلهب كل أيديولوجية حماس أنصارها برؤية وحيدة ومتصلبة للحقيقة ، وبدلا من الـ « ألف نقطة من النور » الشهيرة التى قالها الرئيس بوش قد نجد أمامنا « ألف نار عنف وسخط » ٠

وبينما ننشغل بالاحتفال بالنهاية المفترضة للأيديولوجية والتاريخ والحرب الباردة ، ، قد يكون علينا أيضا مواجهة نهاية الديمقراطية كما عرفناها ، أى ديمقراطية الجماهير ٠ ان الاقتصاد المتقدم القائم على أجهزة الكمبيوتر والمعلومات والمعرفة وكثافة الاتصالات ، يطرح ثانية للبحث كل وسائل الدفاع التى كانت تملكها الديمقراطية ، ويضعنا أمام تحدى اعادة تعريف وتحديد هذه الوسائل فى صيغ تناسب القرن الحادى والعشرين ٠

وللوصول لذلك ، نحتاج أن نرى بوضوح أكثر كيف يعمل هذا النظام وكيف أنه دخل بالفعل طريق التغيير ٠

الفصل الحادى والعشرون

الحـــزب الخفى

بعد انتخاب رونالد ريجان لرئاسة الولايات المتحدة بوقت قليل ، كان لى أتووتر ــ أحد مساعديه الرئيسيين (والذى قاد بعد ذلك حملة جورج بوش الانتخابية ، ثم رأس اللجنة الوطنية للحزب الجمهورى) ــ يتناول طعام الغداء فى البيت الأبيض مع أصدقاء له ، وقـال بصراحة فريدة وهو على مائدة الطعام :

« فى الشهور القادمة ، سوف تسمعون كثيرا عن ثورة ريجان ٠ وستحتل عناوين الصحف التغييرات الكبيرة التى يخطط لها ريجـان ، لا تصدقوا ذلك ٠ ان ريجان يريد فعلا تغيير أشياء كثيرة غير أنه لن يستطيع فى الحقيقة تحقيق ذلك ، لقد حول جيمى كارتر النظام خمس درجات فى اتجاه معين واذا عملنا بجد ومثابرة واذا حالفنا الحـظ بدرجة كبيرة قد يتمكن ريجان من تغيير اتجاه النظام خمس درجات فى الاتجاه المضاد ٠ وهذا ما تعنيه فى الحقيقة ثورة ريجان » ٠

ان ملاحظات أتووتر ، وان كانت قد ذكرت سياسيين بعينهم مثل كارتر وريجان ، فانها تكتسب معنى أعم ، فهى تبين الى أى مدى يظل القائد أسيرا « للنظام » حتى وان كان من أكثر القادة شعبية ومن أكثرهم مكانة ٠ والنظام المذكور ليس بالطبع النظام الرأسـمالى أو النظـام الاشتراكى ولكن النظام البيروقراطى ٠ ذلك لأن البيروقراطية فى الدول الصناعية هى الشكل المسيطر للسلطة ٠

ان البيروقراطيين ، وليس المسئولون المنتخبون ديمقراطيا ، هم الذين يتحملون المسئولية الأساسية بالنسبة لسير العمـل اليـومى للدولة ، فهم فى الواقع الذين يتخذون القرارات التى تنسب للرؤساء أو لرؤساء الوزارات ٠

وطبقا ليوشى تسوروهى رئيس مركز دراسات مؤسسة المحيط الهادى « لقد أصبح رجال السياسة اليابانيون معتمدين اعتمادا تاما على بيروقراطيى الادارات المركزية فيما يتعلق باعداد النصوص التشريعية والاقتراع عليها • وباتوا يكتفون بأن يلعبوا أدوارهم فى « المناقشات » التشريعية ، مثلهم مثل الـ « كابوكى » ـ بينما سيناريوهات هذه الأدوار قد كتبتها صفوة بيروقراطيى مختلف الوزارات » •

وينطبق الشيء نفسه بدرجات متفاوتة على كبار الموظفين فى فرنسا وبريطانيا وألمانيا الغربية وغيرها من البلدان التى توصف عادة بانها ديمقراطية ، ففى هذه الديمقراطيات يشكو القادة السياسيون بانتظام من الصعوبات التى يجدونها فى حمل أجهزتهم البيروقراطية على تنفيذ ما يريدون • فى الواقع أيا كان عدد الأحزاب التى تتقدم للانتخابات وأيا كان الحزب الذى يحصل على أعلى الأصوات فان الحزب الفائز دائما هو حزب البيروقراطية الخفى •

وزارة القرن الحادى والعشرين :

لن يكتفى الاقتصاد الثورى الجديد بتغيير الحياة الاقتصادية بل سيمتد الى هياكل الدولة أيضا وذلك بتعديل العلاقات الأساسية بين رجال السياسة والبيروقراطيين ، وبتحويل البيروقراطية ذاتها بشكل مذهل •

لقد أدى الاقتصاد الجديد بالفعل الى انتقال للسلطة « بين » مختلف البيروقراطيات •

ولعل أفضل مثال على ذلك هو اتساع أنشطة وزارة البريد والاتصالات اليابانية • لقد ظلت هذه الوزارة تضطلع منذ عام ١٩٤٩ بثلاث وظائف رئيسية : فهى الى جانب تأمينها للخدمة البريدية كانت تقدم لعملائها ، مثلها فى ذلك مثل الكثير من مثيلاتها الأوروبية ، خدمات تأمين وادخار • (وهى خدمات استهدفت أصلا سكان المناطق الريفية النائية التى لم تكن البنوك وشركات التأمين تهتم بها) • وفى طوكيو ، حيث توزن الأمور بميزان السلطة والنفوذ ، كانت وزارة البريد والاتصالات تعد من الوزارات الثانوية •

أما اليوم فهى مؤسسة عملاقة تحمل اسما جديداً هو ام·بى·تى (M.B.T.) ويطلق عليها « وزارة القرن الحادى والعشرين » • ولقد

اكتسبت هذا الوضع الجديد ابتداء من عام ١٩٨٥ وهو تاريخ حصولها على مسئولية تطوير كل قطاع الاتصالات اللاسلكية اليابـــانى ، وبث برامج الراديو والتليفزيون وشبكات ارسال البيانات ، وذلك بالطبــع عقب معركة حول الاختصاصات من المفترض أنها كانت ضارية ٠

وهكذا جمعت هذه الوزارة فى كيان واحد وظائف مالية (تعتمد هى نفسها باطراد على تكنولوجيا الاتصالات) ووظائف الاتصـــال ٠ ويمنحها هذا الجمع بين العنصرين وضعا استراتيجيا استثنائيا تماما ٠

وفى دراسة عن امتداد سلطات وزارة البريد والاتصـــالات كتبت صحيفة التجارة والصناعة اليابانية تقول :

« ان أى مجتمع متطور محوره المعلومات ، التى تنتقل خلاله بسهولة بفضل الاتصالات اللاسلكية ، لا يمكن أن يتلخص فى هـــذه الســـمة وحدها ٠ فعندما تتدفق المعلومات يحدث بالمثل تدفق للناس والسلـــع والأموال ٠ فعلى سبيل المثال عندما تروج الدعاية معلومات عن منتج ما سيتوجه الناس ليشتروه ، أى أن تدفق المعلومات يصاحبه « تدفـق مادى » و « تدفق نقدى » ٠ ومن بين جميـــع الوزارات تعد « ام ٠ بى ٠ تى » هى الوزارة الوحيدة التى يشمل نشاطها مباشرة هذه الظواهـــر الثلاث » ٠

قد يختلف بطبيعة الحال توزيع الوظائف بين الوزارات والادارات الكبيرة فى دول أخرى غير أنه مما لا شك فيه أن السلطة ستتجه نحو الأجهزة التى ستسيطر على تنظيم المعلومات فى ظل الاقتصـــاد فـــائق الرمزية ، وتلك التى ستحصل على صلاحية الاشراف على الوظـــائف المرشحة للانتشار والتوسع ٠

وفيما يصبح التعليم والتدريب المهنى عناصر حاسمة للفاعليـــة الاقتصادية ، وفيما تزداد أهمية البحث العلمى والتنمية التقنية وتحظى مشكلات البيئة باهتمام متزايد ، ستكتسب الدوائر التى ستتبع لها هذه المجالات وزنا ضخما بالمقارنة بالدوائر التى ستظل مسئولة عن الوظائف المتدنية الأهمية ٠

غير أن انتقال السلطة بين الأجهزة البيروقراطية لا يمثل سوى جزء صغير من التطور العام ٠

الأمر العالمي بالخصخصـــة :

لم تتوقف الدول عن الاضطلاع بمزيد من المهام الجديدة طــوال نصف قرن من الزمان ، لكن العقود الأخيرة ، التى تتطابق مع الطور الأولى للاقتصاد فائق الرمزية ، شهدت تطورا ملحوظا فى الاتجاه المضاد ٠

ففى الاقتصادات المتقدمة بدأ زعماء مختلفون ، اختلاف رونالد ريجان الجمهـورى وفرنسوا ميتران الاشتراكى ، فى نـزع عـــدد من الأنشطة أو الوظائف من الدولة ٠ كما قامت عشرات البلدان الأخــرى بمحاكاتهم ٠ والأهم من ذلك أن زعماء الاصــلاح فى كل دول أوروبــا الشرقية تبنوا نفس الموقف وبدءوا جميعا ـ وتقريبا بين عشية وضحاها ـ فى المطالبة بالغاء تأميم الصناعات الرئيسية أو نقل أنشطتهـــا الى شركات أخرى عن طريق مقاولين من الباطن ، وكأن أمرا عالميا قد صدر « بالخصخصة » ٠

ويرى الكثيرون فى هذه الحركة علامة على انتصار الرأسماليــة على الاشتراكية ، ولكن لا يمكن اختزال هذا التوجه نحو التحول الى الملكية الخاصة بوصفه سياسة « رأسمالية » أو « رجعية » ، كما يحدث فى كثير من الأحيان ٠ كما أن معارضة هـــذه التدابير لا تـــدل عــلى « التقدمية » على الاطلاق ٠ ان المعارضة ، سواء أكانت صريحة أم خفية ، هى من فعل « الحزب الخفى » غير المنتخب الذى يدافـــع عن سلطته العريضة على حياة الناس ، وهو يمارس هذه السلطة بنفس القوة فى ظل حكومات « ليبرالية » أو « محافظة » ، « يمينية » أو « يسارية » ، « شيوعية » أو رأسمالية » ٠

وفضلا عن ذلك ، فان قلة من المراقبين هى التى لاحظت تماثــلا خفيا بين حركة الخصخصة فى القطاع العام واعادة هيكلة شركـــات القطاع الخاص ٠

لقد سبق أن رأينا شركات كبيرة تنقسم الى مراكز ربح صـــغيرة وتعمل على « تسطيح » التركيب الهرمى لديها وتخلق أشكالا حرة من نظم المعلومات تتناقض مع الممارسة البيروقراطية ذات الحويصـــلات والقنوات الرسمية ٠

غير أن عدداً صغيراً ، على ما يبدو ، قد أدرك أنه اذا ما تم تعديل الهياكل الاقتصادية دون المساس بهياكل الدولة فان ذلك كفيل باحداث حالة من عدم التوافق ومن الفصل التنظيمى الضار لكل منهما ٠ فعلى

النقيض من ذلك ، يتطلب الاقتصاد المتقدم تفاعلا مستمراً بينهما • وكما يحدث بالنسبة للأزواج بعد فترة من الحياة المشتركة ينتهى الأمر بالدولة وعالم الأعمال الى أن يتبادلا بعض السمات • فعندما تكون هناك اعـادة هيكلة فى جانب يكون من المتوقع حدوث تعديلات مقابلة فى الجانب الآخر •

التخلص من السمنة لسهولة الحركـة :

فى عام ١٩٨٦ عندما أصبح آلان موراى رئيسـا لمجلس ادارة شركة موبل ، كانت الشركة تحتل الترتيب الثالث من حيث الحجم بين كبرى الشركات الأمريكية • وشأنها فى ذلك شأن سائر شركات البترول انطلقت موبل فى بداية الثمانينيات فى تنفيذ برنامج واسع النطـاق لتنويع أنشطتها ، فقامت بشراء سلسلة التوزيع « مونتجمرى وارد » العملاقة وشركة « كونتينر » للتغليف والحاويات •

وبمجرد أن تولى موراى مهام منصبه بدأت ضربات الفأس تتوالى ، ففى أقل من عامين قام ببيع أصول تقدر قيمتها بـ ٦ر٤ مليار دولار ، بما فى ذلك الشركتين المذكورتين آنفا • ويقول موراى : « لقـد عـدنا الى قواعدنا ، اننا نعمل الآن فى المجال الذى نعرفه جيداً » • لقد اتضح أن مهنـدسى البترول ليسوا على جانب كبير من المهارة فى مجـال تسـويق أزياء النساء أو صناديق الكرتون •

وبدأت الدول أيضا تعيد النظر فى الوظائف التى تضطلع بها • ان ما يسميه عالم الأعمال « تجريد الشركة من الأنشطة الخارجة عـن مجالها » يطلق عليه رجال السياسـة فى العـالم كلـه الآن تعبير « الخصخصة » •

وهكذا قررت الحكومة اليابانية أن ادارتها للسكك الحديدية ليست بالأمر الحتمى • غير أنها عندما أعلنت عن نواياها لبيع الشركـة الوطنية للسكك الحديدية ، أضرب العاملون فيها وشنت حملة تخريب ، نسبت لمجموعة « النواة المركزية » الثورية اليسارية • وأتلفت الحملة المعدات الخاصة بالاشارات فى ٢٤ نقطة موزعة على سبع مناطق مما أصاب المواصلات فى منطقة طوكيو بالشلل ، كما تم احراق احـدى المحطات • واستنكرت نقابة عمال السكك الحديدية عمليات التخريب وان كان ذلك لم يخفف من معاناة عشرة ملايين مواطن من سكان ضواحى العاصمة من جراء الاضراب • وبالرغم من كل شىء ، تم تنفيذ المشروع وأصبحت شبكة السكك الحديدية ملكية خاصة •

كما قررت الحكومة اليابانية أيضا أنه لا مبرر لاستمرارهـا فى تحمل مسئولية الاتصالات الهاتفية ، وقامت ببيع مؤسسة نيبون للهاتف والتلغراف وهى الشركة التى تحتل الترتيب الأول بين الشركات اليابانية من حيث عدد العاملين بها (حوالى ٢٠٠ ألف) ٠ وسرعان ما أصبحت الشركة الخاصة التى حلت محلها ، لفترة قصيرة ، احدى أعلى الأوراق المالية قيمة فى بورصات العالم ٠

وتذكر عناوين الصحف ووسائل الاعلام فى بلدان أخرى عمليات مماثلة ، اذ حولت الأرجنتين عشرين شركة من القطاع العام الى القطاع الخاص وباعت ألمانيا شركة « فولكس فاجن » وتخلصت الدولة فى فرنسا من « ماترا » التى تنتج معدات عسكرية كما قامت فى الوقت نفسه بالغاء تأميم شركات كبرى مثل سان جوبان ومصرف باريبا والشركة العامة لكهرباء بل ووكالة هافاس للدعاية والاعلان ٠

أما فى بريطانيا ، فتقوم الحكومة ببيع نصيبها فى بريتيش أيروسبيس وبريتيش تليكوم ، وتتولى ادارة مطارات هيثرو وجاتويك وغيرهما هيئة المطارات البريطانية التى كانت فى السابق هيئة حكومية وأصبحت حاليا قطاعا خاصا وكذلك بعض خدمات الحافلات ٠ وفى كندا تبيع الدولة للجمهور جزءاً من رأسمال (ايركندا) الخطوط الجوية الكندية ٠

اذا نظرنا لعمليات الخصخصة التى تمت حتى الآن من منظور تاريخى فانها لا تمثل أكثر من لدغة برغوث على جلد ديناصور ٠ بل أن عملية اعادة تأميم الشركات التى انتقلت مؤخراً الى القطاع الخاص أمر غير مستبعد ، فى حالة حدوث تغير مفاجىء للأقدار السياسية أو انهيار اقتصادى عالمى ٠

وان كان ذلك لا يقلل من أننا نشهد عملية اعادة نظر فى مفهوم الدولة ومن المفترض أن يقودها ذلك الى تقليص حجمها والى اعادة تنظيمها طبقا لطرق موازية تقريبا لتلك التى يتبعها الاقتصاد الخاص ٠

غير أن الخصخصة ليست الترياق الذى بشرت أو تبشر به مارجريت تاتشر وغلاة الليبراليين ، لأن هذا التوجه يجر وراءه فى الغالب سلسلة طويلة من المشكلات بلا حل ٠ ولكن فى هذه المرحلة التى يتعين فيها على الحكومات أن تواجه بيئة عالمية سريعة وشديدة التغيير ، يتيح مفهوم الخصخصة لكبار المسئولين أن يدركوا بشكل أفضل الأهداف الاستراتيجية

ذات الأولوية وأن يتفادوا بالتالى تبديد موارد دافعى الضرائب على خليط من المصالح الثانوية ·

والأهم من ذلك ، أن الخصخصة تسارع من الاستجابات الحكومية سواء بالنسبة للمنشآت التى تتخلى عنها للقطاع الخاص أو ما تفضل الاحتفاظ به ، كما أنها تساعد الحكومات على أن تستعيد خطوتها السرعة التى تتزامن بشكل أفضل مع الايقاع المتسارع للحياة الاقتصادية والشخصية الذى يفرضه الاقتصاد الرمزى ·

الا أن الخصخصة ليست الطريق الوحيد الذى تحاول الدول أو الحكومات – عن وعى أو بدونه أن تسلكه لمواجهة الحقائق الجديدة ·

تفادى التسلسل الهرمى :

لقد ذكرنا آنفا أن العديد من الشركات الكبرى ، ابتداء من شركات السيارات الى شركات الطيران ، تجتهد للحد من درجة « التكامل الرأسى » ، وذلك بأن تتخلى عن القيام بكل شىء بنفسها بواسطة العاملين لديها وبأن تسند بعض المهام الى موردين خارجيين ·

وتعيد حاليا بعض الحكومات التفكير فى الأسلوب المناسب لأداء مهامها · أى أنها تتساءل هل من الأفضل الانتاج أم الشراء ؟ وهل من الضرورى أن تكون للدولة معاملها ومغاسلها وأن تقوم بآلاف المهام الأخرى التى يستطيع المتعهدون الخاصون القيام بها ؟ ويتزايد الآن اتجاه الحكومات نحو الأخذ بأن دورها هو ضمان توفير الخدمات وليس تأمين هذه الخدمات بشكل مباشر ·

وحتى اذا كان من الصعب التخلى للقطاع الخاص عن بعض الوظائف المحددة فان التوجه يسير نحو تفويض الأداء لجهات أخرى · ويجسد هذا الاتجاه – فى أطار الدولة – الموقف الجديد للشركات ازاء التكامل الرأسى ·

وفى الوقت نفسه ، تبدأ الدول – شأنها شأن الشركات الخاصة بالضبط – فى تخطى التسلسل الهرمى لبيروقراطياتها مما يؤدى الى مزيد من اضعاف السلطة البيروقراطية · وفى هذا الصدد يقول صاموئيل بوبكين ، أستاذ علم السياسة بجامعة سان دييجو (كاليفورنيا) :

« يوجد حاليا فى واشنطن عدد أقل من التسلسل الهرمى عما كان فى عصر روزفلت ، وعدد أقل من كبار المسئولين ممن يستطيع الرئيس الأمريكى أن يبرم معهم اتفاقا ثم يتوقع أن يقوموا بتطبيقه فى الادارة أو اللجنة المسئولين عنها » ٠

لقد أفلتت السلطة من أيدى كبار البيروقراطيين القدامى وأفسحت المكان لنظام أكثر سيولة ، وأكثر صعوبة أيضا فى معالجته أو التعامل معه ، حيث مراكز السلطة الجديدة لا تكف عن الانتقال من موضع الى آخر ٠

ومن ناحية أخرى ، تعمل تقنيات الاتصال المتقدمة على تآكل الأجهزة البيروقراطية للدولة وذلك باتاحة الفرصة لتجاوزها تماما ٠ وكتب صاموئيل كيرنيل زميل بوبكين فى سان دييجو يقول : « عندما تحدث أزمة فى أى مكان فى العالم يستطيع البيت الأبيض أن يتصل على الفور برجال فى موقع الأزمة [٠٠٠] وعندما يقدم هؤلاء المراقبون والمسئولون التقارير مباشرة وبشكل فورى للرئيس فانهم لا يتعاملون مع القنوات التقليدية للمعلومات أو مع سلسلة القيادة المعتادة » ٠ ويضيف كيرنيل « ان المتخصصين الذين لم تصلهم بعد المعلومات الطازجة ، معلومات آخر لحظة ، لا يمكنهم الرد على تساؤلات الرئيس » ٠

ولكن بالرغم من هذه التغيرات فان التعقيد المتزايد للمواقف وتسارع التحولات يجعل ردود الفعل البيروقراطية تزداد بطئا باطراد وبالتالى يتراكم المزيد من المشكلات التى أصبح واضحا أن البيروقراطية عاجزة عن معالجتها ٠

الفرق السرية ومجموعات التسليك :

فى الظروف العادية ، يرتكز جزء كبير من عمل رئيس الولايات المتحدة مثلا أو رئيس وزراء اليابان على الاختيار بين عدد من البدائل التى قامت البيروقراطيات التابعة له بدراستها واعدادها ، عن مشكلات ليس لديها سوى معرفة سطحية بها ٠ ويحدث ذلك عندما لا تنجح هذه البيروقراطيات منذ البداية فى التوصل الى اتفاق بشأن هذه المشكلات ٠

هنالك بالطبع قرارات لا يستطيع اتخاذها سوى قادة الدول مثل القرارات العاجلة أو المصيرية التى لا تستطيع انتظار طحين الرحى

البيروقراطية البطيئة ولا يمكن تأجيلها أو قرارات الحرب والسلام أو قرارات تتطلب السرية المطلقة . ان مثل هذه القرارات غير قابلة للبرمجة . الا أن مثل هذه الاختيارات نادرة نسبيا طالما تسير الأمور « بشكل اعتيادى » .

ولكن ما يحدث الآن ، مع بداية فترة ثورية جديدة يصطدم فيها نظام جديد لانتاج الثروة بهياكل السلطة القائمة لخدمة النظام السابق ، يجعل « الحالة الاعتيادية » تتطاير أشلاء . فكل يوم جديد يجلب معه خبر أزمة أو انطلاقة تكنولوجية غير متوقعة . ولم تعد المشكلات ـ داخلية كانت أو دولية ـ تطرح نفسها انطلاقا من معطيات ثابتة . ان تسارع الأحداث لا يترك أى أمل معقول فى امكانية السيطرة عليها .

فى مثل هذه الظروف ، تصبح أفضل البيروقراطيات عاجزة ، وتترك المشكلات الخطيرة تتفاقم حتى تتحول الى أزمات حادة . ولنأخذ مثلا مشكلة من « لا مأوى لهم » فى الولايات المتحدة : انها ليست مشكلة اسكان فحسب وانما تختلط بها مشاكل متعددة مثل ادمان الخمر والمخدرات ومشكلة البطالة والمرض العقلى أو ارتفاع أسعار أراضى البناء . وكل مشكلة من هذه تتبع جهازا بيروقراطيا معينا ولا يستطيع أى من هذه الأجهزة التصرف بشكل فعال بمفرده . وفى الوقت نفسه لا يرضى أى جهاز منها التخلى عن أصغر نصيب من ميزانيته أو سلطته أو منطقة نفوذه لجهاز بيروقراطى آخر . وبالتالى تصبح مشكلة من « لا مأوى لهم » هى التى تفتقر الى محل اقامة ثابت وليس المشردون وحدهم .

كما تتطلب مشكلة المخدرات اجراءات متكاملة ومتزامنة من قبل العديد من الأجهزة البيروقراطية كالشرطة والصحة العامة والمدارس ووزارة الخارجية واللوائح المنظمة لعمل البنوك ولوسائل النقل بالاضافة الى العديد من الادارات الأخرى المشتركة فى المسئولية . غير أن جعل هذه الجهات تعمل متضافرة على نحو فعال يكاد يكون مستحيلا .

وتولد سرعة التحولات التكنولوجية والاجتماعية مشكلات « متشابكة » من هذا النوع فى كل مكان ويتزايد عدد من يسقط منها فى دائرة الاهمال ، بينما تهدر موارد الدولة فى صراعات جديدة حول الاختصاصات ويتزايد تأخير أى عمل ايجابى .

وفى ظل هذا المناخ يجد القادة أنفسهم فى وضع يمكنهم من نـزع السلطة من بيروقراطياتهم . فعندما يرون أن المشكلات تتحول الى أزمات فانهم يحاولون اعادة الأمور الى نصابها باتخاذ تدابير قصوى والحصول على نتائج باللجوء الى تشكيل كل أنواع لجان العمل المتخصصة و « مجموعات التسليك » و « الفرق السرية » .

وقد يصل الأمر بالبعض ، من جراء احساسه بالاحباط ، الى احتقار وتجاهل التسلسل الهرمى وموظفيه بحيث يضع ثقته بشكل متزايد فيمن تربطه بهم صلات حميمة ، ويلجأ الى ممارسة السرية والى الأوامر غير الرسمية وكل وسيلة تؤدى الى تخطى البيروقراطية وتنتهى بتقويض قوتها .

وهذا ما فعله بالتحديد البيت الأبيض فى ظل رئاسة ريجان عندما تورط فى قضية ايران جيت التعسة . وذلك حين أعد « مشروعه » السرى الهادف الى بيع أسلحة لايران ثم تحويل الأرباح لجماعة الكونترا فى نيكاراجوا ، مجازفا بذلك بخرق القانون .

وكان جورج بوش قد قام بتجربة مماثلة . ففى عام ١٩٨٩ طلب من وزارة الخارجية والبنتاجون اعداد مقترحات له لتقديمها للناتو فى منتصف ذلك العام . وعلى الفور قامت الجماعات المعتادة من كبار ومتوسطى الموظفين بوضع النظارات ومضغ أطراف أقلامهما ، غير أن ما قدموه للرئاسة لم يكن فى النهاية سوى مجموعة توصيات عادية ومعادة .

لكن الرئيس بوش كان يحتاج وبشدة نظراً لضغوط داخلية وخارجية الى افتتاحية أكثر اثارة لموازنة تأثير ماقدمه فى ذلك الحين ميخائيل جورباتشوف . ولتحقيق ذلك وضع التقرير البيروقراطى فى سلة المهملات وعقد اجتماعا ضم بعض الوزراء ومجموعة صغيرة من كبار المستشارين وأعد خطة لسحب جزء من القوات الأمريكية من أوروبا ، وهى خطة نالت على الفور موافقة الحلفاء والرأى العام الأمريكى .

وبالمثل تجاهل المستشار الألمانى هيلموت كول عمداً وزير خارجيته عندما أعلن لأول مرة الشروط العشرة التى وضعها لاعادة توحيد ألمانيا . وفى كل مرة يتخطى فيها قائد أو رئيس دولة البيروقراطية بهذا الشكل فانها تبدأ فى نشر توقعات مشئومة عن الكارثة التى ستتبع ذلك

ويصل بها الأمر فى كثير من الأحيان الى حد تنظيم عمليـات تسريب للمعلومات بهدف تعريض تطبيق السياسة الجديدة للخطر ·

ولكن فى أوقات الاضطراب التى تتطلب استجابات وردود فعـل فورية ومبتكرة يصبح واضحا أن تجاوز الوزارات والادارات الكبرى هو الوسيلة الوحيدة لانجاز شىء ما · وهو ما يفسر انتشار الوحدات الخاصة و « خلايا الأزمة » غير الرسمية التى يتزايد عددها فى الدوائر الحكومية على حساب البيروقراطية وبالتنافس معها ·

ان حركة الخصخصة وعملية اعادة التوزيع الواسعة للسـلطات التى ترتسم على الأصعدة المحلية والاقليمية وفوق القومية ، تعلن عـن تغيرات أساسية فى أبعاد الدولة وتنظيمها · ويبـدو أن تقدم الاقتصاد فائق الرمزية يمارس على الحكومات ضغوطا متزايدة القوة ستضطرها الى الدخول فى عملية اعادة هيكلة مؤلمة ، كما حدث من قبل للشركات الكبرى ·

لقد بدأت هذه الأزمة التنظيمية الحادة فى الظهور فى الوقت الذى يتعين فيه على المسئولين السياسيين مواجهة نظام عالمى غير مستقر الى حد بعيد ، فضلا عن كل الأخطار التى سبق ذكرها فى الفصل السابق ابتداء من الكوارث البيئية المهولة الى انفجارات الحقد العرقى ومظاهر التعصب المتضاعفة ·

اذن ، يجب توقع أن يصاحب الانتقال الخطير من ديمقراطيـة الجماهير الى الديمقراطية الفسيفسائية صراع ضار من أجـل السيطرة على النظام بين المسئولين السياسيين والبيروقراطيين ·

الفصل الثاني والعشرون

تكتيكات المعلـومات

نحن نعيش اليوم فى عصر الاعلام الفورى ، اعلام يطلق وابلا متصلا من الصور والرموز و « الوقائع » التى تطمح جميعهـا فى الاستئثار بانتباهنا . ولكن كلما أدى تقدم « مجتمع المعلومات » الى مضاعفـة البيانات والمعلومات المجهزة والمعرفة المستخدمة فى الحكم ، قد تصبح معرفة حقيقة ما يجرى أصعب بالنسبة لكل الناس ، بما فى ذلك القادة السياسيين .

لقد كتب الكثير عن الطريقة التى يحرف بهـا التليفزيون والصحافة الصورة التى نصنعها لأنفسنا عن الواقع ، سواء بشكل متعمد أو نتيجة للرقابة أو حتى بشكل غير ارادى تماما . ويثير المواطنون الواعـون قضية موضوعية ما ينشر من خلال وسائل الاعلام المطبوعة والالكترونية، الا أن هناك مستوى أعمق من التحريف لم ينل بعد حظا يذكر من الدراسة والفهم والتحليل .

فى الأزمات السياسية التى تهدد الديمقراطيـات ذات الاقتصـاد المتقدم سيتم استخدام « تكتيكات المعلومات » من قبل كل من يعنيهم الأمر من السياسيين والبيروقراطيين والعسـكريين وجماعـات الضـغط الاقتصادية ، فضلا عن المد الصاعد من جماعات المواطنين . أى انهم سيقودون « لعبة السلطة » مستخدمين وسـائل قائمـة على التلاعب بالمعلومات ، على أن يتم ذلك أساسا قبل أن تصل هـذه المعلومات الى وسائل الاعلام .

وسوف تكتسب هذه التكتيكات أهمية كبـرى فى الحياة السياسية نظرا لتراكم البيانات والمعلومات فى أجهزة الكمبيوتر قبل تدفقها منهـا فى دفعات كبيرة .

ولكن قبل محاولة فهم التقنيات المتطورة التى ستمارس تأثيرها فى المستقبل ، يجدر بنا أولا فحص الطرق التى يستخدمها أفضل المتبارين نجاحا فى ساحة السلطة الآن · هذه التقنيات « التقليدية » لا تدرس فى أى مدرسة وانما يطبقها المتبارون الأذكياء بشكل حدسى على مسرح السلطة السياسية ، دون أن يتم قط تكويد قواعدها أو صياغتها بشكل منهجى ·

وطالما لم يتم وضع هذا التقنين بشكل واضح ، فان كل ما نقوله عن « شفافية الدولة » و « المواطن المطلع » و « حق الجمهور فى المعرفة» لن يعدو أن يكون نوعا من البلاغة ، لأن تكتيكات المعلومات تمس بعض أهم مفاهيمنا الديمقراطية وأكثرها أساسية ·

أسرار عن البرسيم وعمليات تسريب موجهة :

فى يوم ٤ يوليو ١٩٦٧ وقع الرئيس ليندون جونسون فى البيت الأبيض « قانون حرية المعلومات » ، وخلال الاحتفال الذى أقيم بمناسبة التوقيع أعلن الرئيس الأمريكى أن « حرية المعلومات من الحيوية بحيث لا يجوز تقييدها الا لدواعى الأمن القومى ، وليس لرغبات مسئولى الدولة أو المواطنين » ·

وبمجرد أن انتهى جونسون من كلمته سأله احد الصحفيين اذا كان يمكنه الحصول على نسخة من المسودة الأصلية لتلك الكلمة · وكان طلب الصحفى هو أول طلب يقدم فى ظل الحريات الجديدة التى يكفلها القانون ·

ورفض جونسون الطلب ببرود ·

ويعتبر « تكتيك السرية » أقدم تكتيكات المعلومات وأكثرها انتشارا، وتصنف الحكومة الأمريكية حاليا حوالى ٢٠ مليون مستند سنويا تحت عنوان « سرى » ، وأغلبية هذه المستندات لها صفة عسكرية أو دبلوماسية وان كان بعضها فقط قد يسبب حرجا للادارة العليا · واذا كانت هذه الممارسة قد تبدو غير ديمقراطية بل نوعا من النفاق ، فان أغلبية البلدان الأخرى تذهب الى أبعد من ذلك بكثير ، اذ تعتبر الأرقام الخاصة بمحصول البرسيم والاحصائيات السكانية من أسرار الدولة · وأحيانا قد تسلك بعض الحكومات سلوكا يتسم بنزعة تشكك وارتياب مرضية بحيث يعتبر كل شىء سرا بشكل مسبق ، فيما عدا اذا كان هناك تصريح نشر خاص بذلك ·

والسرية بالطبع هى احدى الأدوات المألوفة للقمع والفساد ، وان كان لها أيضا مبرراتها وفضائلها • ففى عالم حافل بقادة عسكريين مثيرين للقلق وبساسة تربطهم علاقات بعالم المخدرات وبمهووسين دينيين يدعون الى القتل ، يصبح من الضرورى الالتزام بالسرية للحفاظ على الأمن العسكرى • ومن ناحية أخرى فان للسرية ميزة كبرى ألا وهى أنها تتيح للمسئولين أن يقولوا أشياء لا يجرؤون قط على نطقها أمام كاميرات التليفزيون ـ بما فى ذلك أشياء يتعين قولها • فبفضل السرية يستطيعون انتقاد سياسات رؤسائهم دون احراجهم علنا أو التوصل الى حل وسط مع خصوم أو أعداء • ان معرفة كيف ومتى تستخدم السرية هى احدى المهارات الرئيسية لكل من رجل الدولة والبيروقراطى •

كما أن السرية هى التى تتيح امكانية استخدام تكتيك المعلومات الآخر الذى لا يقل عنها انتشارا والذى يعد أداة تقليدية أخرى من أدوات السلطة ، ألا وهو « التسريب الموجه » للمعلومات •

بعض الأسرار تظل كذلك وبعضها يتم تسريبه • وعندما يتسرب سر بشكل غير مقصود فمعنى ذلك ببساطة أنه سر لم يحسن كتمانه • وهو احتمال يدفع المسئولين أحيانا الى ردود فعل جنونية • فعلى سبيل المثال يقال ان مسئولا فى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية تساءل قائلا : « لماذا يتعين علينا ارسال تقديراتنا عن الصين للقيادات العسكرية الأمريكية فيما وراء البحار ، بدعوى أن العمليات تدور هناك ؟ فهناك أيضا تتم عمليات التسرب » •والخلاصة أنه من الأفضل الاحتفاظ بالمعلومات السرية بدلا من ارسالها الى من يحتاجونها •

وعلى النقيض ، تمثل عمليات « التسريب الموجه » صواريخ معلوماتية يتم اطلاقها عن عمد لتصيب أهدافا محددة •

ففى اليابان حققت بعض حالات « التسريب الموجه » نتائج مدهشة • لقد أتاحت فضيحة ريكروت ـ كوزموس المالية ، التى أدت فى عام ١٩٨٩ الى سقوط رئيس الوزراء اليابانى نوبورو تاكيشيتا ـ فرصة عظيمة لمنظمى عمليات التسريب فى مكتب النائب العام يوسوكى يوشيناجا للقيام بحملة ماهرة لتغذية الصحافة اليومية بشكل منتظم بالمعلومات السرية • وكتب تاكاشى كاكوما وهو مؤلف لعدة كتب عن الفساد فى اليابان يقول : « اننى واثق أن التحقيق كان سيتوقف لولا المعلومات التى تم تسريبها الى الصحافة » •

كان الصحفيون يتلقون فى لحظات محسوبة بعناية دفقات محددة من المعلومات ، التى كانت بمثابة أجزاء من عملية تلحين ايقاعى شديد الانضباط تمارسه سلطات التحقيق ٠

فلقد حال وصول هذه المعلومة التفصيلية أو تلك الى الصحافة دون تدخل كبار المسئولين فى وزارة العدل لايقاف التحقيقات ولحماية الشخصيات المهمة فى حكومة تاكيشيتا وفى الحزب الديمقراطى الليبرالى ٠ ولولا عمليات التسريب الموجهة تلك ربما كانت الحكومة ستظل باقية ٠

وفى فرنسا لعبت عمليات التسريب الموجه دورا سياسيا مهما ومعترفا به تاريخيا ٠ تشير احدى وثائق البيت الأبيض ، فى معرض ذكرها للصعوبات التى عانت منها فرنسا للخروج من حرب الهند ـ الصينية ، الى أن « عمليات التسريب والتسريب المضاد كانت عادة تكتيكا مقبولا من تكتيكات السياسة الداخلية ٠٠٠ حتى التقارير والأوامر المتعلقة بالحرب والشديدة السرية كانت تنشر بحذافيرها فى صحافة الأحزاب السياسية » ٠

أما فى لندن فان عمليات التسريب منتشرة لدرجة انها ولدت مناخا من الريبة والتشكك يضر بالتجديد والابتكار على حد قول جيفرى باتى وزير التجارة والصناعة البريطانى ٠ ويؤكد باتى أن المسئولين يترددون فى التعبير عن أية أفكار جديدة خوفا من أن يتم تسريبها فى الحال مما قد يعرض صاحبها للسخرية قبل أن يتاح لاقتراحه أية فرصة للدراسة والتقييم ٠

ويضيف الوزير البريطانى قائلا : « لكن اذا لم يوجد من يفكر ، وهو ما يؤدى آجلا أو عاجلا الى التفكير بصوت عال ، فلن تكون هناك أفكار جديدة ولا حتى تجديد للأفكار القديمة » ٠

واتخذ الخوف من عمليات التسريب فى واشنطن أبعاد فوبيا حقيقية بعد أن أجبرت عمليات التسريب الموجهة ، غير المعروفة مصادرها حتى الآن ، ريتشارد نيكسون على الاستقالة من رئاسة الولايات المتحدة ٠ وفى هذا الصدد يقول ديف جيرجن ، وهو مسئول سابق عن العلاقات العامة فى البيت الأبيض : « منذ ١٥ عاما كان مساعدو الرئيس لا يتحرجون من كتابة تقارير صريحة والتعبير عن اختلافهم مع زملائهم ـ أو مع الرئيس ـ حول موضوعات مهمة ٠ ولكن بعد فضيحة ووترجيت اختفى

كل ذلك ، فسرعان ما تعلم الجميع ألا يكتبوا ما لا يحبون أن يجدوه فى الصفحة الأولى فى جريدة واشنطن بوست ··· وأصبح الشعار : لا تقولوا شيئا مثيرا للجدل أو اللبس فى وجود أكثر من شخص واحد » ·

ويشير هذا المسئول السابق الى أن ذلك يؤدى الى نتيجة عجيبة وهى أنه « عندما تكون القضايا المطروحة غير ذات بال حقا ، تتولى دراستها جيوش من البيروقراطيين ، فى حين كلما كانت القضية خطيرة قل عدد من يتولونها ، والسبب فى ذلك قد يكون فقط الخوف من عمليات التسريب » ·

وبالطبع فان نفس المسئولين الذين يلعنون مدبرى عمليات التسريب يكونون هم أنفسهم أفضل منظمى هذه العمليات فى كثير من الأحيان · فهنرى كيسينجر عندما كان مستشارا للأمن القومى فى البيت الأبيض قرر ذات يوم وضع هواتف معاونيه تحت المراقبة لكى يتأكد هل يسربون معلومات محرجة للصحافة أو الكونجرس · ولكن كيسنجر نفسه كان ولا زال أستاذاً فى التسريب ·

فى الحروب السياسية والبيروقراطية لا تمثل السرية وعمليات التسريب المنظمة سوى أكثر تكتيكات المعلومات شيوعا واستخداما وان كانت ليست أكثرها أهمية ·

المصدر المقنع :

يتطلب انتقال أى بيانات أو معلومات أو معرفة من نقطة الى أخرى ما يلى :

١ ـ مصدر أو مرسل ·
٢ ـ مجموعة من القنوات أو الوسائط لنقل الرسالة ·
٣ ـ جهة مستقبلة · ثم
٤ ـ رسالة بالطبع ·

ومن ثم يستطيع المشاركون فى لعبة السلطة التدخل عند كل عنصر من هذه العناصر ·

ولنر أولا المرســـل ٠

عندما نجد فيبريدنا رسالة فان أول ما نريد معرفته هو شخصية المرسل ٠ ففى الواقع تمثل هوية المرسل سـمة أسـاسية لأية رسـالة ٠ لأنها تساعدنا ضمن أشياء أخرى على تحديد المصداقية التى يمكن أن نوليها للرسالة ٠

وهو ما يفسر انتشار استخدام « تكتيك المصدر المقنع » ٠ فتجمعات المواطنين التى ترسل الملايين من طلبات جمع الأموال ، معلنـة أنهـــا مستقلة سياسيا ، قد تكون فى حقيقة الأمر ممولة سريا من أحد الأحزاب وتحت سيطرته ٠ كما يمكن للجنة عمل سياسى ذات اسم جذاب أن تكون أداة لوكيل مصالح اقتصادية جشعة ٠ وقد تعمل منظمة ذات أهداف وطنية ـ ظاهريا ـ فى خدمة بلد أجنبى ٠ فوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية (س٠ آى٠ايه) وأجهزة المخابرات السوفيتية (كى٠جى٠بى) تقـدم الأموال سرا لمطبوعات ودور نشر ونقابات ومؤسسات أخرى فى البلدان التى تهمها حيث تعمل على اقامة جمعيات ومنظمات صـــداقة ٠ ان تكتيك « المصدر المقنع » هو الأسلوب الأساسى لتجمعات عديدة تقـوم بدور الواجهة الأمامية وهى تمثل فى الواقـع كـل الألوان السياسية الممكنة ٠

وهناك طرق عديدة لاخفاء مصدر الرسالة ومواقع متنوعة يتم فيها ذلك ، أبتداء من قاعات مجالس الادارة الى زنزانات السجون ٠

لقد روت قاتلة سجينة كيف نجحت فى أن تحرك دعوى قضائية أمام المحكمة العليا ضد أحد الحراس ، كان لا يكف عن مضايقتها ٠ قالت انه كان بامكانها أن توجه شكوى مكتوبة لمدير السجن ولكن اذا علم الحارس بها كان سيزيد ذلك من شقائها ٠ كمـــا كان بوسعهـــا أن تكتب مباشرة الى أحد المسئولين السياسيين لابلاغه عن المعاملة السيئة التى هى ضحيتها ، وأن تطلب منه الضغط على مدير السجـــن كى ينقـــل الحارس ٠ غير أن هذه الخطوة كانت تنطوى على مجـــازفة أكبر من سابقتها ٠

ثم أضافت السجينة فى عبارة تستحق أن تذكر « لحسن الحظ ، السجون مليئة بالمثاليين ، وبالتالى تمكنت من العثور على سجينـــة أخرى كتبت الى المسئول نيابة عنى » ٠ ومعنى ذلك أنها أخفت المصدر الحقيقى للرســـالة ٠

وفى الشركات كما فى الدولة تمارس القيادات فى كل مكـــان تنويعات من هذه اللعبة ٠ فعندما يقوم مرؤوس باستخدام اسم رئيســه (غالبا دون اذنه) ليحصل على مزية ما فانه بذلك يستخدم تكتيـــك المصدر المقنع ٠

ثمة مثال أصبح متعارفا عليه : ففى عــام ١٩٦٣ نجحت طريقــة المصدر المقنع في التأثير على السياسة الأمريكية أثناء حرب فيتنام ، وذلك عندما أعد روبرت مكنمارا وزير الدفاع والجنرال ماكسويل تيلور تقريرا يؤكدان فيه للرئيس والشعب الأمريكى أنه « ممن الممكن سحب الجزء الأكبر من العتاد العسكرى الأمريكى » بنهاية عام ١٩٦٥ ٠

وكان يعزز هذا التوقع بيانات يفترض أنها واردة من سايجون ٠ ولكن ما كان يجهله كل من وجه اليه هذا التقرير ، أن جزءا كبيرا من المعلومات التى كان تاريخها ومكان صدورها سايجون قد تمت صياغتها ، فى الحقيقة ، فى واشنطن ثم أرسلت الى فيتنام ، ومن هناك عادت الى واشنطن لتبدو وكأنها مستندات واردة من مسرح الأحداث ٠ وكان هدف المناورة فى هذه الحالة منح هذه البيانات مصداقية مختلقة ٠

وهناك رسائل أخرى ذات مصدر مقنع هى فى حقيقة الأمر مزورة بالكامل ٠

ونادرا ما يستخدم هذا النوع من الرسائل فى الحرب البيروقراطية اليومية وان كان معروفا تماما فى مجال السياسة الدولية ، حيث أثرت أحيانا بعض المستندات المزورة على مجرى التاريخ - مثل « برقيـــة زيمر مان » التى أسهمت فى دخول الولايات المتحـــدة الحـــرب العـــالمية الأولى ٠

وفى عام ١٩٨٦ أعلنت وزارة الخارجيـــة الأمريكية أن الوثيقــة التى تدعى عرض ما دار فى اجتماع « سرى » عقد فى البنتاجون وثيقة زائفة ٠ وطبقا للنص المطعون فى صحته فان وزير الدفاع آنذاك كاسبر واينبيرجر اكد خلال هذا الاجتماع أن مبادرة الدفـــاع الاستراتيجى « ستمنح الولايات المتحدة [٠٠٠٠] القدرة على تهديد الاتحاد السوفيتى بضربة قاضية » ٠

واذا كانت هذه المقولة صحيحة فان ذلك كان كفيلا بتدعيم الحجج السوفيتية ضد المشروع ٠

لكن الوثيقة كانت مزورة · ولقد تم توزيعها فى ألمانيا الغربيـــة (بواسطة السوفييت افتراضا) لخدمة الحملة العامة المعارضة للبرنامج الأمريكى · وكانت قد ظهرت وثيقة مزيفة أخرى تتناول الموضوع نفسه فى الصحافة النيجيرية ·

ولقد ظهرت فى واشنطن مؤخرا وثيقة مزيفة مناهضة لليابان · وذلك عندما قرأ توم مكميلان عضو الكونجرس أمـــام مجلس النواب الأمريكى ما قدمه على أنه « مذكرة حكومية يابانية داخلية رفيعـــة المستوى » ·

وكان النص ، المفترض أنه موجه لرئيس الوزراء من « مساعده الخاص للتنسيق السياسى » ، يوصى بتوجيه الاستثمارات اليابانية فى الولايات المتحدة نحو دوائر انتخابية معينة حيث يمكن أن تستخـــدم للتأثير على السياسة الأمريكية ·

ولم يكن هناك أفضل من هذه المذكرة لاذكــاء الحملة المناهضــة لليابان فى الولايات المتحدة · لكن اتضح أن الوثيقة مختلقة · وتم فى النهاية تحديد مصدرها وتبين أنه رونــالد مورس أحد المســئولين عن البرنامج الآسيوى فى مركز أبحاث وودرو ويلسون · وأكد مورس أنه كتب الوثيقة لكى يوضح بطريقة درامية ما كان يعتبره ممارسات جارية بالفعل من جانب اليابانيين · كما ادعى أنه نبه الذين أطلعهم عليها الى أنها وثيقة خيالية ·

طعنات فى الظهر وقنوات خلفية :

كل الرسائل تمر عبر قنوات ، غير أن بعض القنوات أكثر طبيعية من غيرها ·

وتعلم أية قيادة أن قائمة الذين يستقبلون الرسائل تمثل أداة سلطة نظرا لأنها تحدد من سيتلقى مستندا ما ومن لن يتلقاه · ان ترك شخص ما « خارج الدائرة » يعد طريقة لتكبيل يديه ، وأحيانا ما يكون ضحية هذه الطريقة هو أعلى مسئول فى المكان ·

عندما كان جون كيلى سفيرا للولايات المتحـــدة فى بيروت كان يتصل مباشرة بمجلس الأمن القومى التابع للبيت الأبيض ، مستخدمـــا

قنوات اتصال خاصة بالـ (سى · آى · ايه) بدلا من القنوات الرسمية المعتادة لوزارة الخارجية · ومعنى ذلك أنه كان يتخطى رئيسه المباشر ألا وهو جورج شولتز وزير الخارجية حينذاك ·

وأثناء اقامته فى واشنطن التقى كيلى كثيرا بأوليفر نورث وأعضاء آخرين فى مجلس الأمن القومى بخصوص خطتهم لبيع الأسلحة لايران مقابل الافراج عن الرهائن وهى الخطة التى لم يوافق عليها شولتز ·

وعندما علم شولتز بتصرفات كيلى فى بيروت انتابه حنق شديد حتى انه احتد على السفير علانية ، وحظر قطعيا على العاملين فى وزارة الخارجية استخدام قنوات أخرى غير قنوات الوزارة الا بتصريح صريح من الرئيس أو منه شخصيا · لكن من غير المرجح أن تنجح مثل هذه الأوامر فى استبعاد هذا النوع من الممارسة نهائيا · فالقنوات الخلفية ذات نفع كبير فى صراعات السلطة ·

وعندما علم لى هاميلتون ـ عضو الكونجرس ورئيس لجنة الاستخبارات بمجلس النواب ـ بهذه الواقعة لم يتمالك سخطه وصاح : « لا أعتقد أننى سمعت من قبل عن حدوث شىء كهذا ـ مثل هذا التخطى الكامل لوزير خارجية أمريكى ! » ·

قد يكون الغضب قد غشى ذاكرته ، لأنه فى الواقع قد حدث الشىء نفسه تماما عندما اتصل سفير الولايات المتحدة فى باكستان سرا بمجلس الأمن القومى دون المرور بوزير الخارجية · وكان هنرى كيسينجر ـ رئيس مجلس الأمن القومى حينذاك ـ هو الذى أقام هذه القناة الخلفية · واستخدم كيسينجر هذه القناة للتحضير لمهمة الرئيس نيكسون السرية فى الصين التى انتهت باعادة العلاقات بين البلدين ·

وكان هنرى كيسينجر ممارسا متحمسا لعمليات الاتصال عبر القنوات الخلفية ، شغوفا دائما بالاحتفاظ بالمعلومات فى يده وإبعادها عن النظام البيروقراطى الرسمى · ولقد طلب ذات يوم من وليم بورتر ـ سفير الولايات المتحدة فى كوريا الجنوبية ـ الاتصال به مباشرة دون المرور برئيسه الرسمى وليم روجرز وزير الخارجية آنذاك ، زاعما أنه حصل على موافقة الرئيس على ذلك ·

وسجل بورتر رد فعله فى مذكراته حيث قال : « ها هى دائرة نيكسون ـ كيسينجر الدبلوماسية السرية بشفراتها ورموزها السرية

وغيرها ·· اذا كان الرئيس قد وافق علي خلق شبكة سرية من السفراء تحت اشراف مستشاره للأمن القومى ، بدون علم وزير الخارجية ، فمعنى ذلك أن شيئا جديداً تماما يحدث فى التاريخ الأمريكى ·· ولقد انتهيت الى اننى مجرد فلاح جاهل ، وأن ما يحدث ليس من شأنى ، ولم أتحرك » ·

وخلال مفاوضات اتفاقية « سالت » مع السوفيت ، كان يرأس الوفد الأمريكى فى جنيف جيرارد سميث · ولكن كيسينجر ورؤساء هيئة الأركان المشتركة في البنتاجون أقاموا قناة اتصال خاصة مع بعض أعضاء الوفد من غير علم سميث ·

كما كانت لكيسينجر صلة مباشرة مع موسكو ، متخطيا بذلك وزارة الخارجية ، حيث كان يبعث برسائل للمكتب السياسي عن طريق السفير أناتولى دوبرينين بدلا من امرارها عبر القناة الطبيعية لمسئولى وزارة الخارجية الأمريكية ونظرائهم فى وزارة الخارجية السوفيتية · وفى موسكو كان بعض أعضاء المكتب السياسى وسكرتارية الحزب والسلك الدبلوماسى فقط يعلمون بوجود مثل هذا التبادل غير الرسمى ·

غير أن أشهر مثال لاستخدام تكتيك الالتفاف وأكثرها أهمية من الناحية التاريخية هو مثال المفاوضات التى أسهمت فى تفادى حرب عالمية ثالثة ·

حدث ذلك أثناء أزمة الصواريخ السوفيتية فى كوبا · فبينما العالم كله يحبس أنفاسه ، تبادل الرئيس كنيدى ورئيس الوزراء السوفيتى خروتشوف العديد من الرسائل الرسمية · كانت الأراضى الأمريكية مهددة بشكل مباشر وكان كنيدى قد أمر بفرض حصار بحرى على كوبا · وفى ساعات التوتر القصوى تلك ، قام خروتشوف بارسال الكسندر فومين ــ الممثل الرئيسى لـ « كيه· جى· بى » فى واشنطن ــ للاتصال بالصحفى الأمريكى جون سكاللى الذى كان فومين قد التقى به من قبل ·

وفى اليوم الرابع للأزمة وبينما الخطر يتفاقم من ساعة الى أخرى، سأل فومين اذا كان سكاللى يعتقد أن الولايات المتحدة ستتعهد بعدم غزو كوبا فى حالة سحب السوفيت لصواريخهم وقاذفاتهم · وكانت هذه الرسالة التى نقلها الصحفى الى البيت الأبيض منعطفا حاسما فى الأزمة ·

طريقة القناة المزدوجـــــة :

غير أن مثل هذه الاستخدامات لتكتيك الالتفاف والقناة الخلفيــة تظل بالرغم من كل شيء ، بسيطة مقارنة بالطريقة الأكثر تطوراً والتى يمكن تسميتها « تكتيك القناة المزدوجة » · وهى تتلخص فى توجيه رسائل ذات مضامين متباينة بل ومتناقضة عبر قناتين مختلفتين ، وذلك لاختبار ردود أفعال المتلقين أو لاثارة البلبلة والنزاع بينهم ·

أثناء المفاوضات الخاصة بنظم الصواريخ المضادة للصواريخ لجـأ كل من كيسينجر وأندريه جروميكو وزير الخارجية السوفيتية مرتين الى استخدام قناة خلفية لكى يتفادى كل منهما التسلسل الهرمى الوظيفى الخاص به · وخلال هذه المحادثات ، وبالتحديد فى مايو ١٩٧١ وأبريل ١٩٧٢ شك كيسينجر فى أن الروس يستخدمون ضده تكتيك القنـــاة المزدوجـــة ·

وبعـد ذلك بســنوات كتب أركادى شيفشينكو المســاعد السـابق لجروميكو ، والذى لجأ الى الولايات المتحدة ، فى مذكراته أن شكـوك كيسينجر لم يكن لها أساس فى الواقع · اذ لم تكن هناك مناورة مقصودة بل خلط نتيجة أن أحد الممثلين السوفيت تصرف « طبقا لتعليمات قديمة لموسكو لأنه لم يكن على علم بالتعليمات الأحدث » ·لا يهم هنا أن يكون ما افترضه كيسينجر صحيحا أم لا ، انما الواضح أن تكتيك القناة الخلفية والقناة المزدوجة من التكتيكات الواسعة الاستخـــدام فى منـــاورات السلطة ·

الطرف المتلقى :

على الطرف الآخر من عملية الاتصال توجد أيضا طائفة مدهشــة من الألعاب الصغيرة لدى المتلقين ·

ويعتبر تكتيك الوصول أكثرها شيوعا وهو يتلخص فى محاولـــة مراقبة كل ما يصل الى رئيسك ومن ثم التحكم فى المعـــلومات التى يستقبلها · وهى طريقة معروفة على كافة المستويات ابتداء من السكرتيرة البسيطة الى المسئولين فى أعلى المناصب · ان ما يثيره حق الوصـول من صراعات ومنازعات من الانتشار بحيث لا يوجد ما يدعو الى التوسع فى هذا الموضوع ·

ثم يأتى بعد ذلك تكتيك « من يحتاج أن يعرف ؟ » . وهو التكتيك المفضل عند أجهزة المخابرات وشبكات الارهابيين والحركات السياسية السرية ، حيث يتم تقسيم البيانات والمعلومات والمعرفة الى فئات ولا يتم ارسالها الا الى متلقين معينين لديهم صلاحية « من يحتاج أن يعرف » .

وفى الجانب المقابل يوجد نقيض هذا التكتيك ألا وهو تكتيك من « لا يحتاج أن يعرف » . ويوضح وزير سابق فى البيت الأبيض هذا المفهوم على النحو التالى :

« هل ينبغى لى كمسئول فى البيت الأبيض أن أعرف هذا الشيء أو ذاك ؟ واذا علمته هل يعنى ذلك أنه على أن أتخذ اجراء ما ؟ والشخص الذى أبلغنى به ألن يذهب الى شخص آخر ويقول له : « لقد ناقشت هذا الموضوع مع البيت الأبيض ؟ » ان ذلك يمكن أن يورطنى فى نزاع قذر بين طرفين آخرين بشأن شىء لا أعلم عنه شيئا ولا علاقة لى به [....] لقد كان هناك الكثير مما كنت أفضل ألا أعرف عنه شيئا » .

ويستخدم المرؤوسون أيضا تكتيك « من لا يحتاج أن يعرف » لحماية رؤسائهم . فاذا لم يبلغ الرئيس بالمعلومات فانه يستطيع أن يدفع بالجهل بالموضوع اذا ساءت الأمور .

ولقد انتشرت فى واشنطن مزحة ذات دلالة أثناء التحقيق فى فضيحة أيران جيت . تقول المزحة :

سؤال : « الى كم شخص يحتاج تركيب مصباح كهربى فى البيض الأبيض ؟ » .

الاجابة : « لا أحد . انهم يحبون ابقاء ريجان فى الظلام » .

كما يوجد أيضا تكتيك « المجبر على المعرفة » المشهور أكثر باسم « تكتيك المظلة » . فى هذه الحالة ، يضمن المتبارى فى معترك السلطة أن شخصا آخر قد أحيط علما بشىء ما ـ وذلك بتوجيه مذكرة اليه مثلا ـ بحيث اذا ما ساءت الأمور فعلى متلقى المذكرة أن يتقاسم المسئولية .

التلاعب بالرسالة :

ان كتل البيانات والمعلومات والمعرفة التى تغذى كل يوم مصنع تفكير الدولة تتيح الفرصة لعديد من المناورات الخادعة (التى أحيانا ما تخدع المخادع نفسه) . الا أن المساحة لا تسمح بالاستمرار فى

تصنيف هذه الحيل وذكر أمثلة لها وسنكتفى بالاشارة الى بعضها فى شكل موجز ٠

ـ تكتيك الحذف : نظرا لأن مجال السياسة من أغنى المجالات بالصراع فان الرسائل السياسية تتعرض أكثر من غيرها الى عملية انتقاء واعية ومقصودة ٠ فتظهر بها فراغات فى الأماكن التى قرر أحدهم ضرورة تطبيق تكتيك الحذف ، وذلك بالغاء بعض الوقائع ذات الدلالة أو التى لا تؤيد النظرية التى يدافع عنها ٠

ـ تكتيك التعميم : هنا يتم تغطية التفاصيل الكفيلة باثارة معارضة بيروقراطية أو سياسية بطلاء من التجريد غير المحسوس ٠ وتحفل البيانات الدبلوماسية بأمثلة من هذا التكتيك ٠ وهو ما يفسر الصداع النصفى الذى غالبا ما تسببه قراءة هذه البيانات ٠

ـ تكتيك التوقيت : الطريقة الأكثر شيوعا هنا هى تأخير الرسالة الى اللحظة التى لا يكون لدى المرسل اليه أية فسحة من الوقت للقيام برد فعل ، فمثلا يتلقى أعضاء الهيئات التشريعية كما ضخما من المستندات والوثائق الخاصة بالميزانية ، ومن المفترض أن يقرروا شيئا بشأنها خلال بضعة أيام ـ قبل أن يتمكنوا من استيعابها وتحليلها بفهم وفطنة ٠ كما أنه من المعروف عن كاتبى الخطب فى البيت الأبيض أنهم يعتمدون تسليم مسودات الخطب الرئاسية فى آخر لحظة ممكنة حتى لا تتاح للمسئولين الآخرين فسحة من الوقت لتعديل أو تنقيح النصوص ٠

ـ تكتيك التنقيط : هذه المرة ، بدلا من تجميع البيانات والمعلومات والمعرفة فى مستند واحد يتم تجزئتها وارسالها فى شكل جرعات صغيرة موزعة على فترات زمنية متباعدة ٠ وتكون محصلة ذلك هى تشويش السياق الاجمالى للوقائع ، بحيث يصبح من الصعب على المتلقى ادراكه ٠

ـ تكتيك الموج العالى : عندما يشكو شخص ما من أنه لا يتلقى أية معلومات يقوم اللاعب الماهر بارسال شحنة أوراق كبيرة دفعة واحدة الى الشاكى ، بحيث لا يكون لدى هذا البائس أية فرصة للاستدلال على الحقائق الجوهرية فى كل هذا الزبد ٠

ـ تكتيك الغموض والخلط : يقضى هذا التكتيك بتغليف بعض الوقائع الصحيحة بسحابة من الشائعات الغامضة بحيث لا يستطيع المتلقى تمييز الحقائق من الشائعات ٠

ـ تكتيك الصدمة المرتدة : هنا يتم نشر نبأ كاذب فى بلد بعيد وتقوم الصحافة الوطنية بترديد هذا النبأ · هذا الأسلوب تستخدمه أجهـــزة الاستخبارات والدعاية · ولكن أحيانا قد تحدث الصدمة المرتدة ـ أو تكاد أن تحدث ـ دون أن تكون مقصودة ·

ذات يوم قامت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية بنشر مقال من صنعها عن ارهابيى منظمة الألوية الحمراء فى الصحافة الايطـالية · ولفت النص الانظار فى الولايات المتحدة وتم تناولـه فى كتاب كـــان ألكسندر هيج ـ وزير الخارجية الأمريكية حينـــذاك ـ يقرأ نســـخته التجريبية · وعندما أشار هيج الى هذا الجزء من الكتاب فى مؤتمـر صحفى أضيفت تعليقات هيج الى النسخة النهائية للكتاب · ان عملية الاسناد والارجاع غير المباشر أقل ندرة مما نتصور ·

ـ تكتيك الكذبة الكبرى : ترجع شهرة هذا التكتيك لجوزيف جوبلز وزير الدعاية النازى · وهو يعتمد على أن الكذبة عندما تكون ضخمة يسهل تصديقها عن أى عدد من الأكاذيب الصغيرة العادية · وفى هـذا الاطار يمكن تصنيف التقرير السوفيتى الذى نشرته موسكو عام ١٩٨٧ والقائل بأن وباء الايدز العالمى هو نتيجة تجارب الحرب البيولوجيـــة التى تدور فى ولاية مريلاند تحت رعاية الـ « سى · آى · ايه » · وبالرغم من انتشار القصة بشكل كبير فى العالم كـــله فان العـلماء السوفيت يرفضونها تماما ·

ـ تكتيك قلب المضمون : هذا التكتيك من التقنيات القليلة للتلاعب بالحقائق التى تتطلب قدرا كبيرا من الجـــرأة لأنهـا تقضى بقلب معنى الرسالة تماما · ولقد رأينا مؤخرا مثالا لذلك فى اسرائيل ، حيث كانت العلاقات بين أسحق شامير رئيس الوزراء وبين شيمون بيريز وزيـــر الخارجية سيئة · وعند لحظة معينة أعطى شـامير تعليمـــات لوزارة الخارجية بأن تبلغ جميع سفارات اسرائيل بأن بيريز ليس مخولا على الاطلاق بتشجيع عقد مؤتمر دولى لحل المشكلة العربية الاسرائيلية ·

وعندما تلقت بطانة بيريز فى وزارة الخارجية رسالة شاميـــر ألقت بها ببساطة فى سلة المهملات وأرسلت برقيات الى جميع السفارات تحمل النقيض تماما · وعندما سئل أحد كبار مسئولى وزارة الخارجية فيما بعد كيف أمكن حدوث ذلك ، أجاب : « كيف توجه لي هذا السؤال ؟ انها حرب » ·

منافسات محترفى السياسة وكبار الخبراء :

عند فحص هذه القائمة الطويلة من التقنيات المستخدمة على نطاق واسع لتشويه وتزييف الرسائل التى تنقل عبر الادارات ، يتضح أن قلة قليلة من التصريحات والرسائل و « الحقائق » سواء فى العمل السياسى أو فى ممارسة المسئوليات الحكومية يمكن التسليم بصدقها · لا يوجد تقريبا شىء حيادى تجاه السلطة ، فالجزء الأكبر من البيانات والمعلومات والمعرفة المتداولة فى دوائر الحكومة قد سبق لها أن تعرضت الى معالجة سياسية ، لدرجة لو تساءلنا عن المستفيد من ذلك ؟ واعتقدنا أننا وجدنا الاجابة قد لا نكون قادرين بعد على الوصول للحقيقة فى هذه الدوامة ·

وكل ذلك يحدث قبل مرحلة تدخل وسائل الاعلام التى ستقوم من جديد بمعالجة الحقيقة لتلائم احتياجاتها الخاصة – بمعنى تحريف « الوقائع » بشكل أكثر عمقا ·

ان عواقب كل ذلك تمس لب العلاقة التى تربط الديمقراطية بالمعرفة · فمن الأمور المعترف بها بشكل عام أن الرأى العام المطلع هو أحد الشروط الضرورية للديمقراطية ولكن ما الذى يعنيه بالتحديد تعبير « مطلع » ؟ ·

فى كل أشكال الديمقراطية من الضرورى تقييد مساحة سرية الدولة وتوسيع سبل وصول المواطنين الى الوثائق العامة ، ولكن ذلك لا يمثل سوى خطوات أولى وصغيرة على طريق الديمقراطية ·· اذ يتعين ، فى الواقع ، لفهم المستندات والوثائق معرفة الكيفية التى عولجت بها طوال الطريق الذى قادها من يد الى يد ومن مستوى الى مستوى ومن ادارة الى ادارة عبر الأحشاء البيروقراطية للدولة ·

ان « المضمون » الكامل لأية رسالة لا يظهر على الورق ولا على شاشة الكمبيوتر · ففى الواقع قد يكون مضمونها الأساسى من وجهة النظر السياسية هو معرفة خطوات معالجتها السابقة ·

والأكثر عمقا ودلالة من ذلك ، هو أن شيوع تكتيكات المعلومات يرمى بظلال الشك على ما يمكن أن يتبقى من الاعتقاد فى « عقلانية » اعمال وأنشطة الحكم أو فى أهلية القادة فى اتخاذ قرارات « قائمة على الموضوعية » ·

لقد كان ونستون تشرشل على حق فى رفضه للتقارير « التى تم فرزها وهضمها » ، ومطالبته بـ « الوثائق الحقيقية [....] فى شكلها الأصلى » حتى يتسنى له استخلاص النتائج الخاصة به . بالطبع ، قد يكون مستحيلا بالنسبة لمتخذى القرار أن يقرءوا كل البيانات الخام وكل المعلومات وان يستوعبوا كل المعرفة المفترض أن تساعدهم فى اتخاذ قراراتهم .

ان ما رأيناه حتى الآن ليس سوى جزء صغير من حيل المهنة التى يستخدمها كل من محترفى السياسة الديماجوجيين فى صراعاتهم والخبراء فى بطانات كبار المسئولين . ومن سيول الى استكهولم ومن بون الى بكين ، يعلم رجال السياسة والبيروقراطيون ، المطلعون على كل شىء ، حق العلم ، أن البيانات والمعلومات والمعرفة هى أسلحة قتالية محشوة ومستعدة للانطلاق فى هذه الصراعات من أجل السلطة التى تمثل لب الحياة السياسية .

ولكن ما « لا يعلمه » أغلبيتهم بعد هو أن الحيل والأساليب الميكيافيلية لم تعد أكثر من ألاعيب أطفال ، ذلك لأن قواعد الصراع من أجل السلطة تتغير فى هذه الفترة التى أصبحت فيها المعرفة « عن » المعرفة هى المصدر الرئيسى للسلطة .

وكما سنرى فاننا ندخل عصراً جديداً تفرض فيه « التكتيكات الأسمى » نفسها على هذه المصانع الفكرية التى نسميها الدول . الأمر الذى سيرتفع بكل سمات لعبة السلطة الى مستوى أعلى .

الفصل الثالث والعشرون

التكتيكات الأسمى

فى عام ١٩٨٩ ، كانت الدوائر السياسية مسرحا « لسابقة » مرت غير ملحوظة ، ففى ذلك العام دخل جون سنونو الى البيت الأبيض وتولى منصب رئيس موظفى قصر الرئاسة ، وأصبح بذلك أول متخصص فى الكمبيوتر يحتل احدى قمم السلطة السياسية فى عالم يعج بالرقائق الالكترونية .

وقد حصل سنونو – الذى تخرج مهندسا ميكانيكيا – على درجة الدكتوراه من معهد ماساشوستس للتكنولوجيا ، وسرعان ما اكتسب شهرة واسعة كشاب عبقرى يستطيع اكتشاف أخطاء البرمجة فورا وتصحيحها وتفنيد النموذج الرياضى الذى تقوم عليه أية دراسة عن البيئة . وأيا كان رأينا فى معتقداته السياسية فان سنونو يدرك تماما امكانات السلطة الكامنة فى الاعلاماتية .

قبل الانتقال الى واشنطن ، كان سنونو يشغل منصب حاكم ولاية نيوهامبشير . وعندما زودت هذه الولاية بنظام الكترونى للرقابة الضريبية والمالية ، طالب بعض المنتخبين المحليين بأن تتاح لهم سبل الوصول للبيانات المخزنة فى الوحدة المركزية للنظام . غير أن سنونو أهمل هذا المطلب معلنا أنهم « سيحصلون على ما نعتقد انهم فى حاجة اليه » .

وطبقا لما نشرته مجلة « تايم » ، كان سنونو « يريد تعديل توازن السلطة السياسية » وذلك « بالاحتفاظ بالبيانات الاعلاماتية المالية للولاية تحت يده » .

وفى نهاية المطاف اضطر حاكم الولاية أن يعطى ممثلا عن منتخبى الولايات كلمة سر تسمح له بالوصول الى بعض البيانات محل الخلاف (ولكن ليس الى كلها) .

وبالمثل ، عندما قضت احدى محـــاكم الولاية بأحقية المواطنين فى الاطلاع على الوثائق والمستندات العامة ونسخها ، أصر سنونو أن هذا الحكم لا ينطبق على البيانات التى تمت معالجتها بالكمبيوتر · لقد فهـم الحاكم تماما مدى السلطة التى تمنحها المعرفة عن المعرفة ·

سكان الاسكيمو والعمال الذهنيون :

بالرغم من كل شىء فان الموقف الذى اتخذه سنونو فى ولايـــة نيوهامبشير لم يكن بارعا ، لأن وضع ختم « سرى » على وثيقة أو منع الوصول اليها هو تكتيك قديم قدم العالم · فمن يريد السيطرة على البيانات والمعلومات والمعرفة لديه الآن أدوات جديدة أقوى ويعتمد الكثيـر منهـا على الاعلاماتية ·

اننا فى الواقع ، نشهد الانتقال الى مرحلة أعلى من الصراع من أجل السلطة حيث سيكون وجود هذا الصراع أقل وضـوحا · وهو انتقال مرتبط بدرجة التجريد والتعقيد المتزايدة فى المجتمع ككل ، والناجمة عن تطور الاقتصاد فائق الرمزية ·

ولنأخذ مثال أجهزة الكمبيوتر : اننا الآن نستخدم الكمبيوتر فى صناعة أجهزة الكمبيوتر · كما توجد هندسة برامج اعلاماتية بمساندة الكمبيوتر تعتمد على ما يمكن أن نسميه « برامج اعلاماتية أسمى » ــ أى برامج معدة لانتاج برامج اعلاماتية · وانطلاقا من هذه الحقائق يمكن تخيل أن التقدم فى هذا الفرع من الهندسة سيسمح فى المستقبل بانتاج « البرامج الاعلاماتية الأسمى » وهكذا دواليك نحو آفاق أبعد وأبعـد ودرجات تجريد تتجه نحو ما لا نهاية ·

وبالمثل ، انتشرت برامج جداول المقارنة على نطاق واسع فى عالم الأعمال منذ بداية الثمانينيات · لقد سمحت هذه البرامج لمئات الآلاف من المستخدمين بترتيب الأرقام فى أعمدة وصفوف ، كـما فى دفاتـــر المحاسبة ، والتعامل معها بسهولة ويسر · لأن هذه الجداول توضـــح اتوماتيكيا كيف يؤثر تعديل فى رقم أو متغير ما على كــل العناصر الأخرى ، لقد عودت هذه الجداول جيلا كاملا على التفكير بطريقة « ماذا يحـدث اذا ···· ؟ » ، ماذا يحـدث اذا رفعنـا سـعر منتج ما بنسبة ٢٪ ؟ أو اذا انخفض سعر الفائدة نصف نقطة ؟ أو اذا تمكنا من طرح المنتج الجديد فى السوق قبل الموعد المحدد بشهر ؟ غير أن جداول المقارنة مثلها مثل الجداول التقليدية ظلت ثنائية الأبعاد ، مسطحة مثل رقعـــة الشطرنج ·

فى عام ١٩٨٩ طرحت شركة لوتس ـ وهى المتخصصة الأولى فى العالم فى هذا المجال ـ برنامجا يمكنه تجهيز جداول مقارنة ثلاثية الأبعاد (1-2-3 Release 3.0) وهو ما يوازى فى مجال المحاسبة رقعة شطرنج تنتقل عليها القطع ليس على المستوى الأفقى فحسب وانما الى أعلى وأسفل أيضا ، وبذلك يغدو من الممكن محاكاة التغيير فى شركة أو عملية ما بطرق أكثر تعقيداً وايحاء بمراحل • وسيتمكن المستخدمون من توجيه أسئلة من نوع « ماذا يحدث اذا ••• ؟ » بطريقة أدق وأمهر وعلى مستوى أعلى بكثير •

ان النظام الجديد لخلق الثروة يتطلب قوة عمل مشبعة تماما بالرمزية • فالأفراد يتعرضون بشكل دائم لوابل من البيانات التى تصبها وسائل الاعلام وأجهزة الكمبيوتر والمستندات المكتوبة وأجهزة الفاكس والهاتف والأفلام والملصقات والاعلانات والمذكرات المختلفة والفواتير وآلاف المنبهات الرمزية الأخرى • كما يقضى الملايين وقتهم فى المشاركة فى اجتماعات وفى عرض الأفكار وفى التفاوض والاقناع أو فى التبادل بوسائل أخرى لبيانات مصورة • كل ذلك يؤدى الى تزايد « التكيف المعلوماتى » للجماهير •

وكما يكتسب سكان الاسكيمو حساسية كبيرة للاختلافات بين أنواع الجليد ، وكما يدرك المزارعون ، بشكل شبه حدسى ، تغيرات الطقس والتربة ، فان هؤلاء العاملين الذهنيين ينسجمون مع بيئتهم المعلوماتية •

ان هذا التطور والتعقيد المتزايد يجبر أصحاب السلطة على البحث عن أدوات متجددة وذات مستوى أعلى للاقناع أو السيطرة الاجتماعية أو كليهما •

ان الأقمار الصناعية وأجهزة الفيديو والاذاعة الموجهة لنطاق ضيق من المتلقين وشبكات الاتصال ذات الذكاء الخارجى واستطلاعات الرأى العام الفورية والمحاكاة والنماذج الرياضية والتكنولوجيات الأخرى المماثلة هى حاليا ضمن أدوات ترسانة الأوساط السياسية فى الدول المتقدمة • ويضاف الى ذلك وسائل جديدة للتلاعب بالمعلومات الاعلاماتية تجعل تكتيكات المعلومات التقليدية ، التى يمارسها السياسيون والبيروقراطيون ، تبدو تافهة وبدائية •

ان النظم الجديدة لخلق الثروة تغذى أدوات التلاعب التى يستخدمها رجال السياسة وممثلو الادارة للحفاظ على سلطتهم ، بحيث

لا تكف هذه الأدوات عن التحسن والاتقان تبعا للتغيرات الشاملة التى تحدث للجماهير · وهو ما يلخص ما تعنيه التكتيكات الأسمى أو « الميتاتكتيك » ·

الحقيقة مقابل السلطة :

لكى نفهم ما يعنيه هذا التعبير بشكل أفضل يكفى التفكير فى عالم الأعمال · أن السذج من المستثمرين يكتفون بتحليل « نتائج » شركة ما لتكوين فكرة عن ربحيتها وسلامة مركزها المالى · لكن الأرباح ـ كما تقول مجلة فورتشن ـ « شأنها شأن المقانق [···] يقدرها أكثر من لا يعرف سوى القليل عن قائمة مكوناتها » · وبالتالى لا يكتفى المستثمرون الأكثر دهاء بقراءة آخر سطر فى الحساب الختامى وانما يحاولون معرفة ما يكمن وراء هذا السطر ، أى « نوعية الأرباح » ·

انهم يفحصون الأرقام التى تضاف الى الأرقام والافتراضات التى ترتكز عليها هذه النتائج وكذلك النماذج المحاسبية والاعلاماتية التى تسمح بالحصول عليها · فالأمر يتعلق هنا بمستوى أعلى من التحليل يمكن اعتباره مثالا بسيطا للتحليل الأسمى أو « الميتا ـ تحليل » ·

فعندما يكون معروفا أن جنرال موتورز تستطيع زيادة أرباحها (المعلنة) بشكل قانونى بما قيمته مليارا دولار سنويا ، وذلك عن طريق تعديل مدد استهلاك أصولها الصناعية وبتغيير طريقة تأثير ذلك على برنامج التقاعد الخاص بها وبالتلاعب فى القيمة المقدرة لمخزونها وبتعديل القيمة المفترضة للسيارات والمركبات التى تؤجرها ايجارا تمويليا ، يمكن بسهولة تخيل ما تستطيع أن تقوم به حكومة ما وأجهزتها المتعددة فى المحاسبة التابعة لها ·

لا جدال فى أن الحكومات تلاعبت بحساباتها منذ اختراع المحاسبة ذات القيد المزدوج على أيدى أهالى فينيسيا فى القرن الرابع عشر · والحاصل أن هذا التلاعب ، الذى بدأ منذ اليوم الأول ، لا يؤثر فقط على الميزانيات ولكنه يتعدى ذلك الى كل أنواع البيانات والمعلومات والمعرفة ···· الخ ·

ان الجديد فى الأمر حاليا هو امكانية استخدام الكمبيوتر للمساعدة فى ذلك ، الا أن أجهزة الكمبيوتر تفعل أشياء مفيدة ومدهشة ،

فهى تزيد بشكل كبير من امكانات مهـارة أصحـاب القـرار وتحسن من مستوى الفعالية فى العديد من الخدمات ، كما أنها تسمح بتكامل ودمج العديد من العمليات المعقدة ٠

وبفضل الثورة الاعلاماتية يمكن وضع نماذج لبعض المشكـلات الاجتماعية بدقة كانت مستحيلة من قبل ، مثل مشكلة البطالة وزيـادة تكاليف الخدمات الصحية والأخطار التى تهدد البيئة ، مما يتيح فهمها على نحو أفضل . كما يمكن تطبيق عدة نماذج على نفس الظاهرة ومن ثم فحص ودراسة تفاعلات وردود فعل عدد أكبر من العـوامل ٠ ويتم انشاء قواعد بيانات على مستويات غير مسبوقة كما يجـرى تحليل البيانات بطرق أكثر تطوراً ودقة ٠

وفى كل مكان يتأصل فيه النظام الجديد لخلق الثروة لا تستطيع الدولة وكذلك رجال الأعمال الاستغناء عن أجهزة الكمبيوتر ٠ وان كان ذلك لم يكن أمرا مرغوبا فيه ، اذ كانت الحكومات أقل ديمقراطية قبـل وصول أجهزة الكمبيوتر وغيرها من التكنولوجيات المتقدمة الأخرى ٠

غير أن السياسة تهتم بالسلطة وليس بالحقيقة ٠ فالقرارات لا تبنى على اكتشافات « موضوعية » ولا على فهم عميق للقوى المتصارعة ، التى يعمل كل منها لصالحه الخاص ٠ وليس فى مقدور أجهزة الكمبيوتر استبعاد هذا الصراع المحتوم ـ والمفيد فى آن واحـد ـ على السلطة ٠ على النقيض من ذلك تنقل أجهزة الكمبيوتر هذا الصراع الى مسـتوى أعـلى ٠

ان القادة السياسيين وكبار البيروقراطيين أنفسهم لا يقدرون مدى تبعيتهم للاعلاماتية ، وبالتالى الى أى حد باتوا عرضة لأولئك الذين يحسنون التعامل مع الاعلاماتية ٠ ويرجع السبب فى ذلك الى أن التعامل مع الكمبيوتر يتم غالبا فى أدنى مستويات التسلسل الهرمى للعمـل الذهنى ٠

فنحـن لا نـرى قـط رؤساء الدول أو زعماء الأحـزاب يضربون على مفاتيح الكمبيوتر أو يتفحصون الشاشات ٠ لكن فى الوقت نفسه نادرا ما يتخذ القادة قرارا لا يعتمد على بيانات تمت معالجتها ، فى لحظة أو أخرى ، بواسطة متخصصين فى الاعلاماتية ، سواء أكان هذا القرار يتعلق باختيار طائرة مقاتلة أم بالسياسة الضريبية ٠

ففى كل مرة يتعين فيها التصويت على سياسة ما أو اقرارها ـ سواء أكانت تتعلق بعدد الأسرة فى المستشفيات أم ضوابط الاستيراد أم فحص اللحوم ـ يتم تحليلها كميا وترجمتها وصياغتها لتلائم معالجتها بالكمبيوتر ٠

وفى كل مرحلة من هذه العملية ، بدءاً من تكوين قاعدة البيانات الى طريقة تصنيف المعلومات فيها والبرامج الاعلاماتية المستخدمة ، تتعرض المعلومات لتلاعب بارع ٠ ـ وغالبا ـ خفى ، بحيث لا يقارن بكل ما سبق أن تناولناه حتى الآن من تكتيكات المعلومات ٠

وعندما نضيف الى ذلك عمليات التحريف المتعمدة التى تحدث طبقا للتكتيكات الأسمى التى يستخدمها السياسيون والقادة ممن يلعبون لعبة « حرب المعلومات » التى تحدثنا عنها فى الفصل السابق ، فاننا نتوصل الى النتيجة التالية :

ان المعرفة السياسية لا تصل الى أصحاب القرار الا بعد مرورها عبر متاهة من المرايا المحرفة ٠ وفى المستقبل ستعكس هذه المرايا نفسها مرايا أخرى ٠

الاصبع المختطفة :

يحفل الأدب العالمى بشكل متزايد بقصص « الجرائم الاعلاماتية » مثل اختلاس الأرصدة المصرفية والتجسس وزرع الفيروسات ٠٠ الخ ٠ وقد جسدت أفلام مثل « ألعاب الحرب »(War games) أخطار اختراق نظم الاتصالات وأجهزة الكمبيوتر التى تتحكم فى الأسلحة النووية ٠ وطبقا لتقرير نشر فى فرنسا ، اختطفت المافيا أحد مسئولى شركة آى٠ بى٠ ام وقطعت احدى أصابعه لأنها كانت فى حاجة الى بصماته لاقتحام نظام أمن أحد أجهزة الكمبيوتر ٠

ولقد حددت وزارة العدل الأمريكية عشر طرق أساسية مستخدمة فى الجرائم الاعلاماتية ٠ وهى تتضمن تعديل البيانات أثناء ادخالها فى الكمبيوتر ووضع تعليمات خفية فى برامج التشغيل والدخول «عنوة» الى نظام ما ٠ ان « الفيروسات » ، التى كثر الحديث عنها ، تثبت لنا حقيقة ما تتعرض له وسائل الاتصال العسكرية والسياسية من أخطار تخريبية ٠

ولكن لم يهتم أحد ، حتى الآن ، بالطريقة التى يمكن لتقنيات مماثلة أن تؤثر على الحياة السياسية ٠

ففى أحد أيام عام ١٩٨٦ لاحظت جنيفر كوبر ، مساعدة اد زشاو عضو الكونجرس ، أن شاشة جهاز الكمبيوتر الخاص بها لا تنطق ٠ وعندما نجحت فى تشغيله مرة أخرى كان قد اختفت منه مائتـا رسالة ٠ وبعد ذلك بأربعة أيام اختفت مئات الرسائل والعناوين من بطـاقات كمبيوتر عضو الكونجرس جون ماكاين ٠ وبعـد اسـتبعاد أى احتمـال لخطأ فى التعامل مع البيانات أمرت شرطة الكونجـرس فى واشـنطن باجراء تحقيق ٠

وطبقا لأقوال اد زشاو ، الذى كان قبل دخوله مجال السياسة قـد أنشـأ شركـة للبرامج الاعلاماتية ، فان « كل مكـاتب الكونجرس يمكن اقتحامها على هذا النحو [٠٠٠] ٠ وهو ما يحول الى العدم عمل أى عضو من أعضاءالكونجرس » ٠

وأشار الخبير ج٠ أ٠ توجو فى مجلة انفورميشن اكزيكيوتيف الى أن وجود ٢٥٠ ألف برنامج معالجة نصوص فى مكاتب المحامين الأمريكيين جعل من الممكن لأى محام دجال أن يحصل على معلومات تضر بخصمه وذلك باستخدام بيانات كمبيوتر هـذا الخصم بشكل غير مشروع عـن طريق جهاز الكترونى رخيص الثمن يمكن الحصول عليه من أى محـل الكترونيات ٠

غير أن رجال السياسة والمسئولين هم أكثر عرضة لمثل هـذه الأعمال ٠ فهناك آلاف من أجهزة الكمبيوتر ، التى يرتبط أغلبها فى شكل شبكة ، فى مكاتب ومنازل أعضاء الكونجرس وعلى طاولات آلاف الموظفين الذين يديرون كل شىء ، ابتداء من حصص بعض المنتجات الى معايير السلامة الجوية ٠ ان الوصول غير المشروع الى هذه الأجهـزة والشبكات قد يسبب متاعب لا نهاية لها ويؤدى الى تحـول السلطة بطريقة غير متوقعـة ٠

كما يتزايد استخدام أجهزة الكمبيوتر فى الحملات الانتخابية ، وبالتالى يمكن أن تمارس هذه اللعبة الجديدة التى قد يستحيل كشفها فى صناديق الاقتراع نفسها ٠

شيرنوبل فى صناديق الاقتراع :

فى عام ١٩٨٧ ، وبعد ١٦ عاما من الديكتاتورية العسكرية جرت انتخابات عامة فى سيول بكوريا الجنوبية ، واتسمت المعركة الانتخابية بالشدة والخشونة ، الا أنه تم التصديق على نتائجها فى نهاية المطاف ٠ لكن بعض المراقبين السياسيين لاحظوا أشياء غير عادية فى سير العملية الانتخابية ٠

فقد ظل الهامش الذى تفوق به الحزب الفائز ، والذى وضح منذ النتائج الأولية ، بدون تغيير ، على نحو ملفت ، طوال الليل وفى كل المناطق التى تم فرز أصواتها ٠ وأبدى مرشح معارض يتمتع بشعبية كبيرة تشككه فى حجم انتصاره هو نفسه فى اقليم كوانجو قائلا انه من المستحيل أن يحصل على ٩٤٪ من الأصوات ، مؤكداً أنه كان من المفترض أن يحصل ، فى أفضل الاحتمالات ، على ٨٠٪ فقط من الأصوات ، وسرعان ما بدأ الشك فى أن أحدا ما تلاعب ليس ببطاقات الاقتراع ولكن بأجهزة الكمبيوتر التى كانت تحصى البطاقات ٠

ولم يتم التأكد قط من صحة هذه الشكوك ٠ غير أن ماجى فورد مراسلة صحيفة الفاينانشيال تايمز ذكرت ـ مستشهدة بأحد المحللين السياسيين فى واشنطن ـ أنه « من السهل للغاية وضع نموذج اعلاماتى لنتيجة انتخابات مقبولة منطقيا ٠ ويمكن تحسين هذا النموذج وتهذيبه بأخذ الطريقة التى ينظر بها الى المرشحين فى الاعتبار وكذلك بيانات السن والأحداث التى واكبت الحملة الانتخابية ٠ ان مثل هذا النموذج يمكن أن يقدم حجم الانتشار المطلوب للحصول على الأغلبية » ٠

ويستطيع مثل هذا النموذج الاعلاماتى تعديل النتائج فى بعض القطاعات بطريقة بارعة بحيث يحقق فوز مرشح معين ، دون اثارة أى شكوك ٠ وهى طريقة فى متناول أى مبرمج ماهر ، اذا حصل على كلمة السر ، فكل ما عليه عمله هو توجيه أمر للكمبيوتر بأن يحول نسبة معينة من أصوات أحد المرشحين الى مرشح آخر ، ثم يضع علامة على « الباب السرى » تمحو أى أثر لتدخله ٠

ان برنامج مراقبة الانتخابات ، الذى وضعه معهد أبحاث السياسة الحضرية والمعتمد جزئيا على عمل باحثين فى الاعلاماتية من جامعة برنستون ، انتهى الى أن « عملية احصاء الأصوات بواسطة النظم الاعلاماتية خلال العشرين عاما الأخيرة قد خلق احتمالا لتزييف وتدليس النتائج والوقوع فى أخطاء على نطاق لم يتخيله أحد قط من قبل » ٠

ولا يتفق مع هذا الرأى العديد من المسئولين عن حسن سير الانتخابات · ولكن وليز وير أحد كبار الباحثين في مؤسسة « راند » يؤيد ما جاء فى برنامج مراقبة الانتخابات ، بل ويستخلص استنتاجات أكثر اثارة اذ يقول : « ان نظام الاقتراع الالكترونى معرض لحدوث كوارث لا تقل خطورة عن كارثة شيرنوبل أو ثرى مايل آيلاند ، واحتمال حدوث ذلك لا يقل عن احتمال وقوع زلزال قوته ٨ ريختر فى أية لحظة فى كاليفورنيا » ·

ولنذهب الى أبعد من ذلك فى هذه السيناريوهات الخيالية · ما الذى يحدث اذا تم « ترتيب » الكمبيوتر بواسطة فنيين ومبرمجين يعملون لصالح شركة دولية كبرى ترغب مثلا فى انجاح سناتور معين ؟ أو لنتخيل أن يكون صندوق الاقتراع الالكترونى تحت السيطرة غير المباشرة والسرية ، ليس لحزب أو لشركة وانما لقوة أجنبية · ويمكن تغيير نتيجة أى انتخابات باضافة أو طرح عدد صغير من الأصوات من كل دائرة انتخابية · ولن يعلم أحد بذلك قط ·

على كل مرشح أن يأخذ حذره !!

نريد أرقاما :

ان قابلية التعرض للتلاعب ليست قاصرة على أجهزة الكمبيوتر والانتخابات وانما تمتد الى كل البيانات والمعلومات والمعرفة التى ينتجها الكمبيوتر والتى يمكن استخدامها بشكل جيد أو اساءة استخدامها ·

غير أن بعض رجال السياسة الحذرين يتصرفون كما يجب أن يتصرف الأذكياء أمام المعلومات الجديدة ، فهم يطلبون معرفة المزيد عن مصادر هذه المعلومات وعن امكانية الاعتماد عليها ، ويسألون عن الكيفية التى تم بها وضع العينات لاستطلاعات الرأى العام ويحللون التنافر والثغرات المحتملة ، ويتشككون فى الاحصائيات التى تكون ملائمة أكثر مما ينبغى ويقيمون المنطق الذى يوجه وينظم الدراسة ··· الخ ·

أما المسئولون الأكثر حذرا وفطنة فيأخذون أيضا فى الاعتبار القنوات التى من خلالها تصل المعلومات اليهم ويستعرضون المصالح المختلفة التي قد تكون « عدلت » المعلومة ·

كما أن هناك قلة نادرة لا تكتفى بكل الاحتياطات المذكورة عاليه وانما تضيف اليها بعملية تمحيص للافتراضات والمسلمات التى وضعت فى البداية كأساس يمكن أن تنبنى عليه الاستنتاجات الأكثر سطحية ٠

وأخيراً هناك من يتمتعون بخيال خصب ، وهم ندرة بلا شك ، فلا يترددون عن طرح كل الاطار المرجعى للبحث مرة أخرى ٠

ويوجد من المسئولين الحكوميين من ينتمى الى التصنيفات الأربعة التى سبق ذكرها ٠ ولكن فى جميع المجتمعات ذات التكنولوجيا المتطورة يكون هؤلاء المسئولون مضغوطين الى درجة أنهم يفتقرون الى الوقت اللازم للتفكير فيما وراء الشكل الظاهرى « للوقائع والحقائق » التى يتعين عليهم بناء قراراتهم على ضوئها ، حتى وان توفرت لديهم الوسائل الذهنية لذلك ٠

والأخطر ، أن النظام البيروقراطى لا يشجع أى تفكير خارج الاطار المعتاد ولا أى فحص أو بحث متعمق ٠ ويعرف من يمسكون بخيوط السلطة كيف يستفيدون من ذلك ٠

عندما اقترح دافيد ستوكمان ، الذى كان يرأس مكتب الادارة والميزانية الأمريكى ، على الرئيس وعلى فريق البيت الأبيض اجراء تخفيضات فى الميزانية ، حرص على أن تكون هذه التخفيضات فى برامج لا تمثل سوى ١٢٪ من ميزانية الدولة ٠ وكان لا يذكر شيئا عن باقى أجزاء الميزانية فى مناقشاته مع رؤسائه ٠

وكتب يروى بعد ذلك « ان ما لم يدركوه ــ لأننى لم أشرحه لهم قط ــ هو حقيقة أننا كنا نركز على قسم محدود من الميزانية ، ولم نلق ولا حتى نظرة على ثلاثة برامج عملاقة كانت تمثل أكثر من « نصف » الميزانية الداخلية ٠ وهى برامج الضمان الاجتماعى والمعاشات والرعاية الطبية ٠ وتمثل هذه البرامج وحدها أكثر من ٢٥٠ مليار دولار ، والبرامج التى أجرينا فيها التخفيضات سمحت لنا بتوفير ٢٥ مليار دولار ٠ وكان الرئيس وفريقه لا يرون سوى الجزء الطافى من جبل الجليد ولم يكن لديهم أدنى فكرة عن الكتل الضخمة التى تختبىء تحت سطح الماء ٠ ولم يطرح أحد على قط أسئلة عن أقسام الموازنة التى لم أستقطع منها شيئا » ٠

هل فضلوا طواعية البقاء فى الجهل ؟ أم لم يكن لديهم الوقت لطرح الأسئلة ، أم أنهم تركوا أنفسهم ينبهرون بستوكمان أستاذ الاحصاء

الكبير ؟ أم أنهم انهاروا ببساطة تحت وابل الأرقام التى ينتجها الكمبيوتر ؟

وان كان لا جدوى من القاء خطاب سياسى ، هذه الأيام ، دون أن يرصع باحصائيات من انتاج الكمبيوتر ، فنادراً ما يتساءل صانعو القرار عن صحة الأرقام التى أعدت لهم ٠

ولذلك اقترح ذات يوم سيدنى جونز ـ وهو وزير تجارة سابق ـ تشكيل لجنة للاحصائيات لخدمة الرئيس الأمريكى ٠ ولو تم ذلك لتمكنت هذه اللجنة ، بدون شك ، من فهم سبب اختلاف وكالة المخابرات المركزية والبنتاجون الدائم حول تحديد أماكن التجارب النووية السوفيتية ومدى اتساعها ، بحيث لم يتمكنا من تحديد ما اذا كان الاتحاد السوفيتى قد خرق أم لا أتفاقيات ١٩٧٥ للحد من هذه التجارب ٠ وربما كان بامكانها أيضا أن تعرف لماذا كانت أرقام اجمالى الناتج القومى تتضخم بشدة فى وقت معين ثم يجرى تصحيحها فى اتجاه الانخفاض لاثبات أن الاقتصاد فى حالة تقترب من الركود ٠

صحيح أن الأسباب فى كل هذه الحالات كانت فى أغلب الأحيان تقنية ولكنها حتما كانت ذات طابع سياسى أيضا ٠ فحتى أكثر الأرقام موضوعية ظاهريا كان يتم دائما تعديلها تبعا للصراعات السياسية ٠

ان مكتب التعداد والاحصاء يحرص أكثر من غيره من الجهات الرسمية على اعلان تعريفاته وطرقه الاحصائية ، بحيث يستطيع المستخدمون أن يكونوا أحكامهم الخاصة عن صحة النتائج ٠ غير أن المتخصصين يعترفون بأن كل هذه التحفظات والملحوظات المدونة فى أسفل الصفحات يتم تجاهلها تماما فى واشنطن ٠

وطبقا لأحد مسئولى هذا المكتب فان « رجال السياسة والصحافة يسخرون من كل ذلك ، لأن كل ما يريدونه هو الأرقام ! » ٠

ثمة سببان رئيسيان لذلك ٠ السبب الأول هو السذاجة ٠ فبالرغم من كل ما تعلمناه فى الأجيال السابقة عن الطبيعة المشكوك فيها للبيانات المعالجة بواسطة الكمبيوتر « لا زال الكمبيوتر يعتبر الها لا يخطىء » ٠ غير أن هناك سببا أعمق من ذلك ، وهو أن مخططى السياسة لا يبحثون عن « الحقيقة » العلمية ولا حتى عن الدقة البسيطة وانما عن ذخيرة لتغذية حروب المعلومات التى يقودونها ٠ وليس من الضرورى أن تكون البيانات والمعلومات والمعرفة « صحيحة » أو « دقيقة » للاطاحة بخصم ما ٠

خـــدعة قواعد البيانات :

تعتمد الدول بشــكل متزايد على قواعــد البيانات · وبينما كانت استراتيجية سنونو ، التى تلخصت ببساطة فى منع الوصول اليها ، مثالا لتكتيك المعلومات العادى ، فان التلاعب بقواعد البيانات يعد مثالا « للميتاتكتيك » أو التكتيك الأسمى ·

ان ممارسى التكتيك الأسمى لا يتحكمون فى سبل الوصول الى البيانات وانما يحددون ما ستتضمنه قواعد البيانات فى مؤسساتهم ·

فى الولايات المتحدة يتعين على الكونجرس أن يعتمد استمــارة الاستبيان التى يتم استخدامها فى اجراء التعداد السكانى كــل عشر سنوات · وفى ذلك يقول أحد المسئولين فى مكتب التعداد والاحصاء : « ان الكونجرس يمارس ضغوطا علينا · فعندما قررنا اجراء دراسة عــن تمويل الاستثمارات الزراعية طلب منا الكونجرس صراحة عدم جمــع هذه البيانات لأنها قد تستخدم لخفض الدعم الفيدرالى للمزارعين » · وكذلك تمارس الشركات الصناعية ضغوطا على مكتب التعداد والاحصاء لكى يوجه أسئلة معينة أو يتجنب توجيهها ، فعلى ســبيل المثــال تلقى المكتب طلبا من احدى الشركات العاملة فى مجال المساكن المتنقلة بأن يتضمن المسح الذى يقوم به سؤالا عن هذا النوع من المساكن وذلــك لتوفير بيانات كانت هذه الشركة فى حاجة اليها ، وبما أن عدد أسئلة الاستبيان محدود فان جماعات الضغط المختلفة تتصــــارع فيما بينهــا وتضغط على مكتب الاحصاء للفوز بما تريد ·

ولا يهم مدى معالجة البيانات بواسطـــة الكمبيوتر ولا مـــدى « موضوعيتها » فانها تجسد دائما قيم المجتمع وعلاقات السلطة فيه ·

واذا كانت السيطرة على ما تم ادخاله فى قواعد البيانات المتزايدة العدد تعد من أبسط أساليب التكتيكات الأسمى ، فان التحكم فى طريقــة تقسيم وتوزيع قواعد البيانات الى فئات مختلفة أصعب وأدق من ذلــك بكثير ·

وقبل عصر الكمبيوتر بوقت طويل ، عندما كانت ضخامة الاحتكارات فى مجال صناعة السيارات تثير قلق الحكومة الأمريكية ، كانت جنرال موتورز تستخدم تكتيكا بسيطا للغاية يتلخص في أن تقوم بتعيين ممثل

عنها فى تنظيم مغمور هو مجلس مستخدمى الاحصائيات الفيدرالية ، ومهمته هى ضمان أن يتم اعداد الاحصائيات الخاصة بصناعة السيارات بصورة اجمالية بحيث يتعذر نشر مكوناتها المتعددة كل على حدة • وبالتالى ، كانت درجة التركيز الاقتصادى تقدم فى شكل حصة الشركات الثلاث الكبرى فى صناعة السيارات وليس فى شكل ما تملكه جنرال موتورز ـ وهى أكبرها ـ بمفردها •

أما اليوم فتستخدم نظم شديدة التعقيد لترتيب وفهرسة وتصنيف البيانات التى تصب يوميا فى أجهزة الكمبيوتر • ويمكن بواسطة الاعلاماتية « تقطيع » أو اعادة ترتيب نفس البيانات فى تصنيفات مختلفة • ولذلك فان معارك سياسية ضارية تدور الآن حول مسائل تقنية مجردة ومبهمة بشكل متزايد •

ويتركز عدد من صراعات السلطة حول المؤشرات المستخدمة فى قواعد البيانات وحول الأهمية النسبية لكل منها • فاذا كان المطلوب هو معرفة عدد الملائكة القادرين على الرقص على رأس قنبلة ذرية ، فهل يتعين عد هالات النور أم عدد آلات الهارب ؟ ان أسرة المستشفيات ، وهى سهلة الاحصاء ، تعتبر أحيانا كمؤشر لمستوى الخدمات الصحية فى مجتمع ما • ولكن أليس الأجدر اعتبار عدد الأطباء لكل ألف نسمة مؤشرا لذلك ؟ وما الذى يكشفه كل من هذين المؤشرين عن المستوى الفعلى لصحة السكان ؟ ان عدد الأسرة يمكن أن يؤثر على برنامج الدعم الحكومى ، الذى يكافىء أو يعاقب المستشفيات طبقا لهذا العدد بدلا من أن يعتمد على الاحتياجات الحقيقية للمجتمع الذى تخدمه هذه المستشفيات •

ولتكوين صورة حقيقية عن الاحتياجات الصحية للسكان هل يتعين احصاء عدد المرضى أم أنواع الرعاية والعلاج المتاحة ؟ أم معدل الحياة ونسبة الوفيات بين الأطفال ؟

ان اختيار مؤشر ما أو عدة مؤشرات سيؤثر بشكل حاسم على النتيجة •

ان كل مستخدمى التكتيكات الأسمى يعرفون المبدأ القائل « ان ما تقيسه هو ما تحصل عليه » •

وغالبا ما يتصارع الخبراء والفرق الحكومية وجماعات الضغط وآخرون حول مثل هذه الأسئلة • ومع أن بعض المشاركين لا يحسنون

طرح الأسئلة الجوهرية أو فهم العلاقات والآثار الضمنية الخفية فان هناك مشاركين آخرين قادرين تماما على ذلك · ومن ثم فانهم يستفيدون لحماية مصالحهم التجارية أو السياسية · وان كانوا يتخفون وراء بطانة تكنولوجية متخصصة فان الصراعات تكون فى الغالب ذات طابع سياسى ·

ويدور أغلب هذه المناورات بمنأى عن أنظار الجمهور وعند مستوى أدنى بكثير من مستوى الوزراء ، الذين نادرا ما يكون لديهم الوقت أو الرغبة فى فهم مشكلات بهذا القدر من الالتواء · ونظرا لافتقار صناع القرار الى هذه العناصر والى التدريب المطلوب لاختراق حواجز الحقائق الفعلية والحقائق المختلقة بأنفسهم ، فانهم يضطرون الى تفويض هذه الأمور الى الاخصائيين الفنيين ·

ان معالجة عدد متزايد باطراد من المتغيرات والطفرة الهائلة فى قدرة معالجة البيانات تضع متخذى القرار أمام مشكلة فائض معلومات ضخم بدلا من مشكلة نقص معلومات ·

وينجم عن هذا الوضع الجديد أن يغدو تأويل وتفسير المعلومات أهم من مجرد جمعها ، اذ لا يوجد نقص فى البيانات (من مختلف النوعيات) ، وانما يندر فهمها · غير أن التركيز على التأويل والتفسير يفترض أيضا أن تتم هذه المرحلة عند مستويات أعلى فى التنظيم الهرمى للعمل الذهنى وهو ما يقلب علاقات السلطة بين الأخصائيين أنفسهم ، وينقل فى الوقت نفسه ملعب خبراء تكتيكات المعلومات الى مستوى أعلى — الى مستوى التكتيكات الأسمى ·

وتعتبر عمليات الرصد الأخيرة التى قامت بها الأقمار الصناعية لمراقبة تطبيق الاتفاق الأمريكى السوفيتى الخاص بتخفيض التسلح مثالا نموذجيا لذلك ، فأقمار الاستشعار عن بعد ، التى تستطيع رصد أشياء لا يزيد طولها عن عشرات السنتيمترات ، تصب طوفانا من المعلومات يغمر المحللين وينتهى باغراقهم · وطبقا لتوماس رونا ، مساعد مدير المكتب العلمى فى البيت الأبيض ، « فى الماضى كانت المشكلة تتركز فى استشعار والتقاط البيانات ، أما الآن فهى تتعلق بغربلتها وتنقيتها وتفسيرها » ·

وكما جاء فى مجلة « ساينس » فان حجم البيانات وحده كفيل « بارباك جيش من المحللين » ، وهو ما يولد ضغوطا من أجل الأخذ بالنظام الآلى فى بعض مهام التأويل والتفسير ·

ويقود ذلك بدوره الى الاعتماد على الذكاء الاصطناعى وعلى « أدوات هندسة المعرفة » • غير أن استخدامها يزيد من مستوى التجريد ويخفى الافتراضات الجوهرية تحت مزيد من طبقات الاستدلال •

فطبقا لمجلة داتاميشن « تسعى الشركات لادخال القدرات الاستنتاجية للنظم الخبيرة » فى نظامها الاعلاماتى - وهى نظم قادرة على القيام بمهام متنوعة مثل : تشخيص الخلل فى أداء آلة معينة أو تحليل النفايات الكيماوية أو تقييم اشتراطات تطبيق عملية التأمين على الحياة ، ولقد دخل بالفعل فى أمريكا الشمالية أكثر من ٢٢٠٠ نظام خبير كما تنتشر هذه النظم أيضا فى الدوائر الحكومية ، فلقد استخدمها مكتب التحقيقات الفيدرالى بالفعل لرسم الصورة النمطية للقاتل السيكوباتى •

ومعنى ذلك أن كل شىء يعتمد على قواعد معقدة وضعها خبراء عديدون ويقوم الكمبيوتر بوزنها ومنهجتها وادارتها لتقديم يد العون لمتخذى القرار • ويمكننا أن نتوقع انتشارا كبيرا لتكنولوجيات مماثلة فى قلب الدوائر الحكومية وفى الحياة السياسية ذاتها حيث يتم اتخاذ القرارات ، غالبا ، على أساس كم ضخم وغير دقيق ومبهم من البيانات والصور والأفكار ، والتى ترتبط فى أغلب الأحيان بالتكلفة • بل وقد تتخذ القرارات أحيانا على أساس خدع حقيقية لا هدف لها سوى تضليل السلطة •

غير أن هذه الأدوات تعنى أن المنطق الذى تعتمد عليه القرارات سيكون « مطموراً » بشكل متزايد ، بحيث يمكن القول بأنه سيغدو غير مرئى • ومن المفارقات أن النظام المسئول عن توضيح المعلومات يفقد تدريجيا شفافيته بالنسبة لأغلب مستخدميه النهائيين •

ولكن ذلك لا يبرر تجنب استخدام الذكاء الاصطناعى والنظم الخبيرة وانما يشير الى عملية لها عواقبها المهمة بالنسبة للديمقراطية •

منذ الماضى البعيد وحتى الآن لم يكن للسياسة « عصر ذهبى » كانت فيه نقية طاهرة الذيل ، فمن عصر أسرة الشانج الحاكمة فى الصين الى زمن أسرة البورجيا فى ايطاليا دأب من بيدهم السلطة على التلاعب بالحقيقة لخدمة مصلحتهم • الا أن ما يتغير حاليا وبشكل مذهل هو المستوى الذى تدور عنده هذه الألعاب الذهنية •

وفى العقود القادمة سيواجه العالم مشكلات جديدة مثل احتمالات حدوث كارثة بيئية عالمية وانهيار توازنات عسكرية راسخة واضطرابات

إقتصادية وثورات تكنولوجية · ويتطلب كل ذلك عملا سياسيا ذكيا قائما على فهم جلى وواضح للأخطار والامكانات ·

ولكن ما هى درجة دقة صور الواقع التى تبنى عليها الحكومات قراراتها المصيرية ؟ وكيف يمكنها أن تكون دقيقة بينما كل البيانات والمعلومات والمعرفة التى تقوم عليها عرضة لعمليات متكررة وخفية من « التلاعب الأسمى » ؟ ·

السكان الأشباح :

فى ربيع عام ١٩٨٩ عندما كان الدكتور جيمس هانسن ، مدير معهد جودار للدراسات الفضائية التابع للناسا ، يستعد لتقديم تقرير للكونجرس عن « تأثير الصوبة » (تأثير البيت الزجاجى) ، عرض مشروعه أولا على مكتب الادارة والميزانية فى البيت الأبيض · وكان هانسن يعتقد أن الوقت قد حان لكى تتخذ الحكومة الأمريكية اجراءات واسعة النطاق لتفادى الجفاف والعواقب الوخيمة الأخرى لزيادة حرارة المناخ ·

ولكن عندما أعادوا له نص التقرير لاحظ أن البيت الأبيض أضاف فقرة تزرع الشك فى الأدلة العلمية المذكورة وتخفف بشكل واضح من موقفه المتشدد تجاه هذه المشكلة · فأعرب عن احتجاجه على هذا التصرف، غير أنه كان قد خسر المعركة الداخلية ولذلك أعلن وجهات نظره عبر الصحافة ·

وراء هذا النوع من الصراع بين الادارة وواحد من أكبر الخبراء الحكوميين تختفى معركة بيروقراطية غير ملحوظة فى أغلب الأحيان · فوزارة الخارجية الأمريكية والوكالة القومية لحماية البيئة كانتا تريدان أن تتقدم الولايات المتحدة معركة مكافحة تأثير الصوبة ، بينما كان مكتب الادارة والميزانية وكذلك وزارة الطاقة يحاولان كبح هذه المبادرة ·

وعندما قدم هانسن تقريره للصحافة طالب السناتور آل جور من مكتب الادارة والميزانية « تقديم الأسس التى بنى عليها استنتاجاته [···] أريد أن أعرف النموذج المناخى الذى تم استخدامه فى هذا الشأن » · ويعتبر آل جور واحداً من القلة النادرة من أعضاء الكونجرس التى تتمتع بثقافة تكنولوجية عالية ·

هذا الارجاع الى « النماذج » يثبت أن الصراع يدور عند مستوى التكتيكات الأسمى لأن المزيد من البرامج الحكومية تعتمد على افتراضات وافتراضات فرعية مطمورة داخل نماذج اعلاماتية معقدة ·

وهكذا ، فبينما كان السناتور جور يتساءل عن النمـــاذج التى استخدمها فريق المعتدلين كان سنونو فى البيت الأبيض يفند مصداقية النماذج التى استند اليها الفريق الآخر · وكتبت مجلة « انسايت » تقول عن سنونو : « انه ملم بأحدث المعلومات العلمية ، لذا فهو يعتقد أن النماذج الاعلاماتية التى تتنبأ بحدوث ارتفاع واضح فى حرارة الطقس مختصرة جداً بحيث لا تصلح كقاعدة لأى اجراء أو عمل » ·

وحاليا ، نجد فى كل مكان النماذج الاعلاماتية والنماذج المضادة وراء كل قضـــية سياسية مهمـــة ، ســـواء أكانت تتعلق بالاقتصـــاد أم بتكاليف الرعاية الصحية أم بالأسلحة الاستراتيجية أم بعجـــز المـــوازنة أم النفايات السامة أم السياسة الضريبية ، وهو ما يوفر المادة الأوليـــة للخلافات السياسية ·

يستطيع نموذج منهجى معين ان يساعدنا على تصور ظواهـــر معقدة ، وهو يتكون من قائمة من المتغيرات ، يمنح لكل منها معامـــلا محسوبا تبعا لمدلولها المفترض · وبفضل أجهزة الكمبيوتر ، من الممكن بناء نماذج تعتمد على عدد من المتغيرات أكبر مما يستطيـــع الذكاء الآدمى وحده معالجتها · كما أنها تسمح أيضا بتوقع ما سيحدث اذا منحت المتغيرات معاملا مختلفا أو اذا تم توليفها بطريقة جديدة ·

ولكن فى نهاية المطاف ، أيا كانت « الصلابة » الظاهرية للنتيجـــة النهائية فان كل النماذج تعتمد وبشكل يتعذر اصلاحه على افتراضات « هشة » · بالاضافة الى أن الوزن الممنوح لمتغير ما غالبا ما يكـــون « هشا » أيضا اذ يتم تحديده بشكل حدسى بل وتعسفى تماما ·

وبالتالى ، سيتقاتل قادة أى صراع سياسى من ذوى المهـــارة فى التكتيكات الأسمى حول المتغيرات ومعاملاتها وطريقـــة ربطها ببعضها ، وبالرغم من الضغوط السياسية التى قد تجعل محصلة الصراع تنحاز لجهة أو لأخرى ، فان نتائج مثل هذه الصراعات يتم غالبا تركيزها فى شـــكل قوائم معـــلومات مدهشة تمت معالجتها بالكمبيوتر وتبدو ظاهريا محايدة وموضوعية ·

وتستخدم النماذج فى اختيار وتنفيذ السياسات وفى تقييم فاعلية برنامج ما أو فى التساؤل « عما يحدث اذا ٠٠٠٠ ؟ » غير أن دراسة حكومية حديثة عن النماذج بعنوان «حروب البيانات » (Data Warss) توضح أنه يمكن استخدام النماذج أيضا « للتعتيم على مشكلة أو لتبرير موقف سابق [٠٠٠] أو تأخير اتخاذ قرار أو لاعطاء هذه المسألة أو تلك اهتماما رمزيا أكثر منه حقيقيا أو لتعقيد ومنع عملية اتخاذ القرار » ٠٠٠ الخ ٠

وينتهى مؤلفو هذه الدراسة الى أن « النماذج تلبى بنفس القدر احتياجات سياسية وأيديولوجية كما تلبى ضرورات تقنية (لاتخاذ قرارات مادية) » ، كما أنهم يعترفون بأنه أمر لا مفر منه لأن « النماذج الاعلاماتية تحدد فى الواقع « من سيحصل على ماذا » ٠

فلقد كشفت مثلا دراسة أجرتها ادارة البحوث التابعة للكونجرس الأمريكى أن التخفيضات التى أجريت فى ميزانية برامج الرعاية الاجتماعية فى الثمانينيات حولت ٥٥٧ ألف أمريكى على الأقل الى فقراء ، وهو رقم اذا عرف فى حينه لأمد المعارضة بأسلحة فعالة ٠ الا أن هذا الرقم لا يعتمد على احصاء لعدد الفقراء وانما كان تصحيحا لاحصائيات أخرى معتمدة على نماذج تحاول التنبؤ بما كان يمكن أن يحدث اذا لم يتم اجراء هذه الاستقطاعات فى ميزانية الرعاية الاجتماعية ٠

وفى نوفمبر ١٩٨٨ أقامت مدن نيويورك وهيوستن وشيكاغو ولوس انجلوس دعوى قضائية ضد مكتب التعداد والاحصاء لارغامه على تعديل طرقه فى العمل ٠ وكان يساند هذه الدعوى جمعيات الدفاع عن الحقوق المدنية واتحاد العمد ومنظمات أخرى عديدة ٠

ففى جميع عمليات التعداد يتم تقدير بعض الجماعات بأقل من حقيقتها ٠ اذ يصعب مثلا الوصول الى الفقراء والمقيمين المؤقتين ومن هم بلا مأوى ٠ كما قد لا يرغب الأجانب غير المسجلين فى أن يشملهم الاحصاء ٠ وأيا كانت الأسباب فان هذا التقدير غير الدقيق قد تكون له عواقب سياسية وخيمة ٠

وبما أن واشنطن توزع على المحليات والولايات جزءاً كبيراً من ايرادات الضرائب فان بعض المدن قد تحرم من تلك الأموال الفيدرالية التى كان من حقها الانتفاع بها نتيجة لسوء التقدير ٠ ولما كان تخصيص

مقاعد مجلس النواب يتم وفقا لعدد السكان فان الولايات التى يقدر عدد سكانها بأقل من عددهم الفعلى قد تحرم من حقها فى التمثيل الكامل ، مما يؤدى الى ضياع مكاسب أخرى عليها · ومن ثم فقد تساهم المعلومات غير الوافية فى انتقال السلطة السياسية ·

ولتعويض عملية سوء التقدير تلك فان أجهزة كمبيوتر مكتب التعداد والاحصاء عندما تتعامل مع منزل لا تتوفر لديها أية معلومات عنه تفترض أن صفات وخواص شاغليه تتطابق وخواص وصفات من يعيشون فى الجوار وذلك باستخدام أسلوب التقدير الاستقرائى · وعندئذ تقوم أجهزة الكمبيوتر باستكمال البيانات الناقصة « بدلا » من الأشخاص الغائبين ·

والنتيجة هى أن ملايين الأشخاص الموجودين افتراضا هم فى الواقع سكان أشباح لا نعرف صفاتهم أو خصائصهم الا تكهنا · غير أن هذه التقديرات والحسابات بمساعدة الكمبيوتر قد تمثل تصحيحا أفضل من الأساليب الاحصائية التى كانت تستخدم فى السابق · ولكن كما يحدث دائما عند استخدام مثل هذه التقنيات فانها تفتح باب المجادلة والخلاف · فعلى أساس هذه الافتراضات خسر ناخبو ولاية أنديانا مقعدا فى الكونجرس اذ خصص هذا المقعد لولاية فلوريدا · وبذلك تكون التقديرات والحسابات بمساعدة الكمبيوتر قد عدلت بالفعل السلطة السياسية ·

باختصار ، نحن نشهد تطور نوع جديد من الصراع السياسى · حيث سيدور الصراع حول افتراضات قائمة هى نفسها على افتراضات أخرى مستندة بدورها على فروض مخبأة فى برامج اعلاماتية معقدة · ان هذا النزاع حول « الأسئلة الأسمى » يجسد الأهمية المتنامية للاقتصاد فائق الرمزية · فهذا الاقتصاد الجديد لن يستطيع أن يعمل اطلاقا بدون لمسة البشر وخيالهم وحدسهم أو محروما من كل أشكال الوعى والادراك والتمييز أو من أية صفات أخرى ننسبها طواعية للبشر وليس للآلات · غير أن الاقتصاد الجديد يتطلب فى الوقت نفسه معارف متزايدة التعقيد والتجريد قائمة على وابل متصل من البيانات والمعلومات وجميعها عرضة للتلاعب السياسى المطرد المهارة ·

ان هذه الالمامة بتكتيكات المعلومات خاصة التكتيكات الأسمى الجديدة تبين لنا جيداً أن القوانين التى تحد من سبل الوصول الى أسرار الدولة لا تخدش سوى القشرة الخارجية لمشكلة المعرفة

الديمقراطية ٠ أن الاقتصاد الجديد يتطلب ، بطبيعته ذاتها ، تبادلا حرا للأفكار والنظريات المبتكرة كما يتطلب اعادة طرح مسألة السلطة ٠ ومع ذلك ٠٠٠٠٠

فبالرغم من الجلاسنوست ومن القوانين الخاصة «بحرية الصحافة» ومن عمليات تسريب المعلومات والصعوبة التى تجدها الحكومات اليوم فى الحفاظ على سرية الأمور ، وبالرغم من أسباب أخرى كثيرة ، فــان حقيقة تصرفات من يمسكون فى أيديهم بمقــاليد السـلطة ســتزداد اعتماما بشكل متزايد بدلا من أن تزداد شفافية ٠

وبذلك نصل الى « السر الأسمى » للسلطة ٠

الفصل الرابع والعشرون

ســوق للجواسيس

ذات يوم تخيل آرت بوتشوالد ، وهو من أكثر الكتاب الهزليين الأمريكيين ظرفا ، اجتمــاعا للجـواسيس فى مقهى موتســارت ببرلين الشرقية ضم جورج سميلى شخصية جون لوكاريه الشهيرة • وجعلــه بوشــوالد يتساءل : « هل يعـرف أحدكم من يريد شراء خطط الدفـاع عن الممر الشمالى لحلف وارسو ؟ » •

فرد أحدهم قائلا : « دعك من ذلك يا ســميلى ، لم يعـد هنـاك هواة للأسرار العسكرية • لقد انتهت الحـرب الباردة وخطط حلف وارسو لم تعد تشترى لأن موسكو تقوم بتوزيعها » •

كان ما كتبه بوتشوالد مسـليا كالعــادة • غيــر أن الجــواسيس الحقيقيين - لا جواسيس الروايات - قهقهوا أكثر من غيرهم بالطبع • لأن التجسس سيكون من أكثر المجالات التى ستشهد « ازدهاراً » خلال العقود القادمة • فمستقبل الجواسيس ليس مضمونا فحسب بل سيشهد نشاطهم تغييراً ثوريا أيضا •

فبينما يتبدل المجتمع كله ليتكيف مع النظام الجديد لخق الثروة القائم على المعرفة ، ستتشعب وتنتشر الوظائف المعلوماتية للحكومات وتكتسب بعض أنواع المعـرفة المختلسة والمعرفة السرية قيمـة أكبر بالنسبة لمن يحتاجونها •

وسيحدث هذا التغيير بدوره انقلابا فى الأفكار السائدة عــن الديمقراطية والمعـلومات ، لأننا حتى لو نحينا جانبا العميــل السرى والمراقبة الداخلية لنركز اهتمامنا على عمــل الاســتخبار « البحت » - أى

تجميع المعلومات الأجنبية وتفسيرها - سنرى ظهور نظام يتجاوز كل ما عرفناه حتى الآن فى مجال التجسس ٠

ولكى نقتنع بذلك يكفى القاء نظرة سريعة الى الوراء ٠

الفراشـــات والقنابل :

يزاول الجواسيس نشاطهم على الأقل منذ أن عرف « كتاب الموتى » المصرى القديم التجسس بأنه خطيئة تعرض الروح للهلاك ٠ ولكن منذ عهد الفراعنة وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية ظلت التكنولوجيـــات المتاحة فى هذا المجال بدائية ٠ وكما كان العلماء قديما ، ظل الجواسيس حتى وقت قريب ولدرجة كبيرة هواة يفتقدون التدريب ٠

ففى السـنوات الأولى من هذا القرن تجـول روبرت بادن باول - الذى أسس بعد ذلك الحركة الكشفية - عبر بلاد البلقان لرفع وتسجيل تحصيناتها تحت ستار صياد فراشات مخبول ٠ وأخفى رسومات هذه التحصينات فى رسم معقد لأجنحة الفراشات ٠ (كان بادن باول يعتقـد أن الهاوى المتحمس الممارس للتجسس كنـوع من الرياضة هو القـادر على تحقيق أفضل النتائج) ٠

ومثال آخر لجاسوس عصامى ، بمعنى أنه علم نفسه بنفسه ، هو النقيب اليابانى جئيشى تاناكا ٠ فبعد أن عمل فى موسكو مع الملحـق العسكرى اليابانى هناك وتعلم اللغـة الروسية وأعلن انضـمامه للكنيسة الأرثوذوكسية ، عاد بهدوء الى طوكيو عن طريق البر فى رحلة استغرقت شهرين ، حتى يتسنى له التعرف على خطوط السكك الحديدية العابرة لسيبريا ولشرق الصين ٠ وعاد الى بلاده بمعلومات نفيسـة استعداداً للحرب الروسية اليابانية فى عام ١٩٠٥ ٠ وحتى الآن لازال أغلب أدب الجاسوسية يروى الأعمال البطولية لأشخاص شجعان ممن يسـعون وراء الأسرار العسكرية ٠

غير أن الثورة الصناعية بدلت وغيرت الحرب ٠ فان تعميم التجنيد وميكنة وسائل النقل والمدافع الرشاشة وانتاج الدبابات والطـائرات بالجملة ومفهوم الحرب الشاملة كانت كلها من نواتج الموجة الثـانية أو العصر المصنعى ٠ لقد ازدادت طاقة التدمير بالتوازى مع قدرة الانتاج بالجملة وبلغت نقطة اللا عودة مع التهديد النووى المتبادل بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ٠

وتلا تطبيق الوسائل الصناعية على الحرب تطبيقها على الاستخبار • ففى بداية القرن أصبحت الجاسوسية الروسية أكثر منهجية وأكثر تنظيما وبيروقراطية مع جهاز الاستخبار القيصرى الرهيب « آلأوخرانا » الذى يعتبر بمثابة الجد الأكبر لجهاز الـ (كيه• جى• بى)• وأقيمت مدارس للجاسوسية وبدأ الجواسيس فى تلقى تدريب كمحترفين•

غير أن حفنة من الجواسيس حتى وان كانت مدربة لا يمكنها تلبية الطلب المتزايد على المعلومات الاستخبارية • وكما حدث فى المصانع ، حيث احتلت خطوط الانتاج الصدارة مقارنة بالبشر العاملين عليها ، تركز البحث لبلوغ شكل من أشكال الانتاج بالجملة فى مجال الجاسوسية •

فى مطلع القرن العشرين كان لدى اليابانيين الى جانب بعض الجواسيس المتفرغين مثل تاناكا جيش كامل من المهاجرين المقيمين فى الصين وسيبيريا ـ طهاة وخدم وعمال صناعيون ـ كانوا يتجسسون على البلاد المقيمين بها • وطبقا للنموذج الصناعى استخدمت الاستخبارات اليابانية أيدى عاملة من الجواسيس غير المهرة لانتاج معلومات بالجملة ، يتم تقديمها بعد ذلك الى بيروقراطية متزايدة العدد « لمعالجتها » •

وفى عام ١٩١٧ ، بعد الثورة الروسية طرح لينين فكرة « صحفى الشعب » ، وهم آلاف العمال البسطاء الذين كان يتم تشجيعهم على الكتابة الى الصحف لكشف الخونة والمخربين ، المفترض أنهم مناهضون للثورة • وطبقت فكرة المحررين الهواة تلك فى عمل الاستخبارات الخارجية • وبحلول عام ١٩٢٩ بلغ عدد « صحفيى الشعب » حوالى ثلاثة آلاف فى فرنسا وحدها • وكان من بينهم من يعمل فى الترسانات البحرية ومصانع الأسلحة • وكان يطلب منهم الكتابة الى الصحافة الشيوعية للكشف عن ظروف عملهم المتردية • غير أن هذه الاسهامات كانت تقدم معلومات مفيدة عن الانتاج الحربى وكان لا يتم نشر الخطابات التى تكشف الكثير من الأسرار وانما ترسل مباشرة الى موسكو • ولقد كان ذلك محاولة أخرى لجمع استخبارات بالجملة ذات أهمية من الدرجة الثانية عن طريق الهواة •

أما التجسس ذو المستوى الرفيع فكان يوكل الى محترفين تم تدريبهم بعناية ، مثل ريتشارد سورج الذى ولد فى باكو ونشأ فى برلين ثم أصبح أحد ألمع العملاء السوفيت فى التاريخ • بفضل طفولته الألمانية

انضم سورج للحزب النـازى ، وعمل لكى يتم أرسـاله كمراسل لصحيفة « فرانكفورتر زايتنج » فى اليـابان ، وهنـاك نجـح فى كسب ثقـة الدبلوماسيين وكبار المسئولين الألمان واليابانيين وذلك باعلان ولائـه الشديد لهتلر ٠

وكان السوفيت فى ذلك الوقت مرعوبين من فكرة أن يقوم اليابانيون بشن هجوم خاطف على سيبيريا ٠ ونظـرا لدراية سـورج التامة بخبايا الأمور ، فقد أخبـرهم أن ذلك لن يحدث قط ٠ ولـكن بالمقـابل سيتعرض الاتحاد السوفيتى لهجوم من قبل ألمانيا ٠ وفى عام ١٩٤١ حذر سورج موسكو من أن ١٥٠ فرقة ألمانية يعاد تجميعها استعدادا للغزو ٠ بل انه حدد تاريخ الهجوم وهو ٢٢ يونية ، الا أن ستالين تجاهل معلوماته ٠

وكان سورج على وشك تبليغ موسكو بالهجوم اليابانى على ميناء بيرل هاربر ــ محددا هذه المرة أيضا الموعد الصحيح للهجوم ــ عندما ألقى القبض عليه ، ثم أعـدم بعد ذلك على ايدى اليابانيين ٠ وقد وصف الجنرال دوجلاس مكارثر سورج فيما بعد بأنه « مثال واضح للنجـاح الباهر فى مجـال الجاسوسية » ٠

لقد أكدت حياة سورج العملية على قيم الشجاعة والمبادرة الفردية٠ غير أن الحرب العالمية الثانية شهدت أيضا طفرات رائعـة فى جميع الميادين ، ابتداء من أدوات التشفير وفك الشفرة الى أجهزة الاستطلاع الجوى واللاسلكى والرادار ٠ ولقد أدت هذه التكنولوجيات الى الانتاج الكمى الحقيقى للمعلومات الاستخبارية التى يرقى بعضها هذه المرة الى مستوى رفيع حقا ٠

سيارات الكرملين الليموزين :

منذ ذلك الحين ، امتلأت السماء ، نتيجة للتقدم التقنى ، بعيون وآذان تسجل آليا كما هائلا من البيانات ، فالأقمار الصناعية والأجهزة البصرية فائقة التطور وغيرها من معدات الرصد والتصوير تراقب بشكل مستمر كوكب الأرض ٠ كما تغطى أجهزة الرصد السمعية الطرق البحرية الاستراتيجيـة ٠ وتنتشر محطات التنصت والرادار العمـلاقة والعـديد من الأجهزة الألكترونية الأخرى على امتداد الكرة الأرضية من استراليا الى النرويج ٠

ويشمل الاستخبار التكنولوجي الاستخبار بالاشارات ، الذى يتضمن بدوره الاتصالات والإلكترونيات والقياس عن بعد ، والاستخبار بالرادارات التى تلتقط الاشارات المرسلة الى أجهزة الرادار أو منها ٠ و « الاستخبار بواسطة الصور » أى باستخدام التصوير الفوتوغرافى وأدوات الرصد بواسطة الأشعة تحت الحمراء ٠٠ الخ ٠ وتستخدم كل هذه النظم أكبر وحدات الكمبيوتر فى العالم ٠ ولقد بلغ من اتساع نطاق استخدامها وقيمتها وقوتها أنها دفعت بالاستخبار بواسطة البشر الى مرتبة أدنى ٠

ويشير وليم باروز – وهو صاحب دراسة عن التجسس الفضائى – الى هذه الأجهزة ذات التكنولوجيا المتطورة قائلا : « ان نظم الاستشعار عن بعد التى يراقب بها كل معسكر المعسكر الآخر وكذلك معظم باقي أنحاء العالم ، عديدة ومتنوعة وغزيرة بحيث لا يمكن حدوث أى استعداد لهجوم شامل دون أن تنطلق صفارات انذار متعددة [٠٠٠] ٠ فلكى تتم تعبئة القوات ولكى تقلع الطائرات ولكى يختبىء المدنيون يتعين اصدار الأوامر وبثها بسرعة كبيرة على امتداد مسافات طويلة ، وما يتم بثه وارساله يمكن اعتراضه والتقاطه ٠ كما يتعين تحريك كل ما يلزم لبدء عملية هجومية وما يتحرك يمكن تصويره » ٠

ان أجهزة المراقبة التى تملأ السماء تستطيع التقاط كل الرسائل العسكرية والدبلوماسية والتجارية التى يتم ارسالها بواسطة الهاتف والتلكس واللاسلكي أو أجهزة الكتابة عن بعد أو غيرها من وسائل البث عبر الأقمار أو نظم الموجات الميكروية ٠ لقد تم مثلا التقاط أحاديث هاتفية بين كبار مسئولى الكرملين ، وهم داخل سياراتهم الليموزين ، وعلماء صينيين فى موقع التجارب النووية فى لوب نور ٠ (وبعد هذه الحادثة كف الصينيون عن استخدام الاتصالات المبثوثة عبر الأثير وأقاموا خطوطا أرضية أكثر أمانا) ٠

غير أن هناك حدوداً لكل ذلك ٠ فالولايات المتحدة التي تتفاخر بما لديها من وسائل « التجسس الفضائى » اضطرت أن تخفف من غلوائها عندما اكتشفت أن السوفييت نقلوا سراً الي المانيا الشرقية ٢٤ صاروخا من طراز (SS-23) من بين الـ ٢٣٩ صاروخا التى كان من المفترض أن يدمروها ٠ وثمة حالات فشل أخرى ، فنظراً للتقدم الذى تم احرازه فى مجال التشفير بفضل أجهزة الكمبيوتر لم يعد من السهل إختراق عدد متزايد من الشفرات ٠ كما تظل الظروف المناخية عائقا بالنسبة للتصوير الاستطلاعي ٠ كذلك يمكن أن يستخدم العدو وسائل الكترونية مضادة

لمنع استقبال المعلومات المنتظرة أو تشويشها · غير أن الجمع المكثف وشبه الصناعى للبيانات أصبح حقيقة لا يمكن انكارها ·

ولا تقتصر مصادر الاستخبار ـ بطبيعة الحال ـ على العملاء التقليديين أو التكنولوجيا المتطورة ، بل ان قدرا كبيرا من المعلومات الاستخبارية ترد من مصادر « مفتوحة » فى متناول الجميع مثل الصحف والبث الاذاعى والاحصائيات الرسمية والمؤتمرات العلمية والتجارية : وتمثل هذه المعلومات ، بعد أن تضاف اليها المعلومات السرية ، المواد الأولية لمصنع الاستخبار ·

ولمعالجة كل هذه البيانات نشأت وتطورت بيروقراطية ضخمة تطبق مبدأ تقسيم العمل وتجزئة الانتاج الى سلسلة متوالية من المراحل، كما فى المصانع · تبدأ العملية بتحديد احتياجات الجهة الراغبة فى الحصول على المعلومات الاستخبارية ، ثم بمجرد أن يتم تجميع المادة الأولية الواردة من المصادر السرية والمفتوحة ، على حد سواء ، تبدأ عملية الترجمة وفك الشفرة وعمليات التحضير الأخرى التى تليها عمليات التحليل والتغليف فى شكل تقارير موجهة الى طالبى المعلومات الاستخبارية ·

ويدرك العديد من الشركات الآن أن هذا النمط من الانتاج المتسلسل لم يعد مناسبا · وكما رأينا فى الاقتصاد الجديد يتم استبعاد بعض المراحل أو اجراؤها بشكل متزامن · كما بات التنظيم البيروقراطى بطيئا وثقيلا فى حين تتبدل الأسواق سريعا ، ويترك الانتاج بالجملة مكانه « للانتاج المرن » ولمزيد من المنتجات ذات المواصفات المحددة من قبل المستهلك · ولقد نجم عن ذلك تعرض كثير من الصناعات الى أزمة خطيرة ·

وبالمثل يمر نشاط التجسس هو أيضا بفترة من الأزمات · فلقد أثبتت التكنولوجيات الجديدة المستخدمة فى جمع المعلومات كفاءة وفاعلية عالية ، فهى تقدم كما ضخما من الصور بواسطة الكمبيوتر وتسجل عددا هائلا من المكالمات الهاتفية وتغرق أجهزة الاستخبار بطوفان من المعلومات بحيث يصبح مستحيلا معالجتها بكفاءة ، ان فيض المعلومات يحدث وبشكل متزايد « شللا فى التحليل » ·

وبدأ يتضح أن عمليات العثور على المعلومة الجيدة وتحليلها بشكل سليم وارسالها فى الوقت المطلوب للزبون المناسب أصعب من عملية جمع المعلومات ذاتها ·

وبالتالى ، فبينما ينتقل العالم الى نظام جديد للانتاج مؤهل ليحل محل النظام المصنعى تواجه عمليات الاستخبار أزمة اعادة هيكلة موازية لأزمة اعادة الهيكلة التى يمر بها الاقتصاد ذاته ٠

المنافسون الرئيسيون :

ان اعتبار الجاسوسية نشاطا انتاجيا ضخما يسهل ادراك الأمور٠ وعلى أية حال قد يفسر ذلك اطلاق اسم « الشركة » على وكالة المخابرات المركزية الأمريكية (سى ٠ آى ٠ ايه) ٠

وكما فى مجال الصناعة يوجد فى مجال التجسس بعض الشركات العملاقة وكثير من الشركات الصغيرة ٠ ويحتل المنتجون الأمريكيون مكانة متفوقة فى الصناعة العالمية للتجسس ، فالى جانب الـ (سى ٠ آى ٠ ايه) توجد وكالة الاستخبارات الدفاعية التابعة للبنتاجون وخاصة وكالة الأمن القومى (NSA) ومكتب الاستطلاع القومى وتتولى هذه المنظمات الأربع جمع أغلب بيانات الاستخبار التكنولوجى ٠ وفضلا عن ذلك فان قيادات الجيش المختلفة لديها وحدات استخبار متخصصة وكذلك الدوائر الحكومية خاصة وزارات الخارجية والطاقة والمالية والتجارة ، وان كانت أجهزة استخباراتها أقل شهرة ، وهى تستخدم غالبا عملاء معارين لها من ال (سى٠ آى٠ ايه) ٠ ويمثل كل ذلك « جماعة الاستخبارات » الأمريكية ٠

أما السوفيت فيعتمدون فى تجميع المعلومات عن الخارج على جزء من جهاز أمن الدولة المعروف بال (كيه٠ جى٠ بى) (الجزء الآخر له مهام داخلية) وعلى جهاز آخر يعرف اختصارا بـ (GRU) وهو المتخصص فى التجسس العسكرى والتكنولوجى ٠ كما يملك السوفيت بالاضافة الى ذلك نظاما واسعا من الأقمار الصناعية والمحطات الأرضية والرادارات العملاقة وطائرات الاستطلاع وأجهزة أخرى تسمح لهم برصد الاتصالات الدولية ومراقبة الأنشطة النووية على امتداد الكرة الأرضية ٠

ويعتمد البريطانيون ، المشهورون بمهاراتهم التحليلية الممتازة وبعدد العملاء السوفيت الذين نجحوا فى التسلل الى أجهزة استخباراتهم ، على جهازهم السرى المعروف اختصارا بالـ (M 16) وكذلك على جهاز يناظر وكالة الأمن القومى الأمريكية ، هو مركز قيادة الاتصالات الحكومية (GCHQ) .

والمقابل الفرنسي للـ (سي ٠ أي ٠ ايـه) هو الـ (DGSE)

وشهرته « البيسين » أى « حمام السباحة » ويكمل عمله جهاز آخر هو تجمع المراقبات الكهـــرولاسلكية أو الـ (GCR) ويتمتع « البيسين » ، الذى كثيراً ما يكون على خلاف مع الأجهزة الغربية الأخرى ، بتأثيـر ومكانة متزايدة ، بالرغم من أدائه التعيس فى قضية « جرين بيس » التى تم خـلالها اغراق سفينة رينبـو وورير التابعـة لجمـاعة « السـلام الأخضر » المناهضة للتجارب النووية ٠

ومن الجهات المهمة لانتاج المعلومات الاستخبارية جهـاز الموساد الاسرائيلى الذى يسمى غالبا « المعهد » ، وجهاز المخابرات الألمانى الغربى بالاضافة الى أجهزة الاستخبار الرئيسية اليابانيـــة وهى أولا مكتب أبحاث مجلس الوزراء المعروف باسم « نايتشو » وهو تنظيم صغيـر يتبع رئيس الوزراء مباشرة ويقوم بتجميع المعلومات الواردة من أجهزة الاستخبار العسكرية ومن المنظمات الخاصة ومن وسائل الاعـلام مثل وكالة كيودو للأنباء أو جيجى برس ٠ وجهاز جوتشا بيشيتسو الذى يهتم بالاستطلاع الالكترونى الجوى مستهدفا بشكل خاص كوريا الشمالية والصين والاتحاد السوفيتى ٠ (فى عام ١٩٨٦ ــ أى بعد ٨٤ عاما من رحلة الجاسوس اليابانى جئيش تاناكا ــ اكتشف السـوفيت صندوقا يابانيا غريبا على الخط العابر لسيبيريا ، لقـد حل التجسس التكنولوجى محل التجسس البشرى !) ٠

باختصار كل الدول تقريبا لديها نوع ما من الأجهزة المسئولة عن جمع المعلومات عما يدور خارج حدودها ٠ بالاضافة الى ذلك فان بعض المؤسسات غير الحـكومية ــ بدءا من الشركات البترولية الكبـرى الى الفاتيكان ــ تمارس هى أيضا نشـاطا استخباريا ضخما ٠ ان هـذه المنظمـات تمثل فى مجملها احدى أهم صناعات « الخدمات » فى العالم ٠

مقايضة الأسرار :

كل هذه « الشركات » جزء لا يتجزأ من سوق واسـعة للاستخبار ٠ فكما يقضى الاقتصاد الصناعى ببيع السلع أو الخدمات للمسـتهلكين فانه يقضى بأن تتبادلها الشركات فيما بينها ٠

وقياسا على ذلك فان الجواسيس يتاجرون فيما بينهم منذ زمـن طويل ٠

ففى منعطف القرن قام الجاسوس البريطانى ادوارد جليتشن برفع وتسجيل التحصينات المغربية وساعده السكان المحليون في ذلك أحيـانا

حيث أعانوه على حد قوله فى « التقاط الزوايا والانحدارات » · وقد تم نقل هذه المعلومات فيما بعد الى الفرنسيين الذين كانوا منهمكين فى « اخضاع أهل البلاد » · ولم يعرف ما حصل عليه البريطـــانيون فى المقابل · غير أن هذا الشكل من المقايضة ـ كما كان سيسميهـــا آدم سميث ـ ليس شائعا فحسب فى الخفـــاء بل انه يشـــهد ازدهـــارا غيـــر مسبوق ·

وكما تفعل الشركات متعددة الجنسيات فان وكالات الجاسوسية تكون تحالفات واتحادات فيما بينها· فمنذ عام ١٩٤٧ ربطت معاهـدة سرية ـ اتفاقية أوكوسا الأمنية ـ بين وكالة الأمن القومى الأمريكيـــة ونظيراتها البريطانية (GCHQ) والكندية والأسترالية والنيوزيلندية · وانضمت بعد ذلك منظمة الناتو الى هذه الاتفاقية · (غير أنه تم اسـتبعاد نيوزيلاندا فى عام ١٩٨٦ من اتفاقية تبـادل المعلومات لأنها منعت دخول السفن الأمريكية المزودة بالأسلحة النووية الى موانيها) · وتتســـم علاقات أعضاء مثل هذا النوع من الاتحادات والتجمعات بالتوتر ، اذ تختلط فيها المعلومات الاستخبارية الصـــحيحة بالمزيفة كما يتم تبـــادل الاتهامات بتسريب الأسرار أو بالسماح للأعداء باختراق هذه التنظيمات أو بالاحتفاظ ببعض المعلومات وحجبها عن الآخرين

وثانى اكبر كونسورتيوم عالمى للاستخبار هو الذى تقوده موسكو ويضم أغلب دول أوروبا الشرقية بالاضافة الى كوبا وفيتنام · وهـو تجمع استمر منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى التسعينيات ·

ولتوضيح الطريقة التى كان يعمل بها هذا التجمع سنذكر قضية جيمس هاربر ، وهو مهندس متقاعد فى كاليفورنيا كانت زوجته تعمل لدى شركة سيستمز كونترول (Systems Control) التى تتعامل مع وزارة الدفاع الأمريكية · وقد باع هاربر عدداً كبيرا من مستندات هذه الشركة ، مقابل ٢٥٠ ألف دولار ، لجاسوس بولندى كان ينتحل صفـة موظف فى وزارة الصناعة البولندية ، وان كان فى الواقـع يعمل فى جهاز المخابرات البولندى

وكان يتم نقل تلك الوثائق ، التى تحتوى على معلومات عن الصواريخ البالستيكية الدفاعية الأمريكية ، سريعا الى وارسو حيث يجرى فرزها ونسخها ثم تسليمها الى عملاء الـ (كيه · جى · بى) الذى يقال انه كان « يعهد » بانتظام بمهام خاصة لأجهزة مخابرات دول أوروبا الشرقية ·

ولقد تكررت واقعة هاربر بشكل أو بآخر مع أجهزة ألمانيا الشرقية وبلغاريا والمجر ورومانيا في الفترة التي كانت فيها أوروبا الشرقية تحت السيطرة السوفيتية • وعلى الرغم من أن هذه الدول كانت تعمل لخدمة مصالحها الخاصة ، فانها كانت ترتبط بالاتحاد السوفيتي بروابط عضوية وثيقة جعلتها تستمر في التعاون مع السوفيت حتى بعد سقوط حكوماتها الشيوعية •

غير أن مقايضة المعلومات الاستخبارية لم تكن مقصـــورة على الدول الأعضاء في كل معسكر ، لأن بقية دول العالم لم تكن منضمة لأي من المعسكرين ومن ثم كانت الفرصة قائمة لوجود علاقات بيع وشراء للمعلومات • ففي كثير من البلدان عندما يتولى الحكم نظام جديد أو حزب مختلف يكون أحد أهم قراراته ـ وان كان لا يتم مناقشتها علنـا قط ـ هو اختيار « مورد للمعلومات الاستخبارية » •

وخير مثال على ذلك هو حالة الرئيس الأرجنتيني راؤول الفونسين الذي تولى رئاسة أول حكومة ديمقراطية في الأرجنتين بعد سقوط الحـكم العسكري • ففي عام ١٩٨٥ طرحت مشكلة اختيار « مورد استخبارات » نفسها عليه وعلى وزرائه • وكانت ال (سي• آي• ايه) أو جهـــاز المخابرات الفرنسي أو البريطاني أو جهاز الموساد الاسرائيلي من بين الموردين الرئيسيين الذين كان يمكن للأرجنتين التوجه اليهم • وكان من المفترض أن يتقدم الجواسيس الأرجنتينيون معلومات عـن بعض الدول مقابل المعلومات التي يحصلون عليها عن دول أخرى تقع خارج اطـــار عملهم الاستخباري لأسباب تتعلق بالامكانات أو لأسباب أخرى •

وتم استبعاد البريطانيين بسبب حرب الفوكلاند التي خاضوهـا ضد الأرجنتين • أما الـ (سي • آي • ايه) فكانت متورطة مع النظـام السابق في بيونس آيرس ، وكان من الأفضل على أية حال تفادي القوتين العظميين • وكان الفرنسيون يمثلون احتمالا طيبا غير أنهم على قوتهم في الساحة الأفريقية كانوا ضعفاء على ساحة أمريكا اللاتينية وهو ما كان يمثل « اعاقة » خطيرة • وكما قال مسئول أرجنتيني شاكيا : «للأسف ، ان المشكلة في مجال الاستخبار هي أن المرء لا يعلم قط مع من يتعامل »•

ومما لا شك فيه أن قضايا مماثلة تثار حاليا في دول أوروبا الشرقية التي ابتعدت عن موسكو وتبحث عن شركاء جدد في مجال الجاسـوسية في الغرب أو في أماكن أخرى •

حتى فى الولايات المتحدة تتغير القواعد التى تنظم تبادل المعلومات الاستخبارية مع كل رئاسة جديدة ٠ فقد كانت جمهورية جنوب أفريقيا ، التى لا تملك أقماراً صناعية ، تتلقى المعلومات الاستخبارية عن الأقطار السوداء المحيطة بها من كل من بريطانيا والولايات المتحدة ٠ وكانت هذه المعلومات تشمل أنشطة المؤتمر الوطنى الافريقى الذى يعد حركة المعارضة الرئيسية فى جنوب أفريقيا ، غير أن الرئيس جيمى كارتر حظر أى تبادل للمعلومات مع جنوب افريقيا ، وكان يتعين انتظار رئاسة ريجان لاعادة فتح خط التبادل مرة أخرى ٠

ويكشف التاريخ السرى للاستخبارات الدولية عن أغرب الروابط مثل حالة الأستراليين العاملين فى شيلى تحت قيادة الـ (سى ٠ آى ٠ ايه) للاطاحة بحكومة الليندى ، والفرنسيين الذين تعاونوا مع البرتغال والمغرب مثلا أو الرومانيين مع منظمة التحرير الفلسطينية ، والسوفيت الذين أمدوا ليبيا بمعلومات عن العمليات البحرية والجوية الاسرائيلية وكذلك الاسرائيليين الذين يزودون الولايات المتحدة بالمعلومات الاستخبارية ٠

ولعل من أكثر عمليات التعاون تلك اثارة للدهشة هى زيارة اثنين من كبار المسئولين السابقين فى الـ (كيه ٠ جى ٠ بى) ـ هما فيردور شيرباك نائب مدير الجهاز وفالنتين زفيز دنكوف رئيس عمليات مكافحة الارهاب ـ للولايات المتحدة فى عام ١٩٨٩ حيث التقيا بوليم كولبى المدير السابق للـ (سى٠ آى٠ ايه) لابرام اتفاقية لتبادل المعلومات فى مجال المخدرات والارهاب ٠

وتتيح هذه المجموعة من الاتفاقات السرية ـ الدائمة التقلب ـ لدولة ما ان تختبىء وراء دولة أخرى لتقوم ببعض العمليات التى قد تعتبر من وجهة نظر قوانينها غير مشروعة أو مريبة ٠ فجهاز الاستخبار الحكومى البريطانى (GCHQ) ـ وهو المكافىء البريطانى لوكالة الأمن القومى الأمريكية ـ يحتفظ بقائمة أسماء مواطنين أمريكيين تهم مكالماتهم الهاتفية نظيرتها الأمريكية ٠ ان المقايضة الدولية للأسرار تبطل كل القيود الداخلية الموضوعة على عمليات جمع المعلومات الاستخبارية ٠

عمالقة المستقبل :

حين يتكيف النظام العالمى للاستخبارات مع الاقتصاد فائق الرمزية الوليد فان سوق المعلومات النهمة التى يمثلها هذا النظام ستتطلب منتجات جديدة وسيتصدر عمالقة جدد المقدمة ٠

ومن المتوقع فى المستقبل غير البعيد ضعف بل وانهيار تحالف التجسس بين UKUSA والناتو • كما ستعاد صياغة التوازن العالمى فى مجال الاستخبار بعد التغيرات التى حدثت فى أوروبا الشرقية وتحرر دولها من النفوذ السوفيتى ، حيث بدأت كل منها تتعامل لحسابها الخاص مع أجهزة التجسس الغربية •

بالاضافة الى ذلك ، يمكن توقع أن تزداد أنشطة كل من المانيا واليابان فى مجال الاستخبار بنفس قدر تنامى دورهما الدبلوماسى والسياسى ـ وربما العسكرى ـ ليتفق وقوتهما الاقتصادية الهائلة • وهو ما سيحفز بدوره عمليات التجسس ومكافحة التجسس لدى جيرانهما وشركائهما التجاريين وحلفائهما وكذلك أعدائهما • (ويمكن افتراض أن اعادة توحيد آلمانيا قد جعلت بون تسترد فى مجال الجاسوسية بعض الشبكات و « المواقع المكتسبة » التى كانت تدار سابقا بواسطة الألمان الشرقيين فى الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا وبلدان أخرى)

ومن المحتمل أن يقوم الألمان واليابانيون بتكوين أنوية لاتحادات وتجمعات استخبارية جديدة ترتبط بها قوى ثانوية • على أية حال ، سيكون أمرا مثيرا للدهشة ألا يحظى جهاز الاستخبار فى البلدين بزيادات ضخمة فى ميزانياتهما (وان كانت مخفية بلا شك فى ميزانيات وزارات أخرى) •

ان انزلاقات السلطة تلك فى عالم الاستخبار الخفى تجسد « ترتيب القوى » الجديد ، (اذا استخدمنا تعبيرا سوفيتيا مفضلا) • فبينما يؤدى النظام الجديد لخلق الثروة الى اشتداد المنافسة بين الدول ذات التكنولوجيا المتطورة ، فانه يقلب فى الوقت نفسه رأسا على عقب الأولويات فى قلب أجهزة التجسس الرئيسية • فهناك ثلاثة موضوعات ستكون محط اهتمام الجواسيس مستقبلا ، ألا وهى الاقتصاد والتكنولوجيا والبيئة •

طائرات حربية و « قوائم مراقبة » :

فى عام ١٩٧٥ علم مستشار فلسطينى لدى حكومة بغداد أن العراق ، فى اطار تغير التوجه السياسى للاتحاد السوفيتى تجاه الغرب ، يريد

شراء ٦٠ طائرة حربية قيمتها حينذاك نحو ٣٠٠ مليون دولار · وحاول المستشار الفلسطيني سعيد أبو الريش أن يتفاوض لابرام الصفقة مع شركة بريطانية ، ولكن لندن رفضت أن تضمن تزويد العراق بقطع الغيار · فتوجه العراقيون الى فرنسا التى قبلت أن تبيع لهم طائرات ميراج اف ـ ١ وأن تزودهم بقطع الغيار اللازمة · غير أن العراق شعر بأن الفرنسيين يغالون فى أسعار الطائرات · وطبقا لما ذكره سعيد أبو الريش قام العراقيون باستدعائه وقالوا له : « كف عن الاهتمام بهذه الصفقة واجمع معلومات عما يتقاضاه هؤلاء الأوغاد من الدول الأخرى مقابل هذه الطائرات · ان لديك المال الكافى لشراء من تحتاج اليه » ·

ومن السخرية أنه وجد المعلومة التى كان يبحث عنها ـ على حد قوله ـ لدى معهد السلام فى استكهولم ، وعندما زار جاك شيراك رئيس وزراء فرنسا آنذاك بغداد بعد فترة قصيرة من ذلك ، قدم له صدام حسين ، رجل العراق القوى ، قائمة بالأسعار التى تطلبها فرنسا من البلدان الأخرى · وطبقا لما ذكره أبو الريش منح شيراك على الفور تخفيضا تبلغ قيمته مليونا و ٧٥٠ دولار عن كل طائرة · ولقد شاركت الطائرات الفرنسية فى الحرب الايرانية العراقية التى انتهت عام ١٩٨٨ ·

كان هذا مثالا نموذجيا لنشاط استخبارى فى المجال التجارى تم انجازه لصالح احدى الحكومات · ان حجم التخفيض البالغ أكثر من مائة مليون دولار ، مقارنة بالرشوة المتواضعة التى يدعى أبو الريش أنه دفعها ، يوضح هوامش الربح الضخمة المرهونة بالاستخبار الاقتصادى· وتتسم مثل هذه العمليات فى أغلب الأحيان بقدر زهيد من المخاطرة مقابل أرباح كبيرة · غير أن قضية أبو الريش ليست سوى عملية صغيرة ، انها مثال لما يمكن تسميته بـ « الميكرو استخبار » ·

ولننتقل الآن الى احتمالات وامكانات الـ « ماكرو استخبار » ·

عندما تفاوضت بريطانيا فى عام ١٩٧٣ من أجل انضمامها للسوق الأوروبية كان ممثلوها مسلحين بمعلومات تم التقاطها من رسائل الدول الأوربية الأخرى المبثوثة عبر الأثير · ويصعب قياس المزية التفاوضية التى حصل عليها البريطانيون من هذه العملية بلغة الأرقام ، ولكن المائة مليون دولار التى وفرها العراق من صفقة الميراج ستبدو متواضعة للغاية مقارنة بها · ذلك هو « الماكرو استخبار » ·

وتحتفظ حاليا وكالة الأمن القومى الأمريكية ونظيرتها البريطانية الـ (GCHQ) بما يسمى « قوائم مراقبة » لشركات ومنظمات توحى

لهما بأكثر من الاهتمام الروتينى . وتضم هذه القوائم بنوكا وشركات بترولية وتجار سلع قد تؤثر أنشطتهم على أسعار البترول مثلا أو أسعار القمح .

ومن ناحية أخرى يحرص الاتحاد السوفيتى أيضا على جمع كل المعلومات الاقتصادية الممكنة والمتخيلة . يقول ريموند تيت ، وهو عضو سابق فى وكالة الأمن القومى الأمريكية ، ان الاتحاد السوفيتى تمكن بفضل المعلومات التى يجمعها أن « يتلاعب ولسنوات طويلة بالعديد من الأسواق على امتداد العالم » .

غير أن اليابانيين ، فى رأى ليونيل أولمر أحد وكلاء وزارة التجارة الأمريكية السابقين ، هم الذين « يملكون أكثر نظم الاستخبار الاقتصادى تطورا وتنظيما فى العالم وذلك بفضل شبكة من « العملاء » ـ وهو تعبير استخدمه دون ازدراء ـ العاملون فى مكاتب التصدير التابعة لهم . ان هيئة التجارة الخارجية اليابانية (الجيترو) هى المجمع الرئيسى لهذه المعلومات الاستخبارية الاقتصادية . الا أن قوام حياة الشركات التجارية اليابانية هو المعلومات ، فهى لها بمثابة الأكسجين ، ومن ثم يمتد نشاط هذه الشركات الى كل مكان ابتداء من أفريقيا حتى أوروبا الشرقية . ولا ندرى النسبة من هذه المعلومات التى تتقاسمها مع الحكومة ، وان كان فى رأينا أنها تتقاسمها كلها تقريبا » .

ويضيف أولمر قائلا انه أثناء وجوده فى وزارة التجارة الأمريكية « حدث أن أمضينا عاما كاملا فى محاولة اثبات أن اليابانيين يتلاعبون سرا فى سعر الين ـ كان ذلك فى عام ١٩٨٣ تقريبا . الا أننا لم نتمكن من العثور على أى دليل ملموس يثبت أن الحكومة اليابانية كانت تنسق حركة ارتفاع وانخفاض سعر الين . غير أننا كنا نود جدا معرفة ذلك ! » . هنا أيضا يتعلق الأمر بـ « الماكرو استخبار » .

وفى عامى ١٩٨٨ و ١٩٨٩ نشب صراع تجارى محموم بين الولايات المتحدة واليابان حول الاتفاق الذى كان سينظم انتاجهما المشترك للطائرة المقاتلة (FSX) . ويقول أولمر : « كان من المفيد للغاية ، خلال هذه المفاوضات ، لو أن حكومتنا كانت تمتلك معلومات أفضل عن النوايا الحقيقية للحكومة اليابانية [...] . هل كانت ترى فى مشروع الطائرة FSX وسيلة تتيح لليابان تطوير صناعة طائرات النقل المدنى لديها منافسة بذلك صناعة الطائرات الأمريكية فى هذا المجال ؟ » .

للاجابة على هذا السؤال لم يكن لدينا سوى كم كبير من البيانات المتضاربة » · وهنا أيضا لم يكن الرهان مقصورا على بيع بعض الطائرات وانما يشمل مصير صناعات كاملة ·

الا أن كل ذلك لا يمثل سوى المناوشات الاستهلالية لحرب الاستخبارات الاقتصادية التى ستغدو خلال العقود الحاسمة التى تنتظرنا أكثر منهجية وأكثر حسما بالنسبة لسياسات الحكومات واستراتيجيات الشركات ·

هناك عوامل عديدة متضافرة تدفع موردى المعلومات الاستخبارية الرئيسيين فى العالم الى منح التجسس الاقتصادى مكانة متزايدة الأهمية · أولا : أن وكالات الاستخبار تجد نفسها مع نهاية الحرب الباردة مضطرة الى ايجاد مهام جديدة لتبرير ميزانيتها · وثانيا : فيما يجبر النظام الجديد لخلق الثروة مزيداً من الشركات على أن تصبح عالمية سيزداد عدد من لديها منهن مصالح خارج الحدود تتطلب الدعم والحماية · وتمارس هذه الشركات ضغوطا على الحكومات لكى تمدها بالدعم السياسى وبمعلومات اقتصادية ليس فى امكانها الحصول عليها بوسائلها الخاصة · وسواء أكان يتعين على أجهزة الاستخبار الرسمية أن تقدم المساعدة للمصالح الخاصة أم لا ، فان هذه الممارسة مرشحة للانتشار تبعا لايتاع تحول الاقتصاد الى العالمية ·

ولكن وراء ذلك ترتسم حقيقة مقلقة وان كان كثيرا ما يتم تجاهلها · فلكى تعمل الشركات فى ظل الاقتصاد الجديد فائق الرمزية يتعين عليها أن تعتمد بشكل متزايد على الالكترونيات ، منشئة شبكات تغطى الكرة الأرضية لنقل البيانات عبر الحدود الدولية ولتبادل المعلومات مع شركات أخرى بواسطة أجهزة الكمبيوتر · وبالتالى يغدو اجمالى النظام التجارى أكثر عرضة للاختراق الالكترونى من منظمات مثل وكالة الأمن القومى الأمريكية ومثيلاتها البريطانية واليابانية والسوفيتية وغيرها · الأمر الذى يعنى أن التدفقات الضخمة من المعلومات التى كان من الصعب الوصول اليها فى السابق ستصبح حتما أهدافا مغرية لأجهزة الاستخبار ·

وأخيراً ، مع تصاعد التنافس التجارى على الصعيد العالمى سيزداد التنافس فى مجال الاستخبار أيضا مؤديا الى ما يماثل سباق التسلح ولكن فى مجال التجسس · اذ أن كل انجاز تحققه أجهزة تجسس تابعة لبلد ما سيحث على الفور نظيراتها فى الدول الأخرى للتفوق عليه ، ولن تتوقف المزايدات ·

وسوف يتم استخدام التجسس على نطاق أوسع من أى وقت مضى لا لخدمة أهداف الحكومات فحسب ، بل لدعم استراتيجيات الشركات ذاتها • وذلك بدعوى أن قوة الشركات تسـهم بالضرورة فى القـوة الوطنية • ومن ثم ينبغى أن نتوقع مراقبة أكثر تطورا للمحاصيل وأنشطة التعدين فى الدول المعنية ، ومزيداً من عمليات التجسس على المفاوضات التجارية المهمة وسرقة البيانات وتهريبها •• الخ • وقـد يتم وضـع ترسانة المراقبة الالكترونية ، فى القريب العـاجل ، فى خدمة التجـارة وكذلك جحافل العملاء المدربين على ايجاد ردود دقيقة لنوع الأسئلة التى كان يطرحها أولمر سدى عندما كان وكيلا لوزارة التجارة الأمريكية •

وسينجم عن كل ذلك « ازدهار مفاجىء » فى مجالات كتابة الشفرة وفكها ، فيما ستبذل الشركات والأفراد جهداً أكبر لحماية أسرارهم من الآذان والعيون المتطفلة • كما سيفتح الباب واسعا أمام الفسـاد ـ كقيام عملاء استخبارات حاليين أو سابقين ببيع المعلومات التى حصلت عليها الحكومات الى جهات خاصة سرا ، وفى ظل غياب تقنين دولى والوسائل اللازمة لتطبيقه سيولد هذا الوضع نزاعات مريرة بين الدول•

الخط اكس (×) فى مواجهة جيمس بوند :

ان القوة الاقتصادية مثلها مثل القوة العسكرية تستند بشـكل متزايد على المعرفة ، فالتكنولوجيا المتطورة ما هى الا معرفة مجمدة • ومع انتشار الاقتصاد فائق الرمزية تزيد قيمـة هـذه التكنولوجيا المتطورة •

ففى يناير ١٩٨٥ وصل الى أمريكا الشمالية شحنة تزن حـوالى مائتى ألف طن من الصلب الرومانى وتم طرحها فى الأسواق بسعر أقل بنسبة ٤٠٪ عن سعر الصلب الكندى • ولقد بدأت قصة هذه الصفقة قبل ذلك بحوالى ١٣ عاما ، فى الفترة التى كان فيها الديكتاتور الرومانى نيكولاى شاوشيسكو قد وضع البرنامج النووى لبلاده تحت رعاية جهـاز استخباراته فى الخارج المعروف اختصارا بـ (DIE) .

طبقا لما ذكره أيون باشيبا المدير السـابق لوكالـة D.I.E ـ والذى لجأ الى الغرب فيما بعد ـ جرى تزويد فـرق من المهنـدسين المدربين على أعمال التجسس بأوراق مزورة وارسالهم الى الخارج لكى يحصلوا على وظائف فى الصناعة النووية • ونجحوا بالفعل فى الحصول على تلك الوظائف فى شركتى جنرال الكتريك و Combustion Engineering

فى كندا ، وكذلك فى شركات سيمنز و AEG وكرافتو يرك يونيون فى ألمانيا الغربية وفى شركة أنسالدو نوكليارى امبيانتى بايطاليا · وسرعان ما بدأت المعلومات التقنية تتدفق على بوخارست ، على حد قول باشيبيا ·

وعندما علم شاويسكو بأن الكنديين يجدون صعوبة فى بيع مفاعلاتهم الذرية من طراز (CANDU) أبلغهم عن طريق الـ DIE بأنه يستطيع شراء نحو عشرين من هذه المفاعلات · وبالفعل وقع الرومانيون والكنديون فى يوم ٢٧ أكتوبر ١٩٧٧ اتفاقية يتم بمقتضاها بناء أربعة مفاعلات بواسطة الكنديين وحدهم بينما يتم بناء المفاعلات الباقية بمساعدة الرومانيين · وبناء على ذلك بسطت كندا البساط الأحمر لاستقبال المهندسين الرومانيين ، وكان بينهم عدد من عملاء الـ DIE .

وطبقا لباشيبيا « سرعان ما حصل الـ D.I.E على معلومات عن حوالى ٧٥٪ من التكنولوجيا الخاصة بمفاعل (CANDU-600) وعن نظام الأمان الحديث المستخدم فى المحطات النووية والتكنولوجيا والمعدات اللازمة لانتاج الماء الثقيل والرسوم الهندسية للمحطات النووية المشيدة فى كندا وألمانيا الغربية وفرنسا » ·

بل لقد تمكنت رومانيا من اقناع كندا بأن تمنحها قرضا قيمته مليار دولار ، يستخدم جزئيا لتسديد مستحقات الشركات الكندية المشتركة فى المشروع ويسدد باقى القرض فى شكل تبادلات تجارية ·

وفى مارس ١٩٨٢ بحثت القضية برمتها من جديد · الا أن رومانيا كانت قد قبضت بالفعل مقدما قيمته ٣٢٠ مليون دولار ، وأصبح فىحوزتها معظم التكنولوجيا التى كانت فى حاجة اليها · وكل ما كان مطلوبا منها هو أن ترسل الى كندا السلع المنصوص عليها فى اتفاقية المقايضة · وهكذا دخل الصلب الرومانى الى كندا وبدأ يباع فيها بسعر أقل من الصلب المصنوع محليا ·

ان عملية الاحتيال الرومانية التى جمعت بين التجسس التكنولوجى والاحتيال الاقتصادى ليست بالندرة التى قد تبدو عليها فى عالم ترتفع فيه تكاليف البحث العلمى بسرعة صاروخية ، بحيث تصبح تكلفة التكنولوجيا المسروقة تافهة بالمقارنة ·

ويقول الكونت دى مارنش الرئيس السابق لجهاز الاستخبارات الفرنسى : « من السهل أن نجد فى أى جهاز مخابرات جدير بهذا الاسم

حالات تمت فيها تغطية ميزانية عام كامل من خلال عملية واحدة · ان أجهزة المخابرات لا تحصل ، بطبيعة الحال ، على أية مكافأة مادية لكن الصناعة الوطنية تستفيد من ذلك » ·

وهو ما يفسر ، أكثر من الاعتبارات العسكرية المحضة ، لماذا يتكالب الجواسيس حول كل المراكز التى يتم فيها اعداد التكنولوجيا الجديدة ، ولماذا يتركز السوفيت وآخرون حول وادى السليكون ، ولماذا حاول الروس شراء ثلاثة مصارف كاليفورنية كان أحدها يقدم قروضا لبعض شركات وادى السليكون · كما يفسر أيضا لماذا أصبحت اليابان حاليا هدفا شديد الأهمية · (فطبقا لضابط سابق فى الـ (كيه · جى · بى) مقيم فى اليابان « حتى معدات التنصت التى كان يستخدمها الـ (كيه· جى· بى) فى مراقبة الاتصالات اللاسلكية بين فرق المراقبة التابعة للشرطة الوطنية اليابانية كانت مسروقة من اليابان » ·

كان النظام الاستخبارى الرومانى يقتدى بجهاز التجسس التكنولوجى الأكبر منه بكثير الذى أنشأه الاتحاد السوفييتى · ويتركز هذا الجهاز فى قلب القطاع العلمى والتكنولوجى المسمى بالـ « خط أكس » التابع للـ (كيه· جى· بى) ·

وفى عام ١٩٨٧ ذكر تقرير لوزارة الخارجية الأمريكية ، يعتمد على معلومات الـ (سى · آى · ايه) ، أن ثلث موظفى غرفة التجارة والصناعة السوفيتية من ضباط الـ (كيه· جى· بى) أو الـ GRU ، أو يشتبه فى انهم كذلك · « ان استضافة أكثر من ٢٠٠ معرض تجارى سنويا واستقبال حوالى مائة وفد من رجال الأعمال الغربيين فضلا عن مراقبة ملايين المنتجات سنويا يمنح موظفى غرفة التجارة والصناعة فرصا استثنائية لمعرفة كل ما يمكن استيراده » · ويهتم السوفيت بشكل خاص بالروبوت وبالتكنولوجيا المستخدمة فى أعماق البحار والكيمياء الصناعية ··· الخ ·

ان الافتقار الى العملة الصعبة يجعل الشراء المشروع للتكنولوجيا وما تتطلبه من دراية أمراً متعذراً على العديد من الدول مما يجعل اغراء الحصول عليها بشكل غير مشروع اغراء لا يقاوم · ويدفع ذلك الى توقع زيادة التجسس التكنولوجى من جانب البلدان الفقيرة فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية · واذا كانت هذه الدول غير قادرة على الاستفادة من المعرفة التى يسرقها مهندسوها أو طلابها ، فبامكانها على الأقل أن تبيعها · وهو ما يمكن تسميته بسوق « اعادة البيع » وهو

ما يمثل فى الواقع احدى سمات التجسس التكنولوجى التى غالبا ما يتم تجاهلها ·

ونظراً لأن المعرفة تلعب دورا حاسما بشكل متزايد بالنسبة للقوة الاقتصادية والعسكرية والسياسية فان التجسس فى هذا المجال يولد مزيداً من الاحتكاك بين الحلفاء ·

والدليل على ذلك ، الاتهامات الأخيرة الموجهة للاستخبارات الفرنسية بأنها التقطت الاتصالات التى تجريها شركة «آى · بى · ام» عبر الأطلنطى وزودت بها شركة Bull الفرنسية ، وبأنها زرعت عملاء لها فى مصانع الكمبيوتر الأمريكية ·

ودليل آخر هو الـ (كوكوم) ·

وكوكوم هو اختصار لاسم لجنة مقرها باريس تدعى اللجنة المنسقة لضوابط التصدير المتعددة الأطراف · ولقد تشكلت هذه اللجنة من ١٦ دولة لمكافحة عمليات تسرب التكنولوجيا الغربية المتطورة الى ما كان يعرف آنذاك بالكتلة الشرقية ·

والكوكوم مهددة حاليا بالتفكك نظراً للاختلافات المتزايدة الشدة بين الدول الأعضاء فيها والتى تبدى استياء متزايدا من القيود التى تفرضها اللجنة على التجارة · ومن ناحية أخرى يتم تبادل الاتهامات داخلها باستخدام الكوكوم كمبرر للحصول على مزايا تجارية ·

وبناء على مبادرة من الأوربيين واليابانيين تمت دراسة تقليص قائمة الدول والتكنولوجيات التى يشملها الحظر · لكن فى عام ١٩٨٣ عندما اقترحت الولايات المتحدة – وهى القوة الرئيسية فى الكوكوم – حذف الصين من هذه القائمة ارتفعت جوقة احتجاجات · وطبقا للبروفسير اليابانى تاكيهيكو ياماموتو من جامعة شيزووكا فان دول أوروبا الغربية « عارضت بعنف هذا الاقتراح ومنعته من أن يرى النور خوفا من أن يستولى الأمريكيون على السوق الصينية » ·

وكانت قضية توشيبا قد هزت اليابان مؤخراً · وتتلخص القضية فى أن احدى الشركات التابعة لتوشيبا باعت الى الاتحاد السوفيتى بشكل غير قانونى معدات متطورة للغاية تستخدم فى شحذ وتجليخ ريش

مراوح دفع الغواصات · وتحت ضغط الولايات المتحدة شددت اليابان من رقابتها على صادراتها لتفـــادى تكرار مثـل هذه القضية ، غير أنهـا حرمت نتيجة لذلك من جزء من سوقها فى الصين وانخفضت صادرات اليابان الى الصين من الأدوات الآلية بنسبة ٩ر٦٥٪ فى عام ١٩٨٧ · ومن ثم تلقت اليابان بسخط شديد نبـأ افتتاح مركـز تصـنيع سنسناتى ميلاكرون الأمريكى فى شنغهاى لانتاج هذه الآلات ·

ان هذا الشكل من الحرب التجارية يهدد حاليا بتفجير الكـوكوم نفسه · علاوة على أن الوحدة الاقتصادية الأوروبية ستؤدى الى اضعاف ضوابط التصدير على مستوى الدول الأعضاء ، فالسلع تستطيع الانتقـال بحرية بين بلدان الاتحاد الأوروبى الاثنى عشر ·

وكما سبق أن رأينا ، فان صعود الاقتصاد فائق الرمزية يؤدى الى خلق مجموعات تجارية متعددة الجنسيات وعبر وطنيـة الى جـــانب مشروعات مشتركة والعديد من التحالفات التجارية الدوليـة · ومعنى ذلك تزايد عمليات تبادل المعلومات فى كل اتجـاه مما سـيجعل بالتالى السيطرة عليها ومراقبتها أصعب بكثير ·

لكل هذه الأسباب جميعا ستنضم التكنــولوجيا الى الاقتصـــاد كهدف ذى أولوية كبرى بالنسبة لجواسيس العالم · لن يشبه جاسوس المستقبل جيمس بوند الذى كانت قبضته وسـيلة نجاحه الرئيسية وانمـا سيشبه مهندس الخط اكس (×) الذى يعيش فى سلام فى مسكنه ولا يقوم بأى عمل عنيف وانما يكتفى بتقليب صفحات كتيب من الكتيبات التقنية أو الضغط على لوحة أزرار جهاز الميكروكمبيوتر الخاص به ·

الحروب البيئية المقبلة :

ان قطاع البيئة هو المجال الثالث الذى سيشهد نموا فى نشـــاط جواسيس الغد · فهو مجال لا يعترف بالحدود السياسية · فعلى سبيل المثال يؤثر تلوث نهر الراين على هولندا كما يؤثر على ألمانيا والأمطار الحمضية تعنى كل بلدان العالم وعملية ازالة غابات الأمازون مشكلة تخص كوكب الأرض كله ·

ان اتساع المعارف المطرد فى هذا المجال يساهم بدون شك فى حل الكثير من المشاكل غير أنه يفتح أيضا الطريق أمام عمليات تلاعب ماهرة ببيئة بلد ما من قبل المسئولين السياسيين لبلد آخـر · ولعـل ما قامت به

تركيا فى عام ١٩٨٩ يعد مثالا تقريبيا على ذلك ٠ فلقد أعلنت أنها ستوقف تدفق مياه نهر الفرات الى العراق وسوريا لمدة شهر ٠ ويهدد هذا الاجراء الزراعة فى العراق والامدادات الكهربية فى سوريا ٠ الا أن الأتراك أعلنوا أنهم مضطرون لذلك لكى يتسنى لهم القيام بأعمال الصيانة لسد أتاتورك ٠ لكن المتشككين يعتقدون أن هذا القرار يخفى شيئا آخر ٠

فعبر الحدود الجنوبية لتركيا - فى العراق وسوريا - توجد قواعد الانفصاليين الأكراد المنتمين لحزب العمال الكردستانى الماركسى ٠ وكان مقاتلو هذا الحزب يتسللون عبر الحدود الى تركيا التى طالبت جيرانها بمراقبة الحدود لمنع عمليات التسلل ٠ غير أن غارات الأكراد استمرت ، مما دفع الأتراك الى اعلان اغلاق السد وهو ما أدى الى شن غارة من أنصار هذا الحزب على احدى القرى التركية القريبة من الحدود العراقية أسفرت عن مقتل ٢٨ شخصا ٠ وعلى الفور طالبت الصحافة التركية بتوجيه ضربة انتقامية ضد القواعد المتمردة فى الأراضى السورية ٠

وسواء أكان قطع المياه يستهدف ارغام الحكومتين العراقية والسورية على اتخاذ اجراء عسكرى ضد المقاتلين الأكراد أم لا ، فان الحدث بما له من عواقب بيئية يمثل ضربة البداية - اذا أمكن القول - فى الحرب البيئية التى ستصبح أكثر انتشارا وأشد تطورا خلال العقود القادمة ٠ فقد يحدث ذات يوم أن تطلق دولة ما حشرات تعرضت لمعالجات جينية ضد دولة خصم أو تحاول أن تعدل من ظروفها المناخية ٠

وعندئذ سيتعين على أجهزة التجسس أن توفر الأسلحة اللازمة لهذه الحروب البيئية ٠

وفى الجانب المقابل ، ستتمكن أجهزة الاستخبار من مراقبة تطبيق المعاهدات الخاصة بالبيئة كما تفعل الآن بالنسبة لاتفاقيات نزع السلاح وذلك بفضل أجهزة المراقبة بواسطة الأقمار الصناعية ٠

وفيما ستغدو الحرب البيئية والمعاهدات البيئية جزءا لا يتجزأ من النظام العالمى الجديد ستندمج الاستخبارات البيئية بشكل أوثق بالهياكل السياسية والعسكرية ٠

وهكذا سيبدأ انتشار النظام الجديد لخلق الثروة فى تغيير احدى الوظائف العامة للدولة - الأمة (أى الدولة ذات السيادة) ، ألا وهى

تجميع المعلومات الاستخبارية ٠غير أننا لم نفعل حتى الآن سوى اننا ألقينا نظرة سريعة على أكثر التغيرات سطحية ٠ اذ أن هناك تغيرات أعمق بكثير تنتظرنا ٠

خصخصة التجسس :

اننا الآن على وشك أن نشهد عملية اندماج ، لم تعرفها الاقتصادات الرأسمالية من قبل ، بين المعلومات الاستخبارية التى قامت بجمعها أجهزة الدولة وتلك التى جمعتها شركات خاصة ٠

منذ زمن طويل والحكومات تتبادل المنافع مع الشركات الخاصة ٠ فبعض الشركات العملاقة توفر « الغطاء » لعملاء بلادها ٠ ومن أمثلة ذلك ما قامت به شركة بيكتل للانشاءات ومركزها سان فرانسيسكو ، فقد أبرمت هذه الشركة عقودا بمئات الملايين من الدولارات فى الشرق الأوسط ، ووفرت وظائف اسمية لعمـلاء الـ (سى ٠ آى ٠ ايه) وحصلت مقابل ذلك على معلومات تجارية قيمة ٠

وكانت الشركات الأمريكية فى وقت ما توفر « الغطاء » لمائتى عميل استخبارات فى الخارج ، وتحصل فى المقابل على العديد من المنافع ، و « يتوقع » العديد من الحكومات من رجال أعمالها أن يتعاونوا مع أجهزة استخباراتها وقد تلجأ الى ممارسة ضغوط عليهم فى حالة رفضهم التعاون ، الا أن ذلك لا ينطبق على الولايات المتحدة ٠ اذ نادرا ما يطلب من كوادر الشركات الأمريكية أن يقدموا معلومات ، حتى وان كانت لهم اتصالات بسياسيين أجانب رفيعى المستوى ٠

ان الحد الفاصل بين التجسس العام والخاص يتلاشى تدريجيا ٠ فمع انتشار الشركات متعددة الجنسيات تنتشر شبكات الاستخبار التى تقوم هذه الشركات بتمويلها ٠ وينطبق ذلك على المصارف والشركات البترولية الأوروبية وبيوت التجارة اليابانية وشركة البناء الأمريكية ٠ ان كل شىء يدعو الى الاعتقاد بأن بعض هذه الشبكات تتعاون مع كل من أجهزة استخبار بلادها والبلد المضيف ٠

ويتوازى مع عمليات الاستخبار الخاصة فى الخارج الانتشار الأخير لوحدات ما يسمى بـ « الاستخبار التنافسى » فيما بين الصناعات الوطنية والتى تم تناولها فى الفصل الرابع عشر ٠ ومع أن هذه الشبكات

الخاصة تعمل فى اطار القانون الا أنها تستخدم ـ بشكل بدائى على الأقل ـ العديد من الأساليب والتقنيات المستخدمة فى أجهزة الاستخبار الحكومية ، فهى تدخل فى خدمتها جواسيس سابقين ومحللين سبق لهم أن عملوا فى هذه الأجهزة وهو ما من شأنه أن يزيد من احتمالات وجود روابط غير رسمية مع أجهزة الدولة ٠

وسوف تتضاعف أمثال هذه العلاقات غير المشروعة نتيجة لعملية اعادة الهيكلة التى تشهدها حاليا التجارة العالمية والتى تقود الى تحالفات معقدة عبر الحدود الوطنية ٠ وقد تجهل شركة ما أبرمت « تحالفا استراتيجيا » مع شركة أخرى أن بعض عمليات شريكتها تتلخص فى أعمال جاسوسية لصالح قوة أخرى ، ولكن من المحتمل أيضا أن ترغب فى معرفة ما يجرى وتطالب باجراء تحقيق بواسطة جواسيس حكومتها هى للتأكد من ذلك ٠

وحتما ، ستؤدى مثل هذه التغيرات الى تداخل أنشطة تجارية عديدة ، كانت فى السابق « خاصة » ، مع المجال العام ، بحيث تكتسب صبغة سياسية وتثير بالتالى سلسلة من الاتهامات والاتهامات المضادة والفضائح المدوية ٠

وبالتوازى مع التحولات التى وقعت مؤخرا فى مجال الأعمال سنشاهد انتقالا من الانتاج الكمى للمعلومات الاستخبارية الى توفير معلومات انتقائية وأكثر دقة وتحديدا ، فالحكومات تطالب بالفعل بمعلومات أكثر تفصيلا ودقة وأكثر تخصيصا ٠ وهو ما يتطلب درجة أعلى من التخصص فى البحث ذاته عن المعلومات أو على الأقل فى تحليلها ٠

ولتلبية هذا الاحتياج ـ خاصة فى مجالات الاقتصاد والتكنولوجيا والبيئة ـ يتعين توفير قاعدة معلومات تكتيكية متناهية الدقة عن تنويعة كبيرة من الموضوعات تعجز حتى أكبر الجهات المنتجة للمعلومات الاستخبارية مثل الـ (سى ٠ آى ٠ ايه) عن توفير ما يلزم لها من الخبراء ، ناهيك عن الاحتفاظ بهم ودفع أجورهم ٠ ومن ثم ستضطر أجهزة الاستخبارات أن تحاكى الشركات الخاصة ، أى أنها ستتعامل مع موردين خارجيين ، مفككة بذلك التكامل الرأسى المميز لعمليات الانتاج بالجملة ٠

ولقد اعتادت أجهزة التجسس دائما على تكليف آخرين بتنفيذ بعض مهامها ٠ فوكالة المخابرات المركزية الامريكية وجهاز المخابرات

الفرنسى سبق لهما أن لجآ الى رجال المافيا وكبار رجال العصابات لتنفيذ المهام القذرة بدلا منهما · كما قامت أجهزة الاستخبار فى كثير من الأحيان بانشاء شركات وهمية مثل « شركة المعاطف الأجنبية الممتازة » الشهيرة التى استخدمتها شبكة تجسس « الأوركسترا الحمراء » فى عملها ضد النازيين خلال الحرب العالمية الثانية ، أو شركات الطيران الخاصة التى استخدمتها ال (سى· آى· ايه) فى حرب فيتنام · غير أن أجهزة التجسس ستضطر قريبا الى الاعتماد بدرجة غير مسبوقة على اسهام خارجى لخبراء وموردين مستقلين ·

ان الازدهار الذى يشهده هذا الشكل من « التعامل من الباطن » يظهر حاليا فى صورة مكاتب استخبارات خاصة متخصصة فى كل الفروع الممكنة والمتخيلة ابتداء من تحليل المخاطر السياسية الى جمع المعلومات التقنية · ان احدى هذه الشركات - وهى مؤسسة Business Environment Risk Information ومقرها فى لونج بيتش بولاية كاليفورنيا - اقترفت احيانا أخطاء جسيمة غير انه مما يحسب لها أنها نبهت عملاءها فى ديسمبر ١٩٨٠ الى ان الرئيس المصرى أنور السادات سيتم اغتياله ، أى بسبق عشرة شهور · كما تنبأت بغزو العراق لايران قبل حدوثه بتسعة شهور · ففى عام ١٩٨٥ كان هذا النوع من « بوتيكات » المعلومات يعد بالعشرات ، أى قبل « الازدهار المفاجىء » الذى شهدته هذه البوتيكات ·

ويستخدم العديد منها كبار المسئولين وعملاء مخابرات سابقين · وابرز هذه الشركات هى شركة كيسينجر وشركاؤه التى كان يتعاون معها فى وقت ما برنت اسكوكروفت مستشار الرئيس بوش للأمن القومى ولورنس ايجلبيرجر الرجل الثانى فى وزارة الخارجية الأمريكية ووليم سايمون وزير مالية سابق وبالطبع هنرى كيسينجر شخصيا الذى كان مستشارا للأمن القومى ثم وزيرا للخارجية · ويلتحق بمثل هذه الشركات مسئولون لهم صلات بالمخابرات مثل وليام كولبى المدير السابق لل (سى· آى· ايه·) الذى افتتح وكالته الخاصة فى واشنطن بعد أن ترك « الشركة » ، وعلى حد قوله فان « العمل فى مجال التقديرات والتحليلات يشبه كثيرا العمل فى مجال الاستخبار » ·

وتستطيع الحكومات التى تستخدم شركات الاستخبار الخاصة أن « تنفى » بالطبع وجودها · ولكن هذه الشركات تنجح فى جذب أفضل

المحترفين لأنها تمنح رواتب السوق وليس رواتب الخدمة المدنية ٠ وأخيراً يمكنها أيضا القيام بالمهام السرية التى لا تناسب من حيث طبيعتها المؤسسات البيروقراطية ٠

اننا سنشهد اذن فى مجال الاستخبار مزيدا من الاندماج أو التداخل بين القطاعين العام والخاص ٠

المعنى الجديد لـ « العيون الخاصة » :

غير أن الدليل المذهل على ما يمكن تسميته بالـ « خصخصة » المتزايدة للاستخبار موجود فى الفضاء وليس على الأرض ٠ اذ تطرح خمس دول هى الولايات المتحدة وفرنسا واليابان والهند والاتحاد السوفيتى فى السوق الآن البيانات التى قامت أقمارها بجمعها ٠

وترجع هذه الظاهرة الى عام ١٩٧٢ عندما أطلقت وكالة الفضاء الأمريكية « الناسا » أول قمر صناعى من أقمار لاندسات للاستخدام المدنى ٠ ويوجد حاليا فى المدار قمران من هذا النوع « لاندسات ـ ٤ ولاندسات ـ ٥ » ومن المقدر اطلاق قمر ثالث قريبا ٠ وترسل هذه الأقمار التى تدور على مدار يبعد ٧٠٠ كيلو متر من سطح الأرض معلومات تستخدم بانتظام فى التنقيب عن المعادن وفى التوقعات الخاصة بالمحاصيل والعمليات المتعلقة بالغابات ٠٠٠ الخ ٠

ويتم بث البيانات التى تسجلها الأقمار أتوماتيكيا الى حوالى ١٥ بلدا ، يحصل كل منها على تدفق مستمر من الصور فى شكل رقمى مقابل ٦٠٠ ألف دولار سنويا ٠ ومنبين عملاء لاندسات وزارة الدفاع الأمريكية والجيش اليابانى الذى يراقب من خلاله القسم الشرقى من سيبيريا ٠ وفى عام ١٩٨٤ تمكن عالم أمريكى فى جامعة ألاسكا هو الدكتور جون ميللر ، أن يرصد ما بدا كأنه تجارب سوفيتية تهدف الى بيان امكانية اطلاق صواريخ نووية من غواصات تتحرك تحت جليد القطب الشمالى ، وذلك اعتمادا على صور لاندسات ٠

ودخل الفرنسيون فى منافسة مع لاندسات باطلاقهم للقمر سبوت يوم ٢١ فبراير ١٩٨٦ ٠ ومنذ ذلك الحين أصبح فى امكان العلماء والجمهور العريض تتبع العمليات العسكرية والصناعية فى أى مكان على الكرة الأرضية ٠ لقد مضى الزمن الذى كان فيه السوفيت والأمريكيون يتقاسمون احتكار المعلومات التى يتم التقاطها من الفضاء ٠

وبالرغم من أن الصور التى يوفرها كل من سبوت ولاندسات ليست بجودة الصور المتاحة لدى الجهات العسكرية ، فانها جيدة بما فيه الكفاية ، حتى ان الحكومات التى لا تملك أقمارا خاصة بها تعتمد على المعلومات العسكرية التى يقوم سبوت بتسويقها تجاريا ٠

أما العملاء الأكثر تشددا فيستطيعون حاليا شراء صور وبيانات من عدة مصادر ودمجها ومعالجتها بواسطة الكمبيوتر والحصول بالاستدلال على معلومات تفوق كثيرا ما كان يمكن استخلاصه من مصدر واحد ٠

ومن ناحية أخرى ، فهنالك صناعة مزدهرة تهتم أساسا بمعالجة البيانات المرسلة من واحد أو أكثر من هذه الأقمار ٠ وهى تضم معهد ميتشيجان لأبحاث البيئة وكذلك المركز السعودى للاستشعار عن بعد فى الرياض ومعهد بحوث الفضاء فى ساوباولو ٠ أما شركة آرداس فى مدينة أطلنطا فهى تنتج البرامج الاعلاماتية لحوالى مائتى شركة على امتداد العالم تهتم بمعالجة تلك الصور « ذات القيمة المضافة » ٠

ولعل أفضل مثال على نهاية احتكار المعلومات الاستخبارية هو العمل الذى تقوم به « الشبكة الاعلامية الفضائية » ومركزها مدينة استكهولم ٠ فهى تشترى البيانات من كل من سبوت ولاندسات وتقوم بمعالجتها بواسطة الكمبيوتر وتستخرج منها صورا تمد بها الصحافة العالمية ٠ ولابراز سمة « الاستخبار » فى أنشطة هذه الشبكة فهى تعلن فى احدى نشراتها أنها تقدم معلومات عن « أى جزء من العالم تكون سبل وصول وسائل الاعلام اليه محدودة أو محظورة ، سواء أكانت مناطق حدودية أم مناطق حرب أم أزمات أم كوارث » ٠

كما نشرت هذه الشبكة صورا تبين استعدادات سوفيتية سرية خاصة ببرنامج مكوك فضائى وكذلك بيانات عن ليزر سوفيتى عملاق قد يكون جزءا من نظام مضاد للصواريخ وعن مصنع للصواريخ الصينية فى المملكة السعودية ٠ وعن مشروع لصنع أسلحة نووية فى كاهوتا بباكستان ٠ ومن ناحية أخرى تقوم هذه الشبكة بعملية رصد مستمرة للخليج الفارسى ومواجهاته العسكرية ٠ لم تعد الكتابة الآن على الجدران وانما فى السماء ٠ وسوف تستمر عملية كسر احتكار الاستخبارات الفضائية مع دخول أقمار جديدة فى الخدمة وتطور التكنولوجيا الاعلاماتية ٠ ففى مجال الأقمار حققت بلدان مثل العراق والبرازيل

تقدما ملحوظا ، كما تهتم بلدان أخرى مثل مصر والأرجنتين بتطوير امكاناتها لاطلاق الصواريخ ، ويهدف مشروع انسكوم الصينى البرازيلى المشترك الى الجمع بين مهارة البرازيليين الفنية فى مجال الأقمار والامكانات الصينية فى مجال اطلاق الصواريخ الفضائية ·

وبالتدريج ، أصبح ما كان حكراً من قبل على القوى العظمى وجواسيسها فى متناول يد قوى أصغر وكذلك ــ الى حد ما على الأقل ــ فى متناول مستخدمين خصوصيين ووسائل الاعلام العالمية ·

وفى ظل هذا التطور تصبح وسائل الاعلام ذاتها منافسا رئيسيا لأجهزة انتاج المعلومات الاستخبارية · ويروى مسئول سابق فى البيت الأبيض قائلا : « عند وصولى للعمل فى البيت الأبيض كنت ضحية « لسحر السرية » ، فكان كل ما يحمل اشارة « سرى » قيما بالضرورة · غير أننى سرعان ما لاحظت أنه كثيرا ما أكون قد سبق أن قرأت فى صحيفة « الفايننشيال تايمز » ما كان أمام عينى ويحمل اشارة « سرى » · كما أن التغطية التليفزيونية الفورية للأحداث تحرم الجواسيس عادة من فرصة التدخل » ·

ان استمرار تقدم عملية خصخصة الاستخبارات ونشرها من خلال وسائل الاعلام سيرغم أساتذة التجسس الى اعادة التفكير فى نشاطهم ، كما حدث فى العديد من قطاعات الانتاج والخدمات الأخرى · كذلك يتعين على الجاسوسية أن تتكيف بدورها مع النظام العالمى الجديد لخلق الثروة ، الا أنها تواجه بعض المشكلات غير المطروحة على الصناعات الأخرى ·

التناقضات الأساسية :

لم يعد يعانى زبائن أجهزة الاستخبارات ــ من مسئولين حكوميين أو مسئولين سياسيين ــ من أى نقص فى المعلومات بل انهم متخمون بها ·

ان طوفان البيانات المتاحة حاليا والحمل الزائد الناجم من ذلك يعنيان أن المشكلة الرئيسية للجاسوسية لم تعد البحث عن المعلومات وجمعها وانما تكمن فى تفسير وتحليل هذه المعلومات وفي ايصالها الى المسئولين المحتاجين اليها ·

ونتيجة لذلك يغدو التجسس أكثر اعتماداً على الأخصائيين وعلى الذكاء الاصطناعى للقيام بعمله التحليلى · غير أن التكنولوجيا وحدها لن تقدم الحل لحالة العجز التى يعانى منها تحليل المعلومات ، انمـا يتطلب الأمر تناولا جديداً تماما للمعرفة ·

ونظرا لأن تسرب المعـلومات السرية قد تكـون له عواقت وخيمة مثل موت المخبرين فان ال (سى· آى· ايه) وأجهزة التجسس الأصغر منها فى العالم تطبق مبدأ « التجزئة » · بحيث نادراً ما يرى المحللون المهتمون بمشكلة ما الصورة كاملة بل يتم تزويدهم بقدر محدود من المعـلومات الضرورية لمعرفة ما يلزم معرفته فقط وفى الغالب لا تتـوفر لديهـم أيـة وسـيلة لتقييم مصداقية ما يعرض عليهم من معلومات · ونظريا يتم تجميع المعلومات ونقلها الى المسـتوى الأعلى وتجتاز بذلك عدة مراحل قبل أن تصل الى قمة التسلسل الـهرمى ·

ولكن سبق أن رأينا ما تؤول اليه هذه النظرية فى الاطار البيروقراطى وكيف يرتكب هذا النظام أخطاء فادحة عندما يتسارع التغيير وتغـدو البيئة المحيطة أكثر اضطرابا نظرا لبطئـه المفرط ولجهله بالعـديد من العوامل ·

وهو الأمر الذى له عواقبه · فعلى سبيل المثال لام السناتور سام نن ـ الخبير العسكرى المرموق فى مجلس الشيوخ الأمريكى ـ أجهـزة الاستخبارات بشدة لأنها سمحت لتطور الأحداث السريع فى أوروبا أن يتجاوزها واضعه بذلك الكونجرس فى وضع يستحيل معه اتخاذ قرارات سليمة بشأن ميزانية الدفاع الأمريكية · ان السماح للأحداث بأن تسبق أجهزة الاستخبارات قد يؤدى الى كارثة ·

وللتغلب على مثل هذه المشاكل بالتحديد ، فان الشركـات الأكثر تطوراً تتيح لموظفيها سبل الوصول الى مزيد من المعلومات وتصرح لهم بالاتصال بحرية خارج القنوات الرسمية دون الاكتراث بالتسلسل الهـرمى غير أن مثل هذه التجديدات تتعارض مباشرة مع الحاجة الى السريـة التى تفرضها أنشطة التجسس · ولذا يجد الجواسيس أنفسهم الآن فى مأزق ·

بل انهم فى مأزق مزدوج ، فالأمر لا يقتصر على أن أغلب المعلومات التى يوفرونها تصل متأخرة للغاية ولكن غالبا ما تكون لا علاقة لها بما يتوقعه المسئولون الذين هم « زبائن » لهم ·

يقول ليونيل أولمر وكيل وزارة التجارة السابق فى هذا الصدد : « اننا على الصعيد السياسي في حاجة الي توجهاتِ أكثر تحديدًا من

جانب الحكومة ، اذ يجب ألا تكتفى بدور المستهلك للمعلومات الاستخبارية وانما عليها أن تساهم فى عملية انتاجها » . لقد رأينا فى الصناعة انه تم الاعتراف للمستهلكين بدور فى عملية الانتاج ونظمت جماعات المستخدمين نفسها فى شبكات لمساعدة المنتجين . لقد أخذ الخط الفاصل بين الانتاج والاستهلاك يبهت تدريجيا الآن .

ومن المنطقى تماما أن يقترح أولمر على كبار المسئولين السياسيين أن يساهموا فى انتاج المعلومات . ولكن كلما زاد تدخل المسئولين السياسيين وكبار الموظفين فى عملية انتاج المعلومات الاستخبارية زاد خطر ألا يجد رؤساء الدول ورؤساء الحكومات فى الملفات التى تقدم اليهم سوى ما يودون سماعه ـ أو ما يجسد الرؤية الضيقة لحزب معين أو لطائفة بعينها . وهو ما سيؤدى الى مزيد من التحريف للمعلومات التى سبق لها أن تعرضت للتلاعب على أيدى ممارسى التكتيكات الأسمى أثناء مرورها بين ايديهم .

واذا ما تم تحريف المعلومات الاستخبارية من قبل عدو للدولة ما ، كما يحدث عندما يكون الجواسيس عملاء « مزدوجين » ، فان النتائج قد تكون وبيلة . غير أن الخطر نفسه قائم اذا ما تم تحريفها لاغراض سياسية من قبل شخص من نفس البلد .

ان الثورة التاريخية التى تواجهها صناعة الاستخبارات تضعها مباشرة على المسار الذى يتبعه تطور النظام الجديد لخلق الثروة ، متجاوزة بذلك مرحلة الانتاج الكمى . ويتعين على صناعة الاستخبارات ، مثل غيرها من الصناعات الأخرى ، أن تواجه منافسة من جهات غير متوقعة على الاطلاق . كما يجب ، شأنها فى ذلك شأن غيرها من الصناعات، أن تشكل تحالفات جديدة طبقا للتغيرات التى تطرأ باستمرار . وعليها كغيرها من الصناعات أن تعيد صياغة تنظيمها وأن تكيف منتجاتها حسب متطلبات العميل . وأخيراً يجب أن تعيد النظر فى وظائفها الرئيسية .

لقد كتب جوزيف كونراد « ان أكثر تصرفات الانسان جلاء تخفى جانبا سريا » ، كذلك الديمقراطيات مهما أرادت أن تكون شفافة فان لها أيضا جانبها السرى .

وسوف تكون الديمقراطية فى خطر مميت اذا أصبحت العمليـــات الاستخبارية ـ التى يصعب خاليا على البرلمانات والرؤساء مراقبتها ـ متشابكة الى هذه الدرجة مع الأنشطة اليومية للمجتمع وغدت لا مركزية الى هذا الحـد وممتزجة بالأعمال والمصالح الخاصة الى درجـة تجعـل من المستحيل ممارسة أية رقابة فعلية عليهـا ٠

ومن ناحية أخرى ، لن تستطيع الديمقراطيات البقاء بدون أسرار وأجهزة سرية طالما ظلت بعض الأمم تحكم بواسطة طغاة أو جلادين أو ارهابيين أو متعصبين مسلحين بأسلحة فتاكة ٠

وتصبح طريقة ادارة هذه الأسرار ـ وكذلك المعرفة بشكل عام ـ هى القضية السياسية المحورية لعصر تحول السلطة ٠

الفصل الخامس والعشرون

جـدول أعمال المعلومات

جلس الرجل ذو جواز السفر الأيرلندى فى حجـرته بأحد فنـادق طهـران ينتظر الى ما لا نهـاية اشارة لم تأت قط ٠

ولم يكن هذا الرجل ، الذى كان مسلحا بكعكة شوكولاته على شكل مفتاح ، سوى روبرت ماكفرلين ، مستشار رونالد ريجان السابق للأمن القومى ، الذى ما لبث أن عرفه العـالم بعد ذلك بقليل ٠ ولم يقـدر لهذه الكعكة أن تقدم كهدية كمـا كان مقررا لهـا ٠ ففى الواقع لم ينس أحـد أن محاولة ماكفرلين التى أجهضت لتحرير الرهائن وفتح منفـذ انقـاذ «للمعتدلين» الايرانيين قد فجرت فضيحة ايران جيت ، وهى الحدث الذى ألحق أكبر ضرر بادارة ريجان خلال سنوات حكمه الثمانى ٠

وشارك فى هذه المحاولة مجموعة غير تقليدية من علية القوم ضمت تجار سلاح شرق أوسطيين وعمـلاء للـ (سى٠ آى٠ ايه) وجنرالات سابقين يحيط بهم الغموض ، وضابط وسيم من ضباط البحرية الأمريكية وسكرتيرته الحسناء ٠ ولقد تابع مشاهدو التليفزيون فى جميـع أنحـاء العـالم بانبهـار جلسـات لجنة التحقيـق التابعة للكونجـرس التى أعقبت الفضـيحة ٠

غير أن كثيراً من المشاهدين ، لا سيما من هم خـارج الولايات المتحدة ، لم يتوقفوا عند ما هو جوهرى فى هذه القضية ٠

وهو أن الصراع السياسى فى واشنطن لم يكن له فى الواقع علاقة بالارهاب أو الحسابات المصرفية السرية أو المعتدلين الايرانيين أو ثوار نيكاراجوا ٠ وانما كان الأمر بالأحرى اختبار قوة بين البيت الأبيض والكونجرس الساخط من أجل السيطرة على السياسـة الخـارجية

الأمريكية • وكان محور هذه المعركة على السلطة هـــو اصرار البيت الأبيض على عدم ابلاغ الكونجرس بأنشطته السرية •

لقد أراد النواب الديمقراطيون أن يثبتوا أن الرئيس هو الذى أمر باعداد هذه الخطة ، بينما أكد فريـق البيت الأبيض المنتمى للحـــزب الجمهورى أن فشل العملية يرجع الى الحمــاس الزائد للمنفذين الــذين تصرفوا دون تفـــويض من الرئيس • وتركزت التحقيقات والتغطيـــة الاعلامية المكثفة على مشكلات السياسة الخارجية وبدرجة أقـل على مسألة معرفة « من كان يعرف ماذا ، ومتى » وأصبحت ايران جيت حربا للمعلومات •

ان ما اتسمت به تلك القضية من تعلل بعدم التذكر ومن وثائـق ممزقة وأسرار وكذب وتسرب للمعلومات لا يزال يشكل حتى الآن ذخيرة وافرة فى مجال الاستخدام والاستغلال التكتيكى للمعلومات • ولـــكن الأهم من ذلك أن هذه الفضيحة تعطى فكرة مبدئية عما يمكن أن تكون عليه السياسة فى المستقبل ، حيث ستصبح البيانات والمعلومات والمعرفة ذات صبغة سياسية الى درجة لم يســبق لها مثيل فى التاريخ • لأن النظام الجديد لخلق الثروة ـ بغض النظر عن الجواسيس والتجسس ـ يدفعنا حاليا وبأعلى سرعة الى عصر سياسة المعلومات •

عطش للمعرفـــــة :

لقد ارتكزت قوة الدولة دائما على ســيطرتها على القـوة والثروة والمعرفة • والأمر الذى اختلف حاليا بعمق هو العلاقة بين هذه العناصر الثلاثة • فالنظام فوق الرمزى الجديد لخلق الثروة يضع تنويعة كبيرة من المشكلات المرتبطة بالمعلومات على قائمة الاهتمامات السياسية •

وتشمل هذه المشكلات احترام الحياة الخاصة وقرصنة المنتجات (أى نسخها وتقليدها بطريقة غير قانونية) والاتصالات وأمن أجهـزة الكمبيوتر والتعليم وجرائم البورصة الخاصة بالمتاجرة من الداخل والدور الجديد للأطباء • غير أن هذه القضايا بالرغم من تعددها وتنوعهـــا لا تمثل سوى أعلى قمة الجزء الطافى من جبل الجليد العائم •

يزدحم جدول أعمال المعلومات بسرعة كبيرة ، وان كان ذلك غير ملحوظ بعد بالقدر الكافى •• فلقد ارتأت الدورة ١٠١ للكونجرس فى الولايات المتحدة ادخال أكثر من مائة اقتراح بقوانين تخص مشكـــلات مرتبطة بالمعلومات ، تناول ٢٦ منها الطريقة التى يتعين أن تتبعهـــا

الحكومة الفيدرالية فى بث البيانات والمعلومات التى جمعت على حساب دافعى الضرائب · لقد أصبح فى امكان أى شخص الآن يملك كمبيوتر شخصيا ووحده ربط ، الوصول الى العديد من بنوك المعلومات الحكوميه والحصول على معلومات حول عدد مذهل من الموضوعات · ولكن كيف ينبغى أن تتم عملية التوزيع هذه ؟ هل يتعين على الحكومة أن تتعاقد مع شركات خاصة لتتولى مهمة تأمين التوزيع الالكترونى لهذه المعلومات وبيع حق الوصول اليها مقابل رسم معين ؟ يرى العديد من أمناء المكتبات والباحثين الجامعيين والمدافعين عن الحريات المدنية أن المعلومات الحكومية يجب ألا تباع وانما يتم وضعها تحت تصرف الجمهور مجانا · ومن ناحية أخرى ، تزعم الشركات الخاصة التى تقوم بدور الوسيط أنها تقدم خدمات اضافية ، مبررة بذلك تحصيلها لرسوم ·

غير أن اشكالية المعلومات تمتد الى أبعد من مثل هذه الاهتمامات بكثير ·

وكلما توغلنا فى الاقتصاد فائق الرمزية الجديد بدت قضايا المعلومات أقل غموضا وبعدا · فالجمهور الذى أصبح يعتمد فى كسب عيشه بدرجة متزايدة على معالجة الرموز يغدو أيضا أكثر احساسا بما تنطوى عليه هذه الرموز من معانى القوة ، ويطالب هذا الجمهور حاليا بقدر أكبر من المعلومات بشكل متزايد خاصة عن كل ما يمس الظروف المرتبطة ارتباطا مباشرا برفاهيته ·

ففى عام ١٩٨٥ كشف مسح أجراه مكتب احصائيات العمل فى الولايات المتحدة أن أكثر من نصف قوة العمل التى تعرضت لاجراءات استغناء جماعى – وقوامها ٢ر٢ مليون عامل – أخطرت بقرار الفصل قبل ٢٤ ساعة فقط من طردها الى الشارع ، ولقد طالبت المنظمات النقابية منذ عام ١٩٨٧ بقانون يلزم الشركات التى تعتزم اجراء تخفيضات كبيرة فى عدد العاملين بها أن تخطر هؤلاء العاملين بذلك قبل تنفيذ القرار بستين يوما وأن تبلغ كذلك سلطات الدولة والسلطات المحلية المعنية ·

غير أن أصحاب العمل عارضوا بشدة هذا القانون المقترح مشيرين الى أن اعلان مثل هذه المعلومات من شأنه تقويض الجهود المبذولة من جانب المسئولين لانقاذ الشركة ، اذ من سيقدم على الاستثمار فى مثل هذه الشركة أو الاندماج معها أو التعاقد أو الموافقة على منحها تمويلا

ما عندما يعرف أنها ستقوم بعمليات استغناء جماعية عن العـــاملين بهـــــا ؟

لكن الرأى العام أبدى تعاطفا متزايدا مع هــذا القـــانون وأعلن رئيس المجموعة الديمقراطية فى مجلس الشيوخ آنذاك « ان القضية ليست قضية تشريع عمالى وانما هى مسألة عدل محض » ٠

وفى عام ١٩٨٨ كانت المعركة على أشدهـا فى واشنطـــن بين كونجرس يساند بشدة القانون المقترح والبيت الأبيض الذى يعارضـــه تماما ٠ وأخيراً تمت الموافقة على القانون بالرغم من التهديد باستخدام رئيس الجمهورية لحق الفيتو ٠ وبات من حق العاملين الأمريكيين أن يعرفوا مقدما متى سيفقدون وظائفهم بسبب اغلاق مصنع ما ٠

ويتوقع الأمريكيون مزيداً من المعلومات عن الظروف التى يعملون فى ظلها ٠ فجماعات الدفاع عن البيئة وتجمعات عديدة من المواطنين على امتداد الولايات المتحدة تطالب بالحاح السلطات الحكومية بمعلومات مفصلة عن النفايات السامة والمواد الملوثة الأخرى ٠

لقد انتاب هذه الجماعات سخط شديد عندما علمت مؤخراً أن مصنعا للأسلحة النووية يقع قرب أيكن بكارولينا الجنـــوبية تعرض خلال الفترة من ١٩٥٧ الى ١٩٨٥ لثلاثين حادثة تسرب نووى ــ وصـــفها أحـــد المتخصصين فيما بعد بأنها « حوادث مفاعل على جانب كبير من الخطورة» ــ أى بمعدل أكثر من حادثة فى العام ٠ ومن ضمن هذه الحوادث حـــادث «تسرب» واسع النطاق لاشعاعات نووية وحادث انصهار لوقود نووى ٠ الا أن سكان المناطق المجاورة للمصنع لم يخطروا بذلك ولا الجمهـــور العريض أيضاً ٠ كما لم يتخذ أى اجراء عندما قـدم المتخصصـــون تقاريرهم عن هذه « الحوادث » ، ولم تر القضية النور الا أثناء تحقيق أجرته احدى لجان الكونجرس فى عام ١٩٨٨ ٠

كانت شركة « دوبونت أند سى » هى التى تقـوم بتشغيل المصـــنع لحساب حكومة الولايات المتحدة ٠ واتهمت الشركة بأنها اخفت الوقائع ، غير أنها أصدرت على الفور تكذيبا مشيرة الى أنها أبلغت وزارة الطاقة بتلك الحوادث طبقا للاجراءات المعتادة ٠

وعندئذ تقبلت وزارة الطاقة اللوم على كتمانها للمعلومات ٠ وقد كانت هذه المؤسسة مشبعة بمبادىء السرية العسكرية وبالتقاليد الموروثة

من مشروع منهاتن الذى أدى الى انجاز القنبلة الذرية أثناء الحـــرب العالمية الثانية · غير أن ضغط الرأى العام المطالب بالشفافية أثار صراعا داخليا بين وزير الطاقة جون هرينجتون الذى كان يناضل من أجل قدر أعلى من معايير الأمان والسلامة وقدر أكبر من المكاشفة ، والمسئولين الميدانيين فى وزارته الذين كانوا يقاومون مثل هذه الاجراءات ·

ولكن فى الوقت الذى كان فيـه هذا الصراع محتدما ، بدأ تطبيـــق قانون ثورى جديد ، يطالب ولأول مرة باعطـــاء الجمـــاعات المحليـــة فى جميع أنحـــاء الولايات المتحدة معلومات مفصـــلة عن النفـــايات الســـامة والنواتج الخطرة الأخرى التى قد تتعرض لها هذه الجماعات · ويقول ريتشارد سيجيل ـ وهو مستشار لشركة قامت بمساعدة ٣٠٠ مصنع على الالتزام بضوابط الحد من التلوث : « لأول مرة ســيعلم الجمهـــور كل شىء عن المواد الملوثة التى تتصاعد من المصنع الواقع فى نهايـــة الشارع » · لقد كان ذلك انتصاراً جديداً وجليا لحق الجمهـــور فى الوصول الى المعلومات ·

ان هذه المطالبة المتزايدة بالشفافية ليست ظاهرة أمريكية فقط ، كما أنها لا تقتصر على المشكلات الداخلية ·

ففى أوساكا باليابان ، أنشأت مجموعة من المواطنين « شبكـــة كانساى من أجل حق المعرفة » · ونظمت هـــذه الشبكة منــذ تكوينهـا ما يسمونه بـ « جولات » فى الدوائر الحكومية والبلدية فى جميع أنحاء المقاطعة للمطالبة بحق الوصول الى المعـلومات التى كانت سرية حتى ذلك الحين · ولقد تمت الاستجابة لستة طلبات من بين ١٢ طلبا كانت قد تقدمت بها الشبكة للادارات المختلفة فى المقاطعة ، فى حين تم رفض البـاقى على وجه السرعة · وكان من بين الطلبات المرفوضة طلب لمعـــرفة المزيد عن حساب نفقات الحاكم ·

أما رد بلدية أوساكا فكان ، اذا جاز التعبير ، أكثر لباقة عندمـا طالبت المجموعة بالملف الخاص بشراء مجلس المدينة للوحة موديليـانى ، وهى اللوحة التى تعتبر درة متحف أوســاكا للفن الحديث · لم ترفض السلطات الطلب ولكنها ببساطة لم ترد عليه · غير أن الضغوط من أجل الوصول الى الوثائق الرسمية ذات الأهمية المحلية أو القومية على حد سواء لن تفتر قط ·

ان نمو ما يمكن تسميته بالوعى المعلوماتى بالتوازى مع نمو الوعى بالاقتصاد المبنى على أجهزة الكمبيوتر والمعلومات والاتصالات ، أرغـم

الحكومات على أن تولى اهتماما مستمرا بالمشـــكلات المتصـلة بالمعرفة مثل مشكلات السرية وحق الجمهور فى الوصـول للمعـلومات واحترام الحياة الخاصة ٠

فمنذ عام ١٩٦٦ ، وهو تاريخ اجازة الولايات المتحدة لقانون حرية المعلومات الذى وسع حق المواطنين فى الوصول الى المستندات والوثائق الرسمية ، انتشر هذا المفهوم بانتظام فى الدول ذات الاقتصادات المتقدمة ٠ ففى عام ١٩٧٠ أقرت كل من الدنمارك والنرويج هذا القانون ثم فرنسا وهولندا فى عام ١٩٧٨ ثم كندا واستراليا فى عام ١٩٨٢ ، غير أن هذه القائمة لا تعبر عن كل الحقيقة ٠ لأن عدداً أكبر بكثير من المدن والأقاليم والولايات قد تبنت تشريعات مماثلة ــ أحيانا حتى قبل أن تقوم الدولة ذاتها بذلك ٠ ففى اليابان مثلا أقرت خمس مقاطعات وخمس مـــدن كبرى ومنطقتان خاصتان وثمانى مدن متوسطة قانون حـرية المعـلومات منذ عام ١٩٨٥ ٠

كما شهدت نفس الفترة الانتشار السريع لقوانين تحدد حق احترام الحياة الخاصة ٠ ففى عام ١٩٧٣ أقرت السويد تشريعات لحماية الحياة الخاصة تلتها الولايات المتحدة فى عام ١٩٧٤ ثم تبعتهما كندا وفرنسا وألمانيا الغربية فى عام ١٩٧٨ وانضمت بريطانيا الى الركب فى عـــام ١٩٨٤ ٠ وتنشىء العديد من البلدان هيئات مسئولـة عـن « حمـاية البيانات » تهدف الى حماية الحياة الخاصة من الاستخدام التعسفى لأجهزة الكمبيوتر ٠ وقد تختلف بالطبع الشروط والأساليب من بلد الى آخر وكذلك الفاعلية ، ولكن النسق العام واضح وجلى : فكلما تطـور الاقتصاد فائق الرمزية تتخذ قضايا المعلومات فى كل مكان مزيداً من الأهمية السياسية ٠

قنابل ارهابية وضحايا الايدز :

وتدور حرب معلومات متصلة فى كل مكان بين سدنـة السريـــة ومجموعات المواطنين التى تقـاتل من أجل المزيد من حـــرية الوصـول للمعلومات ٠

ولكن قد يحدث مثلا أن يصطدم هـذا المطلب بضرورات الأمـــن والسلامة التى يقرها الجميع علنا ٠ فبعد حادث انفجار قنبلة على متن الرحلة ١٠٣ لشركة بان أمريكان فوق بلدة لوكربى فى اسكتلندا يوم ٢١

ديسمبر ١٩٨٨ ، والذى ذهب ضحيته ٢٥٩ راكبا وأفراد طاقم الطائرة ، كشفت الصحافة أن السلطات كانت قد تلقت تحذيرا قبل وقوع الحادث ٠ وأراد الرأى العام العالمى الغاضب أن يعرف لماذا لم يتم تحذير الجمهور العريض فى حينه ٠ وتحول جزء كبير من الغضب الموجه للارهابيين وانصب على السلطات ٠

وأدى رد الفعل العنيف هذا الى قيام لجنة فرعية من لجان مجلس النواب بتحقيق سريع ونشرت قائمة طويلة للتعليمات الأمنية التى كانت الادارة الفيدرالية المسئولة عن الطيران قد وجهتها الى شركات الطيران٠ غير أن هذا الانتهاك للسرية المحيطة بهذه التعليمات أثار بدوره وزير النقل الأمريكى الذى اتهم اللجنة الفرعية بأنها تعرض بهذا الاجراء « حياة الركاب للخطر بكشفها بعض التعليمات الأمنية » ٠

ولكن كارديس كولينز رئيسة اللجنة الفرعية لم تستسلم ووصفت هجوم الوزير بأنه « مضلل » ٠ وقالت أن نشر تعليمات الادارة الفيدرالية للطيران كشف فى الواقع عن وجود عيوب خطيرة فى نظام التحذير برمته وخدم بالتالى الجمهور ٠ الا أن شركات الطيران الأمريكية وحدها تتلقى سنويا حوالى ٣٠٠ تهديد بوجود قنابل ، وقد يؤدى نشر التعليمات الى شل كل حركة الملاحة الجوية لأنه يتيح للارهابيين امكانية ارباك النظام ، فى أى وقت ، مقابل ثمن مكالمة هاتفية ٠

وسرعان ما وجدت الهيئات التنفيذية والتشريعية نفسها ، وكذلك شركات الطيران ووكالات الرقابة والشرطة وغيرها ، متورطة فى معركة عامة ــ لا تزال مستمرة حتى الآن ــ من أجل السيطرة على هذه المعلومات٠

وفى ديسمبر ١٩٨٩ ، أى بعد عام فقط من مأساة لوكربى تلقت شركة طيران نورث ويست تهديداً بنسف طائرتها القائمة بالرحلة رقم ٥١ بين ديترويت وباريس ٠ وقررت الشركة ، وذكرى حادث العام السابق ما زالت حية فى ذاكرتها ، أن تخبر الركاب الحاجزين على هذه الرحلة بأمر التهديد ، على أن تقوم بذلك عند بوابة الخروج الى الطائرة ، أى قبل الاقلاع مباشرة ٠ الا أن صحيفة سويدية نشرت نبأ التهديد مما دفع شركة الطيران لتحذير الركاب مقدما عن طريق الهاتف مقترحة عليهم المساعدة فى عمل ترتيبات بديلة اذا رغبوا فى ذلك ٠ (جميع الركاب سافروا على نفس الرحلة التى تمت دون حوادث) ٠

كما تصطدم المطالبة بقدر أكبر من المعلومات بمتطلبات احترام الحياة الخاصة التى سبق الاشارة اليها آنفا · ومن بين أكثر مشكلات المعلومات حساسية تلك التى يثيرها وباء الايدز · فبينما كان المرض ينتشر بسرعة فى العديد من البلدان ، حاملا معه قدرا غير قليل من الهلع، طالب بعض المتطرفين بوسم ضحايا الايدز وعزلهم · وحاول أولياء الأمور ، الذين استبد بهم الذعر ، طرد الأطفال المصابين بالايدز من الفصول الدراسية · كما طالب وليام بينيت ، الذى كان وزيرا للتعليم آنذاك والمعروف بتشدده ، باجراء فحوص اجبارية للايدز لفئات معينة من بينها كل مرضى المستشفيات والراغبون فى الزواج والمهاجرون والسجناء · وكان يريد أيضا أن يتم حصر كل زوج أو زوجة أو شريك جنسى سابق لأى شخص يثبت التحليل أنه حامل لفيروس الايدز ·

وأثار موقف بينيت استنكارا عاما لدى المسئولين عن الصحة العامة ورجال القانون ودعاة الحريات المدنية ، وجميعهم يؤيدون الفحص التطوعى · ومما يدعو للدهشة تناقض مواقف الذين ناضلوا من أجل حماية الحياة الخاصة فى هذه الحالة بالذات ، ففى مواقف أخرى كانوا هم أنفسهم الذين قادوا الحملات من أجل الكشف عن المعلومات ·

كان البعض يؤكد أن الاختبارات الطبية ليست أكيدة ١٠٠٪ ، واذا ما أعلنت نتائجها فان الضحايا سيتعرضون لتمييز واضطهاد فى العمل أو المدرسة فضلا عن العديد من الأضرار الأخرى التى ستلحق بهم · زد على ذلك أنه اذا أصبحت الفحوص اجبارية فقد يختبىء الضحايا المحتملون أو يرفضون التماس العلاج · وهاجم الجراح العام ايفرت كوب الذى يمثل أعلى سلطة طبية رسمية فى الولايات المتحدة موقف وزير التعليم الأمريكى علنا ·

ولازال الجدل محتدما ليس فقط فى واشنطن ولكن فى عواصم العديد من البلدان · ان الحقوق المتبادلة للفرد والجماعة وكذلك مسألة التناقض بين « الخاص » أو السرى و « المفتوح » – أى الذى يجب كشفه – لازالت مشوشة وغامضة وبعيدة تماما عن الوضوح ·

ومن ناحية أخرى نجد العديد من صراعات المصالح تتولد من القوانين الحالية المثيرة للبلبلة التى تنظم بعض المجالات ، مثل مجال حقوق النشر والتأليف وبراءات الاختراع والأسرار المهنية والمضاربة بالأسهم من داخل البورصة والاطلاع على أسرار دون وجه حق والاستفادة

منها ، وتعتبر كل هذه المجالات جزءاً لا يتجزأ من جدول أعمال المعلومات الذى فى طريقه لأن ينتقل الى فلك السياسة · ومع استمرار تطور الاقتصاد فائق الرمزية قد تبرز أخلاقيات للمعلومات تناسب الاقتصادات المتقدمة · أما فى الوقت الحالى فلم تتبلور بعد أخلاقيات مترابطة وبالتالى يتم اتخاذ القرارات السياسية فى ظل فراغ أخلاقى مربك ، فنسادراً ما توجد قواعد لا تتعارض وتتناقض مع قواعد أخرى ·

ويفتقر العديد من مناطق العالم لأبسط درجات حرية المعلومات وتضطر شعوبها لمواجهة القهر الثقافى والرقابة القاسية على الصحف ووسواس السرية المرضى لقادة تلك المناطق · أما فى البلدان الديمقراطية ذات التكنولوجيا المتقدمة ، حيث حرية التعبير مضمونة بدرجة أو أخرى فتبدأ سياسة المعلومات فى الارتفاع الى مستوى أكثر مهارة وبراعة ·

التغذية الارتجاعية العالمية الجديدة :

نظراً للطابع المتداخل والمتشابك للتطورات التكنولوجية ولمشكلات البيئة وشئون المال والاتصالات اللاسلكية ووسائل الاعلام فان نظما جديدة للتغذية الارتجاعية فى مجال الثقافة بدأت تعمل عملها بحيث غدت سياسة المعلومات فى بلد ما موضع اهتمام كل البلدان الأخرى · وبالتالى يصبح جدول أعمال المعلومات الآن ذا صبغة عالمية · فعندما أطلق مفاعل شيرنوبل سحب الاشعاع الذرى فوق بعض مناطق القارة الأوروبية ثارت موجة عارمة من الغضب ضد السوفيت لتأخرهم فى ابلاغ الحكومات المعنية بمسار الغبار الذرى · وأكدت هذه الدول أن من حقها معرفة الحقائق فى حينها ·

ومعنى ذلك أنه ليس من حق أى بلد أن يقرر وحده اخفاء الحقائق وان أخلاقيات المعلومات — حتى وان كانت ضمنية — تتجاوز المصالح الوطنية · ولذا عندما ضربت كارثة أخرى الاتحاد السوفيتى — زلزال أرمينيا — تعلمت السلطات الدرس وأبلغت على الفور الصحافة العالمية ·

ولكن وفقا لهذا المبدأ الضمنى ، لم يكن الاتحاد السوفيتى الدولة الوحيدة المخالفة · فبعد حادث شيرنوبل بقليل انتقد الأدميرال ستانسفيلد تيرنر المدير السابق لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية بلاده علنا لأنها لم تنشر القدر الكافى من المعلومات عن تلك الكارثة ، وهى المعلومات التى قامت أقمار التجسس الأمريكية بجمعها · ويبدون أن يفشى أى أسرار أعلن تيرنر « ان قدرتنا على جمع المعلومات [···] تتيح لنا امكانية اعلام الناس بشكل صحيح على امتداد العالم كله » ·

ان وسائل الاعلام الجديدة القادرة على بث المعلومات والتى تحيط بكوكب الأرض ، ميسرة بذلك العالمية المكتسبة بواسطة النظام الجديد لخلق الثروة ، تجعل اخفاء المعلومات داخل الحدود الوطنية أو احتواءها فى الخارج أكثر صعوبة ·

وهو ما نسيته الحكومة البريطانية فى قضية « صائد الجواسيس »* فعندما كتب بيتر رايت كتابا يحمل هذا العنوان وضمنه اتهامات خطيرة ضد أعضاء سابقين فى جهاز مكافحة التجسس البريطانى تدخلت حكومة تاتشر لمنع نشره · وردا على ذلك قام رايت بنشر الكتاب فى الولايات المتحدة وبلدان أخرى · وأدت محاولة لندن لحجب هذا الكتاب الى جعله من اكثر الكتب مبيعا دوليا · وخصصت محطات التليفزيون والصحف فى كل مكان مساحات لعرض الكتاب ، ضامنة بذلك أن المعلومات التى أرادت الحكومة البريطانية حجبها ستأخذ طريقها الى بريطانيا وتنفذ اليها · وبسبب عملية التغذية الارتجاعية اضطرت الحكومة البريطانية الى التراجع عن موقفها ، وأصبح كتاب رايت من أكثر الكتب مبيعا فى بلده أيضا ·

ومن الممارسات الآخذة فى الشيوع أيضا استخدام وسائل الاعلام خارج حدود ما للتأثير على بعض القرارات السياسية داخله · ففى بون ، نفت حكومة كول أن تكون الشركات الألمانية قد ساعدت رجل ليبيا القوى معمر القذافى فى بناء مصنع للأسلحة الكيماوية على بعد ٧٥ كيلومترا من العاصمة طرابلس · وعندئذ قامت أجهزة الاستخبارات الأمريكية بنشر أدلتها ، التى حصلت عليها بواسطة أقمار التجسس الخاصة بها ، فى وسائل الاعلام الأمريكية والأوروبية · ودفع ذلك مجلة « شتيرن » الألمانية الى أن تقوم بتحقيق صحفى متعمق أدى بدوره الى ارغام الحكومة الألمانية ، وهى فى حالة شديدة من الارتباك ، على الاقرار بأنها كانت تعرف ما ادعت عدم معرفته ·

وتتوالى الحالات التى نجد فيها المعلومات — من يملكها وكيفية الحصول عليها — فى قلب النزاعات والصراعات السياسية ، سواء الداخلية أو الدولية · والسبب الأساسى للأهمية الجديدة التى تكتسبها سياسة المعلومات تكمن فى تزايد اعتماد السلطة ، بكل أشكالها ، على المعرفة · وكلما انتشر الوعى بهذا الانتقال التاريخى زادت أهمية وقوة المعلومات السياسية ·

غير أن كل ما يحدث حتى الآن ليس سوى مناوشات بالمقارنة بما قد يتبين انه اهم حرب معلومات فى العقود القادمة ٠

شفرة انديانا جونز :

ان أكشاك الشوارع من بين اكثر المناظر انتشارا فى تايلانـد ، ويستطيع المرء أن يشترى منها اشرطة الفيديو والأشرطـة الموسيقية وغيرها من المنتجات باسعار زهيدة ٠ والأسباب وراء ذلك أن هـذه المنتجات ، مثل منتجات اخرى كثيرة يتم تداولها فى انحاء مختلفة من العـالم ، ليست اصلية وانما هى نسخ مقـلدة للمنتج الأصلى يتم انتاجها بدون ترخيص ٠ ومعنى ذلك حرمان المؤلفين والناشرين وشركات التسجيل الأصلية من حقوقهم التى من المفروض أن تعود اليهم ٠

ويتم فى مصر نشر كتب غربية مترجمة الى العربية دون دفع شىء للمؤلفين وأصحاب حقوق النشر ٠ وتشير مجلة « ميدل ايست » الشهرية التى تصدر فى لندن الى أن « عمليات نشر الكتب دون اذن مؤلفيها ودون دفع حقوق نشر بلغت فى الشرق الأوسط درجة لا يضاهيها سوى ما يتم من عمليات مماثلة فى الشرق الأقصى وباكستان » ٠ وفى هونج كونج القت الشرطة القبض على ٦١ شخصا اثر تفتيشها لـ ٢٧ مكتبـة حيث عثرت على ٦٤٧ عملا جاهزا للطبع بشكل غير قانونى ٠

الا أن العديد من البلدان لا تعتبر عمليـات القرصنة هذه مشروعة فحسب بل يتم تشجيعها نظرا للاسهام الذى يمكن أن تقدمه فى عمليات التصدير ٠ كما أن التقنيات الجديدة تجعل عمليات القرصنة أقل تكلفة واكثر يسرا ٠

لقد كلفت هذه الممارسات صناعة السينما الأمريكية حوالى ٧٥٠ مليون دولار سنويا ، ولذلك قررت هوليوود فى منتصف الثمانينيات أن تقوم بهجـوم مضاد ٠ فعندما تم عرض فيلم «انديانا جونز والمعبد الملعون» كانت كل نسخة من الفيلم تحمل شفرة غير محسوسة تحدد هويتها دون احتمال لأى خطأ ، بحيث يستطيع المحققون اكتشاف مصدر اى نسخ غير قانونية تطبع منها ٠ ومنذئذ بدأت كبرى شركات الانتاج السينمائى فى استخدام شفرات مماثلة ٠

بيد أن تايوان مثلا كانت تأوى حتى عام ١٩٨٩ (١٢٠٠) قاعـة عرض خاصة صغيرة تسمى بـ « صالونات التليفزيون » ٠ وكان المراهقون

يتجمعون فى هذه القاعات لمشاهدة شرائط فيديومنسوخة بشكل غير قانونى لأحدث الأفلام الأمريكية · وكانت طوابير الشباب تنتظر على امتداد البنايات دورها فى الدخول · ولاقت هذه العروض غير القانونية رواجا كبيرا حتى أنها خفضت مبيعات تذاكر دور السينما العادية · وفى النهاية ، اضطرت الحكومة فى تايوان الى معاقبة هذا النشاط غير المشروع تحت ضغوط شركات هوليوود ·

وبالتوازى مع عمليات النسخ والطباعة بغير ترخيص اندلعت حرب براءات الاختراع ، اذ رفض العديد من البلدان دفع حقوق الاختراع – أى المبالغ التى تدفع للمخترع عن كل سلعة مباعة من اختراعه – عن عقار طبى جديد مثلا رصدت لابتكاره وتجربته استثمارات ضخمة وأنجزه باحثون متخصصون ·

وبالاضافة الى عملية النسخ والطباعة بدون ترخيص ، أى القرصنة الصريحة ، وأصبحت عمليات تقليد المنتجات صناعة عالمية واسعة النطاق · فلقد تم اغراق الأسواق بمنتجات مقلدة رخيصة الثمن ، مثل تقليد موديلات بيوت الأزياء الكبرى · ولكن الأخطر من ذلك هو سرقة برامج الكمبيوتر أو نسخها بطريقة غير قانونية ، ليس على مستوى الأفراد للاستخدام الشخصى ولكن على مستوى كبير بواسطة موزعين – قراصنة على امتداد العالم كله · لقد ازدادت كل هذه المشكلات حدة مع ظهور وانتشار التقنيات الأكثر حداثة ·

وقد أثارت المشكلات التى طرحتها قضية حماية « الملكية الفكرية » – التى تعد الأساس لجزء كبير من النظام الجديد لخلق الثروة – خلافات سياسية بين البلدان منذ عام ١٩٨٩ · وتشمل الملكية الفكرية – وهو اصطلاح فى حد ذاته محل جدل – ملكية عناصر غير مادية ناتجة عن عمل ابداعى فى مجالات العلوم والتقنية والفنون والآداب والتصميم ومعالجة المعرفة بشكل عام · ومع امتداد الاقتصاد فائق الرمزية تصبح هذه العناصر غير المادية أكثر ربحية من المنظور الاقتصادى ، ومن ثم يزداد طابعها السياسى ·

واندلعت فى واشنطن معارك سياسية ساخنة قادتها جماعات ضغط متنوعة ، يساندها ممثل لجنة التجارة الأمريكية ، للمطالبة باجراءات حاسمة ضد تايلاند لأنها لم تحظر عمليات قرصنة وتقليد المنتجات الابداعية الأمريكية · وطالبت هذه الجماعات الولايات المتحدة بأن تتخذ اجراءات انتقامية ضد تايلاند اذا رفضت حكومتها معاقبة هذه الممارسات

غير المشروعة · وهو ما يعنى المناداة بالغاء الاعفاءات الجمركية الممنوحة لبعض الصادرات التايلاندية مثل الزهور الاصطناعية وبلاطات الخزف والفاصوليا المجففة ومعدات الاتصالات اللاسلكية ·

وعلى النقيض من هذه المطالب نادت وزارة الخارجية الأمريكية ومجلس الأمن القومى بالترفق مع تايلاند ، واضعين بذلك المصالح الدبلوماسية والضرورات العسكرية قبل مصالح أصحاب حقوق النشر وبراءات الاختراع

كما رفض رونالد ريجان ، فى آخر يوم فى فترة رئاسته ، اقتراحات اكثر تشددا تطالبه باجراءات قمعية ضد القراصنة والمقلدين فى تايلاند وان كان قد الغى الاعفاءات الجمركية التى كانت تستفيد منها المنتجات التايلاندية ، التى سبق الاشارة اليها ·

غير أن تايلاند ليست أكثر الدول انتهاكا للقوانين التى تحمى حقوق النشر وبراءات الاختراع بمفهومها فى الاقتصادات المتقدمة · وتوضح هذه المناوشات الصغيرة التى دارت فى واشنطن ما يدور على ما لا يقل عن مائة جبهة فيما تلعب منتجات الأنشطة الابداعية دورا أكثر محورية فى جميع اقتصاديات التكنولوجيا المتقدمة ·

فى عام ١٩٨٩ ، طالب أصحاب حقوق النشر الأمريكيون ، بما فى ذلك صناعة الموسيقى وبرامج الكمبيوتر والناشرون ، الحكومة الأمريكية باتخاذ اجراءات ضد ١٢ بلدا لأنها تكبد - على حد زعمهم - الاقتصاد الأمريكي خسائر فى المبيعات تقدر بحوالى ١ر٣ مليار دولار سنويا · ومن بين هذه الدول الصين والسعودية والهند وماليزيا وتايوان والفلبين ·

وان كان الأمريكيون من أشد المدافعين عن حماية الملكية الفكرية فان هذه القضية تشغل أيضا وبنفس القدر الجماعة الأوروبية واليابان· لقد طالبت المجموعة الأوروبية سلطات جمارك العالم كله بمصادرة ١٦ سلعة مقلدة وبفرض عقوبات جنائية على القراصنة الذين يقومون بتسويق هذه السلع ·

وتدور المعركة السياسية حول الملكية الفكرية بشكل خاص داخل مجلس الاتفاقية العامة للتعريفة الجمركية والتجارة حيث تصطدم الاقتصادات المتقدمة بمقاومة حازمة من جانب الدول الأقل تقدما التى

يردد مفاوضوها احيانا حجج الطلبة العرب الذين يشترون كتبا طبعت بدون ترخيص والتى تقول بأن « المفهوم الغربى لحقوق النشر هو مفهوم نخبوى يهدف الى حشو جيوب الناشرين » ·

غير أن هذا الموقف لا يشكل تهديدا خطيرا للدول ذات التكنولوجيا المتقدمة ، وانما التهديد الفعلى ينبع من الشك الفلسفى المحير الذى يدفع الى التساؤل عن طبيعة الملكية الفكرية وهل هى من نفس طبيعة ملكية الأصول المادية ؟ أم أن مفهوم الملكية برمته فى حاجة الى اعادة تفكير ؟·

لقد تأمل هارلان كليفلاند ، المفكر المستقبلى والدبلوماسى السابق ، وفكر مليا فى « الجنون المتمثل فى رفض اقتسام ما لا يمكن امتلاكه » · ويشير كليفلاند الى أن « ما يبنى شركة كبيرة أو بلدا عظيما ليس هو حماية ما تعرفه سلفا وانما هو اكتساب معارف جديدة نابعة من شركات وبلدان أخرى والتكيف معها · كيف يمكن « حماية » « الملكية الفكرية » ؟ ان السؤال نفسه ينطوى على بذور غموضه والتباسه الذاتى : انه استخدام الفعل غير المناسب لاسم غير مناسب » ·

ان هذا النوع من الحجج كثيرا ما يستخدم لتاييد رؤية عالم تنتقل فيه المعلومات بدون قيود أو موانع · وهو حلم يتفق تماما مع المطالب الملحة للدول الأكثر فقرا التى تحتاج للعلم والتكنولوجيا اللازمين للتحرر من التخلف الاقتصادى · ولكن السؤال الذى تطرحه الدول ذات التكنولوجيا المتقدمة ولم يجد اجابة حتى الآن هو : ماذا سيحدث للفقراء والأغنياء — على حد سواء — اذا ما نضب فيض الابداع التقنى فى العالم كله ، اذا عجزت شركة أدوية ، بسبب القرصنة ، عن تعويض النفقات الضخمة التى يتطلبها التوصل الى وسائل علاجية جديدة ، فمن غير المرجح أن تستمر هذه الشركة فى استثمار المزيد من الأموال فى البحث العلمى · ان كليفلاند محق فيما ذهب اليه من أن كل البلدان ستحتاج فى المستقبل الى المعرفة والثقافة والعلم والفنون القادمة من الخارج · ولكن فى هذه الحالة سيتطلب الأمر وضع قواعد أساسية تنظم بطريقة متحضرة عمليات التبادل ، ويجب أن تشجع هذه القواعد مواصلة الابداع والابتكار لا أن تعرقله ·

ان التوصل لاعداد هذه القواعد الجديدة والأخلاقيات المعلوماتية فى عالم منقسم الى اقتصادات زراعية واقتصادات صناعية واقتصادات ما بعد العصر الصناعى قد تكون عملية متناهية الصعوبة · الا أنه من الواضح والجلى أن هذه المشكلات ستكتسب وباطراد مزيدا من الأهمية ·

ان السيطرة على اللاماديات ـ أى الأفكار والثقافة والصور والنظريات والمعادلات العلمية والبرامج الاعلاماتية ـ ســوف تستنفد قدرا متزايدا من الاهتمام السياسى فى جميع البلدان ، بينما تهدد عمليات القرصنة والتقليد والسرقة والتجسس التكنولوجى المصالح الحيوية الخاصــة والوطنية بشكل متزايد الخطــورة ٠

ففى دراسة أجراها عبده سعيد ولويز سيمونز عـن الشركــات متعددة الجنسيات بعنوان « السادة الجدد » يشيران الى أن « طبيعـة السلطة تمر الآن بتحول جذرى ٠ اذ أصبح سوء توزيع المعلومات هـو المحدد الرئيسى للسلطة ٠ ان التفاوت الذى ظل مرتبطا لأمد طويل بالدخـل أساسا ، يرتبط الآن بشكل متزايد بعوامل تكنولوجية وكذلك بالسـيطرة السياسية والاقتصادية على المعارف » ٠

لقد كانت الدول خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تخوض الحروب من اجل الاستحواذ على المـواد الخـام اللازمـة لاقتصاداتها المصنعية ٠ أما فى القرن الحادى والعشرين فان المعرفـة ستكون اكثر المواد الخام أساسية ٠ فهل ستكون المعرفة هى رهان الحروب والثورات الاجتماعية فى المستقبل ؟ واذا كان الأمر كذلك فما هو الدور الذى ستلعبه وسائل الاعلام فى هذه الأحداث ؟٠

الفصل السادس والعشرون

صانعو الصور

ان بنيامين داى الطباع ذا الثلاثة والعشرين ربيعا ، صاحب الأفكار المجنونة ، هو الذى غير تاريخ ما نسميه الآن بوسائل الاعلام : كان ذلك فى عام ١٨٣٣ وكان عدد سكان مدينة نيويورك ٢١٨ ألف نسمة الا أن عدد المشتركين فى أكبر صحيفة يومية بالمدينة لم يكن يتعدى ٤٥٠٠ مشترك • وكان دخل العامل الحضرى الأمريكى فى هذه الفترة ٧٥ سنتا فى اليوم فى حين كان ثمن الصحيفة سنتين وبالتالى كانت قلة قليلة هى التى تستطيع دفع هذا المبلغ يوميا ثمنا لصحيفة • كما كان يتم طبع الصحف بآلات طباعة يدوية معدل انتاجها لا يتعدى بضع مئات من النسخ فى الساعة •

ولكن داى أقدم على مجازفة مجنونة •

ففى يوم ٣ سبتمبر ١٨٣٣ طرح فى الأسواق صحيفة « نيويورك صن » وحدد سعر النسخة ببنس واحد لا غير • وأطلق فى الشوارع جنودا من الصبية لبيعها ، وكان ذلك ابتكارا جديدا حينذاك • وكلف طباع آخر ، زميل له ، بالتردد على قاعات المحاكم وتغطية ما يعرض فيها من قضايا وحوادث ، مقابل أربعة دولارات فى الأسبوع ــ وكانت هذه احدى أوائل المرات التى يستخدم فيها « المخبر الصحفى » • وتمكنت صحيفة الـ « صن » خلال أربعة شهور من جذب أكبر عدد من قراء المدينة، وفى عام ١٨٣٥ اشترى داى أحدث تقنية فى مجال الطباعة آنذاك وهى آلة طباعة تعمل بالبخار • وبلغ توزيع صحيفته رقما خارقا : ٣٠ ألف نسخة يوميا • واخترع داى بذلك الصحافة الشعبية بكل ما تتميز به من أخبار الحوادث والجرائم وغيرها •

وفى نفس الفترة تقريبا كانت ابتكارات « مهووسين » آخرين تسير

فى خطوط موازية لداى ، ففى انجلترا أصدر هنرى هزرينجتون صحيفة « توبينى ديسباتش » وفى فرنسا صدرت صحيفة « لابريس » لأميل جيراردا • كان هذا النوع من الصحف الرخيصة الذى كان يسمى فى انجلترا بـ « صحافة الفقراء » اكثر من مجرد قضية تجارية ، اذ كانت له آثار سياسية باقية ، لقد ساهمت هذه الصحافة الى جانب تشكيل اولى النقابات المهنية وبدايات التعليم الجماعى ، فى دفع الطبقات الفقيرة الى خضم الحياة السياسية للأمم •

ومنذ السبعينات من القرن الماضى بدأ رجال السياسة من جميع الاتجاهات يأخذون فى اعتبارهم شيئا اسمه « الرأى العام » • وكتب احد المفكرين الفرنسيين يقول : « من الآن فصاعدا لا توجد حكومة أوروبية لا تأخذ فى حسابها الرأى العام ولا تشعر انها ملزمة بتقديم حساب عن اعمالها وان توضح مدى توافق هذه الأعمال مع المصلحة الوطنية ، او أن تسوق الصالح العام لتبرير اية زيادة فى سلطتها او امتيازاتها » •

ويعد بنيامين داى بقرن ونصف عنت لوجل « جامح » اخر فكرة كانت كفيلة حتما باعلان افلاسه • هذا المهووس الطويل القامة الفظ النافد الصبر والنابه هو تيد تيرنر الذى ورث عن ابيه ـ بعد موته منتحرا ـ شركة للوحات الاعلانات • بدأ تيرنر بتنظيم هذه الشركة ثم اشترى محطات اذاعية وتليفزيونية • وكان يتساءل عما يتعين عمله بعد ذلك عندما لاحظ امرا غريبا : فمحطات التليفزيون الكابلى ، الذى كان ينتشر بسرعة كبيرة فى انحاء الولايات المتحدة ، كانت تعانى من نقص حاد فى البرامج والاعلانات • وفى الوقت نفسه كانت هناك أجهزة تدور عاليا فى السماء يطلق عليها اسم « الأقمار الصناعية » •

وجمع تيرنر اثنين زائد اثنين وحصل على خمسة • فقد قام ببث البرامج من محطته فى مدينة اطلنطا الى احد الأقمار الصناعية ، الذى قام بدوره باعادة بثها الى المحطات المتعطشة الى البرامج • وبذلك منح رجال الدعاية والاعلان بضربة واحدة سوقا واسعة بامتداد الولايات المتحدة بعد أن كانوا لا يريدون تكليف انفسهم عناء شراء مدد اعلان على العشرات من محطات الكابل الصغيرة • واصبحت «محطته الفائقة» فى اطلنطا حجر زاوية لامبراطورية متنامية •

وفى يوم ١٩ يونيو ١٩٨٩ انتقل تيرنر الى المرحلة التالية والأكثر مجازفة • اذ انشأ ما اطلق عليه النقاد حينذاك « شبكة الفراخ بالمكرونة»

(Chicken Noodle Network) سـخرية من اختصـار CNN
وهى شبكة الأنباء الكابلية · واصبحت CNN سخرية كل اقطاب الاعلام ابتداء من ملوكه فى منهاتن الى استوديوهات لوس انجلوس · وكانت وول ستريت متأكدة من أن هذه الشبكة ستنهار وقد تجـر وراءها أعمال تيرنر الأخرى · اذ لم يحاول أحد من قبل انشاء شبكة لبث الأنباء لمدة اربع وعشرين ساعة يوميا ·

أما حاليا فان شبكة CNN تعد من اكثر مصـادر الأنبـاء التليفزيونية تاثيرا فى جميع انحاء الولايات المتحدة ، فاجهـزة التليفزيون فى البيت الأبيض وفى البنتاجون مضبوطة باستمرار على قنـاة CNN والشىء نفسه يتكرر فى السفارات وفى ملايين البيـوت على امتداد الولايات المتحدة ·

غير أن أحلام تيرنر الجامحة تجاوزت حدود الولايات المتحـدة وتعمل حاليا شبكة CNN فى ٨٦ بلدا · وهـو ما يجعلهـا اكثر شبكات التليفزيون انتشارا ، مثيرة انبهار واعجاب شيوخ الشرق الأوسط والصحفيين الأوروبيين ورجال السياسة فى أمريكا اللاتينية بسبقها فى تغطية أحداث مثل اغتيال الرئيس المصرى انور السـادات وقمع المظاهرات فى ميدان تيانانمين ببكين فى عام ١٩٨٩ والغزو الأمريكى لبنما وحرب الخليج وقصف بغداد · كما يصل ارسال CNN عبر الأثير او عبر الكابل الى غرف الفنادق والمكاتب والمنـازل بل والى اجنحـة الركاب على متن « كوين اليزابيث الثانية » ·

وأحد كنوز تيرنر السرية شريط فيديو يصور لقاء خاصا مـع فيدل كاسترو ·ويشير كاسترو خلال اللقاء الى انه يشاهد الـ CNN بانتظام ، وعندئذ طلب منه تيرنر ـ الذى لا يتراجع أمام شىء للدعاية لشركاته ـ اذا كان يقبل أن يكرر ما قاله على الهواء كدعاية للشـبكة · فجذب كاسترو بضـعة انفاس من سـيجاره واجاب قائلاً : « لـم لا فى الواقع ؟ » لم يتم قط اذاعة ذلك على الهواء ولكن تيرنر يخرج الشريط من وقت لآخر ليعرضه على الأصدقاء ·

تيرنر شخصية فريدة ، فهو وسيم ذو صوت أجش ، غريب الأطوار ومتقلب المزاج ، يملك مزرعة لتربية الثيران الأمريكية (البيسون) وهى ثيران لها عند اكتافها شـبه سـنام · كمـا يملك فريق (أطلنطا بريفـز)

للبيسبول ومكتبة أفلام مترو جولدوين ماير للأفلام القديمة وكذلك ــ على حد قول منتقديه ــ أطول لسان فى جنوب الولايات المتحدة كله ·

وعلاوة على أن تيرنر نصير شرس للشركة الحرة فقد كان داعية للسلام قبل أن يرتبط بالممثلة جين فوندا بوقت طويل ونظم دورة « ألعاب الصداقة » فى موسكو فى فترة كان القيام بذلك يتطلب شجاعة سياسية ومالية نادرة · كما تبث شبكاته العديد من البرامج لصالح حماية البيئة :

ويعتبر تيرنر حاليا أكثر أقطاب الاعلام قدرة على التخيل والحلم ، هؤلاء الأقطاب الذين يقومون حاليا بتغيير وسائل الاعلام تغييرا ثوريا أعمق بكثير مما فعل بنيامين داى ، والذين ستحدث جهودهم المشتركة على المدى الطويل ، تحولا للسلطة فى العديد من البلدان ·

المجتمع المتعدد القنوات :

ان التغير الجذرى فى التوجه الذى طرأ على وسائل الاعلام ابتداء من عام ١٩٧٠ ، على أقل تقدير ــ عندما تنبأ كتاب « صدمة المستقبل » بحدوث تجزئة لجماعية ما يبث عبر موجات الأثير ــ ينصب على تجزئة الأعداد الكبيرة من المستمعين والمشاهدين الى شرائح ومجموعات فرعية بحيث يستقبل كل منها تركيبة مختلفة من البرامج والرسائل · ولقد صاحب ذلك اتساع ونمو كبير فى كم الصور التى يبثها التليفزيون فى شكل سواد إخبارية وترفيهية ·

هناك سبب لهذه الزيادة الضخمة فى الصور

فمنذ الأزل تبادل البشر تصورات رمزية للواقع · وفى ذلك يكمن كل دور اللغة وعليه تقوم المعرفة · الا أن المجتمعات المختلفة تتطلب قدرا متفاوتا من التبادل الرمزى · والانتقال الى اقتصاد قائم على المعرفة يزيد فجاة الطلب على الاتصال محدثا بذلك تشبعا للنظم القديمة لنقل الصور ·

وتتطلب الاقتصادات المتقدمة أيدى عاملة معتادة تماما على الاعداد والتحضير الرمزى · ومن جانبها تحتاج هذه الأيدى العاملة الى سبل وصول فورية ــ وحرة الى حد كبير ــ الى كل أنواع المعلومات التى كانت

تعتبر حتى الآن غير ذات صلة بانتاجيتها ٠ كما أنها تحتاج الى عناصر قادرة على التكيف السريع جداً مع التغيرات المتكررة فى طرق العمل والتنظيم والحياة اليومية ، بل وقادرة على توقعها ٠

ان أفضل العاملين هم أولئك الذين ينتبهون جيدا لما يحدث حولهم فى العالم ، ويحسنون استقبال الأفكار الجديدة وما يفضله العملاء والتغيرات الاقتصادية والسياسية ، والذين يدركون ضغوط المنافسة والاتجاهات الثقافية وأشياء أخرى كثيرة كانت تبدو فى الماضى أنها لا تعنى سوى الصفوة الادارية ٠

ان هذا التنوع الكبير فى المعارف لا يتم الحصول عليه من خلال المحاضرات والكتيبات التقنية فقط وانما من خلال التعرض المستمر للأنباء المذاعة عبر التليفزيون والصحف والمجلات والراديو ٠ كما يتم الحصول عليها بشكل غير مباشر من خلال البرامج الترفيهية التى يقوم الكثير منها بامداد المشاهد ، بشكل غير مقصود ، بمعلومات عن الأنماط الحياتية الجديدة والعلاقات الشخصية بين الأفراد والمشاكل الاجتماعية بل وأساليب الحياة والأسواق الأجنبية ٠

كما أن بعض المسلسلات التليفزيونية ، مثل حلقات « مورفى » التى تقوم ببطولتها الممثلة كانديس بيرجن ، تتخذ – عن قصد – الأنباء والأحداث الراهنة محورا للدراما أو الكوميديا التى تعرضها ٠ لكن حتى اذا لم تتم الأمور بهذا الشكل فان العروض التى يقدمها التليفزيون تعطى – بالرغم عنها أحياناً – صوراً عن الواقع ٠

صحيح أن المضمون المقصود للعرض التليفزيونى – أى عقدته وسلوك الشخصيات الرئيسية فيه – كثيرا ما يرسم صورة زائفة عن الواقع الاجتماعى ، غير أن كل البرامج والاعلانات وكذلك الأفلام السينمائية تتضمن مستوى تكميليا ، أى ما يمكن أن نسميه « المضمون غير المقصود » ٠

وهو يتألف من تفاصيل فى خلفية المشهد – كالمناظر الطبيعية والسيارات ومشاهد الشوارع والطرز المعمارية والهواتف ، فضلا عن أحداث تكاد لا تسترعى الانتباه مثل المداعبات المتبادلة بين نادلة وعميل لحظة جلوس البطل على الطاولة فى محل من نوع « اخدم نفسك » ٠ وعلى نقيض المضمون المقصود فان التفاصيل غير المقصودة تعطى فى أغلب الأحيان صورة صحيحة جداً عن الواقع اليومى ٠ بالاضافة الى

ذلك ، فان أى فيلم بوليسى عادى يوضح الصراعات والتقليعات السائدة والمواقف الشعبية تجاه الجنس والدين والمال والسياسة .

ولا ينسى المشاهد أو يتجاهل أى شىء من كل ذلك ، فهو يختزنه فى عمق ذاكرته ليتشكل بذلك بنك معارفه العامة عن العالم . ومن ثم تؤثر المشاهد جيدة كانت أو سيئة على مخزون القناعات التى سيأتى بها كل فرد الى مكان العمل . (والمفارقة أن جزءا كبيرا من الصورة التى يكونها العامل عن العالم والذى يؤثر بشكل متزايد على الانتاجية الاقتصادية يتم استيعابه خلال ساعات « الترفيه »)

ولذلك لم تعد « التسلية البسيطة » « بسيطة » كما كانت فى السابق .

باختصار ، لم يعد الاقتصاد الجديد شديد الارتباط بالمهارات النظرية والتقنية القديمة فحسب بل بالثقافة الشعبية أيضا وبسوق الصور التى تعيش فترة ازدهار وتوسع . وهذه السوق لا تنمو فقط وانما تتعرض فى الوقت نفسه لعملية اعادة هيكلة . اذ يعاد حاليا تشكيل فئاتها وتصنيفاتها . وسواء أكان ذلك للأفضل أم للأسوأ فان الحدود القديمة التى كانت تفصل بين صناعة العروض السينمائية أو المسرحية والسياسة وبين الترفيه والعمل وبين المواد الاخبارية والمنوعات قد أخذت تتهاوى كلها ، أصبحنا معرضين لاعصار من الصور التى غالبا ما تكون مجزءة وقابلة لتكوين أشكال مختلفة ودائمة التغير .

مقدم عصر الاختيار :

حتى وقت قريب كانت شبكات التليفزيون الكبرى هى المورد الرئيسى لهذه الصور ، أما حاليا فان سلطة هذه الشبكات تنهار فى الولايات المتحدة حيث عملية تفكك جماعية وسائل الاعلام أكثر تقدما وتطورا . فبينما كانت تتربع شبكات (ABC) و (NBC) و (CBS) وحدها على العرش أصبح هناك حاليا ٧٢ محطة قومية من مختلف الأنواع ، وتستعد شبكات أخرى للاعلان عن وصولها ، ولقد جاء فى (هوليوود ريبورتر) أن « الجديد فى مجال التليفزيون الكابلى هو ظهور مجموعة جديدة من الشبكات تمنح « مواقع متميزة » فى سوق الاعلانات والدعاية » . وسيضاف الى ذلك قريبا شبكة مخصصة لمسرح المنوعات وشبكة أخرى للاستهلاك وثالثة للخيال العلمى . وبالاضافة

الى ذلك تقـــوم القنـــاة الأولى (Channel one) ببث برامج الى الفصــول في المــدارس ، كمــا تســتخدم شــبكة (National College Television) الأقمار الصناعية لارسال برامج متخصصة الى طلاب الجامعات ٠

لقد بين كتاب « صدمة المستقبل » منذ عام ١٩٧٠ أن « اختراع التسجيل الالكترونى للصــورة والصوت (الفيديو) وانتشار التليفزيون الكابلى وامكانية البث مباشرة من الأقمار الصناعية [٠٠٠٠] كل ذلك يدعو الى توقع تطورات عملاقة فى تنوع البرامج » ٠

ويتم حاليا استقبال التليفزيون الكابلى فى ٥٧٪ من المنازل الأمريكية، والأكثر التوقعات تحفظا ترفع هذه النسبة الى ٦٧٪ خلال السنوات العشر القادمة ٠ ولدى المستخدم المتوسط لهذا النوع من الارســـال فرص الاختيار بين اكثر من ٢٧ قناة ، وقريبا سيصل هذا الرقم الى خمسين قناة ٠ ففى مدينة صغيرة مثل مدينة روشستر بولاية مينوسوتا تتــاح لمشاهدى التليفزيون فرص الاختيار بين اكثر من أربعين قناة مختلفة ، تقدم تنوعا واسعا من الموضوعات ابتداء من برامج منوعات موجهة للسود وبرامج بالأسبانية الى برامج متخصصة فى التدريب الطبى موجهة الى الطائفة الطبية الكبيرة المقيمة حول مستشفى ماير كلينيك الشهير ٠

ان التليفزيون الكابلى كان أول من بدأ فى تفكيك جمهور المشاهدين٠ ثم قامت أشرطة الفيديو والبث المباشر من الأقمار الصناعية (التى تبث اشاراتها الى المنازل نفسها لا الى المحطات الكابلية فحسب) باحداث مزيد من التفكك ٠ اذ تتيح أشرطة الفيديو للمشاهدين فرصة الاختيار بين آلاف الأفلام والبرامج ٠ ولقد قامت مؤخرا أربع شركــات كبيرة بتوحيد جهودها لتزويد المشاهدين الأمريكيين بـــ ١٠٨ قنوات تليفزيونية (ارسال عادى وارسال ذو وضوحية عالية) ، وذلك عن طـــريق بث الاشارات من أقوى قمر صناعى تجارى فى العالم مباشرة الى أطبــاق استقبال مزودة بها المنازل « لا يزيد حجمها عن مناديل الجيب » ٠

فضلا عن ذلك فان عدد المحطات التى تعمل مستقلة عن الشبكات الكبرى تضاعف أربع مرات منذ نهاية السبعينيات ٠ ولقد تجمع العديد منها فى تنظيمات دائمة أو مؤقتة لمنافسة « الشبكات الكبرى » فى تقديم البرامج ذات النوعية الرفيعة ٠ وطبقا لمجلة « نيوزويك » كان تأثير كل هذه القوى ــ المفتتة لجماعية المشاهدين ــ على الشبكات الكبرى التى كانت حتى وقت قريب قوية وقادرة « كتأثير الكارثة » ٠

ويصرح روبرت ايجر المسئول عن برامج المنوعات فى شبكة (ABC) بأن « كلمتى السر فى كل ذلك هما : الاختيار والبدائل · وهو ما كـان غير متاح للناس فى عام ١٩٨٠ وأصبح متوفراً لديهم الآن » · ولكن ذلك هو بالضبط ما كانت الشبكات الرئيسية تعمل على منعه · ففى الواقع ان شـبكات (CBS) و (ABC), و (NBC), هى شركات مصنعية تنتمى للموجة الثانية ، اعتادت التعامل مع الجاهير العريضة وليس مع أسواق ميكروية غير متجانسة ، ومن ثم فهى تجد صعوبة فى التكيف مع الاقتصاد بعـد المصنعى ، اقتصاد الموجة الثالثة ، مثلها فى ذلك مثل شركات جنرال موتورز واكسون · ان القرار الذى اتخذته شبكة (NBC) بالمشاركة فى مغامرة البث المباشر بالأقمـار الصناعية يوضح مدى قلق الشـبكات الكبرى بهذا الشأن ·

وعندما سئل آل بيرتون وهو من كبار المنتجين المستقلين عما سيحدث للشبكات الرئيسية الثلاث أجاب قائلا : « كان هنـاك ذات يوم ثـلاث شبكات اذاعية كبيـرة · أما الآن فلا أحـد تقريبا يتـذكر انها كـانت موجـودة ! » ·

التليفـزيون الأوروبى قادم :

اذا كانت عملية تفكيك جماعية وسائل الاعلام قد بدأت فى الولايات المتحدة فان أوروبا فى طريقها لأن تلحق بها ·

كان الارسال الاذاعى والتليفزيونى فى الولايات المتحـدة مقصورا ـ ولا يزال ـ على القطاع الخاص ، فى حين ظلت الاذاعة والتليفزيون فى أغلب الدول الأوروبية ولعقود طويلة تحت سيطرة الحكومات ، أو يتم تمويلها بضرائب خاصة يدفعها المستمعون والمشاهدون · ونتـج عن ذلك أن الاختيار المتاح للأوروبيين كان أضيق مما هو متاح للأمريكيين فى العصر الذى كانت تسيطر عليه الشبكات الكبرى ·

أما فى الوقت الراهن فثمـة تغيـرات لافتـة للنظـر ، اذ يوجد الآن أكثر من خمسين قمرا صناعيا للبث التليفزيونى فى أوروبا · وتخطط الاذاعة البريطانية للبث عبر الأقمار الصناعية (BSB) لتقديم خمس خدمات بث مباشر بينما تعد المؤسسة المنافسـة لها (Sky Television) لبث ست خـدمات ·

ويتصارع (BSB) وسكاى صراعا مستميتا ، فكل منهما يهدد

بتحطيم الآخر وينفقان في سبيل ذلك مبالغ طائلة دون أى منظور ربحية مباشرة ، فعيونهما مشدودة الى مورد الثراء المتوقع اذا صحت ولو جزئيا تقديرات ساتشى آند ساتشى ، وهي وكالة الاعلانات الأولى فى بريطانيا . فطبقا لهذه التقديرات سيتم تزويد أكثر من نصف المنازل البريطانية ، خلال عقد من الزمان ، بمعدات استقبال البث المباشر من الأقمار الصناعية . وسيجنى هذا النوع من البث مبلغا يقدر بـ ٣ر١ مليار دولار فى شكل عائدات اعلانات ودعاية . وكانت مبيعات أطباق الاستقبال بطيئة فى أول الأمر ثم تزايدت سرعتها الآن ، ولقد تجاوز عددها ٧٠٠ ألف طبـــق .

وسيتاح للمشاهدين البريطانيين فى وقت قـريب حـوالى ١٥ قنـاة للارسال التليفزيونى تغذيها الأقمار الصناعية بعد أن ظـل اختيـارهم لسنوات طويلة قاصرا على قنـاتى (بى . بى . سى) ، ولم يحصلوا على قناة رابعة الا فى عام ١٩٨٢ .

وفى عام ١٩٨٦ أنهت فرنسا بحـركة سـياسية مفـاجئة ومهمـة احتكار الدولة للتليفـزيون عندما بدأت القنـــاة الخامسة (La cinq) عملهـا فى احتفال حضره عدد كبير من النجـوم ، وقص شريط بدء ارسالها المغنى والممثل الشهير شارل أزنافور . وخلال فترة قصيرة زاد عـدد شبكات الخدمة العامة من ثلاث شبكات الى ست شبكات ، أربع منهـا ملك القطاع الخاص . وتنتشر الشبكات ذات الرسوم مثل كنال بلاس فى فرنسا وفى كل من سويسرا وهولندا .

أما فى ايطاليا فان الهيئة الحكومية للراديو والتليفزيون (RAI) تواجه الآن منافسة أربع شبكات على الأقل ، وتتباهى مدينة روما بأن لديها حوالى ٢٥ قنـاة تليفزيونية .

كما تزودت ألمانيا الاتحادية بقناتين تجاريتين جديدتين وهى تقوم بمد شبكات الكابل بسرعة كبيرة منذ عام ١٩٨٥ ، وهو التاريخ الذى بدأت فيه أول شبكة تستخدم هذه التقنية ارسالها على نغمات سيمفونية العالم الجديد للموسيقار دفوراك . ولقد تم الآن ربط ستة مـــلايين منزل فى ألمانيا الغربية بشبكة التليفزيون الكابلى . وحتى لا تتـأخر أسـبانيا عن الركب افتتحت ثلاث شبكات جديدة خاصة لتتنافس مع الشبكات العامة .

ويتغير الموقف بسرعة كبيرة بحيث تصبح هذه البيانات قديمـة بدون شك عندما يتم نشرها . ولا أحد يعلم يقينا عدد القنوات الجديدة

التى ستضيفها أوروبا خلال السنوات القادمة ليتضاعف اجمالى عدد القنوات لديها مرتين أو ثلاث مرات . وذلك دون أن ناخذ فى الحسبان الانفجار المحتمل فى ارسال الراديو والتليفزيون فى بلدان أوروبا الشرقية التى تحررت من السيطرة الشيوعية . ومن المتوقع أن تنمو هناك الشبكات التعددية نموا سريعا .

واثناء ذلك كانت اليابان رائدة التليفزيون ذى الوضوحية العالية ابطأ بكثير فى نشر التليفزيون الكابلى وفى زيادة عدد القنوات . ولكن طبقا لسوابق اليابان التاريخية عندما تتخذ قرارها النهائى فانها ستتحرك بسرعة مذهلة .

لننا نشهد اذن ظاهرتين متناقضتين ظاهريا ، فعلى المستوى المالى هناك ادماج وتعاضد أما على مستوى ما يشاهده الجمهور فعليا فيوجد تنوع متزايد يغذيه التكاثر المذهل للقنوات ووسائل الاعلام الجديدة .

« التسويق العالمى » :

ان وجود تصور عالمى للسوق قاد بعض الشركات بما فى ذلك شركات وسائل الاعلام الى استنتاج خطى بسيط مؤداه أن اللحظة قد حانت « لجعل نشاطها عالميا » ، بمعنى انها ستحاول أن تفعل على الصعيد العالمى ما كنت تقوم به سابقا وبنجاح على الصعيد الوطنى .

وقد اتضح أن هذه الاستراتيجية الخطية خاسرة .

فالانتاج المتطور للثروة يفترض بالطبع تدويل جزء كبير من عملية الانتاج مع تطور متواز لوسائل التوزيع على صعيد الكرة الأرضية . لذلك عندما بدأت بعض الشركات فى عقد تحالفات ، بل وعمليات اندماج، عبر الحدود الوطنية فى مجالى الانتاج والتوزيع ، سارت وكالات الاعلان فى نفس الدرب . فعلى سبيل المثال استفادت مؤسسة (WPP) البريطانية للاعلان من انخفاض سعر الدولار وقامت بضم عملاقين أمريكيين فى مجالهما هما (ج . وولتر تومبسون) و (أوجيلفى آند ماثر) . كما التهمت شركة ساتشى آند ساتشى ، فى سعيها لكى تصبح أكبر وكالة اعلان فى العالم ، كلا من شركة كومبتون للاعلان ودانسر فيتز جيرالد سامبل ضمن شركات أخرى .

وكان من المفترض نظريا أن تتمكن هذه الوكالات عبر الوطنية أن تعرض اعلاناتها الموحدة النمط الصادرة عن شركات عبر وطنية بأقل جهد ممكن من خلال وسائل اعلام عبر وطنية أيضا · اذ يكفى أن تتم ترجمة نفس النصوص الى عدة لغات وسرعان ما تتدفق عمـولات أكبر على وكالات الاعـلان ·

وتعتمد استراتيجية « التسويق العالمى » على قاعدة نظرية قدمها أحد كبار خبراء التسويق هو ثيودور ليفيت من جامعة هارفارد ، الذى بشر بأن « احتياجات ورغبات العالم قد تجانست بشكل نهائى » واحتفل بقدوم منتجات وماركات « عالمية » ، ومعنى ذلك أنه اذا لاقى منتج معين تسانده دعاية معينة رواجا تجاريا فى بلد ما فانه سيلاقى نفس الرواج فى البلدان الأخرى · فالتوحيد القياسى المميز للصناعة والذى طبق فى الماضى على الصعيد الوطنى سيتم تطبيقه من الآن فصاعداً على المستوى العالمى أيضا ·

ولكن الخلل فى هذه النظرية يكمن فى أنها لا تميز كثيراً بين أسواق العالم ومناطقه المختلفة · فبعض البلدان لازالت فى مرحلة سابقة عـلى سوق الجملة فى حين وصلت بلدان أخرى الى هذه المرحلة ، بينما تمر بلدان ثالثة بتجربة تفكك جماعية الانتاج والاستهلاك الذى يميـز الاقتصاد المتقدم · وفى هذا النوع من البلدان يطالب المستهلكون بمنتجات ذات طابع فردى وشخصى ويرفضون تماما بعض السلع والخدمات المتجانسة· وفى هذه الحالة لا يمكن اذن توقع نجاح نفس أساليب التسويق والدعاية فى جميع هذه المناطق ·

ان نظرية ليفيت تقلل وبشكل خطير من أهمية التأثير الاقتصادى للأذواق والمفاهيم الثقافية فى وقت تزداد فيه أهمية الثقـافة بدلا من أن تقل · والدراسة التى أجراها بنك هيل صامويل التجارى فى عام ١٩٨٨ لصالح اتحاد الصناعات البريطانية تدفع الى الاعتقاد بأنه لا يمكن اعتبار أوروبا الموحدة متجانسة · ويشير هذا التقرير الى أن ربات البيـوت الفرنسيات تفضلن الغسالات التى تعبأ من أعلى فى حين تميل البريطانيات أكثر الى تلك التى تعبأ من الأمام · ويعتبر الألمان أن حالات انخفاض الضغط تحتاج الى علاج قوى بينما لا يقاسمهم الأطباء البريطانيون هذا الرأى ، كمـا يثير اضـطراب « قلبى ــ هضمى » يعـرف باسـم « الاسبازموفيليا » قلق الفرنسيين فى حين لا يعترف الأطباء البريطانيون حتى بوجوده · وهل ستكون المواقف حيال الغذاء أو الجمال أو الحب أو العمل أو التسلية أو السياسة أقل تباينا وتنوعا ؟ ·

من الناحية العملية ، سببت هذه النظرية البسيطة لحد السذاجة ـ نظرية « التسويق العالمى » ـ كوارث للشركات التى طبقتها • ولقد وصف مقال نشر فى الصفحة الأولى من صحيفة « وول ستريت جورنال » هذه النظرية بأنها فشل مكلف • وذكرت الصحيفة بالتفصيل العذاب الذى عانت منه شركة باركر بن عندما حاولت تطبيق هذه النظرية (عجز كبير وفصل المسئولين عن الكارثة وفى نهاية المطاف بيع قسم انتاج أقلام الحبر) • كما انتهت محاولة دفع الاستراليات ، ذوات البشرة الفاتحة ، الى شراء مستحضرات تجميل ، من انتاج شركة ايرنو لاسزلو، تناسب الايطاليات ذوات البشرة التى لوحتها الشمس بالفشل الذريع ، وهو ما لا يثير أية دهشة • حتى مطاعم ماكدونالد تأخذ فى الاعتبار الاختلافات الوطنية ، فهى تبيع البيرة فى ألمانيا والنبيذ فى فرنسا ، وكانت فى وقت ما تقدم فطيرة لحم الخراف فى أستراليا ، وفى الفيليبين قدمت ماكدونالد مكرونة سباجتى خاصة بها • واذا كان التنوع ضروريا للمنتجات الاستهلاكية فهل يمكن أن يكون أقل ضرورة فى مجال الثقافة أو البرامج السياسية ؟ • وهل حقا وسائل الاعلام العالمية ستجعل الاختلافات بين الشعوب تتلاشىعن طريق المجانسة ؟•

فى الحقيقة ، تتجه الثقافات أيضا ـ فيما عدا بعض الاستثناءات ـ الى فقدان صفة الجماعية شأنها فى ذلك شأن المنتجات ، وتعمل تعددية وسائل الاعلام ذاتها على تسارع هذه العملية • ومن ثم سيضطر المتخصصون فى الترويج و « بيع » المرشحين السياسيين أو الأفكار السياسية الى التعامل مع درجة قصوى من التنوع بدلا من التماثل والانتظام الذى اعتادوا عليه • واذا كانت المنتجات تفشل ـ باستثناء حالات نادرة ـ عندما تحاول الاستيلاء على السوق العالمية ، فلماذا نتوقع أن ينجح السياسيون أو النظريات السياسية ؟•

وبدلا من العمل على تجانس كوكب الأرض كما فعلت وسائل اعلام الموجة الثانية فان النظام العالمى الجديد قد يعزز التنوع فى العالم • ان الدعوة الى العالمية لا تعنى الدعوة الى التجانس • فبدلا من قرية عالمية واحدة ـ كما تنبأ المنظر الاعلامى الكندى الراحل مارشال ماكلوهان ـ من المحتمل أن نرى نمو وانتشار عدد وافر من القرى العالمية المختلفة تماما فيما بينها والتى سترتبط جميعا بالنظام الجديد لوسائل الاعلام ، وان كانت ستعمل جميعا جاهدة على الحفاظ على وتعزيز هويتها الثقافية أو العرقية أو القومية أو السياسية •

البارونـــات الجـــدد :

ان عملية اضفاء الصبغة العــالمية على وسائل الاعلام ، وهى عملية ضرورية للاقتصاد الجديد ، تتحقق فى الواقع بخطى عملاقة ٠

لقد اهتزت بعنف صناعة السينما عندما قامت شركة سونى اليابانية بشراء شركة كولومبيا للانتاج السينمائى والتليفزيونى الأمريكية مقــابل ٥ مليارات دولار ، مستأثرة بذلك بأكبر مكتبة افلام فى هوليوود ، وهى تضم أفلاما ذات نوعية متميزة مثل لورنس العرب وكرايمر ضد كرايمر٠ بالاضافة الى ٢٢٠ دارا للعرض و ٢٣ الف حلقة تليفزيونية ٠ ان شــركة سونى التى تعد الآن لعملية واسعة النطاق لبيع أفلام الفيديو ٨ مم التى تنتجها ، كانت تريد « برامج وأنظمة التشغيل » التى تناسب « معداتهــا وأجهزتها » ٠ غير أن هذه الصفقة ليست سوى واحدة من صفقات عديدة تعمل حاليا على تعديل هياكل صناعة المرئيات ٠

فلقداشترت مجموعة فوجيسانكى للاتصالات حصة فى شركــة فيرجن ميوزيك ، واشترت شركة (TV South) البريطانية شركة (MTM) وهى الشركة التليفزيونية التى اسستها مارى تايلر مور ٠ كمــا تملك مجموعة بيرتلزمان الألمانية ـ وهى واحدة من أهم مجموعات وسائــل الاعلام فى العالم ـ شركات فى أكثر من عشرين دولة ٠ وتضم امبراطوية روبرت مردوخ ، التى تمتد عبر ثلاث قارات ، صحفا ومجلات ودور نشر وانتاج أفلام وشبكة تليفزيون فى الولايات المتحدة ٠

ومن النتائج الثانوية لهذا النشاط المحموم ظهور مجموعة متــالقة من بارونات الاعلام العالمى ، ويحتل الاسترالى مردوخ موقعا طليعيــا بينهـــم ٠

وبالرغم من اتهامه (ظلما احيانا) بانه يفسد ويدنى من قـــدر الصحف التى يشتريها ويعامل النقابات باحتقار وفظاظة وأنـــه منافس لا يرحم ، فانه يتميز أيضا ببعد النظـــر ويـــدرس بانتظـــام احـــدث التكنولوجيات واذا تركنا جانبا الصحف التى يملكها أو يســيطر عليهــا فى استراليا والولايات المتحدة وبريطـــانيا فان مردوخ يبنى بعنــــاية امبراطورية اعلامية متكاملة رأسيا تغطى الكرة الأرضية ٠

فهو يمتلك نصيبا كبيرا فى شركة فوكس للقرن العشرين التى تملك

بدورها حقوق آلاف الساعـات من العـروض السينمائيـة والبرامج التليفزيونية · كما يمتلك شبكة فوكس التليفزيونية ومجلة دليل التليفزيون فى الولايات المتحـدة ·

وكان مردوخ من رواد البث التليفزيونى عبر الأقمـار الصناعية فى أوروبا · وهو يمتلك ٩٠٪ من شـبكة تليفزيونية رياضية جديدة تسمى (Sky Channel) وكذلك قناة للأخبار تبث الأنباء على مدى ٢٤ سـاعة يوميا وتستمد جـزءا من مادتها من الصحف المملوكة له التى تصـدر فى لنـدن · وبالاضافة الى كل ذلك فهـو شريك بالمناصفة مع شركة آمستراد البريطانية لانتاج أطباق اسـتقبال رخيصة الثمن مصممة لاسـتقبال بث الأقمار الصناعية مباشرة فى المنـازل ·

هل سيحقق التكامل الرأسى فى نهاية المطاف « التآزر » المطلوب ؟ يبقى اثبات ذلك · فالصناعات الأخرى ـ كما رأينا ـ تبتعد عن التـكامل الرأسى · غير أن مردوخ سواء كسب أو خسر فانه بعث طاقة جديدة فى كل مؤسسات النشر والراديو والتليفزيون ·

وفى بريطانيا هناك نظير لمردوخ يدعى روبرت ماكسويل ، هـذا البولدوزر المتعجرف ـ الذى يلقب أحيانا من وراء ظهره بـ « التشيكى الوثاب » أو « الاعصار الأسود » أو « كابتن بوب » · وقد خدم ماكسويل ـ المولود فى تشيكسلوفاكيا ـ كضابط فى الجيش البريطانى أثناء الحرب العالمية الثانية قبل أن يتم انتخابه فى مجلس العموم · وكان قد بـدأ مشواره فى عالم الاعلام بنشر سلسلة صغيرة من الدوريات الجامعية المحدودة الانتشار ·

وانطلاقا من هذه القاعدة الصغيرة من المطبوعات العلمية شيـد امبراطورية تتألف من أجـزاء من العـديد من محطات التليفزيون القائمة، بمـا فى ذلك (TFI) فى فرنسا والقناة العاشرة فى أسبانيا و (Central Television) فى بريطانيا وقناة خاصة بالأفلام السينمائية وقناة أخرى تليفزيونية · وتضم ممتلكاته العـديد من المجـلات والصحف ودار نشر ماكميلان فى الولايات المتحدة ·

ثم هناك راينهارد موهن ، النقيض الحى لكل من ماكسـويل وتيرنر، فهو رجل متواضع ذو عقلية فلسفية وأفكار أعدت بعناية عن الادارة ومشاركة العاملين والمسئوليات الاجتماعية للملكية ·

كان موهن أسير حرب ألمانيا فى كونكورديا بولاية كنساس الأمريكية أثناء الحرب العالمية الثانية . ولقد تأثر ، خلال فترة أسره بالديمقراطية الأمريكية وكذلك بنادى كتاب الشهر . وعندما عاد الى مدينة جوترسلوه الصغيرة فى ألمانيا تولى ادارة دار النشر الخاصة بأسرته والمتخصصة فى نشر الكتاب المقدس . وعكف على بناء مجموعة بيرتلزمان ، حتى أصبحت مولداً للطاقة بالنسبة لجميع وسائل الاعلام . وتملك بيرتلزمان أندية كتب وتسجيلات اسطوانات وأشرطة فى كل من ألمانيا وفرنسا وأسبانيا والبرازيل والولايات المتحدة وفى ١٨ بلداً آخر . كما أنها تملك مجموعة (بانتام دبلداى ديل) للنشر ودار نشر (بلاتسا ياخانز) فى أسبانيا فضلا عن ٣٧ دورية فى خمس دول وماركات أسطوانات مثل (RCA/ARIOLA) وعددا كبيرا من الأنصبة فى الراديو والتليفزيون .

أما الايطالى سيلفيو بيرلوسكونى فان حصة محطات التليفزيون التابعة له تمثل ٦٠٪ من اجمالى ميزانيات الدعاية فى ايطاليا . كما امتدت أعماله الى فرنسا حيث يشارك فى ملكية القناة الخامسة والى ألمانيا حيث يمتلك نصيبا كبيرا فى قناة (Tele-S) والى موسكو التى اختارته ليكون متعهدها الوحيد للدعاية والاعلانات الأوروبية الموجهة الى الاتحاد السوفييتى . ويحاول بيرلوسكونى كسب ود كل من يوجوسلافيا وأسبانيا وتونس .

كيف يتشكل الرأى العام العالمى :

عندما تؤثر عمليات انتقال السلطة المالية على وسائل الاعلام فانها تثير مناقشات محمومة . أما الآن فان حجم الامبراطوريات الاعلامية وحده هو مصدر القلق . وتشعر الشبكات العتيدة ووسائل الاعلام الراسخة بالتهديد . كما أن تركز السيطرة المالية بين أيدى أباطرة مثل مردوخ وبيرلوسكونى يعيد الى الأذهان شبح كبار أقطاب الصحافة فى الزمن الماضى ، أمثال وليام راندولف هيرست فى الولايات المتحدة أو لورد نورثكليف فى بريطانيا ، وما كان لهم من نفوذ سياسى ضخم لم يكن محل استحسان الجميع بأية حال من الأحوال .

أول الانتقادات وأكثرها شيوعا اليوم هو ذلك الذى يقول بأن وسائل الاعلام العالمية الجديدة ستساهم فى جعل العالم متجانسا . غير أن اخفاق نظرية « التسويق العالمى » يوضح أن هذه المخاوف مبالغ فيها .

لقد أحدثت وسائل الاعلام الجماهيرى أقوى وأوضح آثارها

التجانسية عندما كان لا يوجد سوى بضع قنوات وعدد قليل من وسائل الاعلام المختلفة وبالتالى كان هامش الاختيار محدودا للغاية بالنسبة للمشاهدين ٠ أما فى المستقبل فان نقيض ذلك هو الذى سيسود ٠ قد يكون مضمون كل برنامج على حدة جيدا أو رديئا الا أن « المضمون » الجديد والأهم هو وجود التنوع ذاته٠ ان الانتقال من بيئة اعلامية محدودة الاختيار الى بيئة غنية جدا بالاختيارات ، لا يحمل تأثيرات ثقافية فحسب بل وسياسية أيضا ٠

وستواجه حكومات الدول ذات التكنولوجيا المتقدمة ، مستقبلا تتعرض فيه شعوبها الى وابل متصل من الرسائل المتعددة والمتعارضة التى تم تفصيلها وفقا للاستخدامات التجارية ووفقا للتقاليد الثقافية والسياسية أيضا ٠ وذلك بدلا من رسالة واحدة ترددها بالاجماع بضع وسائل اعلام عملاقة ٠ ان سياسة « التعبئة الجماهيرية » القديمة و« صنع الاجماع » تصبحان الآن أصعب بكثير فى هذا السياق الاعلامى الجديد٠

ان اتساع مجال الاختيار أمام المشاهدين والمستمعين ـ فى حد ذاته ـ هو أمر ديمقراطى بالطبع ٠ ولذلك فهو يعقد حياة رجال السياسة الذين يقدمون الى مواطنيهم نظرة شاملة دون امكانية اختيار ٠

وتستهدف مجموعة أخرى من الانتقادات بارونات الاعلام الجديد وبشكل خاص خياراتهم السياسية ٠ فمردوخ متهم بأنة محافظ متشدد أما ماكسويل فهو قريب أكثر من اللازم من حزب العمال البريطانى ٠ وتيرنر لا يمكن تحديد موقفه كما لا يمكن توقع ما سيفعله ٠ واذا كانت كل هذه الاتهامات حقيقية فلن يلبث أن يلغى بعضها بعضا ٠

غير أن الأهم من اختياراتهم الشخصية هى المصالح التى يدافعون عنها معا ٠ فكلهم بطبيعة الحال رأسماليون يعملون فى ظل نظم رأسمالية ومن ثم يمكننا أن نفترض أن لون الميزانية يهمهم بشكل عام اكثر بكثير من لون الأحزاب ٠

ان الدعم الذى يقدمه بارونات الاعلام ـ بعملهم اكثر منه بأقوالهم ـ لأيديولوجية « العالمية » أهم بكثير من كونهم يميلون يمينا و يسارا ٠ ان هذه الأيديولوجية العالمية ـ أو على الأقل فوق الوطنية ـ هى التعبير الطبيعى للاقتصاد الجديد المقدر له أن يتجاوز الحدود الوطنية ، ومن مصلحة أقطاب الاعلام الجدد نشر هذه النظرية ٠

غير أن هذه المصلحة الشخصية تصطدم بمصلحة أخرى : فالنجاح المالى لصحفهم ومجلاتهم ومحطات الراديو والتليفزيون التابعة

لهم مرهون بقدرتهم على التوجه الى جمهور غير جماعى · أى انهم سيضطرون الى البحث عن أسواق صغيرة ذات مواصفات محددة والى بث برامج متخصصة لها والاستناد الى مصالح محلية تماماً · ان الشعار المألوف القائل « فكروا عالميا وتصرفوا محليا » يحدد بدقة المحتمات الجديدة لوسائل الاعلام ·

الا ان وجود وسائل اتصال قوية وقادرة على اجتياز المحيطات سيؤدى فى حد ذاته الى تحول فى السلطة من القادة السياسيين الوطنيين الى المجتمع العالمى الجديد · ومن ثم فان بارونات الاعلام الجدد يعملون الآن ــ دون أن يقصدوا ذلك بالضرورة ــ على تغيير دور « الرأى العام العالمى » تغييرا جوهريا ·

وكما حدث فى القرن الماضى عندما كان القادة الوطنيون مضطرين الى تبرير أعمالهم أمام محكمة « الرأى العام » فى بلادهم ، فان قادة الغد سيجدون أنفسهم فى مواجهة « رأى عام عالمى » مدعم الى حد كبير · ومثلما أتاح العمل الذى قام به بنيامين داى أو هنرى هذرينجتون أو أميل دى جيراردا للطبقات الكادحة أن تشارك فى الحياة السياسية للأمم ، ستجعل أنشطة بارونات الاعلام الحاليين ملايين جددا من البشر يشاركون فى عملية صنع القرار الدولى ·

ان الدول تتحدى حاليا الرأى العام العالمى دون أن تهتم كثيراً بعواقب ذلك · فالرأى العام العالمى لم يتمكن من انقاذ ضحايا أوشويتز أو الشعب الكمبودى أو الأسيويين الفارين ، من الجوع والقهر ، على متن القوارب قبل سنوات قليلة · كما لم يمنع الرأى العام العالمى قادة الصين من اقتراف مذبحة الطلاب المحتجين فى بكين ·

غير أن الرأى العام العالمى تمكن أحيانا من أن يقيد أيدى الأنظمة الباطشة · فتاريخ حقوق الانسان يزخر بحالات أدت فيها الاحتجاجات العالمية الى وقف تعذيب أو اعدام مسجون سياسى فى بلد ما · فمثلا لم يكن من المرجح أن ينجو أناتولى شارانسكى من تجربته فى معسكرات الاعتقال السوفيتية لو لم يقم العالم الخارجى بالضغط على موسكو لاطلاق سراحه · كما تحسنت فرص نجاة أندريه سخاروف عندما حصل على جائزة نوبل للسلام وأصبح اسمه على كل لسان ، عقب الاهتمام المستمر الذى أولته له وسائل الاعلام فى العالم كله ·

ليس معنى ذلك أن النظام الجديد سيدفع الدول الى أن تتصرف كأفراد الكشافة ولكنه سيجعل تحدى الرأى العام العالمى أكثر تكلفة · ففى العالم

الذى يشيده بارونات الاعلام سيكون لما يقوله الخارج عن بلد معين وزن داخل حدود هذا البلد أكثر من أية فترة سابقة ٠

وبالطبع ، ستخترع الحكومات أكاذيب أكثر مهارة وتعقيداً لتبرير القرارات التى تخدمها وللتلاعب بوسائل الاعلام التى أصبحت شـاملة وعامة بشكل مطرد ٠ كما ستزيد من جهود الدعاية الرامية الى تحسين صورتها فى الخارج ٠ لكن اذا أخفقت تلك الجهود قد تعانى هذه الحكومات من عقوبات اقتصادية خطيرة من جراء تصرفاتها التى لا يقـــرها باقى العـــالم ٠

تستطيع جنوب افريقيا أن تدعى أن العقوبات لم تضر باقتصـــادها أو أن صورتها كدولة منبوذة عن بقية العالم لم تسبب لها أى أذى ، الا أن قاداتها يعلمون تمام العــلم أن ذلك ليس صحيحا ٠ فالرأى العام العالمى يمهد الطريق للفعل العالمى ٠

وحتى لو لم يفرض العالم الساخط والمحتج عقوبات رسمية عــلى نظام منحرف وشرير فان المنظمات الدولية مثل البنك الدولى قد ترفض طلبات اقراض هذا النظام والتى تبلغ عدة مليارات من الدولارات ٠ وقد تحجم البنوك الخاصة عن مساعدة مثل هذه الأنظمة ويتوجه المستثمرون الأجانب والسياح الى بلدان أخرى ٠ والأسوأ من كل ذلك هو أن الشركات والدول التى توافق على التعامل مع أحد هذه البلدان المدانـــة دوليا ستكون فى وضع يسمح لها بفرض شروط أكثر تشددا ممـــا لو كانت فى ظروف أخرى ٠ ان ميزان القوى فى المفاوضات سيكـــون ، من الآن فصاعدا ، وقفا على الصورة العالمية لكل طرف ٠

وبالاضافة الى ذلك ، فان الأهمية المتزايدة للرأى العام العـــالمى بالتوازى مع انتشار وسائل الاعلام « الشاملة » ستجعـــل المتبارين ، الأكثر ذكاء ومهارة ، فى معترك السلطة يحاولون استخدام الرأى العام العالمى كسلاح غير تقليدى ٠ ولن يقتصر هذا الاستخدام على انقاذ بعض السجناء السياسيين أو على توصيل امدادات اغاثة عاجلة الى المناطق المنكوبة ، وانما سيمتد ليشمل الحيلولة دون وقوع بعض الكوارث البيئية التى قد تصيب كوكبنا ٠

فعندما هاجم الأزريون فى باكو الأرمن سرعان مــا علم بذلـك المواطنون الأرمن فى لوس انجلوس وقاموا بتعبئـة القـــوى الســياسية ٠ وعندما تم اغتيال رهبان جيزويت فى السلفادور على يد فرقة من فــرق

الموت علم بذلك العالم كله · وحين تعرض نقابى فى جنوب أفريقيــــا للسجن انتشر النبأ فى أنحاء الأرض · ان وسائل الاعلام العالمية الجديدة وان كانت تعمل أساسا بهدف الربح فانها ترفع لا اراديا مستوى العمل السياسى العابر للحدود الوطنية بفعـل اعداد متزايدة من الجمعيـــات والروابط المناضـلة ·

ان مردوخ وماكســـويل وتيرنر وموهن وبيرلوسكونى وغيرهم من بارونات الاعلام الجدد يخلقون الآن ــ عن غير قصد ــ أداة رائعة وقوية ويضعونها فى يد المجتمع الدولى ·

ولكن ذلك يكاد لا يمثل شيئا بالمقارنة بما يجرى الآن بالفعل تحت عيوننا · فكما سنرى فى الفصل التالى أصبح النظام الاعلامى العــالى الجديد بالفعل الأداة الرئيسية للثورة الجارية فى عـــالم اليوم الذى أصبح مرتعا للانقلابات والتحولات السريعة ·

الفصل السابع والعشرون

وسائل الاعلام المحرضة على الثورة

فى يوم ٣٠ يونيو ١٩٨٨ تلقى مأمور شرطة مدينة فيكتور فيل القريبة من لوس انجلوس شكوى تفيد بأن خمسة مكسيكيين يعزفون موسيقى صاخبة ويتجرعون الجعة بكميات كبيرة ويتبولون على النجيل . واستمرت هذه الجلبة لمدة ١٢ ساعة . وعندما وصل ستة من رجال الشرطة الى المكان وحاولوا تهدئة هؤلاء الممسوسين بدأت تنهال اللكمات وضربات المطرقة . لم يكن فى كل ذلك أى شىء غير عادى بالنسبة لرجال الشرطة ، فيما عدا احدى التفاصيل .

ففى غفلة منهم ، وبينما هم منهمكون فى قمع هؤلاء الخمسة المخلين بالنظام مستخدمين مطارقهم وحركات الجودو ، وجه احد الجيران آلة تصوير فيديو فى اتجاههم وقام بتصوير المشهد .

واشتعل الرأى العام لنبأ استخدام الشرطة للعنف فور عرض الفيلم ، الذى لا تتعدى مدته أربع دقائق ، أمام الطائفة « اللاتينية » فى المدينة . وأعقب ذلك احتجاجات باسم الحقوق المدنية ثم تم رفع دعوى قضائية ضد رجال الشرطة بتهمة الافراط فى استخدام العنف . وأعلن أرماندو نافارو مدير معهد العدالة الاجتماعية ـ وهو منظمة محلية للحقوق المدنية ـ « اننى اناضل منذ واحد وعشرين عاما فى مجال النشاط الاجتماعى لكننى لم أر قط شيئا مماثلا يجسد العنف بألوانه الحقيقية » .

ومن جانبهم ، أكد المدافعون عن رجال الشرطة أن الفيلم لا يقول الحقيقة لأنه لا يبين ما حدث قبل ان تبدأ آلة التصوير عملها ، أى عندما كان العنف يمارس ضد رجال الشرطة ـ على حد قولهم .

واتخذت القضية أبعاداً أكبر عندما اختفى الشخص الذى صور

الفيلم وعندما بدأ رجل من قنصلية المكسيك فى لوس أنجلوس يظهر فى قاعة المحكمة لمتابعة المرافعات معربا عن قلقه ازاء التمييز العنصرى ضد المكسيكيين المنتشر فى لوس أنجلوس · وأخيراً أصدرت محكمة فيدرالية حكمها لصالح المكسيكيين وقررت لهم تعويضا قدره مليون دولار ·

من غير المحتمل أن يكون الثوار الذين أسقطوا الحكومة الشيوعية فى تشيكوسلوفاكيا فى عام ١٩٨٩ قد سمعوا عن قضية « خماسى فيكتور فيل » · ولكن فى نواصى شوارع براغ وضع الطلاب أجهزة تليفزيون ليعرضوا أشرطة فيديو تبين عنف وقسوة السلطات فى محاولتها قمع المظاهرات المناهضة للحكومة · كما كان الطلاب يعرضون أيضا تسجيلات لخطب كاتب المسرح فاسلاف هافيل الذى انتقل بعد ذلك من السجن فى قضية رأى الى رئاسة الجمهورية · وفى تايوان أيضا استخدمت المعارضة السياسية هذه الوسائل الاعلامية لكشف ــ ما أطلقت عليه ــ « أعمال العنف القمعية » ·

ففى كل أنحاء العالم يتم استخدام وسائل الاتصال الجديدة ــ أو يجرى استغلال الوسائل القديمة بأساليب جديدة ــ من أجل تحدى سلطة الدولة أو أحيانا الاطاحة بها · ويقول ليخ فاليسا ، مؤسس نقابة تضامن ، واصفا الاضطرابات السياسية التى وقعت فى أوروبا الشرقية : « ان هذه الاصلاحات هى نتاج التمدن ــ فأجهزة الكمبيوتر والأقمار الصناعية للبث التليفزيونى [وغيرها من الابتكارات] تقدم حلولا جديدة » ·

الرجل الصغير البغيض على شاشة التليفزيون :

من الواضح أن موجة الثورات التى تفجرت فى أوروبا الشرقية خلال عام ١٩٨٩ كانت محصلة لثلاثة عوامل متضافرة : فشل الاشتراكية على المدى الطويل ، لعجزها عن توفير الثراء الاقتصادى الذى وعدت به، واعلان الاتحاد السوفيتى أنه لن يساعد الحكومات الشيوعية بالتهديد بالتدخل العسكرى وأخيراً وابل الأنباء التى تدفقت على الدول الشيوعية عبر وسائل الاتصال الجديدة بالرغم من كل جهود الرقابة ·

وعلى امتداد ربع قرن من حكم نيكولاى شاوشيسكو الديكتاتورى فرضت رقابة تفوق فى صرامتها تلك المفروضة فى كل النظم الشيوعية فى أوروبا الشرقية ، حيث كان يتم مراقبة كل ما ينشر فى الصحافة وبشكل خاص كل ما يظهر على شاشة التليفزيون · وكان شاوشيسكو

نفسه مولعا بالتليفزيون خاصة حلقات « كوجاك » البوليسية الأمريكية التى كان بطلها تيلى سافالاس · ولكن بالرغم من الساعات التى كان يقضيها أمام الشاشة الصغيرة لم يدرك شيئا من الثورة الاعلامية ودفع حياته ثمنا لذلك فى ليلة عيد الميلاد من عام ١٩٨٩ ·

ولو أنه درس الدور الذى قام به النظام الاعلامى العالمى الجديد فى اسقاط فرديناند ماركوس فى الفيليبين مثلا لعرف أن فرض الرقابة على وسائل الاعلام لا يكفى لابقاء شعب ما فى الجهل وأن الأحداث السياسية الداخلية تدار بشكل متزايد على مسرح عالمى ·

ويوضح البروفسير وليام آدمن وهو احد خبراء الاعلام فى جامعة جورج واشنطن « أن ما حدث فى الفيليبين كان خطوة ملحمية نحو نوع جديد من الثورة ـ الثورة بواسطة وسائل الاعلام وبواسطة الرموز » ·

نظرا للروابط التاريخية الوثيقة بين الفيليبين والولايات المتحدة ولوجود قواعد عسكرية أمريكية هناك التمس كل من ماركوس والمعارضة السياسية الرئيسية له دعم واشنطن · وسعى المعسكران للحصول على مساندة الصحفيين الأجانب لكى يقدم كل طرف روايته للأحداث ·

ومع تزايد المعارضة وافق ماركوس على مضض على اجراء انتخابات فى عام ١٩٨٦ · وتم تغطية الحملة الانتخابية بواسطة محطات التليفزيون الأمريكية التى جذبها سحر كورازون اكينو ، أرملة بطل تم اغتياله تواجه ديكتاتورا عجوزا فاسدا ·

فى البداية ساند الرئيس ريجان ماركوس · ولكن عندما واصلت شبكات التليفزيون الأمريكية تغطية الأحداث ، تمكن الأمريكيون من مشاهدة المتظاهرين المسالمين الظرفاء والمنتمين للطبقات المتوسطة وهم يتعرضون لشراسة زبانية ماركوس المأجورين · وبدأ موقف ريجان فى التحول · كتب الناقد التليفزيونى لصحيفة « واشنطن بوست » يقول : « لم يكن من المستحسن أن يكون المرء حليفا لهذا الرجل الصغير البغيض الذى يظهر على شاشة التليفزيون » ·

وأرسل ريجان وفدا رسميا الى مانيلا لمراقبة شرعية الانتخابات وسجل الوفد الذى كان برئاسة السناتور ريتشارد لوجار عددا كبيرا من حالات الفساد والغش وكشفها لمشاهدى التليفزيون حتى قبل عرضها رسميا على الرئيس · وزاد تقرير الوفد من حرج موقف ماركوس وحملته

الانتخابية . وكان ما يشاهده الأمريكيون على شاشات التليفزيون يرتد على الفور الى الفيليبين .

وأثرت هذه التغطية أيضا على البيت الأبيض الذى انتهى به الأمر الى مساندة جماعة عسكرية معارضة لماركوس ، وأرغم تحالف القوة مع المعلومات الديكتاتور على التخلى عن الحكم ، وفى مواجهة المحتوم هرب ماركوس وحصل على حق اللجـوء الى هاواى .

غير أن أحد المحللين السياسيين قال فما بعد : « لو كان ماركـوس من كبار طغاة القرن العشرين لطرد وسائل الاعلام من بلاده واسـتخدم المدافع الرشـــاشة » .

ولكن قد يكون العكس صحيحا أيضا ، ففى حالة شاوشيسكـو ، لو كان قد سمح بدخـول وسائل الاعلام وتفادى استخدام المدافع الرشاشة لكان من المحتمل أن ينجو من هـذه النهاية المأساوية . لقـد تمت الاطاحة بالأنظمة الشيوعية فى بلدان شرق أوروبا الأخرى أساسا بطرق سلمية خلال شتاء ١٩٨٩ المثير . فلم تستخدم المدافع الرشاشة الا فى رومانيا فقط .

فقد كان آخر أعمال الديكتاتور هو اصدار الأمر بمذبحة تيمشوارا . وعندما انتشرت الجماهير بعد ذلك فى شوارع بوخارست اندلعت المعارك بين العسكريين وعملاء البوليس السياسى التـابع لشاوشيسكو المعـروف باسم السيكورتيات . واستمر القتال عدة أيام وواصل البوليس السياسى المقاومة حتى بعد موت الديكتاتور وزوجته اللذين تمت محاكمتهما محاكمة سريعة بواسطة مجلس عسكرى وتم اعدامهما رميا بالرصاص .

فى تلك اللحظة كان استوديو ٤ لـ « تليفزيون رومانيا الحـرة » هو مركز الثورة . وبينما كان بعض قوات الكوماندوز وبعض القنـــاصة الفرادى يحاولون استعادة المبنى كان قادة الثورة المسيطـــرون على موجات الأثير يعرضون المرة تلو الأخرى صور جثتى الديكتاتور وزوجته . ولم تتوقف اراقة الدماء الا بعد عرض هذه الصور .

وبعد ذلك بقليل كتبت صحيفة « نيويورك تايمز » تقول انه تم استبدال ديكتاتورية شاوشيسكو بـ « فيديوقراطية » .

أما صحيفة الـ « فاينانشيال تايمز » فكانت تهـلل معبـــرة عن فرحتها لسقوط النظم الشيوعية فى أوروبا الشرقية قائلة : « لقد اتضح أن

وسائل الاعلام ليست أدوات استعباد كما كان جورج أورويل يعتبرهـا وانما هى أدوات تحرير ، فحتى شاوشيسكو لم يتمكن من وضع عصابة على عيون شعبه » ·

غير أن الانبهار بالتليفزيون جعل عددا من المراقبين يتجـاهلون القضية الأشمل · ففى الواقع ليس التليفزيون وحده الذى يتصف بالثورية وانما « التفاعل » المشترك بين العديد من التكنولوجيات المختلفة ·

فملايين أجهزة الكمبيوتر وأجهزة الفاكس وآلات النسخ وأشرطة الفيديو والهاتف المتطورة الى جانب تقنيات الكابل والأقمـار الصناعية تتفاعل كلها فيما بينها ، ولا يمكن فهمها اذا اخذنا كلا منها على جدة · ان التليفزيون ليس سوى عنصر من عناصر هذا النظـام الأكثر اتسـاعا ورحابة والمرتبط فى العديد من النقاط بالشبكـات الالكترونيـة الذكيـة المستخدمة فى مجال الأعمال والمال لتبادل بيانات مخزنة فى أجهـزة الكمبيوتر ·

هذا النظام الاعلامى الجديد ، الذى يمكن وصفه بأنه محيط ، هو فى الوقت نفسه أساس الاقتصاد الجديد القائم على المعرفة ورد فعـل لسلطانه وتأثيره · فهو يمثل قفزة نوعية ضخمة فى طريقة استخدام البشر للرموز والصور · ولا يوجد جزء من هذا النسـيج الضخم منفصلا تماما عن الكل ، وهو ما يجعله فى المقابل أداة محتملة لبث العصـيان والثورة ، ليس فقط بالنسبة لأمثال شاوشيسكـو ، الذين لا يزالون منتشرين فى العالم ، لكن أيضا بالنسبة لـكل من بيـده السـلطة · ان النظـام الاعلامي الجـديد يقوم بدور المعجل ، فهـو يسرع عمليـات تحول السـلطة ·

ثلاث طرق للاتصال :

افضل طريقة لفهم سطوة الثورة الاعلامية الحالية هى وضعهـا فى منظور تاريخى والتمييز بوضوح بين ثلاث طرق اتصال مختلفة ·

يمكننا القول ــ مع التبسيط الشديد ــ ان غالبية الاتصالات فى ظل اقتصاد الموجة الأولى ، أى اقتصادات المجتمعات الزراعية ، كانت تنتقل من الفم الى الأذن أو خلال حديث ثنائى داخل مجموعات صغيرة · وفى عالم بدون صحف أو اذاعة أو تليفزيون كانت الوسيلة الوحيـدة لتبليغ

رسالة الى جمهور كبير هى تجميع حشد من الناس فى مكان واحد ٠ ويمكن القول ان ذلك كان فى الواقع أول شكل من أشكال الاتصال الجماهيرى ٠

يستطيع الحشد أن « يرفع رسالة ما » الى رئيسه أو زعيمه ، بل ان حجم الحشد فى حد ذاته رسالة ٠ ولكن أيا كان مضمون الرسالة فان الحشد ينقل أيضا رسالة موحدة لكل المشاركين فيه ٠ هذه الرسالة التى قد تكون محرضة فعلا على العصيان تقول ببساطة : « أيها المشارك انك لست وحدك » ٠ اذن لقد لعب الحشد دورا جوهريا فى التاريخ ، غير أن مشكلته كوسيلة اتصال هى طابعه المؤقت بشكل عام ٠

لم يكن الحشد وسيلة الاعلام الجماهيرية الوحيدة فى فترة ما قبل التكنولوجيا ٠ ففى الغرب ، أثناء القرون الوسطى ، كانت الكنيسة الكاثوليكية بفضل تنظيمها المتفرع أشبه ما تكون بنظام اتصال جماهيرى مستمر ٠ وهو النظام الوحيد القادر على نقل نفس الرسالة الى العديد من التجمعات السكانية « عبر الحدود السياسية » ٠ ولقد منحت هذه القدرة الفريدة قوة هائلة للفاتيكان فى مواجهة الملوك والأمراء الأوروبيين المتحاربين دوما ٠ ويفسر ذلك - ولو جزئيا - الصراعات بين الكنيسة والدولة التى أغرقت أحداثها القارة الأوروبية فى بحور من الدماء لعدة قرون ٠

فى ظل اقتصاد الموجة الثانية كان هناك احتياج لمزيد من الاتصال عن بعد ، ومن ثم أوجد نظام خلق الثروة القائم على الانتاج الصناعى بالجملة ، البريد والتلغراف والهاتف ٠ غير أن المصانع الجديدة كانت تحتاج أيضا الى أيد عاملة متجانسة ، لذلك تم اختراع وسائل الاعلام الجماهيرية التى تعتمد على التقنية ٠ وأصبحت الصحف والمجلات والأفلام والاذاعة والتليفزيون ، التى فى مقدور كل منها أن تنقل بشكل متزامن نفس الرسالة الى ملايين الأشخاص ، هى الأدوات الرئيسية لجماعية وسائل الاعلام فى المجتمعات الصناعية ٠

وعلى النقيض من ذلك ، يجسد نظام الموجة الثالثة الجديد احتياجات اقتصاد ما بعد الانتاج بالجملة الناشىء ٠ وكما تفعل المصانع الحديثة ذات « الانتاج المرن » فان النظام الاعلامى الجديد ينتج حسب الطلب ، منوعا صور منتجاته ومرسلا عروضا وأفكارا ورموزا مختلفة لشرائح سكانية معينة ولأسواق بعينها ولفئات سنية ومهنية ولمجموعات عرقية أو اجتماعية مستهدفة بدقة ٠

هذا التنوع الجديد والمتطور للغاية للرسائل ولوسائل الاعلام أمر ضرورى ، لأن النظام الجديد لخلق الثروة يتطلب أيدى عاملة وجماهير أكثر تباينا · ان عملية تفكك جماعية وسائل الاعلام التى تنبأ بها كتاب « صدمة المستقبل » وتم تطويرها فى كتاب « الموجة الثالثة » أصبحت سمة حاسمة للنظام الاعلامى الجديد · غير أن ذلك لا يمثل سوى احدى سماته ·

التحام وسائل الاعلام :

على نقيض وسائل اعلام الموجة الثانية ، التى كان كل منها يعمل مستقلا بدرجة أو بأخرى عن بقية الوسائل ، تتسم وسائل الاعلام الجديدة بترابطها الوثيق وبالالتحام فيما بينها اذ تتبادل البيانات والصور والرموز · والأمثلة على هذا الالتحام كثيرة ·

كان برنامج اذاعى يعتمد على الاتصال الهاتفى المباشر بين المستمعين والمذيع موضوعا لفيلم (Talk Radio) المنتج فى عام ١٩٨٨ ، وتم بث هذا الفيلم عبر التليفزيون الكابلى وقدمت الصحافة نقدا له · ثم من يدرى ؟ قد يقوم ذات يوم مشاركون فى برنامج اذاعى آخر بمناقشته ·

ولنأخذ مثلا فيلم « اذاعة الأخبار » الذى يدور حول مقدمى برامج التليفزيون · فبعد أن عرض فى العديد من قاعات العرض السينمائية تم عرضه على الشاشة الصغيرة وتولت الصحافة الاعلان عنه ·

وفى هذا الصدد كتبت مجلة « نيوزويك » تقول : « من المشاهد المألوفة الآن مشهد مزارع فى ولاية أيوا يجرى معه أحد الصحفيين حوارا بينما يلتقط له المصور صورا ، كما يقوم فريق من التليفزيون بتصويره ، كل ذلك لتحضير موضوع مقال عن وسائل الاعلام فى احدى المجلات » · ويصاحب مقال النيوزويك صورة لهذا المشهد ·

وعلى مستوى أعمق من ذلك ، نجد أن قاعات التحرير فى الصحف تتابع شاشات التليفزيون للاطلاع على آخر الأحداث ، كما يشاهد عدد من المراسلين الأوروبيين فى واشنطن التغطية الحية التى تقدمها شبكة (CNN) ثم يكتبون تحقيقاتهم الصحفية على أساس ما قدمه لهم التليفزيون · وبذلك تحول التليفزيون من أداة للاعلام الى مصدر له ·

ومن ناحية أخرى ، يحصل معدو برامج الحوار والمناقشات فى التليفزيون على أفكار موضوعاتهم من الصحف كذلك بالنسبة لاختيار الشخصيات التى يتعين دعوتها · كما يعتمد كل شىء على أجهزة الفاكس والكمبيوتر ومعالجات النصوص والصور الرقمية والشبكات الالكترونية والأقمار الصناعية وغيرها من التقنيات المترابطة ·

ان هذا التداخل الشديد هو الذى يحول وسائل الاعلام المنفصلة الى « نظام » · ويقلل هذا التداخل ، بالتضافر مع التوجه الى العالمية ، من تأثير أى من وسائل الاعلام منفردة ـ قنوات أو مطبوعات أو تكنولوجيات ـ مقارنة بالوسائل الأخرى مجتمعة · غير أن هذا التداخل يزود اجمالى نظام وسائل الاعلام بسلطة متنامية بدرجة هائلة تعم كل الكرة الأرضية · ان الظاهرة الفعالة الآن ليست « الفيديوقراطية » وانما « التحام وسائل الاعلام » ·

أودية الجهل :

من المناسب اضافة تعبير « الانتشار » الى « الالتحام » ، لأنه لم يعد هناك مكان فى العالم معزول تماما عن الباقى · فالرسائل تعبر أكثر الحدود حماية ·

فبالرغم من الرقابة الصارمة التى فرضها شاوشيسكو على وسائل الاعلام فى بلاده تمكن العديد من الرومانيين من التقاط برامج التليفزيون البلغارى · وكان البلغار بدورهم يفضلون فى كثير من الاحيان التليفزيون الروسى على تليفزيونهم · فحتى قبل الثورة كان الرومانيون يعرفون أسماء المنشقين عن النظام الذين كان يتهددهم السجن نتيجة لتظاهرهم من أجل حقوق الانسان · هذه الأسماء أصبحت مألوفة بفضل الاذاعات الأجنبية الموجهة لرومانيا ·

كما كان أغلب مواطنى ألمانيا الشرقية يستطيعون استقبال محطات تليفزيون ألمانيا الغربية التى كانت تبلغهم بما كانت حكومتهم تفضل اخفاءه · ففى عام ١٩٨٩ عندما وقعت مظاهرات ضخمة معادية للحكومة فى لايبزج علم بها ألمان الشرق من خلال وسائل الاعلام الألمانية الغربية · كما علموا بعد ذلك وبالطريقة نفسها بفتح الحدود المجرية للاجئين من ألمانيا الشرقية وبأن سور برلين بدأ يتصدع · وكان سكان منطقة درسدن لا يصلهم فى الغالب الارسال الألمانى الغربى ولذلك سميت هذه المنطقة « بوادى الجهل » · غير أن هذا النوع من الأودية فى تناقص مطرد ·

ان « مسامية » الحدود ليست بالأمر الجديد ولا قيام محطـــات الاذاعة الغربية ـ مثل صوت أمريكا وراديو أوروبا الحرة والبى·بى·سى ومحطات أخرى ـ ببث برامج على الموجات القصيرة موجهة الى الدول الشيوعية · فخلال المظاهرات من أجل الديمقراطية فى الصـين ، التى سبقت مذبحة ميدان تيانانمين ، كانت محطة صوت أمريكا تبث ١١ ساعة ونصف الساعة يوميا وكان ارسالها يصل الى جمهور يقدر بحوالى مائة مليون صينى · حتى انها كانت تذيع ارشـادات موجزة لاحباط محاولات السلطات الصينية للتشويش على الارســال ·

غير أن الأمر المختلف الآن هو استراتيجية وسائل الاعلام المحرضة على العصيان التى يلجأ اليها الثوار حاليا ·

الاستراتيجية الاعلامية للثوريين :

ما لم يتمكن شاوشيسكو من كشفه ـ وهو لم يكن الوحيـد فى ذلك ـ هى تلك الأساليب الاستراتيجية التى يمكن من خلالها الجمع احيانا بين اشكال اتصال الموجة الأولى والثانية والثالثة أو جعلها تتعارض فيما بينها ·

ويقدم الدين مثالا حيا لذلك : كانت الكنيسة الكاثوليكية التى تعرضت لاضطهاد طويل من قبل النظم الشيوعية ، التى لم تتمكن رغم ذلك من القضاء عليها ، من أكبر المستفيدين من ثورات عام ١٩٨٩ فى أوروبـا الشرقية · ان الكنيسة ـ كما سبق الاشارة ـ تمثل فى حد ذاتها نظـام اتصال جماهيرى · وذلك منذ زمن بعيد وقبل أن يقوم أشخاص مثل جيم باكرز وجيمى سواجارت وبات روبرتسـون حاليا بتطـويع النفـوذ الهائل للتليفزيون للدعـوة لمذاهبهم ونحلهم الدينية ·

واذا كانت الكنيسة تمارس حاليا سلطة فى العالم فذلك يرجـع جزئيا الى تاثيرها المعنوى والى مواردها الاقتصادية ، فضلا عن حقيقة أنها لا تزال تعمل كوسيلة اتصال جماهيرية · فهى قادرة على الوصـول الى ملايين وملايين البشر صباح كل يوم أحد ، بحيث تجعل جمهور اكثر البرامج شعبية فى العالم يبدو ضئيلا بالمقارنة · أن الكنيسة على اتصال بالطبع بأتباعها خلال أيام الأسبوع الستة الأخرى ، كما أنها فى عالم اليوم تستخدم الصحافة وركائز اعلامية أخرى لتدعيم طريقة اتصالها المباشرة ·

وطالما أن الكنيسة الكاثوليكية ـ أو أية ديانة منظمة أخـــرى ـ تستطيع حشد اعداد ضخمة من التابعين لها ومن ثم الوصـــول الى

جماهير عريضة من المتلقين فستضطر كل الحكومات أن تأخذ ذلك فى الحسبان · لقد حاول بعض الحكومات اقتلاعها (وهو أمر شبه مستحيل) فى حين سعت حكومات أخرى لنشر عقيدة بديلة تعتمد أساسا عـــلى القومية أو الماركسية أو غيرها من المبادىء · كما أن هنـاك فريقا ثالثـا يلجأ الى الفساد ويحاول أن يجعلها شريكة له ·

وفى الدول الشمولية ، يمثل وجـود وسيلة اتصال جماهيرية ـ غير خاضعة لها ولا تنضوى تحت لوائها ـ بين أيدى الكنيسة خطرا مستمرا يهدد هذه الدول · لأن هذه القناة قد توضع تحت تصرف المعارضـــة السياسية · وهو ما يفسر الضراوة التى حاولت بهـا الدول الشـيوعية القضاء على الكنيسة أو شراءها عندما اتضح استحالة القضاء عليها ·

ان الاعتراف بالدين المنظم كوسيلة اعلام جماهيريــــة يسهم فى تفسير عدد من التحولات الأخيرة للسلطة ·

هذا الاعتراف يساعد على توضيح لماذا يتم توجيـه السخط الشعبى، سواء أكان ذا طبيعة اقتصادية أم غيرها ، الى حـركات دينية فى بلدان مختلفة اختلاف ايران فى ظل الشاه وكوريا الجنوبية فى ظل تشن دوهوان· ففى ايران أدى تحويل السخط الى شكل دينى الى سقوط نظـام الامبراطور العلمانى ، وفى كوريا الجنوبية نجم عن ذلك نمو مدهش للمسيحية ، سواء أكانت كاثوليكية أم بروتستانتية · وفى كـلا البـلدين حـل الـدين المنظم محل المعارضة السياسية أو انصهر معها ·

ومن سخريات القدر أنه كلما فرضت حكومة شمولية رقابة صارمة وفعالة على كل وسائل التعبير الأخرى اكتسبت وسيلة التعبير من خلال الكنيسة أهمية متزايدة كقنـاة محتملة لفـكر المنشقين · وربما تكون هى الطريقة الوحيدة للتعبير عن المعارضة لنظام ما ·

ولكن عندما تفتح الكنيسة « قناتها » وتعبر عن السخط الشعبى من أعلى منبرها فان الوسيط يعدل الرسالة ويعيد صياغة الاستياء ، الذى قد يكون الجوع أو أى سبب مادى آخر هو مفجره ، فى تعبيرات دينية · وهو ما يفسر لماذا تحولت حركات انطلقت لبلوغ أهداف لا صلة لها مباشرة بالدين الى جهاد دينى ·

ففى ايران دمج آية الله الخومينى الحقد الطبقى والغضب القومى مع الحمية الدينية · وأصبح حب الله + كراهية الامبريالية + معـاداة الرأسمالية = تعصبا متفاقما أحال الشرق الأوسط الى برميل بارود ·

غير أن الخومينى لم يكتف بصهر هذه العناصر الثلاثة فى انفعال وشعور أوحد وانما جمع أيضا بين وسائل اعلام الموجة الأولى - أى قيام الأئمة التابعين له بتحريض المؤمنين مباشرة وجها لوجه من خلال الخطب - وتكنولوجيا الموجة الثالثة - فى شكل أشرطة تسجيل مسجل عليها رسائل سياسية تهرب سرا الى المساجد حيث يتم الاستماع اليها ونسخها بواسطة أجهزة تسجيل رخيصة الثمن ٠

ولمواجهة الخومينى استخدم الشاه وسائل اعلام الموجة الثانية ، الصحافة والاذاعة والتليفزيون ٠ وبمجرد أن خلع الخومينى الشاه وسيطر على زمام الدولة استولى بدوره على هذه الأدوات المركزية ٠

ان هذه الاستراتيجية التى ترتكز على استخدام وسائل اعلام الموجة الأولى والموجة الثالثة لمحاربة وسائل اعلام الموجة الثانية منتشرة بين الحركات الثورية٠ بل كانت أكثر وضوحا فى الصين أثناء مظاهرات ١٩٨٩ المطالبة بالديمقراطية ٠ ان شيوخ بكين ، الذين ارتعدوا عندما سقط شاوشيسكو فى بوخارست بعد ستة شهور من قتلهم الطلاب الصينيين على مقربة من ميدان تيانانمين ، لم يقدروا قوة هذه الاستراتيجية حق قدرها ٠

فى الصين أيضا تصادمت ثلاثة أنماط من الاتصال فى معركة السيطرة على الفكر ٠

فى هذا البلد كانت مجلات الحائط أداة احتجاج تقليدية من أدوات الموجة الأولى، ومنذ بداية عام ١٩٨٩ بدأت تظهر هذه المجلات على الجدران القريبة من جامعة بكين مهاجمة الفساد وساخرة من أبناء قيادات الحزب المتمتعين بمزايا ليست من حقهم ومطالبة بديمقراطية موسعة ومنادية باقالة رئيس الوزراء حينذاك لى بينج وآخرين ٠

وقرب نهاية ربيع ذلك العام تم استخدام وسيلة اتصال أخرى من وسائل الموجة الأولى ألا وهى الحشد ٠ ففى يوم ٢٢ أبريل تجمع طلاب من جامعة بكين فى ميدان تيانانمين بحجة تأبين ذكرى هو ياو يانج ، وهو زعيم شيوعى ذو نزعة اصلاحية ٠ كانت مطالب المحتجين معتدلة فى البداية ، اذ تركزت أساسا على حرية التعبير ووضع حد للفساد ، لكن الحكومة رفضت هذه المطالب بعنف وفظاظة مما دفع المتظاهرين الى البقاء فى الميدان وبدءوا اضرابا عن الطعام ٠ وتزايدت الحشود المسالمة

وسرعان ما انضمت اليهم حشود العمال حاملين لافتات كتب عليها « ها هم اخوانكم الكبار يأتون ! » . ولما لم تحرك الحكومة ساكنا تدعمت الحركة الى أن بلغت ذروتها فى يومى ١٨ و ١٩ مايو بنزول أكثر من مليون متظاهر سلمى من جميع طبقات المجتمع الى الشارع . كان حجم الحشد الكبير رسالة فى حد ذاته .

وخلال الفترة نفسها دارت معركة شرسة بين القادة الصينيين حول كيفية الرد . حاولت الحكومة برئاسة لى بينج استخدام وسائل اعلام الموجة الثانية ـ الصحف والاذاعة والتليفزيون ـ ضد المتظاهرين . ولكن الحزب بقيادة زاو زيانج كان يسيطر على جزء كبير من هذه الوسائل بما فى ذلك « صحيفة الشعب » لسان حال الحزب .

وبينما كان هذا الصراع على السلطة يتأرجح من معسكر الى آخر ، كانت التغطية الاخبارية بواسطة وسائل اعلام الموجة الثانية تتأرجح هى أيضا . فعندما كان لأنصار زاو اليد العليا كانت « صحيفة الشعب » والتليفزيون الصينى يعربان عن تعاطفهما مع مطالب الطلاب . وعلى النقيض ، عندما رجحت كفة المتشددين كان المعلقون والمحررون والصحفيون يضطرون للتلاعب بالأنباء على حساب المتظاهرين ، مستخدمين فى ذلك وسائل اعلام الموجة الثانية لاضعاف الرسالة المنقولة عبر وسائل اعلام الموجة الأولى .

ولكن فى الوقت نفسه بدأت معركة السيطرة على أدوات الموجة الثالثة الأكثر تطوراً ، مثل الأقمار الصناعية وأجهزة الفاكس وكاميرات التليفزيون المنقولة وأجهزة الكمبيوتر والآلات الناسخة وشبكات الاتصالات الدولية .

ووجد « المتشددون » أنفسهم أمام مشكلة مزدوجة . اذ كان يتعين عليهم أن يحكموا سيطرتهم وبشكل جاسم ليس على وسائل الاعلام الداخلية فحسب وانما على التغطية التى تقوم بها الصحافة الأجنبية أيضا . غير أن المعضلة التى واجهت السلطات الصينية هى وجود عدد كبير من الصحفيين ورجال الاذاعة والتليفزيون الأجانب الذين كانوا قد قدموا الى الصين لتغطية قمة دينج ـ جورباتشوف . وهؤلاء المراسلون الذين كانوا يستخدمون الأقمار الصناعية وأجهزة الكمبيوتر وأدوات أخرى متطورة من أدوات الموجة الثالثة بقوا فى بكين لتغطية ما يدور فى الشوارع .

وكانت شبكة (CNN) من أكثرها تأثيراً ، اذ كان لا يقتصر استقبال تغطيتها التى تستمر ٢٤ ساعة يوميا على البيت الأبيض وعلى

ملايين المنازل على امتداد العالم فحسب وانما كان ـ وهو أمر لا يقل أهميـة ـ يمتـد أيضا الى بعض فنـادق بكين نفسـها · وبينما المعركة السياسية محتدمة قطعت السلطات الصينية اتصالها مع العالم الخارجى عبر الأقمار الصناعية ثم اعادته ثم طلبت من الصحفيين الأجانب استخدام ترددات التليفزيون الصينى ! وبلغت البلبلة ذروتها ·

ونظرا لادراك « المتشددين » للأهمية المتزايدة للرأى العـام العالمى حاولوا باستماتة قطـع كل الروابط بين المحتجين وأنصـارهم خـارج الصين · غير أن هذه المحاولة بدت غاية فى الصعوبة نظـرا لأن الصين كانت قد عقدت منذ عهد قريب عـلاقات اقتصادية واسـعة مع العـالم الخارجى وسمحت للشباب بالدراسة فى الخـارج ·

وقام المحتجون بتوجيه رسائلهم مباشرة الى المشاهدين الأجـانب · وظلوا يكررون ويترجمون مطالبهم للمراسلين وفرق التليفزيون الأجنبية· وكتبوا الشعارات بلغـات أجنبية لكى يتمكن المشاهدون خارج الصـين من فهمها على الفور · وكان شعار « ١٧٨٩ الصـينى » المكتوب باللغـة الفرنسية يقـارن انتفاضتهم بالثـورة الفرنسية · كما كانوا يغنـون للمشاهدين الأمريكيين أغنية « سوف ننتصر » واقتبسوا كلمـات باتريك هنرى « أعطنى الديمقراطية أو أعطنى الموت » · وقوبلت استراتيجيـة اليد الممدودة هذه بمسيرات تعاطف فى كل من هونج كونج وتايـوان وأستراليا وفى جميع أنحـاء الولايات المتحدة ·

وفى غضون ذلك أقام طالب صينى فى جامعة هارفـارد وصلة هاتفية بين بكين وبوسطن · وكانت أنباء ميدان تيانانمين تصل عبر هذا الخط الى شقته الصغيرة طوال الـ ٢٤ ساعة · ومن هنـاك يعـاد ارسالها بالهاتف والفاكس والكمبيوتر الى الطلبة الصينيين فى جميع أنحاء الولايات المتحدة ·

كما أنشأ الطلاب فى جامعتى ستانفورد وبيركلى ما أسموه « الجسر الجوى للأنباء » · حيث كانوا يرسلون بواسطة أجهزة الفـاكس الى المضربين آخر الأنباء التى نشرت عنهم فى الصحافة الأمريكية · وكانت المذكرات توجه الى مقار شركات فى بكين أو فى مدن أخرى على أمل أن تقوم أيد صديقة بنقلها الى الطلاب المضربين · وكان عـدد أجهزة الفاكس فى الصين يقـدر بـ ٣٠ ألف جهاز وعدد خطوط الهاتف فى بكين وحدها بثلاثة ملايين خط ·

وكذلك قام الطلبة الصينيون فى الولايات المتحدة ، وأكثرهم من أبناء كبار المسئولين فى الحكومة والحزب ، بتسجيل لقاءات هاتفية مع المضربين على أشرطة وكانوا يسلمونها الى اذاعة صوت أمريكا لكى تبثها مرة أخرى الى الصين ·

لقد استمرت هذه المعركة العالمية للسيطرة على المعلومات ووسائل الاتصال حتى بعد أن لجأ « المتشددون » الى الجيش وقتلوا العديد من المتظاهرين وسحقوا الاضراب · واستخدمت الحكومة الصينية مرة أخرى وسائل اعلام الموجة الثانية ، فقامت ببث صور بعض الطلبة و « قادة » الاضراب وكذلك أرقام هواتف لكى يستخدمها المخبرون فى حالة التعرف على الهاربين ·

غير أن هذه الرسالة المرئية نقلت الى خارج الصين ، فعمل بعض مشاهدى التليفزيون ، من كندا الى ايطاليا ، بجد واجتهاد على عرقلة الاتصالات مستخدمين الخطوط الهاتفية الدولية المباشرة لمنع الوشاة الصينيين من الاتصال بالسلطات · وهى أول محاولة معروفة للتدخل بهذا الشكل عبر الحدود الوطنية يقوم بها مواطنون عاديون ·

لقد ثبت فى الصين مرة أخرى صحة مقولة ماوتسى تونج بأن السلطة على فوهة بندقية · لكن اتضح جليا أن « المتشددين » الذين سيطروا على الموقف لن يستطيعوا التمتع فى سلام بانتصارهم ، كما أكدت ذلك أحداث أوروبا الشرقية وغيرها ، لأن ما حدث لم يكن سوى بداية دخول الصين الى القرن الحادى والعشرين ·

لقد كشفت أحداث الصين وبوضوح أخاذ عن الاستراتيجيات الاعلامية للثورة والثورة المضادة · ولا تزال وسائل اعلام الموجة الثانية الجماعية تمارس تأثيرا ضخما فى الوقت الراهن · ولكن مع تقدم العالم – بأقصى سرعة – فى عصر تحول السلطة فان أدوات السيطرة على الأذهان التى كانت ساحقة فيما مضى ستسحق بدورها بواسطة وسائل اعلام الغد المحرضة على التمرد والعصيان ·

الفصل الثامن والعشرون

جيل الشاشة الصغيرة

فى منتصف القرن العشرين نشر جورج أورويل كتيبا ساخنا ضد الشمولية عنوانه « ١٩٨٤ » • رسم هذا الكتيب صورة لحكومة تسيطر بالكامل على وسائل الاعلام • ولقد دخلت التعبيرات الجديدة التى ابتكرها الكاتب فى اللغة اليومية ، وأصبح الكتاب سلاحا هجوميا قويا فى الصراع ضد الرقابة والتلاعب بالعقول • ولذلك ظل محظورا فى الاتحاد السوفيتى لعدة عقود •

ومع أن كتاب أورويل قد نجح فى حشد القوى المناهضة لاخضاع العقل فلقد اتضح أن تصوره للمستقبل لم يكن سليما تماما •

تنبأ أورويل بدقة بتقنيات مثل شاشات التليفزيون ثنائية الاتجاه ، التى يمكن استخدامها لتوصيل الدعاية الرسمية للمشاهدين والتجسس عليهم فى آن واحد • أما بالنسبة لتحذيراته بشأن انتهاك الحياة الخاصة، فهى تظل أقل من الواقع • غير أنه لم يتوقع ــ كما لم يتوقع أحد فى ذلك الوقت ــ أهم ثورة فى عصرنا ألا وهى الانتقال من الاقتصاد القائم على العضلات الى اقتصاد يعتمد على الذكاء •

ومن ثم فهو لم يتنبأ بالانتشار المذهل الحالى لأدوات الاتصال الجديدة • ان عدد وتنوع هذه التكنولوجيات وسرعة تغيرها بلغ حاليا درجة تحير الخبراء أنفسهم • ان مواجهة حشد الاختصارات التقنية مثل HDTV و ISDN و VAN و CD-I وغيرها أشبه بالتلزج فى قار حقيقى من الحروف الأبجدية • بل ان مجرد استعراض اعلانات السلع الاستهلاكية المقابلة لهذه التقنيات يصيب بالدوار •

ولكن اذا ارتفعنا فوق هذه الجلبة تصبح الحدود الرئيسية لوسائل اعلام الموجة الثالثة واضحة تماما •

ستكون للبنية الأساسية الالكترونية للاقتصادات المتقدمة ست سمات متميزة ، بعضها يعلن عن وصوله بالفعل · وهذه السمات التى تعد مفاتيح المستقبل هى : التفاعلية وقابلية الحركة والتحويلية أو قابلية التحويل والتوصيلية والشيوع والعالمية ·

ان هذه المبادىء الستة مجتمعة تنبىء بتحول شامل ليس فى طريقة تبادلنا للرسائل فحسب ولكن فى طريقة تفكيرنا ورؤيتنا لمكاننا فى العالم، ومن ثم فهى تنبىء بتحول فى علاقاتنا مع من يحكموننا · ان هذه المبادىء مجتمعة ستجعل من المستحيل على الحكومات (أو على معارضيها الثوريين) التلاعب فى الأفكار والصور والبيانات والمعلومات والمعرفة كما كانت تفعل فى الماضى ·

لاعب جولف طوع أمرك :

فى مبنى قصير ومتين من مبانى شارع سانتا مونيكا بلوس انجلوس كان جوردن ستولبرج ، وهو مدير سابق بشركة فوكس للقرن العشرين السينمائية ، يمزح مع برنارد لسكن وهو أخصائى فى العلاج النفسى ورئيس سابق لاحدى الكليات كما كان يرأس كونسرتيوم تعليميا لعلوم الكمبيوتر بكاليفورنيا · ويشرف الرجلان معا على فريق وسائل الاعلام الأمريكية المتفاعلة والذى يضم مربين وفنانين ومبرمجين · ويستعد هذا الفريق لتقديم الانجاز المقبل فى تكنولوجيا الاسطوانة المدمجة وهى « الاسطوانة المدمجة المتفاعلة » (CD - 1) .

ويعتزم هذا الفريق أن ينتج اسطوانات يتم عرض محتوياتها على شاشات أجهزة التليفزيون العائلية بحيث تسمح للمشاهد بالتدخل فى المشهد الذى يراه عن طريق جهاز توجيه عن بعد يمسك به فى يده وابهامه على مقبض لعب صغير · ويطلق على احدى هذه الاسطوانات اسم « الجولف المتفاعل » ، وهى تتيح للمشاهد أن يلعب مباراة جولف ضد لاعب آخر عن طريق التحكم فى لاعب جولف آلى يحركه على الشاشة كيفما يشاء · اذ يمكنه أن يجعله يلف يمينا أو يسارا أو يغير دورانه وتسديده للضربة ، باختصار يستطيع مستخدم هذه الاسطوانة أن يتحكم فى كل ما يدور على الشاشة ·

كما تسمح اسطوانة « دائرة معارف جروليبه » باستدعاء معلومات سمعية بصرية عن أى من الموضوعات المسجلة عليها ، وتقدم النصوص والصور والرسوم المتحركة شرحا وتفسيرا لعمل محرك سيارة مثلا أو

لجزىء الحامض النووى (DNA) ، كما يستطيع مستخدم هذه الأسطوانة أن يتعامل مع هذه المعلومات ويتفاعل معها ·

وهناك اسطوانات متفاعلة أخرى لنفس المجموعة تضم ألعابا وقصصا من التوراة ونوعا جديدا من الأطلس ودروسا فى التصوير الفوتوغرافى تم اعدادها بالتعاون مع مجلة تايم لايف · كما تصحبك اسطوانة أخرى فى زيارة لمتحف سميثونيان وتسمح لك بفحص الأشياء المعروضة أثناء مرورك بها ·

ان شركة وسائل الاعلام الأمريكية المتفاعلة التى تملكها شركة (Polygram Records) التابعة لشركة فيليبس الهولندية العملاقة للالكترونيات ليست سوى واحدة من عدة شركات تعمل فى مجال تكنولوجيا الفيديو المتفاعل · وتهدف هذه الشركات الى جعل مشاهدة التليفزيون تجربه ايجابية أكثر منها سلبية ، أى أن يشارك المشاهد بدلا من الاكتفاء بالتلقى ·

وفى الوقت نفسه فان شركة الألعاب التليفزيونية المتفاعلة ، وهى شركة مقرها شمال كاليفورنيا وتحصل على تمويلها جزئيا من مجموعة يونايتد آرتست وجنرال الكترونيكس ومجموعة فيديوترون ليميتد ، تسلك طريقا مختلفا للوصول الى نفس الهدف · فهى تقوم بصنع جهاز سيتيح للمشاهدين المشاركة من منازلهم فى برامج الألعاب التليفزيونية المعروفة مثل عجلة الحظ ، بحيث يرسل اللاعبون اجاباتهم الى كمبيوتر مركزى يقوم بمراجعة كل الاجابات واختيار الفائز ·

غير أن القفزة الأكثر ثورية فى اتجاه التفاعلية ـ والتى لا تزال حتى الآن فى طور التصور ـ تتمثل فى شبكة واسعة من أجهزة التليفزيون المتفاعلة والتى تعمل فى الوقت نفسه كأجهزة كمبيوتر ، وقد أطلق عليها جورج جيلدر اسم « التليكمبيوتر » ·

وبالاضافة الى الأسطوانات والأشرطة فان الحياة ستدب فى التليفزيون ذاته بين يدى مستخدمه على حد قول جيلدر ، الذى درس عن قرب الحدود التكنولوجية فى مجال الفيديو والكمبيوتر · ويوضح جيلدر أن « الخط الفاصل بين « التليفزيون » ـ الذى تسيطر اليابان حاليا على صناعته ـ و « أجهزة الكمبيوتر » ـ التى تملك فيها الصناعة الأمريكية أفضل الوسائل ـ يختفى تدريجيا » · وان الاندماج المقبل بين هاتين التكنولوجيتين سينقل السلطة من شبكات التليفزيون القديمة الى

المستخدمين متيحا لهم « تعديل الصور على هواهم » ٠ ان هـذا الجهـاز الهجين يمكنه أيضا نقل السلطة من اليابان الى الولايات المتحدة ـ على حـد قـول جيلدر ٠

وسواء أكان هذا التوقع صحيحا أم لا فان تيـارين قويين للتطـور الاقتصادى سيصبان معا نحو انتشار ضخـم للتفـاعلية فى مجـال المرئيـات ٠

ترف متفسـخ :

المبـدأ الثانى للنظـام الجـديد هـو الحركية أو قابلية الحـركة : ان الهاتف اللاسلكى الموجود فى كابينة الطائرة او فى السيارة بدأ يعـود المستخدمين على فكرة امكانية الاتصال بأى مكان ومن أى مكان مـع الاستمرار فى الانتقال والتنقل ٠

فى البداية اعتبر استخدام هاتف السـيارة الذى يعتمد على تقنيـة اللاسلكى الخلوى ترفا متفسخا ٠ (كما اعتبرت من قبل اول أجهزة الهاتف فى القرن التاسع عشر) ٠ ـ أما الآن فهى منتشرة على نطاق واسع فى الولايات المتحدة ٠

وفى انجلترا يقوم الآن كونسرتيوم يسمى فون بـوينت ـ يمثل مؤسسة البريد والبرق الألمانية (بوندسبوست) وفرانس تيليكوم ونيناكس وهى شركة هاتف نيويوركية بالاضافة الى بريتيش تيليكوم ـ بادخـال « هاتف جيب » متطور الى الخدمة باقصى سرعة ٠ هذه الأجهزة المتنقلة ليست مجرد رموز رفاهية أو مكانة اجتماعية ، لقـد أصبحت أداة عمل تزيد من الانتاجية بالنسبة للمندوبين التجاريين والأطبـاء والسـباكين وغيرهم ٠ وبينما يعمل الناس ويلعبون وهم يتنقلون يشتعل الطلب على وسائل اتصال أبسط وارخص وفى المتناول دائما ، وهو ما يوفر قـاعدة المرحلة التالية الا وهى اختـراع هاتف مدمج فى سوار مثل هاتف ديك تراس ٠

غير أن الهاتف ليس سوى واحد من العديد من الأجهزة الجديدة التى لا حصر لهـا التى تتحرر من قاعدتها الثابتة ومن مسـامير تثبيتها ٠ فشركة سونى تقدم ناسخة وزنها ١٥٠ جراما كما أن هناك جهاز فاكس للسيارة وفيديو للجيب وجهـاز كمبيوتر يمكن وضعه على الركبتين وطباعة نقالة وكلها اجهزة تنتشر بسرعة كبيرة ٠ ان الحركية او قابلية التحرك تمثل ثانى سمة مميزة ٠

تأتى بعد ذلك قابلية التحويل أو التحويلية ، وهى القدرة على نقل المعلومات من وسيلة الى أخرى · اننا الآن مثلا نتجه نحو التكنولوجيات المعتمدة على الكلمة والتى تستطيع تحويل الرسالة الشفوية الى رسالة خطية وبالعكس · ان الآلات القادرة على تسجيل ما يملى عليها من عدة أشخاص فى آن واحد وتحويله الى خطابات مطبوعة لن يطول الوقت لكى تصبح حقيقة ·

ان مثل هذه الأدوات قد تقلب رأسا على عقب العديد من المجالات ابتداء من مجال التوظيف وتنظيم العمل المكتبى الى دور القراءة والكتابة فى الحياة اليومية ، غير أن قيمتها تتضاءل مقارنة بشكل آخر من التحويل الا وهو الترجمة الآلية · ان ترجمة الوثائق والمستندات التجارية من لغة الى اخرى حتى وان لم تكن فى شكلها الأمثل موجودة فعلا فى فرنسا مع نظام ميتى تل كما سبق أن أشرنا الى ذلك فى الفصل العاشر · وتجرى اليابان أبحاثا مكثفة للوصول الى ترجمة دقيقة (فاليابان تعتبر لغتها اعاقة اقتصادية) · كما تنتظر المجموعة الأوروبية بصبر نافد حدوث تقدم فى هذا المجال نظرا لاضطرارها الى ترجمة أى نص الى لغات أعضائها الاثنى عشر ·

أما المبدأ الرابع للبنية الأساسية الالكترونية الجديدة وهو التوصيلية فقد أصبح كلمة شائعة بين مستخدمى الكمبيوتر والاتصالات اللاسلكية فى العالم كله · فهم يطالبون بالحاح بامكانية توصيل أجهزتهم بتنويعة واسعة من الأجهزة الأخرى بغض النظر عن الشركة المنتجة لها أو بلدها الأصلى ·

وبالرغم من المعارك السياسية الضارية بشأن النظم القياسية والمعايير ، فان جهودا ضخمة تبذل من أجل دفع التوافق بين الأجهزة بحيث يمكن ربط جهاز « التليكمبيوتر » المتفاعل والمتحرك مع أحد أنظمة IBM الكبيرة فى شيكاغو أو مع جهاز كمبيوتر متنقل صغير من انتاج توشيبا مستخدم فى فرانكفورت أو سوبر كمبيوتر « كراى » فى وادى السليكون أو هاتف ديك تراس لربة أسرة فى سيول ·

أكثر من مجرد تعاطف :

ان مفهوم الشيوع الذى يمثل المفتاح الخامس ، نقصد به الانتشار المنهجى للنظام الاعلامى الجديد فى كل أرجاء العالم وكذلك داخل كل طبقات المجتمع ·

ان كابوسا محتملا يقلق حكومات البلدان ذات التكنولوجية المتقدمة ، ألا وهو انقسام الناس داخل نفس المجتمع الى أغنياء معلوماتيا وفقراء معلوماتيا · ان أية حكومة لا تتخذ التدابير المادية الكفيلة بتفادى هذا التمييز تعرض نفسها لقلاقل سياسية خطيرة فى المستقبل · غير أن هذا الاستقطاب الخطير ليس أمرا محتما ·

واذا تصور المرء امكانية توفر قدر كبير من المساواة فى حرية الوصول الى المعلومات داخل المجتمع الجديد ، فان ذلك لن يكون بدافع من التعاطف أو الفهم السياسى السليم من جانب الصفوة الغنية ، وانما بسبب ما يمكن تسميته بقانون الشيوع ·

يوضح هذا القانون أن دوافع تجارية وسياسية قوية ستظهر لتجعل البنية التحتية الالكترونية الجديدة شاملة أكثر منها مانعة أو حاضرة ·

وفى بداية عصر الهاتف كان هذا الجهاز يعتبر نوعا من الترف · وكانت فكرة أن يمتلك كل شخص ذات يوم جهازا للهاتف تبدو غريبة · فلماذا بالله سيحتاج كل الناس الى امتلاك هاتف ؟ ·

واذا كان كل مواطن تقريبا فى الدول الصناعية ــ ثريا كان أم فقيرا ــ لديه الآن هاتف فان ذلك لا يرجع الى أى مشاعر خيرية وانما الى حقيقة مفادها أنه كلما زاد عدد المستخدمين المرتبطين بنظام ما ، ارتفعت قيمته بالنسبة للجميع وخاصة فى مجال التجارة ·

لقد ثبتت صحة هذه الحقيقة ، كما رأينا ، فى المراحل الأولى لتطور الخدمات البريدية · فالاقتصاد الصناعى آنذاك كان يحتاج الى وسيلة مريحة لارسال الفواتير والقيام بالدعاية وبيع الصحف والمجلات لكل مواطن وليس للأغنياء فقط ·

وحاليا ، بينما بدأت أجهزة الفاكس تحل محل بريد العصر الصناعى نشهد ضغوطا مماثلة تعمل على التعجيل بانتشار التكنولوجيا الجديدة ·

ففى عام ١٩٨٩ كان فى الولايات المتحدة ٥ر٢ مليون جهاز فاكس تقوم سنويا بطرح مليارات الصفحات ، وتضاعف عدد المستخدمين كل عام ، خاصة أن أول مستخدمى الفاكس الحوا على الأصدقاء والعملاء والأهل أن يسارعوا بشراء أجهزة فاكس لكى يتسنى لهم تبادل الرسائل

معهم · وكلما زاد عدد أجهزة الفاكس المستخدمة ، زادت قيمة النظام بالنسبة لكل الأطراف المعنية ·

اذن ، فمن مصلحة البلدان الغنية ، بكل تأكيد ، أن تجد الوسائل الكفيلة بأن يضم النظام الجديد من هم أقل ثراء بدلا من أن يقصيهم ·

وكما حدث بالنسبة لأجهزة الهاتف والتليفزيون فان أجهزة الفاكس ستظهر فى أكثر البيوت تواضعا ، مدفوعة بقانون الشيوع ·

وينطبق الشيء نفسه على الألياف الضوئية والتكنولوجيات المتقدمة الأخرى سواء أدفع ثمنها الأفراد أم مجموع الشعب أو بعض المستخدمين الذين ستمول مدفوعاتهم هذه الخدمة بالنسبة لغير القادرين على تكاليفها ·

ان الانتشار الأقصى لقدرات الاتصال جزء لا يتجزأ من النظام الجديد لخلق الثروة · وكل شيء يشير الى أننا نتجه نحو « خدمة شاملة » ـ على حد تعبير شركة «بل» القديمة للهاتف ـ أى خدمة تتمتع بالشيوع فضلا عن التفاعلية وقابلية التحريك والتحويل والتوصيل ·

وأخيرا ، فان نطاق البنية التحتية الجديدة هو الكرة الأرضية · فبينما يجتاز تدفق رؤوس الأموال الحدود فى جميع الاتجاهات بفضل الشبكات الالكترونية متنقلا من زيورخ الى هونج كونج ومن هونج كونج الى النرويج ومنها الى طوكيو ومن طوكيو الى وول ستريت فى أجزاء من الألف من الثانية ، فان المعلومات تسلك أيضا طرقا لا تقل عن ذلك تعقيدا· ان أى تعديل فى سعر الفائدة فى الولايات المتحدة أو فى سعر الين مقابل المارك الألمانى يعلم به العالم كله فى الحال · وينطبق ذلك على كل الأحداث المهمة التى تقع فى أى جزء من الكرة الأرضية ، فهى تكون فى اليوم التالى موضع نقاش بين الناس فى جميع انحاء العالم · لقد أصبحت الحدود الذهنية لأية دولة لا تقل نفاذية عن حدودها المالية ·

ان الجمع بين هذه المبادىء الستة يمنح الكرة الأرضية نظاما عصبيا ثوريا قادرا على نقل كميات متعاظمة من البيانات والمعلومات والمعرفة بمعدلات بث ومعالجة أسرع بكثير من ذى قبل · انه نظام أكثر تكيفا وذكاء وتعقيدا عما كان يمكن تخيله اطلاقا فى الماضى ·

العنف والتطـرف الالكتـرونى :

ان مولد نظام اعلامى جديد ، يتطابق مع متطلبات نظام جديد تماما لخلق الثروة ، يشكل تحديا لمن بيدهم السلطة ، وذلك لأنه يمهد الطريق لبروز تجمعات انتخابية جديدة وأساليب واستراتيجيات وتحـــالفات سياسية جـــديدة ٠

وكما كان الناس فى القرن الثامن عشر مثلا غير قادرين على تخيل التغيرات السياسية النابعة من تطور الاقتصاد المصنعى ، فالتنبؤ الآن بالاستخدامات السياسية للنظام الاعلامى الذى لا يزال فى طور الظهور أمر شبه مستحيل ، الا اذا لجأنا للخيال العلمى ٠

ولنأخــذ التفـاعلية كمثـــال :

ان السماح للمشاهدين باستخدام الشاشة بدلا من الاكتفاء بالنظر اليها يمكن أن يغير الحملات الانتخابية والمرشحين أيضا ٠ فوسائـــل الاعلام المتفاعلة تجعل من الممكن اجراء استطلاعات رأى عام أكثر دقة بكثير عن ذى قبل ٠ فبدلا من طرح أسئلة لا تتضمن سوى الاجابـــة بـــ «نعم» أو «لا» ، ســتكون لدى من توجه لهم الأسئلة فرصة الاختيار بين العديد من الخيـــارات ٠

غير أن الامكانات تتجاوز بكثير عمليـــات الاقتراع أو اســتطلاعات الرأى فى حد ذاتها ٠ فمستخدمو الفيديو المتفاعل يمكنهم توجيه أسئلة محددة مثل : هل سيقوم المرشح اذا تم انتخابه بخلق فرص عمل من أجل تحسين البيئة ؟ واذا كانت الاجابة بنعم فكم عدد هذه الفرص ؟ ٠ وكيف سيكون رد فعله ، فى ظل ظروف مختلفة ، تجاه عملية اختطاف رهائن مثلا أو فتن عنصرية أو كارثة نووية ؟ ثم بدلا من تقييم مميزات رئيس جمهورية محتمل ومدى سلامة أحكامه عن طريق الاستماع الى « أفلام دعاية » انتخابية مدتها لا تزيد عن ثلاثين ثانية سيكون فى وسع مستخدمى الفيديو المتفاعل غدا اختيار برنامج أو تشغيل اسطوانة صغيرة تظهـــر المرشح وهو يتناقش ويتخذ قرارات فى ظل مختلف الظـــروف التى يقترحها الناخب نفسه ٠

كما سيكون من الممكن اصدار البرامج الانتخابية للمرشحين أو الأحـــزاب فى شكل جداول بيانية اعلاماتية تتيح للناخبين حساب تقديراتهم الخاصة بالميزانية وطرح أسئلة من نوع « وماذا لو حدث هذا الشىء أو ذاك ؟ » ٠

وبما أن أعداداً كبيرة جداً من المشاهدين تستطيع المشاركة فى برنامج ألعاب يتمتع باقبال جماهيرى كبير مثـل برنامج « المخاطرة » بمساعدة كمبيوتر يتولى احصاء الاجابات الصحيحة ، فان الأمر لا يتطلب خيـالا واسعا لادراك أنه يمكن تكييف مثل هذه التقنية من أجل فرز وعد بطاقات الاقتراع أو لاتخاذ قرارات جماعية ، ومن ثم لقيام تنظيم من نوع جديد للنشـــاط الســـياسى ٠

ولقد تنبأ علماء مستقبليون ومتخصصون فى المحاكاة منذ وقت طويل بامكانية تنظيم أعداد كبيرة من المواطنين للمشاركة فى « ألعاب » سياسية ٠ ففى أواخر الستينيات كان البروفيسير خـوزيه فيلجـاس من جامعة كورنيل قد وضع نماذج لمثل هذا النوع من النشاط ٠ وكانت هذه النماذج تضـــم برامج ترفيهية يمكن أن يشارك فيهـا سـكان المعـازل والأحياء الفقيرة وذلك كنوع من التوعية السياسية ٠٠ أو الاحتجـاج الســـياسى ٠

وكان ما ينقص البروفسير فيلجاس لتحقيق تلك النمـــاذج هـــو التكنولوجيا ٠ وسيؤدى تطور التفاعلية من خـلال الشـبكات الى ادخال أدوات « الألعاب » السياسية الى ملايين المنازل ٠ وبواسطـة هـــذه الأدوات سيتمكن المواطنون ـ مبدئيا على الأقل ـ من اجـراء استطلاعات رأى خاصة بهم وتشكيل « أحزابهم الالكترونية » أو « جمـاعات ضـغط الكترونية » حول مختلف القضايا ٠

كما يمكن أيضا تخيل عمليات تخريب الكترونية ، ليس على غـرار عمليات التخريب التى يقـوم بها مخـــربون فرديون ، ولكن كمنـاورات احتجاج أو ابتزاز سياسى ٠ ففى الساعة الثانية والربع بعد ظهر يوم ١٥ يناير ١٩٩٠ لاحظ المهندسون فى بيد مينستر بولاية نيوجـرسى أنوارا حمراء تومض على الشـــاشة التى تعـــرض حالة شبكة (ايه ٠ تى آند تى) لهواتف المكالمات البعيدة ، وعددها ٧٥ شاشة ٠ وكل ضوء كان يشير الى وجود مشكلة ٠

قال وليم ليتسن ، مدير مركز تشغيل الشبكة : « لقد حـدث ذلك دفعة واحدة ٠ صوت طقطقة ثم توقف كل شىء فجأة » ٠

و « الطقطقة »المعنية أدت الى تعطل كامل لشبكة الهاتف الأمريكى للمسافات الطويلة استمر تسع ساعات ، ويقدر عدد المكالمات التى تعذر اجراؤها خلال هذه الساعات بـ ٦٥ مليون مكالمة ٠

وانتهى المحققون فى شركة (ايه · تى · اند تى) الى ان العطل نجم عن خطأ فى برامج التشغيل الا انهم لم يستبعدوا « بشكل قاطع » وجود عمل تخريبى وراء ذلك · اذ كان يوم ١٥ يناير عيداً قوميا تخليداً ليوم ميلاد الزعيم الزنجى مارتن لوثر كنج ، وكان بعض الأمريكيين الـذين يمقتون كنج بشراسة يشعرون بالسخط الشديد من أن يخصص له عيد قومى · ان ما حدث لشبكة (ايه · تى · آند تى) قد يكون مجرد صدفة، ولكن ليس من قبيل المبالغة فى الخيال تصور عمليات احتجاج أو تخريب الكترونية فى المستقبل ·

ومنذ الآن ، يمكن بشكل مادى رصـد التوترات الاجتماعية العميقة الناجمة عن ظهور شكل جديد من الاقتصاد ـ مشكلات ترتبط بطريقة نشر المعرفة داخل المجتمع ·

هـــوة المعلومات :

تعانى حاليا المجتمعات ذات التكنولوجيا المتقدمة ، خاصـــة فى الولايات المتحدة ، من سوء توزيع المعـــلومات لأن قانون الشيوع لم يكتمل تأثيره بعد · فهناك « هوة » لا يقل عمقها عن عمق الأخـــدود العظيم (الجراند كانيون) ·

ان وجود طبقة المعدمين أو ما يسمى بـ « الطبقة الدنيا » يمثـــل مشكلة مستعصية ظاهريا بالنسبة للعديد من هذه المجتمعات · فوجود مثل هذه الطبقة لا يعتبر فقط سبة معنوية بالنسبة لمجتمعات الوفرة وانما يمثل أيضا تهديدا للسلام الاجتماعى ، وفى نهاية المطـــاف تهديـــدا للديمقراطية · غير أنه من الحمق الاعتقاد بأن كل المنتمين لهذه الطبقة « ضحايا » المجتمع أو البطالة لأن كثيرين منهم ، ان لم يكن أغلبهم ، وصلوا الى ذلك لأسباب أخرى ·

فقد بات من الواضح باضطراد أن العمل يتطلب معارف أكثر تطورا، حتى انه لو توفرت فرص العمل ، فان أغلبية أفراد هذه الطبقة لا ينطبق عليها الشروط المطلوب توافرها لشغل هذه الفرص ·

فضلا عن أن المعرفة المطلوبة يجب أن تتجاوز المهارات الخاصة بالمهمة المطلوب انجازها ، فلكى يكون الشخص صالحا لعمـــل يجب أن تتوفر لديه بعض المفاهيم الثقافية الضمنية المتعلقة بالوقت والملابس وآداب السلوك والنقود واللغـــة والســـببية · وفوق كل ذلك يجب أن يكون قادرا على تبـــادل المعـــلومات ·

ان هذه المهارات الثقافية العامة لا يمكن الحصول عليها من خلال الكتيبات التقنية أو دورات التدريب فقط ، بل انها تقتضى نوعـــا من الألفة مع ما يدور فى العالم فيما وراء الشارع الذى يسكن فيه طالب العمل • ويتم الحصول على هذا النوع من المعارف بشكل متزايد عن طريق البيئة الاعلامية • فانطلاقا من هذه البيئة يستنتج الناس المعايير الاجتماعية وأيضا « الحقائق » الخاصة عن الكيفية التى تســير بها الأمور •

ان طبيعة وسائل الاعلام والصور التى تبثها والجمـــاعات التى تستهدفها والتغـذية الارتجاعية التى تحدثها ترتبط ارتباطا مبـاشرا بكل من مشكلة العمالة ومشكلات الانحطاط الطبقى الحادث •

ومن ناحية أخرى ، فان الهوة الثقافية بين الطبقات الدنيا والتيار الرئيسى للمجتمع تزداد اتساعا مع انتشار النظام الاعلامى الجديد •

ويؤكد جيفرى موريتس رئيس المعهد القـومى للتليفـزيون ، الـذى يستخدم الأقمار الصناعية لبث برامج متخصصة لطلبة الجامعات عـلى مدى ٤٢ ساعة أسبوعيا ، أن هذه البرامج تصل الى ٧٠٠ ألف مواطن تتراوح أعمارهم ما بين الثامنة عشرة والرابعة والثلاثين ، ويمثل هؤلاء قادة الغـد المحتملين • انهم بالضبط نقيض شـباب الطبقـات الدنيـا • (وكما يشير موريتس فان مجتمع طلاب الجامعات الأمريكية الراهن قـد يضم رئيسين من رؤساء الولايات المتحدة مستقبلا ومئات من أعضاء مجلس الشيوخ وآلافا من رؤساء الشركات) •

وهكذا يصفهم موريتس : « ان الطالب ذا العشرين ربيعا الآن يمثـل « الجمهور الأكثر تطورا ومعرفة باستخدام الأجهزة السمعية البصرية » فى التــاريخ [•••] فمنـذ عشرين عاما بدأ بث برنامج Sesame Street « شارع سمسم » ، وكان يستهدف بشكل خاص تدريب الصغار والأطفال فى سن ما قبل المدرسة على التقنيات البصرية التليفزيونية المتطورة بمـا فى ذلك الأفلام شديدة القصر التى لا تتجاوز (٩٠ ثانيــة) والمؤثرات المرئية الخاصة والمشاركة المتفاعلة وأبطال جدد • ومع زيادة عمر هذا الجمهور انتقل الى برامج أخرى [مثل] الفرقة الكهربائية وزووم ثم نيكلو ديون ، وكان كل برنامج من هذه البرامج يمثل مرحلة من التقدم المستمر [•••] ان جمهور المشاهدين الذى نشأ على برامج شارع سمسم أعاد الآن تشكيل التليفزيون برمته » •

ان البرامج المذكورة تعرض كل مساء على الشبكات ذات التوجه التربوى أو على الشبكات الكابلية وليس على الشبكات الكبرى شبكات الموجة الثانية ٠

ويستخدم موريتس تعبير « جيل الشاشة الصغير » للاشارة الى هذا الجيل المتخم بالصورة المرئية والذى هضم آلاف الساعات من العروض التليفزيونية متشربا ما فيها من « منطق فيديوى » ٠ وبالاضافة الى كل ذلك فان الكثيرين من هذا الجيل أمضوا عدد ساعات مماثلا فى ممارسة ألعاب الفيديو المتفاعلة ـ والأهم ـ فى العمل على أجهزة الكمبيوتر الشخصى الخاصة بهم ٠ انهم لا يخضعون لمنطق مختلف فحسب وانما هم معتادون أيضا على جعل الشاشة تقوم بأشياء ، وهو ما يجعلهم عملاء ممتازين للخدمات والمنتجات المتفاعلة التى ستظهر قريبا فى الأسواق ٠ وقبل كل شىء انهم قد اعتادوا على الاختيار ٠

ان الهوة العميقة التى تفصل شباب الطبقات الدنيا وجيل « الشاشة الصغيرة » والتى تميز حاليا الولايات المتحدة سوف تتسع أيضا فى أوروبا واليابان وفى مجتمعات التكنولوجيا المتقدمة الأخرى ما لم تتخذ تدابير لبناء جسر على هذا الأخدود المعلوماتى العظيم ٠

التحالف الجديد :

فى الاقتصاد الذى يعتمد على المعرفة لم تعد أهم قضية سياسية داخلية هى قضية توزيع (أو اعادة توزيع) الثروة وانما توزيع المعلومات ووسائل الاعلام التى تنتجها ٠

ان ثورية هذا الانقلاب تجعل من المستحيل قياسه بالمقاييس السياسية التقليدية ٠ فالنظام الجديد لخلق الثروة سيجبر رجال السياسة ـ سواء أكانوا يزاولون السياسة عمليا أم يضعون نظريات سياسية وسواء اعتبروا أنفسهم يساريين أو يمينيين ، راديكاليين أو محافظين مناصرين لحقوق المرأة أو تقليديين ـ على اعادة التفكير فى كل المفاهيم التى تبلورت خلال العصر المصنعى ٠ ان هذه المفاهيم نفسها قد تعداها الزمن بالفعل ٠

تعتمد العدالة الاجتماعية والحرية بشكل متزايد على الطريقة التى يعالج بها كل مجتمع ثلاث قضايا : التعليم وتكنولوجيا المعلومات (بما فى ذلك وسائل الاعلام) وحرية التعبير ٠

بالنسبة للتعليم ، يقتضى الأمر الآن عملية أعادة صياغة للمفاهيم الخاصة به ، وهى عملية عميقة جدا بحيث تتجاوز بمراحل المسائل المتعلقة بالميزانية وعدد التلاميذ فى الفصول وأجور المعلمين وكذلك الخـــلافات التقليدية بشأن المناهج ، وبالتالى يصعب معالجة هذه القضية الحيوية هنا . أن نظمنا المصـــوغة من أجل التعليم الجماهيرى أصبحت الى حد كبير باطلة شأنها فى ذلك شأن شبكات تليفزيون الموجة الثانية (أو كـل الصناعات المصنعية) . سيتطلب التعليم ، تماما كما هو الحال بالنسبة لوسائل الاعلام ، انتشار قنوات جديدة وزيادة كبيرة فى تنوع البرامج. فلكى تعد المدارس الناس ليعيشوا بشكل صحيح فى مجتمع الموجـــة الثالثة وليلعبوا دورا منتجا فى ذلك المجتمع يتعين أن يحل نظـام غنى بالاختيارات محل نظام يفتقر الى حرية الاختيار .

ان الروابط بين التعليم والمبادىء الستة للنظام الاعلامى الجديـد ـ التفاعلية والحـركية والتحـويلية والتوصـيلية والشـيوع والعـالمية ـ لم تستكشف بعد الا بالكاد . غير أن محاولة تجاهل العلاقات بين النظـام التعليمى والنظام الاعلامى المستقبلى يعنى الاستهزاء بمن سيتم تشكيلهم بواسطة كل من النظامين .

كما تجدر الاشارة الى أن التعليم له الأولوية ليس فقط بالنسبة للآباء والمعلمين وحفنة من المصلحين التربويين وانما بالنسبة للعديد من القطاعات الطليعية فى الاقتصاد ، حيث بدأ المسئولون فى هذه القطاعات يعترفون بشكل متزايد بالارتباط بين التعليم والقدرة على المنـــافسة العالمية .

ونفترض أن القضية الثانية هى التعميم السريع لسـبل الوصول الى اجهزة الكمبيوتر وتكنولوجيا المعلومات ووسائل الاعلام المتطـورة . لا يوجد بلد يستطيع تشغيل اقتصاد ينتمى الى القرن الحادى والعشرين دون بنية تحتية الكترونية متوافقة هى أيضا مع القرن الحادى والعشرين أى تشمل أجهزة كمبيوتر ووسائل اتصال ناقلة للبيانات ووسائل اعلام حديثة أخرى . وهو ما يتطلب من الجماهير أن تعتاد وتألف هـذه البنية التحتية المعلوماتية كما اعتادت على البنية التحتية للنقل والمواصـلات الخاصة بالعصر المصنعى وعلى السيارات والشوارع والطرق السريعة والقطارات وغيرها .

ان الأمر لا يستدعى بالطبع أن يكون كل شخص مهندس اتصـالات لاسلكية أو خبير كمبيوتر كما لا يحتاج كل شخص أن يكون ضليعا فى

ميكانيكا السيارات . ولكن يجب أن تكون سبل الوصول الى النظام الاعلامى ، بما فى ذلك أجهزة الكمبيوتر والفاكس والاتصالات اللاسلكية المتطورة ، حرة وميسرة كما هو الحال الآن بالنسبة لسبل التعامل مع نظام النقل والمواصلات . اذ يتعين أن يكون الهدف الأولى لكل من يريد اقتصاداً متقدما هو الاسراع فى تطبيق قانون الشيوع - أى ضمان سبل وصول جميع المواطنين ، الفقراء والأغنياء ، الى أكبر قدر ممكن من وسائل الاعلام المفتوحة للجميع . وأخيرا ، اذا كانت قاعدة الاقتصاد الجديد تكمن فى المعرفة فان حرية التعبير - التى هى غاية ديمقراطية - تصبح أولوية سياسية مطلقة وليست اهتماما ثانويا .

ان الحكومة - أية حكومة - تهدف أساسا الى البقاء فى السلطة ولذلك ستبحث عن وسائل تسخير ثورة الاتصالات الأخيرة لخدمة مخططاتها وأهدافها أيا كانت التكاليف الاقتصادية التى يتحملها كل منا من جراء ذلك ، وستفرض قيودا على حرية تداول المعلومات .

وكما ابتكرت الدولة أشكالا جديدة للسيطرة على العقول عندما أوجدت الثورة الصناعية وسائل الاتصال الجماهيرية فانها ستبحث عن أدوات وتقنيات جديدة تسمح لها بالحفاظ ولو جزئيا على سيطرتها على الصور والأفكار والرموز والمعتقدات التى يتم نشرها بين الجماهير بفضل البنية التحتية الالكترونية الجديدة .

ان الحماس الذى أثارته طريقة استخدام وسائل الاعلام فى الاطاحة بالنظم الشمولية فى أوروبا الشرقية يجب ألا يعمى المواطنين عن الأساليب الأكثر تطوراً للتلاعب بالعقول التى ستحاول الحكومات ورجال السياسة اللجوء اليها فى المستقبل .

ولا يوجد بالطبع مجتمع يستطيع أن يسمح بحرية معلومات مطلقة، لأن شيئا من السرية ضرورى لأى حياة اجتماعية . فقد تؤدى حرية المعلومات الكاملة الى نقص كامل فى حماية الحياة الخاصة . ان هناك لحظات أزمة قصوى ولحظات خطر « صريح ومباشر » تغرى فيها الحرية المطلقة مشعلى الحرائق بصب البنزين على نار مهلكة .

لذا ، فان الحرية المطلقة فى مجال التعبير ليست قابلة للتحقيق شأنها شأن أى مطلق آخر فى أى من المجالات .

ولكن كلما تقدم المجتمع نحو اقتصاد فائق الرمزية ازدادت أهمية اتاحة المجال واسعا الى أبعد حد للاختلاف ولحرية التعبير .

وكلما جمدت حكومة ما أو قطعت هذا التدفق من البيانات والمعلومات والمعرفة ــ بما فى ذلك الأفكار الغريبة والابتكارات بل وحتى تضـــارب الآراء السياسية ــ أبطأت بذلك تقـدم الاقتصاد الجـديد ٠

ذلك لأن الامتداد الضخم للنظام « العصبى » العالمى يتطابق فى الواقع مع أهم تغير طرأ على دور حرية التعبير منذ الثورة الفـرنسية والثورة الأمريكية على أقل تقدير ٠

ففى الماضى الزراعى ، كانت الأفكار الجديدة تمثل فى الغـالب تهديداً للبقاء والاستمرار فى تلك المجتمعات التى كانت تعيش على الكفاف مستخدمة أساليب هذبت وتحسنت على امتداد القرون وكان أى انحـراف يشكل خطرا على اقتصاد لايملك سوى هامش بسيط للمخاطرة ٠ وبالتالى كان مفهوم حرية التفكير ذاته غريبا عليها ٠

ومع تطور العلم والثورة الصناعية تجسدت فكرة جـديدة تمـاما ألا وهى أن العقول المحررة من قيــود الدين والدولة ضرورية « للتقدم » ٠ غير أن عدد من كان يمكن تطبيق هذه الفكرة عليه كان لا يمثل سوى قلة قليلة من السكان ٠

ومع الانطلاق الثورى للنظام الجديد لخلق الثروة لم يعد الأمـــر يتعلق بطبقة هزيلة من جموع العاملين ولكن بعدد ضخم ومتزايد باستمرار من القوى العاملة التى تتوقف انتاجيتها تماما على حرية خلق كل شىء ابتداء من التصميمات الموجهة للمنتجـــات الى البرامج الاعـــلامانية والاستعارات البلاغية والاكتشافات العلمية المبهرة ومفاهيم المعرفة ٠ ان الاقتصادات فائقة الرمزية تتطور انطلاقا من الثقافات التى تحفزهـــا دائما أفكار جديدة وغالبا ما تكون معارضة ، بمـــا فى ذلك النظـــريات السياسية ٠

ان النضال من أجل حرية التعبير الذى كان حتى وقت قريب حكراً على المثقفين أصبح بذلك قضية كل أنصار التقـدم الاقتصادى ٠ ان حرية التعبير مثلها مثل التعليم الملائم وسبل الوصول الكافية لوسائل الاعلام الجديدة لم تعد رفاهية سياسية وانما شرط مسبق للقدرة على التنافس الاقتصادى ٠

ان هذا الاكتشاف يرسى قواعد ائتلاف سياسى مستقبلى غيـــر مألوف ، تحالف يجمع بين مجموعتين متعارضتين منذ الأيـــام الأولى

للثورة الصناعية : المجموعة الأولى تضم المثقفين والعلماء والفنانين ودعاة الحقوق المدنية ، فى حين تضم المجموعة الثانية متخذى القرارات المتطورين وحملة الأسهم والرأسماليين · ان كلا الجانبين يدرك أن مصالحهما تعتمد من الآن فصاعدا على الرغبة فى احداث ثورة فى النظام التعليمى وتوسيع سبل وصول المواطنين جميعا الى أجهزة الكمبيوتر ووسائل الاعلام الجديدة الأخرى وفى حماية بل وترسيع حرية التعبير ·

ان مثل هذا الائتلاف هو أفضل ضمان للتقدم الاقتصادى والثقافى فى مجتمعات القرن الحادى والعشرين ·

لقد كانت الحرية بالنسبة لماركس تعنى الاقرار بالحاجة أما بالنسبة لمن يطمحون فى بناء اقتصادات القرن الحادى والعشرين فقد يقرون بأن الحاجة هى أم الحرية ·

الخـــاتمة

التطلع الى عصر ظلمات جديد

سوف نتناول الآن التحول النهائي للسلطة · والخيار هو بين اعادة تشكيل الديمقراطية من أجل القرن الحادى والعشرين أو السقـوط فى عصر ظلمات جديد ·

الخيار الأول هو الطريق لنقل السلطة من الدولة الى الفرد ، أما الخيار الآخر فيهدد بتحويل هذا الفرد نفسه الى عدم ·

لا يوجد فى المستقبل المنظور ما قد ينتزع البندقية من يد الدولة ، كما لا يوجد ما يمنع هذه الدولة من استنزاف الثروات واستخدامهـا لأهدافها الخاصة ولزيادة سلطتها · ولكن ما قد يتغير ، على الأرجح ، كما بدأنا نرى بالفعل هو قدرة الدولة على السيطرة على المعرفة ·

فالاقتصاد الجديد يزدهر فى ظل قدر أكبر من حرية التعبير وتغذية ارتجاعية أفضل بين الحكام والمحكومين ومشاركة شعبية أوســـع فى صنع القرارات · قد يفرز الاقتصاد الجديد حكومات أقل بيروقراطيـة وأكثر لا مركزية ومرونة ، كما قد يولد قدراً أكبر من الاستقلال الذاتى للفرد ويؤدى الى تحول السلطة بعيدا عن الدولة ـ ليس بهدف «تعجيزها» وانما من أجل اضفاء صبغة انسانية عليهـا ·

غير أن أى تحالف جديد بين الجماعات الديمقراطية سيتعين عليه مواجهة ثلاث قوى عملاقة تندفع حاليا الى الأمام لتتلاقى فى جهاد عالمى يمكن أن يغرقنا ، اذا لم نأخذ حذرنا ، فى عصر ظلمات جديد ·

ســـعار مقـــدس :

كان الدين المنظم يحتكر بشكل أو بآخر انتاج وتوزيـــع المعـارف المجردة فى عصر ما قبل الصناعة ، أى قبل عصر التنـــوير وظهـــور

الديمقراطية فى الغرب · والآن هناك قوى تعمل جاهدة لاستعادة هـذه السلطة الاحتكارية على العقول ·

قد يبدو أن انبعاث الدين السياسى على امتداد العالم لا صلة له بظهور الكمبيوتر والاقتصاد الجديد ، غير أن العكس هو الصحيح ·

ان نظام خلق الثروة القائم على المعرفة والذى يعتبر الكمبيوتر رمزا له يسدل الستار على ثلاثة قرون سيطرت خلالها الدول الصناعية على كوكب الأرض · ولقد تميزت هذه الفترة فى هذه الدول بصراع من أجل السيطرة على العقول بين القوى الدينية المتحالفة مع الصفوة ذات النفوذ المنتمية للعصر الزراعى والقوى العلمانية التى ناضلت من أجل « التحديث » الصناعى وديمقراطية الجماهير ·

وفى منتصف العصر الصناعى تقريبا ، تمكنت القوى العلمانية من ازاحة الدين المنظم مضعفة بذلك من سيطرته على المدارس والتقاليد بل وعلى الدولة ذاتها ·

وبمقدم الستينيات ، كان ضعف نفوذ الدين قد بلغ درجة جعلت مجلة « تايم » تطرح على غلافها سؤالا يقول : « هل مات الرب ؟ » · وجمعت الكنيسة الكاثوليكية التى أصابها الارتباك مجمع الفاتيكـان الثانى ، الذى يعد من أهم الأحداث منذ قرون · فحيث استقر التصنيع وفرض نظامه تقلصت القوة الاجتماعية والمعنوية والسياسية للديانات الثلاث الكبرى فى الغرب ·

غير أنه فى هـذه اللحظـة بالذات بدأ الكمبيوتر فى قلب طريقة خلق الثروة رأسا على عقب · فالتكنولوجيات التى ستعمـل جذريـا على تقويض اقتصاد ذوى الياقات الزرقاء القائم على المصانع ، بدأت تخرج سريعا من المعامل ثم من وحدات الانتاج العامة أو الخاصة لتصبح ذات استخدام عام ·

وواكب هذا الاتجاه الثورى ـ الواضح فى الولايات المتحدة بشكل خاص ـ ظهور حركة الهيبيز التى شنت هجمات سخط عنيفـة على القواعد الثقافية للعصر الصناعى بما فى ذلك علمانيته ·

وكان الشعر الطويل ورهاب التكنولوجيا المتصاعد وجهى عمـلة واحدة ، الى جانب اهتمام واسع النطاق بالتصوف والمخدرات والحكمة

الشرقية وعلم التنجيم والديانات الغريبة وغير المعروفة • ان حركة الهيبيز عندما قررت أن المجتمع الصناعى يثير اشمئزازها ، وكانت تدعو الى العودة الى ماض روحانى مكتس بكل السحر والجمال • وكانت نزعة العودة الى الأرض وولع الهيبيز بالحلى الخرزية التى لا قيمة لها وعصابات الرأس الهندية رمزاً لرفضهم للعصر الصناعى كله والتطلع الى العودة لثقافة ما قبل عصر التصنيع • وكان ذلك بمثابة البذرة التى نشأت منها حركة « العصر الجديد » « New Age » المزدهرة حاليا والتى تتميز بعدد لا يحصى من المعتقدات وببحثها عن كل ما هو مقدس •

وخلال السبعينيات والثمانينيات تعددت علامات الأزمة فى كل مكان داخل المجتمع الصناعى القديم • فالنفايات الصناعية الملوثة للبيئة باتت تهدد الحياة ذاتها ، كما بدأت الصناعات الأساسية تتراجع أمام المنتجات السلعية والخدمية الجديدة ذات التقنية المتقدمة • وغرق التخطيط العمرانى وهياكل الصحة العامة والتعليم فى بحر من الأزمات، واضطرت أكبر شركات العصر الصناعى الى القيام بعمليات اعادة هيكلة ، وضعفت قوة النقابات العمالية ، ومزقت الصراعات المعنوية التجمعات السكانية كما دمرتها المخدرات والجريمة والتفكك الأسرى وغيرها من القلاقل الاجتماعية الحادة •

وأثار الرفض الوثنى الموجه من الهيبيز للمسيحية التقليدية سخط الأصوليين المسيحيين ، كما أدى انهيار عالمهم المألوف الى حدوث بلبلة بين صفوفهم ، مما دفعهم الى القيام بهجمة مضادة قوية على العلمانية سرعان ما اتخذت شكل حركة سياسية فعالة للغاية • وهنا أيضا ، اتسم الأمر برفض عنيف لحاضر فوضوى وأليم مصحوب ببحث عن يقين الماضى المطلق •

وبالتالى التقت حركة الهيبيز الوثنية والحركة المسيحية المضادة لها ، بالرغم من التناقض بينهما ، فى الهجوم على المجتمع العلمانى الذى ينكر قيمه الروحية •

لم يكن من شنوا هذا الهجوم يعتبرون أنفسهم اعداء للديمقراطية، بل ان هذه الفكرة كانت ستصيب أغلبهم بصدمة ، اذ كان بعض الهيبيز فوضويين ، من أنصار الحرية المطلقة • الا أن ذلك لم يمنع أن العلمانية التى هاجموها كانت أحد أعمدة الديمقراطية الحديثة •

وفى غضون ذلك ، كانت ثمة مؤشرات لصحوة دينية مصحوبة بتطرف أصولى فى العديد من أنحاء العالم الأخرى ٠

فمنذ الحرب العالمية الأولى استولى على السلطة فى الشرق الأوسط قادة مثل أتاتورك فى تركيا ورضا بهلوى ثم الشاه فى ايران ٠ وكان هؤلاء الرجال قد تعهدوا بـ : تحديث » بلادهم ، فشرعوا فى بناء مجتمعات علمانية لا تترك لرجال الدين سوى أدوار ثانوية ٠

غير أن هذه النظم العلمانية ظلت مرتبطة بالاستعمار الغربى ، وازدهر فى ظلها الاستغلال والفساد ضاربة عرض الحائط بكل مبادىء الأخلاق ٠ وكانت الصفوة الحاكمة تقضى أغلب وقتها فى التزلج على الجليد فى جستاد بسويسرا أو فى الاجتماع بمصرفييها الشخصيين فى زيورخ ، بدلا من تأمين توزيع أوسع للثروة الوطنية ٠ وأثناء الحرب الباردة ، كانت أجهزة مخابرات العديد من الدول الصناعية ، الرأسمالية منها والشيوعية على حد سواء ، تجد أن من مصلحتها أحيانا أن تدعم المتطرفين الدينيين فى الشرق الأوسط ٠

وظلت كل هذه العوامل تشعل نيران الأصولية التى أصبح رمزها فى نهاية المطاف الحمية المقدسة للخمينية بهجومها الشامل على العالم الحديث وعلى العلمانية التى يفتخر بها ٠

كان يمكن أن يكون لهذه الهجمة المتعصبة صدى أقل اذا لم تكن الحضارة الصناعية نفسها ـ بؤرة العلمانية ـ تعانى من أزمة أخلاقية واجتماعية ، بحيث لم تعد تقدم لباقى العالم نموذجا مشجعا ٠ ففى الواقع ، لم تعد هذه الدول الممزقة فى أعماقها تبدو منيعة كما كانت منذ عهد قريب ، فلقد بات ـ على ما يبدو ـ فى وسع مختطفى الرهائن والارهابيين وملوك البترول ابتزاز أموال هذه الدول ٠

وبالتالى ، بينما يقترب العصر الصنعى من نهايته تتعرض فلسفته العلمانية السائدة لهجوم من الداخل والخارج فى آن واحد ، وتصبح للأصولية والدين بشكل عام اليد الطولى ٠

ففى الاتحاد السوفيتى ، حيث كان جورباتشوف يحاول اصلاح الاقتصاد والنظام السياسى بدأت نيران الأصولية الاسلامية تلامس كل

الحدود الجنوبية للبلاد . وسرعان ما بدأ الأذريون المسلمون والأرمن المسيحيون يقتتلون فى منطقة القوقاز كلهـا ، وعندما تم ارســال قوات سوفيتية اليها لاستعادة الأمن والنظام ، وجهت الحكومة الايرانيــة تحذيراً لموسكو بعدم استخدام القوة ضد المسلمين . وتصاعد اللهب . وبفضل اصلاحات جورباتشوف ، التى وفرت قدرا أكبر من حرية التعبير، تم رصد علامات صحوة أصولية مسيحية أيضا .

ولقد وقعت ظواهر مماثلة فى أماكن أخرى : ففى اسرائيل تعرض اليهود الذين لا يمارسون الشعائر للضرب ورجمت سياراتهم بالحجارة من قبل أصوليين يهود شكلت أفكارهم ونماذجهم الاجتماعية قرون من العيش فى تجمعات اليهود الصغيرة المتسمة بطابع مـا قبــل العصر الصناعى فى أوروبا الشرقية وفى الشرق الأوسط . وفى الهند ، مـزق التطـرف الاسلامى ولاية كشمير كما مزق التطـرف الهندوسى باقى شـبه القارة الهندية .

أما فى اليابان ، حيث تتعايش الديانة البوذية وديانة الشنتو ، لا يتسنى تعريف الدين بنفس مفاهيم الغرب ، ومن ثم لا يمكن تطبيـق مفهوم الأصولية على اليابان . ومع ذلك ، ثمة دلائل على اهتمام جديـد بالأشكال القديمة للديانة الشنتوية التى استغلها النظام العســكرى لأغراضه السياسية قبل الحرب العالمية الثانية . ففى عام ١٩٨٩ ، اتخذت وزارة التعليم اليابانية مبادرة ـ كانت محل جدل شديد ـ تقضى بأن يتم تعليم التلاميذ احترام الامبراطور ، الكاهن الأعلى للشنتو .

ان ما نشهده هو هجوم منظم على أفكار عصر التنوير التى ساهمت فى تمهيد الطريق للعصر الصناعى .

وعلى الرغم من أن كل هذه الحركات الدينية مختلفة ، بطبيعـة الحال ، وأنها تتصادم بعنف فيما بينها فى أغلب الأحوال ، وعلى الرغم من أن بعضها متطرف والبعض الآخر غير متطرف ، الا أنها جميعا ، سواء أكانت مسيحية أم يهودية أم مسلمة أم منتمية لحركة العصر الجديد، تتلاقى فى نقطة واحدة ألا وهى العداء للعلمانية التى هى الأساس الفلسفى لديمقراطية الجمـــاهير .

اننا نشهد الآن تراجع العلمانية فى بلد بعد الآخر . فما الذى أعده أنصار الديمقراطية بديلا لها ؟ .

حتى الآن لم يتمكنوا من تجديد هياكل ديمقراطية الجماهير التى تجاوزها الزمن كما لم يتمكنوا من تجديد الفكر الفلسفى الذى تعتمد عليه هذه الهياكل ·

ان الدين ليس عدوا للديمقراطية · ففى مجتمع علمانى متعدد الأديان ، يتمتع بفصل واضح بين الكنيسة والدولة ، يضيف تنوع المعتقدات الى ديناميكية هذا المجتمع · ففى العديد من البلدان ، تمثل الحركات الدينية القوة الوحيدة المعارضة لسيطرة الدولة على مقدرات الشعوب · ان الأصولية لا تمثل فى حد ذاتها تهديداً · ولكن فى قلب هذه الصحوة الدينية الجبارة التى تعرفها كل البلدان - وليس ايران وحدها - يتكاثر المتعصبون الذين يحاولون باستماتة اقامة سيطرة ثيوقراطية على العقول والتقاليد ، بينما يقدم لهم آخرون دعما لا شعوريا · ان التسامح تجاه التنوع هو أول وصايا المجتمع اللاجماعى ، بما فى ذلك التسامح - الى حد معين - مع غير المتسامحين ·

ان الأديان ذات الدعوة العامة التى تأمل فى الانتشار فى كل بقاع الأرض بحيث تضم كل البشر تحت لوائها يمكن ان تتوافق مع الديمقراطية · والشىء نفسه ينطبق على الأديان التى تطالب بممارسة سيطرة تامة على كل جوانب حياة المؤمنين بها ، ولكنها لا تحاول قط فرض هذه السيطرة على من لا يؤمنون بها ·

أما الأديان (أو الايديولوجيات السياسية أيضا) التى لا تتوافق مع الديمقراطية فهى تلك التى تجمع بين الشمولية والكلية · ان مثل هذه الحركات تتناقض مع كل التعريفات الممكنة للديمقراطية ·

غير أن بعض الحركات الدينية - ومن بين أكثرها نفوذا وأسرعها نموا فى العالم اليوم - يتمثل فيها بالتحديد هذا التركيب المهلك الذى يجمع الشمولية والكلية ·

ان هذه الحركات مصممة على التحكم فى حياة وعقول البشر فى أمم وقارات كاملة ، بل وفى كوكب الأرض كله · انها مصممة على الاستيلاء على سلطة الدولة فى كل مكان يمكنها فيه ذلك ، كما أنها عازمة علي خنق الحريات التي تكفلها الديمقراطية ·

ان هذه الحركات أدوات لعصر ظلمات جديد ·

الثيوقراطية ـ البيئية :

وفى غضون ذلك ، يأخذ المد الأخضر أيضا اتساعا على امتداد العالم كله · وتعد هذه الحركة ، التى تهدف الى حماية البيئة والصحة مثالا ايجابيـا لحركة مواطنين عاديين تمكنت من فرض اتجاه معين على قادتهم أنفسهم · ان سلسلة من الكوارث غير المسبوقة هى التى دفعت بحماية البيئة الى قمة اهتمامات وأولويات العالم · ومن بين هـــذه الكوارث حادثة مفـاعل (ثرى مايل آيلاند) وكارثة تشيرنوبل وتسـرب الغاز القاتل فى منطقة بوهال بالهند والتسرب البترولى الخطير عـلى سواحل آلاسكا ·

لقد بلغ المجتمع الصناعى أقصى حدوده ، بمعنى أنه بات من المستحيل الاستمرار فى تكديس النفايات السامة فى الأفنية الخـــلفية لمنازلنا وفى تجريد الأرض من غاباتها وافراغ المخلفات البلاستيكية فى محيطاتنا واحداث ثقوب فى طبقة الأوزون · ان الحركة العالمية لحماية البيئة هى اذن رد فعل أطلقته غريزة البقاء فى مواجهة تهديد الحياة على كوكب الأرض ·

غير أن لهذه الحركة أيضا هامشا مضاداً للديمقراطية · فبعض أنصارها يدعون الى العودة الى الظلام وبعض هؤلاء مستعد أن يصادر على الحركة سعيا وراء تحقيق مخططاته السياسية أو الدينية الخاصة·

ان المشكلات من التعقيد والصعوبة بحيث بات من المرجح أن تنقسم حركة الخضر الى أربع فصائل على الأقل ·

وستواصل احدى هذه الفصائل عملها طبقا للأسلوب الديمقراطى والشرعى البعيد عن العنف ، ولكن قد ينتقل جناح ثان للحركة ـ موجود بالفعل حاليا فى شكل جنينى ـ اثر سلسلة من الأزمات والمآسى البيئية ، من مكافحة التخريب البيئى الى ارهاب بيئى واسع النطاق ، من أجل تغليب متطلباته الخاصة ·

وثمة نقطة شقاق أخرى ستزيد من حدة الحرب الأيديولوجية التى تمزق بالفعل حركة الدفاع عن البيئة ·

فمن ناحية ، هناك من يدافعون عن التقدم التكنولوجى والاقتصادى فى اطار قيود بيئية شديدة الصرامة ، رافضين بذلك التخلى عن ثقتهم

فى قدرة التخيل والذكاء البشرى • فهم يؤمنون بقدرة العقل أى بقدرتنا على تصميم تقنيات تستخدم قدراً أقل من الموارد وتسبب درجة أقـــل من التلوث ، وفى الوقت نفسه تعيد معالجة كل النفايات لتصنع منهـا مواد صالحة للاستخدام • ويؤكد هذا الفريق أن الأزمة الحالية تتطلب تغيرات ثورية فى الطريقة التى يتم بها تنظيم الاقتصاد والتكنولوجيا • ويشكل هؤلاء المتوجهون نحو المســتقبل التيار الرئيسى للمدافعين عن البيئـــة •

غير أن ثمة من ينازعهم السيطرة الأيديولوجية على الحركة • ويريد هؤلاء الذين يصفون أنفسهم بـ « الأصوليين » اعادة المجتمع الى فترة القرون الوسطى وتقشف ما قبل التكنولوجيـا • انهم «اللاهوتيون — البيئيون » • وتتفق بعض وجهـات نظرهم مع رؤى المتطرفين الدينيين •

يؤكد هؤلاء اللاهوتيون البيئيون أن التكنولوجيا لا يمكنها أن تمنح أى عزاء أو فرج وبالتالى فاننا محكوم علينا بالسقوط مرة أخرى فى الفقر الذى ميز العصور قبل الصناعية • وهم يعتبرون هذا الاحتمال نعمة ربانية •

لقـد نشرت مجلة « نيو بريسبيكتيفز » الفصلية سلسلة من المقالات تعرض فيها بجلاء الخطوط العريضة لوجهة نظرهم • فالمسألة بالنسبة لهؤلاء المنظرين الداعين للعودة الى الوراء ليست بيئية فى المقام الأول وانما هى دينية • انهم يودون استعادة ذلك العالم المشبع بالدين الـذى لم يعد له وجود فى الغرب منذ القرون الوسطى • وتوفر لهم حركـــة حماية البيئة مطية مناسبة لتحقيق ذلك •

ان هذه الفئة تختزل تاريخ علاقاتنا بالطبيعــة الى رموز بلاغيـة مستمدة من التوراة • ففى البداية كان هناك « عصر ذهبى » بيئى عاش فيه البشر فى تناغم وانسجام مع الطبيعة وعبدوها ، ثم سقط الجنس البشرى خارج « جنة عـدن » هذه مع قدوم العصر الصـــناعى ، عندما سيطر « الشيطان » — أى التكنولوجيا — على شئون البشر • والآن يتعين علينا ان ننتقل الى « فردوس » جديد مصنوع من انسجام تام والا فان نهاية العالم تهدد الجنس البشرى •

ان المغالاة فى فرض حكمة ورموز غربية — بل ومسيحية — عـلى التاريخ المعقد للغاية لعلاقاتنا بالطبيعة هى منهج جديد بلاهوتيى البيئـة الذين ينسبون الكمال الى الحياة فى قرية القـرون الوسطى •

ويؤكد رودورلف باهرو ، وهــو من منظرى « جماعة الخضر » ذوى التأثير والمكانة ويعيش حاليا فى ألمانيا الغربية ، ان ما نحن فى حاجة اليه هو « علم لاهوت وليس علم بيئة ــ اننا نحتاج الى ميلاد عصر ذهبى جديد ينمى [....] النبل فى الانسان » .

ويرجع بنا باهرو الى القرن الثالث عشر ليستشهد بأداء ايكهارت مؤسس التصوف الألمانى « الذى عاش فى وادى الراين المدمر الآن » ، وكان يقول ان كل الكائنات تحوى الله داخلها . كمـا وجد باهرو نفس الفكرة فى أشــعار ميختيلد أوف ماجـدبيرج التى عاشت أيضا فى القرن الثالث عشر والتى ينقل عنها تعبيرها الشعرى الجميل الذى يعتبر كل مخلوق « ومضة من النعمة الالهية » .

اذن ، فالخلاص البيئى بالنسبة له هو قضية دينيــة ، وأمــر لــن يســـتطيع قط العالم الدنيـــوى أن يؤمنه . حتى ان باهرو يؤيد آية الله خومينى عندما قال لجورباتشوف ان اللجـوء الى الله أفضل من اللجـوء الى الاصلاحات الاقتصادية لحل مشكلات الاتحاد السوفيتى .

ويهاجم منظر آخر هو وولفجانج ساش من جامعة بنسـلفانيا معهد « ورلد ووتش » ــ وهو معهد مرموق لأبحاث البيئة ــ ويتهمه بأنه يلجأ الى « وجهة نظر حديثة بشكل خاص » ، كما طعن فى الوقت نفسه فى آراء أمورى لفينس المطالبة بكفاءة أعلى فى استخدام موارد الطاقة . ان ما يريده ساش هو « اقتصــاد منزلى جيد » فى حدود تقاليد وأعـراف « الأسر الموجهة نحو مجرد الكفاف » .

أما ايفان ايليخ ، وهو من أكثر النقاد الاجتماعيين خيالا وله عدة مؤلفات باهرة عن النظريات البيئية ، فيعارض كلا من « فاشية الادارة » والدعوة الساذجة الى تدمير الآلات الصناعية . الا انه يدعو الى «البقاء بدون تنمية » ، أى انه يدعو باختصار الى الركود .

يرى ايليخ أن البساطة والزهد فى المأكل « هو » قدر الانسان ويجب ثقيلة على هذا النحو . ومن ثم فمنــذا الذى يحتاج لتنمية ؟ وطبقا له ، فان النظام الجديد لخلق الثروة بعث حياة جـــديدة فى منطق التصنيع المنهك . وان كان يرى أن النظام التكنولوجى الجديد القائم على المعرفة لا يتعارض مع المنطق القديم للتصنيع فى نقاط عديدة .

بالنسبة لايليخ ايضا ، فان قضية البيئة قضية لاهوتية اساسا ، اذ يقول : « كان الله منسق الكون » فى زمن كان العيش على حد الكفاف

مقبولا كأمر طبيعي وعادى · وهى الحالة التى يجب أن نعود اليها · لقد ظلت البشرية والطبيعة فى حالة انسجام وتناغم طوال حقبة القرون الوسطى التى وجه فيها الدين العقل · الا أن « الانسان ، وهو عامل عدم الاتزان » خرب هذا الانسجام تحت وطأة الثورة العلمية · ويعتبر ايليخ أن فكرة « نظام بيئى قابل للانضباط علميا من خلال آليات تغذية ارتجاعية متعددة » خداع ووهم · وهو يوضح بجلاء أن العودة الى عالم زاهد مركزه الله أفضل من ذلك بكثير ·

كما تتضمن البلاغة اللاهوتية ـ البيئية أكثر من اشارة الى المفهوم المسيحى ليوم الحساب ، ولقد كشف الكاتبان مارك بايفورد ولندا بيلمز أن جماعات الخضر المنتمين الى هذا الاتجاه تعتبر أن « الاستهلاك اثم » ولذلك فهى ترى فى الكوارث البيئية « عقابا للنزعة الاستهلاكية المفرطة والتبذير وفقدان الروحانية » · وكما يحدث فى موعظة الأحد فنحن مدعوون « أن نتوب ونصلح من أنفسنا » ، أو ـ ان جاز لنا أن نضيف ـ حذار من لهيب الجحيم ! ·

لا مجال هنا لمحاولة حل المشكلات الخطيرة التى يثيرها الجدل البيئى والذى لا يقل أهمية ، على الصعيد الفلسفى ، عن الجدل الذى أثاره مفكرو عصر التنوير فى فجر العصر الصناعى · ان ما يهمنا هنا هو التأكيد على التطابق بين وجهات نظر اللاهوتيين الخضر والأصوليين الدينيين فى عدائهم العميق للديمقراطية العلمانية ·

فالطرفان يؤكدان على المطلقات ، وعلى ضرورة فرض قيود صارمة على الاختيار الحر للأفراد (لجعل سلوك الناس « أخلاقيا » أو « لحماية البيئة ») وهو ما يدفع الى توقع هجوم مزدوج ضد حقوق الكائن البشرى· مع ذلك ، فان عددا من المدافعين عن البيئة يعرب عن قلقه صراحة من ظهور « آيات الله خضر » أو « فاشيين بيئيين » يريدون فرض نظرتهم الخاصة للخلاص · ومن ثم يحذر باهرو من أنه « عند تعرض البشرية لأزمات عميقة تلعب الكاريزما دائما دورا ، وكلما كانت الأزمة خطيرة كانت الشخصية الكاريزمية التى تبرز أكثر كآبة [····] هل سنحصل على أدولف هتلر أخضر أم لا ؟ [····] يتوقف ذلك على ما سيتحقق من تطور فى العقليات من الآن وحتى وقوع تشيرنوبل أخرى » ·

وقد يعجب المرء بنزاهة وابداع مفكر مثل ايليخ الذى لا يتصف بالطبع بأية صفة من صفات الفاشية · الا أن ذلك لا يمنع من الكشف عن

المضامين المضادة بعمق للديمقراطية التى ينطوى عليهـا بحثه عن المطلق والدائم والثابت والمقدس • ويحذر عالم الاجتماع الفـرنسى آلان تورين ، فى معرض نقده للاهوتيين البيئيين من « اننا اذا نبـذنا العقـل بدعوى الحفاظ على طبقة الأوزون فاننا بذلك نتجـه نحو أصـولية خضراء وثيوقراطية بيئية من طراز آية الله خومينى » •

واذا كان مثل هذا الخوف قد يبدو مبالغا فيه فعلينا أن نتذكـر حركة فوندر فوجيل الشبابية فى ألمانيا فى العشرينات من هـذا القرن ـ مع ملاحظة أن حركة الخضر فى ألمانيا الآن هى الأشد تطرفا • وكان أعضاء حركة الفوندر فوجيل التى ظهرت فى ظل جمهورية فايمر أشبه بـ « هيبيز خضر » ، فكانوا يجوبون البلاد بحقائبهم على ظهورهم حاملين الزهور والجيتار وينظمون مهرجانات تدعو بشدة الى الروحانية والعـودة الى الطبيعة •

وبعد ذلك بعشر سنوات فقط كان هتلر فى السلطة • وكان هتلر ايضا يمجد قيم ما قبل العصر الصناعى ، مصورا المدينة النازية الفاضلة على أنهـا المكان « الذى يسترد فيه الحـداد كـور حدادته ويسـير فيهـا المزارع وراء محراثه » •

ويقول البروفسير ج•ب• شـتيرن ان هتـلر يسـتدعى هنا « صورة شعرية ريفية قبل صناعية » ، وكان أيديولوجيو هتلر يمتدحون دائمـا كل ما هو « عضوى » ويؤكدون على اللياقة البدنية ويسـتخدمون أوجه التناظر البيولوجية لتبرير أكثر الأحقـاد العـرقية دناءة • كتب جـورج موس فى كتابه « أزمة الأيديولوجية الألمانية » يقول : « انضم مئات الآلاف من الشباب الى هذه الحركة الشبابية ، ولم يجد عـدد كبير منهم صعوبة كبيرة فى التكيف مع المواقف الأيديولوجية النازية » •

هل يمكن حقا للمرء أن يتخيل حزبا للخضر الجـدد يرتدى أفراده الشارات والأحذية العسكرية الثقيلة ويحتشدون لفرض وجهات نظـر الحزب حول الطبيعة على باقى المجتمع ؟! •

بالطبع لا فى ظل ظروف عادية وطبيعية • ولكن ماذا اذا لم تعـد الظروف كذلك ؟! •

ولنتخيل عواقب كارثة بيئية أخرى من نوع كارثة بوهال تقع هذه المرة فى سياتل مثلا أو شـتوتجارت أو شفيلد ، تتبعها حوادث مماثلة

فى أماكن أخرى مصحوبة بفوضى فساد وارتباك بشع فى مجال اغاثة المتضررين • كل ذلك وسط صياح الأصوليين بأن الكارثة أنزلها الله عقابا للفسق و « الاباحية » • تصوروا وقوع هذه الأحداث فى فترة كساد اقتصادى حاد ، ثم تخيلوا « أدولف هتلر ـ بيئى » ساحرا وبليغا يتعهد للناس لا بحل الأزمة العاجلة فحسب ولكن « بتطهير » المجتمع ماديا ومعنويا وسياسيا ـ فقط اذا ما منح سلطات استثنائية «خاصة» •

وتنطوى بعض موضوعات الخطابة اللاهوتية ـ البيئية الحالية على شىء ما عبثى شأنها فى ذلك شأن خطب أدولف هتلر وأيديولوجييه • كان رجال الدعاية النازية يمجدون العصور الوسطى (خاصة الفترة التى هيمنت فيها الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة على أوروبا) باعتبارها الحقبة التى بلغت فيها الثقافة « ذروتها » •

أما اليوم فيكتب أحد الأصوليين البيئيين البريطانيين فى رسالة لمجلة « الايكونومست » قائلا : « ان أهداف الأصوليين الخضر من أمثالى [••••] هى العودة الى أوروبا التى كانت موجودة فى الماضى البعيد [••••] بين سقوط روما وقدوم شارلمان » ، حيث كانت وحدة المجتمع الأساسية هى « الملكية الريفية التى كانت تتجاوز بالكاد الضيعة الصغيرة [••••] وان الطريقة الوحيدة لكى يعيش البشر فى انسجام مع الطبيعة هى التمسك بالكفاف » •

غير أن ما لا يقوله لنا عادة حماة البيئة الداعون للعودة الى القرون الوسطى هو الثمن السياسى الذى يتعين دفعه • فهم نادرا ما يشيرون الى غياب الديمقراطية عن تلك القرى الريفية التى يطرحونها كنموذج ـ قرى خاضعة لسلطة النظم الأبوية القاسية وللتسلط الدينى على الضمائر وللجهل الاقطاعى ولضروب القسر والضعف • هذه هى الثقافة التى مجدها النازيون • لم يطلق على الفترة بين سقوط روما وقدوم شارلمان تعبير عصر الظلمات عبثا •

لو كان اللاهوتيون البيئيون وحدهم لما استحقوا التوقف طويلا عند حالتهم ، لأنهم لا يمثلون سوى شريحة صغيرة على أطراف حركة حماية البيئة • لكن من الخطأ اعتبارهم ظاهرة منعزلة ولا أهمية لها • فحركة الصحوة الدينية وحركة « الخضر » على حد سواء يولدان نماذج رجعية متطرفة يسعدها للغاية اسقاط الديمقراطية • ويمكن للأجنحة المتطرفة لهاتين الحركتين أن تتلاقى لفرض قيود جديدة على السلوك الشخصى والسياسى ، من أجل مجد الله و « الخضرة » • ومعا يدفعان الى تحول السلطة نحو الماضى•

المصابون الجدد بكراهية الأجانب :

هناك سمة أخرى مميزة لقرية العصور المظلمة ألا وهى الكراهية الشديدة للأجانب حتى ولو كانوا من القرية المجاورة . وبقدوم العصر الصناعى انتقل ولاء الأفراد والجماهير تدريجيا الى الأمة ، غير أن كراهية الأجانب والتعصب الوطنى (الشوفينية) ظلا من أدوات سلطة الدولة .

ان الانتقال الراهن الى اقتصاد قائم على المعرفة يتطلب مزيداً من الاعتماد المتبادل المتخطى لحدود الدول مقارنة بالاقتصاد الصناعى . وهو ما يحد حتما من حرية واستقلالية حركة كل بلد ، الأمر الذى يثير بدوره رد فعل معاد للأجانب فى جميع المجالات ، ابتداء من التجارة الى الثقافة .

ففى الوقت الراهن ، تستعد الحكومات فى جميع انحاء أوروبا لاستقبال هجوم الثقافات الوافدة – من خلال التليفزيون والسينما اساسا – عقب تكامل دول السوق الأوروبية . ان اكثر ما يثير قلق الحكومات الأوروبية هى المواد الاخبارية المعالجة بواسطة الأجانب . وتؤكد صحيفة « لوموند » الفرنسية أن مشروع الجماعة الأوروبية « تليفزيون بلا حدود » ، « قد يسارع فى زرع المنتجين والموزعين الانجلوسكسونيين الذين حققوا تقدما حاسما فى اقامة شبكات عبر أوروبا » . كما يخشى الأوربيون من احتمال قيام شبكة مغربية ببث برامج باللغة العربية ، بواسطة الأقمار الصناعية ، لحوالى ١١ مليون مهاجر من شمال أفريقيا مقيمين فى أوروبا وأغلبهم من المسلمين ، ولقد تزايد هذا القلق عندما سجل الأصوليون المسلمون نجاحا فى الانتخابات التى أجريت فى الجزائر العلمانية .

غير أن ذلك ليس سوى نذير لما يمكن أن يحدث ، فتكنولوجيا الأقمار الصناعية وغيرها من أجهزة وأدوات الاعلام الجديدة تحطم وتتخطى كل متاريس وتحصينات الثقافات الوطنية . ويؤكد دان جولدين خبير الأقمار الصناعية أن أجهزة الاستقبال المنزلى للبث بالأقمار ستباع قريبا بجزء من سعرها الحالى المنخفض سلفا . وبالتالى سيتمكن ملايين البشر عبر العالم من التقاط البرامج الأجنبية – برنامج منوعات برازيلى ونشرة أخبار نيجيرية ومادة درامية من كوريا الجنوبية وبرنامج دعاية ليبى . والحالة هذه فان هذه الاتصالات المتقاطعة والمتعددة تهدد «الهوية الوطنية » التى تسعى الحكومات لصيانتها وترسيخها لمصلحتها الخاصة .

وتصبح الهوية مشكلة متفجرة عنـدما تستنفر مخاوف الاقتـلاع الثقافى نتيجة للهجرة الواسعة النطاق ٠

ان دعاة السـوق الأوروبية الموحدة يحولون بدعوتهم الى فتـح الحدود لرؤوس الأموال والثقافات والبشر ، استبدال مشاعر الانتماء الوطنى التقليدية بمشاعر « فوق قومية » ٠

ولكن لما كان الاقتصاد الجـديد يزداد تكاملا على مستوى العـالم مصدرا البطالة والتلوث والثقافة بنفس قدر تصديره للمنتجات والخدمات، فاننا نشهد صحوة للنزعة القومية ولمضاعفاتها فى عالم يتميز بتكنولوجيا متطـــورة ٠

فحركة لوبان فى فرنسا بشعاراتها المناهضة بشراسة للغرب ، والتى يقودها ضابط مظلات سابق يسمح لنفسه أن يصف أفران الغـاز بأنهـا « تفاصيل ثانوية » ، تستثير ردود فعل بافلوفية كارهة للأجانب ٠ وهذا الحزب له الآن عشرة مقاعد فى البرلمان الأوروبى ٠

أما فى ألمانيا ، فان الحزب الجمهورى المتطرف ، الذى أسســه فرانز شوينهوبر – وهو صف ضابط سابق – لا يهاجم العمال الأتراك المهاجرين فحسب وانما يهاجم أيضا اللاجئين من أصل ألمانى القادمين من بولندا والاتحاد السوفيتى متهما اياهم بأنهم يستولون على عمل وسكن ومعاشات « الألمان الحقيقيين » ٠ وحصـل الحـــزب الجمهورى ، الذى يرتبط بحزب لوبان فى فرنسا وبأحزاب متطرفة أخرى فى أوروبا ، على ١١ مقعدا فى برلمان ألمانيا الغـربية عام ١٩٨٩ ، كما فاز بستة مقـاعد فى البرلمان الأوروبى ٠

وتحت شعار « ألمانيا أولا » ، يصف شوينهوبر ألمانيا – التى هى أحد أغنى بلاد العالم – بأنها « ضحية » ، وهو ما فعله هتلر من قبل بعد معاهدة فرساى ٠

وكتب جوزيف جوف ، عالم اللغة والثقافة الألمانية المرموق ، فى صحيفة« وول ستريت » مقالا ذكر فيه أن شوينهوبر وجه « نداء الى حمـل السلاح ضد باقى العالم الذى يحاول قهر ألمانيا بتكبيلها الى ماضيها » – أى أن العالم لا يريد أن يتركها تنسى جرائم هتلر ٠ (غير أن شوينهوبر ترك الحزب منذ ذلك الوقت ناعتا اياه بأنه غير متطرف بما فيه الكفاية)٠

عندما يتعرض بلد ما لتأنيب دائم ومستمر عن اخطاء جيل سابق فمن المتوقع بالطبع حدوث رد فعل قد يتخذ شكل التأكيد على الاعتداد الوطنى · ولكن الاعتداد بماذا ؟ فبدلا من حث ألمانيا لكي تصبح قوة ذات اشعاع عالمى ، وذلك عن طريق اقامة ديمقراطية متقدمة تنتمى للقرن الحادى والعشرين ، يسترجع القوميون الألمان الجدد أمراض بلادهم الماضية المناهضة للديمقراطية ، ليعطوا بذلك جيران ألمانيا سببا وجيها كى لا يجعلوها تنسى جرائمها السابقة ·

ومع سقوط سور برلين واعادة توحيد ألمانيا ، أضحى لما يحدث فى بون وفى برلين (التى ستكون قريبا بلا ريب عاصمة ألمانيا الموحدة) نتائجه وأصداؤه فى جميع أنحاء أوروبا · ومن ثم فان عيونا كثيرة تراقب عن كثب الحزب الجمهورى ·

غير أنه توجد حركات قومية مماثلة فى العديد من دول أوروبا الغربية ابتداء من بلجيكا حتى ايطاليا وأسبانيا ، وفى كل مكان يهدد التدفق الحر للثقافات والاتصالات وحركات الهجرة ، المفاهيم القديمة التى وضعتها الأمم لنفسها ·

ان انبعاث موجة كراهية الأجانب ليس قاصرا على أوروبا ، ففى الولايات المتحدة أيضا تزداد ردود الفعل القومية اتساعا · فالخوف من أن تعانى أمريكا من أفول اقتصادى وعسكرى بالاضافة الى السأم من تكرار اتهام الأمريكيين بالامبريالية والمادية والعنف والفظاظة دفعا المواطن الأمريكى العادى الذى لا يهتم عادة بالسياسة الى الاستجابة للديماجوجية القومية ·

كما يشجع المتطرفون البيئيون مشاعر العداء المتنامية للهجرة ، اذ يدعون أن تدفق المهاجرين المكسيكيين يضر بالبيئة فى الولايات المتحدة · غير أن بعث هذه النزعة « الأهلانية » (*) ليس سوى أحد مظاهر نزعة تعصب قومي جديدة ·

فعندما قررت المحكمة الدستورية العليا فى عام ١٩٩٠ أن احراق العلم شكل من أشكال حرية التعبير السياسى ، ومن ثم يحميه القانون الأمريكى ، أثارت بذلك عاصفة من مشاعر الغضب · وتعرض مقدمو

(★) هى سياسة تقوم على حماية مصالح أهل البلاد الاصليين وتقديمها على مصالح المهاجرين ·

برامج التليفزيون لحصار من المكالمات والنداءات الغاضبة ، وسرعان ما اقترح البيت الأبيض ادخال تعديل فى الدستور لحظر تلك الممارسة ٠

ومن أعراض هذه العقلية الجديدة الحملات المضادة لليابان ، والتى أصبحت لعبة شائعة فى الآونة الأخيرة بين دعاة الحماية الجمركية والمواطنين العاديين الذين يثير قلقهم عجز الموازنة الأمريكية وعمليات الشراء المكثفة التى يقوم بها اليابانيون لشركات وعقارات أمريكية ٠

وفى الوقت نفسه ينمو احساس قومى متطرف فى اليابان ٠ فالقوميون الذين ظهروا مرة أخرى يطالبون بتعديل فى الدستور يسمح باعادة بناء جيش قوى ، فبالنسبة لهم « لم تقترف اليابان شيئا يدعو للخجل » خلال الحرب العالمية الثانية ٠ وهى وجهة نظر تثير قلق الصين والدول الأخرى المجاورة التى اكتسحتها اليابان ابان تلك الفترة ٠ لقد تعرض عمدة ناجازاكى لمحاولة اغتيال لمجرد أنه ألمح الى أن الامبراطور هيروهيتو ربما يتحمل جزئيا مسئولية الحرب العالمية الثانية ٠ ومن ناحية أخرى حذرت صحيفة « أساهى شيمبون » اليومية واسعة الانتشار ، بعد اغتيال أحد محرريها على أيدى القوميين ــ كما هو مرجح ــ قبل حادث عمدة ناجازاكى بقليل ، من أن أعمال العنف تلك « ستؤدى الى الفاشية » ٠

ويدعى المتطرفون القوميون أن اليابان لها « روح » ولغة مختلفتان عن روح ولغة أية أمة أخرى ، وأسمى منهما بالطبع ، كما تلقى عقيدة « اليماتوئية » التى تشجع نمو مثل هذه الأفكار اهتماما متزايدا وذلك لتعويض فقدان الهوية القومية الناجم عن عملية اضفاء الصبغة الغربية على يابان ما بعد الحرب العالمية الثانية ٠

ان نغمة القومية أصبحت تجد الآن فى اليابان آذانا صاغية بعد أن ظلت الولايات المتحدة تعامل اليابانيين ــ منذ الحرب ــ معاملة الراعى المنان ، وبعد أن ضاقوا ذرعا من لوم الآخرين لهم على السياسة الاقتصادية التى حققت لبلادهم نجاحا باهرا ٠

ولا ينقص هذا الشعور الوطنى الرائع ، الذى يواكب نجاحا ماليا خارقا على الساحة العالمية وقدرة عسكرية متنامية ، سوى الارتباط بالقوى الأكثر مناهضة للديمقراطية داخل المجتمع اليابانى ٠

وأخيراً ، ان ما يجعل الانبعاث الواسع النطاق للقـــومية أمراً مذهلا هو ظهورها مرة أخـرى كقوة سياسية لهـا وزنهـا فى الاتحـاد السوفيتى ودول شرق أوروبا · ففى الواقع ، يمكن وصف انقـــلابات التى وقعت فى هذه المناطق بأنها انتفاضات قومية بنفس قـدر كونهـا انتفاضات ديمقراطية ، فى بلدان خضعت للسلطة الروسية قرابة نصف قرن ·

ان من أهم المهام التى تنتظر العالم خلال العقود المقبلة وأكثرها اثارة للعواطف ، مهمة اعادة صياغة مفهوم « الأمة » ، والتى ســتكون مهمة حاسمة · وفى الوقت نفسه ، من الضرورى ابقاء سيطرة الدولة على بعض الوظائف لتفادى اكتسابها طابعا « محليا » أو « عالميا » · غير أن التعصب القبلى والقومى الأعمى يعتبر عامل ارتداد ونــكوص خطير ويؤدى ارتباطه بمفهوم التفــوق العنصرى أو الحـق الالهى الى العنف والقمع ·

وانه لأمر له دلالته أن ترتبط غالبا هذه الحركات فى الاتحـــاد السوفيتى ــ حيث هزت المشاعر العرقية الدولة نفسها ــ بحماية البيئة أو بالأصولية الدينية · فالأفكار البيئية يجرى استغلالها لاثارة المشاعر العرقية ضـد موسكو · وفى طشــقند بدأت حــركة تسمى بيرليك بوقف بناء مصنع للمكونات الالكترونية ، ثم اتخذت بعد ذلك صبغة اسلامية أصولية ·

وما هو اكثر دلالة أيضا من العنف المتزايد فى مطالبة دول البلطيق وأرمينيا وجورجيا وأذربيجان وجمهوريات أخرى فى الاتحـاد الســوفيتى بالحكم الذاتى أو الاستقلال ، هو تصاعد النزعة العرقية بين المــواطنين الروس الذين يمثلون أغلبية الاتحاد السوفيتى · وفى معرض حديثه عن تولستوى ، وصف المؤرخ بل جنسون القومية الروسية بكلمـات يمكن أن تنطبق على ما يحدث الآن ، اذ قال : « انها تتسم بفكر شوفينى مشــبع بقناعة أن الروس هم جنس متفرد يحظى بصفات معنوية وأخلاقية فريدة (متجسدة فى الفلاح) كرسه الله للقيام بدور فى هذه الدنيا » ·

هذا الموقف ، يتجسد بشكل متطرف فى تنظيم البايمـــات المنـــاهض للسامية وللأجانب والذى يدعى أن له ثلاثين فرعا على امتداد الاتحاد السوفيتى و ٢٠ الف عضو فى موسكو وحدها · ويرتبط هذا التنظيم بروابط وثيقة مع الجيش وال (كيه· جى· بى) ، كما يتمتع بمساندة

موظفى الصفوف المتوسطة ويضم العـديد من الكتاب المشهورين وبعض الوجوه الثقافية • وهذا التنظيم الذى يواجه حاليا اتهاما قضائيا بالحض على الكراهية يذكر بحركة « المائة السوداء » العنصرية التى كانت تنظم المذابح ضد اليهود فى ظل القيصرية فى بداية القرن الحالى •

ويدعى تنظيم بايمات ومجموعات أخرى مماثلة انهم لا يهتمـون الا بانقاذ المبانى الأثرية القديمة وبحماية البيئة ، غير أن هدفهم الحقيقى هو اعادة تشكيل وخلق نفس المجتمع القائم على الوحدة القروية الذى يمجده هنا أصوليون « الخضر » • وبعض هذه الجماعات تطالب أيضـا بعودة القيصرية المرتبطة بالأرثوذكسية الدينية •

ان البايمات شأنهم فى ذلك شأن شوينهوبر فى المانيا ، الذى ينفى معاداته للسامية بينما يردد أكاذيب عهد هتلر عن اليهود ، فهـم يشـنون هجوما شديدا على كل من « حول كنائسنا ومعـابدنا وأديرتنيـا وقبـور الأبطال القوميين لوطننا الحبيب الى حالة مأسـاوية » وكذلك « بيئـة بلادنا » • وينادى البايمات بعودة جماعية للأرض ـ « فلتسقط المـدن العملاقة ! » ـ وباحياء « الفلاحة بالمحراث التى تعود الى قرون خلت » •

هنا اذن ، نجد نزعة عرقية كارهة للأجانب مختلطـة صراحـة بالأصولية الدينية والنزعة « البيئية القرن أوسطية » فى بوتقة واحـدة جديرة بعصور الظلمات •

وبذلك يتوفر خليط قابل للاشتعال لقوى قد تنفجر فى وجه النظم الديمقراطية فى أى مكان • وفى أسوأ الحالات فان هذا الخليط يطرح صـورة دولة عنصرية أو قبلية أو دولة يسـودها نظـام أخضر فاشي ولاهوتي ـ وهى الوصفة المثـلي لالغـاء حقـوق وحرية الفكر فضلا عن الملكيـة الخـاصة •

قد يكون من الصعب تخيل مثل هذه الدولة الا كمحصلة لأزمـة أو مأساة هائلة أو تشنج ـ بيئى يجسد اضطرابا بيئيا وأزمة اقتصادية عميقة وفزعا أو حربا •

غير أن الأمر لا يتطلب تصور أسـوأ السـيناريوهات لكى نشعر بالقشعريرة ، فلا حاجة لأن تستولى مثل هذه الحركات ، منفصلة أو

متحالفة ، على دولة ما لكى تقيد أو تدمر بعنف شكلا من الديمقراطية يعانى بالفعل من الضعف ، حتى فى الدول ذات التكنولوجيا المتقدمة ، نتيجة اختلاف الطور الذى يزداد وضوحا باطراد بينه وبين الاقتصاد والمجتمع البازغين ٠

فالحكومات التى يسيطر عليها المتطرفون أو التى يؤثرون عليها بشكل واضح لن تظل طويلا ديمقراطية ، لأن هؤلاء المتطرفين يقدمون نمطهم الخاص فى العقيدة أو البيئة أو القومية على قيم الديمقراطية ٠

ان نظام خلق الثروة المتطور الذى ينتشر حاليا فى العالم يفتح احتمالات وامكانات جديدة للديمقراطية ، فهو لأول مرة ، كما رأينا ، يجعل من حرية التعبير ضرورة اقتصادية وليست مجرد وسيلة سياسية للنجاح ٠ لكن فيما يبدأ المجتمع الصناعى القديم هبوطه الدوامى النهائى تبرز قوى مضادة قد تدمر الديمقراطية وامكانات التقدم الاقتصادى فى آن واحد ٠

ولانقاذ كل من التطور والديمقراطية ، يتعين أن تقفز النظم السياسية الى مرحلة جديدة كما يفعل الاقتصاد حاليا ٠ ولكن هل يمكن النهوض بهذا التحدى الضخم ؟ ستحدد الاجابة على هذا السؤال ما اذا كان التحول النهائى للسلطة الذى يرتسم فى الأفق سيحمى الفرد أم سيستعبده ٠

ان الصراع الأيديولوجى الرئيسى فى عصر تحول السلطة الذى ينفتح أمامنا الآن لن يكون بين الديمقراطية الرأسمالية والشمولية الشيوعية بل بين ديمقراطية القرن الحادى والعشرين وظلام القرن الحادى عشر ٠

الباب السادس

انتقال السلطة على نطاق العالم

الفصل التاسع والعشرون

عامل « المعرفة »

نادرا ما حدث في زمن السلم انتقال مذهل للسلطة مثل الذى أعقب التفكك السريع للكتلة السوفيتية،التى كانت فى السابق صلبة ومتماسكة· لقد استعادت فجأة كل من وارسو وبراغ وبودابست وبوخارست وبرلين ، السلطة التى ظلت طوال نصف قرن متمركزة فى موسكو · وتفكك « الشرق » خلال بضعة شهور حاسمة ·

وصاحب تفكك ما يسمى بالجنوب انتقال آخر للسلطة · فلم تتمكن قط « الدول الأقل تقدما اقتصاديا » من تشكيل جبهة حقيقية موحدة فى مواجهة العالم الصناعى ، بالرغم من الجهود التى بدأت فى عام ١٩٥٥ بعقد مؤتمر باندونج فى أندونيسيا · وفى السبعينات كرست الأمم المتحدة كل فن الخطابة لديها للاحتياجات المشتركة « للجنوب » · وبدأ تنفيذ برامج تبادل تكنولوجى « جنوب ــ جنوب » وأشكال أخرى من التعاون ، كما نظمت حملات لتعديل شروط التجارة بين الشمال والجنوب · وانتقلت السلطة ولكن ليس كما كان يتمنى دعاة الجنوب الموحد ·

ففى الواقع ، تفككت « الدول الأقل تقدما اقتصاديا » الى مجموعات متميزة لكل منها احتياجات مختلفة تماما · تتكون المجموعة الأولى من بلدان شديدة الفقر تعتمد اعتمادا كبيرا على العمل الزراعى المميز للموجة الأولى ، فى حين تضم المجموعة الثانية بلدانا مثل الهند والبرازيل والصين ، وهى وان كانت تنتمى للموجة الثانية وتمثل قوى صناعية قوية فان مجموعات كبيرة من سكانها لا تزال تستمد قوتها من الزراعة قبل الصناعية · أما المجموعة الثالثة فتتكون من بلدان مثل سنغافورة وتايوان وكوريا الجنوبية ، وهى بلدان صناعية تتقدم بأقصى سرعة فى طريق التكنولوجيا المتطورة التى تميز الموجة الثالثة · وبالتالى فهناك تفكك للسلطة فى الكتلة الشرقية كما فى الجنوب ·

ويمثل بروز اليابان وأوروبا كمنافسين للولايات المتحدة الانتقال المهم الثالث للسلطة (فكل طرف يكافح من أجل السيطرة على القرن الواحد والعشرين) ٠ ومن ثم ف « الغرب » بدوره فى طريقه للانقسام ٠

وبالرغم من أن رجال السياسة والدبلوماسيين ووسائل الاعلام يتعاملون مع هذه التحولات على أنها ظواهر منعزلة ، فان هناك رابطة عميقة نسجت أواصرها بين هذه التحولات الثلاثة ٠ لقد تحطم البنيان العالمى الذى كان يجسد تجانس القوى الصناعية المنتمية للموجة الثانية مثل تحطم كرة بلور تحت ضربة مطرقة حداد ٠

يوجد فى الأصل ، بطبيعة الحال ، العديد من الأسباب لمثل هذه التطورات التاريخيـة ، ولا يستطيع تفسير واحد أن يعلل وحده هذه التطورات ٠ ان اختزال التاريخ الى قوة وحيدة أو عامل وحيد ، يمثل تحديا للتعقيد والتركيب والصدفة ولدور الأشخاص وعدد كبير من التغيرات الأخرى ٠ ولكن فى الجانب المقابل فان اعتبار التاريخ مجرد توال وتعاقب لأحداث لا تربط بينها علاقة ولا تخضع لنموذج ما ، يمثل أيضا اتجاها اختزاليا ٠

ان تحديد هوية القوى المشتركة التى تستند اليها كل من هذه التحولات يسمح بتكوين تصور عن نماذج السلطة المستقبلية على امتداد العالم ، بدلا من اعتبارها أحداثا معزولة ٠ اننا نعتقد أن هذه التحولات التاريخية مرتبطة ارتباطا وثيقا بأفول التصنيع ، وببروز الاقتصاد الجديد المتمحور على المعرفة ٠

اهرامات ورحلات الى القمر :

لقد كان التقدم الذى تحقق فى مجالات العلوم والتكنولوجيا منذ الحرب العالمية الثانية خارقا ، حتى انه كان يصعب تخيل المزيد ٠ واذا كانت هذه الفترة لم تشهد سوى اكتشاف الاعلاماتية والحامض النووى لأمكن اعتبار فترة ما بعد الحرب أكثر فترات تاريخ العلوم ثورية ، الا أن ما حدث فى الواقع أكثر من ذلك بكثير ٠

لم نكتف بتحسين تكنولوجياتنا وصولا بها الى حد الكمال ولكننا بدأنا نؤثر على الطبيعة بشكل أعمق وأدق ، بحيث أصبحنا حاليا قادرين

على تكوين طبقة من المادة رقيقة لدرجة لا تصدق ، حتى ان « الالكترونات داخل هذه الطبقة تنتقل فى بعدين فقط » ، طبقا لكلمات مجلة « ساينس »، وذلك بدلا من التعامل مع قطع كبيرة من المادة • كما تمكنا من حفر خطوط لايزيد عرضها عن ٢٠ × ١٠ ^-٦ ملليمتر بواسطة ماء النار ، وقريبا سنتمكن من تجميع الأشـياء ذرة ذرة •• ان ذلك ليس « تقدما » ولكنه انقـلاب حقيقى •

ففى عام ١٩٨٩ وضعت أكاديمية الهندسة الوطنيـة فى الولايات المتحدة قائمة لما اعتبرته أهم عشرة وعود تقنية خلال الخمسة والعشرين عاما الأخيرة • وتصدر القائمة أول هبوط لمركبة الفضاء أبوللو على سطح القمر ، وهو ما يعادل فى التاريخ بناء الأهرامات المصرية • ويأتى بعد ذلك تطوير الأقمار الصناعية والمعالجات الميكروية وأشعة الليزر والطائرات النفاثة الضخمة ومنتجات الهندسة الوراثية وغيرهـا من الاكتشافـات المثيرة الأخرى •

ومنـذ بداية الخمسينات ، عنـدما بدأ نظام خلق الثروة الجديد يبرز فى الولايات المتحدة ، شق الانسان لأول مرة فى التاريخ طريقا نحو النجوم وحدد هوية البرنامج الوراثى للحياة واخترع أدوات ذكية لا تقل أهمية عما كانت عليه الكتابة • انه كم من الانجازات غير مسبوق بالنسبة لجيل واحد •

لم يكن التقدم الملحوظ الذى تحقـق مقصـورا على المعرفة العلمية أو التكنولوجية ، ففى كل المجالات حدث انقلاب فى قاعدة المعرفة ، ابتداء بنظرية التنظيمات وحتى الموسيقا ، ومن دراسة النظام البيئى الى فهمنا لتكوين وتركيب المـخ ، ومن الدراسـات اللغوية الى نظرية التـدريب والتمهير (*) ، والى دراسة النظـم غير المستقرة والهياكل الفوضـوية والمتبددة • وبينما يحدث هذا الانقلاب يعثر الباحثون العاملون فى مجالات مثل الشبكات العصبية والذكاء الاصطناعى على وسيلة لتوفير معرفة جديدة عن المعرفة ذاتها •

قد يبدو ظاهريا أن هذا التقدم ، الذى يتخذ شكل تحولات ، بعيد عن عالم الدبلوماسية والسياسة ، لكنه فى الحقيقة مرتبط بشكل حتمى بالانفجارات التى حدثت مؤخرا فى مجـال الجغرافيا السياسية • لقـد أصبحت المعرفة أحد عوامل صراعات السلطة على نطاق العالم •

(★) طريقة تتيح اقامة علائق بين عدد من المنبهات والاستجابات فى الكائنـات الحية يتأتى عنها اكتسابها مهارات خاصة للتكيف مع بيئتها •

اقتصادات سياسية مستهلكة :

لنفحص مثلا تأثيرات « عامل المعرفة » على السلطة السوفيتية • فكما سبق أن رأينا ، جعلت التحولات التاريخية الراهنة للسلطة ، مصدرين من أهم مصادرها ــ وهما العنف والثروة ــ تابعين بشكل متزايد لمصدر السلطة الثالث ، ألا وهو المعرفة • ونظرا لانتشار التكنولوجيا المعتمدة على المعرفة والتداول الحر نسبيا للأفكار ، تمكنت الولايات المتحدة واليابان وأوروبا من أن تسبق على الصعيد الاقتصادى الدول الاشتراكية بمسافات شاسعة • ولقد أتاحت هذه التكنولوجيا ذاتها تحقيق قفزة عملاقة فى مجال القوة العسكرية •

ان الطائرة المقاتلة القاذفة تكافىء حاليا جهاز كمبيوتر مجنح • اذ تكاد فاعليتها تعتمد كلية على المعرفة المختزنة فى أجهزتها الالكترونية الخاصة بالطيران ، وفى التسليح المزودة به ، كذلك على المعرفة المختزنة فى مخ الطيار • لذلك ، من المرجح أن يكون المبرمجون العسكريون السوفيت قد عانوا من آلام القرحة عندما دمر الطيارون الاسرائيليون فى عام ١٩٨٢ ، ٨٠ طائرة ميج روسية يقودها طيارون سوريون ، بينما لم يفقد الاسرائيليون طائرة واحدة • ولم يكن أداء الدبابات الروسية أفضل فى مواجهة المدرعات الاسرائيلية •

وبالرغم من أن لدى الاتحاد السوفيتى علماء نابغين بين صفوف جيشه ، ويملك أسلحة ذرية تكفى لتدمير العالم كله ، فان ذلك لا يقلل من كونه تخلف فى سباق التسلح فى مجالى الأسلحة التقليدية ذات التكنولوجيا المتطورة ونظم الدفاع الاستراتيجية • ان التطور المتنامى للأسلحة التقليدية المعتمدة على المعلومات (والتى هى فى الواقع ليست تقليدية البته) يهدد التفوق السوفيتى على أرضه ، أى فى أوروبا الشرقية•

وفى الوقت نفسه ، تهدد مبادرة الدفاع الاستراتيجى (أو حرب النجوم) ، الغنية جدا بالمعرفة ، بجعل الصواريخ السوفيتية طويلة المدى لا قيمة لها • وان كان المناهضون لمبادرة الدفاع الاستراتيجى يعتبرون أن تحقيق ذلك مستحيل ، فان مجرد احتمال التهديد أثار قلق موسكو • فاذا تمكنت هذه المبادرة من ايقاف كل الصواريخ النووية الروسية قبل أن تصل الى الولايات المتحدة ، تصبح هذه الصواريخ لا جدوى منها • كما يعنى ذلك أن الولايات المتحدة يمكنها شن هجوم نووى دون أن تخشى أى هجوم مضاد • حتى وان ظلت هذه المبادرة محدودة الفاعلية نسبيا ،

ولا تستطيع ايقاف سوى جزء من القنابل الذرية المعادية ، فان ذلك يفرض على المبرمجين العسكريين السوفيت معرفة عدد الصواريخ الأمريكية التى ظلت سليمة ويمكنها بالتالى شن هجوم مضاد • وفى الحالتين ، جعلت مبادرة الدفــاع الاستراتيجى من غير المحتمل نظرية لجوء السوفيت الى سلاحهم النووى ، بل وجعلت ذلك أمرا ينطوى على قدر أكبر من المخاطرة •

ومن ثم أصبح السوفيت يواجهون تهديدا مزدوجا على الأرض وفى الفضاء •

وفى مواجهـة هـذا الواقع التعيس ـ دون الاشـــارة الى أفولها الاقتصادى ـ توصلت موسكو بطريقة عقلانية الى أنها لم تعد قادرة على أن تحمى دول أوربا الشرقية عســكريا ، الا بتكلفة غير مقبولة وفى زيادة فلكية • وبالتالى أصبح من الضرورى ، لأسباب اقتصادية وكذلك عسكرية، خفض التزاماتها تجاه البلدان الأخرى من امبراطوريتها •

الا أن ما هزم السوفيت لم يكن السلاح ولا الاقتصاد ولكن « عامل المعرفة » • هذه المعرفة الجديدة التى تعتمد عليها بشكل متزايد القوة العسكرية والقدرة الاقتصادية •

ويفسر « عامل المعرفة » انقسام « البلدان الأقل تقدما اقتصاديا » الى ثلاث مجموعات متميزة • فمنذ أن اتجهت الاقتصادات الأكثر تقدما نحو الاعـلاماتية وتكنولوجيـات المعلومات وأنتجت منتجات ذات قيمة مضافة أعلى ، نقلت عددا من العمليات القديمة ، التى تعتمد بدرجة أقل على المعلومات وترتبط بدرجة أعلى بالعمل العضلى ، الى بلدان مثل كوريا الجنوبية وتايوان وسنغافورة وحاليا تايلاند • بمعنى آخر ، بينما كانت أوروبا واليابان والولايات المتحدة تنتقل الى أشكال خلق الثروة الخاصة بالموجة الثالثة ، تخلت عن مهام الموجة الثـانية لبلدان أخرى ، مسارعة بذلك عملية تصنيع هذه البلدان التى تركت باقى دول الجنوب وراءها •

ويدخل عدد من هذه « الاقتصادات الصناعية الجديدة » بدوره فى السباق لنقل عمليات الموجة الثانية للبلدان المتخلفة اقتصاديا والأكثر فقرا ـ مع ما يصاحبها من تلوث وأضرار أخرى ـ فى حين تحاول هذه الاقتصادات الارتفاع الى انتاج أكثر ثراء معرفيا • وبذلك حفرت ايقاعات التنمية الاقتصادية المختلفة هذا الفارق بين دول الجنوب •

أما بالنسبة للتنـافس داخـل المعسـكر الرأسمالى ، بين أوروبـا واليابان والولايات المتحدة ، فيرجع تفسيره الى النجاح الباهر للسياسة الأمريكية فى فترة ما بعد الحرب ، وهى السياسة التى شجعت وساعدت

على اعادة البناء الاقتصادى واصلاح وتجديد الهياكل الصناعية الأوروبية واليابانية التى دمرتها الحرب • ولقد أتاح ذلك لأوروبا واليابان فرصة بداية جديدة وامكانية استبدال آلاتها القديمة بتكنولوجيات جديدة تماما • فى حين كان على مصانع الولايات المتحدة التى لم تدمر فى الحرب أن تستهلك بنيتها التحتية القائمة •

وتمكنت اليابان من أن تكون فى المقدمة ، وذلك لأسباب عدة فى مقدمتها العمل الخارق ، والقدرة على الابتكار التى يتمتع بها جيل ما بعد الحرب ، بالاضافة الى ثقافة موجهة بشكل أكبر نحو المستقبل ، فضلا عن التنشيط الاقتصادى الاقليمى الذى نجم عن حرب فيتنام • وكانت عيون اليابان تنظر دائما نحو القرن الواحد والعشرين كما أكدت ثقافتهاعلى الدوام على أهمية التعليم وتنمية الحس التجارى والمعرفة بشكل عام • واستحوذت على الكمبيوتر وكل مشتقاته فى مجال الالكترونيات وعلى تكنولوجيا المعلومات بحماس وعشق •

وكانت النتائج التى حققتها اليابان ، مرورا من النظام القديم لخلق الثروة الى النظام الجديد ، مذهلة ووضعتها حتما فى تنافس مع الولايات المتحدة • وأوروبا بدورها ، بعد أن ظلت لسنوات فى المؤخرة ، شعرت بالخوف وانطلقت فى استراتيجية تكامل اقتصادى وسياسى •

وسنعود فيما بعد الى هذه التطورات • أما الآن فمن الجوهرى الاعتراف بأن النظام الجديد لخلق الثروة القائم على المعرفة ، كان يمثل فى كل مرحلة اسهاما مهما أو سببا أصليا لتلك العمليات الكبيرة والتاريخية لانتقال السلطة والتى تعيد حاليا تشكيل عالمنا • وكما سنرى ، فان نتائج وتأثيرات هذه الظاهرة على مستوى الكرة الأرضية لن تكف عن ادهاشنا ومفاجأتنا •

الفصل الثلاثون

المسرعون والمبطئون

من أكبر حالات اختلال توازن السلطة على هذه الأرض ، هى تلك التى تقسم العالم حاليا الى دول غنية ودول فقيرة · لكن هذا التوزيع غير المتساوى للسلطة ، والذى يؤثر على حياة الملايين منا ، لن يستمر طويلا وسيتبدل كلما انتشر النظام الجديد لخلق الثروة ·

منذ الحرب العالمية الثانية والعالم منقسم الى رأسماليين وشيوعيين والى شمال وجنوب · وفى الوقت الذى تفقد فيه هذه التقسيمات معناها ، يولد تقسيم جديد · حيث سينقسم العالم ، من الآن فصاعدا ، الى الأكثر سرعة والأكثر بطئا ·

ان مفاهيم السرعة والبطء ليست مجرد صياغات ، بل يمكن التمييز ماديا بين اقتصادات سريعة وأخرى بطيئة · فالجهاز العصبى للكائنات البدائية بطىء فى حين يعالج الجهاز العصبى البشرى ، الأكثر تطورا ، الاشارات بسرعة أكبر · وينطبق الشىء نفسه على الاقتصادات البدائية والاقتصادات المتقدمة · لقد انتقلت السلطة تاريخيا من الابطأ الى الأسرع ، سواء تكلمنا عن أنواع الكائنات أم عن البلدان ·

فى الاقتصادات السريعة ، تعمل التكنولوجيا على تسارع الانتاج · ويتم تحديد سرعة هذه الاقتصادات بناء على سرعة المعاملات المالية والتجارية ، والوقت اللازم لاتخاذ القرارات (خاصة فيما يتعلق بالاستثمارات) والايقاع الذى تخرج به الأفكار الجديدة من المعامل وسرعة وصولها الى السوق ، وسرعة حركات رأس المال · وبالاضافة الى كل ذلك وقبله ، سرعة دوران البيانات والمعلومات والمعرفة خلال النظام الاقتصادى · ومعنى ذلك ، أن الاقتصادات السريعة تولد الثروة - والسلطة - بسرعة أكبر من الاقتصادات البطيئة ·

وعلى النقيض من ذلك ، تبدو العمليات الاقتصادية فى المجتمعات الفلاحية وكأنها لا تتحرك • فالعادات والتقاليد والجهل تحد اجتماعيا من الاختيارات المقبولة ، فضلا عن أن الاتصالات غير متوفرة ووسائل النقل محدودة • وقبل ظهور اقتصاد* السوق كأداة تسمح باجراء اختيارات استثمارية ، كانت التقاليد تحكم القرارات التكنولوجية • كما كانت هذه التقاليد تستند الى « القواعد والمقدسات لحماية تقنيات انتاج أثبتت قابليتها للتطبيق على امتداد مسيرة التطور البيولوجى والثقافى البطيئة » ـ على حد قول الاقتصادى دون لافواه •

ولأن غالبية الأفراد كانت تعيش عند حد الكفاف ، كانت التجارب محفوفة بالمخاطر ، وكان يتم ابعاد المبتكرين والمجددين ، لذلك لم يتضح تقدم وسائل خلق الثروة الا ببطء شديد حتى انه كان يدرك بالكاد من جيل الى آخر • وخلال قرون من الركود ، لم تسجل سوى لحظات ابتكار وتجديد نادرة •

ان الانفجار التاريخى الذى نطلق عليه الآن اسم الثورة الصناعية نشط عملية الأيض الاقتصادى • وتحسنت الطرق والاتصالات وبدأ رجال الأعمال ، مدفوعين بالربح ، يجددون ويبتكرون بهمة ونشاط • وأصبح المجتمع يستطيع تجربة تقنيات تقريبية وبدائية دون التعرض لخطر اجتماعى كبير ، مستفيدا فى ذلك من فائض أرباح ضخم • ويشير لافواه الى أن « طرق الانتاج [يمكنها] أن تتغير بسرعة أكبر مما هى عليه لأن التجربة التكنولوجية حاليا أقل تكلفة » • غير أن كل ذلك ، لا يرسم سوى الاطار الذى سيتطور فيه الاقتصاد الرمزى الفائق السرعة الذى نراه يولد أمام أعيننا •

ان شفرة القضبان السوداء والبيضاء على علبة سجائر مارلبورو ، والكومبيوتر الموجود فى شاحنة فيدرال اكسبريس ، والماسح الالكترونى لدى خزينة تحصيل سيف واى ، وقطع التذاكر والحجز الآلى ، وامتداد شبكات البيانات « الذكية » على كوكب الأرض ، والربوتات الموجهة من بعد ، وتحويل رأس المال الى معلومات الكترونية ، كل ذلك لا يمثل سوى المراحل الأولية لاقامة اقتصاد القرن الواحد والعشرين ، الذى ستكون سرعة تشغيله قريبة من الوقت الحقيقى •

وعلى المدى الطويل ، ستصبح الدورة الكاملة لخلق الثروة معروضة بشكل لحظى على شاشات الكمبيوتر •

وسيتم أيضا تأمين تغذية ارتجاعية مستمرة ، انطلاقا من أجهزة الرصد المدمجة فى التكنولوجيا الذكية ، والماسحات الضوئية الموجودة فى المحلات ، وأجهزة اللاسلكى فى الشاحنات والطائرات والسفن التى ترسل الاشارات الى الأقمار (حتى ان المديرين سيتمكنون من متابعة تحركات كل شاحناتهم لحظة بلحظة) • وستقترن هذه المعلومات بنتائج استطلاعات الرأى والمعلومات الواردة من آلاف المصادر الأخرى •

وعندما تصبح كل وحدة زمن تم توفيرها ، ذات قيمة «أعلى» من وحدة الزمن السابقة لها فان تأثير التسارع يولد عقد تغذية ارتجاعية تسارع التسارع •

ان النتائج التى سوف تنجم عن ذلك لن تكون مجرد تطور ولكن ثورة حقيقية ، لأن العمل فى الوقت الحقيقى سيفرض على الادارة والمالية طرق عمل مختلفة جذريا عن أكثر الطرق تقدما المستخدمة حاليا • ومع ذلك ، وفى الوقت الراهن ، وحتى قبل أن تصبح العمليات فى الوقت الحقيقى معممة ، غدا الوقت ذاته عاملا من عوامل الانتاج الأكثر أهمية • وبالتالى ، استخدمت المعرفة لتقليص الفواصل الزمنية فى عملية الانتاج •

وفى هذه الحالة ، ينجم عن تسارع الردود العصبية لاقتصاد الدول ذات التكنولوجيا العالية عواقب غير مرئية — حتى الآن — على الاقتصادات ذات التكنولوجيا المنخفضة •

فكلما زادت قيمة الوقت ، قلت قيمة عوامل الانتاج التقليدية الأخرى — مواد أولية وعمل — ويتوقف الأمر فى أغلب الحالات على ما تبيعه هذه البلدان •

وكما سنرى ، فان تأثير التسارع سيبدل كل الاستراتيجيات الحالية للتنمية الاقتصادية •

العودة للوطن :

يتميز النظام الجديد لخلق الثروة بانتشار شبكة عالمية من الأسواق والبنوك ومراكز الانتاج والمعامل ، التى تتصل فيما بينها بشكل لحظى وتتبادل بشكل مستمر تدفقات ضخمة من البيانات والمعلومات والمعرفة •

ان اقتصاد الغد « السريع » ، والديناميكية الجديدة الناجمة عن تسارع انتاج الثروة ، سيكونان مصدرا للتقدم الاقتصادى • ولكنه كذلك سيصبح أيضا مصدرا لسلطة كبيرة ، والابتعاد عنه يعنى الطرد من المستقبل •

وهذا هو المصير الذى ينتظر العديد من الدول الأقل تقدما اقتصاديا ٠

وعندما تزداد قوة وسيطرة النظام العالمى لانتاج الثروة ، سيتعين على البلدان التى تريد أن تبيع منتجاتها أن تعمل بسرعة المشترين ٠ ومعنى ذلك ، أن الاقتصادات البطيئة ستضطر الى زيادة سرعة ردودها العصبية والا فقدت العقود والاستثمارات واضطرت لترك السباق ٠

يمكن حاليا رصد المؤشرات الأولى لمثل هذا الموقف ٠

لقد أنفقت الولايات المتحدة خلال عقد الثمانينات ١٢٥ مليار دولار سنويا على الملابس ، وقام بانتاج ٥٠٪ من هذه الملابس عمال ذوو أجور رخيصة فى مصانع منتشرة من هايتى الى هونج كونج ٠ وفى الغد ، سيعود جزء كبير من هذا العمل الى الولايات المتحدة لتلبية المتطلبات الجديدة للسرعة ٠

ان الضرائب والرسوم والتعريفات وأسعار الصرف وعوامل أخرى ، مازالت تؤثر بالطبع على الأعمال عندما تتم عمليات الاستثمار أو الشراء فى الخارج ٠ ولكن على المدى الطويل ، ستتدخل تغيرات أكثر جذرية من ذلك بكثير فى هيكل التكاليف ٠ ان الانتقال نحو النظام الجديد لخلق الثروة ، قد دق بالفعل ساعة عودة المصانع والعقود « التى يصعب السيطرة عليها » الى الولايات المتحدة واليابان وأوروبا ٠

فشركة تاندى مثلا — وهى منتج وموزع مهم للمعدات الالكترونية — أعادت مؤخرا توطين انتاجها من أجهزة الكمبيوتر من كوريا الجنوبية الى تكساس ٠ وبينما كان المصنع الآسيوى أتوماتيكيا ، فان مصنع تكساس يعمل فى شكل تدفق « مستمر تماما » ولديه معدات وتجهيزات مراقبة أكثر تطورا ٠ ومن ناحية أخرى ، أقام تاندى فى فرجينيا وحدة تعمل بالكامل بالربوت ، وتنتج يوميا خمسة آلاف من مكونات مكبرات الصوت وتبيعها لمنتجين يابانيين كانوا يحصلون عليها من قبل بسعر أقل فى الكاريبى ٠

ان الصناعة الاعلاماتية تتقدم بالطبع بسرعة قصوى ، الا أن ذلك يظل صحيحا بالنسبة للأنشطة الأكثر بطئا ٠ فشركة Arrow ، وهى من أكبر منتجى القمصان فى الولايات المتحدة ، أعادت مؤخرا توطين ٢٠٪ من انتاجها بعد ١٥ عاما من الغربة ٠ أما فريدريك اتكينز — وهى شركة تشترى سلعا لكبرى سلاسل المحلات الأمريكية — فقد رفعت نسبة مشترياتها من الانتاج الأمريكى من ٥٪ الى ٤٠٪ فى مدى ثلاث سنوات ٠

وترجع هذه الانتقالات ، ولو جزئيا ، الى الأهمية المتزايدة للوقت فى الاقتصاد ٠

وتقول مجلة فوربز : « ان التكنولوجيا الجديدة تعطى منتجى الملابس الوطنيين ميزة كبيرة على منافسيهم الآسيويين ٠ فنظـرا لتقلبات الموضـة وهوس تغيير الطرز ست مرات على الأقل فى العام ، يريد تجار التجزئة أن يتمكنوا من الاحتفاظ بالحـد الأدنى من المخزون ٠ وهو ما يتطلب ردا سريعا من منتجى الملابس الذين يمكنهم توريد كميات صغيرة تضم كل الطرز والمقاسات والألوان ٠ أما الموردون الآسيويون الواقعون على الجانب الآخر من الكرة الأرضية فيطالبون بأن تكون الطلبيات لثلاثة أشهر مقدما على الأقـل » ٠

ان مجموعة بنيتون الايطالية تسـلم طلبيـات جديـدة للخريف أو الربيع فى أقل من أسبوعين أو ثلاثة أسابيع ٠ وبفضل شبكة الكترونية يستطيع Haggard Apparel فى دالاس أن يجدد حاليا مخزون البنطلونات لـ ٢٥٠٠ عميل فى مدى ثلاثة أيام مقابل سبعة أسابيع سابقا ٠

ولنقارن ذلك مع وضـع الصناعيين أو الحرفيين فى الصـين الذين يحتاجون الى الصلب ٠

ففى عام ١٩٨٨ تعرضـت الصين لأسوأ أزمة صلب ، لم يشهد العالم مثلها من قبل ، حيث ظل ٤٠٪ من الانتاج السنوى الكلى للبـلاد مكدسا ومغلقا عليه بالأقفال فى مخازن الشركة العامة للتخزين والنقل ، بالرغـم من احتياج المصانـع الشديد الى هذا المخزون ٠ لماذا ؟ لأن هذه الشركة لا تقوم بتسليم الصلب الا مرتين فقط فى العام — مهما بدا ذلك غير قابل للتصديق بالنسبة لمن يعيش فى ظل اقتصاد سريع ٠

ولم يتمكن مديرو الشركة العامة للتخزين والنقل من التصرف أمام الزيادة الجنونية فى أسعار الصلب ٠ كما لم يهتموا قط بالسوق السوداء الناجمة عن النقص ، ولا بعمليات التهريب المتزايدة ولا بالأزمة التى تعانى منها المصانـع التى تحتاج الى الصلب غير المتوفر ٠ ان تنظيم الشركة لم يكن ، ببساطة ، مهيأ لعمليات تسليم متكررة ٠ ان « جدارا كبيرا » يفصل الدول السريعة عن الدول البطيئة ، وهذا الجدار يزداد اتساعا مع مرور السنين ٠

ويفسر هذا الحاجز الثقـافى والتكنولوجى الكبير — ولو جزئيـا — نسبة حالات الفشل العالية للمشروعات المشتركة بين البلدان السريعة والبلدان البطيئة ٠

وينهار العديد من التعاملات عندما لا يتمكن مورد من بلد بطيء من احترام مواعيد التسليم · ان اختلاف ايقاع الحياة الاقتصادية فى كلا العالمين يطرح مشكلة ثقافية · ولا يدرك قادة الدول البطيئة الأهمية التى يوليها شركاؤهم للوقت ، أو لا يفهمون لمـــاذا يبدو الوقت بهذه الأهمية بالنسبة لهم · ان دواعى السرعة تبدو لهم غريبة بقدر ما هى وقحة · غير أنهـــا حاسمة للشريك المنتمى لبلد سريع · فالتأخير فى التسليم لا يقل خطورة تقريبا عن الغاء التسليم ·

ان التكلفة المتزايدة لنقص الوثوقية ، والمفاوضات التى لا تنتهى ، والاجراءات والردود المتأخرة على طلبات المعلومات العاجلة ، تقلل من الميزة التنـافسية للعمـل العضـلى ذى الأجر المنخفض فى الاقتصـادات البطيئة ·

وينطبق الشيء نفسه على النفقات الناجمة عن التأخير والمخالفـات وعدم الانتظام والشلل البيروقراطى والبطء فى اتخاذ القرارات ، ذلك بالاضافة الى الرشاوى المقنعة التى لا غنى عنها غالبا لزيادة سرعة الأمور ·

فى الاقتصادات المتقدمة ، تغدو تدريجيـا سرعة اتخاذ القرارات معيـارا رئيسيا · ولا تقل أهمية قائمة « القرارات الجارية » بالنسبة لبعض الكوادر ، عن أهمية قـائمة « العمـل الجارى » · وتحاول هذه الكوادر استبدال اتخاذ القرارات بشكل تسلسلى ب « معالجات متوازية »، لاغـين بذلك البيروقراطيـة · ويتـكلمون عن « سرعـة طرح المنتجات فى الأسواق » و « الردود السريعة » و « دورة الزمن القصيرة » و « التنافس القائم على الوقت » ·

ان الدقة المتزايدة فى تحديد المدد ، والوقت المطلوب بالنسبة لنظم مثل التسليم « فى الوقت المحدد » ، تعنى أنه يتعين على البائع أن يلبى متطلبات مواعيد تسليم أكثر الزاما عن ذى قبل وأكثر صرامة ·

ومن جانبهم ، يطـالب المشترون بأن تكون عمليـات التسـليم أكثر تكرارا وانضـباطا ، مما يضطر موردى الدول البطيئة للاحتفاظ بمخزون ضخم ومكلف ـ مع المجازفة بأنه سرعان ما تصبح المنتجات المخزونة بالية وغير قابلة للبيـع ·

ان ضرورات الاقتصـاد الجديد واضحة : يتعين على الموردين فى البلدان الأقل تقدما اقتصاديا أن يطوروا تكنولوجياتهم، لكى تلبى معايير السرعة العالمية، والا فقدوا أسواقهم فجأة ، وراحوا ضحايا لتأثير التسارع·

ممتلكات عقارية استراتيجية :

ان احتمال أن يجد عـدد من البلدان الأكثر فقرا نفسـه معزولا عن ديناميكية الاقتصاد العالمى ، ويحكم عليه بالتالى بالركود والاهمال ، تدعمه ثلاثة عوامل قوية أخرى ، ناجمة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، عن قدوم النظام الجديد لخلق الثروة ٠

ان احدى طرق تصور السـلطة الاقتصادية للدول الأقـل تقـدما اقتصاديا فى المستقبل ، أو غيـابها ، تكمن فى التساؤل عما يمكن لهذه الدول بيعه لباقى العالم ٠ ونستطيع أن نبدأ بمورد نادر ، بامكان بعض الدول فقط أن تقدمه للآخرين فى أية لحظة ، ألا وهو الموقع الاستراتيجى ٠

ان الأملاك العقارية ذات الأهمية الاستراتيجية عسكريا ، لا يعتبرها الاقتصاديون عادة موردا قابلا للبيع ، لكن ذلك هو الوضع بالنسبة للعديد من الدول الأقل تقدما اقتصاديا ٠

فالدول التى تسعى لامتلاك القوة العسكرية والسياسية ، تكون فى الغالب مستعدة لدفع الأموال من أجل الحصول على هذه القوة ٠ وقد قام العديد من الدول الأقل تقدما اقتصاديا - مثل كوبا - ببيع أو تأجير مواقع منشآت للاتحـاد السـوفيتى والولايات المتحـدة أو دول أخـرى لأغراض عسكرية أو سياسية أو لأغراض الاستخبارات ٠ وحصلت كوبا مثـلا على مساعدة سنوية من الاتحاد السوفيتى تقدر بحوالى ٥ مليارات دولار مقابل سماحها للروس بأن يكون لهم موطىء قدم على أراضيها ، على بعد ١٥٠ كيلو مترا من السواحل الأمريكية ، وبأن يمارسوا تأثيرا متناميا فى كل أمريكا الوسطى ٠

وكان معنى « الحرب الباردة » ، طوال فترة تصل الى حوالى نصف قرن ، أن حتى أفقر البلدان كان لديها شىء تبيعه لأفضل مشتر (طالما انها تمتلك موقعا استراتيجيا) ٠ ولقد تمكنت بعض الدول ، مثل مصر (*)، من أن تبيع خدماتها أولا لاحدى القوتين العظميين ثم بعد ذلك الى القوة الأخرى ٠

ولكن ، بينما كان العالم يعرب عن ابتهاجه للانفراج بين الأمريكيين والسوفيت ، كانت البلدان التى باعت حق الوصول الى مواقعها الجغرافية الاستراتيجية ، مثل الفيليبين وكوبا وفيتنام ونيكاراجوا الساندينية ،

(★) لم يحدث اطلاقا أن أجرت مصر قواعد لا للسوفيت ولا للأمريكيين - (المترجم)٠

تشعر بالحزن العميق • ومن الآن فصاعدا ، من غير المحتمل أن يزايد أكبر عميلين للمواقع الاستراتيجية كما كانا يفعلان فى الماضى القريب •

فضلا عن ذلك ، فانه مع التنامى المستمر فى وسائل تموين الجيوش ونقلها وايوائها ، وزيادة مدى الطائرات والصواريخ وعدد الغواصات ، وتزايد سرعة العمليات العسكرية بواسطة الجسور الجوية ، يقل الاحتياج الى قواعد فيما وراء البحار ومنشآت صيانة و احتياطات محددة المواقع مسبقا •

وبالتالى ، على الدول الأقل تقدما اقتصاديا أن تتوقع نهاية تجارة المواقع الاستراتيجية • الا اذا تم استبدال هذه التجارة بأشكال أخرى من المساعدة الدولية ، ومن ثم سينضب فيض « المساعدة الخارجية » و « الدعم العسكرى » الذى تدفق حتى الآن على الدول الأقل تقدما اقتصاديا والذى يقدر بمليارات الدولارات •

وكما سنرى ، فان الوفاق الأمريكى – السوفيتى هو الرد السوفيتى على النظام الجديد لخلق الثروة فى الدول ذات التكنولوجيا المتقدمة • ويمثل انهيار تجارة المواقع الاستراتيجية احدى نتائجه غير المباشرة •

وأيا كانت القوى العظمى فى المستقبل ، حتى وان استمرت فى زرع القواعد واقامة محطات تنصت للأقمار الصناعية ، أو بناء مطارات وقواعد للغواصات فى أراض أجنبية ، فان الاتفاق حول هذه « الحقوق الممنوحة » سيكون لفترات زمنية أقصر • ذلك أن تسارع التغيرات فى الوقت الراهن ، يجعل كل التحالفات هشة وأقصر عمرا الأمر الذى لا يشجع القوى الكبرى على القيام باستثمارات طويلة المدى فى مواقع ثابتة •

وسوف تندلع الحروب والتهديدات وحركات التمرد فى أماكن غير متوقعة • لذلك سيركز أركان حرب القوى الكبرى على قوات التدخل السريع والقوى البحرية والعمليات الفضائية ، أكثر من تركيزهم على الانشاءات الثابتة • وسيقلل كل ذلك من قدرة مساومة البلدان التى تتمتع بمواقع للايجار •

وفى نهاية المطاف ، فان بروز القوة العسكرية اليابانية فى المحيط الهادى قد يدفع الفليبين ودولا أخرى فى جنوب شرق آسيا « لاستقبال » الأمريكيين أو قوى أخرى ، لموازنة التهديد اليابانى الوليد • واذا دفعنا هذا التفكير الى حده الأقصى ، يمكن أن يقودنا الى أن « تدفع » هذه الدول ثمن الحماية بدلا من الحصول على ثمن تأجير المواقع الاستراتيجية •

ان اندلاع الحروب الاقليمية مرة أخرى ، أو انطلاق موجات جديدة من العنف الداخلى فى العديد من مناطق العالم ، ستستمر فى تأمين ازدهار صناعات التسليح . ولكن ، مهما حدث ، سيكون من الأصعب بكثير الحصول على منافع أو مغانم من الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفيتى وسيضر ذلك بالتوازن الهش لعلاقات القوة بين الدول الأقل تقدما اقتصاديا ـ مثل الهند وباكستان مثلا ـ وسيولد أيضا انتقالات للسلطة ، من المحتمل أن تكون عنيفة ، « داخل » هذه البلدان ، خاصة بين الصفوة المرتبطة ارتباطا وثيقا (أحيانا بشكل فاسد) ببرامج المساعدة والمنشآت العسكرية وعمليات المخابرات .

باختصار ، لقد مضى العصر الذهبى « للحرب الباردة » . وتنتظرنا انتقالات للسلطة أكثر تعقيدا . أما بالنسبة لسوق المواقع الاستراتيجية فى الدول الأقل تقدما اقتصاديا فلن تكون أبدا كما كانت .

فيما وراء المواد الأولية :

وهناك ضربة ثانية تنتظر البلدان التى تعتمد برامج تنميتها على تصدير المواد الأولية مثل النحاس والبوكسيت .

وهنا أيضا بدأت انتقالات السلطة تبدو للعيان . فاذا كان الانتاج بالجملة يتطلب كميات كبيرة من عدد صغير من الموارد ، فان انتشار طرق الانتاج بكميات صغيرة وعلى حسب الطلب ، سيزيد من الاحتياج الى موارد متعددة ولكن بكميات أقل بكثير .

ومن ناحية أخرى ، سيؤدى الأيض الأسرع لنظام الانتاج العالمى الجديد الى أن تغدو الموارد التى تعتبر حيوية الآن ، لا قيمة لها غدا ، مثل كل صناعات استخراج المواد الأولية والمناجم ومنشآت الموانى والوسائل الأخرى اللازمة لنقل المواد الأولية . وعلى النقيض من ذلك ، فان النفايات التى تبدو فى الوقت الراهن غير مفيدة قد تكتسب فجأة قيمة كبيرة .

لقد ظل البترول لفترات طويلة يعامل على أنه مادة غير قابلة للاستخدام ، الى ان ظهرت التكنولوجيات الجديدة ـ خاصة المحرك الانفجارى ـ التى جعلته حيويا . كذلك مادة التيتان التى لم تكن سوى مسحوق أبيض لا قيمة له الى أن جعلته صناعة الطائرات والغواصات يتميز بخواص لا غنى عنها . ولكن ايقاع ظهور التكنولوجيات الجديدة كان بطيئا ، أما الآن فلم يعد الأمر كذلك على الاطلاق .

ان التوصيلية الفائقة - مثلا - ستقلل من استهلاك الطاقة نتيجة لخفض مستوى الفاقد أثناء نقل الكهرباء ، ولكن فى الوقت نفسه سيتطلب استخدامها مواد أولية جديدة ، وليس ذلك سوى مثال واحد من بين العديد من الأمثلة • وربما فى المستقبل ، لا تعتمد معدات السيارات الجديدة المضادة للتلوث على البلاتين • وقد تتطلب المنتجات الصيدلانية الجديدة مواد عضوية غير معروفة حاليا أو مواد لا قيمة لها الآن • وعندئذ قد تصبح بلدان فقيرة موردا مهما لهذه الموارد ، مما يضعف فى الوقت نفسه وضع كبار المصدرين الحاليين •

بالاضافة الى ذلك ، « ترتبط حاليا كل زيادة فى الدخل الفردى فى المجتمعات المتقدمة والغنية ، بتناقص مطرد فى زيادة كميات المواد الأولية والطاقة المستخدمة » ، على حد قول Umberto Colombo رئيس لجنة العلوم والتكنولوجيا فى الجماعة الأوروبية • ويذكر كولمبو أرقام صندوق النقد الدولى التى تبين أن « اليابان [•••] استهلكت فى عام (١٩٨٤) ٦٠٪ فقط من المواد الأولية المستخدمة فى عام ١٩٧٣ لنفس حجم الانتاج الصناعى » •

ان تقدم المعرفة ، يتيح لنا انتاجا أكثر باستخدام مواد أولية أقل ، مما يضعف بالتالى سلطة كبار المنتجين •

ومن ناحية أخرى ، يزيد الانتشار السريع للمعرفة العلمية من امكانات ابتكار بدائل للموارد المستوردة • وستتمكن الاقتصادات المتقدمة ، قريبا ، من خلق مجموعات كبيرة من المواد الجديدة يتم انتاجها حسب الطلب • وكلما احتلت البلدان ذات التكنولوجيا المتقدمة طليعة الابتكار قل اعتمادها على المواد الأولية المستوردة بكميات كبيرة من الخارج •

ان النظام الجديد لخلق الثروة شديد التغير والسرعة ، بحيث يصعب ربطه وتكبيله ببعض المواد الأولية « الحيوية » • وبالتالى ، ستنتقل السلطة من كبار منتجى المواد الأولية الى الذين يسيطرون « بنظام التنقيط » على كميات المواد التى لا غنى عنها مؤقتا ، ومنهم الى الذين يتحكمون فى المعرفة اللازمة لخلق موارد جديدة تماما •

الأيدى العاملة « الرخيصة » غالية :

كان التأثير السلبى لكل ذلك على البلدان الأقل تقدما اقتصاديا سيكون أقل اذا لم تكن معرضة لضربة ثالثة قوية ستصيبها على حين غرة وتقلب رأسا على عقب علاقات القوة بينها •

لقد واصل الصناع الرأسماليون ، منذ فجر العصر الصناعي بحثهم عن أيد عاملة رخيصة • وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية ، شهد العالم سباقا محموما نحو مصادر الأيدى العاملة الأجنبية • وراهن العديد من الدول النامية بكل مستقبلها الاقتصادى على النظرية القائلة بأن بيع أيد عاملة رخيصة سيؤدى الى التحديث •

وفازت بعض البلدان مثل نمور الشرق الأقصى الأربعة - كوريا الجنوبية وتايوان وهونج كونج وسنغافورة - بالرهان • وساعدهم فى تحقيق ذلك أخلاقيات عمل قوية وعوامل ثقافية فريدة ، كما ساعدهم أيضا صراعان محمومان ، الحرب الكورية فى الخمسينات وحرب فيتنام فى الستينات وأوائل السبعينيات ، واللذان صبا مليارات الدولارات فى المنطقة • وقد قارن بعض اليابانيين هذا التدفق المالى ب « نفحة الهية » •

ونظرا للنجاح الذى حققته هذه البلدان ، أصبح من المعترف به عالميا أن الانتقال من صادرات المنتجات الزراعية أو المواد الأولية ، الى صادرات مصنعة بأيد عاملة رخيصة يؤدى الى التنمية والنمو • غير أنه لا يوجد ما هو أبعد عن الحقيقة من ذلك على المدى الطويل •

من المؤكد ان السباق للحصول على أيد عاملة رخيصة لا يزال منتشرا فى جميع أنحاء العالم • فحتى وقتنا هذا ، تنقل اليابان المصانع والعقود من تايوان وهونج كونج ، نظرا لارتفاع الأجور ، الى تايلاند وماليزيا والصين ، حيث الأجور عشر مثيلتها فى اليابان • وسيكون لدى الدول الغنية فرص عديدة لتحديد مخزون من الأيدى العاملة الرخيصة فى البلدان الأقل تقدما اقتصاديا •

الا أن عملية بيع الأيدى العاملة الرخيصة ، مثلها مثل تأجير القواعد العسكرية أو تصدير المعادن ، تتجه نحو بلوغ نهايتها •

فكلما امتد النظام الجديد لخلق الثروة ، أصبحت تكلفة الأيدى العاملة لا تمثل سوى جزء متزايد التناقص من سعر التكلفة الكلية للانتاج • ففى بعض الصناعات لا تمثل تكلفة الأيدى العاملة سوى ١٠٪ فقط ، ومعنى ذلك أن وفرا يقدر ب ١٠٪ من تكلفة الأيدى العاملة ، لا يمثل سوى واحد على ألف من سعر التكلفة الكلية •

وفى الجانب المقابل ، فان التقنيات الأكثر تطورا ، وتدفقات المعلومات المتزايدة السرعة وذات النوعية الأفضل ، وتخفيض المخزون والتنظيم القائم على نهج علمى، قد يحقق وفرا أعلى بكثير مما تحققه العمالة الرخيصة•

وبالتالى ، قد يكون أكثر ربحية أن يتولى شخص ما رئاسة شركات متقدمة فى اليابان أو الولايات المتحدة ، يعمل بها عمال مدربون تدريبا عاليا ويحصلون على أجور مرتفعة ، عن أن يتولى رئاسة مصنع بدائى فى الصين أو البرازيل ، يستخدم جموعا من العمال غير متعلمين ويحصلون على أجور زهيدة ·

وطبقا لأمبرتو كولمبو ، فان العمالة الرخيصة « لم تعد تكفى لتأمين وصول الدول النامية الى السوق العالمية ·

السرعات الفائقة :

يرتسم فى الأفق ، اذن ، خط فاصل خطير بين الاقتصادات السريعة والاقتصادات البطيئة · وسيولد هذا الخط انتقالات ضخمة للسلطة على امتداد « الجنوب » · وتدريجيا ، سيكون لهذا الخط الفاصل آثاره الكبيرة على امتداد الكرة الأرضية وعلى جميع الأصعدة ·

ويمكن بفضل النظام الجديد لخلق الثروة تصور مستقبل أفضل لطبقات واسعة من سكان العالم الذين ينتمون حاليا الى الطبقات الفقيرة · غير أننا لا نستطيع استبعاد أن يتصرف قادة الدول الأقل تقدما اقتصاديا بحيث لا تحدث هذه التغيرات ، ويحكمون بذلك على شعوبهم بفقر لا شفاء منه ويحكمون على أنفسهم بالعجز ·

لأنه فى الوقت الذى ينتظر فيه الصناعيون الصينيون الحصول على الصلب ، أو تتقدم فيه الاقتصادات التقليدية بايقاع متناهى البطء ، تعمل الولايات المتحدة واليابان وأوروبا ـ والسوفيت أيضا فى هذه الحالة بالذات ـ من أجل تنفيذ مشروعات بناء الطائرات فوق الصوتية القادرة على نقل ٢٥ طنا (ركاب وبضائع) بسرعة ٥ ماخ ، وهو ما يجعل نيويورك وسيدنى ولندن ولوس أنجلوس على بعد ساعتين ونصف الساعة من طوكيو ·

ان Jimo Tokuyama ، المستشار الرئيسى لمعهد أبحاث Mitsui والذى تولى من قبل منصب مدير معهد أبحاث نومورا الشهير ، يقوم حاليا بدراسة عن الاتصالات والنقل والسياحة تحت رعاية مؤتمر التعاون الاقتصادى لدول المحيط الهادى · وتهتم هذه الدراسة بثلاثة عوامل رئيسية فى ١٥ بلدا ، ومن المتوقع أن تزيد هذه العوامل من تسارع العمليات الاقتصادية فى المنطقة ·

ويتوقع Tokuyama أن يصل عدد الركاب الذين تقوم الشركات الجوية الباسيفيكية بنقلهم سنويا الى ١٣٤ مليون راكب ، فى نهاية القرن . ويضيف أن رابطة الشركات الفضائية اليابانية تقدر انه يتعين انتاج ما بين ٥٠٠ وألف طائرة فوق صوتية ، من الآن وحتى عام ٢٠٠٠ . وسيسلك عدد من هذه الطائرات طرق الباسفيك ، مما يؤدى الى تسريع التنمية الاقتصادية لهذه المنطقة وتزويدها بوسائل الاتصالات اللاسلكية . ويعرض Tokuyama بوضوح ، فى مقال عن الاتصالات والنقل والسياحة ، التأثيرات التجارية والاجتماعية والسياسية لهذا التطور .

ويشير أيضا فى هذا المقال الى اقتراح تقدمت به شركة بناء يابانية Taisei - يهدف الى بناء جزيرة صناعية طولها خمسة كيلو مترات لتكون مطارا ذا قيمة مضافة ، « يمكنه استقبال طائرات فوق صوتية ويضم مركزا دوليا للمؤتمرات وآخر تجاريا بالاضافة الى استعدادات وتجهيزات أخرى . وسيتم ربط هذا المطار بالمناطق ذات الكثافة السكانية العالية بواسطة قطارات فائقة السرعة » .

ومن جهة أخرى ، يشيد المليارديو Ross Perot مطارا فى تكساس سيتم تزويده بتجهيزات صناعية متقدمة . وتتلخص فكرته فى أن تهبط الطائرات نهارا أو ليلا حاملة معها مكونات تستخدم فى تصنيع منتجات نهائية خلال ليلة واحدة ، أو أن يتم تجميعها فى المنشآت الواقعة فى محيط المطار ، بحيث تستطيع الطائرات الاقلاع مرة أخرى بحمولتها من المنتجات صباح اليوم التالى الى أركان العالم الأربعة .

وفى الوقت نفسه ، تستثمر الاقتصادات المتقدمة مليارات من الدولارات لاقامة البنية التحتية الالكترونية التى لا غنى عنها لعمليات اقتصاد فائق السرعة .

ويتقدم انتشار وامتداد الشبكات الذكية بخطى واسعة ، والمطلوب حاليا هو خلق شبكات متخصصة من الألياف الضوئية بسرعة أكبر لربط أجهزة السوبر كمبيوتر على امتداد الولايات المتحدة بآلاف المعامل ومجموعات البحث ، (الشبكات القائمة التى تحمل ١٫٥ مليون بيت فى الثانية ، تعتبر بطيئة للغاية . أما الشبكات الجديدة فسترسل ٣ مليارات بيت فى الثانية - أى ٣ « جيجابيت » - على امتداد الولايات المتحدة) .

ويقول المدافعون عن هذه الشبكة الجديدة انها ضرورية ، طالما أن الشبكات القائمة أصبحت مشبعة . ويطالبون بأن يحصل المشروع على دعم الحكومة لأنه يستحق ذلك - على حد قولهم - نظرا لأنه سيساعد

الولايات المتحدة ، التى تحتل الصدارة فى هذا المجال ، على الاحتفاظ بتقدمها على أوروبا واليابان •

ان الأمر لا يتعلق بأصوات معزولة ، وانما يؤكد هذا المطلب ميتش كابور ، مؤسس شركة لوتس عملاق برامج الكمبيوتر ، اذ يقول : « اننا نحتاج الى بناء بنية تحتية قوية ، ستكون فى مجال المعلومات بمثابة المكافىء لبناء الطرق السريعة خلال الخمسينات والستينات » • وقد يكون التماثل أوضح اذا قارنا البنية التحتية الالكترونية للاتصالات اللاسلكية الآن بشبكات الطرق والسكك الحديدية فى بداية الثورة الصناعية •

نحن اذن ، نشهد بزوغ نظام عصبى الكترونى متكيف مع الشكل الجديد للاقتصاد ، وبغير هذا النظام سيحكم على أى بلد ، مهما كان عدد مصانعه ، بالتخلف •

هوة الكترونية واقليات ديناميكية :

تنبع السلطة فى البلدان الأقل تقدما اقتصاديا - كما فى باقى العالم - من فوهة المسدس وحافظات النقود والكتب ، أو من أجهزة الكمبيوتر حاليا •

واذا كنا لا نريد عالما فوضويا مزدحما بمليارات الفقراء ، وتحكمه حكومات غير مستقرة يقودها قادة لا يخضعون لسيطرة ، ومستعدون لشن حرب نووية أو كيميائية أو بكتريولوجية فى أية لحظة ، فاننا نحتاج الى استراتيجيات عالمية كفيلة بأن تمنع تزايد عمق الهوة التى تهددنا •

وطبقا لدراسة قام بها خبراء أمريكيون بعنوان « متطلبات المخابرات لعقد التسعينات » ، فان الدول الأقل تقدما اقتصاديا ستحصل خلال العقد القادم على أسلحة جديدة متطورة ، وستستكمل ترسانتها بقوة ضاربة ضخمة •

لماذا ؟

لأنه كلما تناقصت القوة الاقتصادية للدول الأقل تقدما اقتصاديا فسيواجه قادة هذه الدول معارضة سياسية ، ويغدو بالتالى وضعهم مزعزعا للغاية • ومن المرجح ، فى مثل هذه الظروف أن يتصرفوا كما فعل الحكام دائما منذ فجر التاريخ ، أى أن يتزودوا بأكثر أشكال السلطة بدائية ، ألا وهى القوة المسلحة •

اذن ، ما ينقص الدول الأقل تقدما اقتصاديا وبشكل حاد هو المعرفة الملائمة اقتصاديا • ان طريق التنمية والقوة الاقتصادية فى القرن الواحد والعشرين لم يعد يمر باستغلال المواد الأولية وقوة العمل ولكن – كما سبق أن رأينا – بأداء وانجازات العقل البشرى •

فلا معنى لاستراتيجيات التنمية اذا لم نأخذ فى الحسبان الدور الجديد للمعرفة فى خلق الثروة وضرورة التسارع التى تصاحبه •

ونظرا لأن المعرفة (التى تتضمن فى تعريفنا مفاهيم مثل الخيال والقيم والصور والحافز ، كما تتضمن وبالقدر نفسه المهارات التقنية من حيث كونها كذلك) تلعب بشكل متزايد دورا مركزيا فى الاقتصاد ، يتعين على البرازيليين والنيجيريين وهنود بنجلاديش وسكان هايتى أن يفكروا فى أفضل طريقة لامتلاك هذه الموارد ، أو أن يولدوها بأنفسهم •

ومن الواضح أن كل طفل يحكم عليه بحياة الفقر فى العالم الثالث ، أو بالتخلف العقلى نتيجة لسوء التغذية يمثل خسارة لا تعوض بالنسبة للمستقبل • وسيكون من الضرورى تبنى أشكال جديدة للتعليم ذات طابع ثورى لاتعتمد على النماذج القديمة للعالم الصناعى •

ولا غنى عن اكتساب المعرفة الواردة من الخارج • وقد يكتسى هذا النشاط أشكالا غير تقليدية – بل وغير مشروعة أحيانا ، حيث تمثل سرقة الأسرار التكنولوجية تجارة مزدهرة بالفعل • ويتعين علينا أن نتوقع أن ينضم الى هذه التجارة بعض من يتميزون بالدهاء من مواطنى الدول الأقل تقدما اقتصاديا •

ويعد تنظيم هجرة « العقول » طريقة أخرى للحصول على المعرفة والمهارة • ان هذه الهجرة يمكن أن تتم بأعداد صغيرة ، وذلك بشراء أو جذب فرق الباحثين • ولكن أدرك من هم أكثر ذكاء أنه يوجد فى جميع أنحاء العالم أقليات ديناميكية – غالبا ما تكون جماعات مضطهدة – قادرة على انعاش وتنشيط اقتصاد ما اذا ما توفرت لهم الوسائل • وهكذا لعب الصينيون فى جنوب شرق آسيا ، والهنود فى شرق أفريقيا ، والسوريون فى غربها ، والفلسطينيون فى بعض مناطق الشرق الأوسط ، واليهود فى أمريكا واليابانيون فى البرازيل ، هذا الدور ، فى فترة أو أخرى •

ان زرع هذه الأقليات فى ثقافة مختلفة ، يجعل كل جماعة لا تكتفى بجلب طاقتها وديناميكيتها وتميزها التجارى أو التقنى ، لكن أيضا موقفها الايجابى تجاه المعرفة – حيث النهم لأحدث المعلومات والأفكار والمهارات الجديدة • وتحقق هذه الجماعات نوعا من القوة الاقتصادية الهجين فى

المجتمعات التى تعيش فيها • فهى تعمل بحمية وتبتكر وتزود أطفالها بالتعليم المناسب ، واذا ما جمعت ثروة أثناء مشوارها فانها تحفز ردود أفعال اقتصاد البلد المستقبل لها وتعمل على تسارعها • وسنرى بدون شك ، مختلف الدول الأقل تقدما اقتصاديا تضع يدها على مثل هذه الجماعات ، وتدعوها للاقامة داخل حدودها لكى تحقق اقتصادها بما يحتاجه من الأدرينالين • أيضا ، تشجع الحكومات الذكية نمو الجمعيات والمنظمات غير الحكومية ، لأن مثل هذه الجماعات تسارع انتشار المعلومات النافعة اقتصاديا عن طريق النشرات والاجتماعات والمؤتمرات والرحلات الى الخارج • فاتحادات التجار ومهندسى البتروكيمياء والعاملين والمبرمجين ونقابات العمال والمصرفيين والصحفيين •• الخ ، توجه التبادل السريع للمعلومات عن الايجابيات والسلبيات فى قطاعاتهم المختلفة • ورغم أن هذه التجمعات تمثل وسيلة اتصال مهمة الا أنه غالبا للأسف ما يتم اهمالها •

كما يتعين على الحكومة التى تتناول بجدية ظروف التنمية لديها ، أن تعترف بالمعنى الاقتصادى الجديد لحرية التعبير • ان رفض السماح بتبادل وانتقال الأفكار الجديدة - بما فى ذلك الأفكار الاقتصادية والسياسية حتى وان كانت لا تجامل القيادات والحكام - يعد دائما علامة على ضعف الدولة • ومعنى ذلك ، أن من بيدهم السلطة يعتبرون موقعهم أهم بكثير من تحسين ظروف حياة مواطنيهم • ان الحكومات التى اختارت أن تكون جزءا لا يتجزأ من العالم الجديد ستفتح بشكل مطلق صمامات الحوار العام •

وستنضم حكومات أخرى الى « كونسرتيوم المعرفة » - وهو شكل من أشكال الشراكة مع بلدان أخرى أو شركات ذات أبعاد عالمية - لاستكشاف مردوذات العلم والتكنولوجيا ، وبشكل خاص امكانية خلق مواد جديدة •

وبدلا من الاستسلام لمفاهيم قومية بالية ، فان هذه الحكومات ستتابع بشغف - ولكن بذكاء - مصلحتها الوطنية الخاصة • وبدلا من رفض دفع الجعالة لمعامل الأدوية الأجنبية بدعوى متغطرسة أن الصحة فوق هذه الاعتبارات الفظة ، كما فعلت البرازيل ، فانها ستدفعها عن طيب خاطر - طالما أن هذه النقود ستبقى داخل البلد لعدد متفق عليه من السنين ، وسيتم استخدامها فى مشروعات بحثية بالتعاون مع خبراء معامل هذا البلد • ويمكن فى هذه الحالة ، اقتسام الأرباح التى حققها الانتاج الناجم من هذا البحث المشترك بين البلد المضيف والشركة الأجنبية متعددة

الجنسية • وبهذه الطريقة ستمول الجعالات انتقال التكنولوجيا والتكنولوجيا ذاتها • وعندئذ يحل شعور قومي فعال ، محل شعور قومي مدمر للذات ولا يخلو من مغالطات تاريخية •

كما أن الحكومات الذكية ستستقبل آخر ابتكارات الاعلاماتية دون اهتمام بمعرفة من الذى أنتجها ، وذلك بدلا من محاولة اقامة الصناعة الإعلاماتية الخاصة بها ، وراء حواجز جمركية لا تمنع فقط دخول المنتجات الجديدة ، لكنها تمنع أيضا دخول المعرفة المتقدمة •

ان الصناعة الاعلاماتية تتطور بسرعة كبيرة على مستوى الكرة الأرضية ، بحيث لا يستطيع أى بلد ، ولا حتى الولايات المتحدة أو اليابان، أن تبقى فى السباق بدون مساعدة الآخرين •

لقد نجحت البرازيل بالطبع فى اقامة صناعتها الاعلاماتية ، فيما عدا بعض أجهزة الكمبيوتر والبرامج الهامشية • ولكن بالمقارنة بما يتم فى الخارج ، فان منتجاتها لم تعد حديثة • بمعنى آخر ، تستخدم البنوك والصناعيون ورجال الأعمال البرازيليون تقنيات غير فعالة مقارنة بتقنيات منافسيهم الأجانب • أى أنهم يدخلون حلبة المنافسة وأيديهم مربوطة خلف ظهورهم • لذلك خسرت البرازيل حيث تصورت أنها حققت انتصارا •

لقد خالف هذا البلد القاعدة الأولى للنظام الجديد لخلق الثروة ، ألا وهى : « افعلوا ما تريدون مع الصناعات التى تتطور ببطء ، لكن ابتعدوا عن طريق صناعة فى حالة تطور سريع » • وفى هذه الحالة يتعلق الأمر بصناعة تعالج أهم الموارد ، وهى المعرفة !

وستتفادى بعض البلدان الأقل تقدما اقتصاديا هذه الأخطاء • بل يمكن الذهاب الى حد التفكير فى أن بعض هذه البلدان ، سيستثمر بشكل متواضع فى صناديق الايداع ذات المخاطر ، الموجودة فى الولايات المتحدة أو فى أوروبا أو اليابان ، شريطة أن يرافق فنيوهم وعلماؤهم وطلابهم هذا الاستثمار ، وأن يتمكنوا من التدريب على المهارة والتقنية التى تملكها المجتمعات المتقدمة • وبهذه الطريقة ، يستطيع البرازيليون أو الأندونيسيون أو النيجيريون أو المصريون أن يحتلوا المواقع المتقدمة فى صناعات الغد • واذا تمت ادارة مثل هذه البرنامج بذكاء ، فمن الممكن أن يقوم بتمويل نفسه ذاتيا بل وتحقيق مكاسب أيضا •

بالاضافة الى ذلك ، ستتناول الدول الأقل تقدما اقتصاديا دور ومكانة الزراعة بطريقة جديدة جذريا ، باعتبارها قطاعا يمكن تحديثه بفضل أقمار الأرصاد والاعلاماتية والبيولوجية الوراثية وكل التكنولوجيات

الجديدة الأخرى ، بحيث تصبح مشاركة الزراعة فى التقدم أكبر بكثير من كل المصانع والمناجم الموجودة على امتداد العالم ، بدلا من اعتبارها قطاعا اقتصاديا « متخلفا » بالضرورة • ان الزراعة القائمة على المعرفة يمكن أن تصبح غدا طليعة التقدم الاقتصادى •

ومن ناحية أخرى ، لن تكتفى الزراعة بانتاج المواد الغذائية ، لكنها ستساهم فى زيادة انتاج مصادر الطاقة ، ومواد أولية ستفتح الطريق لانتاج مواد جديدة •

وتلك مجرد بضعة مجالات قد يتم استكشافها فى السنوات القادمة •

غير أن هذه الجهود ، لن تؤتى ثمارها اذا لم يصبح البلد المعنى جزءا لا يتجزأ من الاقتصاد العالمى ، ذى الايقاع السريع وشبكة الاتصالات اللاسلكية والمعلوماتية التى يعتمد عليها هذا الاقتصاد •

ان سوء توزيع الاتصالات اللاسلكية فى عالم اليوم أكثر خطورة ومأساوية من سوء توزيع المواد الغذائية • اذ تستحوذ تسع دول فقط على ٤٥٠ مليون جهاز هاتف من ٦٠٠ مليون جهاز موزعين على كوكب الأرض • كما أن التوزيع غير المتوازن لأجهزة الكمبيوتر وقواعد البيانات والمطبوعات التقنية والميزانيات المخصصة للبحث العلمى ، يكشف المستقبل المحتمل للأمم ، بدرجة أكثر بكثير من كل الأرقام الخاصة باجمالى الناتج القومى التى يمدنا بها الاقتصاديون •

ولكى تواكب بلدان مثل الصين والبرازيل والمكسيك وأندونيسيا والهند ، وكذلك الاتحاد السوفيتى وبلدان شرق أوروبا ، الاقتصاد العالمى الجديد ، يتعين عليها أن تجد الموارد اللازمة لاقامة البنية التحتية الالكترونية الخاصة بها • الا أن الأمر لا يقتصر على اقامة خدمات هاتفية بسيطة ، وانما يشمل أيضا نظما حديثة وفائقة السرعة لنقل البيانات ، وقادرة على الارتباط بأحدث الشبكات •

ولحسن حظ البلدان البطيئة ، أن لديها حاليا امكانية قفز مرحلة كاملة من تطور هذه البنية التحتية ، والانتقال بقفزة واحدة من اتصالات الموجة الأولى الى اتصالات الموجة الثالثة ، دون اضطرار الى استثمار المبالغ الضخمة اللازمة لاعداد شبكات ونظم الموجة الثانية •

ان نظام Iridium مثلا الذى أعلنت عنه شركة موتورولا ، سيضع ٧٧ قمرا صناعيا صغيرا فى مدار منخفض ، مما يسمح للملايين من قاطنى المناطق النائية وذات الكثافة السكانية الضعيفة ــ مثل المناطق القطبية

فى الاتحاد السوفيتى أو الصحراء الصينية أو المناطق الداخلية من أفريقيا - أن يرسلوا ويستقبلوا الصوت والبيانات والصور الرقمية بواسطة هواتف يدوية ٠

ولن يحتاج الأمر الى مد كابلات من النحاس أو حتى من الألياف الضوئية على امتداد آلاف الكيلومترات عبر الأدغال أو الجليد أو الرمال ، اذ ستتصل الهواتف المتنقلة مباشرة مع أقرب قمر لها ، والذى سيتولى بث الرسائل ٠ كما ستعمل أوجه تقدم أخرى على خفض التكلفة شديدة الارتفاع للاتصالات اللاسلكية لتصبح فى متناول الدول الأكثر فقرا الآن ٠ وسيساهم الانتاج الكبير والمنافسة الفائقة بين الموردين الأمريكيين واليابانيين والأوروبيين فى خفض الأسعار ٠

ان المفتاح الجديد للتنمية والتطور الاقتصادى واضح : فالهوة التى يتعين سدها ذات طبيعة الكترونية واعلامانية ٠ ولا يتعلق الأمر هنا بهوة بين الشمال والجنوب ولكن بتغيير الطور بين المسرعين والمبطئين ٠

الفصل الحادى والثلاثون

صـدمة الاشتراكية مع المستقبل

ان الاختفـاء المذهل للاشتراكية فى أوروبا الشرقية والذى حدث على خلفية أليمة من اراقة الدماء فى بوخارست وباكو وبكين ، لم يكن ثمرة الصدفـة ٠

لقد دخلت الاشتراكية فى تصادم مع المستقبل ٠

ولم تنهر النظم الاشتراكية نتيجة مؤامرات دبرتها المخابرات المركزية الأمريكية أو حصار رأسمالى أو اختناق اقتصادى خارجى ٠ لقد سقطت الحكومات الشيوعية فى أوروبا الشرقية بمجرد أن أعلنت موسكو أنها لن ترسل قوات لحماية هذه الحكومات من شعوبها ٠ الا أن أزمة الاشتراكية كنظام فى الاتحاد السوفيتى والصين وأماكن أخرى لها جذور أكثر عمقا ٠

فكما أدى اختراع جوتنبرج للطباعة بواسطة حروف متحركة فى منتصف القرن الخامس عشر الى نشر المعرفة ، وحررها كما حرر الاتصالات من قبضة الكنيسة الكاثوليكية فى أوروبا الغربية ، فان ظهور الاعلاماتية وطرق الاتصال الجديدة فى منتصف القرن العشرين حطم سيطرة موسكو على الفكر فى البلدان التى كانت تحكمها أو تسيطر على السلطة فيها ٠

نقطـــة التصـــدع :

فى عـــام ١٩٥٦ ، كان الزعيم نيكيتا خروتشـوف يحلم « بدفن الغرب » ٠ وفى ذلك العام نفسه ، ولسخرية التاريخ ، أصبح عدد « الياقات الزرقاء » فى الولايـات المتحدة ، ولأول مرة ، أقل من عدد المشتغلين فى مجال المعرفة والخدمات ٠ وأعلن هذا التغيير الأفول القادم للحضارة المصنعية وظهور الاقتصاد فائق الرمزية ٠

ومن سخريات التاريخ أيضا ، اتهام الاقتصاديين الماركسيين (والعديد من الاقتصاديين التقليديين) العاملين الذهنيين بأنهم « غير منتجين » ،اذ أن هؤلاء العاملين « غير المنتجين » هم الذين أعطوا ، أكثر من غيرهم بدون شك ، دفعة خارقة للاقتصادات الغربية منذ منتصف الخمسينات ·

والآن ، فان الدول الرأسمالية ذات التكنولوجيا المتقدمة ، حتى مع كل « تناقضاتها » المزعومة التى لم تجد حلولا مرضية ، سبقت بمسافات كبيرة باقى العالم على الصعيد الاقتصادى ، لدرجة أن حلم خروتشوف أصبح مثيرا للشفقة · ان الرأسمالية القائمة على المعلوماتية هى التى أنجزت ، ما يطلق عليه الماركسيون ، « قفزة نوعية » وليست الاشتراكية المصنعية · وفى مواجهة امتداد وانتشار الثورة الحقيقية فى بلدان التكنولوجيا المتقدمة ، تحولت الدول الاشتراكية الى كتلة رجعية بشكل عميق يقودها شيوخ مشبعون بأيديولوجية القرن التاسع عشر · وكان ميخائيل جورباتشوف أول زعيم سوفيتى يعترف بهذه الحقيقة التاريخية ·

ففى خطاب له فى عام ١٩٨٩ ، أعلن : « لقد كنا تقريبا آخر من أدرك أن أفضل وسيلة للنجاح فى عصر علوم المعلومات هى المعرفة » ، وذلك بعد ظهور النظام الجديد لخلق الثروة فى الولايات المتحدة بحوالى ثلاثين عاما ·

لم يصل جورباتشوف الى قمة السلطة لكونه شخصا غير عادى أو فذا ، لكنه وصل اليها كممثل لطبقة جديدة من المواطنين السوفيت يتمتعون بمستوى تعليم أفضل وينتمون ، لدرجة كبيرة ، الى « الياقات البيضاء » ـ وهى الجماعة التى كان القادة السابقون يحتقرونها بالذات ، كما أنها الجماعة المرتبطة ارتباطا وثيقا بالانتاج الرمزى ·

لقد عرف ماركس شخصيا الظرف الثورى حين قال ان هذا الظرف يظهر عندما تحد « علاقات الانتاج » (بمعنى طبيعة ملكية الانتاج والسيطرة عليه) من التقدم فى تطوير « وسائل الانتاج » (التكنولوجيا تقريبا) ·

ان هذه الصيغة تصف تماما أزمة العالم الاشتراكى · فكما أعاقت « علاقات الانتاج » الاقطاعية النمو والتطور الصناعى ، فان « علاقات الانتاج » الاشتراكية منعت البلدان المسماة اشتراكية من الاستفادة من النظام الجديد لخلق الثروة القائم على المعلوماتية والاتصال ، وفوق كل شىء وقبله ، على حرية الوصول الى المعلومات · ان الخطأ الأكبر المرتبط بتجربة الأمة الاشتراكية الكبيرة فى القرن العشرين ، يكمن فى الأفكار التى تنادى بها عن المعرفة والتى تجاوزها الزمن ·

آلة ما قبل السبرنطيقا :

فيما عدا بعض الاستثناءات ، لم تحقق الاشتراكية الوفرة أو المساواة أو الحرية ، ولكنها حققت نظام الحزب الواحد وبيروقراطية وفيرة وشرطة سرية بليدة وسيطرة حكومية على وسائل الاعلام ، كما أدت الى السرية وقمع الحرية الثقافية والفنية ·

وبغض النظر عن أنهار الدم التى سالت من أجل اقامة النظام الاشتراكى ، فان نظرة سريعة عليه تكشف أن كل عنصر من عناصره ليس فقط طريقة لتنظيم حياة الأفراد ، وانما طريقة لتنظيم وتوجيه المعرفة والسيطرة عليها بشكل أعمق بكثير ·

ان وظيفة أى نظام سياسى ذى حزب واحد هى السيطرة على الاتصال السياسى · ونظرا لعدم وجود أى حزب آخر ، فانه يقيد تنوع المعلومات السياسية التى تتداول فى المجتمع حائلا بذلك دون حدوث رد فعل ارتجاعى ، ومضللا من بيدهم السلطة عن تعقيد وتركيب المشكلات · وعندئذ يصعب للغاية أن يرصد النظام الأخطاء ويصححها طالما أن المعلومات ــ المتطابقة تماما ــ تصعد من القاعدة الى القمة عن طريق القنوات المسموح بها فقط ، كما تنزل الأوامر عن طريق القنوات نفسها ·

وكانت السيطرة من أعلى الى أسفل السارية فى الدول الاشتراكية ، تعتمد على الكذب وتشويه الحقائق طالما أن نقل أنباء سيئة يكون أمرا محفوفا بالمخاطر · ان الحكم طبقا لنظام الحزب الواحد يعنى فى الواقع اتخاذ كل القرارات فى مجال المعرفة ·

والبيروقراطية المفرطة التى أقامتها الاشتراكية فى كل مجالات الحياة ، كانت هى أيضا ــ كما سبق أن رأينا فى الفصل الخامس عشر ــ وسيلة للحد من المعرفة · فهى تحتجز المعرفة فى خانات مسبقة التحديد وتقصر الاتصال على « القنوات الرسمية » ، مع جعل الاتصال والتنظيم غير الرسمى أمرا غير مشروع ·

وتشكل الشرطة السرية ووضع يد الدولة على وسائل الاعلام وتهديد المثقفين وقمع الحرية الفنية ، محاولات أخرى للحد من المعلومات والسيطرة عليها ·

وترتكز كل هذه العناصر على مسلمة واحدة وحيدة عن المعرفة عفا عليها الزمن · وهى مسلمة توحى بالاعتقاد الوقح القائل بأن من بيدهم السلطة ــ سواء أكانوا ينتمون للحزب أم للدولة ــ يعرفون ما يتعين أن يعرفه الآخرون ·

وتنبع هذه الخواص المشتركة لكل البلدان الاشتراكية من مفهوم الآلة السابقة للسبرنطيقا الذى طبق على المجتمع والحياة ، وحققت هذه الخواص حماقة واضحة فى مجال الاقتصاد · ان آلات الموجة الثانية ـ مثل تلك التى كانت تشكل جزءا من عالم ماركس فى القرن التاسع عشر ـ تعمل فى الغالب بدون أى رد فعل ارتجاعى ، اذ يكفى توصيلها بمصدر كهربى وتشغيل محركها لكى تدور دون أن تأخذ فى الاعتبار ما يدور فى بيئتها الخارجية ·

وفى المقابل ، فان آلات الموجة الثالثة ذكية · فهى مزودة بمجسات تلتقط المعلومات عن البيئة المحيطة وترصد التغيرات وتتكيف طبقا لذلك ، أي أنها ذاتيـة الضبط والتنظيم · ومن ثم يمكن القول ان هـذا الفرق التكنولوجى فرق ثورى ·

عندما كان ماركس وانجلز ولينين يهاجمون بعنف فلسفة « المادية الميكانيكية » ، كان فكرهم ذاته ، مجسدا عصرهم ، لا يزال مشبعا ببعض أشكال التماثل والفرضيات القائمة على آلات لا تتمتع بالذكاء ·

وهكذا ، كان صراع الطبقـات يمثـل « قاطرة التاريـخ » بالنسبة للاشتراكيين الماركسيين · وكان وضـع اليد على « آلة الدولة » احدى المهام الرئيسية · والمجتمع ذاته ، الذى يماثل الآلة ، يمكن برمجته بشكل مسبق لكى ينشر ويوزع الوفرة والحرية · وباستيلاء لينين على السلطة فى روسيا فى عام ١٩١٧ ، أصبح الميكانيكى الأعلى ·

لقد فهم لينين كمثقف نابغة أهمية الأفكار · الا أنه كان يعتقد أن الانتاج الرمزى ـ والعقل ذاته ـ يمكن برمجته أيضا · وحيث كان ماركس يتكلم عن الحرية ، أخذ لينين على عاتقه ، باستيلائه على السلطة ، توجيه المعرفة · لذلك أصر على أن يكون الفن والثقافة والعلم والصحافة وكل نشاط رمزى بشكل عام فى خدمة استراتيجية كلية · على أن يتم فى الوقت المحدد تنظيم مختلف فروع التعليم فى « أكاديمية » مقسـمة الى أقسام ومزودة بدرجـات بيروقراطية محـددة وتخضـع جميعها للحزب ولسيطرة الدولة · ويعمل « العمال الثقافيون » فى مؤسسات تسيطر عليها وزارة الثقافة وتكون الاذاعة ووسـائل النشر احتكارا للدولة ، وتصبح المعرفة ترسا فى آلتها ·

ان هذا التنـاول الضيق للمعرفة ، المتنـاقض تماما مع المبـادىء الضرورية لأى تقدم اقتصادى فى عصر المعلوماتية ، شل أى تطور حتى فى الاقتصادات المصنعية ذات المستوى المنخفض ·

تنــاقض الملكية :

يشكل الانتشار الحالى لنظام خلق الثروة الخاص بالموجة الثالثة ، تحديا للأعمدة الثلاثة للعقيدة الاشتراكية ·
ولنأخذ مثــال الملكية ·

لقد اتهم الاشتراكيون دائما الملكية الخاصة لوسائل الانتاج بأنها أصل الفقر والكساد والبطالة وسيئات التصنيع الأخرى · والحل الوحيد لهذه المشكلات هو منح المصانع للعمال سواء من خلال الدولة أم عن طريق شركات جماعية ·

وعند بلوغ هذه المرحلة ستختلف الأمور · لن يكون هناك فوضى تنافسية وانما تخطيط عقلانى تماما ، وانتاج موجه نحو المنفعة بدلا من الربح ، واستثمار ذكى يستهدف تقدم الاقتصاد · ولأول مرة فى التاريخ سيتحقق أخيرا حلم الوفرة للجميع ·

وعندما تمت صياغة هذه الأفكار فى القرن التــاسع عشر ، كانت تبدو وكأنها تجسد المعرفة العلمية الأكثر تقدما · وكان الماركسيون يدعون بالفعل أنهــم ذهبوا الى أبعد من المثاليين الطوبــاتيين ، لقد وصلوا الى « اشتراكية علمية » حقيقية · كان الطوبائيون يحلمون بوحدات تعاونية زراعية مستقلة ، فى حين كان الاشتراكيون العلميون يعرفون أن مثل هذه المفاهيم غير قابلة للتطبيق فى مجتمع مصنعى فى حالة نمو وتطور · واذا كان أمثــال شارل فورنيه من الطوبائيين يتجهون نحــو الماضى الزراعى ، فان الاشتراكيين العلميين كانوا يتجهون نحو ما كان يمثل حينذاك المستقبل الصناعى ·

وهكذا ، عندما جربت النظــم الاشتراكية بعد ذلك التعاونيــات والادارة العمالية والتأميم وحلولا أخرى مماثلة ، أصبحت اشتراكية الدولة هى الشكل الغالب للملكية فى كل العالم الاشتراكى · لقد امتدت سلطة الدولة على الحياة الاقتصادية والاجتماعية قاطبة ، من البنوك الى الحانات ومن مصانع الصلب والتعدين الى المطاعم · (كان هاجس ملكية الدولة كاملا لدرجة أن نيكاراجوا ، التى دخلت متأخرة الى العالم الاشتراكى فتحت ملهى ليليا ملكا للدولة !) · فى كل مكان ، أصبحت الدولة ــ وليس العمال ــ هى المستفيد الرئيسى من الثورة الاشتراكية ·

ولم تتمكن الاشتراكية من الوفاء بوعدها فيما يتعلق بتحقيق تحسين جذرى لظروف الحياة المادية للمواطنين ·

وعندما انخفض مستوى المعيشة فى الاتحاد السوفيتى بعد الثورة ، نسبت هذه الظاهرة الى آثار الحرب العالمية الأولى والثورة المضادة ، وهو أمر لا يخلو من الحقيقة • وبعد ذلك ، ألقيت مسئولية العجز والنقص على الحصار الرأسمالى للدولة السوفيتية • وفيما بعد كانت الحرب العالمية الثانية هى المسئولة • ولكن بعد ثلاثين عاما من نهاية الحرب ، لا زالت المواد الغذائية الأساسية مثل البن والبرتقال ناقصة فى موسكو • وخلال الفترة التى سبقت البروسترويكا ، كان الغذاء الرئيسى لباحث يعمل فى معهد تابع للدولة فى موسكو عبارة عن خرشوف وبطاطس • وفى عام ١٩٨٩ ، أى بعد مرور أربع سنوات ، على بداية محاولة الاصلاح التى قام بها جورباتشوف ، كان الاتحاد السوفيتى يستورد سنويا ٦٠٠ مليون موسى حلاقة و ٤٠ مليون أنبوب معجون حلاقة •

والغريب ، أن الاشتراكيين التقليديين ـ وان كان عددهم فى تناقص ـ لا يزالون يطالبون بتأميم الصناعة وقطاع المال • فمن البرازيل الى بيرو مرورا بجنوب أفريقيا ، بل وفى البلدان الغربية الصناعية ، لا يزال هناك اشتراكيون يعتبرون « الادارة العامة » للبلاد موقفا تقدميا بالرغم من البراهين المضادة التى لقنها التاريخ ، ويرفضون قبول الغاء التأميم أو خصخصة الاقتصاد •

ان الاقتصاد العالمى الذى يتزايد تحريره وتحتفل به الشركات الكبرى المتعددة الجنسية بلا تبصر ، يظل اقتصادا غير مستقر وقد ينهار كقصر من ورق • فالديون الضخمة التى يستند عليها هذا الاقتصاد أشبه ببالون قد ينفجر بين يوم وليلة • كما قد تؤدى الحروب ، خلال العقود القادمة ، أو الانقطاع المفاجىء لامدادات الطاقة أو لأى موارد أخرى ، أو أى كارثة ، الى انهياره • ومن الممكن فى حالة حدوث كارثة ، تصور أنه من الضرورى أن تجرى بلا ابطاء عمليات تأميم مؤقتة •

الا أن العديد من الشواهد الدامغة ، تثبت أن سوء معاملة الشركات المؤممة لعامليها وللجمهور العريض وتلويثها للبيئة لا يقل عن الشركات الخاصة • وأصبح العديد من هذه الشركات غيلان فساد وجشع وعدم كفاءة • كما أن فشلها يشجع ، فى كثير من الأحيان ، على خلق سوق سوداء واسعة تقوض شرعية الدولة ذاتها •

ومن سخرية القدر أن الشركات المؤممة ، بدلا من أن تحتل طليعة التقدم التكنولوجى ، فانها كلها تقريبا رجعية •

فهى أكثر الشركات بيروقراطية ، وأبطؤها فى اعادة تنظيم نفسها ، والأقل استعدادا للتكيف مع احتياجات المستهلك المتغيرة ، وأكثرها خوفا من فكرة تقديم المعلومات للمواطنين ، وآخر من يتبنى التقنيات الجديدة ٠

وطوال قرن أو يزيد ، شكلت قضية الملكية الخاصة والملكية العامة نقطة مواجهة بين الاشتراكيين والمدافعين عن الرأسمالية ٠ وكرس مئات من الرجال والنساء حياتهم فعليا لهذه المعركة ٠ الا أن الذى لم يفكر فيه الفريقان أن نظاما جديدا لخلق الثروة قد يحيل كل حججهم تقريبا الى شئ قد عفا عليه الزمن ٠

وذلك ما حدث بالفعل ٠ ان أهم شكل من أشكال الملكية أصبح اليوم غير محسوس أو ملموس ، فهو فائق الرمزية ويسمى المعرفة ٠ ويستطيع عدة أشخاص استخدام ذات المعرفة فى وقت واحد لخلق الثروة وانتاج مزيد من المعرفة ٠ وعلى نقيض المصانع والمزارع ، فان المعرفة غير قابلة للنضوب ٠ ولم تنجح النظم الاشتراكية أو الاشتراكيون بشكل عام فى استيعاب هذه الظاهرة الثورية حقا ٠

كم عدد البراغى « يسارية اللولبة » ؟ :

كان التخطيط المركزى العمود الثانى لكاتدرائية النظرية الاشتراكية ٠ فبدلا من ترك « فوضى » السوق تحدد الاقتصاد سيقوم التخطيط الذكى من أعلى الى أسفل ، بتركيز الموارد على قطاعات رئيسية والعمل على تسارع التطور التكنولوجى ٠

الا أن هذا التخطيط يعتمد على المعرفة ٠ ولقد وصف عالم الاقتصاد النمساوى لودفيج فون ميزس ، فى العشرينات من هذا القرن ، المعرفة غير المتوفرة لهذا التخطيط ـ أو طبقا لكلماته ذاتها « مشكلة الحساب » الخاصة بها ـ بأنها نقطة ضعف الاشتراكية ٠

كم حذاء يتعين على مصنع فى Irkoutsk أن ينتجها ؟ وما هى مقاساتها ؟ وكم عدد البراغى يسارية اللولبة أو ما نوع الورق ؟ وما هى النسبة التى يتعين تحديدها بين سعر الوقود والخيار ؟ وكم من الروبلات أو الزلوتيات أو الينات يجب استثمارها فى كل قطاع انتاج ، والبالغ عددها ١٠ آلاف قطاع ؟

تتطلب الاجابة على هذه الأسئلة ، حتى فى اقتصاد بدائى ، كم معرفة أكبر مما يستطيع المخططون المركزيون أن يجمعوه أو يحللوه ، خاصة عندما يكون المديرون يخفون باستمرار حقائق الانتاج الحقيقى تفاديا

للمشكلات . وهكذا تكدست فى المخازن أحذية لا يريد أحد شراءها . وأصبح النقص فى السلع والخدمات والسوق السوداء مشكلات مزمنة فى أغلب الاقتصادات الاشتراكية .

وكانت أجيال من المخططين الاشتراكيين الذين يتميزون بالدقة يشدون شعورهم أمام هذه الصعوبة . كانوا يطالبون بمزيد من البيانات ويحصلون على المزيد من الأكاذيب ، ويقومون بتدعيم البيروقراطية . ولأنهم لا يستطيعون اللجوء الى مؤشرات العرض والطلب التى تولدها سوق تنافسية ، حاولوا قياس الاقتصاد بمقياس عدد ساعات العمل ، أو باحصاء الأشياء طبقا لكونها كذلك وليس لما تمثله من قيمة . ثم جربوا بعد ذلك نموذج الاقتصاد الرياضى وتحليل المدخلات والمخرجات .

ولم يعد هناك شىء يسير كما ينبغى ، فكلما زادت كمية المعلومات لديهم بات الاقتصاد معقدا وغير منظم . وبعد ٧٥ سنة من الثورة الروسية ، أصبح الرمز الحقيقى للاتحاد السوفيتى هو الطوابير أمام المحلات وليس المطرقة والمنجل .

ويتسابق الجميع الآن فى كل العالم الاشتراكى الحالى والسابق لادخال اقتصاد السوق ، بشكل شامل كما فى بولندا ، أو على استحياء داخل نظام مخطط كما فى الاتحاد السوفيتى . وحاليا يعترف الاصلاحيون الاشتراكيون بالاجماع ، بأن ترك العرض والطلب يحدد الأسعار — على الأقل فى بعض المجالات — يوفر ما لا تستطيع الخطة المركزية تأمينه ، ألا وهو المؤشرات التى توضح ما يحتاجه الاقتصاد ويطالب به .

ولكن عندما يناقش الاقتصاديون ضرورة استخدام هذه المؤشرات ، فانهم يهملون التغيير الأساسى الذى يستتبعه ذلك فى نظام الاتصال والعمليات الضخمة لانتقال السلطة الناجمة عنه . اذ يكمن الفرق الأساسى بين الاقتصاد المخطط واقتصاد السوق فى حقيقة أن المعلومات ، فى ظل النظام الأول ، تنتقل رأسيا ، فى حين ينتقل كم أكبر من المعلومات أفقيا أو قطريا داخل النظام الثانى ، حيث يتبادل البائعون والمشترون المعلومات على جميع المستويات وفى كل الاتجاهات .

ان هذا التغيير لا يهدد كبار موظفى التخطيط أو القادة فقط ، ولكن الملايين من صغار البيروقراطيين الذين كان مصدر سلطتهم الوحيد يعتمد على السيطرة على المعلومات المتداولة على امتداد القناة الرسمية .

وان عجز نظام التخطيط المركزى عن مواجهة المستويات المرتفعة للمعلومات يحد من التعقيد الاقتصادى الضرورى للنمو .

وتتطلب الطرق الجديدة لخلق الثروة كما هائلا من المعرفة والمعلومات والاتصال يتجاوز قدرة الاقتصادات المخططة . وبالتالى اصطدم ظهور الاقتصاد فائق الرمزية بقاعدة العمود الثانى ذاتها للنظرية الاشتراكية .

مزبلة التـاريخ :

ان تأكيد الاشتراكية الزائد على المعدات الميكانيكية ، وطريقتها فى التركيز على الصناعة واهمالها للزراعة والعمل الذهنى ، تشكل جميعا العمود الثالث الذى انهار .

ففى السنوات التى تلت ثورة ١٩١٧، لم يكن لدى السلطة السوفيتية الأموال اللازمة لبناء السدود ومصانع الصلب والسيارات التى كان الروس فى حاجة اليها . لذلك ، تبنى القادة السوفيت نظرية « التراكم الاشتراكى البدائى » التى صاغها الاقتصادى اى . ايه . بريو بريجنسكى . وطبقا لهذا المفكر ، يمكن عن طريق خفض مستوى معيشة الفلاحين بالقوة الى حد الكفاف الحصول على رأس المال اللازم ، على أن يستخدم الفائض الذى تم استخلاصه بهذه الطريقة لتغذية الصناعة الثقيلة ودفع أجور العمال .

ان نيكولاى بوخارين ، الزعيم البلشفيكى الذى دفع حياته ثمنا لبصيرته الثاقبة ، توقع - وعن حق - أن تؤدى هذه الاستراتيجية الى انهيار الزراعة . ولقد أدت هذه السياسة الى القمع القاتل لطبقة الفلاحين على يد ستالين ، لأن مثل هذا البرنامج كان لا يمكن تحقيقه الا بالقهر والقوة . ومات ملايين الرجال من الجوع أو من الاضطهاد والتعذيب .

ونجم عن هذا « الموقف المنحاز صناعيا » - على حد تعبير الصينيين - أن أصبحت الزراعة قطاعا منكوبا فى كل الاقتصادات الاشتراكية تقريبا . ويمكن التعبير عن هذا الموقف بشكل مختلف ، بأن الدول الاشتراكية طبقت استراتيجية الموجة الثانية على حساب أفراد الموجة الأولى .

ومن ناحية أخرى ، دأب الاشتراكيون على التقليل من شأن قطاع الخدمات والياقات البيضاء . ان رغبتهم فى أن تعبر الفنون عن « الواقعية الاشتراكية » بلوحاتها الجدارية التى تمثل عمالا أقويا يعملون فى مصانع الصلب ، ليست اتجاها عارضا . لقد تم ابراز العمل العضلى لأن التصنيع بخطوات متسارعة كان الهدف الأول للاشتراكية . وكان العمل الذهنى يناسب فقط الامعات غير المنتجين .

ويتفق هـذا الموقف الواسع الانتشار ، تماما مع الاهتمام المطلق بالانتاج بدلا من الاستهلاك ، وبالسلع الانتاجية على حساب السلع الاستهلاكية ٠

وبينما كان بعض الماركسيين ، خاصة انطونيو جرامسكى ، يطرحون للمناقشة هذا الموقف ، كما كان ماوتسى تونج يؤكد على ضرورة انتصار النقاء الأيديولوجى على العقبات المادية ، تركزت الفكرة الأساسية للنظم الماركسية فى اعلاء قيمة الانتاج المادى وتقليل قيمة المنتجات الذهنية ٠

ويساند الماركسيون المتشددون وجهة النظر المادية التى تعتبر أن الأفكار والمعلومات والفن والثقافة والقانون والنظريات وكل منتج ذهنى آخر غير ملموس ماديا ، عبارة عن مكونات « بنية فوقية معلقة » ، اذا جاز التعبير ، فوق « القاعدة » الاقتصادية للمجتمع ٠ وبما أن هناك نوعا من التفاعل المتبادل بين الاثنين فان البنية التحتية هى التى تحدد البنية الفوقية وليس العكس ٠ وكان من يجاهر برأى مضاد يعامل على أنه « مثالى » ــ وهو تصنيف خطير فى تلك الفترة ٠

لقد أشار ماركس ، بتأكيده على أسبقية المادية ، الى نقطة ضعف هيجل ٠ ويكشف النظام الجديد لخلق الثروة بدوره نقطة ضعف ماركس أو بتعبير أدق نقطة ضعف ماركس وهيجل ٠

وكانت الآلات والمعدات ، بالنسبة للماركسيين ، ذات أهمية أكبر من نظم وبرامج التشغيل ، فى حين تعلمنا الثورة المعلوماتية الآن أن العكس هو الصحيح ٠ ان المعرفة هى التى تقود الاقتصاد وليس الاقتصاد هو الذى يقود المعرفة ٠

ولكن المجتمعات ليست آلات ولا أجهزة كمبيوتر ، ولا يمكن اختزالها الى أجهزة ومعدات مادية وبرامج ونظم تشغيل ، أو الى « قاعدة » و « بنية فوقية » ٠ قد يكون النموذج الأنسب هو وصفها بأنها تتكون من عدد كبير من العناصر المرتبطة فى عقد ذات تأثير ارتجاعى غاية فى التركيب وفى حالة تغير مستمر ٠ وبمجرد تزايد هذا التعقيد والتركيب تصبح المعرفة أكثر حيوية للاقتصاد ولسلامة البيئة ٠

باختصار ، لقد بدا هذا الاقتصاد الجديد الذى يتميز بمواد أولية غير ملموسة فى الظهور فى مواجهة اشتراكية عالمية غير مستعدة له ٠ وكانت صدمة الاشتراكية مع المستقبل قاتلة بالنسبة لها ٠

واذا كانت الاشتراكية التقليدية لا تصلح الا « لمزبلة التاريخ » ، فلا يعنى ذلك موت الأحلام الرائعة معها • ان الرغبة فى خلق عالم تسوده الوفرة والسلام والعدالة الاجتماعية ، ستظل دائما رغبة نبيلة ولا خلاف عليها • غير أن مثل هذا العالم لا يمكن أن يولد على قواعد بالية عفا عليها الزمن • انه أهم ثورة يشهدها كوكب الأرض الآن هى بروز حضارة الموجة الثالثة المزودة بنظام جديد تماما لخلق الثروة • وكل حركة لم تدرك بعد هذه الحقيقة محكوم عليها بتجدد فشلها واحباطاتها • وكل دولة تحتفظ بالمعرفة أسيرة تحبس مواطنيها فى ماض من الكوابيس •

الفصل الثانى والثلاثون

ســـلطة التـــوازن

ما كاد عصر تحول السلطة يبدأ حتى استحوذ عليه المستقبل • فمع تفكك الكتلة الشرقية والانقسامات المستمرة بين دول الجنـوب وتزايد سلطة الغرب ـ أوروبا واليابان والولايات المتحدة ـ نشهد سلسلة من المؤتمرات والقمم والمحادثات الدبلوماسية التى تهدف كلها الى اقامة نظام جديد •

ولكن بالرغم من النصائح والارشادات والخطب ، سيعتمد المعمار الجديد للسلطة العالمية على طبيعة السلطة التى يستطيع كل واحد أن يضعها على المائدة ، سواء على الصعيد الكمى أم الكيفى ، أكثر من اعتماده على الكلمات •

هل تمثل الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى أمجادا قديمة ؟ واذا كان الأمر كذلك ، كم عدد القوى العظمى الجديدة التى ستهب لكى تحل محلها ؟

يتحدث البعض عن عالم جديد متمحور حول أقطاب ثلاثة : أوروبا واليابان والولايات المتحدة • فى حين يتوقع آخرون أن يقسم العالم بين ست أو ثمانى كتل اقليميـة ، ويعتقـد البعض الآخر أن القطبية الثنائية ستتحول الى نجمة خماسية الفروع تحتـل الصين أحد أطرافها والهند الطرف الآخر • هـل ستمتد أوروبا الجـديدة من الأطلنطى الى الحـدود السوفيتية أم ستتجاوزها ؟ لا أحد يستطيع أن يصدر حكما قاطعا على هذه الافتراضات ، الا أن معيار تحول السلطة قد يساعدنا على قدر أكبر من وضوح الرؤية •

كل هذه التساؤلات تذكرنا أنه اذا كان العديد من العوامل يدخل لعبة السلطة ، ابتداء من الاستقرار السياسى الى النمو الديموغرافى ، فان العنف والثروة والمعرفة تظل هى المصادر الثلاثة الرئيسية التى يشتق منها كل أشكال السلطة الأخرى ، وهذه العناصر فى حالة ثورة مستمرة ٠ ولنأخذ العنف كمثال ٠

دمقرطة الموت :

بينما كانت القوتان العظميان تنهيان حالة الحرب بينهما كثر الكلام عن « التقدم الذى يحققه السلام » ، حتى ان العالم لم يل اهتماما بالدول الأخرى التى تريد ، على ما يبدو ، ملء الفراغ الناتج عن ذلك ٠

فعلى سبيل المثال ، تعد الهند، ، بالرغم من ظاهرها السلمى ، أكبر مشتر للسلاح منذ عام ١٩٨٦ ٠ فلقد قامت فى عام ١٩٨٧ بشراء عتاد عسكرى أكثر من ايران والعراق مجتمعين ٠ وأثارت هذه السياسة غضب اليابان وادانتها مما كان له رد فعل حاد فى نيودلهى ٠ وتملك الهند أسلحة نووية وتأمل أن تتمكن قريبا من بناء صاروخ نووى يصل مداه الى ألفى كيلو متر ٠ كما تمكنت باكستان ، التى تملك كل امكانات انتاج السلاح النووى ، من بناء صاروخ قصير المدى ، بمساعدة الصين ٠

وطبقا لوليم ويبستر مدير المخابرات المركزية الأمريكية الأسبق فان أكثر من ١٥ دولة سوف تتمكن من انتاج الصواريخ الباليستية خلال فترة تقل عن عشر سنوات ، ويقع أغلب هذه الدول فى الشرق الأوسط ذى المخاطر العالية ٠ ولقد اتفقت مصر والعراق والأرجنتين على تنفيذ مشروع لانتاج صواريخ ٠

وتخفى هذه البيانات العديد من السيناريوهات المخيفة ٠ اذ تتركز الأسلحة النووية السوفيتية فى أذربيجان والجمهوريات الاسلامية الأخرى ، حيث تحتدم الصراعات العرقية ، حتى ان بعض المتخصصين يتصورون « سيناريو كارثة » حين تستولى احدى هذه الجمهوريات على السلاح النووى ٠ ويتساءل أحد كبار المسئولين الأمريكيين بقلق عما سيحدث لو « أصبحت كازاخستان يوما رابع قوة نووية » ٠

ان هذه الأخطار كبيرة لدرجة ان موسكو بدأت تسحب أسلحتها من بلدان البلطيق ٠ واعترف مسئول سوفيتى فى حديث مع المؤلف قائلا : « لقد كنت ضد مبادرة الدفاع الاستراتيجى (المعروفة باسم « حرب

النجوم ») لكنني غيرت رأيي الآن ، لانه اذا تفـــكك الاتحاد السوفيتي فسيجد العـالم نفسه في مواجهة عشرة كيانات قومية مزودة بالأسلحة النووية » .

وقد يعني احتمال نشوب حرب أهلية في الاتحاد السوفيتي أو في بلدان أخرى ان تستحوذ القوات المتمردة على الأسلحة النووية ، أو ان تتصارع القوات الموالية للنظام القائم والقوات المتمردة من أجل الاستيلاء على جزء من الترسانة النووية .

ومن ناحية أخرى ، أخذت بعض الدول النـامية (وليست ليبيـا والعراق وحدهما المعنيين) تتسلح بمنشآت تستهدف انتاج أسلحة كيماوية وبكتريولوجية ، وهو ما يمثل تهديدا أكبر . باختصار ، ان التوزيع الحالي للتسليح في العالم - بدءا بالسلاح النووي - لم يعد مستقرا ولا ثابتا .

لقد كانت القدرة على العنف النووي ، التي تعد مصدرا لقوة أية دولة ، متمركزة في أيدي بعض الدول . أما الآن ، فقد بدأت تتوزع بشكل أكثر ديمقراطية ، وان كان أكثر اثارة للقلق أيضا .

بالاضافة الى ذلك ، طرأ تحول عميق على طبيعة العنف ذاتها ، حيث أصبحت أكثر اعتمادا ، وبشكل مطرد ، على التكنولوجيات المتقدمة مثل الميكروالكترونيات والضـــوء والذكاء الاصـــطناعي والأقمـــار الصـــناعية والاتصالات اللاسلكية وبرامج الكمبيوتر شديدة التطور الخاصة بالمحاكاة . لقد كان تشغيل طائرة من طراز اف - ١٦ يتطلب برنامجا يتكون من ١٣٥ ألف سطر ، في حين تحتاج الطائرات المقاتلة التكتيكية الفائقة الحداثة الى مليون سطر من هذه البرامـــج . ولا تجسد هذه الانقلابـــات في النظام العسكري مجرد عمليات انتقال للسلطة ، وانما ثورة في طبيعة لعبة الحرب ذاتها على صعيد العالم .

ولقد أثـــار شينتارو اشـــيهارا - وهو عضو ســـابق في الحكومة اليابان - عاصفة من الاستنكار في واشنطن مؤخرا عندما نشر كتابا بعنوان: « اليابان التي تستطيع أن تقول لا » ، جمع فيه كلمات وخطبا كان قد القاها في مناسبات مختلفة مع أكيو موريتا أحد مؤسسي شركة سوني .

وأكد اشـــيهارا أن الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي سيحتاجان الى أشباه موصلات متطورة يابانية الصنع ، لزيادة دقة أسلحتهما النووية .

وقال مشيرا الى الولايات المتحدة : « انها حتى اذا استمرت فى مد نفوذها العسكرى فهى قد وصلت الى وضع يهدد باصابتها بشلل تام اذا أوقفت اليابان تزويدها بالمكونات الالكترونية اللازمة لأسلحتها • ولو قصرت اليابان بيع رقائقها الالكترونية على الاتحاد السوفيتى مثلا ، فان ذلك كفيل بقلب توازن القوى العسكرية رأسا على عقب• وفى هذه الحالة ، قد يقول بعض الأمريكيين انهم لن يترددوا عن غزو اليابان • لقد بلغنا سنا نستطيع معها مواجهة هذا الاحتمال » •

ان ملحوظة اشيهارا تبرز تنامى تبعية العنف للمعرفة واعتماده عليها • وهو ما يجسد التطور التاريخى للسلطة حاليا •

محيط راس المال :

كلما انتشر النظام الجديد لخلق الثروة على امتداد الكرة الأرضية تعرض أيضا العنصر الثانى من عناصر السلطة ، وهو الثروة ، لتحولات ـ كما سبق أن رأينا فى الفصول السابقة •

فالشركات ، وهى تنتج وتوزع انتاجها فيما وراء الحدود الوطنية وتشترى شركات أجنبية وتنطلق بحثا عن موارد ذهنية فى جميع أنحاء العالم ، تحتاج الى العثور على مال طازج فى العديد من الدول ، والحصول على هذه الأموال بسرعة • ولذلك نشهد سباقا لتحرير سوق رؤوس الأموال ، حتى تستطيع الاستثمارات عبور الحدود بسهولة •

وسيتحرر بالتالى محيط من رؤوس الأموال من أية حدود • غير أن هذا الوضع يحرم البنوك المركزية والدول ، بصفتها كذلك ، من سلطتها ، كما قد يخلق أخطار فوضى مالية متصاعدة على نطاق عالمى •

وكما سبق لنا أن كتبنا فى صحيفة « نيويورك تايمز » بعد انهيار البورصة فى أكتوبر ١٩٨٧ بقليل « فان بناء نظام مالى واحد مفتوح يتمتع بالحد الأدنى من الضوابط والتنظيم يشبه الى حد بعيد بناء ناقلة بترول ضخمة بدون حواجز عازلة • فأى نظام كبير يستطيع التغلب على عجز بعض أجزائه اذا كان يتمتع باجراءات أمان أو بوجود حواجز عازلة ، ولكن ، فى غياب مثل هذه الاحتياطات فان أقل ثغرة فى الهيكل قد تتسبب فى غرقها » •

وقد أكد آلان جرينسبان رئيس بنك الاحتياطى الفيدرالى الأمريكى أن خلق تنظيمات مالية متعددة الجنسية ، تشترى وتبيع وتستثمر فى العديد من البلدان ، يزيد من أخطار حدوث انهيار على مستوى واسع

للغاية · وقال : « ان حدوث « فجوة » فى احدى هذه المؤسسات أو فى العديد منها قد يؤدى الى وقوع اضطرابات خطيرة » تنتقل من بلد الى آخر ·

وأصبحت الدول ، مع وجود هذه المنظمات المالية الضخمة ، مهددة بفقد السيطرة على أحد مصادر سلطاتها الرئيسية · فعلى سبيل المثال ، سيقلل احتمال وجود عملة أوروبية واحدة من هامش مناورة الحكومات الوطنية لتسوية مشكلاتها الاقتصادية · بل ان هناك اقتراحا يهدف الى منح مفوضى بروكسل سلطة رقابية على ميزانيات دول الجماعة الأوروبية أكبر من السلطة التى تمارسها الادارة الفيدرالية الأمريكية على ولاياتها الخمسين · وهو ما سيمثل فى هذه الحالة انقلابا ضخما فى السلطة ·

المعمار الجديد للمعرفة :

ونصل الى العنصر الثالث من ثلاثية السلطة ، ألا وهو المعرفة ·

يمثل الظهور السريع للكمبيوتر خلال العقود الأخيرة انقلابا لا يقل أهمية فى مجال المعرفة عن اختراع الطباعة فى القرن الخامس عشر بل واختراع الكتابة ·

وبالتوازى شهدنا مع هذا الانقلاب ، الامتداد غير المسبوق للشبكات ووسائل الاعلام المسئولة عن نقل المعلومات والبيانات ·

وحتى اذا لم يتغير شىء سوى ذلك لاستحقت هذه التطورات وحدها أن تسمى « ثورة المعرفة » · لكننا نعلم أن هناك انقلابات أخرى تبدل أيضا نظام المعرفة فى عالمنا ذى التكنولوجيا المتطورة ·

وتؤدى سرعة انتقال المعلومات الى تقادم « الأحداث » والبيانات بسرعة مضاعفة ، والى تناقص مطرد لعمر المعرفة التى تتضمنها · وللتغلب على ذلك ، يتم حاليا اعداد أدوات تكنولوجية وتنظيمية جديدة تهدف الى تسارع عمليات البحث العلمى والتطوير وعمليات التدريب · الأمر الذى يؤكد ان شدة أيض المعرفة فى تزايد ·

وبالاضافة الى ذلك ، هناك نقطة أخرى مهمة ، ألا وهى أن المجتمعات ذات التكنولوجيا المتطورة بدأت تعيد تنظيم معارفها · وكما رأينا ، أصبحت المهارة اليومية لرجال الأعمال والمسئولين السياسيين أكثر تجريدا بمرور الأيام ، وبدأت فروع العلوم التقليدية تنهار ·

وأتاح الكمبيوتر امكانية ربط بيان معين ببيانات أخرى أو تقطيعها بطرق مختلفة ، وهو ما يمكن المستخدم من تحليل المشكلة نفسها من زوايا مختلفة وتوليف نوع من المعرفة الأسمى ٠

وفي الوقت نفسه ، أفرز التقدم في مجالي الذكاء الاصطناعي والنظم الخبيرة وسائل جديدة لتركيز المعارف ٠ وأدت كل هـذه الانقلابات الى تجديد الاهتمام بالنظريات الادراكية وطرق التدريب و « المنطق الغامض » والنيروبيولوجي ومجالات بحث أخرى تتناول معمار المعرفة ذاته ٠

باختصار ، أعيد تشكيل المعرفة بذات عمق اعادة تشكيل كل من العنف والثروة حتى ان كل عناصر ثلاثية السلطة تمر بثورة متزامنة ٠ الا أن مصدري السلطة الآخرين يعتمدان تدريجيا وبشكل متزايد على المعرفة ٠

وترسم هذه العناصر الخلفية المتحركة التي يكتب عليها قدر الحضارات والبلدان نحو المجد أو الأفول ٠

وتفسر هذه العناصر أيضا لماذا غالبا ما تكون التأكيدات الشائعة عن السلطة خادعة ٠

الاتحاد السوفيتي وحيد الساق :

يحب الدبلوماسيون كثيرا أن يتكلموا عن « توازن السلطة » أو القوة ، الا أن معايير تحول السلطة تسمح لنا بتحليل « سلطة التوازن » فضلا عن توازن السلطة ٠

يمكن تقسيم الأمم (أو التحالفات) الى ثلاثة أنواع : نوع تعتمد قوته أساسا على قائمة واحدة من القوائم الثلاث لركيزة السلطة (العنف والثروة والمعرفة) ٠ في حين تستند قوة النوع الثاني على قائمتين ، أما النوع الثالث والأخير فيعتمد على القوائم الثلاث كلها ٠

ولكي نتوقع كيف ستسيطر الولايات المتحدة أو اليابان أو أوروبا على الصراعات القادمة ، يتعين تحليل مصادر السلطة الثلاثة وتركيز الاهتمام على المصدر الثالث ألا وهو قواعد المعرفة ، لأن هذا العنصر الأخير سيحدد قيمة العنصرين الآخرين بشكل متزايد ٠

وتتضمن هذه القاعدة بالطبع الفروع العلمية التقليدية مثل العلوم والتكنولوجيا والتعليم ٠ كما تشمل المفاهيم الاستراتيجية لبلد ما وقدراته التجسسية ولغته ومعرفته بالثقافات الأخرى واشعاعه الثقافي

والأيديولوجى على باقى العالم وتشعب نظام اتصالاته وكل رصيد الأفكار والمعلومات والصور الجديدة التى تنبع منه · وكل ذلك يغذى قوة الأمة ويحدد نوعية السلطة التى يمكنها ممارستها فى أى نزاع أو أزمة ·

وفيما وراء كل عنصر مكون لثلاثية السلطة ، تمدنا معايير تحول السلطة بمؤشرات نفيسة وتمنحنا الفرصة لكى نتساءل عن « العلاقة » بين العنف والثروة والمعرفة خلال فترة زمنية معينة ·

واذا اعتبرنا سلطة التوازن شيئا مختلفا ومتميزا عن توازن السلطة، فسندرك أنه خلال فترة الحرب الباردة كلها كانت سلطة الولايات المتحدة ترتكز على قاعدة شديدة الاتساع · فهى تمتلك قوة عسكرية ضخمة وتتمتع باقتصاد مزدهر كما تمتلك أفضل مصدر للمعرفة فى العالم كله : بحث علمى وتكنولوجى متطور بالاضافة الى ثقافة شعبية غنية يحسدها عليها باقى العالم ·

وعلى النقيض من ذلك ، كان الاتحاد السوفيتى ولا يزال غير متوازن على الاطلاق· فقد كان يدعى وضع القوة العظمى استنادا على قوته العسكرية وحدها ، بينما كان اقتصاده فى حالة تعيسة فى الداخل ولا وزن له عالميا · وبالرغم من أن البحث العلمى والتطور كان يشكل قطاعا طليعيا فى بعض المجلات المرتبطة بالدفاع ، فان مهاراته التكنولوجية لم تكن متقدمة بشكل عام ويعوقها خوف مرضى من التسرب · وكان نظام اتصالاته شديد السوء ونظامه التعليمى رديئا وكانت وسائل اعلامه الخاضعة للرقابة المركزية تعانى هى أيضا من تأخر ضخم ·

وخلال الحرب الباردة ، فازت فى السباق الولايات المتحدة ذات السلطة المتوازنة وليس الاتحاد السوفيتى بسلطته التى ترتكز على ساق واحدة ·

هذه الرؤية ، التى لم يفهمها تماما حتى اللاعبون أنفسهم ، تفسر بدرجة كبيرة سلوك أوروبا والولايات المتحدة واليابان فى السباق الذى سيقودهم نحو تصادم لا مفر منه ·

الفصل الثالث والثلاثون

ثالوث : طوكيو ـ برلين ـ واشنطن

حتى وقت قريب ، كانت اليابان بلدا يمشى على ساق واحدة ·

واذا كان التأثير الشامل لأمة ما يرتكز أساسا على قدرتها العسكرية وثروتها ومعرفتها ، فان اليابان لم تكن تملك الا عنصرا واحدا من ثلاثية السلطة ـ مثلها فى ذلك مثل الاتحاد السوفيتى تقريبا · ولكن بدلا من التسلح النووى والجيش الأحمر ، تملك اليابان المال ومزيدا من المال ·

غير أن المقاعد التى تستند على رجل واحدة تكون غير مستقرة وغير ثابتة · كما أن للثروة ذاتها حدودا ·

لذلك ، تحاول اليابان الآن اعادة التوازن الى سلطتها ·

المدفع اليابانى :

لقد بدأ اليابانيون أول انفاق عسكرى لهم بعد الحرب العالمية الثانية بضغط شديد من واشنطن · وفيما بعد ، لم تعد هناك حاجة لدفعهم الى زيادة قواتهم المسلحة ، كما لم تعد فكرة امتلاك اليابان للأسلحة النووية ، وهو ما كان أمرا غير وارد منذ هيروشيما ، افتراضا مطلق الاستبعاد ، حيث تلمع عيون بعض « الصقور » بالرغبة فى امتلاك السلاح النووى ·

وتحتل الميزانية العسكرية لليابان ، حاليا ، الترتيب الثالث عالميا بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى · ويرغب « الصقور » الآن ـ على حد قول أعدائهم ـ فى مد تأثير اليابان العسكرى الى ما وراء مياهها الاقليمية المباشرة ، والتوصل الى توقيع معاهدة مساعدة متبادلة مع أى بلد مجاور ، لكى تحصل اليابان بذلك على اعتراف رسمى بدورها فى الحفاظ على النظام الاقليمى · كما يريد « الصقور » تزويد البحرية اليابانية بحاملة طائرات لزيادة مدى عمل القوات اليابانية بدرجة واضحة ·

وتسيطر المجموعة الصناعية العسكرية ، وهى فى أوج ازدهارها ، بصعوبة على لهفتها انتظارا لامكانية بناء طائراتها المقاتلة وصواريخها وأنواع التسليح المتطورة الأخرى · ان شركات مثل : Fuji Heay Industries, Mitsubishi, Nissan, Kawasaki Heavy Industries, Komatso تنتج عتادا عسكريا بتراخيص أمريكية · وتم طرح مشروع مشترك لبناء المقاتلة الفائقة الحداثة FSX ، بعد مفاوضات مريرة مع الولايات المتحدة· وتستخدم هذه الطائرة سبائك متطورة ونظاما راداريا ذا أطوار ايجابية والعديد من التكنولوجيات المتقدمة الأخرى · كما بدأت اليابان أبحاثا عن الدفاع المضاد للصواريخ ·

ان اليابان ليست عدوانية ولا هى دولة غير مسئولة · فمنذ الحرب العالمية الثانية ، ظلت كوادرها العسكرية تحت السيطرة الصارمة للسلطة المدنية · وتدل كل استطلاعات الرأى على أن الرأى العام اليابانى أكثر تمسكا بالسلام عن الرأى العام فى الولايات المتحدة · الا أنه من الصعب تحديد المدة الزمنية التى سيسود خلالها هذا الشعور ، اذا ما استمرت التوترات بين واشنطن وطوكيو فى التفاقم · كما لا نستطيع أن نتخيل بوضوح الدور الذى يمكن أن تلعبه القوات المسلحة اليابانية فى جنوب شرق آسيا فى حالتين : أولا : اذا ما أصبحت القوات العسكرية الأمريكية أقل تواجدا فى هذه المنطقة مستقبلا ، أو تم سحبها تماما · وثانيا : فى حالة نشوب حرب أو ثورة تهدد الاستثمارات اليابانية الضخمة فى المنطقة ·

وبينما يتزايد عدم الاستقرار السياسى فى هذه المنطقة ، ابتداء من بكين وهونج كونج الى مانيلا ، ينظر جيران اليابان بقلق الى اعادة تسليحها وتخلص الولايات المتحدة النسبى من التزامها بعد تجربتها الأليمة فى فيتنام وانسحاب قواتها من كوريا الجنوبية · وبشكل أكثر شمولا ، تخفيض انفاقها العسكرى ·

ومن الآن فصاعدا ، تتجه اليابان نحو اكتفاء ذاتى عسكرى سيقودها ذات يوم ، بدون شك ، الى الاشارة بأكبر قدر من اللياقة ، الى أن وجود القوات الأمريكية لم يعد ضروريا فى الأرخبيل — ولا حتى فى باقى جنوب شرق آسيا ·

ففى عام ١٩٨٨ ، طرح نوبورو تاكيشيتا الذى كان رئيسا للوزراء فى ذلك الحين ، قضية اعادة تسليح اليابان ، حيث أعلن فى أكاديمية الدفاع اليابانية أن البلاد فى حاجة الى قوة عسكرية تتناسب مع قوتها الاقتصادية الجديدة الرائعة · باختصار ، اليابان لا تكف عن محاولة اعادة التوازن الى ثالوث سلطتها ·

عملاق اقتصادى :

ان « الساق » الثانية للسلطة اليابانية ، وهى الثروة ، كانت موضوعا للعديد من الدراسات ، بحيث لا يوجد ما يدعو الى اضافة المزيد هنا ، ففى عام ١٩٨٦ ، أصبحت اليابان البلد الدائن الاول فى العالم ، وفى عام ١٩٨٧ ، تجاوزت القيمة المجمعة للأوراق المالية والسندات المسعرة فى بورصة طوكيو اجمالى قيمة مثيلتها فى نيويورك ٠ وغدت أكبر البنوك وشركات السمسرة فى الأوراق المالية يابانية ٠ وفى الولايات المتحدة ، أثارت عمليات امتلاك اليابانيين لعقارات أمريكية ذات قيمة كبيرة ـ مثل استوديوهات كولومبيا أو مبنى راديو سيتى هول ، ذى القيمة الرمزية أيضا ـ موجة من المشاعر المضادة لليابان ٠ وسجلت ردود أفعال مماثلة فى أوروبا واستراليا ٠ وفى الوقت نفسه ، أصبحت الدولة الأمريكية تحت رحمة المستثمرين اليابانيين الذين يمولون ما يقرب من ثلث عجز ميزانيتها ٠ ويبدأ التخوف من أن يؤدى التوقف المفاجىء لهذا الدعم ، الى توجيه ضربة قاتلة للاقتصاد الأمريكى ٠

ان تعدد هذه الأمثلة ، دفع المحللين الى توقع أن تغدو اليابان غولا اقتصاديا قادرا على السيطرة على العالم خلال الخمسين عاما القادمة ٠

الا أن الصاروخ الاقتصادى اليابانى لا يمكنه البقاء فى مداره الى الأبد ، اذ ستصطدم حركة تصدير السلع ورؤوس الأموال ، تدريجيا ، بحركات مقاومة متزايدة وشروط تبادل واستثمارات أقل ملاءمة ٠ وسيستتبع ذلك توتر مع البلدان الأكثر ثراء ، وقد يقود هذا التوتر اليابان الى مزيد من الاستثمار فى الدول الأقل تقدما اقتصاديا ، حيث الأرباح المحتملة أكثر ارتفاعا بالطبع وكذلك الأخطار ٠

واذا سحبت الولايات المتحدة جزءا كبيرا من قواتها المسلحة المتمركزة فى أوروبا ، وهو ما يبدو محتملا ، فان عجز ميزانيتها قد يتناقص مما يدعم الدولار ويضعف الين ، وبالتالى يبطىء من التوسع اليابانى فى الخارج ٠ واحدى عواقب ذلك هو زيادة الفاتورة البترولية لليابان ، طالما أنها تسدد بالدولار ٠

ان معدل الادخار الذى يعانى حاليا من الانخفاض ، سيتجه الى مزيد من التناقص لأن المستهلكين سيطمحون الى المزيد من الترفيه والاستمتاع ٠ وفى الوقت نفسه ، سيميل المسنون ، الذين يسجل عددهم زيادة كبيرة ومطردة ، الى انفاق المدخرات التى جمعوها خلال سنوات العمل ٠ ان هذين التطورين المتوازيين يدفعان الى توقع زيادة فى سعر الفائدة مما قد يؤدى ، على المدى الطويل ، الى ابطاء النمو ٠

والأكثر خطورة ، أن الاقتصاد فى حالة توازن عارض وغير مستقر وهو يعتمد ، كما يعلم جميع اليابانيين ، على موجة ضخمة من المضاربة العقارية ، حتى ان أقل شيء يكفى لكسر هذه الموجة · وحينذاك ستدرك موجات الصدمة بورصة طوكيو غير المستقرة ، وسترتد على الفور الى وول ستريت وزيورخ ولندن ·

وبالاضافة الى كل ذلك ، تجر اليابان وراءهـا مجموعة كاملة من المشكلات السياسية والاجتماعية التى طال اهمالها · اذ يعجـز حزباها الرئيسيان عن التكيف مع الحقائق الجديدة ، فى ظل نظام سياسى يعانى من الفساد وعدم المرونة · فالحزب الليبرالى الديمقراطى يعتمد بدرجة بالغة على النـاخبين الريفيين وتنقصه قاعدة حضرية · أما الاشتراكيون فيملكون هذه القاعدة الا أنهم غير قادرين ، على ما يبدو ، على التخلص من أفكارهم وعقيدتهم الاقتصادية والسياسية التى تجاوزها الزمن ·

ان فترة النمو المطرد توشك على نهايتها ، وستكون اليابان خلال العقود القادمة أقل استقرارا بكثير عن اليابان اليوم ·

سباق الـ « جوكو » :

ان المعرفة أهم من التسلح والثروة ، بل ويتزايد اعتمادهما عليها · ان العديد من الأطفال اليابانيين يذهبون الى ال « جوكو » — أى الى مدرسة خاصة بعد ساعـات الدراسة العـادية — لتحسين نتـائجهم الدراسية · ولعقود عديدة ، كانت الأمة اليابانية كلها أشبه ب « جوكو » كبير حيث أمضت ساعات اضافية لتنمية قاعدة معرفتها ، التى هى مصدر قوتها فى نهاية المطاف ·

منذ عام ١٩٧٠ ، انطلقت اليابان بعزم وحماس فى جهد مستمر يهدف الى بناء اقتصاد يعتمد على المعلومات ، بل ان انطلاق البحث والتطوير بدأ مبكرا عن ذلك · ففى عام ١٩٦٥ ، كانت نسبة العلماء والمهندسين لكل عشرة آلاف من العاملين تمثل حوالى ثلث هذه النسبة فى الولايات المتحدة · أما فى عام ١٩٨٦ ، فتجاوزت هذه النسبة الرقم الأمريكى · الأمر الذى يعنى أن كثافة المعرفة لدى القوة العاملة اليابانية قد انطلقت كالسهم ·

وتحتل اليابان الآن الصفوف الأولى فى جميع المجالات المتطورة ، ابتداء من البيوتكنولوجيا الى التقنيات الفضائية كما تسـتطيع تكريس رؤوس أموال ضخمة للبحث والتطوير ، أو استثمار هذه الأموال فى انشاء شركات عالية التكنولوجيا فى جميع أنحاء العالم ·

وحققت اليابان انجازات مهمة فى مجالات التوصيلية الفائقة والمواد الجديدة والروبوتية • وكانت الدولة الثالثة ، بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ، التى ترسل مركبة فضائية غير مأهولة الى القمر ، كما سجلت نجاحات مبهرة فى مجال صناعة أشباه الموصلات •

لكننا لسنا الا فى الأمتار الأولى من الماراثون العلمى والتكنولوجى الكبير الذى لازالت تعانى فيه اليابان من بعض التأخر • فاجمالى ما تدفعه اليابان حتى الآن لشراء براءات الاختراع ورخص التكنولوجيات الأجنبية يزيد بنسبة ٣ر٣ عما تحصل عليه من بيع براءات اختراعها • (٦٠٪ من اجمالى ما تنفقه فى هذا المجال يذهب الى الولايات المتحدة) • وتتركز نقاط ضعفها ، بشكل خاص ، فى مجالات مثل الهندسة الاعلاماتية المتوازية ، والمعالجة الاعلاماتية لديناميكا السوائل ، والتقنيات المتطورة الخاصة بالرادار •

ومهما كان تقدم اليابان فى صناعة المكونات الالكترونية وأجهزة الكمبيوتر ، فانها تظل متأخرة نسبيا فى مجال البرامج الاعلاماتية الأكثر أهمية وحسما • ان « مشروع الجيل الخامس » ، الذى يهدف الى تحقيق قفزة كبيرة فى مجال الكمبيوتر وصاحبت الاعلان عنه ضجة كبيرة ، لم يعط حتى الآن الا نتائج محبطة •

وكان من المفترض ، أن يصبح هذا المشروع الذى تموله ال « ميتى » (وزارة التجارة الخارجية والصناعة) بالنسبة لليابان ، المكافىء لمشروع سبوتنيك بالنسبة للاتحاد السوفيتى (مشروع أول مركبة فضائية) • ولقد أثار « مشروع الجيل الخامس » قدرا كبيرا من الحماس ، حتى ان الدكتور آكيرا أشيكارا ، بجامعة Aoyama Gakuin بطوكيو ، أكد فى عام ١٩٨٦ أن اليابانيين يرون فى هذا المشروع « ضمانا لبقائهم وأداة ... لاكتفائهم ذاتيا » • الا أنه اتضح منذ عام ١٩٨٨ ، أن المشروع يواجه صعوبات خطيرة ترجع الى تخطيط غامض ينقصه الوضوح ، ومشكلات تقنية مختلفة ، ونقص التطبيقات المغرية تجاريا ، وحتى عام ١٩٨٩ لم يعلن الا عن نتائج متواضعة • لكن الحقيقة الأهم والأكثر حسما ، هى أن اليابان تعانى تأخرا فى اعداد « البرامج الاعلاماتية الأسمى » ، أى البرامج القادرة على انتاج برامج •

وقد اعترف ٩٨٪ من مديرى الشركات اليابانية — عند سؤالهم مؤخرا — بالتفوق الأمريكى فى مجال البرامج الاعلاماتية ، وأقر ٩٢ ٪ منهم بتقدم الولايات المتحدة فى مجال الذكاء الاصطناعى وأجهزة الكمبيوتر الضخمة ، كما أقر ٧٦٪ بالتقدم الأمريكى فيما يتعلق بالتصميم والانتاج بمساعدة الكمبيوتر •

وفى هذه المسافات الأولى من سباق البحث والتطوير تتراخى ، بالطبع ، الولايات المتحدة فى حين تكسب اليابان أرضا بسرعة ، الا أن خط النهاية لا يزال بعيدا •

غير أن السلطة القائمة على المعرفة لا تتلخص فى العلم والتكنولوجيا ، وهى نقطة تفهمها اليابان أفضل بكثير من الولايات المتحدة • فالقاعدة القائلة انه يتعين عليك « معرفة عدوك » ، قاعدة حيوية فى المنافسة التجارية أو العلمية كما هى حيوية فى الشطرنج أو الحرب •

وبالتالى ، تعرف اليابان عن الولايات المتحدة أكثر بكثير مما تعرفه الأخيرة عنها • فقد كان اليابانيون « فى حاجة » لمعرفة أمريكا بدرجة عميقة وكلية ، لأن بلادهم ظلت تابعة سياسيا وعسكريا للولايات المتحدة لعدة عقود • ومن ثم إكتسبت القرارات الأمريكية أهمية قصوى بالنسبة لهم •

ولم يكف العديد من اليابانيين عن قطع الولايات المتحدة من أدناها الى أقصاها، من وادى السليكون الى واشنطن ووول ستريت ، ومن هارفارد الى معهد ماساشوستس للتكنولوجيا وجامعة ستانفورد (كاليفورنيا) • وزاروا آلاف الشركات والادارات والمعامل والمدارس والأسر ، للالمام قدر الامكان بالشيء الذى يجعل أمريكا تعمل – ليس فقط فى المجال السياسى الاقتصادى ، ولكن من المنظور الثقافى والنفسىوالاجتماعى أيضا • ولم يكن الأمر يتعلق بنشاط تجسس اقتصادى (وان لم تغب هذه السمة بالطبع عن هذا النشاط) بقدر ما كان تعبيرا عن الفضول المتأصل بعمق لدى اليابانيين بالنسبة للعالم الخارجى ، وبحثهم الدائم عن نموذج عمل •

فبعد أن ظلت اليابان معزولة عن العالم لمدة ثلاثة قرون ، انطلقت عقب ثورة عصر الميجى فى جهد محموم لتعويض الجهل الذى أجبرت عليه ، وأصبح الشعب اليابانى أكبر قارىء لصحف العالم ، والأكثر اهتماما بمعرفة سلوكيات الآخرين ، والأكثر نهما للرحلات والسفر •

وكانت هذه الرغبة العارمة فى التعلم والمعرفة تتناقض بشدة مع النزعة الريفية الأمريكية • ان عجرفة القوة العالمية المسيطرة ، وتوفر سوق داخلية شاسعة تسمح باعتبار الصادرات قضية ثانوية ، والتسامح المتعجرف للمنتصر ، والعنصرية الكامنة التى أوحى بها لون الجلد الأبيض، فى أغلب الأحيان ، كل ذلك جعل الأمريكيين لا يهتمون بمعرفة أى شىء عن اليابان فيما عدا بعض السمات الغريبة والطريفة مثل الجيشا والحمامات العامة المختلطة • ولم تصبح اليابان « موضة » الا بعد ذلك بكثير •

وبينما كان ٢٤ ألف طالب يتدافعون سنويا على الولايات المتحدة ، كان أقل من ألف أمريكى يقطعون الطريق العكسى ٠

وتعتبر اليابان أكثر بلدان العالم اهتماما بزيادة مجموع معرفتها ، وقد تساهم هذه السمة وحدها فى تفسير لماذا استطاعت اليابان أن « تبيع » بشكل جيد فى الولايات المتحدة ، فى حين تواجه الشركات الأمريكية صعوبات جمة فى تسويق منتجاتها فى اليابان ، مع افتراض أن كل العراقيل الجمركية رفعت بين ليلة وضحاها ٠

ومع ذلك ، لا تزال قاعدة المعرفة اليابانية تعانى من بعض الثغرات المهمة ، فهى تبدى بعض السذاجة فى تقييمها للعناصر العرقية ، مجسدة قيمها العنصرية الخاصة ، لذا تجد صعوبة فى تقدير المكانة التى تحتلها هذه العناصر فى اقتصاد يمتد ليشمل الكرة الأرضية ٠

أما النظام التعليمى اليابانى الذى طالما تم تمجيده ، واعتبره العديد من الجامعيين والمسئولين الاقتصاديين الأمريكيين ـ ببساطة وسذاجة ـ نموذجا ، فانه يتعرض لنقد قاس من جانب العديد من الخبراء ، لأن طرقه ومناهجه تعمل على كبت الابداع ، فهى طرق تؤدى الى التماثل والتشابه ٠ فنقابات المعلمين وبيروقراطية التعليم ، فى المرحلتين الابتدائية والثانوية ، ترفض أى اقتراح تجديدى ، دون حتى النظر اليه ٠ كما لم يحقق التعليم العالى السمعة المتميزة التى اكتسبتها المنتجات الصناعية ٠

لكن عندما يتعلق الأمر بنسيج شبكات الكترونية ذات ذكاء خارجى ، أو بالتليفزيون ذى الوضوحية العالية ، فان اليابان تحتل الصف الأول عالميا ٠ الا أنها تتأخر عن الولايات المتحدة وأوروبا فى مجالات تحرير اللوائح التنظيمية لوسائل الاعلام ، أو تشجيع التطور الكامل للتليفزيون الكابلى والبث المباشر عبر الأقمار ، وهى وسائل ستسمح بتنويع الصور والأفكار ، وهو تنويع ضرورى للغاية لازدهار القدرة الخلاقة لأية ثقافة وطنية ٠

وتمثل الصادرات الثقافية أكبر نقاط ضعف اليابان ٠ ورغم أنه لا ينقصها كبار الكتاب والفنانين والمهندسين المعماريين أو مصممى الرقص والسينمائيين ، الا انهم غير معروفين فى الخارج ، ولا تمارس القلة منهم المشهورة عالميا الا تأثيرا ضئيلا ٠

وفى محاولاتها لموازنة سلطتها ، شنت اليابان هجوما ثقافيا واسع المدى ، ابتداء بالمجالات ذات الأهمية الاقتصادية المباشرة مثل الموضة والتصميم الصناعى ، ثم تنتقل حاليا الى مجال الفنون الأكثر شعبية مثل

التليفزيون والسينما والموسيقا والرقص ، كذلك مجالى الأدب والفنون الجميلة • أما عملية تخصيص « جوائز البراميوم امبريال » مؤخرا تحت رعاية جمعية الفنون اليابانية ، فانها تهدف الى أن تصبح المكافىء اليابانى لجوائز نوبل • ويوضح ذلك ، الرغبة فى القيام بدور أكثر أهمية على الساحة الثقافية العالمية •

ولكن يصطدم انتشار الأفكار والثقافة اليابانية فى الخارج بعائق ضخم ، ألا وهو اللغة • وتؤكد صفوة يابانية مثقفة ذات نزعة قومية أن اللغة اليابانية تنطوى على عنصر روحانى لا يمكن ترجمته وأنها تملك نوعا من « الروح » الفريدة • ان أية لغة ، فى الحقيقة ، كما يعرف ذلك كل شاعر أو مترجم ، ليست قابلة تماما للترجمة ، لأن كل لغة تختلف عن غيرها بالنسبة للرسوم الخيالية الخاصة بها واستعمال المفاهيم والاستعارات • ويبقى أن اللغة اليابانية لا يتكلمها سوى ١٢٥ مليون شخص ، وهو ما يمثل اعاقة كبيرة لاكتساب اشعاع عالمى متوازن • لذلك ، تدفع اليابان أبحاثها حول الترجمة بواسطة الكمبيوتر ، بحماس وقوة أكثر من غيرها من البلدان •

الا أن التحدى الكبير الذى يواجه اليابان يظل تحدى التنوع ، وتحويل الانتاج بالجملة الى انتاج بالطلب ، ووسائل الاعلام الجماهيرية الى وسائل اعلام أكثر تنوعا وتخصصا ، أى تحويل أنشطة المجتمع ككل من التجانس الى التنوع ، وذلك فى مجتمع جعلته الدعاية الداخلية يعتقد طويلا أن التماثل فى حد ذاته فضيلة • لقد بين عالم الأنثروبولوجى كازوكو تسورومى ، بجامعة صوفيا ، منذ أكثر من عشر سنوات ، وجود تنوع داخل المجتمع اليابانى أكثر وضوحا مما يريد قادة البلاد الاعتراف به • الا أن التنوع فى ذلك الوقت ، كان تنوعا نسبيا داخل اطار متجانس يتطابق مع مجتمع الموجة الثانية • أما حاليا ، فيتعين على اليابان مواجهة ضغوط متفجرة فى الاتجاه المضاد ، وهى تدخل عصر الموجة الثالثة •

وترتبط المعارضة التقليدية للتنوع الاجتماعى والاقتصادى والثقافى ارتباطا مباشرا بأخطر نقاط ضعف اليابان بالنسبة للمستقبل •

لم يعد اليابانيون تلك « الحيوانات الاقتصادية » ، كما كانوا يتهمونهم ، ولم تعد قوة اليابان ترتكز على عنصر واحد من عناصر ثالوث السلطة • الا أن ذلك لا يمنع أن اليابان لا تزال تحتفظ بتأخر خطير ، مقارنة بالولايات المتحدة ، فى مجال خلق ونشر الأفكار والمعلومات والصور والمعرفة ، وهو مجال أساسى فى سباق القوة •

وفى اللحظة التى يتعين فيها على اليابانيين نشر هذه المصادر المتنوعة للقوة ، لا يملك المسئولون الاقتصاديون والسياسيون استراتيجية دولية محددة المعالم · يوجد ، بالطبع ، فى القمة اجماع حول بعض الأهداف الداخلية الجوهرية ، مثل تشجيع النمو الداخلى بتقليل حجم الصادرات ـ وان كان من المفترض أنها ضرورية ـ وتحسين نوعية الحياة بتنمية مجالات الترفيه ، والاهتمام بالبيئة التى عانت من تدهور شديد واعادة الاعتبار اليها · ولكن بالنسبة للسياسة الاقتصادية التى يتعين انتهاجها فى مواجهة العالم الخارجى ، تنقسم الصفوة اليابانية انقساما عميقا ، وتتردد بالنسبة للدور العالمى الذى يجب على اليابان أن تلعبه فى المستقبل، على فرض أن هناك دورا سيؤول اليها ·

تفترض احدى الاستراتيجيات أن العالم يتجه نحو التجزؤ الى مناطق كبيرة ، وبالتالى تستطيع اليابان أن تصبح القوة المسيطرة فى جنوب شرق آسيا · وفى ظل هذه الفرضية ، يتعين عليها تركيز الاستثمارات والمساعدات الثنائية فى هذه المنطقة · وفى الوقت نفسه ، الاستعداد بهدوء وتمهل لكى تصبح قوة الشرطة الاقليمية الكبيرة فى هذه المنطقة · ويتميز هذا الاختيار ، بأنه يجعل اليابان أقل عرضة للتأثر بالاجراءات والتدابير الحمائية الأمريكية أو الأوروبية ·

ويقضى الافتراض الثانى ، بأن تركز اليابان جهودها على الاقتصادات النامية أينما وجدت · ويرتبط بذلك ، اعطاء الأولوية لخلق بنية تحتية الكترونية فى هذه البلدان النامية، التى هى فى أشد الحاجة اليها للانضمام والتكامل مع الاقتصاد العالمى · ويتطابق هذا الاختيار الاستراتيجى مع أحد الاحتياجات الرئيسية للاقتصادات المتخلفة ، كما يتطابق مع نقاط قوة التكنولوجيا اليابانية · وفى الوقت نفسه ، سيسهم ذلك فى احكام ربط علاقات هذه الدول الكترونيا مع القوة الاقتصادية اليابانية ·

أما الاستراتيجية الثالثة ، والتى يبدو أنها تحظى حاليا بتأييد وموافقة عدد كبير من اليابانيين ، فتعتقد أن مهمة اليابان عالمية وترفض حصرها فى منطقة بعينها أو فى مجال محدد · ولا يحلم أنصار هذه الاستراتيجية بالسيطرة العالمية ، وانما يفكرون فقط أن الاقتصاد اليابانى قوى جدا وشديد التنوع ويعيش نموا سريعا للغاية ، بحيث يصعب حصر دوره فى جزء من العالم أو مجموعة محدودة من البلدان ·

ولقد دفعت هذه النزعة « العالمية » اليابان الى ارسال وحدات من البحرية اليابانية الى الشرق الأوسط ، لمساعدة الولايات المتحدة وحلفائها فى حماية الخليج أثناء الحرب بين العراق وايران · كما يطالب ذات

المعسكر بمنح قروض لأوروبا الشرقية ، والاضطلاع بدور دبلوماسي متزايد على الساحة الدولية ، والحصول على مواقع مهمة فى قلب صندوق النقد الدولى والبنك الدولى ، والمؤسسات الأخرى ذات الصبغة العالمية ٠

وعندما تحدد اليابان اختيارها بين هذه الاستراتيجيات الثلاث لن يكون ذلك بقرار حاسم ٠ فلقد اعتادت اليابان التقريب بين وجهات النظر المختلفة فى داخلها ، الا أن المراقبين المستنيرين يمكنهم دائما ادراك الكفة الرجحة ٠ وعندئذ ، سيشعر العالم بأول الآثار الحقيقية لما تهدف اليابان الى تحقيقه فى المستقبل القريب ٠

الاستراتيجية الجديدة للانفتاح شرقا :

اذا كانت شـدة الصراع الداخلى فى العـالم الرأسمالى ستتجه الى الزيادة ، فذلك لأن الطموحات اليـابانية ستصطدم بطموحات اللاعبين الرئيسيين الآخرين ، الولايات المتحدة وأوروبا ٠ ويجدر بالنسبة لأوروبا أن نشير الى هذه السطور التى كتبت فى ٢٣ أغسطس ١٩١٥ ٠

« يمكن خلق ولايات متحدة أوروبية [٠٠٠] ولكن لأية غاية ؟ من أجل غاية وحيدة وهى محو الاشتراكية فى أوروبا وحماية [٠٠٠] الغنيمة معا ، ضد اليابان وأمريكا » ٠

كان كاتب هذه الكلمات ثوريا مغمورا اسمه فلاديمير اليتش لينين ، ولم يكن بعد زعيم الاتحاد السوفيتى ٠ ترى ، ماذا سيكون رأيه فى الأحداث الحالية لو كان يعيش بيننا الآن ؟

ان تفكك الشيوعية مثل السباق نحو التكامل الأوروبى ، كلاهما نتيجة قدوم الموجة الثالثة ونظامها الجديد لخلق الثروة ٠ وكما أعلنها جيانى دى ميكليس ، عنـدما كان يرأس مجلس وزراء خارجية الجماعة الأوروبية ، فان « التكامل كان الرد السياسى لضرورة الانتقال من المجتمع الصناعى الى المجتمع ما بعد الصناعى » ٠ وتنبأ دى ميكليس بأن يؤدى امتداد اقتصاد السوق الى أوروبا الشرقية ، الى خلق موجة ازدهار اقتصادى ضخمة ، الا أن اللوحة الحقيقية ليست وردية الى هذه الدرجة ٠

ان انهيار الحكومات الماركسية ـ اللينينية فى أوروبا الشرقية منح شعوبها احساسا سعيدا بالحرية وأعطاهم نفحة أمل ، لكنه فى الوقت نفسه قلب رأسا على عقب ظروف المعركة الثـلاثية بين أوروبـا واليابان والولايات المتحدة ، وأدى الى ظهور فراغ فى السلطة، وورط أوروبا الغربية فى استراتيجية جديدة وغير متوقعة على الاطلاق ٠

لنفترض أن السلام سيستتب فى منطقة البلقان ، بالرغم من العداوات العرقية الحارقة التى تستشرى فى يوجوسلافيا وبلغاريا ورومانيا وأماكن أخرى • ولنفترض عدم وجود ديماجوجيين يثيرون الصراعات الحدودية بين ألمانيا وبولندا أو بين المجر ورومانيا ، فضلا عن عدم حدوث عمليات قمع عسكرية ولا حروب أهلية ولا أى قلاقل أخرى • ولنفترض أيضا أن الاتحاد السوفيتى لن يتفكك الى أجزاء يقف بعضها ضد البعض الآخر (تتصور جريدة سوفيتية أن مفهوم اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية ذاته قد يختفى من خريطة العالم السياسية) • واذا تحقق ، اذن ، استقرار نسبى فى أوروبا الشرقية ، وان كان احتمال ذلك ضعيفا ، فقد يعقب انسحاب السوفيت منها وصول الأوروبيين الغربيين اليها ، وبشكل • أكثر تحديدا ، الألمان •

وتحت الوصاية الغربية ، لن يواجه مواطنو أوروبا الشرقية ، بالطبع ، ظروف حياة سيئة مثل تلك التى عانوا منها فى ظل السيطرة السوفيتية ، والسيطرة الهتلرية قبلها • بل قد يرفع هذا الاستعمار الجديد غير العنيف مستوى معيشتهم بشكل كبير ، لكنه لن يترك أوروبا الشرقية — على الأقل ليس قبل وقت طويل — تتجاوز مرحلة العصر المصنعى •

وسوف تتشبث الشعوب باستقلالها الذى حصلت عليه بعد عناء ، وتتمكن من تدعيم موقفها فى المفاوضات مع الغرب بتشكيل نوع من الاتحاد فيما بينها • وكان جيمس بيكر ، وزير خارجية الولايات المتحدة ، قد أشار الى امكانية اقامة رابطة بين بولندا والمجر وتشيكوسلوفاكيا • غير أن هذا البعث البديل لامبراطورية النمسا والمجر ، أو حتى تجسيد الامبراطور فرنسوا جوزيف نفسه (ألا يريد بعض الشباب التشيك تنصيب فاكلاف هافل ، الكاتب المسرحى ورئيس تشيكوسلوفاكيا الجديد « ملكا » ؟) ، بل وحتى تكوين « ولايات متحدة لأوروبا الشرقية » لن يمنع من أن يفرض الشكل الجديد من التبعية نفسه على هذه البلدان •

ولادراك ذلك ، يكفى مقارنة ثلاثية السلطة فى أوروبا الشرقية — أى قواتها المسلحة واقتصادها ومواردها من المعرفة — مع مثيلتها لدى جيرانها الغربيين •

من هذا المنظور ، نجد أن الجماعة الأوروبية ، بدون أن تنضم اليها دول أخرى ، قادرة على أن تضع على المائدة ، سلطة ذات تفوق ساحق فى أشكالها الثلاثة •

ولكى نأخذ لمحة عن الامكانات العسكرية الضخمة لأوروبا الغربية ، بغض النظر عن حلف الأطلنطى وحلف وارسو السابق ، وبفرض انسحاب كل القوات الأمريكية والسوفيتية تقريبا ، فانها ستملك قوات كبيرة حتى فى ظل هذه الظروف ٠

لقد اقترح المستشار الألمانى هلموت كول ، فى أكتوبر ١٩٨٨ ، تكوين جيش أوروبى مشترك ٠ وبالرغم من أنه كان يعظم مزايا التحالف مع الولايات المتحدة ، الا أنه كان يستشف بوضوح وراء هذه الكلمات النغمة القائلة : « ارجعى يا أمريكا الى بيتك » ٠ لقد أصبح الألمان يرون أن الحماية الأمريكية لم تعد ضرورية بعد أن بات التهديد السوفيتى أقل خطورة بكثير عن السابق ٠

وسيضاعف الانسحاب الأمريكى الكامل ، بلا شك ، التكاليف المتعلقة بالقوة العسكرية لأوروبا الغربية ، ولكن بضبط هذا الانفاق بشكل جيد وتوزيعه على عدد أكبر من الدول ، يمكن جعل هذه التكاليف محتملة تماما ٠ وسينجم عن ذلك أوروبا جديدة ذات عضلات قوية وأسلحة دفاعية منيعة ٠

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا : من سيقود هذا الجيش الأوروبى غدا ؟ اذا كان هناك أدنى شك بهذا الشأن ، فان بعض الأرقام تكفى لتبديده ٠ لقد كانت الجيوش الفرنسية والألمانية الغربية ، حتى الآن ، متكافئة عمليا بالنسبة للقوات التقليدية ٠ كانت فرنسا تملك ٤٦٦ ألف جندى مقابل ٤٩٤ ألف جندى ألمانى ، وكان لدى فرنسا ٢١ غواصة مقابل ٢٤ غواصة ألمانية ، وفى مجال الطيران كانت فرنسا تملك للهجوم الجوى الأرضى تسعة أسراب ميراج وجاجوار أما ألمانيا فلديها ٢١ طائرة تورنادو واف ٤ ــ اف اس وألفا ٠

ولكن اعادة توحيد ألمانيا عدلت هذه الأرقام تعديلا كليا وجذريا ٠ فاذا اندمجت القوات الألمانية الشرقية مع مثيلتها الغربية فستزيد الميزانية العسكرية الألمانية بنسبة ٤٠٪ ، أما عدد القوات المسلحة فسيزيد بنسبة ٥٠٪ وستكافىء القوات الجوية الألمانية للهجوم الأرضى ثلاثة أضعاف مثيلاتها الفرنسية ٠ لقد أعلنت عملية اعادة توحيد ألمانيا نهاية السياسة الفرنسية كما حددها الرئيس الفرنسى السابق جيكسار ديستان عندما قال انه يتعين أن « يكافىء حجم القوات الفرنسية حجم القوات الأوروبية الأخرى ، أى القوات الألمانية » ٠

وتمتلك فرنسا بالطبع أسلحة نووية ـ « قوتها الضاربة » الشهيرة ـ وكذلك بريطانيا ، الا أن ألمانيا ـ اذا أرادت ـ فانها قادرة على التزود بالسلاح النووى بين عشية وضحاها ، وهو ما تدركه تماما فرنسا وبريطانيا وباقى العالم ٠

كما يساهم عنصر آخر ، وليس أقلها أهمية ، فى الاخلال بالتوازن العسكرية داخل أوروبا : لقد سلم السوفيت سرا ٢٤ صاروخا « اس ٠ اس ـ ٢٣ » متوسط المدى الى ألمانيا الشرقية ، مباشرة قبل التاريخ الذى تعهدوا فيه ، بموجب معاهدة ، بتدمير هذه الصواريخ ٠ ومع اعادة توحيد البلاد ستعود هذه الصواريخ الى الجيش الألمانى الموحد ، وهو آخر ما كان السوفيت يتمنون حدوثه !

وبينما لا يتكلم الساسة الأوروبيون الا عن الوحدة والعلاقات الطيبة والآمال السعيدة ، يوازن الجنرالات فى كل مكان هذه الأرقام بعناية ٠ وان كانت القدرات القتالية لا تقيم بالطبع كما تحصى النقود ، كما لا يوجد من يفكر جديا فى تكرار حروب ١٨٧٠ أو ١٩١٤ أو ١٩٣٩ فان المقارنة الرقميه ـ مهما كانت تقريبية ـ توضح جيدا أن ألمانيا هى التى ستقود المناورة فى أى جيش أوروبى ، فيما عدا فى حالة الطوارىء القصوى التى قد تؤدى الى استخدام الورقة النووية ٠

ولا يمت الألمان الحاليون بصلة للعشيرة النازية ، فهم مشبعون بالقيم الديمقراطية وبالأفكار المعتدلة التى تتميز بها الطبقات المتوسطة الميسورة الحال ، كما أنهم ليسوا مناصرين على الاطلاق للروح العسكرية ٠ الا أن ذلك لا يقلل من أنه فى حالة اللجوء للقوة العسكرية الغربية لوضع نهاية للاضطرابات فى أوروبا الشرقية ، فان القرار النهائى لن يتخذ فى باريس أو بروكسل وانما فى برلين ٠

ان كل التعليقات العدوانية التى تتردد فى واشنطن عن عدم استعداد الأوروبيين « لتقاسم عبء الدفاع » لم تمنع أوروبا الجديدة من أن تصبح الآن قوة عسكرية كبيرة ومستقلة ٠

أوروبا صباح الغد :

وسوف ترتكز القوة العسكرية الأوروبية على قاعدة اقتصادية هائلة، وهى تمثل العنصر الثانى لثلاثية السلطة ٠ حتى وان لم ينضم اليها أعضاء جدد ، فان امكانات الدول الاثنتى عشرة للجماعة الأوروبية ضخمة ، اذ يبلغ عدد سكانها ٣٢٠ مليون نسمة ، ويساوى اجمالى ناتجها القومى اجمالى الناتج القومى للولايات المتحدة تقريبا ، ويكافىء مرة ونصف اجمالى

الناتج القومى اليابانى • وتمثل تجارة بلدان الجماعة الأوروبية ، فى مجموعها ، ٢٠٪ من التجارة العالمية ، أى أكثر من الولايات المتحدة أو اليابان •

وسوف يتم اتخاذ القرارات الرئيسية فى المجال المالى ، كما فى المجال العسكرى ، فى برلين : فى وزارة المالية والدوتش بنك ، فالتفوق المالى يجسد الحقائق الاقتصادية • ان ألمانيا الموحدة ، التى يبلغ اجمالى ناتجها القومى ١٤ ألف مليار دولار ، تزن مرة ونصف أكثر من فرنسا التى تليها فى الترتيب •

وترغب الدول الأخرى المستسلمة لهذه الأشكال من عدم التوازن ـ وان كانت تخشى عواقبه ـ فى تدعيم وتوثيق روابط الجماعة الأوروبية ، على أمل الحد من حرية حركة ألمانيا • الا أنه كلما أصبحت الجماعة الأوروبية ذاتها قوية ومركزية ـ أى أن يكون لها عملة موحدة وبنك مركزى واحد ، وأن تتصرف على أنها الشرطى المسئول عن حماية البيئة ـ زاد تأثير ألمانيا الموحدة على اجمالى النظام الأروبى بدلا من أن يتناقص •

لكن اقامة هذا النظام ، الذى تعد ألمانيا مركزا له ، لا يمثل سوى جانب واحد من استراتيجية الانفتاح شرقا ذات المدى المذهل التى بدأت تظهر أولى سماتها •

ان الاستراتيجية الاقتصادية التى تنفذها حكومات الجماعة الأوروبية وشركاتها تتركز فى الواقع ، على الاستفادة من التكلفة المنخفضة للأيدى العاملة فى تشيكوسلوفاكيا والمجر وبولندا وباقى بلدان أوروبا الشرقية لتحقيق انتاج بالجملة ذى قيمة مضاعفة ضعيفة • لكن السلع المنتجة لن توجه لشعوب أوروبا الشرقية ، وانما سيتم تصديرها الى أوروبا الغربية •

وتتلخص هذه الاستراتيجية فى كلمتين : مداخن مصانع فى الشرق ، وأجهزة كمبيوتر وسلع استهلاكية فى الغرب • ولا تمثل ألمانيا الموحدة النواة المركزية فقط للجماعة الأوروبية ، لكنها تقوم بادارة اجمالى النظام القارى •

ويهدف تنفيذ هذه الاستراتيجية الاقتصادية الواسعة ، الى نقل السلطة فى أوروبا الشرقية من أيدى السوفيت الى أيدى الأوروبيين الغربيين ـ وبشكل أكثر تحديدا ، الألمان • وسيحتل تنفيذها العقود القليلة القادمة ، الا أن عملية التنفيذ ستكون حافلة بالصعوبات والفوضى •

وتفترض استراتيجية الاتجاه شرقا ، التى يجرى الاعداد لها بايقاع متصل ، أن الاتحاد السوفيتى سيظل مستغرقا فى شئونه الداخلية ، ومن ثم سيتعين عليه عسكريا أن يهتم بجمهورياته الاسلامية فى الجنوب وبالصين والمحيط الهادى أكثر من أوروبا • كما تفترض امكانية عقد اتفاقيات اقتصادية معه ، تقلل من معارضته لصبغ أوروبا الشرقية بالصبغة الألمانية•ويتوقف ذلك على الموقف السياسى الداخلى فى الاتحاد السوفيتى، وعلى الأحداث غير المتوقعة التى قد تحدث فى الصين ، أو بشكل أعم فى آسيا •

وهناك افتراض آخر لهذه الاستراتيجية ، هو أن الجماعة الأوروبية ذاتها ستكون قادرة على الوفاء بالوعود الجميلة التى قطعتها على نفسها أمام شعوبها ـ نسبة نمو تتراوح بين ٤ر٥٪ و٧٪ وخلق ما بين ٢ مليون الى ٥ ملايين فرصة عمل جديدة سنويا فى الدول الاثنتى عشرة الأعضاء ـ وهو ما يستلزم فاعلية أكبر فى الانتاج ، وتنافسية أفضل فى الأسواق العالمية ، وأرباحا أعلى •

غير أن تخطيط الجماعة الأوروبية مازال يعتمد بشكل كبير على مفاهيم تجاوزها الزمن ، مثل اقتصادات النطاق الكبير ، وهى مفاهيم تناسب صناعات العصر المصنعى أكثر من الاقتصادات المتقدمة المتمحورة على المعلومات وأنشطة الخدمات •

ومن ناحية أخرى ، يرتكز النظام الجديد لخلق الثروة على التباين وعدم التجانس ، والانتاج اللامركزى وتجزئة الأسواق ، وتنويع الأنشطة المالية وجعلها حسب الطلب ، وتؤمن كل هذه العناصر نجاح النظام الجديد الذى يولدها فى الوقت نفسه • الا أن أسطوانة الجماعة الأوروبية الضاغطة تهدف الى ازالة أية اختلافات •

أما فى الشرق ، فمن المحتم أن تواجه الاستراتيجية المعنية مشكلات كبيرة • فهى ، فى المقام الأول ، تعتبر أن شبه المستعمرات ستظل فى حالة استقرار سياسى ، الا أن الحماس للديمقراطية والبرلمانات والتعددية الحزبية لا تضمن ، للأسف ، المجانق واللحم على مائدة الطعام •

وقد يتحول الافتتان بالديمقراطية البرلمانية والأحزاب وحرية التصويت الى فوضى ، اذا لم يتحقق سريعا تحسن ملموس فى الأوضاع الاقتصادية المتردية حاليا • وتزيد الاتهامات بالفساد وأعمال الارهاب من خطورة الوضع ، مما قد يؤدى الى عودة الديكتاتوريات العسكرية أو النظم

الفاشية التى كانت منتشرة بكثرة فى هذه المنطقة قبل الحرب العالمية الثانية ، وقد يبارك مستثمرون أجانب ذلك ، واضعين متطلبات النظام والاستقرار فوق كل شيء ٠

وبعد أن استسلم مواطنو أوروبا الشرقية لنشوة النعم المنتظرة من رؤوس الأموال الغربية ، سيستيقظون على مرارة متزايدة للوضع الاستعمارى الجديد الذى يعيشون فى ظله ٠ وسيتحول السخط الى مقاومة ، وستنسب الأزمات الاقتصادية ونقص السلع الى المستثمرين الأجانب و « الامبرياليين » وكباش فداء محلية ٠ وبعد قروض الطوارىء ، سيتطلب الأمر قروضا أخرى لتفادى الانهيار الاقتصادى ، ثم تأتى طلبات تأجيل سداد الديون المستحقة نظرا لاشتداد الأزمة الاقتصادية ، أو الغاء الديون بلا قيد أو شرط ٠

حتى وان لم يحدث شيء من كل ذلك ، فان المسلمة القائلة بأهمية العمالة الرخيصة ، والتى ترتكز عليها استراتيجية الاتجاه شرقا ، تحتاج الى مراجعة جدية ٠ فكما سبق أن رأينا ، تصبح الأجور المنخفضة مكلفة بشكل متزايد ، فالوفر الذى يتحقق من خلالها ضئيل جدا ، لأن تكلفة العمل بالنسبة للتكاليف الكلية تتجه الى التناقص ، ما عدا فى القطاعات الأكثر تخلفا ٠

لقد اتضح لنا، أن الاقتصادات « البطيئة » تجد صعوبة كبيرة فى الارتباط بالاقتصادات المسماة « السريعة » ٠ ففى بولندا ، كان تحويل أرصدة من بنك الى آخر يتطلب شهرا أو ستة أسابيع ٠ ان الأيض فى أوروبا الشرقية بطيء جدا بالنسبة للايقاع الذى يطالب به الغرب ، كما لا توجد عمليا بنية تحتية الكترونية ٠ وستجعل كل هذه العوامل « استراتيجية التوجه شرقا » أكثر تكلفة عما يبدو لأول وهلة ٠

وأخيرا ، اذا فرضنا أن جزءا كبيرا من العمل « المصنعى » سيتم نقله شرقا ، فعلى دول أوروبا الغربية أن تتوقع ضغوطا متزايدة من جانب نقاباتها العمالية ، ومتطلبات متنامية فى مجال التأمين الاجتماعى ، وحملات حمائية قوية ٠

وفى ألمانيا بشكل خاص ، قد تؤدى هذه العناصر الى تدعيم المعارضة السياسية ٠ وسينشد الاشتراكيون الديمقراطيون والنازية الجديدة أنغاما قومية لمهاجمة انتقال فرص العمل الى « غير الألمان » الذين يعملون بأجور أقل من الحد الأدنى النقابى ٠ وفى الوقت نفسه ، سيقاوم الخضر انتقال التلوث الى مناطق هى بالفعل من أكثرها تضررا فى العالم ٠

واذا حدث وحكم ألمانيا ذات يوم ائتلاف يضم الاشتراكيين الديمقراطيين والخضر ، فان هذا الائتلاف سيمارس تأثيرا قويا على أوروبا كلها • وسينجم عند ذلك ، بدون شك ، ابطاء لانمو التكنولوجى الأوروبى، لأن الاشتراكيين الديمقراطيين سيخشون من تأثيره على العمالة ، فى حين يضم الخضر فى صفوفهم عددا كبيرا من كارهى التكنولوجيا •

لقد أتاحت رؤوس الأموال المقدمة من اليابان والعديد من البلدان الأوروبية ، انشاء بنك أوروبى للتنمية والتعمير تحت قيادة جاك أتالى • ويستطيع هذا البنك أن يقيم رؤوس جسور فى أوروبا الشرقية تفتح الطريق لبعض التقدم التكنولوجى والاقتصادى • لكن المهمة لن تكون سهلة •

وخلال العقد القادم ، عندما تطرح المشكلات الأوروبية نفسها بحدة أكبر ، قد تضعف الحماسة الاقتصادية والسياسية التى تثيرها حاليا استراتيجية الاتجاه شرقا • واذا كانت أوروبا تملك ثروات ضخمة ، فانها لم تعد حتى الآن سوى استراتيجية من أكثر الاستراتيجيات اثارة للجدل، للاستفادة منها •

من الثورة اليسارية الى علم الدلالات :

ان مستقبل القوة الأوروبية يعتمد ، أكثر من الولايات المتحدة واليابان ، على « ساقها الثالثة » ، أى قاعدة معرفتها • فقياسا بعدد جوائز نوبل وشهرة معاملها ومعاهدها البحثية ليس لدى أوروبا ما يقلقها ، فهى تحتل الصفوف الأولى فى مجالات الطاقة النووية والتقنيات الفضائية والروبوتية ، وبدأت أبحاثا عن التوصيلية الفائقة ، وان شاب ذلك بعض التردد • وبعد أن عاملت الجماعة الأوروبية العلم والتكنولوجيا طويلا باحتقار ، بدأت فى دعمهما بسخاء خاصة عن طريق مشروعات متعددة التخصصات العلمية •

وتحتل ألمانيا الصدارة فى هذا المجال أيضا • فلدى علمائها أكبر ميزانيات أبحاث وتطوير فى أوروبا ، وقاموا فى الولايات المتحدة بتسجيل عدد من براءات الاختراع أكبر مرتين ونصف من العلماء البريطانيين أو الفرنسيين • ومنذ عام ١٩٨٤ ، يحصل العلماء الألمان كل عام على احدى جوائز نوبل العلمية ، لاكتشافات مثل الميكروسكوب ـ الماسح ذى التأثير النفقى أو ظاهرة « هول » الكمية •

غير أن أوروبا ، بما فى ذلك ألمانيا ، تعانى من تخلف فى مجالات حاسمة ، مثل تكنولوجيا الكمبيوتر والمعلومات ، خاصة فيما يتعلق بانتاج

الرقائق الالكترونية ، مقارنة باليابان والولايات المتحدة • ان افلاس شركة نيكسدورف الألمانية ، التى ظلت طويلا من أكفأ منتجى أجهزة الكمبيوتر ، وابتلاع سيمنز لها ، والصعوبات التى تمر بها شركتا نوسك فى النرويج وفيليبس فى هولندا ، تؤكد على أوجه اعاقة أوروبا فى هذا المجال •

وفى قطاع الاتصالات اللاسلكية ، يؤدى الرفض العنيد من جانب العديد من وزارات البريد والاتصالات ، للتخلى عن احتكارها الى تعطيل التقدم •

ومهما بلغ سوء المدارس الأمريكية ، فان أوروبا تعانى أيضا من مشكلات تعليم خطيرة ، فنظمها المدرسية شديدة المركزية وغير مرنة • أما من المنظور الثقافى ، فان « الصادرات » الأوروبية أكثر أهمية وتأثيرا من الصادرات اليابانية ، الا أن الولايات المتحدة تسبق أوروبا عندما يتعلق الأمر بانتاج طرز حياة سيتم تقليدها فى أماكن أخرى ، أو حركات فنية جديدة أو ثقافة شعبية • ويمكن بالطبع ، الدفع بأن الثقافة الأوروبية أرقى جماليا وأخلاقيا ، غير أن الأمر يتوقف على المعايير المستخدمة • وبما أن الثقافة ، خاصة الثقافة الشعبية ، تمثل عامل سلطة فى هذا العالم الشديد التغير الذى تغمره الصور ، فان الولايات المتحدة تظل على رأس السباق فى هذا الصدد •

منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، أعطت أوروبا للعالم ، على المستوى الأيديولوجى والفكرى ، ثورية يسارية ذات ايحاء شبه ماركسى ، ومارست لبعض الوقت ، نوعا من التأثير من خلال الفلسفة الوجودية ثم البنائية ، ومؤخرا نظرية الرموز والدلالات • ولكن هذه القيم تشهد أفولا فى السوق العالمية للأفكار •

فى الحقيقة ، تستعيد أوروبا الغربية حاليا ، دورا مهما بتشجيعها ل « منتج » سياسى جديد • ففى السنوات القادمة ، ستكون النسخة « الخضراء » للاشتراكية الديمقراطية هى أهم صادراتها الأيديولوجية ، وهو ما يشكل أهمية كبرى ، لأن هناك أسواقا مستعدة ومتفتحة لاستقبال هذه الحركة فى كل من الولايات المتحدة واليابان وأوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتى ، شريطة ألا يتم تشويه النموذج وتسيطر عليه الجماعات الهامشية المتطرفة من المدافعين عن البيئة •

وفى نهاية المطاف ، نجد أنه بينما تستغرق اليابان فى الاهتمام بالمستقبل ، وتركز الولايات المتحدة على « الآن وهنا » ، فان أوروبا تظل مرتبطة ارتباطا راسخا بماضيها • وهناك دعابة معروفة تزعم أن استبدال

مصباح كهربى يحتاج الى خمسة أشخاص بريطانيين : واحد لتركيب المصباح الجديد وأربعة ليقولوا كم كان المصباح القديم أفضل ٠

وتقلل كل هذه الأسباب من فرص أوروبا فى أن تصبح قوة كبرى ذات سلطة متوازنة حقا ، طالما أنها لا تبذل لتنمية وتطوير قاعدتها المعرفية القدر نفسه من الطاقة والجهد ، الذى تبذله فى اعادة تنظيم قواتها العسكرية وتكامل اقتصادها ٠

لقد أعدت أوروبا استراتيجية ضخمة وذات مدى شاسع ، تهدف الى تغيير علاقات السلطة على الصعيد الاقليمى والعالمى ٠ ويضع هذا التخطيط ، المستمد من الماضى أكثر من المستقبل ، غاية هى تفوق « قلب » العالم ، كما لقب علماء الجغرافيا السياسية أوروبا فى الماضى ٠

العملاق الجريح :

يقودنا ذلك الى الحديث الآن عن هذا العملاق الجريح ، وهو الولايات المتحدة ٠

اذا أخذنا المكون العسكرى لثلاثية السلطة فسنجد أن القوة العسكرية الأمريكية تتفوق على منافسيها على الصعيد العالمى ، فالقوات المسلحة الأوروبية واليابانية لازالت ذات طابع اقليمى ، ولا تملك سوى قدرة محدودة على القيام بعمليات بعيدة ٠ وعلى نقيض ذلك ، تتمتع قوات الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ، بالرغم من التخفيضات التى أجريت عليها مؤخرا ، بمدى عالمى ٠

غير أن الاتحاد السوفيتى يعانى من اضطرابات داخلية ويتعين على جيشه أن يهتم ، كأولوية أولى ، بتهديدات الانفصال والانشقاق والمواجهات العرقية ، والمشكلات التى قد تنشأ على حدوده المتحركة الممتدة من ايران الى الصين ٠ وبالتالى ، فان الولايات المتحدة وحدها هى التى تملك حاليا أكبر قدرة تدخل فى المناطق البعيدة (فلديها مثلا ١٤ حاملة طائرات وسفن الحراسة المرافقة لها مقابل أربع حاملات طائرات سوفيتية وست أوروبية)٠ ان هذه القدرة على التدخل فى أية بقعة على الكرة الأرضية ، هى بالتحديد التى تميز القوة العسكرية الأمريكية عن كل القوى الأخرى ٠

لكن هذه السلطة العسكرية الرائعة الموضوعة بحسم تحت السيطرة المدنية ، والتى يقوم بخدمتها ضباط قادرون ومدربون تدريبا جيدا ، تعانى من اعاقة خطيرة ، ألا وهى رؤيتها الاستراتيجية للعالم التى تجاوزها الزمن ، والمتمحورة بدرجة مبالغ فيها على التهديد السوفيتى فى أوروبا

الغربية • وينجم عن ذلك ارتباك كبير فى تصور المصالح الحيوية للبلاد وأولوياتها ، وكأن هناك قصورا دماغيا يعيث فسادا فى القمة •

وبالتالى ، فان الضغوط التى يمارسها الكونجرس لخفض الانفاق العسكرى ، والتى تستلهم الاعتبارات السياسية الداخلية بشكل كبير ، تؤدى الى اقتراحات أعدت ، فى أغلب الأحيان ، بلا تبصر ولا ترتبط بأية رؤية متكاملة للموقف العالمى •

كما تعنى أزمة الاستراتيجية الأمريكية ، أن جزءا كبيرا من الميزانية العسكرية يستخدم لبناء نظم تسلح غير ملائمة ، يتم نشرها فى الأماكن والأوقات غير المناسبة • وهو ما يمثل تبذيرا واسرافا يفوقان بكثير تجاوزات مقايسات الموردين أو « المطارق الشهيرة المغطاة بطبقة من الذهب ، وثمن المطرقة الواحدة منها ٧٠٠ دولار » • ومن نتائج هذه الأزمة أن أصبحت الولايات المتحدة لا تقوم الا بردود أفعال للأحداث الدولية الكبرى (بعد حدوثها) ، بدلا من أن تفجر هذه الأحداث كما كانت تفعل حتى عهد قريب ، وذلك باستثناء العمليات الصغيرة مثل خلع مانويل نورييجا رئيس بنما •

لكن الأمور بدأت تتغير بعد غزو الكويت فى عام ١٩٩٠ • ان صدام حسين ، باقترافه هذا العدوان واظهار احتقاره للرأى العالمى ، واحتجازه للرهائن ، وتهديده باستخدام الأسلحة الكيماوية بل والنووية ، أحدث انقساما بين الدول العربية وهدد باحداث خلل فى نظام امدادات البترول العالمية •

لقد اضطرت الأزمة التى نجمت عن ذلك فى الشرق الأوسط ، المسئولين الأمريكيين أن يعدوا استراتيجية عامة لما بعد الحرب الباردة • لم يتم بعد استكمال هذه الاستراتيجية ، كما أنها ليست واضحة بعد تمام الوضوح • غير أن الرئيس بوش تصرف بسرعة ومهارة لتعبئة تكتل واسع ، بشكل غير عادى ، ضد المعتدى •

وخلال أيام قليلة أدان مجلس الأمن صدام حسين ، وطالبه بسحب قواته ، وفرض على العراق حظرا كاملا ، حتى ان الصينيين والسوفيت وافقوا على هذه القرارات • وأغلقت السعودية وتركيا خطوط الأنابيب التى تنقل البترول العراقى الى الأسواق العالمية • وقبل مضى شهر ، قامت قوات بحرية ضخمة بعزل العراق ، واتخذت قوات أمريكية مواقعها فى المملكة السعودية وفى منطقة الخليج ، تساندها فرق أرسلتها الدول العربية مثل سوريا ومصر والمغرب ، وكانت هذه الفرق بمثابة تحذير ، كما كانت لها قيمة رمزية •

وعلى الفور ، بدأ أعداء بوش السياسيون فى الكونجرس الشكوى من أن اليابان وأوروبا الغربية « لا تتحملان نصيبهما العادل من العبء » ، بالرغم من اعتمادهما أكثر من الولايات المتحدة على بترول الشرق الأوسط . كما ادعوا أن الأمريكيين يجازفون بحياتهم وينفقون مليارات الدولارات ، لحماية طرق امداد البترول التى يستفيد آخرون منها أكثر منهم . بل طالب بعض الديماجوجيين بأن تقوم اليابان وألمانيا بارسال قواتهما الى منطقة الخليج ، بالرغم من أن ذلك محظور على هذه البلدان بموجب دساتيرها . وفى الجانب المقابل ، لم يتساءل أحد ، سوى قلة قليلة ، اذا كان الأمريكيون ـ ومعهم بقية العالم ـ يرغبون فى أن تلغى النصوص الدستورية لهذه البلدان ، التى تمنع ارسال القوات اليابانية خارج الأرخبيل أو القوات الألمانية خارج نطاق الناتو .

لقد كان هؤلاء الديماجوجيون أبعد ما يكونون عن ادراك كل عواقب هذا الموقف ، وتعديلات السلطة الناجمة عنه على المدى الطويل .

فى الواقع ، ان اقامة قوات مسلحة أمريكية فى منطقة الخليج ـ حتى مع موافقة السعودية والدول الأخرى فى المنطقة ـ ستخلق موقفا جديدا جذريا ـ أيا كانت النتائج الأخرى لذلك .

فمنذ عام ١٩١٨ ، على أقل تقدير ، كانت فرنسا وبريطانيا هما القوتين الأجنبيتين الأكثر تأثيرا فى الشرق الأوسط . لكن عندما قامت مصر فى عصر ناصر بتأميم قناة السويس ، فى عام ١٩٥٦ ، حاولت القوتان الأوروبيتان استعادتها ، غير أن الولايات المتحدة أوقفت المحاولة .

ومنذ تلك اللحظة ، بدأ وضع القوتين الاستعماريتين السابقتين يتزعزع ويضعف تدريجيا . وابتداء من عام ١٩٥٦ الى عام ١٩٩٠ ، أصبحت الولايات المتحدة هى القوة الأجنبية المؤثرة فى الشرق الأوسط ، لكن كل عمل تقوم به كان يصطدم بمعارضة القوة العظمى العالمية الأخرى ، ألا وهى الاتحاد السوفيتى .

وفى عام ١٩٩٠ ، اقترف العراق ، وهو البلد الذى تربطه علاقات خاصة بالاتحاد السوفيتى ، خطأ فادحا ، اذ اعتقد ان القواعد القديمة للعبة لازالت سارية . وكان جورباتشوف فى ذلك الوقت ، يتحرر من التزاماته العسكرية فى مناطق متفرقة من العالم ، ويأمل فى الحصول على مساعدة اقتصادية غربية . وأدرك صدام حسين ، فجأة ، أن الاتحاد السوفيتى لم يعد مستعدا لافشال مبادرات الولايات المتحدة، التى أصبحت، من الآن فصاعدا ، القوة الأجنبية الوحيدة المتواجدة فعلا فى الشرق الأوسط .

فعندما هدد صدام حسين بالاخلال بالاستقرار فى هذا الجزء من العالم واثارة الاضطرابات ، لم يكن فى مقدور الدول العربية الأخرى مقاومته ، وبحثت السعودية ودول الخليج والعديد من البلدان الأخرى ، عن « شرطى » قادر على الدفاع عن أنظمتها واعادة الوضع الى ما كان عليه · ولم يكن هناك سوى شرطى واحد جاهز ومستعد ، ووثبت الولايات المتحدة الى الفرصة السانحة ، وسرعان ما اندفعت لسد الثغرة ·

وبعد أن ظلت لسنوات ، يقولون انها أصبحت فى حالة أفول ، تصرفت الولايات المتحدة من جديد كقوة عظمى · واذا كانت مساندة اليابان وأوروبا الغربية قد بدت ضعيفة فقد يرجع ذلك الى أن هذه الدول أدركت فجأة ان التأثير الأمريكى ، الذى تعزز بشكل كبير ، سيلعب ، من الآن فصاعدا ، دورا رئيسيا فى السياسة البترولية المستقبلية للدول العربية · وكانت أمريكا قد أكدت بوضوح سلطتها على اجمالى الاقتصاد البترولى ، ليس فى الشرق الأوسط فقط ، وانما استعادت مكانتها فى المنافسة العالمية بين الاقتصادات المتقدمة ·

غير أن البترول لم يكن الرهان الوحيد لهذه العملية · فأعداء بوش السياسيون لم يقدروا التهديد العراقى بانتاج ــ أو استخدام ــ أسلحة نووية وكيميائية حق قدره ·

لقد أوشك صدام حسين فى الماضى على بناء منشأة كفيلة بتزويد العراق بالسلاح النووى · لكن تم تدمير هذه المنشأة فى ٧ يونية ١٩٨١ بهجوم خاطف لطائرات « اف ــ ١٥ » و « اف ــ ١٦ » الاسرائيلية ، بعد أن اخترقت المجال الجوى السورى والأردنى · وتأخرت ، نتيجة لذلك ، المشروعات العراقية حوالى عشر سنوات · (وكانت ايران من المستفيدين غير المتوقعين بهذه الغارة ، اذ كان من المحتمل أن تتعرض لخطر النار النووية فى حربها مع العراق ، اذا ما توفرت لصدام حسين امكانية امتلاك سلاح نووى) ·

وفى ذلك الوقت ، سارع العديد من البلدان ، فى باقى العالم ، لادانة العملية الاسرائيلية ، وان كانوا يتنهدون سرا تنهيدة راحة وانفراج كرب · الا أن صدام حسين فى عام ١٩٩٠ ، تحدى العالم كله ·

وتقدم أزمة الخليج مثالا نموذجيا للاستخدام الكامل لثلاثية السلطة ــ العنف والثروة والمعرفة ــ على الصعيد العالمى · لقد استخدم صدام حسين العنف ضد الكويت ، وفرضت الولايات المتحدة والأمم المتحدة عقوبات اقتصادية ثقيلة على العراق ، وقاد المعسكران حربا لغزو الأذهان ·

لقد أدرك صدام حسين انه أضعف فى المجالين الاقتصادى والعسكرى ولذلك لجأ بشكل مكثف الى « السلاح النفسى والثقافى » ـ صور ورموز وأيديولوجية ودين ـ فداعب أمام كاميرات التليفزيون رؤوس الأطفال الرهائن ، ودعا الى حرب مقدسة ضد الغرب ، واستغل الحقد الطبقى ، ولوح بالقومية العربية ·

لقد جعلت أزمة الخليج صياغة استراتيجية أمريكية عامة لعالم ما بعد الحرب الباردة ، أمرا ملحا ، أكثر من أى وقت مضى ·

وقد تؤدى هذه الاستراتيجية ، على المدى الطويل ، الى انسحاب كل القوات الأمريكية ، تقريبا ، من أوروبا · غير أنه لم يتم حتى الآن اثارة احتمال اعادة نشر هذه القوات ليس فقط فى الشرق الأوسط ولكن فى المحيط الهادى أيضا · ويمكن تبرير هذا التوجه بالسمات الجديدة للوضع فى هذه المناطق : شكوك عميقة حول مستقبل الصين ، واعادة تسليح اليابان ، والحرب الأهلية فى الفلبين ، فضلا عن اهتمام السوفيت الذى لا يفتر قط بكل هذه المناطق · ان الانتقال من « الاستراتيجية الأوروبية » الى « استراتيجية الباسفيك » سيحابى البحرية والطيران على حساب القوات الأرضية ، التى ارتبط مصيرها أساسا بالدفاع عن أوروبا الغربية · وقد بدأ عدد من البلدان المجاورة لليابان ، يشعر بالقلق ازاء القوة اليابانية ، وربما يرحب بعملية اعادة نشر القوات الأمريكية فى الباسفيك ، وان كان لا يصرح علنا بذلك ·

ولا تستطيع الولايات المتحدة بالطبع ، تأمين دور الشرطى لاجمالى عالم يموج بالتوترات والأخطار مثل عالمنا ، سواء باسمها أو باسم أى أحد آخر · هذا رغم أن قوتها المتميزة تسمح بالاعتقاد بأنها ستكون قادرة ، بالمشاركة مع بلدان أخرى أو منظمات دولية ، على اخماد الصراعات الاقليمية التى تهدد السلام العام ، فى الوقت المناسب · وفى العقود المهلكة التى تنتظرنا ، قد ترغب كثير من الدول فى التواجد النشط لمثل هذا الشرطى ، وليس فقط فى الشرق الأوسط ·

أفول توءمين :

ان اعداد استراتيجية جديدة سيعيد أيضا تشكيل الاقتصاد الذى يمثل العنصر الثانى من ثلاثية السلطة · فتخليص القوات المسلحة من هياكلها الضخمة التى تتطابق مع عصر الموجة الثانية ، وخلق أداة عسكرية متوافقة مع الموجة الثالثة ، تعتمد على السرعة والقدرة على الحركة ومدى عمل أوسع ، سيجعل من الممكن نفخ طاقة جديدة فى الاقتصاد ·

وعلى النقيض من ذلك نجد أن العمليات المنفصلة لخفض الميزانية ، والتى تتم تحت ضغوط الكونجرس المفتقرة لبعد النظر ، تؤدى الى الاضرار بالأبحاث والمشروعات الرئيسية ، كما تبطىء التقدم التكنولوجى للاقتصاد ككل ، والذى استفاد حتى الآن من العقود المبرمة مع البنتاجون .

ومن ناحية أخرى ، ان انسحاب القوات الأمريكية من أوروبا والذى يتعين أن يدفع أوروبا الى مضاعفة انفاقها العسكرى ، قد يسهم فى خفض عجز الميزانية الأمريكية ، ويقلل بالتـالى من تبعية البـلاد للمستثمرين اليابانيين وسـينجم عن ذلك ، ولو مؤقتـا ، حجم معين من البطالة لكنه سيكون مصحوبا بانخفاض فى سعر الفائدة وزيادة فى الاستثمارات .

وان كان لا يوجد ما يضمن أن يتم توجيه الأموال الفيدرالية ، التى تم توفيرها نتيجة لذلك ، الى الاصلاح الاجتماعى ، بالرغم من الاحتياج اليه منذ وقت طويل ، فان جزءا من هذه الأموال على الأقل ، سيذهب الى التعليم والرعاية الطبية المنزلية والتدريب المهنى واستخدامات أخرى ، واذا تم الربط بين هذه الاصلاحات بذكاء ، فانها قد تسهم فى تحسين مصير الجيل القـادم .

لقد كثر التباكى على الأفول الاقتصادى النسبى للولايات المتحدة ، وهو فى الحقيقة ، المقابل لنجاح الجهود الأمريكية المبذولة بعد الحرب العالمية الثانية لاعادة تعمير كل من اليابان وأوروبا . وبالرغم من العديد من التأكيدات الخاطئة ، فان نصيب الولايات المتحدة من اجمالى الناتج العالمى لا يزال هو نفسه تقريبا منذ ١٥ عاما .

(لقد سجل هذا المؤشر انخفاضا ضخما عندما استعادت الاقتصادات الأوروبية واليابانية ، التى عانت من الاضطراب ، قوتها . ويظـل هذا المؤشر ثابتا تقريبا ، منذ السبعينات ، فيما يتعلق بالولايات المتحدة) .

الا أن الانتاج لم يعد المؤشر الأول لتقييم صحة الاقتصاد . فالولايات المتحدة تتفوق على كل من أوروبا واليابان فى قطاعى الخدمات والمعلومات ، وهما القطاعان الرئيسيان فى الاقتصادات فائقة الرمزية . ولذلك لا تمثل البطالة بالنسبة لها مشكلة مزمنة ، كما هو الحال فى أوروبا .

كما يجب اعادة النظر فى مفهوم عجز الميزان التجارى ، الذى نشر الرعب لفترة من الزمن فى واشنطن ، فى ضوء قدوم هذا الاقتصاد الجديد فائق الرمزية . فمن الخطأ الاعتقاد بأن الصادرات الأمريكية تراجعت . ففى الثمانينـات ، تقدمت الصادرات بنسبة ٦١٪ ، ولكن خـلال الفترة نفسها زادت الواردات بسرعة أكبر ، وبما يزيد مرة ونصف عن الصادرات .

فلقد تقدمت الصــادرات الأمريكية الى اليــابان بنسبة ١١٤ ٪ ، الا أن الواردات القادمة من اليابان قفزت لتتجاوز ٢٠٠٪ ٠ غير أن هذا التفاوت يتجه حاليا الى التناقص ٠ على أية حال ، فان اقتصادا يولى أهمية متزايدة للخدمات ، يمكن أن يكون اقتصادا صحيا تماما ، حتى وان كان عدد من منتجاته الجديدة غير قابل للتصدير مثل الخدمات الطبية أو التعليم ٠

وبالرغم من أن الولايــات المتحدة قد انتابها القلق طويلا من جراء « عجزيها التوءم » (أى عجــز الميزانية وعجــز الميزان التجارى) ، فان هناك مشكلات أكثر خطورة يتعين عليها مواجهتها ، مثل مؤسساتها التى تجاوزها الزمن ، وعدم الاستقرار الاجتماعى الذى يؤدى الى تآكل المجتمع الأمريكى ، ويهدد بتمزيق الأسرة والجماعات العرقية ، بالاضافة الى مشكلة المخدرات فى مجتمع يعيش أفراده فى حالة اعتماد متبادل ، ويعتمدون بدرجة كبيرة على الدولة ٠

الأثر الحاســم لوودى آلن :

ان نظام المعرفة أهم بكثير للولايات المتحدة ، على المدى الطويل ، من الانتاج بالجملة ٠

وان نظرة بسيطة على العنصر الثالث من ثلاثية السلطة ، يكذب على الفور كل الذين يتجاهلون السلطة الضخمة المتبقية للولايــات المتحدة ، ودور المعرفة فى قوة البلدان ، أو لا يقدرونه حق قدره ٠

ففى الواقع ، تتمتع الولايات المتحدة بميزة ضخمة ، ألا وهى لغتها ٠ فاللغة الانجليزية هى اللغة الدولية فى مجالات البحث العلمى و التجارة والطيران والعديد من المجالات الأخرى ٠ والى أن تتمكن الترجمة بمساعدة الكمبيوتر من أن تجعل اللغات شفافة لبعضها البعض ، فان كون الملايين من البشر يفهمون الانجليزية ــ ولو جزئيا ــ يعطى الأفكار والابتكارات والموضات والمنتجات الأمريكية ، جمهورا عريضا فى العالم كله ٠

كما تمتلك أمريكا ورقة رابحة أخرى لها أهميتها ، ألا وهى معرفتها وخبرتها العلمية والتكنولوجية الضخمة ٠ لقد كثر الحديث عن انخفاض عدد براءات الاختراع الأمريكية ، فى اشارة الى مزيد من علامات الأفول فى هذا المجال ٠ لقد كانت الولايات المتحدة ، بعد الحرب العالمية الثانية ، الدولة الصــناعية « الوحيــدة » التى تســتطيع القيــام بأبحاث علمية وتكنولوجية على صعيد كبير ٠ ومع الأخذ فى الاعتبار هذه الظروف ، لم يكن مقبولا بالمرة أن تتمكن من الاستمرار طويلا فى تقديم نفس النسبة من براءات الاختراع ٠

لقد فقدت الولايات المتحدة حاليا احتكارها ، لكن قاعدتها العلمية لازالت أفضل من منافسيها · وطبقا لإحصاءات المؤسسة القومية للعلم ، فان ادارات البحث والتطوير الخاصة والعامة تدير ميزانية تقدر بحوالى ١٢٠ مليار دولار سنويا ، أى ثلاثة أضعاف الميزانية التى ترصدها اليابان لهذا الغرض وأكثر من ميزانيات اليابان وألمانيا وفرنسا وبريطانيا مجتمعة ·

ان ميزانية البحث والتطوير فى الشركات الخاصة تقدر بحوالى ٧٠ مليار دولار ، ويقدم البنتاجون باقى التمويل · وبالرغم من الانتقادات التى تدعى عكس ذلك ، فان جزءا كبيرا من ميزانية البنتاجون توجه للاقتصاد المدنى · (وطبقا لصمويل فوللر رئيس قسم الأبحاث فى ديجيتال اكويبمنت فان العديد من المنتجات مثل الكمبيوتر الشخصى أو محطات العمل ، كانت نتاج دراسات قامت بتمويلها وكالة مشروعات الدفاع للبحوث المتقدمة) ·

ولا يزال عدد الباحثين العاملين والمهندسين فى الولايات المتحدة ضعف عددهم فى اليابان ، وان كان هذا العدد يتجه هناك الى الارتفاع كالسهم ، حيث العلماء اليابانيون ــ ما عدا الجامعيين ــ هم أيضا أكثر شبابا ·

ولكن ضخامة الجهد الأمريكى لا يمثل فى حد ذاته ضمانا للنوعية والجودة · فخفض ميزانيات الدفاع ، واتجاه الشركات بشكل متزايد نحو الأبحاث التى تستهدف تحسين الانتاج ، يرسمان اتجاها غير ملائم · والخلاصة أن ، تقدم الولايات المتحدة فى قطاعات التكنولوجيا المتطورة لا يزال ذا مغزى ، بالرغم من المنافسة ·

ان التقدم اليابانى فى مجال الاعلاماتية وانتاج رقائق الذاكرة مذهل · لقد حققت ثلاث شركات ، هى « فوجى تسو » و « ان·اى · سى » ، و « هيتاشى » تقدما مدهشا · وتأتى فوجى تسو الآن مباشرة بعد ديجيتال ايكويبمنت التى تعد ثانى شركة عالمية فى مجال الاعلاماتية ، تليهما هيتاشى و ان · اى · سى · على مسافة قصيرة · ويسيطر اليابانيون على ٥٠٪ من سوق المكونات الالكترونية الخاصة بالاعلاماتية ، وعلى نصيب غير مسبوق يقدر بـ ٨٥٪ من سوق رقائق الذاكرة ·

الا أننا لو اقتصرنا على أجهزة الكمبيوتر فى حد ذاتها ، فان الأمريكيين يمتلكون ٦٩٪ من السوق العالمية ، وتتقاسم أوروبا واليابان نسبة الـ ٣١٪ الباقية · كما تنتج الولايات المتحدة ٦٢٪ من أجهزة الكمبيوتر الشخصى فى العالم ·

ففي عـام ١٩٨٨ ، كانت عشر شركات أمريـكية تعد من بين أكبر عشرين شركة في مجال الاعلاماتية على مستوى العالم ، في حين كان نصيب أوروبا ست شركات واليابان أربع شركات · وكانت « آي · بي · ام » وحدها تكافيء أكثر من ضعف أكبر ثلاث شركات يابانية في هذا المجال ، أما ديجيتال اكويبمنت فكانت تكافيء أكبر ثلاث شركات أوروبية · وفي مجال الخدمات الاعلاماتية المتزايد الأهمية ، فان أكبر تسع شركات عالمية أمريكية الجنسية والعاشرة أوروبية · وكان نصيب اليابان في عام ١٩٨٨ في مجال الخدمات الاعلاماتية لا يتجاوز ٦ر١٠٪ ، ويتجه هذا النصيب الى التناقص كلما زاد النصيب الأمريكي ·

غير أن التقدم الياباني في مجال انتاج السوبر كمبيوتر باهر ، وهو مجال تعاني فيه الشركات الأمريكية من صعوبات كثيرة · ولكن السيطرة اليابانية تقتصر على مستوى الأجهزة والمعدات ، بينما تحتل الولايات المتحدة رأس القائمة بالنسبة لنظم الاستخدام والبرامج الاعلاماتية · الا أن السباق لم ينته بعد ·

أما في مجال رقائق الذاكرة ، فلقد وجه الانتاج بالجملة في اليابان ضربة قاسية للمنافسة الأمريكية · لكن شركة «آي · بي · ام » · كانت أول من أعلن عن انتاج رقيقة سعتها ١٦ مليون بيت ، أي أربعة أضعاف سعة أكثر رقائق الذاكرة تقدما ، وأكبر بكثير من السعات الحالية للرقائق اليابانية · وبالاضافة الى ذلك ، فان الاتجاه العام لا يصبو نحو الانتاج بالجملة بقدر اتجاهه نحو التخصص ، الذي في اطاره تكتسب البرامج وأنظمة الاستخدام القوية – وهي نقطة ضعف اليابان – أهمية متزايدة بشكل مطرد · وتستحوذ الولايات المتحدة ، في مجال البرامج الاعلاماتية وحده ، على ٧٠٪ من السوق العالمية التي تقدر بـ ٥٠ مليار دولار ، والتي تعيش نموا مذهلا ·

ولا نستطيع هنا ، الاسترسال في الحديث عن مجالات أخرى ، مثل التوصيلية الفائقة والاتصالات اللاسلكية والمواد الجديدة والبيوتكنولوجي · الا أن الوقت لا يزال مبكرا للحكم على أثر ومردود هذه التكنولوجيات على نتيجة السباق العلمي والتقني ·

وفضلا عن ذلك ، فان السرعة التي يجدد بها العلم نفسه ، وفعالية نظام الاتصال الذي ينقل الخبرة والمهارة الى من يحتاجونهما ، وقدرة البلاد على امتصاص الأفكار الجديدة الواردة من باقي العالم ، ستصبح مع مرور الوقت أكثر أهمية في هذا السباق عن الموقف في حالة معينة · فالمهم هو الحركة وليس الخبرة المكتسبة ·

ان أكبر آفة فى الولايات المتحـدة هى بلا شـك نظامها التعليمى « المصنعى » الذى تفتك به المخدرات والعنف · الا أن النظام التعليمى يعانى للأسف من تشويش واختلال خارج الولايات المتحدة أيضا ، خاصة فى التجمعات الكبيرة · هل توجد مدارس جيدة فى بريكستون أو بيلميرمير أو برلين ؟ ان أزمة التعليم ليست قاصرة على الولايات المتحدة ·

ان ما يضفى تميزا على المؤسسات التعليمية الأمريكية ، بالرغم من كل شىء ، كونها أقل مركزية عن المدارس الأوروبية ، واليابانية ، وبالتالى أقل خضوعا للأوامر الوزارية · كما أنها ـ ظاهريا على الأقل ـ أكثر انفتاحا للابتكارات والتجارب ·

وللأسـف ، يتطلب عـالم الأعمـال والبحث العـلمى ، المزيـد من الرياضيات والعلوم والمعارف المتخصصة والدبلومات · وقد يثير الدهشة ، أن نعرف أن التقدم التكنولوجى الذى حققته اليـابان بين عامى ١٩٧٥ و١٩٨٨ يتطابق فى الواقع ، مع زيادة طفيفة ، فى عدد دبلومات الهندسة ودرجات الدكتوراه فى هذا البلد ·

ولكن بالرغم من ارتبـاك نظامها التعليمى والتربوى ، فان أمريكا تمتلك سلطة عالمية ، ألا وهى تأثيرها الثقافى الضخم على باقى العالم · ولا يتعلق الأمر هنا باصدار حكم عن نوعية هذه الثقافة ـ وهى مسألة قد تثير بالطبع جدلا مثيرا ـ وانما بتسجيل أن الثقافة الأمريكية تنتقل ، بشكل أو آخر ، الى خارج الحدود · وبالتالى ، يزيد عدد الكتب الأمريكية التى تترجم الى اللغات الأجنبية عن تلك المترجمة الى الانجليزية · ومن وجهة نظر معينة ، قد يدعو هذا الوضع للأسف ، لأنه يحرم الأمريكيين من مصدر نفيس للأفكار والآراء ، كما أنه يجسد هيمنة أمريكية على عمليات التبادل الثقافى ·

وسواء أكان ذلك للأفضل أم للأسوأ ، فان الجموع فى العالم كله ، تتوق لتبنى المواقف وأسلوب الحياة والموضات والابتـكارات الغربية ، والأمريكية أساسا · لقد قيل كثيرا ، ان هذا الانجذاب لأمريكا ناجم من تعدد مكوناتها العرقية ـ تغذيه يهودية وودى آلن ، وزنجية بيل كوسبى ، وايطالية شخصيات مثل كولومبو أو المخرج مارتن سكورسى ، والطابع اليابانى لبات موريتا بطل « طفل الكاراتيه » ، أو الكوبى لديزى آرناز ، أو « الوجه الباهت » لكلينت ايستوود ·

ان تأثير كل صور الولايات المتحدة ، وخصوبة أبحاثها العلمية والتكنولوجية ، هى التى تمثل تهديدا « لمتشددى » الصين وآيات الله الايرانيين ، أكثر من قوتها الاقتصادية أو العسكرية · ان الانتاج والبث التليفزيونى الأمريكى هو الأكثر شعبية فى العالم ، ولا توجد قوة كبرى تمثل منافسا حقيقيا فى هذا السباق ·

باختصار ، تظل الولايات المتحدة مصدرا غنيا للابتكار والتجديد ، فى مجالات العلم والتكنولوجيا والأعمال والفن والمعرفة ، بالمعنى الواسع للكلمة · وقد تتناقص هذه الميزة خلال العقود القادمة · لكن الصعوبة التى ستجدها الأمم الأخرى فى الدفاع عن نفسها أمام هذا التقدم الثقافى ، ستكون أكبر من صعوبة بنائها لترسانة جديدة أو تكامل اقتصاداتها ·

يوضح لنا هذا الاستعراض لثلاثية السلطة أن أمريكا ، بالرغم من مشكلاتها الخطيرة ، أبعد ما تكون عن نمر من ورق · ستشهد صراعات اجتماعية وعنصرية وجنسية ، خلال العقود القادمة ، تبعا لانتقالات السلطة التى ستحدث داخلها أو خارج حدودها ، الا أن الاضطرابات الداخلية فى الولايات المتحدة لا تقارن ، على أية حال مع الثورات المتوقعة فى أوروبا ، التى تعد أقل الشركاء الثلاثة المشاركين فى سباق السلطة العالمية استقرارا · ولن تفلت اليابان أيضا من الصراعات السياسية والاجتماعية فى عالم مزعزع حتى النخاع ·

غير أن مثل هذه التأكيدات السريعة قد تتسم بالانطباعية ، ويحق مناقشتها نقطة نقطة · لكنها تحاول أن توضح لنا ، اجمالا ، أن الولايات المتحدة أكثر المراكز الرأسمالية الثلاثة الكبرى فى العالم توازنا ، وأنها تحتفظ بتفوق فى أهم عنصر من عناصر ثلاثية السلطة ، ألا وهو المعرفة ·

اختيار الشركاء :

ترتكز أغلب التوقعات عن تطور السلطة العالمية على افتراضات ساذجة وتعريف خاطىء للسلطة ·

لقد أكد بول كنيدى مثلا فى كتابه « صعود القوى الكبرى وانهيارها » على أفول أمريكى محتمل ، الا أن نظريته ذائعة الصيت لا تقيس السلطة الا بمقاييس الثروة والقدرات العسكرية · ويكتفى كنيدى بمجرد الاشارة الى تأثير الأيديولوجية والدين والثقافة ، لكنه لا يقدر هذا التأثير حق قدره ، بالرغم من أنه أصبح أكثر حسما من أى وقت سابق · انه يهمل دور المعرفة الذى بات جوهريا بالنسبة للثروة الاقتصادية والقوة العسكرية · فان مركز السلطة يكمن حاليا فى المعرفة ·

بالاضافة الى ذلك ، فان السلطة ـ كما سبق أن رأينا ـ ليست مسألة كم وانما هى مسألة نوعية · وترتبط قوة أمة ما بأهدافها الخاصة ، وليس فقط بمقارنة قوتها مع الآخرين · فان ما يمكن اعتباره الرد المناسب لهدف معين ، مجسدا نوعا معينـا من القيم ، قد يبدو فى حالات أخرى غير مناسب على الاطلاق ·

وعلى نقيض أوروبا التى تركز على رؤية اقليمية ، واليابان المترددة بين سياسة اقليمية وأخرى عالمية ، فان الولايات المتحدة تبحث عن دور عالمى · فبعد أن قادت ائتلافـا دوليـا ، طوال نصف قرن ، سيكون من الصعب على أمريكا أن تحصر طموحاتها فى منطقة واحدة · غير أن الأمر لا يتعلق فقط بعوامل نفسية ، فالاقتصاد الأمريكى يرتبط ارتباطا أصليا باقتصاد باقى العـالم ، ويعتمد على تنويعة كبيرة من العلاقـات ، فاذا ما انفصلت الولايات المتحدة فجأة عن جزء كبير من هذا الاقتصاد العالمى ، فستكون عواقب ذلك وخيمة عليها · ولن يتحمل أى زعيم أمريكى مثـل هذه المسئولية ·

وقد يكون الشىء نفسه صحيحا بالنسبة لليابان وأوروبا أيضا · ومن ثم فان أى تهديد جدى بالعودة الى السياسة الحمائية ـ لوضع حد لأزمة اقتصادية مثلا ـ سيزعزع تماما العلاقات بين المراكز الرأسمالية الثلاثة الكبرى · ولا ننسى أن رقم ثلاثة هو فى الأساس رقم غير مستقر ، فالثلاثى يميل غالبا الى التفكك الى اثنين وواحد · ويناضل العديد من الدول والمناطق لكى تحتل مكانا فى نظام سلطة القرن الواحد والعشرين · وسنشهد ظهور تحالفات غريبة واستراتيجيات غير متوقعة · كما ستتقدم بلدان الى صدارة المسرح العالمى بعد أن كانت قد أقصيت منذ زمن طويل لصفحات التاريخ الأخيرة · ولقد بدأ المسئولون الأوروبيون يتقربون من واشنطن بهدف خلق أشكال جديدة من التحالف لن تكون موجهة بعد الآن ضد موسكو ·

وتقتصر بعض الاقتراحات على مجالات معينـة مثـل التليفزيون ذى الوضـوحية العالية أو التكنولوجيـا بشكل عام ، الا أن الدول تحتفظ فى ذهنها بطموحات أوســع · وتعبر جريدة « داى شتوتجارت زايتونج » الألمانية عن فكرة شائعة ، حيث تقول : « سيستفيد الجميع من علاقات أوثق بين أوروبا والولايات المتحدة [···] وستسمح هذه العلاقات باعداد سياسة مشتركة [···] فى مواجهة منافسة اليابان » ·

ولكن اذا ظلت الاستراتيجيات الأمريكية طويلة المدى غير متجاوبة مع هذه الاقتراحات ، وسمحت للتاريخ أن يتحرك نحو تحالف ضمنى بين

اليابان وأوروبا ذى صبغة ألمانية ، يقتسمان به اقتصاد العالم فيما بينهما . (هناك شركات يابانية مثل « جى . فى . سى » . تحاول أن تنقل مقرها الرئيسى فى أوروبا الى برلين ، وترتبط « ميتسوبيشى » بروابط قوية مع « مسر شميت ») .

ان الولايات المتحدة . حتى وان تكاملت مع سوق شمال أمريكية مشتركة ، لا تستطيع أن تصمد طويلا لمثل هذا الضغط ، الذى سرعان ما قد يولد كارثة بحجم حرب عالمية ثالثة .

وعلى النقيض من ذلك ، قد يكون لتحالف أمريكى يابانى نتائج مختلفة تماما .

لكن العلاقات بين الولايات المتحدة واليابان لم تكن أسوأ مما هى عليه الآن ، منذ الحرب العالمية الثانية . وفى الواقع ، لا تستطيع الهوة بين البلدين أن تزداد اتساعا دون أن يولد ذلك شرورا خطيرا . اذ توجد فى كل من طوكيو وواشنطن شخصيات خطيرة تبحث عن نجاحات انتخابية أو مال سهل ، تثير بدون أى احساس بالمسئولية ، انفعالات وأهواء مثيرة للقلق .

وعندما يصور شينتارو ايشيهارا ، العضو السابق فى الحكومة اليابانية ، أن الولايات المتحدة قد تحتل اليابان مرة أخرى ، لكى تمنعها من بيع مكونات الكترونية متطورة الى الاتحاد السوفيتى ، فانه يتوقع احتمال نشوب حرب بينهما . وهو بذلك يردد فكرة قد تطرأ – وان كانت غير معقولة – فى أذهان اليابانيين والأمريكيين . انه بذلك مثل نظرائه من الأمريكيين الذين يتخيلون صواريخ يابانية وأمريكية موجهة ضد بعضها البعض . لكن يتعين على كل هؤلاء أن يتذكروا ، أن من يمتطى النمر لا يستطيع قط أن ينزل ويسير على قدميه .

ففى عالم فى قمة الاضطراب ، وزاخر دائما بالمفاجآت لا يمكن استبعاد أى احتمال . ولكن حتى أبسط المخاطرات ، قد تثير رعب من أنهكتهم القوة الأمريكية الفائقة ، أو المنافسة الأمريكية اليابانية . ان مثل هذا الصراع قد يغرق العالم كله فى كابوس سيعانى منه لقرون قادمة .

كما قد تتفاقم العداوة المتنامية بين قوتى الباسفيك اذا اتخذت أوروبا تدابيرا حمائية ، لأنها بذلك ستفرض على باقى العالم منافسة محمومة بشكل متزايد . ولذلك تكافىء فكرة « قلعة أوروبية » مغلقة أمام العالم الخارجى ، تهديدا للسلام العالمى بالموت .

وفي مثل هذا الوضع المتفجر ، تستطيع أمريكا أن تدفع الآخرين الى مطالبتها بأن تكون « الورقة » المساعدة لأوروبا أو اليابان فى المنافسة التى تضع كل منهما فى مواجهة الآخر ، ثم تقبل بعد ذلك القيام بهذا الدور ، كما يمكنها أن تقف بينهما وتقوم بدور الوسيط • الا اذا كونت هى تحالفا لكى تسيطر على العقود الأولى من القرن الواحد والعشرين • لكن مع من ؟

هنا تظهر بوضوح أهمية تحليل ثلاثية السلطة • لأننا اذا استطعنا تقدير تأثير العنف والثروة والمعرفة ، يصبح من الممكن حصر وتحديد عواقب هذه العناصر ، بمقياس السلطة ، على توليفة أو أخرى •

فعلى سبيل المثال ، سيضم التحالف الأمريكى - الأوروبى قوة عسكرية ضخمة (نوع من السوبر ناتو) ، وسيكون سوقا عملاقة ، ويخلق ثروة مهولة (وان كانت قائمة أساسا على الانتاج) • كما سيتيح هذا التحالف جمع المعرفة والتكنولوجيا الأمريكية على مثيلتها الأوروبية محققا سلطة ثقافية باهرة • وستجعل الروابط الثقافية والعرقية القديمة مثل هذا التحالف طبيعيا تقريبا •

ولكن اذا تم توجيه هذا التحالف ضد اليابان ، فسيؤدى ذلك الى ايقاظ ذكريات الثلاثينات ، ويدفع اليابان الى اعادة التسلح ، ويضع الصقور على رأس حكومتها • كما قد تتجه الى بعض الدول النامية لكى تجد منافذ لمنتجاتها ورؤوس أموالها ، وان كانت ذات نوعية أقل • وقد يؤدى هذا التحالف عسكريا ، الى اتفاق يابانى - روسى ، بل والى شكل جديد من المغامرة الصينية •

ان ابعاد اليابان عن أوروبا - اذا كان ذلك معقولا - بل وعن الولايات المتحدة ، يعادل وضع قنبلة عالمية موقوتة •

ان التفكير البارد ، يكشف لنا أن التحالف بين الولايات المتحدة واليابان سيؤدى الى موقف مختلف جذريا ، بالرغم من حالة التوتر الحالية بين البلدين • ويجب عدم اهمال هذا الاحتمال فى عالم يمكن أن يتحول فيه الرأى العام بين ليلة وضحاها ، وحيث قامت أمريكا بتقديم دعمها لجورباتشوف •

ومهما بدا ذلك متناقضا ، فان تحالفا أمريكيا - يابانيا يستهدف موازنة سلطة أوروبا سيضم أول وثالث ميزانية عسكرية فى العالم ، وأكثر اقتصادين ازدهارا ، وأسرع القواعد العلمية والتقنية تطورا • ويمكن

لمثل هذه التوليفة أن تشكل ثنائيا استراتيجيا أو سلطة ثنائية تشمل القوتين الاقتصاديتين الأسرع نموا وانطلاقا ، أكبر دولتين فى الباسفيك فى مواجهة أوروبا ٠

وهنـاك عـامل آخر ، مثير للقلق ، يميز بين هذين النوعين من التحالفات ، التى قد تجد أمريكا نفسها ممزقة بينهما ٠ وقليلا ما يشار الى هذا العامل فى واشنطن أو طوكيو أو العواصم الأوروبية ، حتى ان استراتيجيات الأمم الأقوى والأغنى تميل الى نسيانه ٠ غير أن هذا العامل قد يزن كثيرا ، على المدى الطويل ، فى التوافق بين الأمم ٠

فكل تحالف بين أوروبا والولايات المتحدة ، بدون اليابان ، سيعادل فى الواقع ائتلافا أحادى العنصر ، فى عالم أصبح فيه العنصر الأبيض أقلية بشكل متزايد ٠ وعلى النقيض من ذلك ، سـيبدو التحالف الأمريكى اليابانى ، بالرغم من العنصرية الخاصـة لهذين البلدين ، كائتلاف بين عنصرين ٠ وسيكون لهذه السمة تأثير عميق على باقى العالم ٠

ان التاريخ لا يتقدم على قضبان واضحة التحديد نحو مستقبل محدد مسبقا ٠ وفى عصر تحول السلطة ، الملائم لكل الانقلابات الثورية ، يصبح أى استبدال للسلطة ممكنا ٠ فالضغط الاسلامى فى الجنوب يثير قلق أوروبـا ، والصـين مهددة بحرب أهليـة ٠ ويمكن تصور العـديد من السيناريوهات المتفجرة الأخرى ٠ ومن المؤكد ، أن باقى العالم لن يبقى مكتوف الأيدى ، وهو يرى أوروبا واليابان والولايات المتحدة يتقاسمون الكعكة ، ولكن خبراء الاستراتيجية فى كل من واشنطن وطوكيو وبروكسل وبرلين سيضطرون ، قريبا الى اختيار معسكرهم فى هذه المنافسة الثلاثية الكبيرة على السلطة العالمية ٠

وسيحدد القرار الذى ستتخذه واشنطن (بتبصر أولا) مستقبل باقى العالم ، من الصين الى الاتحاد السوفيتى ، مرورا بالشرق الأوسط وأفريقيا وأمريكا الجنوبية ٠

ما الذى يمكن قوله عن هذا الصراع بين القوى الرأسمالية من أجل السلطة العالمية ؟ ومن سينتصر من هذه القوى الثلاث فى الانتقال الكبير القادم للسلطة الذى يشهده التاريخ البشرى ؟

ان الاجابة على هذا السؤال ، كما سنرى فى الفصل التالى ، هى أننا نطرح سؤالا رديئا ٠

الفصل الرابـع والثلاثون

المصــارعون العالميــون

قد يكون التساؤل عن الأمة التى ستسود العالم فى القرن الحادى والعشرين لعبة مثيرة ، لكنه فى الواقع سؤال ردىء ـ أو على الأقل سؤال لم يحسن طرحه ـ لأنه يهمل قدوم « المصارعين العالميين » ، وهو ما يمكن اعتباره أهم انقلاب منذ تكوين الدولة ـ الأمة ٠

هنالك مجموعة جديدة تبرز وتنطلق بالفعل للانقضاض على عناصر السلطة التى كانت فى السابق وقفا على الدولة ـ الأمة وحدها ٠ بعض هذه الجماعات ايجابية أما البعض الآخر فهو ضار تماما ٠

عـودة الدين :

عندما أهدر آية الله الخومينى ـ المتعطش للدم ـ دم سلمان رشدى ، لأنه اعتبر روايته « آيات شيطانية » تجديفا ، أرسل بذلك رسالة الى كل الحكومات ، وتناقلت الأقمار الصناعية والتليفزيون والصحافة هذه الرسالة على الفور ، غير أن المغزى الحقيقى لهذه الرسالة لم يدرك قط ، بل تم اساءة فهمه كلية ٠

ويمكن بالفعل اثبات أن عمل سلمان رشدى كان فظا ، وأنه أهان المسلمين وسب دينا كاملا وانتهك حرمة القرآن ، الا أن ذلك لا يمثل المغزى الحقيقى لرسالته ٠

لقد أعلن الخومينى بهذه الرسالة أن الدول ـ الأمم لم تعد الممثل الوحيد ولا حتى الرئيسى على الساحة العالمية ٠

بدا الأمر ، خارجيا ، وكأن الخوميني يؤكد أن ايران ، وهي دولة ذات سيادة ، لها « الحق » في تحديد ما يحق لمواطني دول أخرى ذات سيادة أن يقرءوه أو لا يقرءوه · وأنه بادعائه هذا الحق وبالتهديد الارهابي لفرض تطبيقه يدفع الرقابة ، التي كانت دائما قضية داخلية ، الى مصاف الاجراء العــالمي ·

وفي عالم يكتسي فيه الاقتصاد ووسائل الاعلام بعدا عالميا ، يطالب الخوميني بالسيطرة على الأذهان على صعيد عالمي ·

وفي أزمنة أخرى ، ادعت بعض الأديان حقــا مماثلا ، مع احتمال حرق المخالفين في سبيل تطبيق هذا الحق · ولكن الخوميني عندما أطلق تهديدات الاغتيال عبر الحدود ، لم يكتف بمهاجمة مواطن بريطاني وانما تحدى بذلك أكثر الحقوق رسوخا لكل دولة ــ أمة ، ألا وهو حق حماية مواطنيها ·

وكأن الخوميني قد قال ان الدول « ذات السيادة » ليست كذلك اطلاقا وانما هي خاضعة لسيادة عليا ذات تبعية شعبية ، وهو وحده الذي يحددها ، مؤكدا بذلك أن الدين أو الكنيسة لهما سلطات أعلى من سلطات الدولة ــ الأمة ·

انه في الواقع ، يطرح للبحث مرة أخرى كل هياكل القوانين والأعراف الدولية « الحديثة » القائمة ، حتى الآن ، على مسلمة أن الأمم تشــكل الوحدات الأساسية على الساحة الدولية · وتجسد هذه الفرضية كوكبا مقسما بوضوح الى دول لكل منها راية خاصة بها ، وجيش وأراض محددة بدقة ، ومقعد في الأمم المتحدة ، وحقوق محددة بشكل منطقي وعقلاني ·

ولم يكن مجرد صدفة ، أن بدا تصرف الخوميني بالنسبة لباقي العالم كاشارة الى عودة قاسية نحو عصر ما قبل الصناعة · لأن تقديم حقوق الدين على حقوق الدولة ــ الأمة ، يعيد الى الأذهان عقيدة بابوات العصور الوسطى في زمن الحروب الدينية الدامية ·

وتكتسب هذه الظاهرة أهمية قصوى لأننا قد نعود الى النظام الذي كان ساريا قبل عصر التصنيع ، عندما كانت السلطة السياسية غير موزعة بعد بين كيانات قومية محددة بوضوح ·

كان مجتمع ما قبل الصناعة خليطا من دول ــ مدن ، وموانيء تحت سيطرة القراصنة ، وولايات اقطاعية وحركات دينية ، وكيانات أخرى تتنازع السلطة فيما بينها ، وتدعي حقوقا هي حاليا من حق الحكومات وحدها · وكان ما يمكن أن نسميه أمة بالمعنى المقرر حاليا نادرا للغاية ·

وكان النظام ، فى الواقع ، أبعد ما يكون عن التجانس · وعلى النقيض ، ـ كان نظام الدولة ـ الأمة الذى تشكل خلال قرون المجتمع المصنعى أكثر تماسكا وتجانسا بكثير ·

ونعود من جديد الى نظام عالمى أكثر تباينا وأقل تجانسا ، فى عالم متحرك ذى تكنولوجيا متقدمة واتصالات فورية وصواريخ نووية وأسلحة كيماوية · انها قفزة ضخمة تقودنا فى ذات الوقت الى الأمام والى الخلف وتدفع بالأديان من جديد الى مركز المسرح العالمى · الا أن ذلك لا يخص الأصولية الاسلامية وحدها ·

لقد سلكت القوة العالمية المتنامية للكنيسة الكاثوليكية تطورا مختلفا تماما ، حيث لعبت دبلوماسية الفاتيكان دورا مهما فى التغيرات السياسية الأخيرة ، ابتداء من الفليبين الى بنما · أما فى بولندا فقد كسبت الكنيسة الاعجاب الشعبى لمعارضتها العنيفة للنظام الشيوعى ، وأصبحت تمثل قوة مهمة تساند أول حكومة غير شيوعية تحكم البلاد · ويعتقد دبلوماسيو الفاتيكان أن الانقلابات التى وقعت فى أوروبا الشرقية ترجع ، الى حد كبير ، الى مبادرات يوحنا بولس الثانى ·

ويمد البابا يده الى الأديان الأخرى ، فهو ليس متعصبا ، كما أنه يقف ضد العنف العنصرى ، الا أن دعوته من أجل « أوروبا مسيحية » وانتقاداته المتكررة للديمقراطيات الغربية تردد أصداء قرون مضت ·

وتعيد سياسة الفاتيكان الى الأذهان وثيقة منسية منذ زمن طويل ، كانت تتداول فى العواصم الأوروبية فى عام ١٩١٨ ، تدعو الى اقامة دولة كاثوليكية عظمى تضـــم بافاريـــا والمجر والنمسا وكرواتيـــا وبوهيميـــا وسلوفاكيـــا وبولنـــدا · وتشمل أوروبـــا المسيحية هذه (وهى ليست كاثوليكية فقط بالطبع) اجمالى أوروبا حاليا ، من الأورال الى الأطلنطى ، أى حوالى ٧٠٠ مليون نسمة ·

ان مثل هذا التطاول من جانب الدين ، ينتهك المبادىء التى قامت عليها منذ قرون قواعد الديمقراطية فى العالم الصناعى ، وهى القواعد التى تضع مسافة لا يستهان بها بين الكنيسة والدولة · (اذا أصبحت أوروبا مسيحية ولم تعد علمانية ، فما هى مكانة غير المؤمنين أو الهندوس أو اليهود فيها ، فضـــلا عن ١١ مليونـــا من المهاجرين المسلمين الذين تم اجتذابهم الى أوروبا خلال العقود الأخيرة لتأمين عمالة رخيصة ؟ ومع ذلك ، يحلم بعض الأصـــوليين المسلمين ـ طبقـــا لمدير معهد العـــالم العربى فى باريس ـ بجعل العاصمة الفرنسية ، خلال بضع سنوات ، « عاصمة الاسلام كما كانت قديما بغداد أو القاهرة ») ·

وبالتالى ، لا يمكن تحليل بروز السلطات العالمية خلال السنوات القادمة دون أخذ صعود الاسلام والكاثوليكية والأديان الأخرى فى الاعتبار ـ والصراعات والحروب المقدسة التى ستنجم عن ذلك ٠

امبراطورية الكوكايين :

ليست الأديان هى القوة الوحيدة التى تتحدى سلطة الدولة ـ الأمة٠ ففى تحليل للتجارة العالمية للمخدرات كتب جيمس ميلز يقول : « ان الامبراطورية الخفية تملك الآن سلطة وثروات وجاها أكثر من العديد من الدول ٠ قد لا يكون لهذه الامبراطورية علم فى الأمم المتحدة الا أن لها جيشا ووكالات استخبار ودوائر دبلوماسية أقوى بمراحل من دوائر العديد من البلدان » ٠

ان ما فعله كارتل المخدرات من ارهاب وشلل للحكومة فى كولومبيا، بعد أن قلب رأسا على عقب التوازن الاقتصادى للبلاد ، يوضح بما فيه الكفاية أن الجماعات الخارجة عن القانون ـ حتى وان كانت بعيدة عن تجارة المخدرات ـ قد تستطيع أن تفعل الشىء نفسه فى المستقبل القريب ٠

ويمكن قياس التهديد الذى يمثله هذا الكارتل بضخامة أجهزة الأمن التى تم نشرها حول الرئيس بوش ورؤساء بيرو وبوليفيا وكولومبيا أثناء انعقاد القمة المسماة « قمة قرطاجنة لمكافحة المخدرات » ٠ اذ لم تتردد السلطات الكولومبية فى تقديم أسراب طائرات مقاتلة وأسطول سفن حربية ووحدات ضفادع بشرية وفرق لمكافحة الارهاب بالاضافة الى آلاف الجنود ٠ هذه القوات لم تكن موجهة ضد دولة معادية ولكن ضد عصابة عائلية ٠

وتواجه الحكومات صعوبات متزايدة فى مكافحتها لهؤلاء اللاعبين الجدد على الساحة الدولية نظرا لشدة بيروقراطيتها والبطء الشديد لردود فعلها ٠ فهى مرتبطة بالعديد من العلاقات الدولية المتشابكة التى تتطلب مشاورات واتفاقيات مع حلفائها ٠ كما يتعين عليها مواجهة عدد لا يستهان به من جماعات المصالح فى الداخل ، بحيث لا تملك قط ، الوقت اللازم للرد على مناورات بارونات المخدرات أو المتعصبين الدينيين أو الارهابيين ٠

وعلى النقيض من ذلك ، لدى العديد من «المصارعين العالميين» ورجال حرب العصابات وكارتلات المخدرات هياكل غير بيروقراطية بل وسابقة للبيروقراطية ، يرأسها زعيم واحد يتمتع بكاريزما ، ويمكنه التصرف بسرعة كبيرة واحداث نتائج مرعبة وفاجعة ٠ وقد يصعب أحيانا معرفة من

هو الزعيم الحقيقى • وتميل الحكومات الى الهروب من مثل هذه الصراعات المعقدة • فمع من يمكن توقيع اتفــاق ؟ واذا أمكن تحديد هذا الشخص فكيف يمكن ضمان احترام مثل هذا الاتفاق ؟ هل ستستطيع الحكومات اطلاق سراح الرهائن أو ايقاف تدفق المخدرات أو منع الهجمات الارهابية أو أعمال القرصنة ؟

ان القوانين الدولية التى احتوت الفوضى فى السابق ، باتت عاجزة تماما عن معالجة هذه الحقائق العالمية الجديدة •

وفى عــالم مكتظ بالأقمار الصناعية وأجهزة الليزر والكمبيوتر ، والأسلحة المصغرة الحجم والفائقة الدقة ، والفيروسات الكفيلة بمهاجمة قلب النظام الاعلاماتى مباشرة ، فان الأمم كما نعرفها مهددة بأن تجد نفسها أحيانا فى مواجهة أعداء أقوياء ، قدراتهم تفوق قدراتها مليون مرة !

تشتت « الطغــاة » :

اذا كانت الدول عاجزة عن مكافحة الارهاب أو التعصب الدينى ، فانها تجد صعوبة متزايدة فى السيطرة على الشركات الكبرى التى تقوم ، على مهل وبحرية تامة ، بنقل الأموال والفروع والعاملين والتلوث الخاص بها من بلد الى آخر •

لقد شــجع تحرير الأسواق المالية ظهور ونمو الشركات الـ ٦٠٠ العملاقة التى كان يطلق عليها فيما مضى اســم « المتعددة الجنسية » ، والتى تمثل حاليا خمس كل القيمة المضافة للانتــاج الزراعى والصناعى العالمى • الا أن الزمن قد تجاوز الآن تعبير « متعددة الجنسية » ، فالشركات العملاقة عديمة الجنسية أساسا •

حتى وقت قريب ، كانت الشركات متعددة الجنسية « تنتمى » لبلد أو آخر حتى وان زاولت نشاطها فى العالم كله • كانت « آى • بى • ام » بداهة شركة أمريكية • أما فى عصر النظام الجديــد لخلق الثروة ومع ارتبــاط شركات ، من العديــد من البلدان ، فى شــكل « كونسرتيوم » أو « تجمع للمنتجين » يصبح من العسير تحديد جنسية شركة ما • فشركة « آى • بى • ام ــ يابان » تعتبر شركة يابانية من العديد من الجوانب ، كما تملك فورد ٢٥ ٪ من أنصبة مازدا • وتنتج هوندا سيارات فى الولايات المتحدة وتصدرها الى اليابان • وتعد جنرال موتورز أكبر حامل أسهم فى شركة ايزوزو • ويؤكد مستشار الادارة كنيشى أوهماى ذلك قائلا : « من الصعب تحديد جنسية [•••] أية شركة عالمية • فكل هذه الشركات ترفع علم عملائها وليس علم بلدها الأصلى » •

ما هي « جنسية » فيزا انترناشيونال ؟ يقع المقر الرئيسى للشركة فى الولايات المتحدة ولكنها ملك لـ ٢١ ألف مؤسسة مالية موزعة فى ١٨٧ بلدا ، ومجلس ادارتها ومجالسها الاقليمية منظمة بطريقة لا تسمح اطلاقا لأية دولة أن تملك ٥١ ٪ من الأصوات ٠

ويمكن ، مبدئيا ، أن تنتقل ملكية شركة ما من بلد الى آخر بين عشية وضحاها ، نظرا لعمليات اندماج الشركات والاستيلاء على مقاليد السلطة فيها وزيادة رأس المال على الصعيد الدولى ٠ ومن ثم تغدو الشركات الكبرى لا جنسية لها بشكل متزايد أو عبر قومية ، فهى تستمد رؤوس أموالها وقادتها من بلدان مختلفة ، وتخلق فرص عمل وتوزع أرباحها فى عدد كبير من الدول ٠

ان مثل هذه الانقلابات تضطرنا الى اعادة التفكير فى مفاهيم ، محملة بمدلولات عاطفية ، مثل القومية الاقتصادية والاستعمار الجديد أو الامبريالية ٠ على سبيل المثال ، يعتقد سكان أمريكا اللاتينية أن الامبريالية « اليانكية » (الأمريكية) تستخلص « أرباحها الفائقة » من بلادهم ٠ ولكن اذا تم توزيع « الأرباح الفائقة » المستخلصة من عملية فى المكسيك ، بين مستثمرين موزعين بين اليابان وأوروبا الغربية والبرازيل مثلا (بل والصين ذات يوم) فمن ، فى هذه الحالة ، سيكون الامبريالى ؟

ما الذى يحدث عندما يكون المقر الرئيسى لشركة ما فى ماكاو أو كوراساو وحملة أسهمها موزعين بين ما لا يقل عن عشر دول ، ويتم تبادل هذه الأسهم فى ست بورصات ، من بومباى الى سيدنى ومن باريس الى هونج كونج ؟ وعندما يكون المستثمرون المؤسسيون أنفسهم عبر قوميين ؟ وعندما يكون المديرون قادمين من العالم كله ؟ عندئذ من يكون « الطغاة الامبرياليون » ؟

لقد أصاب الاضطراب كل العلاقات بين الشركات العالمية والحكومات نتيجة هذا الفقدان للهوية القومية ٠ وفى السابق كان قادة الدول ، التى تنتمى لها هذه الشركات ، يشجعون مصالحها فى الاقتصاد العالمى بل ويمارسون ضغوطا دبلوماسية لخدمة أهداف هذه الشركات ٠ وفى كثير من الأحيان كان القادة يلوحون ، عند الضرورة ، بالتهديد بعمل عسكرى (أو يقومون به فعلا) لحماية استثماراتها والعاملين لديها ٠

ففى بداية السبعينات ، عملت إل « سى ٠ آى ٠ ايه » بنشاط لزعزعة حكومة الليندى فى شيلى بناء على طلب « آى ٠ تى ٠ تى » ٠

وشركات أمريكية كبرى أخرى · وفى المستقبل ، ستكون الحكومات أقل نشاطا وهمة فى الاستجابة لرغبات الشركات التى لن تكون قومية ولا دولية وانما عبر قومية ·

اذن ، ما الذى سيحدث اذا ما هـــدد ارهابيون أو رجال عصابات أو دول معادية ، تجهيزات ومعدات احدى كبرى الشركات عبر القومية أو العاملين لديها ؟

وممن ستطلب العون فى هذه الحالة ؟ وهل ستكتفى هذه الشركة بأن تقطع علاقاتها بلطف مع مستثمريها ؟

مرتزقــة الصــناعة :

ان القوة العسكرية ، هى عنصر السلطة الوحيد الذى تمتلكه الدولة ـ الأمة ولا يمتلكه « بعد » الطامحون الآخرون للسلطة · ولكن اذا فشلت الدول والقوى الدولية الأخرى فى فرض النظام ، فمن المحتمل تماما أن يــأتى اليوم الذى تقرر فيه الشركات عبر القومية ، أن الوقت قد حــان لتشكيل ألويتها الخاصة ·

مهما بدا ذلك غريبا ، فهناك سوابق تاريخية لذلك · فلم يكن سير فرنسيس دراك يحارب فقط السفن الأسبانية المتخمة بالفضة ، وانما المدن على امتداد سواحل المحيط الهادى لأمريكا الجنوبية والوسطى والمكسيك أيضا ، وبتمويل من مستثمرين خاصين ·

هل يكون أمرا منافيا للواقع تصور « نسخة تناسب القرن الحادى والعشرين » من قادة المرتزقة الايطاليين ؟

يصف الروائى ألفريد كوبل هــذا الموقف بالتحديد ، فى روايته « لواء نهاية العالم » ، حيث تشكل شركة بترولية عملاقة جيشا لحماية آبارها ضد تهديد باضراب تصاحبه أعمال عنف · لقد تصرفت الشركة بهذا الشكل لأنها لم تنجح فى الحصول على حماية الحكومة لمصالحها ·

ومهما بدا هذا السيناريو مبالغا فيه فانه يمثل نوعا من المنطق · ان عجــز الدول عن وقف الارهاب ، بالرغم من كل قوتها العســكرية ، اضطر الشركات الكبرى أن تتولى الأمور بنفسها وتستخدم سائقين مدربين وحرسا خاصا وخبراء فى الأمن ·· الخ · فعندما احتجزت ايران بعض العاملين لدى الملياردير روس بيرو كرهائن ، قرر الأخير استخدام جنود سابقين فى سلاح المظلات الأمريكى لاطلاق سراحهم · ولا تبقى سوى خطوة صغيرة للوصول الى تشكيل قوات من المرتزقة ·

الأمـم المتحـــدة + :

من الواضح أننا ننطلق مباشرة نحو الفوضى ، اذا لم تسجل كتابة قواعد دولية جديدة وتتشـكل مؤسسات تهدف الى فرض احترام هذه القواعد ، أو اذا لم يمثل فيها « المصارعون العالميون » أمثال الشركات عبر القومية ، والأديان والقوى المماثلة الأخرى ٠

وستتولى المؤسســات العـالمية الجديدة مسئولية الاقتراحات التى تهدف الى تسوية مشكلات البيئة ومراقبة التسلح والقضايا المالية وقضايا السياحة والاتصالات اللاسلكية ، كذلك المشكلات الاقتصادية الاقليمية ٠ ولكن هل ستسيطر على هذه المؤسسات الدول ـ الأمم وحدها ؟

كلما قلت استجابة الحـكومات القوميـة والمنظمات بين الحـكومية لاحتياجات الشركات عبر القومية ، طالبت هذه الشركات بمشاركة مباشرة فى المؤسسات العالمية وقل استعدادها لعدم التدخل ٠

وليس من الصعب تخيل انشاء مجلس عالمى للشركات عبر القومية يهدف الى التعبير عن موقف هذا النوع من الشركات ، ويوازن دور الدول ـ الأمم ٠ كما قد تطالب الشركات الكبرى بأن تمثل داخل المؤسسات الدولية مثل الأمم المتحدة أو البنك الدولى والجات ٠

ونظرا لتنوع «المصارعين العالميين » وقوتهم المتنـامية ، قد تضطر الأمم المتحدة ، التى هى حتى الآن مجرد كونسرتيوم للدول ـ الأمم ، الى منح حق التمثيل لغير الدول (وهو تمثيل يتجاوز الدور الاستشارى والرمزى المحض الممنوح حاليا لبعض المنظمات غير الحكومية) ٠

وبدلا من المبدأ القائل بأن لكل دولة صوتا واحدا ، قد تضيف الأمم المتحدة ، عند الضرورة فئـــات جديـدة لتمثيـل الشركات عبر القومية والمجموعات الدينية وكيانات أخرى ، وهو ما يوسع بشكل كبير قاعدة هذه الكيانات عالميـا ٠ واذا رفضت الدول ـ الأمم العـاملة داخل الأمم المتحدة توسيع تمثيل هذه المجموعات ، فقد نشهد انشاء منظمات دولية مضادة ، خاصة مع توالى تدعيم وتكاثر الشركات عبر القومية ٠

وسواء برهن المستقبل على صحة هذه التأملات أم لا، فان « المصارعين العـالميين » الجـدد ـ شركات أو مجرمين أو جماعـات دينية أو آخرين ـ تتقاسم « فعلا » السلطة مع الدول ـ الأمم ٠

الأسلوب الجديد للمنظمات العالمية :

ترتبط الاجابة على السؤال : ما اذا كان يتعين تمثيل هؤلاء « المصارعين » أم لا داخل المؤسسات الدولية ؟ ارتباطا مباشرا بمفهوم المنظمات الجديدة التى ستحتل الساحة الدولية · ويواجه مهندسو النظام العالمى الجديد قضية جوهرية ، ألا وهى : هل يتعين أن تكون الهياكل الجديدة رأسية أم الأفضل أن تكون أفقية ؟

نجد مثالا لذلك فى الهيكل الرأسى لتنظيم الجماعة الأوروبية التى يبدو أنها تريد اقامة حكومة أعلى · وطبقا للمناهضين لها ، فان هذه الحكومة ستختزل وضع الدول ذات السيادة للبلدان الأعضاء الى وضع الولايات ، وذلك بممارسة سيطرة فوق قومية على النقود والنظام المصرفى ومعايير التعليم وحماية البيئة والزراعة بل وحتى الميزانيات القومية ·

ويحاول هذا النموذج الرأسى حل المشكلات باضافة درجة للتسلسل الهرمى للسلطة · انه بنية مؤسسية « رأسية » ·

وفى الجانب المقابل ، يوجد نموذج آخر مطابق لأشكال التنظيم الجديدة السائدة فى عالم الأعمال والاقتصادات المتقدمة ، التى تتجه جميعها الى « تسطيح » هذا التسلسل الهرمى · ويعتمد هذا النموذج على شبكات تحالفات وكونسرتيومات ووكالات متخصصة فى شئون الضبط والتنظيم ، تعمل معا لتحقيق أهداف شديدة الطموح بالنسبة لدولة واحدة · ولا يوجد فى ظل مثل هذا النظام تسلسل مستويات ، كما لا يتم تجميع الوكالات المتخصصة تحت سلطة هيئة مركزية غير متخصصة، انما يتعلق الأمر ببنية « مسطحة » مثل « الشركة المرنة » ·

ويراقب العالم كله باهتمام ، تطورات الجماعة الأوروبية التى غالبا ما تعتبر النموذج الوحيد الموجود للتنظيم الاقليمى ، هناك مشروعات على غرار الجماعة الأوروبية ، ولكن على مستوى أصغر ، قد ترى النور ، فى المغرب والشرق الأوسط وكذلك فى الكاريبى والباسفيكى · ولكن قد يكون التناول الأكثر ثورية ، هو تضامن مختلف المنظمات القائمة بالفعل فى هذه المناطق ، دون فرض هيئة رقابة وسيطرة جديدة عليها · والشىء نفسه يمكن تنفيذه بين الأمم ·

ترتبط اليابان والولايات المتحدة مثلا ارتباطا وثيقا على الصعيد الاقتصادى والسياسى والعسكرى ، بحيث يؤثر أى قرار يتخذ فى احداهما تأثيرا مباشرا فى البلد الآخر · وفى وضع كهذا ، قد لا يكون بعيدا ذلك اليوم الذى تطالب فيه اليابان بتمثيلها فى الكونجرس الأمريكى ، وفى

هذه الحالة ستطالب الولايات المتحدة بتمثيل متكافىء فى الدايت اليابانى ٠ وبالتالى نشهد بداية انتشار البرلمانات « بين القومية » ٠

فالديمقراطية تفترض حق من يتأثر بقرار ما ، أن يعبر عن رأيه فى اتخاذ مثل هذا القرار ٠ واذا كان الأمر كذلك ، فانه يتعين تمثيل العديد من الأمم فى الكونجرس الأمريكى ، لأن قراراته تؤثر مباشرة على حياتها أكثر من قرارات قادتها أنفسهم ٠

فكلما أصبح العالم عالميا ، وكلما انتشر النظام الجديد لخلق الثروة، تتزايد متطلبات المشاركة السياسية بين ـ الدولية ـ بل وحق الاقتراع بين ـ الدولى ، بالنسبة لعدد كبير من السكان الذين سيشعرون أنهم مستبعدون عن القرارات التى تؤثر على وجودهم ٠

وأيا كانت أشكال المنظمات العالمية فى المستقبل ، يتعين عليها أن تولى اهتماما لتأثيرات « المصارعين العالميين » ، سواء أكانت سلبية أم ايجابية ٠

ولكن ، الى أى مدى يجب أن يتم تمثيل الجماعات الدينية والشركات والنقابات عبر القومية ، والأحزاب السياسية وحركات حماية البيئة والمنظمات الانسانية وهيئات المجتمع المدنى الأخرى ، داخل مؤسسات المستقبل العالمية ؟

وكيف يمكن الحفاظ على الفصل بين الكنيسة والدولة على مستوى العالم ، لتفادى حمامات الدم والقمع التى غالبا ما تنجم عن اختلاطهما ؟ وما السبيل الى عزل الارهابيين والمجرمين ودعاة الحرب وبارونات المخدرات ؟ وما هو الصوت الشرعى الذى ستحصل عليه الأقليات المقهورة فى بلادها ، على الصعيد العالمى ؟ وما هى الصواريخ الدفاعية أو الأسلحة الكيميائية التى يتعين أن تكون اقليمية أو عالمية ، ولا تخضع لسلطات قومية محضة ؟

لا يستطيع أحد أن يعطى اجابات فاصلة لمثل هذه الأسئلة الحساسة بالرغم من أنها تتناول المستقبل القريب ٠ قد تبدو هذه الأسئلة ذاتها غريبة فى عالم يعتقد أنه لازال منظما حول الدول ـ الأمم ٠ ولكن ، فى فجر المجتمع الصناعى ، لم يكن هناك ما هو أغرب ولا أخطر ولا أكثر تطرفا من أفكار الثوريين الفرنسيين والانجليز والأمريكيين ، الذين كانوا يعتقدون أنه يتعين على الشعب والبرلمان مراقبة الملوك والسيطرة عليهم وليس العكس ، وأن غياب التمثيل الشعبى هو مصدر التمرد والثورة ٠

وستثير مثل هذه الأفكار ، خلافات محمومة فى العديد من البلدان على خلفية من الشعور الوطنى . ففى نهاية القرن الماضى ، كان شارل موار الكاتب الفاشستى الفرنسى يردد وجهة نظر شعبية مفادها « ان الاستقلال الوطنى هو أثمن الحريات الانسانية » . الا أن السيادة والاستقلال المطلقين لم يوجدا الا فى الأساطير والأوهام .

ان البلدان التى تستطيع أن ترفض تماما النظام الجديد لخلق الثروة قد تتفادى أن تجد نفسها منضمة للاقتصاد العالمى الجديد . ولكن من لا تربطه علاقة بباقى العالم ، سيجد نفسه يوما ما لا محالة ، مشدودا الى التبعية المتبادلة للنظام العالمى ــ وهو النظام الذى لا تقوده الأمم وحدها وانما « المصارعون العالميون » الجدد الأقوياء يشاركونها القيادة .

اننا نشهد عملية انتقال للسلطات بين الدول ــ الأمم (فرادى أو مجتمعين) والمصارعين العالميين . وهو ما يعني حدوث ثورة عالمية فى النظم السياسية .

كما ستزداد حدة عدم التجانس المتنامى للنظام العالمى فى حالة تفتت الدول العملاقة ، وهو ما يبدو محتملا تماما فى الوقت الراهن . فالاتحاد السوفيتى يتفكك سريعا ، ويحاول جورباتشوف ، قدر المستطاع، الحفاظ على نوع من التماسك فى اطار يتحطم . وستنفصل بعض العناصر، بعد فترة لن تطول ، وتتخذ أشكالا غريبة خلال العقود القادمة . وسواء ظلت جزءا من الاتحاد السوفيتى السابق أم لا ، فان بعض المناطق ستنجذب ولا مفر الى المدار الاقتصادى الأوروبى الذى تسيطر عليه ألمانيا . أما البعض الآخر فقد ينجذب الى فلك آسيا الوليد ذى التأثير اليابانى .

كما قد تتجمع الجمهوريات المتخلفة المعتمدة أساسا على الزراعة واستخراج المواد الأولية فى نوع من الاتحاد الحر . ولكن قد تتلاشى الاعتبارات الاقتصادية العقلانية أمام موجة من الصراعات العنصرية والدينية ، مما قد يؤدى الى اندماج أوكرانيا وروسيا وروسيا البيضاء فى تجمع كبير قائم على الثقافة السلافية والكنيسة الأرثوذكسية ، بعد أن تكون قد استعادت نشاطها وقوتها . ومن ناحية أخرى ، يمكن أن يقوم الاسلام بتجميع بعض جمهوريات آسيا الصغرى .

وقد تتفكك الصين هى أيضا ، فتحطم مناطقها الأكثر تصنيعا فى الجنوب والشرق روابطها مع الصين الزراعية ، لتقيم كيانات جديدة مع هونج كونج وتايوان وسنغافورة ، بل وكوريا بعد توحيدها . وسينتج ،

فى هذه الحالة ، تجمع اقتصادى كونفوشى ضخم ليواجه صعود اليابان ، ويدعم فى الوقت نفسه دور العامل الدينى كمحدد أساسى للنظام العالمى الجديد ٠

ان الاعتقاد بأن مثل هذه التحولات يمكن أن تحدث بدون حرب أهلية أو صراعات أخرى ، أو أنها يمكن أن ترتسم فى الاطار البالى للنظام العالمى القائم على الأمم ، يعد علامة على نقص فاضح فى التخيل والتوقع ٠ ويظل الشىء الوحيد الأكيد هو أن عالم الغد سيفاجئنا جميعا ٠

ومع ذلك ، بات من المعترف به فعلا ، أن انتشار النظام الجديد لخلق الثروة على امتداد الكرة الأرضية ، فى طريقه لاحداث انقلاب فى مفاهيمنا عن التنمية الاقتصادية فى « الجنوب » المزعوم ٠ كما سيفجر الاشتراكية فى « الشرق » ويقذف بالحلفاء فى منافسة محمومة ٠ ومن ثم فهو يتطلب نظاما عالميا مختلفا جذريا عن العالم الذى نعرفه ، نظام أكثر تنوعا وأقل استقرارا ومحملا بقدر متساو من الآمال والمخاوف ٠

لقد قلبت المعرفة الجديدة العالم الذى كان مألوفا لنا ، وزعزعت أعمدة السلطة التى كانت تسمح له بأن يظل قائما ٠ وفى مواجهة أطلاله ، نجد أنفسنا معا عند خط البداية مستعدين مرة أخرى لاقامة حضارة جديدة ٠

الخـــلاصة

حــرية ونظــام وصــدفة

لقد حللنا فى هذا الكتاب احدى أهم الثورات فى تاريـخ السلطة ـ انه انقلاب يعيد تشكيل كوكبنا تماما • لقد تم ، خلال الأجيال السابقة، تخصيص آلاف الدراســـات للثورات التكنولوجية والاجتماعية والبيئية والثقافية ، الا أن القليل منها نسبيا حرص على تحليل تحول طبيعة السلطة ذاتها ، وان كان يتفرع من هذا التحول العديد من التغيرات الأخرى •

كما رأينا أيضا كيف أن السلطة فى طريقها لأن تنقلب على جميع الأصعدة ، ابتداء من عالم الأعمال الى الدوائر الحكومية والعلاقات الدولية •

ان السلطة هى احدى أكثر الظواهر الاجتماعية جوهرية والمرتبطة بطبيعة عالمنا ذاتها •

لمدة تزيد عن ثلاثة قرون ، صور العلم الغربى العالم كساعة أو آلة عملاقة ، حيث تؤدى الأسباب المعروفة الى نتائج متوقعة • وطبقـا لهذا التحليل الحتمى ، يكون العالم اذن كيانا كامل التنظيم ، وبمجرد أن يبدأ فى العمل يبرمج مسبقا كل الأفعال القادمة •

اذا كان هذا الوصف للعالم صحيحا لكنا جميعا عاجزين تماما • لأنه طالما كانت الظروف والشروط الأصلية لأية عملية هى التى تحدد نتيجتها ، فان أى تدخل انسانى لا يستطيع تعديل هذه النتيجة • وفى عالم ـ آلة تم تشغيله « بمحرك أولى » ـ سواء أكان هذا المحرك ربانيا أم لا ـ لا توجد سلطة لأحد على أى شىء أو أى فرد ، وانما وهم سلطة فى أحسن الأحوال •

باختصار ، تعتمد السلطة اذن على الفجوات الكائنة فى السلسلة السببية ، وعلى أحداث غير مبرمجة مسبقا • بمعنى آخر ، تخضع السلطة لوجود الصدفة فى الكون وفى السلوكيات البشرية •

غير أن السلطة لا يمكنها أن تعمل فى عالم مبنى كلية على الصدفة • فالأحداث والسلوكيات اذا كانت معزوة دائما الى الصدفة ، فانها لن تتمكن من فرض أى نوع من الارادة • لأنه بدون قدر من النمطية والانتظام ، أو أية درجة من القدرة على التنبؤ والتوقع ، ستفرض الحياة علينا دائما اختبارات صدفوية ذات عواقب صدفوية أيضا ، مما يجعلنا أسرى القدر •

ان السلطة تفترض اذن عالما يجمع بين الصدفة واللزوم ، بين النظام والفوضى •

ولكن السلطة مرتبطة أيضا بطبيعة الأفراد ومزاجهم ، وبدور الحكومة وبالدولة بشكل أعم •

وبالتالى ، يتقاسم كل واحد منا فى آن واحد ، احتياجا لا يقهر لحد أدنى من النظام فى الحياة اليومية ، ورغبة دائمة فى التجديد • ان الاحتياج الى النظام هو الذى يمثل التبرير الأساسى لوجود الحكومات •

منذ « عقد روسو الاجتماعى » ونهاية النظام الملكى ذى الحق الالهى ، تعتبر سلطة الدولة ناجمة عن عقد أبرم مع الشعب - عقد يضمن النظام الضرورى للمجتمع أو يعمل على توفيره • ويقال لنا انه بدون الجنود والشرطة وجهاز سيطرة الدولة ، لسيطرت عصابات المجرمين على الشارع، ولمزقت عمليات النهب والسرقة والاغتصاب والقتل آخر بقايا « طلاء الحضارة » الرقيق •

ويصعب دحض هذا التأكيد • ففى الواقع ، لدينا الدليل القاطع على أنه فى غياب ما وصفناه آنفا بالسلطة الرأسية - أى النظام المفروض من أعلى - سرعان ما تصبح الحياة لا تطاق • ولتسألوا سكان مدينة بيروت ، التى كانت رائعة ذات يوم ، عن معنى أن يعيش المرء فى مكان لا يملك فيه أحد السلطة الكافية لكى يحكم !

ولكن ، اذا كانت الوظيفة الأولى للدولة هى تأمين « النظام » ، فهل يجب أن يكون لهذا النظام حدود ؟ وهل يتغير ذلك عندما تتبنى المجتمعات طرقا جديدة لخلق الثروة ؟

عندما تفرض دولة ما يدا حديدية على الحياة اليومية ، بحيث تحظر أى نقد ، ويعيش المواطنون فى رعب ، وتفرض رقابة على المعلومات وتغلق المسارح وتصادر جوازات السفر ، ويطرق رجالها الأبواب فى الفجر لينتزعوا الأهل من بيوتهم أمام أبنائهم الباكين ، يجىء السؤال : من المستفيد من هذا « النظام » ؟

هل المواطن الذى يحتاج الى حد أدنى من النظام ، أم الدولة ذاتها التى تحمى بذلك نفسها ضد أية معارضة ؟ ومتى يوفر النظام الاستقرار الضرورى للاقتصاد ومتى يعيق التنمية الضرورية ؟ وعلى حد قول ماركس هنك نوعان من النظام : نظام « ضرورى اجتماعيا » ونظام « غير ضرورى أو زائد » ·

ان النظام غير الضرورى يتجاوز النظام الضرورى الذى تفرضه مصلحة المجتمع ، ولا يخدم سوى مصالح الذين يسيطرون على الدولة · وهو بالتالى نقيض النظام الضرورى اجتماعيا · والحكم الذى يفرض على مواطنيه ، نظاما غير ضرورى ، يحرم نفسه من أى تبرير لوجوده ، طبقا لعقد روسو الاجتماعى ·

كما أنه يفقد ما يسميه كونفوشيوس « تفويض السماء » · هذا بالاضافة الى أن مثل هذا الحكم لا يملك حاليا ، فى عالم متبادل الارتباط والتبعية ، أى تبرير أخلاقى · وفى ظل النظام الجديد الذى يقام حاليا ، فان هذا النوع من الحكم لا يجر على نفسه ادانة الرأى العام العالمى فقط ، وانما عقوبات الحكومات ذات الشرعية الأخلاقية أيضا ·

ان الادانة العامة لمذابح عام ١٩٨٩ فى بكين ـ موجة من الانتقادات فى الولايات المتحدة والجماعة الأوروبية واليابان وفى أغلب الدول الأخرى ـ ظلت بالرغم من كل شىء ادانة على استحياء · لقد أخذ كل بلد فى الاعتبار مصالحه الاقتصادية فى الصين قبل اعلان موقفه · وأرسل الرئيس الأمريكى على الفور بعثة سرية الى بكين لتهدئة العلاقات المضطربة بين البلدين ·

غير أن العالم كله عبر عن اعتراضه على الشرعية الأخلاقية «لمتشددى » النظام ـ بالرغم من الانتهازية والنفعية السياسية ـ وصرخ بقوة كافية لكى تصل رسالته : أنه يعتبر الموقف الاجرامى لحكومة بكين محاولة لفرض نظام زائد وغير ضرورى ·

وردت بكين حانقة بأنه ليس من حق أى أحد فى العالم التدخل فى شئوونها الداخلية وأنه يمكن تفنيد أخلاقيـة هذه الانتقـادات • الا أن تفضيل عدد كبير من البلدان التعبير عن موقفه - حتى وان كانت سياسة هذه البلدان ذاتها تتعارض مع الرأى المعلن - يثبت ان الرأى العام العالمى يزداد ترابطا ، ويقل بشكل مطرد تحمله لوجود نظام زائد وغير ضرورى •

واذا صح ذلك ، فان هناك سببا مستترا يفسره •

ان العنصر الثورى الجديد - الانقـلاب الذى خلقه النظام الجديد لخلق الثروة - يمثل تحولا لمستوى النظام الاجتماعى الضرورى • فكلما تقدمت الأمم فى طريق الاقتصاد فائق الرمزية ، احتاجت لعمليات ضبط وانضباط ذاتية أفقية ، وقل ارتكازها على سيطرة هرمية التسلسل من أعلى الى أسفل • وبشكل أبسط تعيق الشمولية النمو الاقتصادى •

ان طلبة الطيران يتشبثون عادة بأجهزة قيادة الطائرة ، وينصحهم معلموهم بأن يرخوا قبضتهم قليلا • فالافراط فى السيطرة لا يقل خطورة عن نقصها • والدولة التى تحاول حاليا فرض سيطرة مبـالغ فيها على شعبها واقتصادها ، تخرب ، فى الواقع ، النظام الذى تسعى لتحقيقه • وخير دليل على ذلك الأزمة التى يمر بها الاتحاد السوفيتى وبلدان أخرى • وعلى النقيض تماما ، يمكن للدولة الأقـل قمعا أن تحصل على المزيد من النظام ، وتدعم بذلك سلطتها ذاتها •

ويعد هذا العنصر - يعد فقط - الشموليين بأيام صعبة وسيئة • ولكن هناك العديد من العناصر المتداخلة الكفيلة بأن تجعل السماء غائمة ، وتمنعنا من السقوط فى تفاؤل ساذج •

ان من تابعوا قراءتهم حتى هذه السـطور يعرفون أن هذا الكتاب لا يعدهم بوعود طوبائية • فاستخدام العنف ، كشكل من أشكال السلطة، لن يختفى قريبـا • وسيتعرض الطلبة والمحتجون للقتل من جديد فى « الميدان السماوى » فى جميع أنحاء العالم • وستواصل الجيوش اجتياز الحدود • وستلجأ الحكومات للقوة عندما ترى أن ذلك يخدم خططها ، ولن تتخلى الدولة عن البندقية •

كما أن السـيطرة على ثروة ضـخمة ، سواء بين أيـدى الأفراد أو الموظفين الحكوميين ، ستمنح دائما سلطة ضخمة • وسيظل المال دائما أداة سلطة رائعة •

ومع ذلك ، وبالرغم من كل الاستثناءات والتناقضات والتداخلات ، فاننا نشهد أحد أهم التحولات فى تاريخ السلطة ٠

لقد أصبح بدهيا أن المعرفة تزداد أهمية بمعدل واحد على مليار من الثانية ، فهى مصدر لسلطة ذات نوعية أفضل ٠

السلطة اذن ، لا تنتقل من شخص أو حزب أو مؤسسة أو بلد الى آخر ، وانما تلك العلاقة الخفية بين العنف والثروة والمعرفة هى التى فى طريقها للتحول فى الوقت الذى تتدافع فيه المجتمعات نحو عالم الغد ٠

ذلك هو الغموض الخطر لعصر تحول السلطة ، ولكن كم هو مثير هذا الغموض ! ٠

تعقيب على الكتاب

بقلم : محمد سيد أحمد

لألفين توفلر ثلاثية من كتب ثلاثة ، « تحول السلطة » Powershift هو الكتاب الأخير في المسلسل ٠٠ وقد افتتحه بكتابه « صدمة المستقبل » « Future Shock » ، الذى أحدث صدمة بالفعل ، وأراد به المؤلف تأكيد أن المستقبل لن يكون مجرد امتداد للماضي والحاضر ، وانما سوف يصدمنا بطفرات سـوف تصيبنا بالدوار ، وهو مستقبل لا مهرب من محاولة استشرافه ، وامعـان النظر فيه ، منذ الآن ٠٠ هذا الكتـاب الأول فى المسلسل ، ألفه توفلر منذ ربع قرن تحديدا ٠

وكان عنوان الكتـاب الثانى فى الثلاثيـة « الموجـة الثـالثة » The Third Wave ٠٠ عرض فيه توفلر نظريته عن تعرض الحضـارة البشرية ، عبر تاريخها ، لموجات كبرى ثلاث ٠٠ تعلقت الأولى باكتشاف الزراعة ، مما مكن القبائل الرحل من أن تستقر فى قرى وفى مدن ٠٠ وكانت الثورة الصناعية هى الموجة الثانية ، التي أفرزت الدولة الصناعية الحديثة ٠٠ وأما الموجة الثـالثة ، فانهـا موجة تكنولوجيا الحواسيب Computers والاتصالات عن بعد Telecommunications ، وشأنها احداث تغيير شامل فى الاقتصاد العـالمى ، كما أنها ذات آثار سياسية واجتماعية بعيدة المدى ، لن تقل خطورة عن تلك التى أنتجتها الموجتان الأولى والثانية ٠

والحقيقة أن توفلر لم يكن مكتشف هذه الموجة الثالثة ، موجـة « المعلوماتية » Informatics ٠٠ فلقد بدأت منذ نصف قرن فى أعقاب الحرب العالمية الثانية مباشرة ، بفضل نجاح جامعة بنسلفانيا فى صنع أول حاسوب الكترونى ٠٠ ورغم أن هذا الحاسوب قد بلغ حجم عمارة من طوابق متعددة ، فان قوته لم تكن تتجاوز حاسبة Calculator يمكن ابتياعها الآن بأقل من عشرين جنيها ! ٠٠

لقد ألف توفلر « تحول السلطة » الذى اختتم به ثلاثيته عام ١٩٩٠ ٠ أى منذ ٥ سنوات ٠٠ والكتاب خلاصة لنظرياته عن المستقبليات فى عصر تتتالى فيه الأحداث بسرعة مذهلة ، وفى صورة متوالية هندسية ٠٠ والجدير

بتسجيله أن « شبكة الشبكات » الالكترونية ، ما أصبح يعرف اليوم بـ Internet ، وهو الرمز الحى لثورة المعلومات فى عصرنا ، لم يرد له ذكر قط فى كتاب توفلر ، ذلك أنه لم يكن قد اكتشف بعد ، منذ ٥ سنوات فقط ! ·· ومع ذلك ، علينا أن نسلم بأن توفلر قد لمس فى كتابه جوهريات « الفكر المعلوماتى الجديد » ، وطرح نهجا فى استكشاف معالم ثورة المعلوماتية ، يعتبر أول محاولة جامعة لاعطاء صورة اجمالية عنها ·

ان كثيرا مما يجرى التركيز عليه اليوم لم يكن مكتشفا ولا متصورا وقت أن ألف توفلر كتابه ·· لم تكن مطروحة وقتذاك التكنولوجيات اللاسلكية الرقمية Digital Wireless Technologies ·· ولم تكن قد اكتشفت بعد الهـواتف الخلوية Cellular Telephones التى أصبحت تنتشر الآن بسرعة البرق ، وأصبحت تكفل التلاقى والتداخل بين تكنولوجيات الاعلام وتكنولوجيات الاتصال عن بعد ، وهو تلاق يجد تعبيره الأوضح فى « الانترنت » ·· ومع ذلك ، فان ثلاثية توفلر — وبالذات « تحول السـلطة » — قد طرحت جوهريات الفكر المعلوماتى ، رغم كل النواقص الناجمة عن سرعة الاكتشافات فى هذا المجال ·· وهكذا افتتحت نهجا جـديدا فى التفكير ·· وكانت أول محاولة جادة لاستشراف علـم المستقبليات فى خصوصية ظروف نهاية القرن العشرين ··

والجدير بالملاحظة أن مؤلفات توفلر ليست نظريات وحسب ، وانما هى أيضا محاولة جامعة لاستكشاف الجديد فى مجالات الاقتصاد ، والتطور العلمى ، والتكنولوجيا ، والانتاج ، خاصة فى المجتمعات البالغة التقدم التى أصبحت توصف بمجتمعات « ما بعد الحداثة » Post-Modernist . انها محاولة جريئة لتصنيف هذا الجديد ، وتفسيره ، وتقييمه ، واستخلاص ما يفرزه من مستجدات لم تكن مطروحة من قبل ·· ان توفلر يجمع ما بين صفات المراقب المدقق للانجازات العلمية والتكنولوجية ، وأيضا المتحولات الاجتماعية والاقتصادية الناجمة عنها ، وصفات المحلل القادر على اكتشاف أنماط جديدة مستمدة من دراسة هذه التحولات البالغة التعقيد والحداثة ·

ومن هنا أهمية الجهد الذى بذلته لبنى الريدى فى ترجمـة كتـاب « تحـول السـلطة » الى اللغة العربية ·· فقد يكون من قوانين الثورة المعلوماتية أن التطورات فيها تجرى بسرعة المتوالية الهندسية ، ولكن لا يعنى ذلك أن نهج التعامل مع هذه الثورة ينقلب رأسا على عقب كل بضعة أعوام ، بسبب سرعة التحولات ·· لقد كان لألفين توفلر الفضل فى ارساء أسس لهذا النهج ، ومن هذه الوجهة ، فان كتابه « تحول السلطة » لا يشوخ ولا يهرم ، بل يحتفظ بشبابه وحيويته ، بصفته علامة

طريق بارزة فى تكشف أسرار عالم جديد ما زلنا نتكشف له كل يوم أبعادا جديدة ··

وصحيح أن لدينا دعاة لهذا الفكر ·· ولكن علينا أيضا أن نسلم بأن هذا الفكر ، وهذا النهج فى التفكير ، لم يعمم كما ينبغى ·· وقد نجد من يقول ان الفكر المرتبط بالثورة المعلوماتية ، هو فكر أريد به اكسابه صفة أيديولوجية بعد سقوط الأيديولوجيات ، وفى عصر أصبح الكثيرون فيه يطرحون تكنولوجيات المستقبل بصفتها كفيلة بأن تحل محل الأيديولوجيات ·· وهذا أمر ينطوى على خلط والتباس ·· فان التكنولوجيا توفر فرص ارتياد فكر جديد ، ولكنها لا تشكل فى حد ذاتها نهجا للفكر ··

والأمر الذى ينبغى أن يلفت نظرنا بالذات فى هذا المضمار ، هو أننا بصدد « ازدواجية » من نوع جديد ·· فلقد كانت هناك ازدواجية الشرق/غرب ، ثم ازدواجية الشمال/جنوب ·· ثم أيضا ازدواجية ذات بعد « زمانى » ، أى غير مقصورة على البعد المكانى وحده ، بمعنى أن هناك مجتمعات تجاوزت « عتبة حرجة » معنية ، وأصبحت تنطلق نحو المستقبل وبأثر تراكمى ، بينما عجزت مجتمعات أخرى عن تخطى هذه العتبة ، وتظل تعلق آمالها على أمجاد ماضية ، أو منسوبة الى ماض أسطورى ما ، تتخذه ملاذا للهروب من المستقبل وتحدياته ·

تلك ازدواجيات نشهدها وهى موضع دراسات عديدة ·· ولكن الأمر الذى ينبغى أن يشغلنا أن الثورة المعلوماتية انما تعرضنا لازدواجية من نوع مختلف أيضا ·· بين الذين أتيحت لهم فرصة « استيعاب » تكنولوجيات هذه الثورة ، والذين يقتنون أدواتها بمعنى أنه بوسعهم « اقتناء » حواسيب وغيرها من أدوات هذه الثورة ، ولكن دون « استيعاب » معانى هذه الثورة ونهجها فى التفكير ·· ذلك أن هناك فارقا أساسيا بين « اقتناء » التكنولوجيا ، وبين المشاركة فى « اختراعها » ·· ان القدرة على خوض عمليات الاختراع انما يكسب مستخدم هذه التكنولوجيات قدرات ، ومرونة ، وابتكارا فى الاستخدام ، لا يملكها من يقتنيها فقط ··

ثم ، هناك الأثر الناجم عما وصفناه بـ « العتبة الحرجة Critical Threshold » وهو أثر يظل سارى المفعول حتى فى حالة الذين بوسعهم « اقتناء » التكنولوجيا ·· فثمة « عتبة » تتيح للذين يتجاوزونها ــ وهذا يخص بوجه خاص المساهمين فى « اختراعات » تكنولوجيا العصر ــ أن يتجاوزوها بصورة متعاظمة باطراد ، حتى يجدوا أنفسهم مدفوعين الى الأمام على الدوام ، وبأثر تراكمى ·· بينما الذين يعجزون عن بلوغ هذه

العتبة يظلون دونها ، ويجدون أنفسهم بالتبعية عاجزين عن اللحاق بالذين تجاوزوها ، مما يشعرهم بأنهم مدفوعون الى الخلف ، ومصابون بحالة احباط وخيبة أمل مزمنة ومتفاقمة ، حتى اذا ما أتيح لهم أن يقتنوا أحدث التكنولوجيات ·· وعلى أى الأحوال ، فانهم لا يعلمون كيف يستثمرونها على الوضع الذى يجعلهم كفيلين بمنافسة غيرهم ·· هكذا تنشأ ازدواجية من نوع فريد سوف تلاحقنا مستقبلا لو عجزنا عن تداركها ··

وأقول : ليست مصر ، بلادنا ، من المجتمعات المتخلفة العاجزة عن مواكبة تكنولوجيات ثورة المعلوماتية كضرورة لا مهرب منها ·· ومنذ الآن ، أصبحت هذه الثورة تتسرب الى مصر من مائة باب ، رغم كل العقبات والعوائق التى ما زالت تعترض دخولها من أوسع الأبواب ، وبغض النظر عن أن مجرد اقتناء الحواسيب لا يعنى ، فى أغلب الأحوال ، استثمارها الاستثمار الأمثل ·· ان هذا لا يعنى أن مصر عاجزة عن مواجهة التحدى ، وان كان التصـدى له أصبح يتطلب من مصر أن تنجز الكثير فى محو « الأمية المعلوماتية » قبل أن تكون قد حسمت أمر محو الأمية بالمعنى التقليدى للكلمة ·· فما زال نصف المجتمع المصرى لا يقرأ ولا يكتب ، وعليه الآن أن يتعلم كيف يقرأ وكيف يستخدم الحواسيب فى آن واحد ·· وهذا فى حد ذاته تحد لا بد أن نكون كفيلين بمواجهته ، لو أردنا مواكبة تحديات قرن جديد ، وألفية جديدة ··

والقضية التى نتعرض لها هى ، فى الحقيقة ، قضية حضـارية/ثقافية ، قبل أن تكون قضية فنية ·· ليست القضية مجرد اقتناء الأجهزة العصرية ، ولا هى مجرد معرفة كيفية استخدامها ، ومجرد اقامة « البناء التحتى » Infrastructure المطلوب من أجل استثمار هـذه الأجهزة بكفاءة ، وانما القضية ، قبل ذلك ، أن تتوافر الرؤية الثقافية/الحضارية فى هذا الصدد ، وهى الرؤية التى تشكل أساس الثورة المعلوماتية المطلوب انجازها ·· ومن هذه الوجهة ، ولتكشف أبعاد هذه الثورة ، كانت كتابات ألفين توفلر بالغة الأهمية ··

محمد سيد أحمد

حـواشي الكتـاب .

الفصـل العشرون

العقـود الحاسـمة

لقد تلاعبت الحكومات دائما بالمعلومات والمعرفة مستخدمة كل أنواع التكتيكات للحصول على الاجماع • ومع انتشار وسائل الاعلام وأجهزة الكمبيوتر الآن ، تتزايد وسائل السيطرة (كذلك وسائل المقاومة الشعبية) ، وتصبح أكثر مهارة ودقة • ولوضع هذا التطور السياسى فى منظوره ، من المفيد القاء نظرة على تاريخ تكون الدولة •

وان كانت بعض مجموعات قبلية معينة ، مثل الايفوجا فى الفيليبين والبوشمان والنوير كونج فى أفريقيا ، استطاعت أن تبقى وتستمر فى غياب أى شكل من أشكال الدولة ، فان كل البشر تقريبا على ظهر الأرض ، حاليا ، هم مواطنون ـ أو بصراحة أكثر ـ رعايا ـ لدولة أو أخرى • وباتت الدولة أقوى المؤسسات الاجتماعية •

هناك نظريات عديدة عن الدولة • فالاقتصادى الألمانى Alexander Rustow يؤكد أن الدولة نبعت من « ثقافات الصيد الأكثر تطورا مع تسلسلها القيادى الهرمى وتنظيمها الخاص بالصيد والحرب » • أما بالنسبة للمؤرخ Karl Wittfogel فان احتياجات الرى، التى كانت تتطلب تعبئة جماهير غفيرة من العاملين ، هى التى أدت الى خلق الدول المنظمة • وطبقا لنظرية انجلز ، المفصلة فى كتاب لينين « الدولة والثورة » ، فان الدولة هى نتيجة التقسيمات الطبقية الأولى ، فهى أداة فى خدمة الطبقة المسيطرة تسمح لها باستغلال الآخرين • اذن ، فالدولة بالنسبة للماركسية هى الذراع « التنفيذية » للطبقة المسيطرة •

أيا كانت النظرية التى يتم تبنيها ، فان ما يبدو معقولا هو أن القبائل عندما تجاوزت اقتصاد الكفاف، كان ذلك بمثابة منعطف سياسى رئيسى • وبمجرد أن أصبحت الجماعات قادرة على الانتاج وتخزين الفائض ، بات

من الضرورى الدفاع عن هذا الفائض ضد أى معتد محتمل ، خارجى أو داخلى ، قد يحاول الاستيلاء عليه لاستخدامه الشخصى ٠

وتتم الخطوة الأولى نحو السلطة عندما تختار جماعة ما « حاميا » لها ـ رجل فى العادة ـ من بين أقوى رجالها ٠ ومن السهل تصور أن يطالب هذا الحامى بنصيب من الفائض مقابل خدماته ٠

ثم تأتى الخطوة الثانية عندما يستخدم « الحامى » جزءا من الثروة التى استخلصت من السكان « لتأجير » محاربين يدينون بالولاء لشخصه وليس للجماعة ، وبالتالى يكون الحامى نفسه محميا ٠

وتحدث مرحلة أخرى عندما يتم تنظيم مهمة تحصيل الجزية أو الضرائب بتعيين « جباة » رسميين ٠ وباتخاذ هذه الخطوة يتم خلق تغذية ارتجاعية تسارع من حدوث الأشياء ، معززة سلطة الحكام ٠ وكلما زادت الثروة التى يستطيعون استخلاصها من الجماعة ، زاد عدد الجنود الذين يمكن تجنيدهم ، وبالتالى يمارسون ضغوطا على الجماعة للحصول منها على مزيد من الثروة ٠

ومع هذه الزيادة فى الثروة تستطيع الدولة الجنينية أن ترتفع الى مستوى أعلى ٠ لقد أصبح الحكام يستطيعون التحكم فى أداتين من أقوى أدوات السيطرة وهما العنف والثروة ، وليس العنف فحسب ٠

وهو ما يعنى أنهم لم يعودوا فى حاجة دائمة للجوء الى العنف للترهيب ، اذ يستطيعون استخدام جزء من الثروة الفائضة لمكافأة حلفائهم، وبدلا من سلطة ذات نوعية متدنية قائمة على العنف ، يمتلك الحاكم أو النخبة الحاكمة أداة اضافية أكثر مرونة بكثير وهى الثروة ٠

وتتلخص المرحلة التالية فى ادراك انه لخفض تكلفة الجيش يكفى غسل مخ الشعب٠ وذلك بدفع السكان الى أن يؤمنوا ـ عن رغبة أو رهبة ـ بأساطير أو أديان أو أيديولوجيات ملائمة ، كما يمكن اقناع الرعايا بأن نظام السلطة القائمة ليس حتميا ودائما فحسب بل هو شرعى أيضا ، هذا ان لم يكن قائما على حق الهى ٠ وهكذا تصبح المعرفة ـ فى شكل أسطورة أو ديانة أو أيديولوجية ـ سواء أكانت حقيقية أم مزيفة ، سلاحا سياسيا رئيسيا ٠

بل يمكن القول بأن هذه اللحظة هى لحظة الميلاد الحقيقى للدولة ، وانه حتى تلك اللحظة لم يكن هناك من الدولة سوى أشكال جنينية

وجزئية • باختصار ، لا تتحقق الدولة بالكامل حتى تستخدم الأدوات الثــلاث الأساسية لممارسة السلطة ، الا وهى المعرفة والثروة وامكانية استخدام العنف •

وعلى الرغم من القدر الكبير من التخمين والتبسـيط المفرط الذى يتضمنه هذا المخطط فانه يقدم لنا تفسيرا مقبولا لأصل الدولة يندمج فى النظرية الجديدة للسلطة •

١ ــ مقولة جيمس كروبى مأخوذة من : « Political Risk Begins at Home فى Across the Board ، يناير ١٩٨٦ ص ١٣ •

٢ ــ عن قلق ملكة بريطانيا من تنامى النزعة القومية فى اسكتلندا:
« Scottish Nationalism Threatens British Unity »
فى لوس أنجلوس تايمز ، ٢٥ ديسمبر ١٩٨٨ ص ١٤ •

٣ ــ عن حكم أسرة هايسبيرج فى أوروبا الوسطى انظر : [٥٤٥] صفحة ٢٦ و ٢٧ و ٤٢٢ ص ١٤ •

٤ ــ عن أثر زلزال طوكيو :
« The Japanese Earthquake Explained »
(نشر لأول مرة فى سـبتمبر ١٩٢٣) ، فى مجلة Natural History أبريل ١٩٨٠ ، و « When the Big One Hits Tokyo ... » بقلم Edith Terry فى World Press Review ديسمبر ١٩٨٩ ، و « How a Tokyo Earthquake Could Devastate Wall Street » بقلم Michael Lewis فى Manhattan, inc. ، يونيو ١٩٨٩ ص ١٦ •

٥ ــ عن تصاعد المعارك العرقية فى الولايات المتحدة انظر :
« New Interethnic Conflict Replaces an L.A. History of Biracial Politics » فى لوس أنجلوس تايمز ، ٧ يناير ١٩٩٠ ، و « Shakl-Up Tatino Station Sparks Protest » فى لوس أنجلوس تايمز ، ٦ يونيو ١٩٨٩ ، كذلك « Cubans, not Haitians, Offered Legal Status : Black Outraged » بقلم Kathleen Kelly فى National Catholic Reporter ، ٢٤ فبراير ١٩٨٤ ، راجع أيضا : « Showdown on Middle Neck Road » بقلم Robert Spero فى Present Tense ، مايو ــ يونيو ١٩٨٩ ، و « Rapping Solo » فى Billboard ، ١٣ يناير ١٩٩٠ و « Swapping Lessons » فى لوس أنجلوس تايمز ، ١١ يناير ١٩٩٠ ص ١٧ •

٦ ــ عن أول اجتماع لحزب هتلر النازى : [٥٨٠] صفحة ٥٤ ص ٢١ •

٧ ـ حول الأقليات المحورية : [١٠٣] بأكمله لا سيما الفصل الثاني عشر ، وأيضا [٩٥] ص ١٦ ، و [١٦٥] ص ٣ ـ ٤ وكل ما يتعلق بـ « Gelli » ، انظر كذلك « The Roots of Kahanism » في صحيفة Ha'am جامعة كاليفورنيا فرع لوس أنجلوس ، يناير ـ فبراير ١٩٨٧ .

و « Links of Anti-Semitic Band Provokes 6-State Parley » في نيويورك تايمز ، ٢٧ ديسمبر ١٩٨٤ ، و « Neo-Nazis Dream of Racist Territory » في نيويورك تايمز ، ٥ يوليو ١٩٨٦ ، و « The Charmer » في مجلة نيويورك ، ٧ أكتوبر ١٩٨٥ ، و « Lyndon Larouche : From Marxist Left to Well-Connected Right » بقلم John Mintz في Washington Post National Weekly ، ٢٥ فبراير ١٩٨٥ ؛ و « Larouche Fringe Stis in Germany » في نيويورك تايمز ، ٣٠ يونيو ١٩٨٦ ، و [٢٠٣] ص ٢٠ و ص ٢١ .

٨ ـ عن انتشار جماعات الكراهية : « Rioting in the Streets Déjà Vu ? » بقلم William Tafoya في The Americas — (Justice) (Criminal) ديسمبر ١٩٨٩ ـ يناير ١٩٩٠ ص ٢٢ .

٩ ـ بشأن انتشار « الحروب المقدسة » : « High-Intensity Aggressive Ideologies as International Threat » بقلم Yehezkel Dror في Jerusalem Journal of International Relations مجلد ٩ عدد ١ ، ١٩٨٧ ص ٢٣ .

الفصل الحادى والعشرون

الحـــزب الخفى

١ ـ ملاحظة لى اتووتر (Atwater) أبداها للمؤلف ص ٢٥ .

٢ ـ مقال يوشى تسورومى عن دور البيروقراطيين فى صنع القرار فى اليابان : « A Bureaucratic Hold on Japan » لوس أنجلوس تايمز ، ٢٥ يناير ١٩٨٨ ص ٢٦ .

٣ ـ عن تنافس الوزارات فى طوكيو حول السيطرة على الاتصالات: « Turf Battles and Telecom » بقلم (Kazuhisa Maeno) فى Journal of Japanese Trade and Industry العدد الخامس ١٩٨٨ . وعن التنافس بين الوزارات انظر كتاب (Conflict in Japan) الذى يتسم بثراء غير عادى ، بقلم Ellis S. Krauss و Thoms P., Rohlen و Patricia G. Steinhoff (هونولولو : مطبعة جامعة هاواى ، ١٩٨٤) ص ٢٩٨ ص ٢٦ .

٤ ـ بشأن عمليات التجريد (التفكيك) فى شركة موبيل : « Integrated — and Determined to Stay that Way » بقلم Toni Mack مجلة فوربس ، ٤ أبريل ١٩٨٨ ص ٢٩ .

٥ ـ عن أعمال التخريب فى اليابـان عند صدور قرار خصخصة السكك الحديدية : « Paralysis on the Tracks » مجلة تايم ، ٩ ديسمبر ١٩٨٥ ص ٢٩ .

٦ ـ خصخصة مؤسسة الهاتف والتلغراف اليابانية (NTT) : « Hold the Phone » بقلم ريتشارد فالون ، فى مجلة فوربس ، ١٧ أكتوبر ١٩٨٨ ، و « Japan's Spending Spree » فى World Press Review ، يناير ١٩٩٠ ، انظر كذلك « Deregulation, Privatization Spur JAL to Diversify Operations » بقلم (جيمس أوت) و (Eüchiro Sckigawa) فى Aviation Week and Space Technology ، ٨ مايو ١٩٨٩ ص ٣٠ .

٧ ـ الخصخصة فى بلاد عديدة :
« Can a Privatized Matra Do Better on its Own ? »
بقلم (Jennifer L. Schenker) فى Electronics ١٨ فبراير ١٩٨٨ ،
و « Why Bonn Just Can't Let Co » بزنيس ويك ، ١٤ أبريل ١٩٨٨ ،
و « A Choice Menu Fom Jacques Chirac » بقلم Michael Mcfadden
مجلة فورتشن ، ٥ يناير ١٩٨٧ ، و« How Many Bureaucrats to Install
a Phone ? » بقلم (Richard C. Morais) ، مجلة فوربس ، ١٩ سبتمبر
١٩٨٨ ، و« Air Canada Comes of Age » فى Maclean's(تورونتو) ،
٢٥ أبريل ١٩٨٨ ص ٣٠ .

٨ ـ حديث صاموئيل بوبكين عن انقاص التسلسل الهرمى : [٢٠١]
صفحة ٢٢٧ ـ ٢٢٨ ص ٣١ .

٩ ـ كول يتجاهل وزير خارجيته عند وضعه الشروط العشرة
لتوحيد الألمانيتين :
« Ostpolitik Pays Belated Dividend for Germany's Elder Statesman »
فاينانشيال تيمز ، ١٤ ديسمبر ١٩٨٩ ص ٣٤ .

الفصل الثانى والعشرون

تكتيكات المعلومات

١ ـ جوتسون وحرية المعلومات : [١٩٤] صفحة ، ٣ ـ ٤ ص ٣٨ .

٢ ـ ٢٠ مليون من المستندات السرية فى الولايات المتحدة :
« The Future of Intelligence » بقلم (Walter Laqueur) فى Society نوفمبر ـ ديسمبر ١٩٨٥ ص ٣٨ .

٣ ـ مقولة المسئول فى وكالة المخابرات المركزية مأخوذة من [١٩٤] صفحة ، ٢٤ ص ٣٩ .

٤ ـ تسريب المعلومات المتعمد فى قضية ريكروت ـ كوزموس :
« Gentlemanly Press Gets Gloves Dirty » فى Insight، ٤ ديسمبر ١٩٨٩ ص ٣٩ .

٥ ـ حديث جيفرى باتى مأخوذ من :
« Tory Thought Curbed By "Fear of Leaks" ». فى التايمز اللندنية ، ١٠ أكتوبر ١٩٨٦ ص ٤٠ .

٦ ـ حديث ديف جيرجين حول تسرب المعلومات من البيت الأبيض :
« Secrecy Means Big Things Gets : Little Thought » لوس أنجلوس تايمز ، ٢٧ نوفمبر ١٩٨٦ ص ٤٠ .

٧ ـ دور كيسنجر فى واقعة التنصت على المكالمات الهاتفية :
[٥٧٤] صفحة ، ٣٨٨ ص ٤١ .

٨ ـ تقرير فيتنام انظر : [٤٢١] صفحة ، ٦ ص ٤٣ .

٩ ـ برقية زيمرمان انظر : [٣٩٧] صفحة ، ١٨ ص ٤٣ .

١٠ ـ معركة القناة الخلفية بين شولتز وكيلى : « Shultz Calls Envoy Home, Saying He Dealt in Secret » فى لوس أنجلوس تايمز ، ١٩ ديسمبر ١٩٨٦ ، و « Shultz Warning Envoys to Stop Bypassing Him » فى نيويورك تايمز ١٨ ديسمبر ١٩٨٦ ص ٤٥ ٠

١١ ـ واقعة كيسينجر والسفير الأمريكى فى كوريا الجنوبية مذكورة فى كتاب « The Price of Power » للكاتب Seymour M. Hersh ، دار Summit Books للنشر نيويورك ١٩٨٣ صفحة ، ٤٢ ـ ٤٣ ص ٤٥ ٠

١٢ ـ قناة كيسينجر ـ دوبرنين الخلفية : [٤٢٧] صفحة ، ١٥٣ ـ ١٩٣ ص ٤٦ ٠

١٣ ـ القناة الخلفية فى قضية الصواريخ الكوبية : [٤٠٧] صفحة ، ١٤ ـ ١٤٧ ص ٤٦ ٠

١٤ ـ القناة المزدوجة بين جروميكو وكيسينجر كما رواها مساعد جروميكو (اركادى شيفشينكو) : [٤٢٧] صفحة ، ٢٠٥ ص ٤٧ ٠

١٥ ـ بشأن القصة التى « زرعتها » الـ « سى ٠ آى ٠ ايه » فى الصحافة الايطالية حول منظمة الألوية الحمراء : [٤٣٥] صفحة ، ١٢٩ ٠ ص ٥٠ ٠

١٦ ـ ادعاء الـ (كيه ٠ جى ٠ بى) بأن الـ (سى ٠ آى ٠ ايه) هى التى أطلقت وباء الايدز انظر :
« Soviets, At Last, Face up to AID's » فى لوس أنجلوس تايمز، ٢٢ أبريل ١٩٨٩ ، و « The KGB's New Muscle » فى يو ٠ اس ٠ نيوز أند ورلد ريبورت ، ١٥ سبتمبر ١٩٨٦ ص ٥٠ ٠

١٧ ـ الواقعة الخاصة برسالة شامير :
« Peres Office, In Israeli Infighting, Bars Shamir Messaage to Embassies » فى نيويورك تايمز ، ١٥ يناير ١٩٨٧ ص ٥٠ ٠

١٨ ـ عن اصرار تشرشل على الاطلاع على المستندات الأصلية : [٣٩٨] صفحة ، ٢٩٢ ص ٥٢ ٠

الفصل الثالث والعشرون

التكتيـــات الأســـمى

١ ــ سنونو كحاكم خبير فى مجال الكمبيوتر :
« The Granite State of the Art » مجلة تايم ، ٢٧ يناير ١٩٨٦ ،
ص ٥٣ ٠

٢ ــ هندسة البرامج الاعلاماتية بمساعدة الكمبيوتر :
« From Case to Software Factories » بقلم Herbert Weber مجلة
Datamation ، أول أبريل ١٩٨٩ ٠ ص ٥٤ ٠

٣ ــ عن ان « الأرباح كالمقانق » وكيف تمكنت جنرال موتورز من
اضافة ٢ مليار دولار لأرباحها المزعومة « Cute Tricks on the Bottom
Line » بقلم Gary Hecor ، مجلـة فورتشن ، ٢٤ أبريل ١٩٨٩ ،
ص ٥٦ ٠

٤ ــ المافيا وبتر الأصبع : [٤٨٥] صفحة ٧٤ ٠ ص ٥٨ ٠

٥ ــ قائمة وزارة العدل الأمريكية لجرائم الحاسب الآلى :
« Electronic Capers » بقلم (J. A. TUJO) فى Information Executive
الجزء الثانى رقم (١) ١٨٩٥ ٠ ص ٥٨ ٠

٦ ــ اختفاء رسالة عضو الكونجرس : « Two cases of Computer
Burglary » نيويورك تايمز ، ٢١ مارس ١٩٨٦ ٠ ص ٥٩ ٠

٧ ــ انتخابات كوريا الجنوبية :
« Observers Allege Computer Fraud in S. Korea Poll. »

فايننشيال تايمز ، ٢١ ديسمبر ١٩٨٧ ٠ ص ٦٠ ٠

٨ ــ موضوع (Election Watch) :
« Electronic Elections Seen as Invitation to Fraud »

لوس أنجلوس تايمز ، ٤ يوليو ١٩٨٩ ٠ ص ٦٠ ٠

٩ ـ دافيد ستوكمان وقصة التخفيضات فى الموازنة : [٢٢٧]
صفحة ، ٩٢ · ص ٦٢ ·

١٠ ـ عن مكتب الاحصاء الأمريكى وتجاهل الحكومة والصحافة لايضاحاته بشأن المعايير والاجراءات المستخدمة فى عملياته الاحصائية ·
« Analyzing the figures that Shape Our Daily Lives »
بقلم (Richard Lipkin) فى Insight ، ٢٢ مايو ١٩٨٩ · « Political Power and Money at Stake in Census Undercount Fight » و
واشنطن بوست ، ١١ يناير ١٩٨٨ · و « False Signals on Inflation »
نيوزويك ، ٢٨ يوليو ١٩٨٦ · « Peaswing Money » بقلم (John Roberts)
فى مجلة (National Westminster Moneycare) لندن ، آكتوبر ـ نوفمبر ١٩٨٦ · وكذلك مقابلة المؤلف مع جاك كين مدير مكتب الاحصاء الأمريكى والعاملين فى هذا الكتاب · ص ٦٣ ·

١١ ـ حديث توماس رونا عن ضخامة البيانات المرسلة من الأقمار الصناعية ومشكلة تحليلها : « Spy Satellites : Entering a New Era »
مجلة ساينس ، ٢٤ مارس ١٩٨٩ · ص ٦٦ ·

١٢ ـ عن النظم الخبيرة وقدراتها على الاستنتاج وانتشار استخدامها فى الشركات انظر : « Car and Plane MaKers Fuel Up with CAD, AI » و « Oil Companies Exploit as Muchas explore IS »
كليهما فى مجلة Datamation ، ١٥ نوفمبر ١٩٨٩ · انظر أيضا « New Shells For Old Iron » بقلم John J. Poplizio و William S. Cappelli فى Datamation ، ١٥ أبريل ١٩٨٩ · ص ٦٧ ·

١٣ ـ حول استخدام النماذج الاعلاماتية واساءة استخدامها : [٤٦٣] صفحة ، ٩ ـ ١٠ و ٣١ ـ ٣٢ · ص ٦٩ ·

١٤ ـ عن عدد الفقراء نتيجة للتخفيضات فى برامج الضمان الاجتماعى « Taking the Measure, or Mismeasure, of it All » نيويورك تايمز ، ٢٨ أغسطس ١٩٨٤ · ص ٧٠ ·

١٥ ـ مقاضاة مكتب الاحصاء :
« Accord on Census May Bring Change in Minority Data »
نيويورك تايمز ، ١٨ يوليو ١٩٨٩ · ص ٧١ ·

الفصل الرابع والعشرون

ســوق للجواسيس

١ ـ الجواسيس لدى قدماء المصريين : انظر [٤٠٣] صفحة ، ١١١ • ص ٧٤ •

٢ ـ فراشات بادن ـ باول : انظر [٣٩٤] صفحة ، ٧ ـ ٨ • ص ٧٤ •

٣ ـ قصة كابتن جئيشى تاناكا : انظر [٣٩٤] صفحة ، ٢١ ـ ٢٣ ص ٧٤ •

٤ ـ عن التجسس الجماعى : انظـر [٤٢٦] صـفحة ، ٨٣ • ص ٧٥ •

٥ ـ اسـتخدام « صحفيى الشـعب » للتجسس الجماعى : انظر [٤١٧] صفحة ، ٦ • ص ٧٥ •

٦ ـ قصـة حياة ريتشـارد سـورج : انظر [٤٠٤] صـفحة ٣٢٥ ـ ٣٤٣ • ص ٧٥ •

٧ ـ المعلومات التى تقدمها نظم الاستشعار عن بعد : انظر [٣٩٩] صفحة XVI • ص ٧٦ •

٨ ـ التنصت على الزعماء السوفيت فى سياراتهم الليموزين وعلى موقع لوب نور للتجارب النووية بالصين : انظر « Exit Smiley, Enter IBM » سنداى تايمز (لندن) ، ٣١ أكتوبر ١٩٨٢ • ص ٧٧ •

٩ ـ عن « مجتـمع الاسـتخبارات » الأمريـكى : انظر [٤٢٤] و [٤٢٢] بأكملهما ، و [٤٣٤] الفصلين الأول والثانى ، وأيضا ، مقابلة مع ألفريد كينجون الوزير السابق فى البيت الأبيض • ص ٧٩ •

١٠ ـ عن الاستخبارات السـوفيتية : انظـر [٤٠٤] بأكمله ، و [٤٣٤] الفصلين الرابع والخامس ، وكذلك [٤٢٥] وان كان قديما

نوعا ما ، و [٥٢٦] ص ١٦٦ ـ ١٦٧ ، الذى يركز على التجسس التقنى . ص ٧٩ .

١١ ـ الاستخبارات الفرنسية : انظر [٤١٥] بأكمله ، و [٤٣٤] الفصل السابع ، و [٤٢٣] الفصل السادس . ص ٨٠ .

١٢ ـ الاستخبارات الألمانية : انظر
« Smiley Without People : A Tale of Intelligence Misjudgments »
فى Der Tagesspiegel (برلين) ، ٦ يناير ١٩٩٠ ، أيضا [٤٣٤] ص ، ٣ و ١١٣ و ١٢٧ و ١٣٠ و ١٨٢ ، و [٤٢٣] صفحة ١٢٧ ـ ١٤٧ و ٢٥٤ ـ ٢٥٧ . ص ٨٠ .

١٣ ـ الاستخبارات اليابانية : انظر [٤٢٣] الفصل الثامن ، انظر أيضا [٤٢٦] . ص ٨٠ .

١٤ ـ واقعة سكك حديد سيبريا : انظر [٤٢٣] صفحة ٢٥٥ . ص ٨٠ .

١٥ ـ بشأن « عزل » نيوزلندا استخباريا :
« British Ban Kiwis From Intelligence Briefings »
فى سينداى تايمز (لندن) ، ٤ مايو ١٩٨٦ . ص ٨١ .

١٦ ، قصة تجسس جيمس هاربر وزوجته لصالح السوفيت : انظر [٤٣٤] صفحة ١٦٥ . ص ٨١ .

١٧ ـ حيرة الأرجنتين بشأن اختيار جهاز استخبارى أجنبى للتعاون معه : مقابلات المؤلف فى بيونس آيرس . ص ٨٢ .

١٨ ـ استمرار تعاون بلدان أوروبا الشرقية مع موسكو فى مجال الاستخبارات بعد الاطاحة بالحكومات الشيوعية :
« It's Still Business as Usual for Spies, Even as the Eastern Bloc Rises Up » فى نيويورك تايمز ، ٣١ ديسمبر ١٩٨٩ . ص ٨٢ .

١٩ ـ عن المعلومات الاستخبارية الأمريكية لجنوب أفريقيا : انظر :
« U.S. Is Said to Have Given Pretoria Intelligence on Rebel Organization » فى نيويورك تايمز ، ٢٣ يوليو ١٩٨٦ ، أيضا « Query on CIA Tie to Mandela Case Deflected » فى لوس أنجلوس تايمز ، ١٣ يونيو ١٩٩٠ . ص ٨٣ .

٢٠ ـ المساعدة الاسترالية لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى شيلى : انظر [٤٠٢] صفحة ٢٤ ـ ٢٥ . ص ٨٣ .

٢١ ـ التعاون الفرنسى البرتغالى والفرنسى المغربى : انظر [٤١٥] صفحة ٧٩ ـ ٨٠ و ٧١ ـ ٧٣ . ص ٧٣ .

٢٢ ـ تعاون رومانيا ومنظمة التحرير الفلسطينية : انظر [٤١٦] صفحة ١٣ و ١٥ ـ ٣٥ و ٩٢ ـ ٩٩ ص ٨٣ .

٢٣ ـ التعاون الاسرائيلى الأمريكى : [٤٢٤] صفحة ٢٠٥ ـ ٢٠٧ ص ٨٣ .

٢٤ ـ التعاون الأمريكي السوفيتي من أجل مكافحة الارهاب :
« Ex-KGB Aides to Join U.S. Talks on Terrorism »

فى لوس أنجلوس تايمز ، ٢٥ سبتمبر ١٩٨٩ ص ٨٣ .

٢٥ ـ أثر تبادل المعلومات الاستخبارية بين الدول على الحريات المدنية : راجع [٤١١] ص ٣٧٣ ص ٨٣ .

٢٦ ـ قصة الطائرات الحربية العراقية : « The 300-Million Dollar Disaster » فى The Voice of the Arab World (لندن) غير مورخة ، أيضا [٣٩٢] بأكمله ص ٨٤ ـ ص ٨٥ .

٢٧ ـ عن « قوائم المراقبة » الخاصة بوكالة الأمن القومى الأمريكى ونظيرتها البريطانية (GCHQ) : انظر « Exit Smiley, Enter IBM » فى سنداى تايمز (لندن) ، ٣١ أكتوبر ١٨٩٢ ص ٨٥ .

٢٨ ـ أقوال ليونيل أولمر : مقابلة مع المؤلف ص ٨٦ .

٢٩ ـ صفقة المفاعلات النووية بين نظام شاوشيسكو وكندا : انظر [٤١٦] صفحة ٢٩٢ ـ ٢٩٧ ص ٨٨ .

٣٠ ـ مقولة الكونت دى مارنش المدير السابق للمخابرات الفرنسية : انظر [٤١٥] صفحة ٤١ ـ ٤٢ ص ٨٩ .

٣١ ـ جهاز الاستخبارات السوفيتية (KGB) فى طوكيو : انظر [٤١٣] صفحة ١٠٣ ـ ١٠٤ ص ٩٠ .

٣٢ ـ الخط X (LINE X) وموقعه فى التنظيم الخاص بجهاز (KGB) السوفيتى : انظر [٤٣٤] صفحة ٨٧ ص ٩٠ .

٣٣ ـ عن الخلاف فى لجنة كوكوم انظر :
« Appeal for Cocom Black-List to be Overhauled »
تعليق فى Frankfurter Rundschau ٢٩ نوفمبر ١٩٨٩ . (مترجم فى German Tribune ، عدد ١٠ سبتمبر ١٩٨٩) و « American Hypocrisy Highlighted in Cocom Rule, Implementation فى Japan Economic Journal ، ٢ يوليو ١٩٨٨ ، و « A Challenge for High-Tech Censors » فى فاينانشيال تايمز ، ١٩ أكتوبر ١٩٨٨ ، و « US. Set to Ease European Defence Technology Curbs » فى فاينانشيال تايمز ٢٩ يناير ١٩٨٨ ، و [٥٢٦] صفحة ١٥ ص ٩١ ـ ص ٩٢ .

٤٣ ـ عن قيام تركيا بقطع مياه نهر الفرات : انظر
« Turkey's Stranglehold on the Euphrates Irks its Neighbours »
فى فاينانشيال تايمز ، ٣ يناير ١٩٩٠ ص ٩٣ ٠

٣٥ ـ حول علاقات شركة بكتل مع ال (سى ٠ آى ٠ ايه) انظر :
[٧٣٠] صفحة ١١٧ ص ٩٤ ٠

٣٦ ـ ٢٠٠ جاسوس أمريكى تحت غطاء « الأعمال التجارية » :
« Business Pose by US. Spies Reported » فى نيويورك تايمز ، ٢٨
فبراير ١٩٧٤ ص ٩٤ ٠

٣٧ ـ عدم ضغط الولايات المتحدة على رجال أعمالها للتجسس انظر :
[٤٣٤] صفحة ٤٩ ص ٩٤ ٠

٣٨ ـ عن القمرين الصناعيين لاندسات وسبوت :
« Space Cameras and Security Risks » بقلم دافيد ديكسون ، فى مجلة
ساينس ، ٢٧ ينـاير ١٩٨٩ ، و « Civilians Use Satellite Photos for
Spying on Soviet Military » فى نيويورك تايمز ، ٧ أبريل ١٩٨٦ ،
والمقابلة مع كيفين كوربلى ، المنسق الاعلامى بشركة مراقبة الأرض بالأقمار
الصناعية (EOSAT) ، انظر كذلك مجلة Spotlight (المجلد ٣ العدد ٢)
يونيـو ١٩٨٩ التى تصـدرها (Spot Image Corporation) وكتـالوج
(SPOT Data Products and Services) وكتيب (SPOT Surveillance) .
ص ٩٧ ٠

٣٩ ـ عن معالجة وتحسين صـور الاستشعار عن بعـد للأغراض
التجارية والعسكرية التى أصبحت الآن عملا تجاريا متناميا : انظـر
« Directory of Landsat-Related Products and Services » — United
States Edition, 1988. « Directory - Landsat Related Products and Services » - International Edition 1989 ، الصادرين عن
(EOSAT) لانهام ولاية ماريلاند ص ٩٨ ٠

٤٠ ـ بشأن شبكة (Space Media) السويدية وما كشفته صورها
وبياناتها انظر الكتيب الصادر عن (Space Media Network) ، وأيضا
« Photos Prove 57 Nuclear Disasters » فى شـيكاغو تريبيون ،
١ ديسمبر ١٩٨٨ ، و « Satellite Photos Appear to Show Construction
of Soviet Space Shutle Base » فى نيويورك تايمز ، ٢٥ أغسطس
١٩٨٦ ، وقائمة المشروعات الاعلامية « List of Media Projects » الصادرة
عن (Space Media Network). ص ٩٨ ٠

٤١ ـ عن مشاريع تطوير الأقمار الصناعية والصواريخ فى الأقطار النامية انظر : « Star Wars » بقلم (Stertt Pope) فى World Press Review ديسمبر ١٨٩٩ ص ٩٩ ٠

٤٢ ـ بشأن عجز أجهزة الاستخبارات الأمريكية عن مواكبة سرعة الأحداث فى أوروبا الشرقية :
« E. European Events Outrun Intelligence Analysis, Panel Told »
فى لوس أنجلوس تايمز ، ١٣ ديسمبر ١٩٨٩ ص ١٠٠ ٠

٤٣ ـ مقولة جوزيف كونراد مأخوذة من : « Under Western Eyes »
الصادر عام ١٩٩١ ص ١٠١ ٠

الفصل الخامس والعشرون

جـدول أعمـال المعلـومات

١ ــ عن ماكفرلين في طهران :

« IRAN Says McFarlane Came on Secret Mission to Tehran » في واشنطن بوست ، ١١ نوفمبر ١٩٨٦ ، و « Cloak Foreign Servcie and Dagger » في نيوزويك ، ١٧ نوفمبر ١٩٨٦ ، و « Reagan's Backdoor Hostage Deal with Iran » في يو · اس نيوز آند ورلد ريبورت ، ١٧ نوفمبر ١٩٨٦ ، و « Cake Delivered to Iranians Was Strictly Kosher » في لوس أنجلوس تايمز ، ٢٧ فبراير ١٩٨٧ ص ١٠٣ ·

٢ ــ عن مسألة توزيع ونشر المعلومات والبيانات الفيدرالية :

« Federal Information . Who Should Get it. Who Shouldn't ? » بقلم : Diane Sherwood في (The World and I) أول يناير ١٩٩٠ · ص ١٠٥ ·

٣ ــ بالنسبة لعدد العمال الذين تلقوا اخطارات بالفصل تقل مدتها عن ٢٤ ساعة قبل فصلهم : « Heading for an Override ? » في مجلة تايم يوليو ١٩٨٨ ص ١٠٥ ·

٤ ــ عن تعليق زعيم الحزب الديمقراطي في مجلس الشيوخ على مطالبة النقابات بقوانين تلزم الشركات باخطار مسبق مدته ستون يوما ، بأنها مســألة عدالة : « Heading for an Override ? » في مجلة تايـم ، ١٨ يوليو ١٩٨٨ ، و « Closing Law's Key Provisions » بقلم Martha I. Finney في Nation's Business ، ينـــاير ١٩٨٩ ، و « 72-73 Senate Approves Notice of Plant Closings » في نيويورك تايمز ، ٧ يوليو ١٩٨٨ ص ١٠٦ ·

٥ ــ عن جماعات المواطنين في مدينة أوساكا :

« Group Seekd Access to City's Information » في Japan Times ٢٩ أغسطس ١٩٨٩ ص ١٠٧ ·

٦ ـ حول تشريع حرية المعلومات : « Role of Access Coordinators Under Scrutiny » في (Transnational Data and Communications Report) ، مارس ١٩٨٩ ، أيضا « International FOI Roundup » في (Transnational Data and Communications Report) يونيو ١٩٨٥ • تتابع هذه المطبوعة الدورية بانتظام الأحداث المرتبطة بحرية المعلومات ص ١٠٨ •

٧ ـ تحقيق لجنة الكونجرس حول اخفاء المعلومات الخاصة بحادث تفجير طائرة بان أمريكان ، وانتقاد وزير النقل الأمريكي لعملية كشف تعليمات السلامة التي تصدرها ادارة الطيران الفيدرالية :
« Transportation Secretary Assails Publicizing of Terrorist Warnings »
في نيويورك تايمز ، ١٣ أبريل ١٩٨٩ ص ١٠٩ •

٨ ـ قصة شركة طيران نورثويست :
« Northwest Planned to Disclose Bomb Threat at the Gate »
في لوس أنجلوس تايمز ، ٣٠ ديسمبر ١٩٨٩ ، و « Northwest Warns Flight's Ticket Holders of Threat » في نيويورك تايمز ، ٢٩ ديسمبر ١٩٨٩ ص ١٠٩ •

٩ ـ بشأن مرضى الايدز والكشف عنهم : « AIDS : Who Should Be Tested ? » في نيوزويك ، ١١ مايو ١٩٨٧ ، و « As AIDS Spooks The Schoolroom » في يو • اس • نيوز آند ورلد ريبورت ، ٢٣ سبتمبر ١٩٨٥ ، و « Putting AIDS to the Test » في مجلة تايم ، ٢ مارس ١٩٨٧ ، و « Mandatory Testing for AIDS ? » في نيوزويك ، ١٦ فبراير ١٩٨٧ • ص ١١٠ •

١٠ ـ عن حادثة شيرنوبل وحق البلدان في معرفة ما يجري في غيرها : « Sweden Protests to Moscow Over Lack of Warning » في فاينانشيال تايمز ، ٣٠ أبريل ١٩٨٦ و « Russians Pressed to Give Full Details of Nuclear Desaster » في التايمز اللندنية ، ٢٩ أبريل ١٩٨٦ • ص ١١١ •

١١ ـ الانتقاد الذي وجهه الأدميرال ستانسفيلد تيرنر ، مدير الـ (سي • آي • ايه) السابق ، الى الولايات المتحدة « The US. Responded Poorly to Chernobyl » في نيويورك تايمز ، ٢٣ مايو ١٩٨٦ ص ١١١ •

١٢ ـ حكومة المستشار الألماني هيلموت كول وموضوع مصنع الأسلحة الكيميائية الليبي : « Lybian Plant Sparks Storm in Bonn » في واشنطن بوست ، ١٩ يناير ١٩٨٩ ، و « West Germany in Libya Probe » في فاينانشيال تايمز ، ١٤ ـ ١٥ يناير ١٩٨٩ ، و « Senator Assails Bonn in Libya Scandal » فيلوس أنجلوس تايمز ، ٢٩ يناير ١٩٨٩ ، و « Vigilance, Luck Expose Libya Plant » في لوس أنجلوس تايمز ، ٢٢ يناير ١٩٨٩ ص ١١٢ .

١٣ ـ عن المعركة السياسية التي دارت في واشنطن حول قرصنة المنتجات الفكرية الأمريكية في تايلاند : « Thai Copyright War Divides Washington » في فاينانشيال تايمز ، ٢٧ يناير ١٩٨٩ ص ١١٤ .

١٤ ـ عن قرصنة الكتب : « Barbara Book Pirates » بقلم (Sterett Pope) في World Press Review ، يونيــــو ١٩٨٦ ، و « La book connection » بقــلم Rémy Lifliet في مجلة الاكسبريس الباريسية ، ٢٩ مارس ١٩٨٥ ، أيضا « Copyright Holders Name 12 Pirate Nations » في فاينانشيال تايمز ، ٢٥ أبريل ١٩٨٩ ص ١١٣ .

١٥ ـ عن فيلم انديانا جونز : « High-tech Tactics slow Film Piracy » في نيويورك تايمز ، ٢٩ يناير ١٩٨٦ ص ١١٣ .

١٦ ـ عن صالونات الفيديو في تايوان : « Pulling the Plug on Pirate Videos » في لوس أنجلوس ، ٨ يناير ١٩٩٠ ص ١١٤ .

١٧ ـ عن سرقة البرامج الاعلاماتية : «Psst!hey, mister, want to buy some software cheap? » بقلم كريستوفر جونستون في PC Computing أكتوبر ١٩٨٨ ، و « Thai Copyright War Divides Washington » في فاينانشيال تايمز ، ٢٧ يناير ١٩٨٩ ص ١١٥ .

١٨ ـ عن موقف اليابان حيال الملكية الفكرية :
« Putting a price on Intellect » بقلم (Yuji Masuda) في Journal of Japanese Trade and Industry ، العدد الخامس ، ١٩٨٨ ص ١١٥ .

١٩ ـ موقف المجموعة الأوروبية : « Brussels Plan for IPR Control » في فاينانشيال تايمز ، ٤ يوليو ١٩٨٩ ص ١١٥ .

٢٠ ـ حديث هارلان كليفلاند مأخوذ من نشرة World Future Studies Federation, WFSF ، عدد يوليو ١٩٨٩ ص ١١٦ ٠

٢١ ـ ما ذكره (عبده سعيد) و (لويز سيمونز) عن سوء توزيع المعلومات مأخوذ من [٣٣٢] صفحة ٧ ص ١١٧ ٠

٢٢ ـ عن معامل الأدوية والدول النامية : « Whose Idea Is it Anyway ? » فى الايكونوميست ، ١٢ نوفمبر ١٩٨٨ ص ١١٦ ٠

الفصل السادس والعشرون

صـــانعو الصـــور

١ ـ عن أول صـحيفة شـعبية انظر : [١٧١] ص ٥ ـ ٦ ، و [١٧٩] صفحة ٢٠٣ ـ ٢٠٥ ص ١١٩ ·

٢ ـ حول ظهور « الرأى العـام » انظر : [٥٣٨] صفحة ١٤ ص ١٢٠ ·

٣ ـ عن أثر شبكة (CNN) راجع : « Watching Cable News Network Grow » في نيـويورك تايمز ، ١٦ ديسـمبر ١٩٨٧ ، و « Triumphant Ted » بقلم جوشوا هامر في مجلة بلايبوى ، يناير ١٩٩٠ ، انظر كذلك وثائق CNN :
« The Growth of a Global Network » و « Milestones », و Live reporting » ، و [١٨٠] باكمله ص ١٢١ ·

٤ ـ عن فيدل كاسترو : قام تيد تيرنر بعرض الشريط على المؤلف فى لقاء خاص ص ١٢١ ·

٥ ـ حول الشبكات والخدمات التليفزيونية الجديدة فى الولايات المتحدة انظر : « Cable » بقلم Paula Parisi فى هوليوود ريبورتر ، استعراض مسبق للبرامج والأحداث التليفزيونية لعامى ١٩٨٩ ـ ١٩٩٠ ، كذلك « Channel One » Could Wittle Away at Net and Syndie Teen and Coin » بقلم Verne Gay فى مجلة Variety ، ١٤ ـ ٢٠ يونيو ١٩٨٩ ص ١٢٤ ·

٦ ـ بالنسبة لعدد القنوات المتوفرة الآن فى الولايات المتحدة انظر : [٦٨] ص ٢٨١ ، و « Technology Adds Choices and Programming Needs فى نيويورك تايمز ، ٢٤ يوليو ١٩٨٩ ص ١٢٥ ·

٧ ـ بشأن عمليات البث المباشر عبر الأقمار الصناعية فى الولايات المتحدة انظر : « One Hundred and Eight Channels by 1993 ? Stay Tuned America » فى انترناشيونال هيرالد تربيون ، ٢٢ فبراير ١٩٩٠ ص ١٢٥

٨ ـ حول ظهور المحطات والاتحادات الاعلامية المستقلة : « The Future of Television » فى نيوزويك ، ١٧ أكتوبر ١٩٨٨ ص ١٢٥ .

٩ ـ حديث روبرت ايجر مأخوذ من : « Technology Adds Choices and Programming Needs » فى نيويورك تايمز ، ٢٤ يوليو ١٩٨٩ ص ١٢٦ .

١٠ ـ مقولة آل بيرتون بأن « لا أحد يتذكر الشبكات الاذاعية الكبرى » مأخوذة من مقابلة المؤلف معه . ويرأس بيرتون مؤسسة للانتاج التليفزيونى تحمل اسمه كما أنه المنتج التنفيذى لـ Universal Television . ص ١٢٦ .

١١ ـ عن الشبكات الكابلية الأوروبية راجع : « Tube Wars » بقلم Fred V. Gurtel فى مجلة Business Month ، ديسمبر ١٩٨٨ ص ١٢٦ .

١٢ ـ حول المنافسة المحمومة بين الشبكتين البريطانيتين للبث بالأقمار الصناعية (BSB) و Sky Television انظر : « BSB Inks 5-year Output Deal with Orion : Rumous of OZ'Bond Pulling OutAbound » بقلم Elizabeth Guider فى مجلة Variety ، ١٤ ـ ٢٠ يونيو ١٩٨٩ ، و « Adtivate the Death Star » فى مجلة الايكونوميست ، ٨ يوليو ١٨٩٩ ص ١٢٧ .

١٣ ـ عن التليفزيون الفرنسى انظر : « Off-Screen TV Scandal, Sex, Money » فى نيويورك تايمز ، ١٨ يناير ١٩٨٨ ، و « Boost for Cable TV Industry in France » فى فاينانشيال تايمز ، ٩ فبراير ١٩٩٠ ، و « France's New Television Order » بقلم Adam Glenn فى Broadcasting ، ٢٤ أغسطس ١٩٨٧ ، و « Commercial TV, Mon Dieu ! » فى مجلة تايم ، ١٧ مارس ١٩٨٦ ، و « Le Défi Disney » بقلم John Marcom فى مجلة فوربس ، ٢٠ فبراير ١٩٨٩ ص ١٢٧ .

١٤ ـ عن التليفزيون الألمانى انظر : « New German TV : Idiot Culture or Breath of Air ? » ، فى نيويورك تايمز ، ١١ فبراير ١٩٨٥ ، و « Tube Wars » بقلم Fred V. Guterl فى مجلة Business Month ديسمبر ١٩٨٨ ص ١٢٧ .

١٥ ـ حول عمليات الدمج بين وكالات الاعلان انظر :
« WPP. the New Giant of .. PR » فى بزنيس ويك ، ٢٠ مايو ١٩٨٩ ، و « Upbeat View at Saatchi New York » فى نيويورك تايمز ، ٢١ يونيو ١٩٨٩ ص ١٢٨ ·

١٦ ـ عن اخفاق استراتيجية « التسويق العالمى انظر :
« Marketers Turn Sour on Global Sales Pitch Harvard Guru Makes » فى وول ستريت جورنال ، ١٢ مايو ١٩٨٨ ، و « The Overselling of World Brands » فى فاينانشيال تايمز ، ٢١ ديسمبر ١٩٨٨ ، « Why the Single Market Is a Misnomer-and the Consequences » فى فاينانشيال تايمز ، العدد نفسه ص ١٢٩

١٧ ـ حول سونى فى هوليوود : « $ 3 Billion Bid for Columbia by Sony » فى لوس أنجلوس تايمز ، ٢٦ سبتمبر ١٩٨٩ · هذا التقرير المبكر يخمن تقدير السعر الفعلى · بعد يومين ، ٢٨ سبتمبر ١٩٨٩ ، قدرت صحيفة نيويورك تايمز السعر ب ٣٫٤ مليار دولار فى تقريرها المعنون « Sony Has High Hopes for Columbia pictures » وفى تقريرها « Sony Goes for Hollywood » بتاريخ أول أكتوبر ١٩٨٩ وقدرت سنداي تايمز اللندنية السعر ب « ٥ مليارات دولار » ص ١٣١ ·

١٨ ـ حول امبراطورية روبرت موردوخ : « Four Titans Carve Up European TV » بقلم (William Fisher) و (Mark Schapiro) فى مجلة Nation ، ٩ ـ ١٦ يناير ١٩٨٩ ، و (Tube Wars » بقلم Fred V. Guterl فى Business Month ، ديسمبر ١٩٨٨ ص ١٣١ ·

١٩ ـ وصف روبرت ماكسويل : « Larger than Life » فى مجلة تايم ، ٢٨ نوفمبر ١٩٨٨ ، انظر أيضا « Four Titans Carve Up European TV » بقلم William Fidher و Mark Schapiro و « Business goes global » فى مجلة Nation ٩ ـ ١٦ يناير ١٩٨٩ ، Report on Business Magazine. فى The Globe and Mail (تورنتو) فبراير ١٩٨٩ ص ١٣٢ ·

٢٠ ـ عن موهن وبيرتلزمان انظر : « Reinhard Mohn » مجلة Nation ، ١٢ يونيو ١٩٨٩ ، انظر أيضا [١٣٤] بأكمله ، و « Business Goes Global » فى — Report on Business Magazine The Globe and Mail (تورنتو) فبراير ١٩٨٩ ، و « Bertelsmann Philosophy » فى كتيب مجموعة بيرتلزمان ص ١٣٢ ·

الفصل السابع والعشرون

وسائل الاعلام المحرضة على الثورة

١ ـ الانتصار القانوني للمكسيكيين : « Mexicans Who Sued Deputies Win $ 1 Million » لوس أنجلوس تايمز ، ٢٥ يناير ١٩٩٠ ، « Video-tepe is Centerpiece of « Victorville 5 « Brutality, Law suit » في لوس أنجلوس تايمز ، ٩ يناير ١٩٩٠ ص ١٣٩ ·

٢ ـ عن استخدام ثوار تشيكوسلوفاكيا للفيديو : « The Czechoslovak Pen Defies the Party Sword ». في فايناشيال تايمز ، ٢٨ نوفمبر ١٩٨٩ ص ١٤٠ ·

٣ ـ حول استخدام التليفزيون وأشرطة الفيديو في السياسة : ملخص ممتاز من المعلومات عن ذلك في « TV, VCRs Fan Fire of Revolution » في لوس أنجلوس تايمز ، ١٨ يناير ١٩٩٠ ص ١٤٠ ·

٤ ـ دعا شاوشيسكو المؤلف ذات مرة قائلا : « تعال واقض العطلة معي ، يمكننا مشاهدة « كوجاك » معا » وجاءت هذه الدعوة المفاجئة في أعقاب لقاء مطول للمؤلف وزوجته مع الرئيس الروماني حضره هاري بارنز ، السفير الأمريكي في بوخارست · كان ذلك في عام ١٩٧٦ · أما نهاية حقبة شاوشيسكو فمذكورة في : « How the Ceausescus Fell : Harnessing Popular Rage » في نيويورك تايمز ، ٧ يناير ١٩٩٠

٥ ـ عن دور التليفزيون في الفيليبين : « Playing to the TV Cameras » في يو · اس · ايه · آند ورلد ريبورت ، ١٠ مارس ١٩٨٦ · ص ١٤١ ·

٦ ـ حول الثورة الرومانية انظر : « How the Ceausescus Fell : Harnessing Popular Rage » في نيويورك تايمز ، ٧ يناير ١٩٩٠ ، ص ١٤١ ·

و « Romanian Revolt, Live and Uncensored » في نيويورك تايمز ، ٢٨ ديسمبر ١٩٨٩ ، كذلك «Message of the Media» في فايناشيال تايمز ، ٣٠ ديسمبر ١٩٨٩ ص ١٤٢ ·

٧ ــ عن عدم وصول ارسال التليفزيون الألماني الغربي الى دريسدن انظر : « The Long Journey out of the Valley of the Ignorant » في ستوتجارتر زايتنج ، ١٩ ديسمبر ١٩٨٩ ص ١٤٦ ٠

٨ ــ حول دور اذاعة (صوت أمريكا) في بث برامج موجهة للصين أثناء المظاهرات الطلابية راجع : شهادة ريتشارد كارلسون ، مدير اذاعة صوت أمريكا ، أمام اللجنة الفرعية التابعة للجنة الشئون الخارجية بمجلس النواب الأمريكي ، ١٥ يونيو ١٩٨٩ ، كذلك « Old Men Riding a Tiger and Feeling Paranoid » في لوس أنجلوس تايمز ، ٨ ينـاير ١٩٩٠ ص ١٤٧ ٠

٩ ــ عن تنامي المسيحية في كوريا الجنوبية انظر : « Chun's $ 21 Million Apology » في نيوزويك ، ٥ ديسمبر ١٩٨٨ ، كذلك « Papal Nod to a Christian Boom » في مجلة تايم ، ١٤ مايو ١٩٨٤ ص ١٤٨ ٠

١٠ ــ عن استخدام الخوميني لأشرطة التسجيل :
« The Ayatollah's Hit Parade » في مجلة تايم ، ١٢ فبراير ١٩٧٩ ص ١٤٩ ٠

١١ ــ حول مجلات الحائط في بكين : Peking's Posters Point Finger of Protest to the Party » في فاينانشيال تايمز ، ١٧ يونيو ١٩٨٨ ص ١٤٩ ٠

١٢ ــ تقارير عن انتفاضة الطلاب في الصين انظر : [٣٠٣] ص ٢١٩ ــ ٢٢٠ ، و « State of Siege » في مجلة تايم ، ٢٩ مايـو ١٩٨٩ ، وللتعرف على وجهة نظر اشتراكية انظر : « China's Long Winter » بقلم Anita Chan في Monthly Review ، يناير ١٩٩٠ ، انظر كذلك « Watching China Change » بقلم Mark Hopkins في Columbia Journalism Review ، سبتمبر/أكتوبر ١٩٨٩ ص ١٥٠ ٠

١٣ ــ عن الاستخدام السياسي لوسائـل الاعلام الجديدة انظر : « ... As Chinese in U.S. Pierce a News Blokade » في نيويورك تايمز ، ٢٤ مايو ١٩٨٩ ، كذلك « TV, VCRs Fan Fire of Revolution » في لوس أنجلـوس تايمز ، ١٨ ينـــاير ١٩٩٠ ، « Phones, Faxes : Students in U.S. Keep Lines of Communication Open » في لوس أنجلوس تايمز ، ٦ يونيو ١٩٨٩ ص ١٥١ ٠

١٤ ــ أول محاولة « للتشويش » يقوم بها مواطنون عاديون :
«Chinese Students in V.S. Seeking to Foil «Tip Lines» في لوس أنجلوس تايمز ، ١١ يونيو ١٩٨٩ ص ١٥٢ ٠

الفصل الثامن والعشرون

جيـل الشاشـة الصـغيرة

١ ـ لاعب الجولف الآلى : مقـابلات المؤلف مع جوردن ستلبيرج رئيس شركة (American Interactive Media) وبرنارد لسكين مدير هذه الشركة ، ووثائق الشركة أيضا ص ١٥٤ ٠

٢ ـ عن شبكات الألعاب التليفزيونية المتفاعلة :
« Computer Company Plans to Bring TV Viewer into the Action » فى لوس أنجلوس هيرالد اكزامينر ، ١١ فبراير ١٩٨٨ ص ١٥٥ ٠

٣ ـ حديث جورج جيلدر : « Forget HDTV, It's Already Outmoded » فى نيويورك تايمز ، ٢٨ مايو ١٩٨٩ ، و « IBM-TV » بقلم جورج جيلدر فى مجلة فوربس ، ٢٠ فبراير ١٩٨٩ ص ١٥٥ ٠

٤ ـ عن أجهزة الفاكس فى الولايات المتحدة : « Ban Fax Attacks They are Costly » ، بقلم ادوارد ماركسى (عضو الكونجرس) فى مجلة يو ٠ اس ٠ ايه ٠ توادى ، ٣١ مايو ١٩٨٩ ص ١٥٨ ٠

٥ ـ عن العطل فى مركز AT&T للاتصالات الهاتفية انظر :
« President Reagan Declares Martin Luther King, Jr. Day » فى Jet ٢٣ يناير ١٩٨٩ ، و « AT&T Pinpoints Source of Service Disruption » فى نيويورك تايمز ، ١٧ يناير ١٩٩٠ ، وكذلك « AT&T Fiasco : Tense Fight With Haywire Technology » فى لوس أنجلوس تايمز ، ١٩ يناير ١٩٩٠ ص ١٦١ ٠

٦ ـ حديث جيفرى موريتز عن « جيل الشاشة الصغيرة » :
رسالة للمؤلف من جيفرى موريتز ، رئيس شبكة National-College Television. ص ١٦٣ ٠

الخاتمة

التطلع الى عصر ظلمـات جـديد

١ ـ تساؤل مجلة تايم « هل مات الرب ؟ » :
« Toward a Hidden God » في مجلة تايم ، ٨ أبريل ١٩٦٦ ص ١٧٠ .

٢ ـ عن صلات الأذريين بالأصولية الاسلامية انظر :
« Baku : Before and After » بقلم Igor Beliaev في Literaturnaya Gazéta International (الجريدة الأدبية) ، موسكو ، مارس ١٩٩٠ ، انظر أيضا « IRAN Warns Against « Harsh » Soviet Moves in Azerbaijan » في لوس أنجلوس تايمز ، ١٨ يناير ١٩٩٠ ، و« Fundamentalism Blamed for Uzbech Rioting, في فايننشيال تايمز ، ١٤ يونيو ١٩٨٩ ، و« Soviet Are at Loss, About Ethnic Unrest » في وول ستريت جورنال ، ٢١ يوليو ١٩٨٩ ، و« Tehran is Said to Back « Islamic Seal » but Not Separation in Azerbaijan » في نيويورك تايمز ، ٢١ يناير ١٩٩٠ . تختلف الروايات حول انتفاضة ١٩٨٩ في أذربيجان ومذبحة الأرمن في باكو اختـلافا كبيرا فيما يتعلق بدور القيـادة المحلية للحزب الشـيوعي وتأخر موسـكو في اسـتخدام القوات لاستعادة النظام وطبيعة الحركة الأذرية ص ١٧٣ .

٣ ـ عن الأصولية في اسرائيل انظر « Israel's Cultural War » في The Christian Century ، ١٦ ـ ٢٣ يوليو ١٩٨٩ . وعن علاقاتها بالرومانسية الألمانية المبكرة انظر : [٣٠٣] صفحة ٦٠ ـ ٦٣ ص ١٧٣ .

٤ ـ بشأن الانقسامات في حزب الخضر وفي أيديولوجيتهم :
« Greens Trade Insults at Birthday Party » في Handelsblatt (دوسلدورف) ، ١٥ يناير ١٩٩٠ . هذا التقرير يبين تدني وضع الخضر الألمان بينما تتبنى الأحزاب الكبرى بعضا من سياساتهم . ان أفضل وصف

للانقسام الأيديولوجى الفلسفى فى الحركة البيئية العالمية نجده فى عدد الربيع ١٩٨٩ من الدورية الفصلية New Perspectives Quartely الذى يجمع عددا كبيرا من كبار المفكرين المعنيين بالحركة البيئية ويعطى خلاصة جيدة للقضايا الفلسفية الرئيسية لهذه الحركة · وتعد هذه الدورية ، التى يحررها ناثان جاردلز من أجرأ الدوريات الأمريكية ص ١٧٥ ·

٥ ـ مقولة رودولف باهرو مأخوذة من « Theologie NotEcology » فى New Perspectives Quartely ، عدد الربيع ١٩٨٩ ، وآراء ولفجانج ساش من مقال« A Critique of Ecology » فى المصدر السابق ص ١٧٧ ·

٦ ـ آراء ايفان ايليخ مأخوذة من : « The Shadow Our Future Throws » فى المصدر السابق ، و [٥١٧] ص ١٠١ ـ ١٠٢ ، و [٢٤٠] صفحة ٨١ ص ١٧٧ ·

٧ ـ مقولة ليندا بيلمز ومارك بيفورد مأخوذة من : « Armageddon and the Greens » فى فاينانشيال تايمز ، ٣٠ ـ ٣١ ديسمبر ١٨٩٩ ص ١٧٨ ·

٨ ـ مقولة باهرو عن « هتلر أخضر » انظر : « Theology Not Ecology » فى عدد الربيع ١٩٨٩ من الدورية الفصلية New Perspectives Quartely. ص ١٧٨ ·

٩ ـ انتقاد آلان تورين للاهوتيين البيئيين وتحذيره من التخلى عن العقل : « Neo-Modern Ecology » فى المصدر السابق ص ١٧٩ ·

١٠ ـ عن الرومانسية الألمانية ونزعة العودة الى الطبيعة : « The Danger of Counter-Culture » بقلم John de Graff فى Undercurrents 21 ، أبريل ـ مايو ١٩٧٧ ، انظر كذلك [٥٨٢] ص ٥٠ ـ ٥٥ ، و [٣٨٤] لاسيما الفصل الحادى عشر ، كذلك [٣٩٠] صفحة ١٨٨ ص ١٧٩ ·

١١ ـ عن تحمس النازيين للعصور الوسطى : [٣٩١] ص ٥٠ والخريطة المرفقة ص ١٨٠ ·

١٢ ـ عن « قبيلة الخضر » (رسالة من رون جيمس) الايكونوميست ، ٢٩ يوليو ١٩٨٩ ص ١٨٠ ·

١٣ ـ بشأن القلق من هيمنة التليفزيون الأنجلو ساكسونى : « Vers un Marchè Mondial de l'Information Télévisée » بقلم Yves Eude ، فى لوموند دبلوماتيك (باريس) ، يونيو ١٩٨٨ ،

و « Hollywood PredominanceReflects Sad State of European Industry »
في Süddeutsche Zeitung (ميونخ) ٦ يناير ١٩٩٠ ص ١٨١ .

١٤ ـ عن انخفاض أسعار أطباق استقبال بث الأقمار الصناعية :
مقابلة مع دان جولدين خبير الأقمار الصناعية في شركة TRW . ص ١٨١ .

١٥ ـ رأى لوبان عن معسكرات النازية : « French Rightist
Belittles Gas Chambers » في نيويورك تايمز ، ١٦ سبتمبر ١٩٨٧ ،
انظر أيضا « Le Front National et le drapeau Nazi dans le
Champ Belge à Rotterdam » في Le Soir البلجيكية (بروكسل) ،
٣٠ نوفمبر / ١ ديسمبر ١٩٨٥ ، و « Europeans Showed Dissatisfaction
with Ruling Parties » لوس أنجلوس تايمز ، ٢٤ يونيو ١٩٨٩ ص ١٨٢ .

١٦ ـ عن أعضاء الحزب الجمهوري في ألمانيا : « Europe's Grand
Parties in a Tightening Vise » في وول ستريت جورنال ، ٢٦ يونيو
١٩٨٩ ، و « Extreme Rightists Win Frankfurt Council Seats »
في لوس أنجلوس تايمز ، ١٣ مارس ٩٨٩ « Germany's Republi Kaners
Start a Rumble on the Far Right » في وول ستريت جورنال ،
٢٤ يوليو ١٩٨٩ ، و « Is Extremist or Opportunist Behind, Boon
Rightist's Tempered Slogans ? » في نيويورك تايمز ، ٢٧ يونيو ١٩٨٩
أيضا « Millstone Instead of Milestone for Republicans » في
Süddentsche Zeitung (ميونخ) ، ١٥ يناير ١٩٩٠ ، و « Former Nazi
Quits as W. German Party Leader, Blaming Extremists » في لوس
أنجلوس تايمز ، ٢٦ مايو ١٩٩٠ ص ١٨٢ .

١٧ ـ حول المتطرفين البيئيين والمعادين للمهاجرين :
« Saboteurs for a Better Environment » في نيويورك تايمز ، ٩ يوليو
١٩٨٩ ، انظر أيضا المناقشة المنشورة على صفحات (Earth First !)
(كانتون ، ولاية نيويورك) ، وهي احدى مطبوعات المتطرفين البيئين
ص ١٨٣ .

١٨ ـ عن تنامي الشعور القومي في اليابان : « A New Japanese
Nationalism » بقلم (Ian Buruma) في مجلة نيويورك تايمز ، ١٢ أبريل
١٩٨٧ ، و « Mayor Who Faulted Hirihito is Shot » في نيويورك
تايمز ، ١٩ يناير ١٩٩٠ ، و « Attack on Nagasaki Mayer Stirs Fears
of Speaking Out » في نيويورك تايمز ، ٢١ يناير ١٩٩٠ ،
و « Rightist Held in Shooting of Blunt Nagasaki Mayor » في لوس
أنجلوس تايمز ، ١٩ يناير ١٩٩٠ ، و « Japanese See a Threat
to Democracy in Shooting of Nagasaki Mayor » في لوس أنجلوس
تايمز ، ٢٠ يناير ١٩٩٠ ص ١٨٤ .

١٩ ـ حول الديانة « اليماتوئية والتفرد المزعوم للغة اليابانية وسموها على سائر اللغات » انظر : « The Japan as Number One « Syndrome » بقلم Kunihiro Masso في (Japan Echo, Vol. XI, no 3, 1984) طوكيو ، و « A New Japanese Nationalism » بقلم Ian Buruma في مجلة نيويورك تايمز ، ١٢ أبريل ١٩٨٧ ، انظر أيضا [٤٦٠] كمصدر رئيسى عن فكرة تفرد اللغة اليابانية ، وهى فكرة لها رنين سياسى وقومى مهم جدا ص ١٨٤ ٠

٢٠ ـ عن الشوفينية الروسية : انظر [٥٥٨] ص ١٠٠ ، انظر كذلك [٣٤٧] ص ٣٨ ـ ٣٩ بشأن الفكرة التى ترى الخلاص فى القومية السلاقية وأصولها ، و [٥٤٨] بأكمله ص ١٨٥ ٠

٢١ ـ بالنسبة لتخفى منظمة « باميات » وراء قناع بيئى ومعاداتها للسامية انظر : « The Secret of Pamyat's Success » فى وول ستريت جورنال ، ٣ أبريل ١٩٨٩ ، و « Ideological Terror » (رسالة) فى Present Tense ، نوفمبر ـ ديسمبر ١٩٨٩ ، لقد أدانت اللجنة السوفيتية العامة لمناهضة الصهيونية اقتحام الغوغاء للنادى المركزى للكتاب فى موسكو يوم ١٨ يناير ١٩٩٠ وهتافهم بشعارات معادية للسامية ، وعبرت اللجنة عن « غضبها » فى بيان تحت عنوان « Statement » فى الصحيفة الأدبية السوفيتية Literaturenaya Gazéta International (موسكو) ، عدد مارس ١٩٩٠ ص ١٨٥ ٠

ثمة تعليقات أكثر تعميما فى « Right-Wing Russians » فى كريستيان ساينس مونيتور ، ١٨ يونيو ١٩٨٧ ، و « Anxiety Over Anti-Semitism Spurs Soviet Warning on Hate » فى نيويورك تايمز ، ٢ فبراير ١٩٩٠ ، « Yearing for an Iron Hand » مجلة نيويورك تايمز ، ٢٨ يناير ١٩٠٠ ، و « Anti-Semitic Rallies Prompt Protest » واشنطن بوست ١٤ أغسطس ١٩٨٨ ، و « Don't Underestimate Anti-Semitic Soviet Fringe » (رسالة) ، فى نيويورك تايمز ، ٣ أبريل ١٩٨٩ ، وانظر أيضا [٣٥٢] صفحة ٦٦ و ٨٦ ص ١٨٦ ٠

يجسد الانقسام بين المصلحين العلمانيين فى الاتحاد السوفيتى والقوميين المسيحيين الروس الاختلاف الذى يميز اثنين من المنشقين العظام والشجعان : العالم الراحل أندريه سخاروف ، الحائز على جائزة نوبل والمدافع عن حقوق الانسان ، والذى كان ديمقراطيا متجها نحو الغرب ، و Alexander Soljenitsyne الذى يجمع بين القومية الروسية والتصوف الدينى والعداء الواضح للديمقراطية ·

٢٢ ـ بشأن شوينهوبر « Is Extremist or Opportunist Behind Bonn Rightists' Tempered Slogan ? » فى نيويورك تايمز ٢٧ يونيو ١٩٨٩ ص ١٨٦ ·

الفصــل التاسع والعشرون

عامــل المعـــرفة

١ ـ حول تمكن العلم من التدخل فى المادة على مستوى أعمق بشكل متزايد انظر : « A Small Revolution Gets Under Way » بقلم روبرت بول فى مجلة ساينس ، ٥ يناير ١٩٩٠ ص ١٩٣ ٠

٢ ـ قائمة أهم الانجازات العلمية :
« Academy Chooses 10 Top Feats » فى الدورية الشهرية The Institute التى يصدرها معهد الهندسة الكهربائية والالكترونية ، عدد فبراير ١٩٩٠ ٠ ص ١٩٣ ٠

٣ ـ تعليق عن اخفاق التقنية العسكرية السوفيتية انظر :
« Dithering in Moscow » فى نيويورك تايمز ، ١٤ ديســمبر ١٩٨٩ ص ١٩٤ ٠

الفصــل الثـلاثون

المسرعــون والمبطئون

١ ـ عن العرف كأداة لاتخاذ القرارات التقنية انظر : [١٢٠] صفحة ٣٠ ص ١٩٨ ٠

٢ ـ عن تقليل الثورة الصناعية لمخاطر التجديد انظر : [١٢٠] صفحة ٣٥ ص ١٩٨ ٠

٣ ـ بالنسبة لتقلص اعتماد صناعة الملابس فى الولايات المتحدة على الملابس الأجنبيــة المصنوعة بأيد عاملة رخيصة انظر : « Made in the U.S.A. » بقلم رالف كنج فى مجلة فوربس ، ١٦ مايو ١٩٨٨ ص ٢٠٠ ٠

٤ ـ مثال شركة تــاندى : مقــابلة المؤلف مع جون روتش رئيس مجلس ادارة شركة تاندى ص ٢٠٠ ٠

٥ ـ مثال شركتى (Arrow) و (ATKINS) وما جاء فى مجلة فوربس مأخوذ من « Made in the U.S.A. » بقلم رالف كنج فى مجلة فوربس ، ١٦ مايو ١٩٨٨ ص ٢٠٠ ٠

٦ ـ حول تمكن شركة Benetton الايطالية من اختصار زمن التسليم انظر : « Fast Forward » بقلم Curtis Bill Pepper فى مجلة Business Month ، فبراير ١٩٨٦ ص ٢٠١ ٠

٧ ـ عن تأخير تسليم الصلب فى الصين انظر :
« Bureaucracy Blights China's Steel Industry » فى فايناتشيال تايمز ، ١٦ ديسمبر ١٩٨٨ ص ٢٠١ ٠

٨ ـ حول ما ذكره أومبيرتو كولمبو ، رئيس لجنة العلوم والتقنية التابعة للمجموعة الأوروبية، عن تدنى كميات المواد الأولية والطاقة اللازمة لكل وحدة من الانتاج : « The Technology Revoluion and the Restructuring of the Global Economy » بقلم أومبيرتو كولمبو فى « Proceedings of the Sixth Convocation of the Council of Academies of Engineering and Technological Sciences » ، وفى [٥٢١] صفحة ٢٣ ـ ٣١ ص ٢٠٦ .

٩ ـ عن المواد الجديدة انظر : « A Small Revolution Gets Under Way » بقلم روبرت بوول فى مجلة ساينس ، ٥ ينـاير ١٩٩٠ ص ٢٠٦ .

١٠ ـ حول قيام اليابان بنقل استثماراتها من تايوان وهونج كونج: « Political Reforms Pave Way » فى Japan Economic Journal، أول أكتوبر ١٩٨٨ ص ٢٠٧ .

١١ ـ مقولـة أومبيرتو كولمبو عن العمالـة الرخيصـة مأخوذة من [٥٢١] صفحة ٢٥ ص ٢٠٨ .

١٢ ـ عن الطائرات الفائقة السرعة والدراسة الخاصة بالاتصالات والنقل والسياحة ، راجع : « Moving Towards Supersonic Age » بقلم Jimo Tokuyama ، من مركز (Pacific Business Studies, Mitsui Research Institute) (طوكيو) ، ١٩٨٨ ص ٢٠٨ .

١٣ ـ عن مطار المليارديرِ Ross Perot انظر : « Can Ross Perot Save America ? » بقلم Peter Elkind فى Texas Monthly ، ديسمبر ١٩٨٨ ص ٢٠٩ .

١٤ ـ عن سباق التسلح فى الدول النامية انظر : « Becoming Smarter on Intelligence » بقلم Henrik Bering--Jebsen فى Insight ، ٢٦ ديسمبر ١٨٩٨ ـ ٢ يناير ١٩٨٩ ص ٢١٠ .

١٥ ـ عن الأقليات الديناميكية : « Foreigners in Britain, New Blood » فى الايكونوميست ، ٢٤ ديسمبر ١٩٨٨ ص ٢١١ .

١٦ ـ عن البرازيل والمبالغ المستحقة لشركات الأدوية الأجنبية :
« Brazil : A Practical Guide to Intellectual Property Protection »
في Business America ، ١٨ يناير ١٩٨٨ و « Whose Idea Is It Anyway ? » في الايكونوميست ، ١٢ نوفمبر ١٩٨٨ ص ٢١٢ ·

١٧ ـ توزيع الاتصالات اللاسلكية في العالم : بيانات مستقاة من (Anthony Rutkowski) المستشار الأول للاتحاد الدولي للاتصالات السلكية واللاسلكية · (جنيف) ص ٢١٤ ·

الفصـل الحادى والثـلاثون

اصطدام الشيوعية بالمستقبل

١ ـ عن آثار اختـراع جوتنبرج انظـر : « A Red Square Reformation » بقلم Robert Conot فى لوس أنجلوس تايمز ، ١١ مارس ١٩٩٠ ص ٢١٧ ٠

٢ ـ كلمة خروتشوف التى هزأ فيها من الغرب قيلت أمام مجموعة من الدبلوماسيين الغربيين وأوردتها مجلة تايـم فى مقـالها « We will Bury You » ، ٢٦ نوفمبر ص ٢١٧ ٠

٣ ـ عن نقطة تحول الاقتصـاد الأمريكى (فى عام ١٩٥٦) من الطور الصناعى المميز للموجة الثانية الى طور الخدمات ـ الاتصالات المميز للموجة الثالثة انظر : « A New Social Revolution » فى مجلة فورتشن، أبريل ١٩٥٨ ، الذى أورد أرقام عام ١٩٥٦ عن القوة العاملة ٠ بنيت هذه الأرقام على دراسة أجراها (Murray Wernick) وهو اقتصادى فى مجلس الاحتياط الفيدرالى الأمريكى ص ٢١٧ ٠

٤ ـ مقولة جورباتشوف عن « عصر علم المعلومات » : من كلمة له أمام اللجنة المركزية السوفيتية فى ٥ فبراير ١٩٩٠ ، أوردهـا القسـم الانجليزى بوكالة تاس للأنبياء ٠ وبشأن نمو طبقة ذوى الياقات البيضاء فى الاتحاد السوفيتى انظر « Gorbatchev Politics » بقلم (Jerry F. Hough) فى Foreign Affairs عدد شتاء ١٩٨٩ ـ ١٩٩٠ ، وأيضا « Médias Soviétiques : Censure Glasnot » فى مجلة لوبوان الفرنسية ، ١٢ مارس ١٩٩٠ ص ٢١٨ ٠

٥ ـ بشأن الأزمة الراهنة للشيوعية كانعكاس لمفهوم ماركس حول اعاقة « علاقات الانتاج » ل «وسائل الانتاج : لقد ناقش المؤلف هذه القضية فى عام ١٩٨٣ فى [٦٨] ص ٧٨ ، كذلك « Future Schock in Moscow »

فى الدورية الفصـــلية New Perspectives Quarterly عـــدد شـــتاء عام ١٩٨٧ ، « A Conversation with Mikhail Gorbachev » سلسلة (مقالات) بقلم هايدى وآلفين توفلر فى كريستيان مونيتور أعداد ٥ ، ٦ ، ٧ يناير ١٩٨٧ ، وفى « Socialism in Crisis » فى مجلة World Monitor ، يناير ١٩٨٩ ، بعد مقابلة مع زاو زيانج ، رئيس الحزب الشيوعى الصينى آنذاك ، فى بكين · وطرح الرأى نفسه Igor Ligatchev ، وهو عضو المكتب السياسى فى الاتحاد السوفيتى ومنافس لجورباتشوف ، فى World Marxist Review / براغ ، عدد يوليو ١٩٨٧ ، وكذلك Valentin Fiodorov ، نائب مدير معهد الاقتصاد بموسـكو ، فى مقـال بعنوان « Ignorance Is Bliss » فى Literaturnaya Gazéta International الجريدة الأدبية ــ موسكو ، مارس ١٩٩٠ ص ٢١٨ ·

٦ ــ افتراضات لينين عن دور المعرفة والثقافة ملخصة فى قوله عام ١٩٠٥ : « يجب أن يصـبح النشـاط الأدبى جزءا من مجمل قضـية البروليتاريـا ، « وترسـا » فى الآلية الكبرى للاشتراكية الديمقراطية الموحدة » ص ٢٢٠ ·

٧ ــ عن الطوبائيين والاشتراكيين فى القرن التاسع عشر انظر : [٢٦٦] ص ٢٢١ ·

٨ ــ عن « المشكلة الحسابية » للاشتراكية انظر : [١٣٣] الفصل ٢٦ المعنـون : « The Impossibility of Economic Calculation Under Socialism » ، خاصة ص ٦٨٩ ــ ٦٩٩ ، كذلك [١٢٠] ص ٥٢ ــ ٦٥ و ٢٤١ · ص ٢٢٣ ·

٩ ــ بالنسبة لتحول بولندا الى اقتصاد السوق « East Europe Joins the Market and Gets a preview of the Pain » فى نيويورك تايمز ٧ يناير ١٩٩٠ ص ٢٢٤ ·

١٠ ــ عن تدبير رأس المال اللازم لاقامة المصانع عن طريق خفض مستوى معيشة الفلاحين : [٣٧٧] ص ٢١٢ ــ ٢٢٩ ، وتفاصيل أوفى عن نظرية بريو برازينسـكى المسـماة « التراكم الاشتراكى البدائى » فى [٣٥١] ص ١٣٦ ــ ١٨٠ ص ٢٢٥ ·

١١ ـ هــل مات الحلــم الاشتراكي ؟ يحــاول بعض الاشتراكيين والشيوعيين الغربيين ـ بعد أن انتبهوا متأخرين الى ظهور النظام الجديد لخلق الثروة وما يرتبط به من تغيرات ـ أن يعيدوا تنظيم أنفسهم حول أفكار جديدة ، انظر : « It's the End of the Road for Communism » وهو مقتطف من حديث لـ Martin Jacques المسئول عن Marxism Today ، أوردته السنداى تايمز اللندنية فى عدد ٢٦ نوفمبر ١٩٨٩ • يؤكد هذا الكاتب على قضايــا البيئة والمساواة بين الجنسين وضرورة نهاية المركزية ومســاعدة « المجتمع المدنى » ، بيــد أنه يعارض الفردية مشــيرا الى أن « الاشتراكية هى الاعتماد المتبادل والتضامن والمساواة وبعث الجماعية » • ص ٢٢٧ •

الفصل الثاني والثلاثون

سلطة التوازن

١ ـ عن تنامى القدرة العسكرية الهندسية انظر :
« Last Indian Contingent, « India Rejects Jepanese Criticism »
Leaves Maldives » وكلاهما فى Jane's Defence Weekly
، ١٨ نوفمبر ١٩٨٩ ، كذلك « The Awakening of an Asian Powed »
فى مجلة تايم ، ٣ أبريل ١٩٨٩ و « India is Reportedly Ready
to Test Missile, With Range of 1500 Miles» فى نيويورك تايمز ،
٣ أبريل ١٩٨٩ . ص ٢٣٠ .

٢ ـ اشارة وليم وبستر ، مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ،
الى انتشار الصواريخ الباليستية انظر : « Third World Missile-Making
Prompts Compaign by C.I.A. » فى نيويورك تايمز ، ٣١ مارس ١٩٨٩ .
ص ٢٣٠ .

٣ ـ عن احتمال استيلاء متطرفين اسلاميين أو متمردين عسكريين
على الأسلحة النووية فى الاتحاد السوفيتى انظر :
« U.S. Worried by Nuclear Security in Unstable Soviet Empire »
فى لوس أنجلوس تايمز ، ١٥ ديسمبر ١٩٨٩ ص ٢٣٠ .

٤ ـ مقولة شينتارو ايشيهارا الشهيرة عن قدرة اليابان على الاخلال
بتوازن القوة العسكرية العالمى وذلك ببيعها الرقائق الالكترونية المتطورة
للاتحاد السوفيتى انظر : [٣١٨] ص ٣ ـ ٥ ، كذلك « Seeing a
Dependent and Declining U.S., More Japanese Adopt a Nationalistic
Spirit » فى نيويورك تايمز ، أول سبتمبر ١٩٨٩ ص ٢٣١ ـ ص ٢٣٢ .

٥ ــ عن أخطار حدوث انهيار مالى على نطاق عالمى انظر :
« A Post-Panic System » بقلم ألفين توفـــلر فى نيـــويورك تايمز ، ٢٥ أكتوبر ١٩٨٧ ، كذلك تحذيرات آن جرينسبان ، مدير بنك الاحتياط الفيدرالى الأمريكى ، من احتمال حدوث انهيار مالى على نطـــاق واسع وردت فى :
« Market Globalization Risky, Greenspan Says » فى لوس أنجلوس تايمز ، ١٥ يونيو ١٩٨٩ ص ٢٣٢ .

٦ ــ اقتراح وضع ضوابط على الميزانيات والسياسات الضرائبية لدول الجماعة الأوروبية ورد فى « تقرير ديلور » ، الذى أجازته بالاجماع لجنة من خبراء الجماعة الأوروبية ومسئولى المصـــارف المركزية فى أبريل ١٩٨٩ ، انظر « Sovereignty and Fiscal Policy » فى فاينانشيال تايمز ، ١٨ يوليو ١٩٨٩ ص ٢٣٣ .

الفصـــل الثــالث والثــلاثون

ثالوث : طوكيــو ـ برلين ـ واشنطن

١ ـ عن الانفاق العسكرى اليابانى : نتيجة لضغوط واشنطن على اليابان من أجل « تقاسم عبء » الدفاع ظلت الميزانية العسكرية اليابانية فى زيادو مستمرة حتى انهـــا الآن تتجاوز نظيرتها فى فرنســا وألمانيا الغربية ، وتعادل أو تقل قليلا عن الميزانية العسكرية البريطانية (تبعا لأسعار تحويل العملات وغيرها من العوامل) · ولا تتفوق على اليابان فى ذلك تفوقا واضحا الا الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى · لمزيد من التفاصيل انظر : [٢٨٥] ، كذلك« The State of Japan's Military Art » بقلم (Katherine T. Chen) فى IEEE Spectrum سبتمبر ١٩٨٩ ، و « Guess Who's Carrying a Bigger Stick ? » بقلم Peter Hartcher فى World Press Review يوليو ١٩٨٨ وكذلك [٢٨٣] ص ٢٣٧ ·

٢ ـ عن ظهور صناعة عسكرية متطورة فى اليابان انظر : « The State of Japan's Military Art » بقلم (Katherine T. Chen) فى IEEE Spectrum سبتمبر ١٩٨٩ ، و « The Sun Also Rises Over Japan's Technology » فى الايكونوميست ، أول أبريل ١٩٨٩ · كذلك أيضا ، المفاوضات الخاصة باقامة مشروعات مشتركة فى مجال الصناعات الحربية بين شركتى ميتسوبيشى اليابانية ودايملر ـ بنز الألمانية (المالكة لشركتى (ميزر شميت) و (دوتش ايروسبيس)) هذه المفاوضات أثارت قلق العديد من الأوروبيين ، وجسد ذلك مقــال « Colossal Mariage » فى مجلة لوبوان الفرنسية ، ١٢ مارس ١٩٩٠ ص ٢٣٨ ·

٣ ـ عن تصريح رئيس وزراء اليابان الأسبق نوبورو تاكبشيتا بأن اليابان فى حاجة الى رفع مســتوى قوتها العســكرية للتوازن مع قوتهــا الاقتصادية : « Japan : A Superpower Minus Military Power » فى لوس انجلوس تايمز ، ١١ سبتمبر ١٩٨٨ ص ٢٣٨ ·

٤ ـ عن انخفاض معدلات الادخار فى اليابان ? « Japanese Thrift
The Stereotype Suffers a Setback » فى بزنيس ويك ، ١٤ أغسطس ١٩٨٩ ، و « U.S. is Getting Whet It Asked for In Japan » لوس أنجلوس تايمز ، ٧ فبراير ١٩٩٠ ص ٢٣٩ .

٥ ـ حول ارتفاع نسبة العلماء والمهندسين فى القوة العاملة اليابانية انظر « R & D in Japan VS. The United States » فى مجلة IEEE Spectrum ، فبراير ١٩٨٩ ص ٢٤٠ .

٦ ـ بشأن نتائج مشروع « الجيل الخامس » المخيبة للآمال انظر : « What Happened to the Wonder Child ? » بقلم Stuart Dambrot فى Business Tokyo ، فبراير ١٩٨٩ ، كذلك « Fifth Generation Computer's Make U.S. Debut » فى لوس أنجلوس تايمز ، ١٢ أكتوبر ١٩٨٩ . ص ٢٤١ .

٧ ـ عن استطلاع آراء كبار التنفيذيين اليابانيين حول تقدم الولايات المتحدة واليابان فى مجال الكمبيوتر والبرامج الاعلاماتية : « Technology Leadership : The Votes are in » بقلم Booz-Allen Hamilton فى Information Industry Insights ، العدد ١٨ ، ١٩٨٨ ص ٢٤١ .

٨ ـ الشعب اليابانى أكثر شعوب العالم نهما لقراءة الصحف : « Millions a Day » بقلم Anna-Maria Waldmueller فى World Press Review ، أبريل ١٩٨٨ ص ٢٤٢ .

٩ ـ عدد الطلاب اليابانيين فى أمريكا والطلاب الأمريكيين فى اليابان : « U.S. Failing to Close its Education Gap With Japan » فى لوس أنجلوس تايمز ، ٧ يناير ١٩٩٠ ص ٢٤٣ .

١٠ ـ مقولة لينين حول أوروبا موحدة مأخوذة من : « Sotziol-Demokrat » العدد ٤٤ أغسطس ١٩١٥ ، وانظر أيضا أعمال لينين الكاملة ص ٢٤٦ .

١١ ـ حول اقتراح كول بانشاء جيش أوروبى انظر : « Kohl Praises Prospect of European Army » فى فاينانشيال تايمز ، ١٤ ديسمبر ١٩٨٨ ص ٢٤٨ .

١٢ ـ عن تكاليف أوروبا المحتملة نتيجة انسحاب الولايات المتحدة عسكريا منها انظر : [٢٨٧] صفحة ٣٧ ص ٢٤٨ .

١٣ ـ الاحصائيات الخاصة بالجيوش الفرنسية والألمانية مأخوذة من : [٢٨٦] صفحات ٤٧ ـ ٤٨ و ٥٩ ـ ٦٤ ص ٢٤٨ ·

١٤ ـ بشأن النقاش حول تخفيضات محتملة فى الموازنة انظر :
« Changing Attitudes in a Changing Europe leave the Bundeswehr at the Crossroads » فى Die Zeit (هامبورج) ٢٢ ديسمبر ١٩٨٩ · ص ٢٤٨ ·

١٥ ـ عن سياسة فرنسا الرامية الى موازنة القوات الألمانية :
«Return of the «German Menace» » بقلم Wolfgang J. Koschnick فى Worldview ، يناير ـ فبراير ١٩٧٧ ص ٢٤٨ ·

١٦ ـ بشأن « الوعود البراقة » للمجموعة الأوروبية ، انظر :
« Social Dimension to the Internal Market » وهو تقرير صادر عن (Commission of the European Communities) (بروكسل) ، ١٤ سبتمبر ١٩٨٨ ، خاصة صفحة ٤ ص ٢٥١ ·

١٧ ـ عن تزايد البحوث والتطوير فى أوروبا انظر :
« Brussels Proposes Big Rise in High-Tech Research » فى فاينانشيال تايمز ، ٢٦ يوليو ١٩٨٩ ص ٢٥٣ ·

١٨ ـ حول براءات الاختراع التى يملكها العلماء الألمان وفوزهم بجوائز نوبل فى العلوم انظر : « Ein Wissenschaftswunder ? » فى الايكونوميست ، ١١ نوفمبر ١٩٨٩ ص ٢٥٣ ·

١٩ ـ عن انهيار شركة Nixdorf الألمانية للكمبيوتر ومتاعب شركة Norsk Data النرويجية انظر : « Siemens Takeover of Nixdorf : Creates a Giant » فى Die Welt (بون) ، ١٣ يناير ١٩٩٠ ، كذلك « Norsk Data Suffers Further Losses » فى فاينانشيال تايمز ، ٧ فبراير ١٩٩٠ ص ٢٥٤ ·

٢٠ ـ عن نظرية أوروبا كقلب العالم ، انظر : [٣٣٦] و [٣٠٢]· ص ٢٥٥ ·

٢١ ـ عن حاملات الطائرات الأمريكية ، انظر [٢٨٦] ص ٢٥٥ ·

٢٢ ـ بيانات الواردات والصادرات الأمريكية مأخوذة من تقرير لوزارة التجارة الأمريكية يحمل عنوان: « U.S. Foreign Trade Highlights 1988 » ، أيضا البيان الصحفي لمكتب الاحصاء الأمريكي ، الصادر في

١٦ فبراير ١٩٩٠ تحت عنوان : « U.S. Merchandise Trade December, 1989 » انظر كذلك « New ITA Report Shows Major Improvement in U.S. Trade Performance in 1988 » فى Business America ، ٦ نوفمبر ١٩٨٩ ، صفحة ٦ و ١٢ ص ٢٦٠ ـ ص ٢٦١ .

٢٣ ـ عن براءات الاختراع : زادت براءات الاختراع الأمريكية الممنوحة لمواطنى الدول الأجنبية زيادة ثابتة منذ عام ١٩٦٥ ، ففى ذلك العام لم تتجاوز نسبة هذه البراءات ٢٣٪ ، غير ان هذه النسبة تضاعفت بحلول عام ١٩٨٩ ص ٢٦١ .

٢٤ ـ حول المقارنات فى مجال صناعة الكمبيوتر انظر : « Chiffres Clés de l'informatique mondiale » بقلم Michel Solis و Bénèdicte Haquin فى Informatique ٥١ (باريس) ، ٢٤ نوفمبر ١٩٨٩ ، و « Staying American » فى الايكونوميست ، ١٩ أغسطس ١٩٨٩ ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣ .

٢٥ ـ عن المقارنة بين عدد العلماء والمهندسين فى الولايات المتحدة واليابان انظر : « R & Din Japan VS. The United States » فى IEEE Spectrum فبراير ١٩٨٩ ص ٢٦٢ .

٢٦ ـ عن رقيقة IBM الالكترونية ذات القدرة التخزينية ١٦ مليون بيت : « IBM Announces Memory Chip Breakthrough فى لوس أنجلوس تايمز ، ١١ فبراير ١٩٩٠ ص ٢٦٣ .

٢٧ ـ حول نمو سوق البرامج الاعلاماتية راجع : Competitive Software Industry Suits up for Global Hardball » فى Insight بقلم Jeff Shear ، ١٠ يوليو ١٨٩٩ ص ٢٦٣ .

٢٨ ـ عن شهادات الدكتوراه فى اليابان : فضلت اليابان زيادة عدد حملة الماجستير بدلا من حملة الدكتوراه وتشير الاحصائيات ، عن الفترة من ١٩٧٥ الى ١٩٨٨ ، الى أن نسـبة الزيـادة فى عـدد حملة البكالوريوس كانت لا تتعدى ١٧٪ والدكتوراه ٢٦٪ ، بينما بلغت بالنسبة لحملة الماجستير ٨٤٪ ، ص ٢٦٤ .

٢٩ ـ بشأن تحالف أوروبا والولايات المتحدة ضد اليابان انظر : « The Changing Nature of the Relationship with America » فى Stuttgarter Zeitung ١٩ يناير ١٩٩٠ ، ويعبر المقال عن وجهة نظر أوروبية واسعة الانتشار ص ٢٦٦ .

الفصـــل الرابــع والثـــلاثون

المصـــــارعون العالميـــــون

١ ـ حول قضية سلمان رشدى انظر « Unrighteous Indignation » وكذلك Christian C. Muck فى Christianity Today ، ٧ أبريل ١٩٨٩ ، وكذلك « Hunted by an Angry Faith » فى مجلـة تايم ، ٢٧ فبراير ١٩٨٩ ، راجع أيضا « Freedom-to-Write Bulletin » فى (Pen American Center) مارس ١٩٨٩ ، و « Pen Defends Rushdie » الربيع ١٩٨٩ ، (International Pen U.S.A. Center West) . ص ٢٧١ ـ ص ٢٧٢ .

٢ ـ عن الدبلوماسية الكاثوليكية : « Inextricably Involved » فى America ، ٢٣ مايو ١٩٨٧ ، و « No Place to Run » فى مجلة تايم ، ٨ يناير ١٩٩٠ ، و « Pope Warns Against Divisions in the East » فى نيويورك تايمز ، ١٤ يناير ١٩٩٠ ، و « Pope Urges United Christian Europe » فى انترناشـــونال هـيرالد تريبيون ، ٢٢ أغسطس ١٩٨٩ ص ٢٧٣ .

٣ ـ عن وثيقة عام ١٩١٨ المنسية والداعية الى انشاء دولة أوروبية مسيحية عظمى انظر : [٢٣٤] ص ٢٥٦ ، و « Pope, Visiting France. Calls for a United Euurope » فى نيويورك تايمز ، ٩ أكتوبر ١٩٨٨ - ص ٢٧٣ .

٤ ـ عن ظهور ٦٠٠ شركة كبرى متعددة الجنسية انظر : « Come Back Multinationals » فى الايكونوميست ، ٢٦ نوفمبر ١٩٨٨ - ص ٢٧٥ .

٥ ـ حول عدم انتماء الشركات عبر القومية لجنسية محددة انظر :
Kenichi Ohmae بقلم «Borderless Economy Calls for New Politics»
في لوس أنجلوس تايمز ، ٢٦ مارس ١٩٩٠ ، أيضـــا « Who is Us ? »
بقلم Robert Reich في Harvard Business Review يناير ـ فبراير ١٩٩٠
ص ٢٧٥ .

٦ ـ قصة السير فرانسيس دراك مأخوذة من [٥٨٧] صفحة ٢٨ ـ
٢٩ ص ٢٧٧ .

٧ ـ عن خطة الملياردير الأمريكي Ross Perot لانقاذ مستخدميه
الأسرى في ايران « Ross Perot to the Rescue » بقلم Ron Rosenbaum
في Esquire ديسمبر ١٩٨٠ ، أيضا « Perot's Mission Impossible »
في نيوزويك ، ٥ مارس ١٩٧٩ ص ٢٧٧ .

٨ ـ مقولة الكاتب الفرنسي شـــارل مورا مأخوذة من : [٢٩١]
صفحة ٦ ص ٢٨١ .

BIBLIOGRAPHY

PHILOSOPHY OF POWER

1. Aron, Raymond **Main Currents in Sociological Thought,** Vol. II (New York, Basic Books, 1967). **(Les Etapes de la pensé sociologique).**

2. ——— **Politics and History** (New Brunswick, N.J. Transaction Books, 1984).

3. Bentham, Jeremy and John Stuart Mill, **The Utilitarians** (New York, Anchor Books, 1973).

4. Berger, Peter L., and Richard John Neuhaus, **To Empower People** (Washington, D.C., The American Enterprise Institute for Public Policy Research n.d.).

5. Bodenheimer, Edgar, **Power, Law and Society** (New York, Crane, Russak, n.d.).

6. Bogart Ernest L., and Donald L. Kemmerer, **Economic History of the American People** (New York, Longmans, Green, 1946).

7. Bottomore, T.B., **Elites and Society** (New York, Basic Books, 1964).

8. Burnham, James, **The Machievellians** (New York, John Day, 1943).

9. Calvert, Peter, **Politics, Power and Revolution** (Brighton, Sussex Wheatsheaf Books, 1983).

10. Canetti, Elias, **Crowds and Power** (New York, Seabury Press, 1978).

11. Crozier, Brian, **A Theory of Conflict** (London, Hamish Hamilton, 1974).

12. Duyvendak, J. J., ed., **The Books of Lord Shang** (London, Arthur Probsthain, 1963).

13. Field, G. Lowell, and John Higley, **Elitism** (London, Routledge & Kegan Paul, 1980.)

14. First, Ruth **Power in Africa** (New York, Pantheon Books, 1970).

15. Galbraith, John Kenneth, **The Anatomy of Power** (Boston, Houghton Mifflin, 1983).

16. Hutschnecker, A., **The Drive for Power** (New York, M. Evans, 1974).

17. Janeway, Elizabeth, **Man's World, Woman's Place** (New York, Delta Books 1972).

18. ———— **Power of the Weak** (New York, Alfred A. Knopf, 1980).

19. Jouvenel, Bertrand de, **On Power** (Boston, Beacon Press, 1969).

20. Keohane, Robert O., and Joseph S. Nye, **Power and Interdependence** (Boston, Little, 1977).

21. Konots, Alkis, ed., **Domination** (Toronto, University of Toronto Press, 1975).

22. Kropotkin Peter, **Kropotkin's Revolutionary Writings** (New York, Vanguard Press, 1927).

23. Machiavelli, Niccolo, **The Prince** (New York, Pocket Books, 1963).

24. May, Rollo, **Power and Innocence** (New York, Delta Books, 1972).

25. Milgram, Stanley, **Obedience to Authority** (New York, Harper Colophon, 1974).

26. Mills, C. Wright, **The Power Elite** (New York, Oxford University Press, 1956).

27. More, Sir Thomas, **Utopia** (New York, Washington Square Press, 1965).

28. Mudjanto, G., **The 'Concept of Power in Javanese Culture** (Jakarta, Gadjah Mada University Press, 1986).

29. Nagel, Jack, H., **The Descriptive Analysis of Power** (New Haven, Yale University Press, 1975).

30. Nietzsche, Friedrich. **The Will to Power** (New York, Vintage Books, 1968).

31. Osgood, Robert E., and Robert W. Tucker, **Force, Order, and Justice** (Baltimore and London. The Johns Hopkins Press, 1967).

32. Pye, Lucian W., with Mary W. Pye, **Asian Power and Politics** (Cambridge, Mass, The Belknap Press, Harvard University Press 1985).

33. Rueschemeyer, Dietrich, **Power and the Division of Labour** (Cambridge, Polity Pres, 1986).

34. Russel, Bertrand, **A History of Western Philosopfy** (New York, Simon and Schuster, 1972).

35. ————, **Power** (London Unwin Paperbacks, 1983).

36. Rustow, Alexander, **Freedom and Domination** (Princeton, Princeton University Press 1980).

37. Siu, R.G.H., **The Craft of Power** (New York, John Wiley and Sons, 1979).

38. Tzu, Sun, **The Art of War** (Oxford, Oxford University Press, 1963).

39. Waal, Frans, de, **Chimpanze Politics** (New York, Harper & Row, 1982).

40. Wing, R.L., **The Tao of Power** (Garden City, N.Y., Doubleday, 1986).

BUREAUCRACY AND SOCIAL ORGANIZATION

41. Becker, Gary S., **A Treatise on the Family (Cambridge, Mass., Harvard University Press, 1981).**

42. Chackerian, Richard, and Gilbert Abcarian, **Bureaucratic Power in Society** (Chicago, Nelson-Hall, 1984).

43. Crozier, Michel, **l'Entreprise à l'écoute (Paris, Interéditions,** 1989).

44. Dale, Ernest, **The Great Organizers** (New York, McGraw-Hill, 1960).

45. Davis, Stanley M., **Future Perfect (Reading, Mass., Addison,** Wesley, 1987).

46. Denhart, Robert B., **In the Shadow of Organization** (Lawrence, The Regents Press of Kansas, 1981).

47. Donzelot, Jacques, **The Policing of Families** (New York, Pantheon, 1979).

48. Dror Yehezkel, **Public Policymaking Reexamined** (New Bruns wick, N.J., Transaction Books, 1983).

49. Galbraith, John Kenneth, **The New Industrial State** (New York, New American Library, 1985).

50. Goldwin, Robert A., ed., **Bureaucrats, Policy Analysis, Statesmen: Who Leads** ? (Washington, D.C., American Enterprise Institute for Public Policy Research, 1980).

51. Gross, Ronald, and Paul Osterman, eds. **Individualism** (New York, Laurel, 1971).

52. Heald, Tim, **Networks,** London, Hodder & Stoughton, Coronet Boks, 1983).

53. Heilman, Madeline E., and Harvey A. Hornstein, **Managing Human Forces in Organizations** (Homewood, III., Richard D. Irwin 1982).

54. Hyneman Charles S., **Bureaucracy in a Democracy** (New York, Harper and Brothers, 1950).

55. Kahn, Robert L. and Elise Boulding, eds., **Power and Conflict in Organizations** (New York, Basik Books, 1964).

56. Kennedy, Marilyn Meats, **Office Politics** (New York, Warner Books 1980).

57. ———, **Powerbase** (New York, Macmillan, 1984).

58. Knight Stephen, **The Brotherland** (London, Granada Books, 1985).,

59. Le Play, Frederic, **On Family, Work, and Social Change** (Chicago University of Chicago Press, 1982).

60. Mant, Alistair, **Leaders We Deserve** (Oxford, Martin Robertson, 1983).

61. Mills, C. Wright, **White Collar** (New York, Oxford University Press, 1965).

62. Mintzberg, Henry, **Power In and Around Organizations** (Englewood Cliffs, N.J., Prentice-Hall, 1983).

63. Nachmias, David, and David H. Rosenbloom, **Bureaucratic Government USA** (New York, St., Martin's 1989).

64. Palazzoli, Mara Selvini, et al., **The Hidden Games of Organizations** (New York, Pantheon Books, 1986).

65. Quinney, Richard, The **Social Reality of Crime** (Boston, Little, Brown, 1970).

66. Rosenberg, Hans, **Bureaucracy, Aristocracy and Autocracy** (Boston, Beacon Press, 1958).

67. Toffler, Alvin, **Future Shock** (New York, Bantam Books, 1971).

68. ————, Previews and Premises(New York, Bantam Books, 1983).

69. ————, **The Third Wave** (New York, Bantam Books, 1981).

70. Weber, Max, **Economy and Society,** Vols. I and II (Berkeley, University of California Press, 1978).

71. Welch, Mary-Scott, **Networking** (New York, Warner Books, 1980)

72. Yoshino, M. Y., and Thomas B. Lifson, **The Invisible link** (Cambridge, Mass., M.I.T. Press, 1986).

BUSINESS ECONOMY FINANCE

73. Adams, Walter and James W. Brook, **Dangerous Pursuits** (New York, Pantheon Books, 1989).

74. Aguren, Stefan, et al., **Volo Kalmar Revisited : Ten Years of Experience** (Stockholm : Efficiency and Participation Development Council, 1984).

75. Aliber, Robert Z., **The International Money Game** (New York, Basic Books, 1973).

76. Applebaum, Herbert, **Work in Non-Market and Transitional Societies** (Albany, State University of New York Press, 1984).

77. Attali, Jacques, **les Trois Mondes** (Paris, Fayard, 1981).

78. Batra, Raveendra N., **The Downfall of Capitalism and Communism** (London, Macmillan Press, 1978).

79. Baudrillard, Jean, **The Mirror of Production** (St. Louis, Telos Press, 1975).

80. Belshaw, Cyril S. **Traditional Exchange and Modern Markets** (London, Prentice-Hall, 1965).

81. Bhagwati, Jagdish, **Protectionism** (Cambridge Mass., M.I.T. Press, 1988).

82. Brenner, Y.S., **Theories of Economic Development and Growth** (London, George Allen & Unwin, 1966).

83. Bruck, Connie, **The Predators' Ball** (New York, Simon and Schuster, 1988).

84. Canfield, Case, **The Incredible Pierpont Morgan** (New York, Harper & Row 1974).

85. Casson Mark, **Alternatives to the Multinational Enterprise** (London Macmillan Press, 1979).

86. Clough, Shepard B., Thomas Moodie and Carol Moodie, eds., **Economic History of Europe** : Twentieth Century (New York, Harper & Row, 1968).

87. Cornwell, Rupert, **God's Banker** (New York, Dodd, Mead, 1983).

88. Crowther Samuel, **America Self-Contained** (Garden City, N.Y., Doubleday, Doran, 1933).

89. Denman, D.R., **Origins of Ownership** (London, George Allen & Unwin, 1958).

90. Diwan, Romesh, and Mark Lutz, eds., **Essays in Gandhian Economics** (New Delhi, Gandhi Peace Foundation, 1985).

91. Dressler, Fritz. R. S., and John W. Seybold, **The Entrepreneurial Age** (Media, Pa., Seybold Publications, 1985).

92. Ehrlich, Judith Ramsey, and Barry J. Rehfeld, **The New Crowd** (Boston, Little, Brown, 1989).

93. Evans Thomas G., **The Currency Caronsel** (Princeton, N. J., Dow Jones Books, 1977).

94. Frank, Charles R. Jr., **Production Theory and Indivisible Commodities** (Princeton, Princeton University Press, 1969).

95. Friedman, Alan, **Agnelli** (New York, New American Library, 1989).

96. Galbraith, John Kenneth, **Money : Whence It Came Where It Went (Boston,** Houghton Mifflin, 1975).

97. Giarini, Orio, ed., **Cycles, Value and Employment** (Oxford, Pergamon Press, 1984).

98. ————, **The Emerging Service Economy** (Oxford, Pergamon Press, 1987).

99. ————, and Jean Remy Roulet, eds., **l'Europe face à la nou. Velle économie de** service (Paris, Presses Universitaires de France, 1988.

100. Giarini, Orio, and Walter R. Stahel, **The Limits to Certainty : Facing Risks in the New Service Economy** (Geneva, The Risk Institute Project, n.d.).

101. Gib, George Sweet, and Evelyn H. Knowlton, **The Resurgent Years** : 1911-1927 (New York, Harper and Brothers, 1956).

102. Gregerman, Ira B., **Knowledge Worked Productivity** (New York, A.M.A. Management Briefing, 1981).

103. Gurwin, Larry, **The Calvi Affair** (London, Pan Books, 1983).

104. Gwynne, S. C., **Selling Money** (New York, Weidenfeld and Nicolson, 1986).

105. Herman, Edward S., **Corporate Control, Corporate Power** (New Yok, Cambridge University Press, 1981).

106. Jackson, Stanley, **J. P. Morgan** (New York, Stein and Day, 1983).

107. Jones, J. P., **The Money Story** (New York, Drake Publishers, 1973).

108. Josephson, Matthew, **The Robber Barons** (New York, Harcourt, Brace & World, 1962).

109. Kahn, Joel S., and J. R. Llobera, **The Anthropology of Pre-Capitalist Societies** (London, Macmillan Press, 1981).

110. Kamioka, Kazuyoshi, **Japanese Business Pioneers (Singapore,** Times Books International, 1986).

111. Kanter, Rosabeth Moss, **Men and Women of the Corporation** (New York, Basic Books, 1977).

112. Keen, Peter G. W., **Competing in Time** (Cambridge, Mass., Ballinger, 1986)

113. Kenwood, A. G., and A. L. Loughteed, **The Growth of the International Economy** 1820-1960 (London, George Allen and Unwin, 1973).

114. Keynes, John Maynard, **The General Theory of Employment, Interest, and Money** (New York, Harbinger Books 1964).

115. Kindleberger, Charles P., **Manias, Panics asnd Crashes** (New York, Basic Books, 1978).

116. Knowles, L. C.A., **The Industrial and Commercial Revolutions in Great Britain During the Nineteenth Clntury** (New York, E.P. Dutton, 1922).

117. Kornia, Janos, **Anti-Equilibrium (Amsterdam, North-Holland** Publishing 1971).

118. Kotz, David M., **Bank Control of Large Corporations in the United States** (Berkeley. University of California Press, 1978).

119. Lamarter, Richard Thomas de, **Big Blue** (New York, Dodd, Mead, 1986).

120. Lavoie, Don, **National Economic Planning : What Is Left ?** (Cambridge, Mass., Ballinger, 1985).

121. Le Clair, Edward E., Jr., and Harold K. Schneider, **Economic Anthropology** (New York, Holt, Rinehart and Winston, 1968).

122. Lens, Sidney, **The Labor Wars** (Garden City, N. Y., Doubleday, 1973).

123. Levin, Doron P., **Irreconcilable Differences** (Boston, Little-Brown, 1989).

124. Levinson, Harry, and Stuart Rosenthal, **CEO** (New York, Basic Books, 1984).

125. Loebl, Eugen, **Humanomics** (New York, Random House, 1976)

126. Maccoby, Michael, **Why Work** (New York, Simon and Schuster, 1988).

127. Madrick, Jeff **Taking America** (New York, Bantam Books, 1987).

128. Mattelart, Armand, **Multinational Corporations and the Control of Culture** (Atlantic Highlands, N.J. Humanities Press, 1982).

129. Mayer, Martin, **The Bankers** (New York, Weybright and Talley, 1974).

130. McCartney, Laton, **Friends in High Places : the Bechtel Story** (New York, Simon and Scuster, 1988).

131. McQuaid, Kim, **Big Business and Presidential Power** (New York, William Morrow, 1982).

132. Meyers, Gerald C., and John Holusha, **When It Hits the Fan** (London, Unwin Hyman, 1986).

133. Mises, Ludwig von, **Human Action** (New Haven, Yale University Press, 1959).

134. Mohn, Reinhard, **Success Through Partnership** (New York, Doubleday, 1986).

135. Monden, Yasuhiro, et al., **Innovations in Management** (Atlanta, Industrial Engineering and Management Press, 1985).

136. Moskowitz Milton, **The Global Marketplace** (New York, Macmillan, 1988).

137. Mueller, Robert K., **Corporate Networking** (New York, Free Press, 1986).

138. Naniwada, Horouo, **The Crisis** (Tokyo, The Political Economic Club, 1974).

139. Naylor, R. T., **Hot Money** (New York, Simon and Schuster, 1987).

140. Noonan, John T. Jr., **Bribes** (New York, Macmillan, 1984).

141. Nussbaum, Arthur, **A History of the Dollar** (New York, Columbia University Press, 1957).

142. O'Driscoll, Gerald P., Jr., and Mario J. Rizzo, **The Economics of Time and Ignorance** (Oxford Basil Blackwell, 1985).

143. O'Toole, Patricia, **Corporate Messiah** (New York William Morrow, 1984).

144. Peacock, William P., **Corporate Combat** (New York, Facts on File, 1984).

145. Polanyi, Karl, **The Great Transformation** (Boston, Beacon Press, 1957).

146. Pye, Michael, **Moguls** (New York, Holt, Rinehart and Winston, 1980).

147. Raymond, H. Alan, **Management in the Third Wave (Glenview, Ill. Scott, Foresman, 1986).**

148. Robertson, James, **Power, Money and Sex** (London, Marion Boyars, 1976).

149. ———, **Profit or People** ? (London, Calder & Boyars, 1974).

150. Ropke, Wilhelm, **Economics of the Free Society** (Chicago, Henry Regnery, 1963).

151. Saeed, Syed Mumtaz, **The Managerial Challenge in the Third World** (Karachi, Academy of Ideas, 1984).

152. Sampson, Anthony, **The Money Lenders** (New York, Viking Press, 1981).

153. Schumpeter, Joseph A., **Ten Great Economists** (New York, Oxford University Press, 1965).

154. Sculley, John, With John A. Byrne, **Odyssey : Pepsi to Apple** (New York, Harper & Row, 1987).

155. Singer, Benjamin D., **Advertising and Society** (Don Mills, Ontario, Addison-Wesley, 1986).

156. Smith, Adam, **The Wealth of Nations** (New York Modern Library, 1937).

157. Sobel, Robert **IBM, Colossus in Transition** (New York Bantam Books, 1981).

158. ————, **The Money Manias** (New York, Weybright and Talley, 1973).

159. Soule, George, **Ideas of the Great Economists** (New York, Mentor Books, 1955).

160. Staff, Robert, and Francis Tannian, **Externalities** (New York, Dunellen, n.d.).

161. Stadnnichenko, A., **Monetary Crisis of Capitalism** (Moscow, Progress Publishers, 1975)

162. Stevens, Mark, **The Accounting Wars** (New York, Macmillan, 1985).

163. Stewart, Alex, **Automating Distribution : Revolution in Distribution, Retailing and Financial Services**, Japan Focus (London; Baring Securities 1987).

164. Toffler, Alvin, **The Adaptive Corporation** (New York, Bantam Books, 1985).

165. Tosches, Nicks, **Power on Earth** (New York, Arbor House, 1986)

166. Toyoda, Eiji, **Toyota : Fifty Years in Motion** (Tokyo, Kodansha, 1987).

167 Woo, Henry K. H., **The Unseen Dimensions of Wealth** (Fremont, Cal., Victoria Press, 1984)

168. Zaleznik, Abraham, and Manfred F. R. Kets de Vries, **Power and the Corporate Mind** (Boston, Houghton Mifflin, 1975).

169. Zuboff, Shoshana, **In the Age of the Smart Machine — The Future of Work and Power** (New York, Basic, Books, 1988).

MEDIAS

170. Bailey, George **Armageddon in Prime Time** (New York Acon Avon Books, 1984).

171. Barnouw, Erik, **Mass Communication** (New York, Rinehart, (1956).

172. Biryukov, N. S., **Television in the West and Its Doctrines** (Moscow, Progress Publishers, 1981).

173. Enzensberger, Hans Magnus, **The Consciousness Industry** (New York, Seabury Press, 1974)

174 Freches José, **la Guerre des images** (Paris, Editions Denoël, 1986)

175. Gourévitch Jean-Paul, **la Politique et ses images** (Paris Edilig, 1986)

176. Grachev, Anderei, and N. Yermoshkin, **A New Information Order or Psychological Warfare ?** (Moscow, Progress Publishers, 1984)

177. Orwell, George, **1984** (New York, New American Library, 1961).

178. Ranney, Austin, **Channels of Power** (New York, Basic Books, 1983).

179. Stephens, Mitchel, **A History of the News** (New York, Viking Press 1988).

180. Whittemore, Hank, CNN : **The Inside Story** (Boston, Little, Brown, 1990).

POLITICS, GOVERNMENT AND STATE

181. Allison, Graham T. **Essence of Decision** (Boston, Little, Brown, 1971).

182. Bennett, James T., and Thomas J. Dilorenzo, **Underground Governemnt** (Washington, D.C., Cato Institute, 1983).

183. Bergman, Edward F., **Modern Political Geography** (Dubuque, Ind., William C. Brown, 1975).

184. Boaz, David, ed., **Left, Right and Babyboom** (Washington, D.C. Cato Institute, 1986).

185. Bruce-Briggs, B., ed. **The New Class ?** (New York, McGraw-Hill, 1979).

186. Cao-Garcia, Ramon J., **Explorations Toward an Economic Theory of Political Systems** (New York, University Press of America, 1983).

187. Capra, Fritjof, and Charlene Sprentnak, **Green Politics** (New York, E. P. Dutton, 1984).

188. Carter, April, **Authority and Democracy** (London, Routledge & Kegan Paul, 1979) .

189. Chesneaux, Jean, **Secret Societies in China** (Ann Arbor, University of Michigan Press, 1971).

190. Coker, F. W., **Organismic Theories of the State** (New York, AMS Press, 1967).

191. Commanger, Henry Steele, ed., **Documents of American History** (New York, F. S. Crofts, 1943).

192. Crozier, Michel, **The Trouble With America** (Berkeley, University of California Press, 1984).

193. Ford, Franklin L., **Political Murder** (Cambridge, Mass., Harvard university Press, 1985).

194. Franc, Thomas, M., and Edward Weisband, eds., **Secrecy and Foreign Policy** (New York, Oxford University Press, 1974).

195. Gingrich Newt, **Window of Opportunity**. (New York For Books, 1984).

196. Greenberger, Martin, Mathew A. Crenson, and Brian L. Crissey, **Models in the Policy Process** (New York, Russel Sage Foundation, 1976).

197. Greenstein, Fred I., **Leadership in the Modern Presidency** (Cambridge, Mass., Harvard University Press, 1988).

198. Henderson, Nicholas, **The Private Office** (London, Weidenfeld and Nicolson, 1984).

199. Hess, Stephen, **The Government/Press Connection** (Washington, D.C., The Brookings Institution, 1984).

200. Johnson, Chalmers, **Revolutionary Change** (Boston, Little, Brown, 1966).

201. Kernell. Samuel, and Samuel L. Popkin, **Chief of Staff** (Los Angeles, University of California Press, 1986).

202. King, Anthony, ed., The **New American Political System** (Washington, D.C., American Enterprise Institute for Public Policy Research 1979).

203. King, Dennis, **Lyndon La Rouche and the New American Fascism** (New York, Doubleday, 1989).

204. Krader, Lawrence, **Formation of the State** (Englewood Cliffs, N.J. Prentice-Hall, 1968).

205. Kyemba, Henry, **State of Blood** (London, Corgi Books, 1977).

206. Laski, Harold J., **The American Democracy** (New York, Viking Press, 1948).

207. ————, **Authority in the Modern State** (Hamden, Conn., Archon Books, 1968).

208. Lebedoff, David, **The New Elite** (New York, Franklin Watts, 1981).

209. Lindblom, Charles E., **Politics and Markets** (New York, Basic Books, 1977).

210. Mafud, Julio, **Sociologia del personismo** (Buenos Aires, Editorial Americalee, 1972).

211. Matthews, Christopher, **Hardball** (New York, Summit Books, 1988).

212. Morgan, Robin, **The Anatomy of Freedom** (Garden City, N.Y., Doubleday, Anchor Press, 1984).

213. Navarro Peter, **The Policy Game** (New York, John Wiley and Sons, 1984).

214. Nelson, Joan M., **Access to Power** (Princeton, Princeton University Press, 1979).

215. Neustadt, Richard E., **Presidential Power** (New York, John Wiley and Sons, 1960).

216. Oppenheimer, Franz, **The State** (New York, Free Life Editions, 1914).

217. Perlmutter, Amos, **Modern Authoritarianism** (New Haven, Yale University Press, 1981).

218. Perry, Roland, **Hidden Power** (New York, Beaufort Books, 1984).

219. Ponting, Clive, **The Right to Know** (London, Sphere Books, 1985).

220. Reed, Steven R., **Japanese Prefectures and Policymaking** (Pittsburgh, University of Pittsburgh Press, 1986).

221. Regan Donald T., **For the Record** (San Diego, Harcourt Brace Jovanovich, 1988).

222. Reszllr, André, **Mythes politiques modernes** (Paris, Presses Universitaires de France, 1981).

223. Rubin, Barry, **Secrets of State** (New York, Oxford University Press, 1985).

224. Sagan, Eli, **At the Dawn of Tyranny** (New York, Random House, 1985).

225. Savas, E. S., **Privatizing the Public Sector** (Chatham, N.J., Chatham House, 1982).

226. Spencer, Herbert, **The Man vs the State** (London, Watts, 1940).

227. Stockman, David A., **The Triumph of Politics** (New York, Harper & Row, 1986).

228. Straussman, Jeffrey D., **The Limits of Technocratic Politics** (New Brunswick, N.J., Tranasction Books, 1978).

229. Tower, John, et al., **The Tower Commission Report : President's Special Review Board** (New York, Times Books, 1987).

230. Wolferen, Karl van., **The Enigma of Japanese Power** (New York, Alfred A. Knopf, 1989).

231. Woronoff, Jon, **Politics the Japanese Way** (Tokyo, Lotus Press, 1986).

RELIGION

232. Appel, Willa, **Cults in America** (New York, Holt, Rinehart and Winston, 1983).

233. Bakunin, Michael, **God and the State** (New York, Dover Publications, 1970).

234. Barthel, Manfred, **The Jesuits** (New York, William Morrow, 1984).

235. Breton, Thierry, **Vatican** III (Paris Laffont, 1985).

236. Chai, Ch'u, and Winberg Chai, **Connfucianism** (New York, Barron's Educational Series, 1973).

237. Gardner, Martin, **The New Age : Notes of a Fringe Watcher** (New York, Prometheus Books, 1988).

238. Hoffer, Eric. **The True Believer** (New York, Harper & Row. 1966).

239. Holtom, D.C., **The National Faith of Japan** (London, Kegan Paul, Trench, Trubner, 1938).

240. Illich, Ivan, **Celebration of Awareness** (New York, Double-day, 1970).

241. Levi, Peter, **The Frontiers of Paradise** (New York, Weidenfeld & Nicolson, 1987).

242. Lo Bello, Nino, **The Vatican Papers** (London, New English Library, 1982).

243. Martin, Malachi, **The Jesuits** (New York, Linden Press, 1987). français : les Jésuites).

244. Mortimer, Edward, **Faith and Power** (New York, Vintage Books, 1982).

245. Murakami Shigeyoshi, Japanese **Religion in the Modern Century** (Tokyo, University of Tokyo Press, 1983).

246. Murphy, Thomas Patrick, ed., **The Holy War** (Columbus, Ohio State University Press, 1976).

247. Pipes, Daniel. **In the Path of God** (New York, Basic Books. 1983).

248. Rodinson, Maxime, **Islam and Capitalism** (New York, Pantheon Books, 1973).

249. Sardar, Ziauddin, **Islamic Futures** (London, Mansell Publishing, 1985).

250. Schultz, Ted, ed, **The Fringes of Reason** (New York, Harmony Books 1989).

251. Swidler, Leonard, ed., **Religious Liberty and Human Rights in Nations and in Religions** (Philadelphia, Ecumenical Press, 1986).

252. Thomas, Gordon, and Max Morgan-Witts, **Pontiff** (New York, Doubleday, 1983).
253. Tsurumi, Kazuko, **Aspects of Endogenous Development in Modern Japan**, Part II, **Religious Beliefs : State Shintoism** vs. **Folk Belief** (Tokyo, Sophia University, 1979).
254. Wright, Robin, **Sacred Rage** (New York, Linden Press, 1985).
255. Yallop, David A. **In God's Name** (New York, Bantam Books, 1984).

ARMY

256. Aron, Raymond, **On War** (New York, W. W. Norton, 1968). en français : **De la guerre).**
257. Baynes, J.C.M., **The Soldier in Modern Society** (London, Eyre Methuen, 1972).
258. Best, Geoffrey, **War and Society in Revolutionary Europe, 1770-1870** (Bungay, U.K., Fontana Paperbacks, 1982).
259. Blight, James G., and David A. Welch, **On the Brink** (New York, Hill and Wang, 1989).
260. Creveld, Martin Van, **Command in War** (Cambridge, Mass, Harvard University Press, 1985).
261. Cross, James Eliot, **Conflict in the Shadows** (Garden City, N.Y., Doubleday, 1963).
262. De Gaulles, Charles, **The Edge of the Sword** (Westport, Conn., Greenwood Press, 1975).
263. Dixon, Norman, **On the Psychology of Military Incompetence** (London, Futura Publications, 1976).
264. Fletcher, Raymond, **£60 a Second on Defence** (London, Macgibbon & Kee, 1963).
265. Ford, Daniel, **The Button** (New York, Simon and Schuster, 1985)-
266. Gabriel, Richard A., **Military Incompetence** (New York, Hill and Wang, 1985).
267. Geraghty, Tony, **Inside the S.A.S.** (New York, Ballantine Books, 1980).

268. Kaplan, Fred, **The Wizards of Armageddon** (New York, Simon and Schuster, 1983).

269. Levy, Jack S., **War in the Modern Great Power Syrtem 1495-1975** (Louisville, University of Kentucky Press, 1983).

270. Liddell Hart, B.H., **Europe in Arms** (London, Faber and Faber, 1957).

271. Mackenzie, W.J.M., **Power Violence, Decision** (Middlesex, Penguin Books, 1975).

272. Millis, Walter, **The Martial Spirit** (Cambridge, Mass. Literary Guild of America, 1931).

273. Morison, Samuel Eliot, **American Contributions to the Strategy of World *War* II** (London, Oxford University Press, 1958).

274. Moro, Comodoro R. Ruben, **Histoica del conflicto del Atlantico sur** (Buenos Aires, Ecsuela Superior de Guerra Aerea, 1985).

275. Organski, A.F.K., and Jacek Kugler, **The War Ledge** (Chicago. University of Chicago Press, 1980).

276. Pfannes, Charles E., and Victor A. Salamona, **The Great Commanders of World *War* II**, Vol. III, **The Americans** (Don Mills, Ontario, General Paperbacks, 1981).

277. Portela, Adolfo, et al., **Malvinas su advertencia termonuclear** (Buenos Aires, A-Z Editora, 1985).

278. Price, Alfred, **Air Battle Central Europe** (New York, The Free Press, 1987).

279. Rivers, Gayle, **The Specialist** (New York, Stein and Day, 1985).

280. Sadler, A.L., trans **The Code of the Samurai** (Rutland, Vt., and Tokyo, Charles E. Tuttle 1988).

281. Sharp, Gene, **The Politics of Nonviolent Action** (Boston, Porter Sargent, 1973).

282. Starr, Chester G., **The Influence of Sea Power on Ancient History** (New York, Oxford University Press, 1989).

283. **Defense of Japan.** White Paper from the Defense Agency, Japan, translated into English by the **Japan Times** (Tokyo : Japan Times, 1988).

284. **Discriminate Deterrence** (Washington, D.C., The Commission On Integrated Long-Term Strategy, 1988).

285. **The Military Balance, 1989-1990** (London, International Institute for Strategic Studies, 1989).

286. **A Quest for Excellence,** Final Report to the President (Washington, D.C., The President's Blue Ribbon Commission on Defense Management, 1986).

287. **Strategic Survey, 1988-1989** (London, International Institute for Strategic Studies, 1989).

INTERNATIONAL RELATIONS

288. Adams, James, **The Financing of Terror** (London, New English Library, 1986).

289. Amin, Samir, **Accumulation on a World Scale** (New York, Monthly Review Press, 1974).

290. Bibo, Istvan, **The Paralysis of International Institutions and the Remedies** (New York, John Wiley and Sons, 1976).

291. Blazy, Jean-Claude, **le Petit Livre rouge du nationalisme** (Paris, Nouvelles Editions Debresse, n.d.).

292. Booth, Ken, **Strategy and Ethnocentrism** (London Croom Helm, 1979).

293. Brown, Lester R., et al.. **Stateof the World, 1990** (New York, W. W. Norton, 1990).

294. Burnham, James, **The War *We* Are In** (New Rochelle N.Y., Arlington House, 1967).

295. Burstein, Daniel, **Yen !** (New York, Simon and Schnster, 1988).

296. Buruma, Ian, **God's Dust** (New York, Farrar Strans & Giroux, 1989).

297. Chafetz, Ze'ev, **Members of the Tribe** (New York, Bantam Books, 1988).

298. Close, Upton, **Behind the Face of Japan** (New York, Appleton-Century, 1934).

299. Colby, Charles C., ed., **Geographic Aspects of International Relations** (Port Washington, N.Y., Kennikat Press, 1970).

300. Crenshaw, Martha, ed., **Terrorism, Legitimacy, and Power** (Middletown, Conn., Wesleyan University Press, 1983).

301. Davidson, William H., **The Amazing Race** (New York, John Wiley and Sons, 1984).

302. Dorpalen, Andreas, **The World of General Haushofer** (Port Washington, N.Y., Kennikat Press, 1942).

303. Elon, Amos, **The Israelis Founders and Sons** (New York, Holt, Rinehart and Winston, 1971)

304. Emmott, Bill, **The Sun Also Sets** (New York, Times Books, 1989).

305. Gilpin, Robert, **U.S. Power and the Multinational Corporation** (New York, Basic Books, 1975).

306. ———, **War and Change in World Politics** (Cambridge, Cambridge University Press, 1981).

307. Glenn, Edmund S., and Christine Glenn, **Man and Mankind** (Norwood, N.J., Ablex Publishing, 1981).

308. Hall Edward T., and Mildred Reed Hall, **Hidden Differences** (New York, Anchor Press, 1987).

309. Harris, Marvin, **Culture,** People, Nature, 2d ed (New York, Harper & Row, 1975).

310. Hofheinz, Roy, Jr., and Kent E. Calder, **The Eastasia Edge** (New York, Basic Books, 1982).

311. Hoyt, Edwin P., **Japan's War** (New York, McGraw-Hill, 1986).

312. Huppes, Tjerk, **The Western Edge** (Dordrecht, the Netherlands, Kluwer Academic Publishers, 1987).

313. Kaplan, David E., and Alec Dubro, **Yakuza (Menlo Park, Cal.**, Addison-Wesley, 1986).

314. Margiotta, Franklin D., and Ralph Sanders, eds., **Technology, Strategy, and National Security** (Washington, D.C., National Defense University Press, 1985).

315. Mende, Tibor, **From Aid to Re-colonization** (New York, New York University Press, 1981).

316. Miller, Abraham H., **Terrorism and Hostage Negotiations** (Boulder, Col., Westview Press, 1980).

317. Miller, Roy Andrew, **Japan's Modern Myth** (New York, Weather hill, 1982).

318. Morita, Akio, and Shintaro Ishihara, **The Japan That Can Say « No »** (Washington, D.C., English translation and edition attributed to the Pentagon, 1989).

319. Morita, Akio, Edwin M. Reingold, and Mitsuko Shimomura, **Made in Japan** (New York E. P. Dutton, 1986).

320. Nakdimon, Shlomo, **First Strike** (New York Summit Books, 1987).

321. Nixon, Richard, **Nor More Vietnams** (New York, Arbor House, 1985).

322. Ohmae, Henichi, **Beyond National Borders** (Homewood, Ill., Dow Jones-Irwin, 1987).

323. ————, **Triad Power** (New York Free Press, 1985).

324. Palmer, John, **Europe Without America ?** (Oxford, Oxford Univesity Press, 1987).

325. Park, Jae Kyu and Jusuf Wanandi, eds., **Korea and Indonesia in the Year 2000** (Seoul Kyungnam University Press, 1985).

326. Pepper, David, and Alan Jnnkins, eds., **The Geography of Peace and War** (New York, Basil, and Blackwell, 1985).

327. Priestland Gerald, **The Future of Violence** (London, Hamish Hamilton, 1974).

328. Pujol Davila, José, **Sistema y poder geopolitico** (Buenos Aires Ediciones Corregidor, 1985).

329. Rangel, Carlos, **The Latin Americans : Their Love-Hate Relationship with the United States** (New York, Harcourt Brace Jovanovich, 1979).

330. ————, **Third World Ideology and Western Reality** (New Brunswick, N.J., Transaction Books, 1986).

331. Rosecrance, Richard, **The Rise of the Trading State** (New York, Basic Books, 1986).

332. Said, Abdul A., and Luiz R. Simmons, eds., **The New Sovereigns** (Englewood Cliffs, N.J., Prentice-Hall, 1975).

333. Sampson, Geoffrey, **An End to Allegiance** (London, Temple Smith, 1984).

334. Soto, Hernando de, **The Other Path** (New York, Harper & Row, 1989).

335. Sterling, Claire, **The Terror Network** (New York, Berkley Books 1981).

336. Strausz-Hupe, Robert, **Geopolitics** (New York, G.P. Putnam's Sons, 1942).

337. Suter, Keith, Reshaping the Global Agenda (Sydney, U.N. Association of Australia, 1986).

338. Talbott, Strobe, **Deadly Gambits** (New York, Alfred A. Knopf, 1984).

339. Tsurumi, Shunsuke, **A Cultural History of Postwar Japan** (London, KPI, 1987).

340. Walter, Ingo, **Secret Money** (London, George Allen & Unwin, 1985).

341. Wanandi, Jusuf, **Security Dimensions of the Asia-Pacific Region in the 80's** (Jakarta, Centre for Strategic and International Studies, 1979).

342. Wiarda, Howard J., **Ethnocentrism in Foreign Policy** (Washington, D.C., American Entreprise Institute for Public Policy Research 1985).

343. Wyden, Peter, *Wall* (New York, Simon and Schuster, 1989).

344. Young, George K., **Finance And World Power** (London, Thomas Nelson, 1968).

SOCIALISM & MARXISM

345. Aganbegyan, Abel, ed., **Perestroika 1989** (New York, Charles Scribner's Sons, 1988).

346. Althusser, Louis, and Etienne Balibar, **Reading Capital** (New York, Pantheon Books, 1970).

347. Amalrik, Andrei, **Will the Soviet Union Eurvive Until 1984 ?** (New York, Perennial Library, 1970).

348. Baldwin, Roger N., ed., **Kropotkin's Revolutionary Pamphlets: A Collection of Writings by Peter Kropotkin** (New York, Dover Publications, 1970).

349. Brzezinski, Zbigniew, **The Grand Failure : The Birth and Death of Communism in the 20th Century** (New York, Charles Scribner's Sons, 1989).

350. ————, and Samuel P. Huntington, **Political Power : USA/USSR** (New York, Viking Press, 1963).

351. Cohen, Stephen F., **Bukharin and the Bolskevik Revolution** (New York, Alfred A. Knopf, 1973).

352. ————, and Katrina Vanden Heuvel, **Voices of Glasnost** (New York, W. W. Norton, 1989).

353. Daniels, Robert V., **Russia : The Roots of Confrontation** (Cambridge, Mass, Harvard University Press, 1985).

354. De Brunhoff, Suzanne, **Marx on Money** (New York, Urizen Books, 1976).

355. Carrère d'Encauses, Hélène, **Confiscated Power** (New York Harper & Row, 1982).

356. Fine, Ben, and Laurence Harris, **Rereading Capital** (London, Macmillan Press, 1979).

357. Fletcher, Raymond, **Stalinism** (Heanor, U.K., Byron House Publications, n.d.).

358. Frankel, Boris, **Beyond the State ? Dominant Theories and Socialist Strategies** (London, Macmillan Press, 1983).

359. Friedgut, Theodore H., **Political Participation in the USSR** (Princeton, Princeton University Press, 1979).

360. Frolov, I., **Global Problems and the Future of Mankind** (Moscow, Progress Publishers, 1982).

361. Gorbatchev, Mikhail, **Selected Speeches and Articles** (Moscow, Progress Pubishers, 1987).

362. Grachev. Andrei, **In the Grip. of Terror** (Moscow Progress Publishers, 1982).

363. Hamrin, Carol Lee, **China and the Challenge of the Future** (San Francisco, Westview Press, 1990).

364. James, Donald, **The Fall of the Russian Empire** (New York, Signet Books, 1982).

365. Kraus, Richard Curt, **Class Conflict in Chinese Socialism** (New York, Columbia University Press, 1981).

366. Lichtheim, George, **The Origins of Socialism** (New York, Freederick A. Praeger, 1969).

367. Loebl, Eugen, **Stalinism in Prague** (New York, Grove Press, 1969).

368. Marx, Karl, **Capital,** Vol. I (New York, International Publishers, 1939).

369. ————, F. Engels, and V. Lenin, **On Historical Materialism, A Collection** (Moscow, Progress Publishers, 1972).

370. McMurtry, John **The Structure of Marx's World-View** (Princeton University Press, 1978).

371. Muqiao, Xue, **China's Socialist Economy** (Beijing, Foreign Languages Press, 1981).

372. Pan, Lynn, **The New Chinese Revolution** (Chicago, Contemporary Books, 1988).

373. Possony, Stefan T., ed., **The Lenin Reader** (Chicago, Henry Regnery, 1966).

374. Poster, Mark, **Foucault, Marxism and History** (Oxford, Polity Press, 1984).

375. Rigby, T. H., Archie Brown, and Peter Reddaway, eds., **Authrity, power and Policy in the USSR** (London, Macmillan Press, 1980).

376. Sassoon, Anne Showstack, **Approaches to Gramsci** (London, Writters and Readers Publishing Cooperative Society, 1982).

377. Sherman, Howard, **Radical Political Economy** (New York, Basic Books, 1972).

378. Sik, Ota, **The Communist Power System** (New York, Praeger Publishers, 1981).

379. Starr, John Bryan, **Continuing the Revolution : The Political Thought of Mao** (Princlton, Princeton University Press, 1979).

380. Wilson, Dick, **The Sun at Noon** (London, Hamish Hamilton, 1986).

381. Zamoshkin, Yu. A., **Problems of Power and Management Under the Scientific Technological Revolution** (Moscow, Soviet Sociological Association, 1974).

FASCISM

382. Beradt, Charlotte, **The Third Reich of Dreams** (Wellingborough, U.K., Aquarian Press, 1985).

383. Friedlander, Saul, **Reflections on Nazism** (New York, Avon Books, 1984).

384. Glaser, Hermann, **The Cultural Roots of National Socialism** (Austin, University of Texas Press, 1978).

385. Gregor, A. James, The Fascist Persuasion in Radical Politics (Princeton, Princeton University Press, 1974).

386. ————, **The Ideology of Fascisn** (New York, The Free Press, 1969).

387. Hitler, Adolf, **Mein Kampf** (Boston, Houghton Mifflin, 1971).

388. Laqueur, Walter, **Fascism : A Reader's Guide** (Berkeley, University of California Press, 1976).

389. Lewin, Ronald, **Hitler's Mistake** (New York, William Morrow, 1984).

390. Mosse, George L., **The Crisis of German Ideology** (London, Weidenfeld and Nicolson, 1964).

391. Reveille, Thomas, **The Spoil of Europe** (New York, W. W. Norton, 1941).

SECRET SERVICE & ESPIONAGE

392. Aburish, Said K., **Pay-Off : Wheeling and Dealing in the Arab World** (London, Andre Deutsch, 1986).

393. Andrew, Christopher, **Secret Service** (London, Heinemann, 1985).

394. ————, and David Dilks, eds., **The Missing Dimension** (Chicago, University of Illinois Press, 1984).

395. Ball, Desmond, **Pine Gap** (Sydney, Allen & Unwin, 1988).

396. ————, J. O. Langtry, and J. D. Stevenson, **Defend the North** (Sydney, George Allen and Unwin, 1985).

397. Brown, Anthony Cave, **Bodyguard of Lies** (New York, Bantam Books, 1976).

398. ————, "C" (New York, Macmillan, 1987).

399. Burrows, William E., **Deep Black** (New York, Random House, 1986).

400. Caroz Yaacov, **The Arab Secret Services** (London, Corgi Books, 1978).

401. Costello, John, **Mask of Treachery** (New York, William Morrow, 1988).

402. Coxsedge, Joan, Ken Coldicutt, and Gerry Harant, **Rooted in Secrecy** (Capp, Australia, Balwyn North, 1982).

403. Deacon, Richard, « **C** » : **A Biography of Sir Maurice Oldfield**. (London, McDonald, 1985).

404. ————, **A History of Russian Secret Service** (London Frederick Muller, 1972).

405. Donner, Frank J., The **Age of Surveillance** (New York, Alfred A Knopf, 1980).

406. Felix, Christopher, **A Short Course in the Secret War** (New York, Dell Publishing, 1988).

407. Garwood, Darrell, **Undercover : Thirty-five Years of CIA Deception** (New York, Grove Press, 1985).

408. Godson, Roy, **Intelligence Requirements for the 1980's** (Lexington, Mass., Lexington Books, 1986).

409. Halamka, John D., **Espionage in the Silicon Valley** (Berkeley, Cal., Sybex, 1984).

410. Henderson, Bernard R., **Pollard. The Spy's Story** (New York, Alpha Books, 1988).

411. Knightley, Phillip, **The Second Oldest Profession** (New York, A. W. Norton, 1986).

412. Laqueur, Walter, **A World of Secrets** (New York, Basic Books, 1985).

413. Levchenko, Stanislav, **On the Wrong Side** (Washington, D.C., Pergamon-Brassey's 1988).

414. Levite, Ariel, **Intelligence and Strategic Surprises** (New York, Columbia University Press, 1987).

415. Marenches, Count de, and Christine Ockrent, **The Evil Empire** (London Sidgwick and Jackson, 1986).
secret des princes).

416. Pacepa, Ion, **Red Horizons** (London, Hodder and Stoughton, Coronet Books, 1989).

417. Perrault, Gilles, **The Red Orchestra** (New York, Pocket Books, 1969).

418. Phillips, David Atlee, **Careers in Secret Operations** (Bethesida, Md., Stone Trail Press, 1984).

419. Pincher, Chapman, **Too Secret Too Long** (New York, St. Martin's Press, 1984).

420. Plate, Thomas, and Andrea Darvi, **Secret Police** (London, Robert Hale, 1981).

421. Prouty, Fletchrr L., **The Secret Team** (Englewood Cliffs, N.J., Prentice-Hall, 1973).

422. Richelson, Jeffrey **(American Espionage and the Soviet Target** (New York, Quill, 1987).

423. ————, **Foreign Intelligence Organizations** (Cambridge, Mass., Ballinger, 1985).

424. ————, **The U S. Intelligence Community** (Cambridge Mass, Ballinger, 1985).

425. Rositzke, Harry, **The KGB** (New York, Doubleday, 1981).

426. Seth, Ronald, **Secret Servants** (New York, Farrar, Straus and Cudahy, 1957).

427. Shevchenko, Arkady N., **Breaking with Moscow** (New York, Alfred A. Knoph, 1985).

428. Shultz, Richard H., and Roy **Godson, Dezinformatsia** (New York, Berkley Books, 1986).

429. Suvorov, Viktor, **Inside Soviet Military Intelligence** (New York, Berkley Books, 1984).

430. ————, **Inside the Aquarium : The Making of a Top Spy** (New York, Berkley Books, 1987).

431. Toohey, Brian, and William Pinwill, **Oyster** (Port Melbourne, Australia, William Heinemann, 1989).

432. Turner, Stansfilld **Secrecy and Democracy** (Boston, Houghton Mifflin, 1985).

433. West Nigel, **The Circus** (New York, Stein and Day, 1983).

434. ————, **Games of Intelligence** (London, Weidenfeld and Nicolson, 1989).

435. Woodward, Bob, **Veil** (New York, Simon and Schuster, 1987).

436. Wright, Peter, and Paul Greengrass, **Spycatcher** (New York, Viking Press, 1987).

KNOWLEDG & SOCIETY

437. Afanasyev, V., **Social Information and the Regulation of Social Development** (Moscow, Progress Publishers, 1978)..

438. Alisjahbana, S. Takdir, **Values As Integrating Forces in Personality, Society and Culture** (Kuala Lumpur, University of Malaya Press, 1966).

439. Attali Jacques **Noise (Minneapolis, Univeristy of Minnesota** Press, 1985).

440. Bacon, Francis, **A Selection of His Works** (Indianapolis, Bobbs-Merrill Educational Publishing, 1965).

441. Bok, Sissela, **Secrets** (New York, Vintage Books, 1984).

442. Cherry Kittredge, **Womansword** (Tokyo Kodansha International, 1989).

443. Cirlot J. E. **A Dictionary of Symbols** (New York, Philosophical Library ,1962).

444. Coser Lewis **A., Men of Ideas** (New York, Free Press, 1970).

445. Curtis James E., and John W. Petras, eds., **The Sociology of** Knowledge (New York, Praeger, 1970).

446. De Huszar, George B.. ed., **The Intellectuals** (Glencoe, III., Free Press of Glencoe, 1960).

447. Doi, Takeo, **The Anatomy of Dependence** (Tokyo, Kodansha International, 1985).

448. Duke, Benjamin, **The Japanese School** (New York, Praeger, 1986).

449. Ekman, Paul, **Telling Lies** (New York, W. W. Norton, 1985).

450. Everhart, Robert B., ed., **The Public School Monopoly** (Cambridge, Mass., Ballinger, 1982).

451. Feigenbaum, Edward: Pamela McCorduck and H. Penny Nil, **The Rise of The Expert compagny** (New York, Times Books, 1988).

452. Foster. Hal, **Postmodern Culture** (London, Pluto Press, 1985).

453. **Focault. Michel, Power, Truth, Strategy** (Sydney, Feral Publications, 1979).

454. Gardner, Howard, **The Mind's New Science** (New York, Basic Books, 1985).

455. Gouldner, Alvin W., **The Future of Intellectuals and the Rise of the New Class** (New York, Continuum Books, 1979).

456. Habermas, Jurgen, **Knowledge and Human Interests** (Boston, Beacon Press, 1968).

457. Hansen, Robert H., **The Why, What and How of Decision Support** (New York, AMA Management Briefing, 1984).

458. Hoffman, Lily M., **The Pilitics of Knowledge** (Albany, State University of New York Press, 1989).

459. Keren, Michael, **Ben Gurion and the Intellectuals** (Dekalb, Ill., Northern Illinois University Press, 1983).

460. Kindaichi, Haruhiko, **The The Japanese Language** (Rutland, Vt. Charles E. Tuttle, 1978).

461. Konrad, George, **Antipolitics** (New York, Harcourt Brace Jovanovich, 1984).

462. Konrad, George, and Ivan **Szelenyi, The Intellectuals on the Road to Class Power** (New York, Harcourt, Brace Jovanovich, 1976).

463. Kraemer, Kenneth L., et al., **Datawars** (New York, Columbia University Press, 1987)

464. Lakatos, Imre, and Alan Musgrave, eds., **Criticism and the Growth of Knowledge** (London, Cambridge University Press, 1979).

465. Lamberton, D.M. ed., **Economics of Information and knowledge** (Middlesex, U.K., Penguin Books, 1971).

466. Lyotard, **Jean-François, The Post-Modern Condition** (Minneapolis, University of Minnesota Press, 1984).

467. Machlup, Fritz, **Knowledge : I3ts Creation, Distribution,** and **Economic Significance**, Vol. I (Princeton, Princeton Press, 1980).

468. ————, **The Production and Distribution of Knowledge in the United States** (Princeton, Princeton University Press, 1962).

469. Noer, Deliar, **Culture, Philosophy and the Future** (Jakarta, P.T. Dian Rakyat, 1988).

470. Ohmae, Kenichi, **The Mind of the Strategist** (New York, Penguin, 1983).

471. Ong, Walter J., **Orality and Literacy** (London, Methuen, 1982).

472. ————, ed., **Knowledge and the Future of Man** (New York, Clarion Books, 1968).

473. Paulos, John Allen, **Innumeracy** (New York, Hill and Wang, 1988).

474. Popper, K. R., The **Open Society and Its Enemies,** Vol. I (London, Routledge and Kegan Paul, 1962).

475. Powers, Richard Gid, **Secrecy and Power : The Life of J. Edgar Hoover** (New York, Freee Press, 1987).

476. Scott, D. R., **The Cultural Significance of Accounting** (Columbia, Mo., Lucas Brothers, n.d.).

477. Singer, Kurt, **Mirror, Sword and Jewel** (Tokyo, Kodansha International, 1973).

478. Sowell, Thomas, **Knowledge and Decisions** (New York, Basic Books, 1980).

479. Strehlow T.G.H., **Songs of Central Australia** (Sydney, Angus and Robertson, 1971).

480. Swetz, Frank J., **Capitalism and Arithmetic** (La Salle, III., Open Court, 1987).

481. Taylor, Stanley, **Conceptions of Institutions and the Theory of** Knowledge (New Brunswick, N.J., Transaction, 1989).

482. Tefft, Stanton K., **Secrecy : A Cross Cultural Perspective** (New York, Human Sciences Press, 1980).

483. Van den Berg, Jan Hendrik, **Medical Power and Medical Ethics** (New York, W. W. Norton, 1978).

484. Whitehead, Alfred North, **The Function of Reason** (Boston, Bacon Press, 1958).

COMPUTERS & COMMUNICATIONS

485. Acco, Alain, and Edmond Zuchelli, **la Peste informatique** (Paris, Editions Plume, 1989).

486. Arnold, Erik, and Ken Guy, **Parallel Convergence : National Strategies in Information Technology** (London, Frances Pinter, 1986).

487. Ashby, W. Ross, **Design for a Brain** (London, Chapman and Hall, 1978).

488. Berlin, Isaiah, **Against the Current** (New York, Viking Press, 1955).

489. Berlo, David K., **The Process of Communication** (New York, Holt, Rinehart and Winston, 1960).

490. Cherry, Colin, **World Communication : Threat or Promise ?** (London, Wiley-Interscience, 1971).,

491. Civikly, Jean M., **Messages** (New York, Random House, 1974).

492. Duncan, Hugh Dalziel, **Communication and Social Order** (London, Oxford University Press, 1962).

493. Goodman, Danny, **The Complete Hyper Card Handbook** (New York, Bantam Books, 1987).,

494. Goulden, Joseph C., **Monopoly** (New York, Pocket Books, 1970).

495. Hemphill, Charles F., Jr., and Robert D. Hemphill, **Security Safeguards for the Computer** (New York, AMA Management Briefing, 1979).

496. Johnson, Douglass W., **Computer Ethics** (Elgin, III., Brethren Press, 1984).

497. Kaligo, Al, Lou Baumbach, and Joe Garzinsky, **Telecommunications Management : A Practical Approach** (New York, AMA Management Briefing, 1984).

498. Kitahara, Yasusada, **Information Network System** (London, Heinemann Educational Books, 1983).

499. Landau, Robert M., **Information Resources Management** (New York, AMA Management Briefing, 1980).

500. Levy, Steven, **Hackers** (New York, Dell, 1984).

501. Marchand, Marie. **The Minitel Saga** (Paris, Larousse, 1988). en française : **Minitel**).

502. McLuhan Marshall and Bruce R. Powers, **The Global Village** (New York, Oxford University Press, 1989).

503. Mortensen, C. David, **Communication** (New York, McGraw-Hill, 1972).

504. Pool, Ithiel de Sola, **Technologies of Freedom** (Cambridge, Mass., Belknap Press of Harvard University Press, 1983).

505. Poppel, Harvey L., and Bernard Goldstein, **Information Technology** (New York, McGraw-Hill, 1987).

506. Shannon, Claude, and Warren Weaver, **The Mathematical Theory of Communication** (Urbana, University of Illinois Press, 1949).

507. Smith, Alfred G., ed., **Communication and Culture** (New York, Holt, Rinehart and Winston, 1966).

508. Spacks, Patricia Meyer, **Gossip** (Chicago, University of Chicago Press, 1985).

509. Strassman, Paul A., **Information Payoff** (New York, Free Press, 1985).

510. Tarde, Gabriel, **On Communication and Social Influence** (Chicago, University of Chicago Press, 1969).

511. Wilcox, A. M., M. G. Sade, and P.A. Ramsdale, **Command Control and Communications** (New York, Brassey's Defense Publishers, 1983).

512. Wilmot, William W., and John R. Wenburg, **Communicational Involvement : Personal Perspectives** (New York, John Wiley and Sons, 1974).

513. Winograd, Terry, and Fernando Flores, **Understanding Computers and Congnition** (Reading Mass Addison-Wesley, 1986).

SCIENCE & TECHNOLOGY

514. Colombo, Unberto, et al., **Science and Technology Towards the XXI Century and Their Impact Upon Society** (Milan, The Pirelli Group, n.d.).

515. Drexler, K. Eric, **Engines of Creation** (New York, Another Press. 1986).

516. Driakhlov, Nikolai, **The Scientific and Technological Revolution: Its Rss. Design for a Brain** (London, Chapman and Hall, 1978).

517. Illich, Ivan, **Tools ffo Conviviality** (New York, Harper & Row, 1973).

518. Langone, John, **Superconductivity** : The New Alchemy (Chicago, Contemporary Books, 1989).

519. Melvern, Linda, David Hebditch, and Nick Anning, **Techno-Bandits** (Boston, Houghton Mifflin, 1984).

520. Mendelssohn, Kurt. **The Slcret of Western Domination** (New York, Praeger, 1976).

521. Murayama, Janet H., and H. Guford Stever, eds., **Globalization of Technology** (Washington, D.C., National Academy Press, 1988).

522. Nicolis, G., and I., Prigogine, **Self-Organization in Nonequilibrium System** (New Yirk, John Wiley and Sons, 1977).

523. Prigogine, Ilya, **From Being to Becoming** (San Francisco, W. H. Freeman, 1980).

524. ————, and Isabelle Stengers, **la Nouvelle Alliance** (Paris, Editions Gallimard, 1979).

525. ————, **Order Out of Chaos** (New York, Bantam Books, 1984).

526. Tuck Jay, **High-Tech Espionage** (London, Sidjwick and Jack son, 1986).

527. **The Scientific-Technological Revolution and the Contradictions of Capitalism**, International Thecrltical Conference, Moscow, May 21-23, 1979 (Moscow, Progress Publishers 1982).

HISTORY & BIOGRAPHY

528. Allen, Frederirk Lewis, **The Lords of Creation** (New York, Harper & Brcthers, 1935).

529. Attali, Jacques, **A Man of Influence : Sir Siegmund Warburg** 1902-1982) (Bethesda, Md., Adler & Adler, 1987).

530. Ayling, S. E., **Portraits of Power** (New York, Barnes and Noble, 1963).

531. Braudel, Fernand, **Afterthoughts on Material Civilization and Capitalism** (Baltimore, Johns Hopkins University Press, 1977).

532. ————, **Capitalism and Material Life 1400-1800** (New York, Harper Colophon Books, 1973).

533. ————, **The Mediterranean**, Vol. 1 (New York, Harper & Row, 1972).

534. ————, **The Mediterranean** Vol. II (New York, Harper & Row, 1972).

535. ————, **On History** (London, Weidenfeld and Nicolson, 1980).

536. ————, **The Structures of Everyday Life,** Vol. I (New York, Harper & Row, 1981).

537. Burke, John, **Duet in Diamond** (New York, G. P. Putnam's Sons, 1972).

538. Bury, J.P.T., ed., **The New Cambridge Modern History** (Cambridge, Cambridge University Press, 1971).

539. Cashman, Sean Dennis, **Amlrica in the Gilded Age** (New York, New York University Press, 1984).

540. Center for Medieval and Renaissance Studie, UCLA, **The Dawn of Modern Banking** (New Haven, Yale University Press, 1979).

541. Chernow, Ron, **The House of Morgan** (New York, Atlantic Monthly Press, 1990).

542. Cook, Don, **Charles de Gaulle** (New York, G. P. Putnam's Sons, 1983).

543. Cooper, A. Duff, **Talleyrand** (London, Cassell, 1987).

544. Corey, Lewis, **The House of Morgan** (New York, G. Howard Watt, 1983).

545. Crankshaw, Edward, The Fall of the House of Habsburg (New York, Penguin Books, 1983).

546. Crozier, Brian, **The Masters of Power** (Boston, Little, Brown, 1969).

547. Curtin, Philip D., **Cross-Cultural Trade in World History** (Cambridge, Cambridge University Press, 1984).

548. Custine, Marquis de, **Journey for Our Time : The Journals of the Marquis de Custine** (London George Prior, 1980).

549. Dodd, Alfred, **Francis Bacon's Personal Life-Story,** Vol. 1 (London, Rider, 1949).

550. ————, **Francis Bacon's Personal Life Story,** Vol. II, (London Rider, 1986).

551. Elias, Norbert, **Power and Civility** (New York, Pantheon Books, 1982).

552. Eyck, Erick, **Bismarck and the German Empire** (New York and London, W. W. Norton, 1950).

553. Febvre, Lucien, and Henri-Jean Martin, **The Coming of the Book** (London,, New Left Books, 1984).

554. Green, A. Wigfall, **Sir Francis Bacon** (Denver, Alan Swallow, 1952).

555. Hammer Armand, with Neil Lyndon, **Hammer** (New York, G. P. Putnam's Sons, 1987).

556. Hook, Sidney, **Out of Step** (New York, Carroll & Graf, 1987).

557. Isaacson, Walter, and Evan Thomas **The Wise Men** (New York, Simon and Schuster, 1986).

558. Johnson, Paul, **Intellectuals** (New York, Harper & Row, 1988).

559. Kapuscinski, Ryszard, **The Emperor** (New York, Harcourt Brace Jovanovich, 1983).

560. ————, **Shah of Shahs** (New York, Harcourt Brace Jovanovich, 1985).

561. Kennedy, Paul, **The Rise and Fall of the Great Powers** (New York, Random House, 1987).

562. Kerr, Clark, et al., **Industrialism and Industrial Man** (Harmondsworth, U.K., Penguin Books, 1973)

563. Kula, Witold, **An Economic Theory of the Feudal System** (London, NLB, 1976).

564. Lacouture, Jean, **The Demigods** (Nlw York, Alfred A. **Knopf**, 1970).

565. Markham, Felix, **Napoleon** (New York, Mentor Books, 1963).

566. Mazlish, Bruce, **James and John Stuart Mill** (New York, Basic Books, 1975).

567. McNeil, William H., **The Pursuit of Power** (Chicago, University of Chicago Press, 1982).

568. Mee, Charles L., Jr., **The End of Order** (New York, E. P. Dutton, 1980).

569. Metcalfe, Philip, **1933** (Sag Harbor, N.Y., Permanent Press, 1988).

570. Millar, Fergus, **The Emperor in the Roman World** (Ithaca, N. Y., Cornell University Press, 1977).

571. Myers, Gustavus, **History of the Great American Fortunes** (New York, Modern Library, 1937).

572. Nicholls, A. J., **Weimar and the Rise of Hiter** (London, Macmillan, 1979).

573. Nixon, Richard, **Leaders** (New York, Warner Books, 1982).

574. ————, **The Memoirs of Richard Nixon** (New York, Grosset and Dunlap, 1978).

575. Norwich, John Julius, **Venice : The Rise to Empire** (London, Allen Lane, 1977).

576. Nystrom, Anton, **Before During, and After 1914** (London, William Heinemann, 1915).

577. Schevill, Ferdinand, **A History of Europe** (New York, Harcourt Brace 1938).

578. Schlereth, Thomas J., **The Cosmopolitan Ideal in the Enlightenment Thought** (Notre Dame, Ind., University of Notre Dame Press, 1977).

579. Schmidt-Hauer, Christian, **Gorbatchev** (Topsfield, Mass., Salem House, 1986).

580. Seward, Desmond, **Napoleon and Hitler** (New York, Viking Press, 1988).

581. Stephenson, Carl, **Mediaeval Feudalism** (Ithaca, Cornell University Press, 1967).

582. Stern, J. P., **Hitler** (London Fontana/Collins, 1975).

583. Tapsell, R. F., **Monarchs, Rulers, Dynasties and Kingdoms of the World** (London, Thames and Hudson, 1983).

584. Thompson, E. P., **The Making of the English Working Class** (New York, Vintage Books, 1963).

585. Walker, James Blaine, **The Epic of American Industry** (New York, Harper & Brothers, 1949).

586. Ward, J. T., **The Factory System**, Vol. I (Newton Abbot, U.K., David and Charles 1970).

587. Weatherford, Jack, **Indian Givers**. (New York, Crown Books, 1988).

588. Wendt, Lloyd, and Herman Kogan, **Bet A Million !** **Indianapolis**, Boobs-Merrill, 1948).

589. Wheeler, George, **Pierpont Morgan and Friends** (Englewood Cliffs, N. J., Prentice Hall, 1973).

590. Wilson, Derek, **Rothschild : The Wealth and Power of a Dynasty** (New York, Charles Scribner's Sons, 1988).

591. Wilson, George M., **Radical Nationalist on Japan : Kita Ikki 1883-1937)** (Cambridge, Mass,, Harvard University Press, 1969).

592. Wittfogel, Karl A., **Oriental Despotism** (New Haven, Yale University Press, 1964).

اقرأ فى هـذه السـلسلة

احلام الاعلام وقصص أخرى	برتراند رسـل
الالكترونيات والحياة الحديثة	ى · رادونسكايا
نقطـة مقـابل نقطـة	الدس هكسـلى
الجغرافيا فى مائة عـام	ت · و · فريمـان
الثقـافة والمجتمـع	رايموند وليـامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)	ر · ج · فوربس
الأرض الغـامضة	ليسـترديل راى
الرواية الانجليـزية	والتـر ألـن
المرشـد الى فن المسرح	لويس فارجـاس
آلهـة مصر	فرانسوا دوماس
الانسان المصرى على الشـاشة	د· قدرى حفنى وآخرون
القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة	أولج فولـكف
الهوية القومية فى السينما العـربية	هاشـم النحـاس
مجمـوعات النقـود	ديفيـد وليـام ماكدوال
الموسيقى ـ تعبير نغمى ـ ومنطق	عـزيز الشـوان
عصر الرواية ـ مقال فى النوع الأدبى	د· محسن جاسم الموسـوى
ديـلان توماس	اشراف س · بى · كوكس
الانسـان ذلك الكائن الفـريد	جـون لويس
الرواية الحـديثة	جـول ويست
المسرح المصرى المعـاصر	د· عبد المعطى شعراوى
على محمـود طـه	أنـور المعـداوى
القـوة النفسـية للأهـرام	بيـل شـول وأدبنيت
فن الترجمـة	د· صـفاء خلوصى
تولسـتوى	رالف ئى ماتلـو
سـتندال	فيكتـور برومبير

رسائل وأحاديث من المنفى	فيكتور هوجو
الجزء والكل (محاورات فى مضمار الفيزياء الذرية)	فيرنز هيزنبرج
التراث الغامض ماركس والماركسيون	سدنى هوك
فن الأدب الروائى عند تولستوى	ف · ع أدنيكوف
ادب الأطفال	هادى نعمان الهيتى
أحمد حسن الزيات	د· نعمة رحيم العزاوى
اعلام العرب فى الكيمياء	د· فاضل أحمد الطائى
فكرة المسرح	جلال العشرى
الجحيم	هنرى باربوس
صنع القرار السياسى	السيد عليوة
التطور الحضارى للانسان	جاكوب برونوفسكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال	د· روجر ستروجان
تربية الدواجن	كاتى ثير
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	ا · سبنسر
النحل والطب	د· ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ـ ١٩١٤	د· لينوار تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د· جون شندلر
الصحافة	بيير البير
اثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن التشكيلى	د· غبريال وهبة
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها	د· رمسيس عوض
حركة عدم الانحياز في عالم متغير	د· محمد نعمان جلال
الفكر الأوربى الحديث (٤ ج)	فرانكلين ل · باومر
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥	شوكت الربيعى
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د· محيى الدين أحمد حسين

نظـريات الفيلم الكبرى	ج· دادلى أنـدرو
مختارات من الأدب القصصى	جـوزيف كونراد
الحياة فى الكون كيف نشأت واين توجد	د· جـوهان دورشـز
حــرب الفضـاء	طائفة من العلـماء الأمريكيين
ادارة الصراعات الدوليـة	د· السـيد عليـوة
الميـكروكمبيـوتر	د· مصـطفى عنـانى
مختارات من الأدب اليابانى	صـبرى الفضـل
الفكر الأوربى الحديث ٣ ج	فرانكلين ل · باومر
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة	جـابريل بايـر
اعلام الفلسفة السياسية المعـاصرة	انطـونى دى كرسـبنى
كتـابة السـيناريو للسـينما	دوايت سـوين
الزمن وقياسـه	زافيلسـكى ف · س
أجهـزة تكييف الهـواء	ابراهيم القرضـاوى
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	بيتـر رداى
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى	جوزيف داهمـوس
التجـربة اليـونانية	س · م بـورا
مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية	د· عاصم محمـد رزق
العـلم والطـلاب والمـدارس	رونالد د· سمبسـون
الشارع المصرى والفـكر	د· أنور عبـد الملك
حوار حول التنمية الاقتصادية	والت وتيمـان روسـتو
تبسـيط الكميـاء	فـريد س هيس
العـادات والتقاليد المصرية	جـون بوركهـارت
التـذوق السـينمائى	آلان كاسـبيار
التخطيط السـياحى	سـامى عبـد المعطى
البـذور الكونيـة	فـريد هـويل
	شـاندرا ويكـراما ماسينج
دراما الشاشة (٢ ج)	حسين حلمى المهندس
الهيـروبين والايدز	روى روبرتسـون
نجيب محفـوظ على الشـاشة	هاشـم النحـاس
صـور افريقيـة	دوركاس ماكلينتـوك

المخـدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتـــر لـوری
وظائف الأعضاء من الألف الى اليــاء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
الهندسة الوراثيـــة	ويليــام بينـــز
تربيـة أســماك الزينـة	ديفيــد الدرتون
الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)	جمعها : جـون ر · بورر وميلتون جـولد ينجـــر
الفكر التاريخى عنـد الاغريق	أرنولد توينبي
قضــايا وملامح الفن التشـكيلى	د· صـــالح رضـــا
التغذية فى البلدان النامية	م·هـ· كنج وآخـرون
بـداية بلا نهـــاية	جـورج جاموف
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	د· السيد طه أبو ســديرة
حــوار حــول النظــامين الرئيســيين للـــكون	جاليـــليو جاليليـــه
الارهـــاب	اريك موريس وآلان هـو
اخنـــاتون	ســـيريل الـدريد
القبيـلة الثــالثة عشرة	آرثر كيســـتلر
التـــوافق النفسى	توماس ا · هـــاريس
الدليـل الببليـــوجرافى	مجمـوعة من البــاحثين
لغـــة الصـــورة	روى أرمـــز
الثورة الاصـــلاحية فى اليابان	ناجـاى متشـيو
العــالم الثـالث غـــدا	بـــول هاريســـون
الانقراض الكبير	ميخائيل ألبى ، جيمس لفلوك
تاريخ النقـــود	فيكتـــور مورجـــان
التحليل والتوزيع الأوركســـترالى	اعداد محمد كمال اســماعيل
الحيـــاة الكريمة (٢ ج)	بيـــرتون بورتر
الشـــاهنامة (٢ ج)	الفــردوسى الطـــوسى
قيام الدولة العثمانية	محمد فؤاد كوبريلى
عن النقد السينمائى الأمريكى	ادوارد ميـــرى
ترانيم زرادشـت	اختيار / د· فيليب عطيـة
الســـينما العـــربية	اعداد / مونى براخ وآخـرون

دليـــل تنظيـم المتـاحف	آدامز فيـليب
ســقوط المطر وقصص اخـرى	نادين جورديمـر وآخرون
جماليـــات فن الاخـــراج	زيجمـونت هبنـر
التاريخ من شتى جوانبه (٣ ج)	ســـتيفن أوزمنت
الحملة الصـــليبية الأولى	جـوناثان ريـلى سـميث
التمثيـل للسـينما والتليفزيون	تـونى بـار
العثمـــانيون فى أوربا	بـول كولنــر
صـــناع الخـــلود	موريس بيـــر برايز
الكنائس القبطية القديمة فى مصر (٢ ج)	الفـــريد ج ٠ بتـــلر
رحـــلات فارتيمـا	رودريجـــو فارتيمـا
انهم يصـــنعون البشر (٢ ج)	نانس بكـــارد
فى النقد السـينمائى الفرنسى	اختيار/ د٠ رفيق الصـــبان
الســـينما الخيـــالية	بيتـــر نيكوللز
الســـلطة والفـــرد	برتداند راصـــل
الأزهـــر فى ألف عـــام	بينـــارد دودج
رواد الفلســـفة الحـــديثة	ريتشـــارد شـــاخت
ســـفر نامة	ناصر خسرو عـــلوى
مصر الرومانيـــة	نفتـــالى لـويس
كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر	جـــاك كرابس جونيــــور
الاتصال والهيمنة الثقـــافية	هـــربرت شـــيلر
مختارات من الآداب الآســـيوية	اختيار / صـــبرى الفضـــل
كتب غيرت الفكر الانسانى (٥ ج)	أحمـد محمـد الشـنوانى
الشموس المتفجرة	اسـحق عظيمـــوف
مدخـــل الى علم اللغـــة	لوريتـو تـود
حـــديث النهـــر	اعـداد/ سوريال عبـد الملك
من هم التتـــار	د٠ أبرار كريم الله
ماســـتريخت	اعداد/ جابر محمـد الجـزار
معـــالم تاريخ الانسانية (٤ ج)	هـ ٠ ج ٠ ولـــز
الحمـــلات الصـــليبية	ســـتيفن رانســـيمان
حضـــارة الاسلام	جوســـتاف جرونيبـــاوم

رحلة بيرتون (٣ ج)	ريتشارد ف · بيرتون
الحضارة الاسلامية	أدمز متز
الطفل (٣ ج)	ارنولد جزل
افريقيا الطريق الآخر	بادى اونيمود
السحر والعلم والدين	فيليب عطية
الكون ذلك المجهول	جلال عبد الفتاح
تكنولوجيا فن الزجاج	محمد زينهم
حرب المستقبل	مارتن فان كريفلد
الفلسفة الجوهرية	سونداری
الاعلام التطبيقى	فرانسيس ج · برجين
تبسيط المفاهيم الهندسية	ج · كارفيل
فن المايم والبانتومايم	توماس ليبهارت
تحول السلطة	الفين توفلر
التفكير المتجدد	ادوارد وبونو
السيناريو فى السينما الفرنسية	كريستيان سالين
فن الفرجة على الأفلام	جوزيف · م · بوجز
خفايا نظام النجم الأمريكى	بول وارن
بين تولستوى ودستويفسكى (٢ ج)	جورج ستاينر
ما هى الجيولوجيا	ويليام هـ · ماثيوز
الحمر والبيض والسود	جارى ب · ناش
انواع الفيلم الأميركى	ستالين جين سولومون
رحلة الأمير رودلف ٢ ج	عبد الرحمن الشيخ
تاريخ العلم والحضارة فى الصين	جوزيف يندهام
المرأة الفرعونية	كريستيان ديروش
نظرية التصوير	ليوناردو دافنشى

رقم الايداع بدار الكتب ٣٥٥٤ / ١٩٩٦

ISBN — 977 — 01 — 4734 — 6

هذا الكتاب خلاصة لنظريات توفلر عن المستقبليات في عصر تتالى فيه الأحداث بسرعة مذهلة وقد لمس توفلر في كتابه هذا جوهريات «الفكر المعلوماتي الجديد» وطرح نهجا في إستكشاف معالم ثورة المعلوماتية وقد جمع توفلر ما بين صفات المراقب المدقق للإنجازات العلمية والتكنولوجية وأيضا للتحولات الاجتماعية والاقتصادية الناجمة عنها وصفات المحلل القادر على إكتشاف أنماط جديدة مستمدة من دراسة هذه التحولات البالغة التعقيد والحداثة.

محمد سيد أحمد

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب